

لفضيلة الشيخ

علي عبد الخالق القرني

من روائع علي القرني

المجموعة الأولى

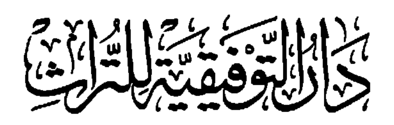
تأليف

فضيلة الشيخ

علي القرني

جمعه ورتبه وخرج أحاديثه

محمد بن علي جيلاني



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾

الكتاب: من روائع علي القرني - المجموعة الأولى

جمع وترتيب: محمد بن علي الجيلاني

الناشر: دار التوفيقية للتراث - القاهرة

رقم الإيداع: ٢٠١٠/٨٧٣٤

دار التوفيقية للتراث

---

١ درب الأتراك خلف الجامع الأزهر - القاهرة

تليفون: ٢٥١٠٥٦٦٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾ [النساء: ١].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد...

فيا أخي القارئ الكريم... هذه محاضرات ودروس الشيخ علي عبد الخالق القرني نهديها إليك وقد تم جمعها من تسجيلات الشيخ المسموعة في كتاب من جزأين، كل جزء يحتوي على مجموعة من المحاضرات، المجموعة الأولى وهي التي بين أيدينا الآن، أما المجموعة الثانية فسوف نقوم بطبعها قريبًا إن شاء الله، وذلك حتى يسهل على القارئ الحصول على محاضرات الشيخ جملة واحدة دون عناء ومشقة اللجوء إلى استماع أشرطة الكاسيت.

ولما كانت هذه المحاضرات تحتوي على دروس وعبر في مجالات كثيرة، فالشيخ - حفظه الله - تجده يتكلم عن العقيدة، والسيرة، والأدب، والبر، وفقه الواقع، وغيرها

الكثير، قمنا بتجهيزها وطباعتها لكي يسهل تداول تلك المحاضرات بين طلبة العلم في جميع أنحاء المعمورة.

أخي القارئ...

هنيئًا لك هذا السفر العظيم مع الشيخ الجليل، صاحب الأسلوب الأدبي البليغ الممتع، المؤدب، المربي، المعلم.

فإن محاضراته تصلح للخاصة والعامة، للكبير والصغير، للواعظ والخطيب، فجزى الله الشيخ علي القرني خير الجزاء، ونفع به وجعل ما قام به في ميزان حسناته، وكذلك كل مَن ساهم في إخراج وطبع ونشر هذا العمل. آمين..

وكتبه

أبو مريم محمد بن علي جيلاني

۞۞۞۞۞

ترجمة الشيخ علي القرني

اسمه :

علي بن عبد الخالق القرني. وهو داعية إسلامي كبير، وهو من أرض الحجاز بمكة لمكرمة (حي الهجرة).

عمله :

مدرس بالمعهد العلمي بمكة المكرمة.

من مناقبه:

- ❑ صاحب بلاغة وفصاحة وأدب وبيان.
- ❑ يجيد الشعر والإعراب.
- ❑ لا يحاضر إلا في مكة أو الطائف أو جدة.
- ❑ له هيبة ووقار في نفوس طلابه.
- ❑ صاحب عبرة ونفسٌ جياشة.
- ❑ يتكلم بالفصحى في كل وقت، وليس في محاضراته فقط.
- ❑ وهو غالبًا له في كل عام محاضرة.
- ❑ وهو يحج كل عام على قدميه.
- ❑ ولا يسمح لأحد بتصويره أبدًا.
- ❑ وهو يحضر دروس الشيخ العجلان والشيخ محمد مختار الشنقيطي.

له الكثير من الدروس والمحاضرات الرائعة منها

- نظرات في غزوة تبوك: اسألوا التاريخ .
٢- هكذا علمتني الحياة .
٣- مكانة المرأة في الإسلام .
٤- صفحات مطوية .
٥- جنة ونعيمها
٦- رقابة لمن ؟

٣٣- كل منا ممتحن .
٣٤- عقوق الوالدين .
٣٥- المواساة .
٣٦- رسالة إلى شاب .
٣٧- مواقف من الصدق .
٣٨- السماء والسماوة .
٣٩- الاختلاط وآثاره .
٤٠- حاجتنا إلى التمسك بالعقيدة .
٤١- جلسة تكريم .
٤٢- منشورات من أخبار العلماء .
٤٣- عوامل بناء النفس .
٤٤- حروف تجر الحتوف .
٤٥- في صحبة الأخيار .
٤٦- من أسباب تخلف المسلمين .
٤٧- يا باغي الخير أقبل .
٤٨- همسات للسَّراة .
٤٩- نفح الطيب في محبة الحبيب .
٥٠- شتان بين غريق وغريق .
٥١- مات عبد الرحمن .
٥٢- أرعد و أبرق .. ياسخيف .
٥٣- كلب ينتقم لرسول الله ويغضب !!! فأخبرني متى تغضب ؟
٥٤- إيماض البرق في شجاعة سيد الخلق .
٥٥- ابدأ من جديد .
٥٦- الإكليل .
٥١- الرضاب المعسول .

[١] صدقوا ما عاهدوا

الحث على دوام ذكر الله

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين.

ولا إله إلا الله، إله الأولين والآخرين، وقيُّوم السماوات والأرضين، ومالك يوم الدين، الذي لا فوز إلا في طاعته، ولا عِزَّ إلا في التذلل لعظمته، ولا غنى إلا في الافتقار لرحمته.

لا هدى إلا في الاستهداء بنوره، ولا حياة إلا في رضاه، ولا نعيم إلا في قُرْبِهِ، ولا صلاح ولا فلاح إلا في الإخلاص له وتوحيد حبه.

إذا أطيع شَكَر، وإذا عُصِيَ تاب وغَفَر، وإذا دُعِي أجاب، وإذا عُمِل له أثاب.

لا إله إلا هو سبحانه وبحمده! لا يُحصي عدد نعمته العادُّون، ولا يؤدِّي حق شكره الحامدون، ولا يَبلُغ مدى عظمته الواصفون: ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ ﴾ [البقرة: ١١٧].

اللهم لك الحمد مِلء السماوات والأرض؛ فكل الحمد لك، اللهم لك الشكر على نعم لا نحصيها؛ فكل الشكر لك، اللهم لك المتوبة والتذلل والخضوع فلا معبود غيرك.

الحمد لله شَهِدت له بالربوبية جميع مخلوقاته، وأقرت له بالألوهية جميع مصنوعاته، سبحانه وبحمده عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشه، ومداد كلماته.

ولا إله إلا الله وحده لا شريك له في ألوهيته كما أنه لا شريك له في ربوبيته، ولا شبيه له في ذاته ولا أفعاله ولا صفاته.

سبحانه سبحت له السماوات وأملاكها، والنجوم وأفلاكها، والأرض وسكانها، والبحار وحيتانها، والنجوم والجبال والشجر والدواب والآكام والرمال، وكل رطب ويابس، وكل حي وميت: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ [الإسراء: ٤٤].

أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، كلمة قامت بها الأرض والسماوات، وخلقت لأجلها جميع المخلوقات، وبها أرسل الله تعالى رسله، وأنزل كتبه، وشرَّع شرائعه؛ لأجلها نُصِبت الموازين، ووضعت الدواوين، وقام سوق الجنة والنار، وانقسم الخلائق إلى

مؤمنين وكفار، وأبرار وفجّار، عنها وعن حقوقها يكون السؤال والجواب، وعليها يقع الثواب والعقاب، عليها نصبت القِبْلة، وعليها أسّست الملة، ولأجلها جردت سيوف الجهاد، وهي حق الله على جميع العباد.

إنها كلمة الإسلام، ومفتاح دار السلام، لن تزول قدما عبد بين يدي الله حتى يسأل: ماذا كنتم تعبدون؟ وماذا أجبتم المرسلين؟

فلا إله إلا الله، شهادة حق وصدق أتولى بها الله ورسوله والذين آمنوا، وأتبرأ بها من الطواغيت والأنداد المعبودين ظلمًا وزورًا من دون الله.

وأشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله، أمينه على وحيه، وخيرته من خلقه، أشرف من وطئ الحصى بنعله، أرسله الله رحمة للعالمين، وإمامًا للمتقين، وحجَّة على الخلائق أجمعين.

بلَّغ الرسالة، وأدَّى الأمانة، ونصح الأمَّة، وجاهد في الله حق الجهاد، وقمع أهل الزيغ والفساد، فتح الله به أعينًا عميًا، وآذانًا صمًا، وقلوبًا غلفًا.

صلوات الله وسلامه عليه، وعلى أهل بيته الطيبين، وأصحابه المنتخبين، وخلفائه الراشدين، وأزواجه الطاهرات؛ أمهات المؤمنين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين: ﴿ يَتَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿ يَتَأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۞ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ۞ ﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أحبتي في الله

أسعد اللحظات في حياة العبد يوم يطرق مسامعه ذكر الله، يوم يطمئن قلبه بقول الله، وقول رسول الله ﷺ: ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨].

إن من نعمة الله علينا أن نجتمع على الخير والبر والذكر والتناصح.

فأسأل الله بأسمائه الحسنى، وصفاته العلى أن يجزيَ القائمين والمساهمين عليه وفيه أفضل ما يجزي عباده الصالحين، وأن يرزقنا شكر نعمته، وقد تأذن لمن شكر بالمزيد، وحيا الله هذه الوجوه، حيا الله وجوهًا أقبلت على الله فجعلت حياتها كلها لله.

وهنيئًا لها من قلوب تأرِز[1] إلى ذكر الله، فتسكن وتسعد بإذن الله.

---

(١) أرز: لجأ.

هنيئًا لأسماع امتلأت بذكر الله، فتلذذت بقول الله وقول رسول الله ﷺ .

هنيئًا لأبصار تنعَّمَت بمجالسة من يذكر الله.

هنيئًا لها من أقدام جعلت خطاها إلى ذكر الله.

هنيئًا لكم يوم يرجى لكم أن تنصرفوا مغفورًا لكم، قد بُدِّلت سيئاتكم حسنات بإذن ربكم.

هنيئًا لكم تُذكرون في ملأ خير من ملئكم، ملائكةٌ تحفُّ، ورحمة تغشى، وسكينة تتنزل.

فيا حسرة وندامة وخزي من لم تنعم عينه وجوارحه بذكر الله!

لَوْ يَعلَمُ العَبدُ مَا فِي الذِّكْرِ مِنْ شَرَفٍ ... أمْضَى الحياةَ بتسبيحٍ وتَهْليلِ

لَوْ يَعْلمُ النَّاسُ مَا في الشُّكْرِ مِنْ شَرَفٍ ... لَمْ يُلْهِهِم عَنْهُ تَجْمِيعُ الدَّنانيرِ

ولم يُبالُوا بأوراقٍ ولا ذهبٍ ... ولَو تجَمَّع آلافُ القناطيرِ

فأكْثِرْ ذِكرهُ في الأرضِ دأبًا ... لتُذْكر في السَّماءِ إذا ذَكَرتا

ونادِ إذا سجدتَ لَهُ اعْترافًا ... بما ناداهُ ذو النون بنُ متَّى

وسلْ منْ رَبِّك التوفِيقَ فيها ... وأخلصْ في السُّؤال إذا سألتا

ولازم بابه قرعًا عساهُ ... سيُفتحُ بابه لك إن قَرعتا

ونفسَك ذُمَّ لا تَذْمُمْ سِواها ... بعيبٍ فهْيَ أجدرُ منْ ذممْتا

فلو بكت الدما عيناك خوفًا ... لذنبكَ لَمْ أقُلْ لَكَ قَدْ أمِنْتا

وَمَنْ لَك بالأمانِ وأنتَ عبدٌ ... أُمِرْتَ فَمَا ائْتُمِرْتَ ولا أَطَعْتا

ثقُلتَ منَ الذُّنوبِ ولستَ تَخْشَى ... بجهلِكَ أن تَخِفَّ إذا وُزِنْتا

فلا تضحكْ مع السفهاءِ لهوًا ... فإنك سوفَ تَبْكِي إنْ ضَحِكْتا

ولا تَقُلِ الصِّبَا فيه مَجَالٌ ... وفكِّر كَمْ صبيٍّ قَدْ دَفَنْتا

تَفُتُّ فؤادَك الأيامُ فتًّا ... وتَنْحِتُ جِسمكَ السَّاعاتُ نَحْتا

وتدعوك المنونُ دعاءَ صدق ... ألا يا صَاحِ أنتَ أُريدُ أنتا

أحبتي في الله

أوصيكم جميعًا ونفسي بتقوى الله، وأن نقدِّم لأنفسنا أعمالًا تبيض وجوهنا يوم نلقى نه: ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝ ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩]، ﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ۝ ﴾ [النساء: ٤٢]. ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا ﴾ [النحل: ١١١].

يقول أبو الدرداء - رضي الله عنه وأرضاه- : «ما تصدق متصدق بأفضل من موعظة يعظ بها الرجل قومًا، فيقومون وقد نفعهم الله عز وجل بها» .

والكلمة الطيبة صدقة: كما أخبر بذلك المصطفى ﷺ[1]

وللكلمة الطيبة ملامح، أرجو الله أن تتوفر في هذه الكلمة تلك الملامح؛ لتتغلغل إلى جوانح، فتظهر على الجوارح.

فالكلمة الطيبة مِعْطَاءٌ جميلة رقيقة لا تؤذي المشاعر، ولا تخدش النفوس.

جميلة اللفظ، جميلة المعنى، رقيقة المبنى، رقيقة المعنى، يشتاق لها السامع فيطرب يخشى ويسعى.

طيبة الثمر، نتاجها مفيد، غايتها بنَّاءة، منفعتها واضحة، أصلها ثابت مستمد من النبع صافي؛ من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وتمتد شامخة بفرعها إلى السماء؛ لأنها نقية، صادرة -بإذن الله- عن صدق نية، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها، يسمعها السامع فينتفع . وينقلها لغيره فينتفع، حتى إنه لينتفع بها الفئام من الناس، ويمتد النفع إلى ما شاء الله، صاحبها لا يعلم مداها؛ فتبقى ذخرًا له بعد الممات، ورصيدًا له في الحياة.

كلمة من رضوان الله يكتب الله بها الرضوان للعبد إلى أن يلقى الله.

أسأل الله أن يجعل هذه الكلمات من الباقيات الصالحات، وأن ينفعني بها ومن رام انتفاع بها من إخواني، وأن يجعلها من الأعمال التي لا ينقطع عني نفعها بعد أن أدرج في كفني، وأن يجعلها للجميع ذخرًا في يوم الحسرات على ضياع الأوقات في غير الطاعات،

---

(1) متفق عليه: البخاري (٢٨٢٧)، ومسلم (٢٣٨٢)، وذلك لقول الرسول ﷺ: «كل سلامي من ناس عليه صدقة كل يوم تطلع فيه الشمس يعدل بين الاثنين صدقة ويعين الرجل على دابته فيحمل عليها أو يرفع عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وكل خطوة يخطوها إلى الصلاة صدقة، ويميط الأذى عن الطريق صدقة».

يوم يوقف العبد بشحمه ولحمه ودمه وعصبه وشعره وأظفاره يعرض على الله، لا يخفى منه خافٍ، الجسد مكشوف، والضمير مكشوف، والقلب مكشوف، والصحيفة مكشوفة، والتاريخ مكشوف: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ [الحاقة: ١٨].

أما بعد:

قدوتنا جيل رباه النبي ﷺ

أيها المؤمنون...

إن لكل مجتمع رموزًا وقادة يمثلون قِيَمَهُ، ويوجهون الأمة، ويُقَوون الهِمَّة؛ ليصعدوا بالناس إلى القمة.

ورموز المجتمع الإسلامي هم صحابة رسول الله ﷺ ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وأفضلهم أهل السابقة؛ مَنْ محَّصتهم الفتنُ، ونقَّتهم المحن، من امتُحنوا بالنفس والنفيس، فاسترخَصُوا كل شئ من أجل رفع راية التوحيد؛ رضي الله عنهم، ورحمهم، وأخرج في الأمة من أمثالهم.

إن المتملي والمتأمل لواقع أمتنا اليوم يجدها تكاد تفتقر إلى القدوات، وينقصها المثال؛ ولذلك فتحت باب استيراد القدوات من خارج الحدود، فتنكرتْ لتاريخِها، وتَعَاظَمَ سُخْفُهَا وجهلها بسلفها وقدواتها، وتناقص عنصر الخير فيها بمرور الأيام، وخفتت قوةُ الضوء فيها؛ لأنها ابتعدت عن مصدر الضوء، وعن مركز الإشعاع فيها.

إذا تمـــثلَ ماضِـــينا لحاضِـــرنا ... تكـــادُ أكـــبادُنا بالغَـــيْظِ تنفطِـــرُ

ولذا كان لابد للأمة أن ترجع لتاريخها، لا للتسلية، ولا لقتل الفراغ، ولا لاجترار الماضي، ولا للافتخار بالآباء فحسب، بل لنتعظ ونعتبر ونتشبه، ونعرف ذلك الجدول الفياض الذي نَهَل منه أسلافنا؛ لنعُبَّ منه كما عبُّوا، لنعلم ماذا فعلوا، لنقتدي بهم فيما فعلوا، لنعلم كيف وصلوا، لنصل كما وصلوا.

ما أحوجنا إلى أن نترسَّم خطاهم، ونتلمَّس العزَّة في طريقهم، ونسير على هداهم: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ ۖ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام: ٩٠] .

غابت شخوصهم، فلنسمع ولْنَعِ أخبارهم؛ فلعل ذاك يقوم مقام رؤيتهم على حد قول القائل:

فاتَنِـــي أَنْ أَرَى الــديارَ بطَـــرْفِي فَلَعَلِّـــي أعِـــي الـــدِّيَارَ بـــسَمْعِي[(١)]

لهذا كله كانت هذه الكلمات التي عنونتها بهذا العنوان: «صدقوا ما عاهدوا»؛ لتحكي لكم حياة جيل لا كالأجيال، وأبطال لا كالأبطال، ورجال لا كالرجال.

رجال جاءتهم دعوة الحق فما ترددوا، وما كَبَوا، وما تلكئوا، وآمنوا بها وصدقتها قلوبهم، واستيقنتها أنفسهم، فما كان قولهم يوم أن دُعوا إلى الله ورسوله إلا أن قالوا: سمعنا وأطعنا: ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ﴾ [آل عمران: ١٩٣] .

وضعوا أيديهم في يدي رسول الله ﷺ ، وهان عليهم بعد ذلك أبناؤهم ونفوسهم وأموالهم وعشيرتهم؛ إذ علموا أن طريق الجنة صعب، محفوف بالمكاره، لكن آخره السعادة الدائمة فسلكوه، وعلموا أن طريق النار سهل محفوف بالشهوات لكن آخره الشقاوة الدائمة فاجتنبوه.

رجال وأي رجال؛ ﴿ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَـٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَـٰرُ ﴿٣٧﴾ ﴾ [النور: ٣٧] في السِّلم هداة مصلحون، عالمون عاملون، وفي الحرب مؤمنون محتسبون، مجاهدون ثابتون، عبَّاد ليل، وأُسْدِ نهار، حملوا السلاح في الميدان، وعلقوا القلوب وملئوها بالقرآن، قاوموا الشهوات، وقاوموا أهل العداوات، سيَّان الشيوخ منهم والشباب والشابات.

القارئـــونَ كِـــتَابَ اللهِ فِـــي رَهِـــبٍ والـــواردونَ حِـــيَاضَ المَـــوْتِ فِـــي رَغَـــبٍ

منحوا الحياة جمالًا، ومعنى ومغزى في جميل مبنى:

كـــيفَ الحـــياةُ إذا خلَـــتْ مـــنهم ظواهـــر أو بطـــاح

أيـــن الأعـــزةُ والأَسِـــنَّةُ عـــند ذلـــك والـــسَّماحُ

وقفة أقفها معكم إزاء هذه الصفوة المختارة ممن صدقوا ما عاهدوا، ما هي إلا قطوف من أشجار، وقطرات من بحار، ورحلة في أكثر من أربعة عشر قرنًا في بساتين الصادقين اليانعة؛ للوقوف على ثمار مجتناة، وزهور منتقاة، وإني لأستغفر الله، ثم أستغفر الله، ثم

---

(١) انظر «الوافي بالوفيات» (١ / ٨٥)، و«مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» (١ / ٣٣)، و«نفح الطيب» (٦/ ٢٨٥).

أستغفر الله من وصف حال أولئك مع ضعف الاتصاف مني بصفاتهم، بل -والله- ما شممنا رائحتهم، ولكنها محبة القوم تحملنا على التعرف على منزلتهم، وقراءة سيرهم، وإن لم نلحق، فعسى همَّة منا أن تنهض إلى التشبث بساقة القوم ولو من بعيد: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ ﴾ [يوسف: ١١١]، ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝ ﴾ [الذاريات: ٥٥].

اللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلًا، وأنت تجعل الحزن إذا شئت سهلًا .

مواقف من تربية النبي ﷺ

صدقوا ما عاهدوا من خلال تربية المصطفى ﷺ، صار كل صحابي أمَّة وحده، فما من صحابي إلا وله سمة معينة، وموقف خاص، منهم من أشار واقترح، ومنهم من أوضح وشرح، ومنهم من أضاف واستدرك، وكل ذلك فيما يخدم الدعوة إلى الله جل وعلا.

فسلمان يستفيد من خلفيَّته الحضارية الفارسية المادية ليخدم هذا الدين؛ فيقترح يوم تحزّب الأحزاب على رسول الله ﷺ حفر الخندق ، وأَنْعِمْ به من اقتراح.

والخباب يقترح الوقوف في غزوة بدر على الماء، فيشرب المسلمون ويحرم المشركون.

ويوم يُعاد أبو جندل وهو يستنجد بالمسلمين ويقول: يا معشر المسلمين! أتردوني إلى أهل الشرك فيفتنوني عن ديني، ورسول الله ﷺ يسليه ويعزيه ويقول: «**اصبر واحتسب؛ فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجًا ومخرجًا**» .

وإذا بعمر -وما عمر ؟! عجزت نساء الأرض أن ينجبن مثلك يا عمر - ينفعل مع الموقف، ويمشي بجوار أبي جندل ويقرب سيفه من أبي جندل ؛ طمعًا في أن يستله ليقتل أباه دون مؤاخذة على بنود صلح الحديبية ، لكن أبا جندل لم يفعل؛ فأعيد[(١)]

وانظر إلى الصديق ، وما الصديق ؟!

يوم يتولى الخلافة، فترتد بعض قبائل العرب بموت رسول الله ﷺ حتى لم تكن الجمعة تقام إلا في بعض الأمصار؛ كـ «مكة و المدينة»، فيقوم لله قومة صادق مخلص؛ ليؤدب المرتدين، وينفذ جيش أسامة ، وفي أقل من سنتين إذا بجيوشه ترابط على أبواب أعظم إمبراطوريتين في ذلك الوقت؛ ألا وهي فارس والروم، شعاره: «ولو خالفتني يميني

(١) انظر «السيرة النبوية» لابن كثير (٣/ ٣٢٢).

لجاهدتها بشمالي» .

شعاره شعار رسول الله ﷺ يوم يقول: «لأقاتلنكم حتى تنفرد سالفتي» (١)

و أبو بصير ، ما أبو بصير؟! يخطط لحرب عصابات بعيدة عن بنود صلح الحديبية، إذ جاء مسلمًا فارًّا بدينه من قريش إلى المدينة بعد صلح الحديبية ، وبعد توقيع المعاهدة.

فأرسلت قريش في طلبه رجلين، فسلمه رسول الله ﷺ -وفاءً بالعهد- إليهم، وفي الطريق تمكَّن أبو بصير بشجاعته وحكمته وذكائه من قتل أحد الرجلين، ويفر الثاني، ويرجع هو إلى النبي ﷺ ويقول: «قد -والله- أوفى الله ذمتك يا رسول الله! فلقد رددتني إليهم، ثم نجاني الله منهم، فقال النبي ﷺ -كما في البخاري«**ويل أمّه**(٢)؛ **مسعر حرب**(٣) **لو كان معه أحد**» (٤)

فلما سمع ذلك عرف أنه سيرده عليهم، فخرج حتى أتى سيف البحر ، واستقر به المقام هناك، وفهم المستضعفون من عبارة الرسول ﷺ -وكانوا أذكياء- أن أبا بصير في حاجة إلى الرجال، فأخذوا يفرون من مكة إلى أبي بصير ، وكان على رأسهم أبو جندل ، جاء الفرج والمخرج كما أخبر بذلك النبي ﷺ

اجتمع منهم عصابة يتعرضون لقوافل قريش، فيقتلون حراسها، ويأخذون أموالها، وتضطر عندها قريش مرغمة ذليلة راكعة أن ترسل إلى النبي ﷺ تناشده الله والرحم أن يرسل إلى أبي بصير ومن معه؛ فمن أتاه فهو آمن.

تنازلت عن هذا الشرط تحت ضغط العصابة المؤمنة كأبي بصير و أبي جندل ، فأرسل النبي ﷺ إليهم و أبو بصير في مرض الموت، فمات وكتاب رسول الله ﷺ بين يديه، وقدم أصحابه على رسول الله ﷺ آمنين سالمين غانمين قد جعلوا من أنفسهم أنموذجًا يُقتدى به في الثبات، والإخلاص، والعزيمة، والجهاد، وتمريغ أنوف المشركين، والذكاء، وبذل الجهد في نصرة هذا الدين، حتى قرروا مبدأ من المبادئ؛ ألا وهو: (قد يسع الفرد مالا يسع الجماعة).

---

(١) صحيح : البخاري (٢٥٨١).

(٢) ويل أمه : الويل: العذاب، وهي كلمة أصلها دعاء عليه، ولكنها استعملت هنا للتعجب من عمله.

(٣) مسعر حرب : محرك لها وموقد لنارها، والمسعر في الأصل: العود الذي تحرك به النار.

(٤) صحيح البخاري (٢٥٨١)، باب الشروط في الجهاد.

كل ذلك في حكمة، وأي حكمة! إذ كان ذلك بإشارة من النبي ﷺ، وتشجيع من النبي ﷺ يوم وصف أبا بصير بأنه «**مسعر حرب لو كان معه رجال**»، ثم إن أبا بصير خارج عن السلطة، ولو في ظاهر الحال، فلا مؤاخذة على بنود المعاهدة: ﴿ **وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا** ﴾ [البقرة: ٢٦٩].

وهذا **خالد بن الوليد** يستلم الراية يوم مؤتة -يوم سقط القوَّاد الثلاثة- بلا تأمير فرضي الله عن الجميع.

وفي القادسية تنفر خيل المسلمين من الفِيَلة، فيعمد صحابي ليصنع فيلًا من طين، ويؤنس ويؤلف فرسه به حتى يألفه، فلما أصبح لم ينفر فرسه من الفيلة، فحمل على الفيل الذي كان يقدم الفيلة، فقيل له: إنه قاتلك، قال: لا ضير أن أقتل ويفتح الله على المسلمين[1]

ما كانوا يعيشون لأنفسهم، لكن يعيشون لدينهم، ويعيشون لعقيدتهم.

وهذا **عبد الرحمن بن عوف** يصفق بالأسواق حتى لا يكون عالة على غيره:

مَضَوْا في الدُّنَا شرقًا فأسلمَ فُرسُها وساروا بها غربًا فسلَمَ رُومُها

زيد يجمع القرآن، و ابن عمر يدوِّن الحديث، و ابن عباس يخرج إلى الأسواق ليسلم على الناس، ويذكرهم برب الناس.

ويتحاور ويتناقش سلمان و أبو الدرداء حول قيام الليل، وحقوق العيال.

تسابق إلى الخيرات، عزيمة في الأداء، إيجابية في العمل دون النظر لما يقوله الآخرون، أو حب لشهرة يراها المسلمون.

عوامل صدق الصحابة مع الله

علموا أن الإيجابية إعذار إلى الله من التقصير، فأدوا واجبهم قدر الإمكان، ولم ينتظروا النتائج، على مبدأ:

فعلي بذرُ الحبِّ لا قَطْفُ الجَنَى والله للساعين خيرُ مُعين

(١) انظر «تفسير القرطبي» (٢/ ٣٦٤).

علموا أن التكليف فردي، وكل سيحاسب يوم القيامة فردًا: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ [الأنعام: ١٦٤]، ﴿ كُلُّ ٱمْرِيٍٕ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ [الطور: ٢١]، ﴿ فَقَـٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ﴾ [النساء: ٨٤] فكان كل فرد منهم أمة؛ يوم تربوا على منهج المصطفى ﷺ فصدقوا ما عاهدوا

معاصرتهم نزول الوحيين

صدقوا ما عاهدوا: وكيف لا يصدقون وقد عاصروا نزول الوحيين، وتلقوا التربية من القدوة المطلقة -صلوات الله وسلامه عليه ورضي الله عنهم أجمعين- يوم بعثه الله بمكة ، فأخرج العباد من الظلمات إلى النور بإذن ربه، يوم أخرجهم من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام؟!

رأوه وهو يقف على الصفا وحيدًا فريدًا قد اجتمعوا حوله وهو يقول: «**إني نذير لكم بين يدي عذاب شديد**»، «**قولوا: لا إله إلا الله تفلحوا**» فأعرضوا وأصروا واستكبروا استكبارًا، وقال عمه: تبًّا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟[1] فتبت يداه، ثم تبت يداه.

لم يتراجع رسول الله ﷺ ولم ييئس، وما كان له ذلك؛ لأنه يعلم أنه على الحق، ويستمر عشر سنين يتبع الناس في منازلهم، في عكاظ ومجنة في المواسم، يقول: من يؤويني؟ من ينصرني حتى أبلِّغ رسالة ربي وله الجنة؟

فلا يؤويه ولا ينصره أحد، حتى إن الرجل ليخرج من اليمن أو من مضر، فيأتيه قومه، فيحذرونه غلام قريش لا يفتنه[2]

حرب إعلامية ضخمة في الصد عن سبيل الله تمارس ضد الدعوة إلى الله في كل زمان ومكان:

والسرُّ باقٍ والزمانُ مجددٌ والسيفُ ما فَقَدَ المضاءَ وما نَبَا

معاصرتهم لحن النبي ﷺ

كيف لا يصدقون وقد عاصروا رسول الله ﷺ وما معه إلا نفر قليل؛ خمسة أعبد

(١) **متفق عليه**: البخاري (٤٤٩٢)، (٤٦٨٧) باب سورة المسد، ومسلم (٥٢٩) دون قوله: «قولوا لا إله إلا الله تفلحوا»، فقد وردت في مناسبة أخرى.
(٢) **صحيح**: أخرجه أحمد ، (١٤٤٩٤) (١٤٤٩٦)، والألباني في «الصحيحة» (٦٣) وصححه.

وامرأتان فلم يهن ولم يضعف ولم يستكن، وما كان له ذلك صلوات الله وسلامه عليه، بل جاهد وجالد حتى كثر أصحابه وأوذى كما أوذوا في سبيل الله؛ فما ضعفوا وما وهنوا وما استكانوا، بل صابروا، وهاجروا فرارًا بدينهم هجرتين: إلى الحبشة ثم إلى المدينة رضوان الله عليهم أجمعين.

عاصروا وعايشوا رسول الله ﷺ فكانوا له الأعوان والأنصار، آووه وصدقوه ونصروه، واتبعوا النور الذي أنزل معه.

عاصروا محنة الهجرة بقسوتها وشدتها عليهم؛ كيف وهم يرونهم يفقدون أوطانهم وأهاليهم -مرابع الطفولة وحياتهم كلها- ويرون فوق ذلك قائدهم ورسولهم ﷺ يقف أمامهم يخاطب مكة بـ الحزورة قائلًا: «**والله! إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إليّ، ولولا أني أُخْرِجت ما خرجت**» (١)

دموعه تهطل على لحيته ﷺ ؛ فيا لها من قلوب احترقت وهي ترى نبيها على ذلك الحال! ويا لها من قلوب غلبت مصلحة العقيدة ومتطلبات الدعوة على هوى النفس وشهواتها! فما النتيجة؟

أمضى الله لها هجرتها، ولم يردها على أعقابها.

معايشتهم لجهاد النبي ﷺ ومشاركتهم فيه

كيف لا يصدقون وقد عاصروا وعايشوا وشاركوا في الصراع بين الحق والباطل، فكانوا ضمن ثلاثمائة وبضعة عشر رجلًا في بدر يقولون: ربنا الله، يقابلون ألفًا يكفرون بالله قد خرجوا بطرًا ورئاء الناس، فنصر الله القلة على الكثرة، فيعلو الحق، ويسكنُ الباطل كما قضى الله؟!

مـا كـبروا الله حتَّـى كـلُّ ناحـيةٍ ... ردَّت ورجَّـعَ في تكـبيرها الـنغمُ

تجاوبـتْ بالـصدى الأرجـاءُ صـائحةً ... فالـريح تـصرخ والقـيعانُ والأكـمُ

كيف لا يصدقون، وقد عايشوا تجمع الأحزاب من قريظة وقريش، وخذلان أهل النفاق، وتسللهم من الصف مدعين أن بيوتهم عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فرارًا، جاءوا من فوقهم ومن أسفل منهم، وبلغت القلوب الحناجر وظنوا بالله الظنونا، ونصر

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٣٩٢٥)، وأحمد (١٨٧٣٧، ١٨٧٣٨)، والألباني في «المشكاة» (٢٧٢٥).

الله جنده بعد ذلك بجندي من جنوده؛ ألا وهو الريح: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ [المدثر: ٣١]؟!

كيف لا يصدقون وقد عاصروا صلح الحديبية ، وقد بلغوا ألفًا وأربعمائة وأكثر من ذلك، فكتب الله لهم الرضوان في بيعة الرضوان كما سطر ذلك القرآن: ﴿ لَّقَدْ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ ﴾ [الفتح: ١٨] .

كيف لا يصدقون وقد كانوا جند رسول الله ﷺ وهم من ضمن عشرة آلاف؛ منهم من أخرج من دياره بغير حق إلا أن قال: ربيَ الله، وإذ بنصر الله يتنزل، فإذا هم عائدون إلى مكة التي أخرجوا منها فاتحين، قائدهم رسول الله ﷺ خاشعًا شاكرًا لأنعم الله، يقرأ سورة الفتح وهو على راحلته، يطوف بالكعبة، ويستلم الركن بمحجنه كراهة أن يزاحم الطائفين، ثم يحطم الأصنام ويطهر البيت الحرام، ويجيء الحق، ويزهق الباطل، والباطل زهوق كما قضى الله وقدر الله.

وإذ بالذين أخرجوه نكست رءوسهم، خاضعين، أذلة، راكعين، وهو يقول لهم: ما تظنون أني فاعل بكم؟ فقاموا يتملقونه وقد كانوا يؤذونه، يقولون: أخ كريم وابن أخ كريم، فكان كريمًا، والكرم من طبعه وخلقه ﷺ قال: «اذهبوا فأنتم الطلقاء» (١)

يـا ربِّ صـلِّ علـى المختـارِ مـا ضـحكتْ زواهـــرُ الـــرَّوضِ للأنـــداء والـــدِيَم

كيف لا يصدقون، وهم ضمن ثلاثين ألفًا يقودهم رسول الله ﷺ إلى تبوك ليؤدب الروم في شمال الجزيرة العربية ، وكان له ذلك؟!

كيف لا يصدقون، وهم يرون من كانوا ثلاثة أصبحوا مائة ألف، ورسول الله ﷺ في ذلك الموضع الذي أهين فيه، على الصفا يكبر ويقول: «خذوا عني مناسككم» (٢) في حجة الوداع، فيكبر وراءه مائة ألف قد شخصت الأبصار إليه؛ لتعرف نسكها منه ﷺ، عندها يعلم الجميع في ذلك الوقت وفي هذا الوقت أن العاقبة للمتقين؟!

فليصدق الذين عاهدوا، فالعِبْرَة ليست بكثرة عدد، فمن ثلاثة إلى خمسة، إلى ثلاثمائة،

---

(١) ضعيف: أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (٩/ ١١٨)، والألباني في «فقه السيرة» (١ / ٣٨٢)، وفي «السلسلة الضعيفة» (١١٦٣).

(٢) صحيح: مسلم (٣١٩٧) بلفظ «لتأخذوا مناسككم».

إلى ألف وأربعمائة، إلى عشرة آلاف، إلى ثلاثين ألفًا، إلى مائة ألف؛ ما قاتل رسول الله ﷺ عدوًا بعدد، وإنما قاتلهم بما هو أقل من عددهم، لكنها حكمة الله الربانية التي جعلت نقباء الفضل في الناس هم الأقل، كما جعلت الصقر بين الطير هو الأقل: ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه

صدقوا ما عاهدوا: صدقوا الله في تلقيهم للقرآن، فتلألأت كلمات القرآن على شفاههم كما تتلألأ الكواكب في صفحات السماء، ملئوا الجوانح بكلام الله؛ فظهر أثر ذلك على الجوارح.

رتَّلوا القرآن ترتيلًا ينمُّ عن التأثر بما يَتْلُونَ، وعلى وعي وحسن فَهْم لما يقرءون، تلذذوا بقراءة القرآن، تعلموه وعلموه، وجعلوه خلقهم، فما من آية تنزل إلا ويرون أنهم المعنيون بها دون غيرهم، ما سمعوا: (يا أيها الذين آمنوا) إلا أصغوا بآذانهم يتلقون ما يؤمرون به؛ ليعملوا به، وما ينهون عنه لينتهوا عنه، فشرح الله صدورهم للإيمان بالقرآن، وأعلى قدرهم، ورفع ذكرهم ودرجتهم.

وقفة مع ثابت بن قيس

يأتي أحدهم رسول الله ﷺ ذات يوم هلعًا، فزعًا، جزعًا، ترتعد فرائصه، فيقال له: ما بك؟

قال: أخشى أن أكون هلكت يا رسول الله! قال ﷺ: ولِمَ؟

قال: لقد نهانا الله أن نحب أن نحمد بما لم نفعل، وأجدني أحب الحمد، ونهانا عن الخيلاء، وأراني أحب الزهو.

فمازال ﷺ يهدئ من روعه حتى قال: «**يا ثابت بن قيس! ألا ترضى أن تعيش حميدًا، وتقتل شهيدًا، وتدخل الجنة**»[١]، فتبرق أسارير وجهه ويقول: بلى. بلى يا رسول الله! فيقول ﷺ: «**إن لك ذلك فلا تسل عن حالك**»[٢]

---

(١) ضعيف: أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٣١١)، وفي «الأوسط» (٢٢٤٣)، و«كنز العمال» (١١/ ٦٥٩)، والألباني في «الضعيفة» (٦٣٩٨).

(٢) لم أجده بهذا اللفظ.

ثم تتنزل آية الحجرات: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ [الحجرات: ٢]، وكان رجلًا جهوري الصوت، يلازم رسول الله ﷺ ولا يفارقه، عندها يلزم بيته ولا يكاد يخرج إلا لأداء المكتوبة، فافتقده النبي ﷺ فقال: «**من يأتيني بخبر ثابت**»، فقال رجل من الأنصار: أنا يا رسول الله!

فانطلق هذا الأنصاري فجاء إليه فإذا هو في بيته منكّس الرأس، فقال: ما بك يا أبا محمد؟ قال: شر والله! قال: وما ذاك؟ قال: تعلم أني رجل جهوري الصوت، وكثيرًا ما يعلو صوتي صوت رسول الله ﷺ وقد علمت ما نزل في كتاب الله، والله! ما أحسبني إلا حبط عملي، وأني من أهل النار. فيرجع الرجل إلى النبي ﷺ ويقول: يا رسول الله! كان من أمره كذا وكذا، ويقول: كذا وكذا. قال: ارجع إليه فقل له: «**لست من أهل النار، أنت من أهل الجنة يا ثابت**»[(١)]، فيأتي إليه ليخبره، فلا تسل عن المبشِّر، ولا تسل عن المبشَّر، ولا تسل عن الحال، حال وأي حال.

وإذا به ينتظر تلك البشارة طوال حياته، يجاهد لله، ويجالد لله، وينطلق من معركة إلى معركة، إلى أن يصاب بموت رسول الله ﷺ كما أصيب المسلمون؛ ويرتد العرب؛ فيكون في جند من يردون المرتدين إلى الواحد القهار.

جاء في المعركة، ورأى انخذال المسلمين، ورأى جرأة العدو، تحنط وتكفَّن ووقف على رءوس المسلمين يقول: «يا معشر المسلمين! والله ما هكذا كنا نقاتل مع رسول الله ﷺ، بئس ما عوَّدتم عدوكم من الجرأة عليكم، وبئس ما عودتم أنفسكم من الانخذال لعدوكم. اللهم إني أبرأ إليك مما صنع هؤلاء وأبرأ إليك مما صنع هؤلاء».

ثم هبَّ هبَّة الأسد الضاري، فانطلق معه البراء و زيد و سالم ، فنشروا الرعب في قلوب المشركين، وثارت الحمية في قلوب المسلمين، فنصر الله المسلمين، وإذا به يخر صريعًا على تلك الأرض، ينتظر بشارة رسول الله ﷺ

رضي الله عنه وأرضاه، وجعل أعلى علّيين مثواه.

وقفة مع عباد بن بشر

عاد رسول الله ﷺ من غزوة ذات الرقاع ونزل المسلمون شعبًا من الشعاب ليقضوا

---

(١) متفق عليه: البخاري (٣٤١٧، ٤٥٦٥)، باب سورة الحجرات، ومسلم (٣٢٩) بنحوه.

ليلتهم، فلما أناخوا رواحلهم، قال رسول الله ﷺ: من يحرسنا الليلة؟ فقام عباد بن بشر، و عمار بن ياسر -وقد آخى بينهما رسول الله ﷺ- فقالا: نحن يا رسول الله! ثم خرجا إلى فم الشعب، فقال عباد لعمار: أتنام أول الليل أم آخره؟ فقال عمار: بل أنام أوله، اضطجع عمار غير بعيد.

بقي عباد يحرس جند رسول الله ﷺ، وأرخى الليل سدوله، وغارت نجومه، هدأت العيون، وسكنت الجفون، ولم يبقَ إلا الحي القيوم، عندها تاقت نفس عباد للعبادة، واشتاق قلبه للقرآن، فقام يصلي؛ ليجمع متعة الصلاة إلى متعة التلاوة، وطفق يقرأ سورة الكهف، يسبح مع آيات الله البينات.

ويراه رجل من المشركين يصلي على فم الشعب، فعرف أنه حارس جيش رسول الله ﷺ فقال: لئن ظفرت به لأظفرن بجيش رسول الله صلى الله وسلم على نبينا محمد فوتر قوسه، وتناول سهمًا من كنانته، ورماه به فوضعه فيه، فانتزعه عباد من جسده ورمى به، ومضى يتدفق في تلاوته، ورماه بالآخر فانتزعه، ومضى يتدفق في تلاوته، ورماه بالثالث فانتزعه، وإذا الدماء تنزف منه، فزحف إلى عمار وأيقظه قائلًا: لقد أثخنتني الجراح، عليك بثغر رسول الله ﷺ.

ولَّى المشرك هاربًا، وأمَّا عمار فنظر -ويا للهول! أثخنته الجراح، فقال: رحمك الله هلا أيقظتني من عند أول سهم رماك به؟ فقال عباد -واسمعوا إلى ما يقول-: «كنت في سورة أقرؤها، فلم أحب أن أقطعها حتى أفرغ منها، وايم الله؛ لولا خوفي أن أضيع ثغرًا أمرني رسول الله ﷺ بحفظه؛ لكان قطع نفسي أحب إلي من قطعها» [١]

لا نامت أعين الجبناء، لا نامت أعين التنابلة والكسالى والبطالين.

يا بنَ الهُدَى! يا فَتَى القرآنِ! دعكَ مِنَ الأوْهَامِ؛ جلجَلَ أمرُ الله أنْ أَفِقِ.

تلذذوا بمناجاة الله في الخلوات، فما عدلوا بذلك شيئًا.

عبَّر أحدهم عن تلك اللذة بقوله: «والله لولا قيام الليل بكلام الله ما أحببت البقاء في هذه الدنيا.

ووالله! إن أهل الليل في ليلهم ألذ من أهل اللهو في لهوهم، وإنه لتمر بالقلب ساعات

---

(١) حسن: أخرجه أحمد (١٤٧٤٥)، (١٤٩٠٨)، وأبو داود (١٩٨)، وحسنه الألباني.

يرقص القلب فيها طربًا بذكر الله، حتى أقول: إن كان أهل الجنة في مثل ما أنا فيه إنهم لفي نعيم عظيم».

وعبر الآخر عن لذته بمناجاة الله بقوله: والله لو علم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه، لجالدونا عليه بالسيوف.

فقال قائل: وما الذي أنتم فيه تتلذذون، وبه تتلذذون؟

قال: لذة مناجاة الله في الخلوات.

هذه حالهم يا متأمل! هذه حالهم يا متبصر! فما حالنا؟

كُثُرٌ ولكنْ عديدٌ لا اعتدادَ بهِ ... جمعٌ ولكنْ بديدٌ غيرُ متَّسِقِ

شككتْ نفسي مهانتكم ... أنكمُ يا قومِ منْ مُضَر

خَبِّرُوني أينَ حِسُّكُم ... لأزْيَدُ الوَخْزِ بالإبَرِ

نطقنا بالعربية والقرآن فما نكاد نلحن، ولحنا بالعمل فما نكاد نعرب، قنعنا بفصاحة اللسان مع عُجْمة الجنان:

وكانَ البرُّ فعلا دونَ قول ... فصارَ البرُّ نُطقًا بالكلامِ

أبو طلحة وجهاده في سبيل الله

إن الصحابة لم يتلذذوا بالقرآن فحسب، بل عملوا بمقتضاه، وطبقوه واقعًا عمليًا لا نظير له في تاريخ الأمة، فإذا بك ترى أبا طلحة الأنصاري وهو يسمع قول الله: ﴿ لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ ﴾ [آل عمران: ٩٢] فيبادر فيجعل أفضل بساتينه في سبيل الله صدقة؛ يرجو برها وذخرها عند الله.

ليس هذا فحسب، بل يفتح كتاب الله فيقرأ قول الله: ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالاً ﴾ [التوبة: ٤١]، فيقول لأبنائه: جهزوني جهزوني.

يا الله! شيخ كبير نيف على الثمانين لم يعذر نفسه، فيقول أبناؤه: رحمك الله، جاهدت مع رسول الله ﷺ ومع أبي بكر و عمر -رضي الله عنهما- وصرت شيخًا كبيرًا، فدعنا نغزو عنك، قال: والله! ما أرى هذه الآية إلا استنفرت الشيوخ والشبان، ثم أبى إلا الخروج لمواصلة الجهاد في سبيل الله، والضرب في فجاج الأرض؛ إعلاء لكلمة الله، وإعزازًا لدين الله.

فيشاء الله يوم علم صدق نيته أن يكون في الغزو في البحر لا في البر ليكون له الأجر مضاعفًا، وعلى ظهر السفينة في وسط أمواج البحار المتلاطمة يمرض مرضًا شديدًا يفارق على إثره الحياة، فأين يدفن وهو في وسط البحر؟! ذهبوا ليبحثوا له عن جزيرة ليدفنوه فيها فلم يعثروا على جزيرة إلا بعد سبعة أيام من موته، وهو مسجى بينهم، لم يتغير فيه شيء كالنائم تمامًا.

وفي وسط البحر بعيدًا عن الأهل والوطن نائيًا عن العشيرة والسكن دفن أبو طلحة ، وما يضره أن يدفن بعيدًا عن الناس ما دام قريبًا من الله عز وجل، ماذا يضره أن يدفن في وسط جزيرة لا أعلمها ولا تعلمها، يوم يجبر الله -بإذن الله- له كل مصاب بالجنة.

لا نامت أعين الجبناء

ويلٌ لكم هل سِوَى الأكفانِ حُجَّتُكم   وهلْ يكونُ سوى الأكفانِ حَظُّكُمُ

هيَّا اسلبُوها من الأجْداثِ باليةً   ثم البسوها وقُولُوا الإرثُ إرثُكُمُ

الصحابة وصدقهم مع كتاب الله

صدقوا ما عاهدوا: فكان القرآن فيصلًا في المواقف التي يحار فيها أولو الألباب، ما كانوا يرجعون إلا إلى كتاب الله؛ ففي يوم موت رسول الله ﷺ أصيب المسلمون وفجعوا، وفقد بعض الصحابة الصواب، حتى قال: والله! ما مات، فإذا بأبي بكر -تربية القرآن- إذا به يتلو ويقول: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِين مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، فعلموا بذلك أنه مات، حتى إن بعضهم سقط ما كادت تحمله رجلاه، وحق له ذلك.

ويختلف المسلمون بعد ذلك في من يخلف رسول الله ﷺ، فقال المهاجرون: نحن أولى بخلافة رسول الله ﷺ، وقال بعض الأنصار: نحن أولى بها، وقال بعضهم: بل تكون فينا وفيكم؛ منَّا أمير ومنكم أمير، وكادت تحدث الفتنة، ونبي الله ما زال بين ظهرانيهم ولم يدفن بعد، وإذا بأهل القرآن بكلماتهم الناصعة التي تئد الفتنة في مهدها ينطقون، إذا بزيد ابن ثابت رضي الله عنه تربية القرآن يقول: «يا معشر الأنصار! إن رسول الله ﷺ كان من المهاجرين، فخليفته مهاجر مثله، وكنا أنصارًا لرسول الله ﷺ؛ فنكون أنصارًا لخليفته» ثم بسط يده إلى أبي بكر رضي الله عنه وقال: هذا خليفتكم فبايعوه؛ فبايعوه ووئدت الفتنة في مهدها.

هذا صدقهم مع كتاب الله، أصلحوا سرائرهم ففاح عبير فضلهم، وعبقت القلوب بنشر طيبهم.

فالله الله في كتاب الله قراءة وتدبرًا وعملًا؛ لأننا جعلناه -ومع الأسف- للمآتم صوتًا ومحدثًا، قبّلناه وأكثرنا تقبيله، وما قبِلناه ولم يلامس شغاف قلوبنا، ادَّعينا حب من أُنزل عليه القرآن، ثم أحدثنا ما أحدثنا، وكل محدث ضلال، ومن عمل عملًا ليس عليه أمر رسول الله ﷺ أو أحدث في أمر رسول الله ﷺ ما ليس منه فهو رَدٌّ[1]

فالله الله في القرآن! والله الله في السرائر والأعمال وفق شرع الرحمن وعلى طريقة خير الأنام! فإنه لا ينفع مع فساد السرائر وتنكُّب الاتباع صلاح ظاهر: ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ ﴾ [الزخرف: ٤٣، ٤٤].

عقبة بن عامر وطلبه العلم

صدقوا ما عاهدوا: صدقوا في فقههم لدينهم، وفي طلبهم العلم ليعملوا به: «**من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين**»[2]، و«**خيركم من تعلم القرآن وعلَّمه**»[3]

فإذا براعي الغنم في باديته الذي رأس ماله في الحياة غنيماته يتركها يوم سمع بوصول رسول الله ﷺ إلى المدينة ، يتركها وهي أعز وأنفس ما لديه في تلك الفترة؛ لينطلق إلى النبي ﷺ فيشهد شهادة الحق، ويبايع المصطفى ﷺ ثم يعود إلى غنيماته، ويسلم معه اثنا عشر راعيًا.

اجتمعوا يومًا من الأيام وقالوا: لا خير فينا إن لم نقدم على رسول الله ﷺ ليفقهنا في ديننا، ويسمعنا ما ينزل عليه من وحي السماء، ثم اتفقوا على أن يمضي كل يوم منهم واحد إلى المدينة ؛ فيتفقه في الدين، ويسمع ما نزل من القرآن، وما نزل من الأحكام، فيرجع فينقله إليهم.

يقول عقبة وهو أولهم: كنت أقول: اذهبوا واحدًا تلو الآخر، وأنا أحفظ لمن ذهب غنمه؛ لشدة إشفاقه على غنمه أن يتركها لأحد من الناس، فطفقوا واحدًا بعد الآخر

---

(١) متفق عليه: البخاري (٢٥٥٠)، ومسلم (٤٥٨٩)، بلفظ «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس فيه فهو رد».

(٢) متفق عليه: البخاري (٧١) (٢٩٤٨) (٦٨٨٢)، ومسلم (٢٤٣٦) (٢٤٣٩) (٥٠٦٥).

(٣) صحيح: البخاري (٤٧٣٩).

يذهبون ويرجعون، فيأخذ عقبة منهم ما سمعوا، ويتلقى عنهم ما فقهوا.

يقول عقبة : ثم ما لبثت بعد ذلك أن رجعت لنفسي، وقلت: ويحك يا نفس! من أجل غنيمات لا تسمن ولا تغني من جوع تفوت على نفسك صحبة رسول الله ﷺ والأخذ عنه مشافهة بلا واسطة، والله! لا يكون ذلك، ثم يتنحى عن أنفس ما لديه؛ عن غنمه، لكن إلى الغنيمة، فيلزم رسول الله ﷺ يمضي معه أينما سار، يأخذ بزمام بغلته، يمضي بين يديه أنَّى اتجه، وكثيرًا ما أردفه ﷺ على دابته، وربما نزل ﷺ عن بغلته ليركب عقبة .

جعل يَعُبُّ من مناهل رسول الله ﷺ العذبة حتى غدا مقرئًا محدِّثًا فقيها فَرَضِيًا أديبًا فصيحًا شاعرًا، بل كان من أحسن الناس صوتًا بالقرآن، وكان إذا هدأ الليل، وسكن الكون، انصرف إلى كتاب الله عز وجل ليقرأ، فتصغي أفئدة الصحابة لترتيله، وتخشع قلوبهم، وتفيض بالدمع أعينهم من خشية الله جل وعلا، حتى كان يدعوه عمر -رضي الله عنه- ويقول: «اعرض عليَّ شيئًا من كتاب الله»، فيجعل يقرأ من آيات الله ما يتيسر و عمر يبكي حتى تبلل دموعه لحيته.

قاد الجيوش فكان قدوة لكل قائد، وولي ولاية فعدل، ورمى وتعلم الرمي، وجاهد وجالد حتى لقي الله مخلِّفًا تَرِكَة المجاهدين الصادقين، ما تركته؟

إنها بضع وسبعون قوسًا، أوصى أن تكون في سبيل الله؛ فرضي الله عنه وأرضاه، وعن جميع أهل القرآن.

أقوالهم في طلب العلم

صدقوا: حتى قيل لأحدهم وقد استغرق طلب العلم وكتابته وتبليغه وقته، قيل له: إلى متى تكتب العلم؟

إلى متى وأنت تكتب في تلك العلوم؟

فقال: لعل الكلمة التي فيها نجاتي لم تكتب بعد.

فلا يدري المرء متى يقول الكلمة، فيهدي الله بها خلقًا كثيرًا، ولا يدري المرء متى يقول الكلمة أو يكتب الكلمة الصادقة فتنجيه بين يدي الله.

حتى إن أحدهم لتعاتبه زوجته على كثرة شراء الكتب فيقول رادًّا عليها:

وقائلة أنفقتَ في الكتب ما ... حَوَتْ يمينُك من مال فقلت دعيني

لعلِّـــي أرَى فـــيها كـــتابًا يَـــدُلني لأخــــذِ كتابـــي آمــــنًا بيمـــيني

صدقوا: حتى قيل لأحدهم: بم كنت عالمًا من بين أقرانك وأترابك؟

قال: لأني أنفقت في زيت المصباح لأدرس العلم في الكتب مثلما أنفقوا في شرب الخمور، وفرق بين إنسان بالعلم قد زكاها، وآخر بالمعازف ورنات الكئوس والغفلة قد دساها، قال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّنهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّنهَا ۝ ﴾ [الشمس: ٩، ١٠].

تضحية الصحابة في سبيل الله

صدقوا ما عاهدوا: صدقوا فضَحوا بالنَّفس والنفيس في سبيل الله.

صدقوا فتحمَّلوا الجوع والعطش والبرد والأذى لخدمة هذا الدين.

صبروا على الامتحان، وآثروا العقيدة على نعيم الدنيا، فتركوا أموالهم وعشيرتهم وأوطانهم وهاجروا فارين بدينهم، فرضي الله عنهم وأرضاهم.

استحقوا أن يخلِّد الله ذكرهم في كتابه بما وصفهم به من عاطر الثناء، وحفظ لهم قدرهم في الأمة على مدى الزمان.

فإذا بأحدهم؛ وهو عبادة -رضي الله عنه- يقول للمقوقس : «وما منا رجل إلا وهو يدعو ربه صباحًا ومساءً أن يرزقه الشهادة، وألا يرَّده إلى بلده، ولا إلى أرضه، ولا إلى أهله وولده وماله، وليس لأحد منا هَمٌّ فيها خلَّفه، وقد استودع كل واحد منا ربه أهله وولده وماله، وإنما همُّنا ما أمامنا».

بذلوا أرواحهم في سبيل الله حتى لا تكون فتنة، ويكون الدين كله لله، أفنحن كذلك؟!

اللهم اجعلنا جميعًا كذلك، آمين يا رب العالمين.

أحبتي في الله

لم يكن طريق الصحابة ومن تبعهم بإحسان معبَّدًا مفروشًا بالزهور والورود، بل كان محفوفًا بالأخطار، وكان الدخول فيها امتحانًا شاقًّا لا تجتازه إلا الهمم الشامخة، والنفوس العالية التي حازت الإيمان والإخلاص والمجاهدة والجهاد:

ســـلُوا بـــلالاً و عمـــارًا ووالـــدَه عـــنِ الـــسلاسلِ والرَّمْـــضاءِ والألَـــمِ

مر رجل بالمقداد بن الأسود -رضي الله عنه- فقال له: طوبى لهاتين العينين اللتين رأتا

رسول الله ﷺ، والله! لوددنا أنّا رأينا ما رأيت، وشهدنا ما شهدت.

فقال المقداد : «ما يحمل أحدكم على أن يتمنى محضرًا غيبه الله عنه؛ لا يدري لو شهده كيف يكون فيه، والله! لقد حضر رسولَ الله ﷺ أقوامٌ كبَّهم الله على مناخرهم في جهنم؛ إذ لم يجيبوه، ولم يصدقوه، أو لا تحمدون الله إذ أخرجكم لا تعرفونَ إلا ربكم، مصدقين بما جاء به نبيكم، وقد كفيتم البلاء بغيركم.

والله! لقد بعث رسول الله ﷺ على أشد حال بُعث عليه نبي من الأنبياء، في فترة وجاهلية ما يرون دينًا أفضل من عبادة الأوثان، فجاء بفرقان فرَّق به بين الحق والباطل، وفرق به بين الوالد وولده، حتى إن الرجل ليرى والده أو ولده أو خاله كافرًا، وقد فتح الله قفل قلبه للإيمان ليعلم أنه قد هلك من دخل النار، فلا تقر عينه وهو يعلم أن حميمه وقريبه في النار، وإنها للتي قال الله: ﴿ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ ﴾ [الفرقان: ٧٤]» .

لقد كان معظم الصحابة فقراء، ومَنْ لم يكن فقيرًا فقد ترك ماله يشري نفسه ابتغاء مرضات الله، وكانت الدولة الناشئة في المدينة لا تملك الأموال، فلا مطمع لمن يدخل في دين الله، في نيل المال أو الجاه أو أي عرض من أعراض الدنيا.

ومن طريف الروايات التي تصور فقرهم وحالهم ما أخرج البخاري في صحيحه عن سهل بن سعد -رضي الله عنه- قال: «كانت منَّا امرأة تجعل لها في مزرعة لها سلقًا -نوع من الخضار- فكانت إذا جاء يوم الجمعة تنزع أصول السلق، وتجعله في قدر، ثم تجعل معه قبضة من شعير تطحنه، قال سهل فكنا ننصرف إليها من صلاة الجمعة فنسلِّم عليها، فتقرب لنا ذلك الطعام، والله! إنا كنا لنتمنى يوم الجمعة من أجل ذلك الطعام، ونفرح بيوم الجمعة لأجله» مع أنه طعام لا شحم فيه ولا وَدَك[1]، وما عند الله خير وأبقى[2]

تنازل صهيب عن ماله من أجل الله

ثم تجيل نظرك، فإذا أنت بصهيب قد أزمع الهجرة للحاق برسول الله ﷺ، لم يسعه أن يبقى بعد رسول الله ﷺ.

فجهز له كفار قريش فرقة مراقبة تتابعه؛ لئلا يذهب بماله، وفي ذات ليلة أكثر من خروجه للخلاء للتعمية والتغطية عليهم، فما يلبث أن يعود من الخلاء حتى يخرج مرة

---

(١) **الودك:** دسم اللحم.

(٢) **صحيح:** البخاري (٢٢٢٢) (٥٠٨٨)، باب السلق والشعير.

أخرى، وهم يراقبونه حتى قال قائلهم: لقد شغلته اللات والعزى ببطنه، فقروا عينًا الليلة.

أسلموا أعينهم للكَرَى مطمئنين، فتسلل صهيب من بينهم، ولم يمضِ غير قليل حتى فطن له أولئك، فهبوا مذعورين قلقين فزعين خائفين، وامتطوا الخيل، وأطلقوا أعنتها خلفه حتى أدركوه، ولما أحس بهم -رضي الله عنه وأرضاه- وقف على مكان عال وأخرج سهامه من كنانته، وهم يعرفون صهيبًا جيدًا وبرى قوسه.

وقال: يا معشر قريش! تعلمون أني من أرمى الناس، والله! لا تصلون إليَّ حتى أقتل بكل سهم منكم رجلًا، ثم أضربكم بسيفي ما بقي منه بيدي شيء، فقال قائلهم: والله! لا ندعك تفوز بنفسك ومالك؛ لقد أتيتنا صعلوكًا فقيرًا، فاغتنيت وبلغت ما بلغت ،ثم تذهب به كلا واللات، قال: أرأيتم إن تركت لكم مالي أتخلون سبيلي؟ قالوا: نعم.

فدلَّهم على موضع ماله، وأطلقوا سراحه، فانطلق فارًا بدينه غير آسف على مالٍ أنفق زهرة العمر في تحصيله، يستفزُّه ويحدوه الشوق إلى رسول الله ﷺ.

فلما بلغ قباء رآه رسول الله ﷺ فهشَّ له وبشَّ وقال: «**ربح البيع أبا يحيى ، ربح البيع أبا يحيى ، ربح البيع أبا يحيى**» [1]

والله! لا الدنيا وشهواتها وزخارفها ولذائذها ومتعها لا تساوي: «**ربح البيع أبا يحيى**».

علت الفرحة وجه صهيب ، وحقًا -والله- ربح البيع: ﴿ **وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ** ﴿٢٠٧﴾ ﴾ [البقرة: ٢٠٧].

حكيم وإنفاقه في سبيل الله

ثم انظر أخرى فإذا أنت بآخر، إنه حكيم ، يسلم إسلامًا يملك عليه لبَّه، ويؤمن إيمانًا يخالط دمه، ويمازج قلبه، وهو يقطع على نفسه عهدًا أن يكفر عن كل موقف وقفه في جاهلية، أو نفقة أنفقها في عداوة رسول الله ﷺ بأضعاف أضعافها، وقد برَّ في قَسَمِه، وصدق فيما عاهد.

فإذا بك تنظر فإذا حكيم قد آلت إليه دار الندوة التي كانت تعقد قريش مؤتمراتها فيها في الجاهلية، ويجتمع ساداتها وكبراؤها فيها ليأتمروا برسول الله ﷺ، تخيله وهو يتخلص

---

[1] صحيح: «صحيح ابن حبان» (٧٠٨٢)، و«فقه السيرة» للألباني (١ / ١٥٧)، وصححه بنحوه.

من تلك الدار مسدلًا الستار على ماض بغيض أليم، ويبيعها بمائة ألف درهم، فيقول فتى من قريش: بعت مكرمة قريش يا حكيم ! فقال: «يا بني! ذهبت المكارم كلها ولم يبقَ إلا التقوى، أو ما يسرك يا بني! أن أشتري بها دارًا في الجنة؟ إني أشهدكم أني جعلت ثمنها في سبيل الله؛ أرجو ذخرها وبرها عند الله» وربح البيع.

ثم انظر إليه أخرى يوم يحج بعد ذلك فيسوق أمامه مائة ناقة مجللة بالأثواب الزاهية، ثم ينحرها جميعها؛ تقربًا إلى الله تعالى.

ولا تعجب يوم يحج ثانية فيقف في عرفات ، ومعه مائة من عبيده، قد جعل في عنق كل واحد منهم طوقًا من فضة، نقش عليه عتقاء لله عز وجل ثم يعتقهم جميعًا على عرفات؛ ويسأل الله عز وجل أن يعتق رقبته من النار.

ثم يحج ثالثة فيسوق أمامه ألف شاة، ثم يريق دماءها كلها في منى ، ويطعم بلحومها فقراء المسلمين؛ تقرُّبًا لله -عزَّ وجلَّ- فلا تنساه البطون الجائعة، ولا الأكباد الظامئة، ما دام على الأرض بطن جائع أو كبد ظمأى.

يـا نـاعمَ العَـيشِ والأمـوالُ بائـدةٌ أيـن التـبرعُ لا ضَـاقتْ بـكَ الـنِّعَمُ

كان المال في يده لا يدور عليه الحول حتى ينفقه في سبيل الله.

لا يألـفُ الـدرهمُ المـضروبُ صُـرَّتهم لكِـنْ يمـرُّ علـيها وهـو يـستبقُ

كبر حكيم بعد أن قدم ما قدم، وذهب بصره فاحتسبه لله، ونزل به الموت، واشتد وجعه، وإذ به يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله ويقول: «أخشاك ربي وأحبك، أخشاك ربي وأحبك» ؛ ليلقى الله.

رضي الله عنه وأرضاه، وجعل أعلى علِّيين مثواه، ورحم الله أولئك الرجال، طلبوا الدنيا على قدر مكثهم فيها، وطلبوا الآخرة على قدر حاجتهم إليها، لم يضحوا بأموالهم فحسب، بل ضحوا بدمائهم في سبيل الله؛ رجاء ما عند الله، وما عند الله خير للأبرار ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ﴾ [النحل: ٩٦].

حبيب وتضحيته بنفسه

تنظر أخرى فإذا أنت بشاب ناضر الشباب، مؤمن بالله اسمه حبيب يكلف بمهمة شاقة؛ ليكون رسولًا لرسول الله ﷺ إلى مسيلمة الكذاب .

يأخذ الرسالة غير وَانٍ ولا متريث[١] ولا متردد، ترفعه النِّجاد[٢]، وتحطه الوهاد[٣] حتى يبلغ أعالي نجد[٤]، ويسلم الرسالة إلى مسيلمة ، فلما قرأها انتفخت أوداجه، وبدا شره، ولو علم الله فيه خيرًا لأسمعه.

أمر بحبيب أن يقيد، وأن يعرض عليه من الغد، وما ضر حبيب وقد بلغ رسالة الحبيب ﷺ.

فلما كان الغد أذن للعامة بالدخول عليه، وأمر بحبيب فجيء به يرسف في قيوده وسط جموع الشرك الحاقدة، مشدود القامة، مرفوع الهامة، شامخ الأنف بإيمانه، التفت مسيلمة إليه وقال: أتشهد أن محمدًا رسول الله؟ قال: نعم.

أشهد أنه رسول الله ﷺ.

فتميز من الغيظ وقال: أتشهد أني رسول الله -وخسيء-؟

فقال حبيب في سخرية: إن في أذني صممًا عن سماع ما تقول.

فيتغير لون وجهه، وترتجف شفتاه غيظًا وحنقًا ليقول لجلاده: اقطع قطعة من جسده، فيبتر الجلاد قطعة من جسده لتتدحرج على الأرض.

ثم أعاد مسيلمة السؤال، أتشهد أن محمدًا رسول الله؟

قال: نعم، ﷺ.

قال: أتشهد أني رسول الله؟

قال: إن في أذني صممًا عن سماع ما تقول.

فأمر بقطع قطعة أخرى من جسده لتتدحرج على الأرض، فشخص الناس بأبصارهم مدهوشة مشدوهة من تصميم هذا الرجل وثباته؛ إنه الثبات من الله.

مضى مسيلمة يسأل والجلاد يقطع و حبيب يقول: أشهد أن محمدًا رسول الله، حتى صار قطعًا منثورة على الأرض، ثم فاضت روحه وهو يردد: محمد رسول الله ﷺ، محمد

---

١) متريث: متمهل.

٢) النجاد: ما ارتفع من الأرض وصلب.

٣) الوهاد: ما انخفض من الأرض.

٤) نجد: قسم من الجزيرة العربية، بين الحجاز والعراق.

رسول الله، محمد رسول الله.

إن عذَّبوا الجسمَ فالإيمانُ معتصمٌ ... بالقلبِ مثلَ اعتصامِ اللَّيثِ بالأَجَمِ

ثم يأتي الخبر لأمه، ويا لهول الخبر! وجدير بأمهات المسلمين وبأمهات الشباب والشابات أن يقفن مع هذه الأم ليدرسن سيرتها يوم جاءها خبر ابنها الذي قطع إربًا إربًا وهو يقول: محمد رسول الله، اسمع إلى ذلك المحضر الخالد لذلك الرجل- ما زادت - والله- يوم جاءها الخبر على أن قالت: «من أجل هذا الموقف أعددته، وعند الله احتسبته، لقد بايع الرسول ﷺ ليلة العقبة صغيرًا، ووفَّى له اليوم كبيرًا، فحمدت الله سبحانه وتعالى كثيرًا».

فلو كانَ النساءُ كمنْ ذكرنا ... لفُضِّلتِ النساءُ على الرجال

وما التأنيثُ لاسمِ الشمسِ عيبٍ ... ولا التذكيرُ فخرٌ للهلال

هل وقفت عاجزة تبكي ابنها وتندب حظها؟ لا، بل في يوم اليمامة كانت تشق الصفوف كاللبؤة الثائرة تنادي: أين عدو الله مسيلمة؟ فوجدته مجندلًا على الأرض، سيوف المسلمين قد ارتوت من دمه، فطابت نفسًا، وقرَّت عينًا ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ ﴾ [إبراهيم: ٤٢]، مضى حبيب و مسيلمة إلى ربهما، وشتَّان ما بينهما، فريق في الجنة، وفريق في السعير.

لقد ضحى الصحابة بكل شيء، وصدقوا الله فصدقهم الله، وأقر أعينهم بنصرة دينه وإعلاء كلمته.

مواكب تتلوها مواكب من صحابة رسول الله ﷺ:

مواكبُ الله سارَتْ لا يُزَعْزِعُهَا ... عاتٍ منَ البحرِ أو عالٍ منَ الأطمِ

لا يهتفونَ لمخلوقٍ فقدْ علمُوا ... أنَّ الخلائقَ والدنيا إلَى العَدَمِ

عاقبة الصدق

فإذا أنت ترى أحدهم وهو عقبة بن نافع على أطراف غابة القيروان ينادي ويخاطب السباع والهوام ويقول: نحن أصحاب رسول الله ﷺ؛ جئنا لننشر دين الله في الأرض فأخلي لنا المكان، فتخرج السباع والهوام حاملة أولادها على ظهورها؛ لتخلي المكان لجند الله؛ كرامة من الله، أطاعوا الله فطوع الله لهم كل شيء؛ ليبني مدينة القيروان في تلك الغابة،

لا ليركن إليها ويجلس فيها ويتنعم بها، بل ينطلق بعد ذلك فاتحًا في الأرض حتى يقف بقوائم فرسه في أطراف المحيط الأطلسي ليقول كلمته الخالدة، وقوائم فرسه قد ابتلت بمياه المحيط الأطلسي يقول: «والله! لو كنت أعلم أن وراء هذا البحر أرضًا وأقوامًا لخضته في سبيل الله؛ لأنشر دين الله» .

وإذا بقتيبة في الجانب الآخر في شرق الكرة الأرضية -ذاك في غربها وهذا في شرقها- يفتح المدن والقلوب، حتى يقف على أطراف مملكة الصين ويقسم بالله ليطأن بأقدام فرسه تلك المملكة، ويسمع ملكها فيهلع ويخاف ويجزع، ويعلم أن هؤلاء إذا قالوا فعلوا، فيرسل صِحَافًا من ذهب مملوءة بتربة أرض الصين ؛ ليبرَّ قسم قتيبة ، وتطأ خيل قتيبة تلك التربة، وتكون الصحاف مقدمة الجزية، وأربعة من أبنائه يوضع عليهم وسام المسلمين، فيا لله!

مهـــلاً حمـــاةَ الـــضَيْمِ إنَّ لِلَيلِـــنا ... فجـــرًا ســـيطْوِي الـــضَيم في أطمـــارِهِ

هارون الرشيد خليفة المسلمين يخاطب السحابة وهو على كرسيه، ويقول: أمطري أنَّى شئت؛ فسوف يأتيني خراجك[1]

صارت الكرة الأرضية ما بين مسلم حقًا وكافر يدفعُ الجزيةَ عنْ يدٍ وهو صَاغِرٌ.

للهـــدى كانـــوا أذلاء وللعـــدل ... والمَعـــروفِ كانُـــوا خُلفـــاءْ

لـــو دعـــاهم صـــارخٌ لانتفـــضوا ... مِـــن بطـــونِ الأرضِ يـــرمونَ الـــسماءْ

تـــركُوا المنـــزلَ معمـــورًا لـــنا ... ثُـــمَّ جِئـــنا فتركـــناهُ خَـــلاءْ

ضـــربُوا العِـــزَّ لـــنا أخبـــيةً ... فنقـــضنَاها خِـــبَاءً فخِـــباءْ

ومع هذا:

يـــا أمـــتي إنْ طـــالَ لـــيلُك عابـــثًا ... فتَـرَقَبي بـسمات فجـرٍ في الظَّلام جَديـدِ

مـــا نـــامَ جفـــنُ الحـــقِّ عـــنك وإنمّـــا ... هـــي هـــدأةُ الـــرِّئبال قـــبلَ نفـــارِهِ

لعلـــها هـــدأة الأســـد قـــبل نفـــاره

---

(١) انظر «سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد» (٣/ ١٢٨).

مواقف من الإخلاص

صدقوا ما عاهدوا: صدقوا في التجرد لله، وطلب الأجر العظيم من الله، وأنعم به من تطلع لا يعدله شيء من تكريم الدنيا.

صح أن أعرابيًا قسم له النبي ﷺ في خيبر من الغنيمة وكان غائبًا، فلما حضر أعطوه ما قُسِم له، فجاء الأعرابي للنبي ﷺ وقال: «يا رسول الله! ما على هذا اتبعتك، ولكني اتبعتك على أن أرمى هاهنا بسهم فأدخل الجنة -وأشار إلى حلقه- فقال ﷺ : «**إن تصدق الله يصدقك**»، فلبثوا قليلًا ثم نهضوا لقتال العدو، وكان له ما أراد، إذ أتي به يحمل وقد أصابه سهم حيث أشار، فجعل النبي ﷺ يقول: «**أهو هو؟**» قالوا: نعم. قال: «**صدق الله فصدقه الله**»، ثم كفنه النبي ﷺ بجبته وصلى عليه، ودعا له، ثم قال: «**اللهم هذا عبدك، خرج مجاهدًا في سبيلك؛ فقتل شهيدًا وأنا عليه شهيد**» (١)

أرادوا الله فشمخت نفوسهم إلى رضوان الله، فترفعوا عن الدنيا حتى قال قائلهم؛ وهو جابر بن عبد الله : «والذي لا إله إلا هو! ما اطلعنا على أحد من أهل القادسية أنه يريد الدنيا مع الآخرة» .

وهاهو أبو الحسن علي رضي الله عنه يوم الخندق يرى عمرو بن ود -فارس العرب بلا منازع- وهو يجتاز الخندق ويندب المسلمين للمبارزة، فيتقدم علي لمبارزته، فيندب الثانية وقد استصغر عليًا فيخرج له علي فيندب الثالثة للمبارزة، فما لها إلا علي ، فيقول النبي ﷺ -فيما روي عنه-: «**أخرج إليه منصورًا**»، فكان اللقاء، وما هو إلا قليل حتى قتله علي رضي الله عنه.

فأين تربَّى علي ؟

تربى في حجر رسول الله ﷺ ، فهو ربيب الإخلاص والتجرد والصدق.

والأمرُ من معدنِهِ لا يُستغربُ ... والفرعُ للأصلِ حتمًا يُنسبُ

صدقوا ما عاهدوا: فاتهموا أنفسهم وهضموها وروضوها على مقابلة الجهل بالحلم، والحمق بالعقل، والإساءة بالإحسان والعفو؛ ركلوا العُجْب والكبر والغرور، فعاشوا سعداء، وماتوا شهداء في حبور.

---

(١) صحيح: أخرجه النسائي (١٩٥٣)، والبيهقي في «السنن الكبرى» (٦٦٠٨)، والألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٣٣٦)، وفي «أحكام الجنائز» (١ / ٦١).

يقال لأحدهم: يا مراءٍ! فيقول: متى عرفت اسمي؟

وآخر في الحج وقد ازدحم الحُجَّاج، وبلغت القلوب الحناجر يقول أحد الذين بجواره: والله ما أظنك إلا رجل سوء.

فيقول: ما عرفني إلا أنت.

ويؤتى بالثالث ويقف يوم عرفة آخر النهار متذللًا خاضعًا خاشعًا، قلوب الخلق وألسنتهم تجأر إلى الله أن يعتق الرقاب من النار، فإذا به تصفو نفسه، ويرق قلبه، فيتذكر ذنوبه وخطاياه -وهي من ذنوب وخطايا صغار- فيقول: لا إله إلا الله! ما أشرفه من موقف وما أرجاه! لولا أني فيهم لقلت: قد غفر الله لهم، اللهم لا تردهم من أجلي، اللهم لا تردهم من أجلي.

ليتَ شِعْرِي ما الَّذِي أطْلَقهُمْ ... مِنْ عِقَال وبقينَا أُسَرَاءْ

ما لنا نحنُ عَجِبنَا واغْتَرَرْنَا ... أوَ لسْنَا كلُّنَا طينًا ومَاء

لو تبعنا في الهدى آثارهم ... لانطلقنا وسمونا للعلاء

أقوال في العفو والصفح عن الآخرين

صدقوا ما عاهدوا: فعفوا وصفحوا.

وهبوا النقص للفضل، والإساءة للإحسان، فصفت سرائرهم، ونصعت سيرهم، وسلمت صدورهم، ولهجت أنفسهم: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ [الحشر: ١٠] كل ذلك يرجون ما عند ربهم.

يقال لأحدهم: إن فلانًا من الناس يقع فيك، فيقول: ﴿ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ﴾ [فاطر: ٤٣]، ﴿ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴾ [النساء: ٧٦].

ثم يقال له أخرى وقد ظُلم وبُهت وسُبَّ وشتم: ألا تدعو على من ظلمك وسبك وشتمك؟ فيقول: من دعا على ظالمه فقد انتصر، إن رسول الله ﷺ يقول: «**اصبروا حتى تلقوني على الحوض**»(١)

---

(١) متفق عليه: البخاري (٣٥٨١) (٤٠٧٥) باب غزوة الطائف، ومسلم (٢٤٩٣) باب إعطاء المؤلفة قلوبهم.

يُسبُّ أحدهم ويشتم بما ليس فيه فيقول: إن كنت صادقًا فغفر الله لي، وإن كنت كاذبًا فغفر الله لك.

ويقال للثالث: إن فلانًا يقع فيك ويقول فيك كذا وكذا، ويذكرك بسوء، فيقول: رجل صالح ابتلي فينا فماذا نعمل؟! من تعدى حدود الله فينا لم نتعد حدود الله فيه، العفو أفضل، لا ينفعك أن يعذب أخوك المسلم بسببك، فتعفو وتصفح وتغفر فيغفر الله لك.

أيها الأحبة...

إن مكانة المؤمن أعز من أن يتساوى في الظاهر مع ظالمه، بل يرى أن من الدين والمروءة أن يدعى إلى أن يشمخ على من يبدي الإسفاف، ويترفع عن موقف يقوده إلى رفع صوت أو إثارة فضول أو جدل أو لجاج، وبعضنا -ويا للأسف- يتخذ أخاه هدفًا ويجمع الجموع ليرجموه معه، ترى بعضنا يرفع ويخفض، ويجرح ويعدل ويشي .

ولــيس مَلامِــي عَلَــى مَــنْ وشَــى ولكــنْ ملامــي عَلَــى مَــنْ وَعَــى

اللوم على من يمنح الآذان الصاغية للوشاة، ولأولئك أقول:

وا أسـفاه يـوم تـسود صـحف التفاضـح ويـوم تـسترخى بينـنا أيـدي التـصافح

ليست المنزلة -والله- بأن تنال لقبًا بتجريح إخوتك، إنما المنزلة أن تحتل في قلوب المؤمنين حيِّزًا، وأن تنادي ملائكة السماء أهل الأرض: أن أحبوا فلانًا.

صدقوا ولم نصدق: قلوب امتلأت بخشية الله، وقلوب امتلأت بمحبة الله، ترجو ما عند الله، لا تتسع لحقد أو ضغينة أو حسد لخلق الله، بل -والله- كانوا مشفقين على عباد الله؛ يعلمون الجاهل، وينبهون الغافل، مغتنمين كل فرصة، مستفيدين من كل مناسبة.

يمر أبو الدرداء بجماعة تجمهروا على رجل يضربونه ويشتمونه، فقال لهم: ما الخبر؟ قالوا: وقع في ذنب كبير، قال: أرأيتم لو وقع في بئر أفلم تكونوا تستخرجونه منه؟ قالوا: بلى. قال: فلا تسبوه ولا تضربوه، لكن عِظوه وبصِّروه، واحمدوا الله الذي عافاكم من الوقوع في مثل ذنبه. قالوا: أفلا تبغضه؟ قال: إنما أبغض فعله، فإذا تركه فهو أخي[1]، فأخذ الرجل ينتحب ويعلن توبته وأوبته، ليكون في ميزان أبي الدرداء -رضي الله عنه- يوم يقف بين يدي الله: ﴿ **وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ** ﴾ [النور: ٢٢]، ﴿ **وَإِن تَعْفُواْ وَتَصْفَحُواْ وَتَغْفِرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ** ﴾ [التغابن: ١٤] .

(١) انظر «مصنف عبد الرزاق» (٢٠٢٦٧)، و«كنز العمال» (٨٩٠١)، و«أسد الغابة» (٢/ ٣٨٣).

حب الصحابة لرسول الله

صدقوا في حبهم لرسول الله ﷺ فحرصوا على رؤيته وصحبته، وقد كان فَقْد صحبته ورؤيته ﷺ أشد عليهم من كل شيء.

أحبوه وبذلوا المال والنفس والنفيس دونه ﷺ .

أحبوه فامتثلوا أمره واجتنبوا نهيه.

أحبوه فنصروا سنته، وذبُّوا عن شريعته، وما أحدثوا في حبه ما لم يشرع.

فليحذر الذين ادعوا حبه ولم يتبعوه واتبعوا أهواءهم أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم، لقد سدَّ الله سبحانه وتعالى دون جنته الطرق، فلن تفتح الجنة لأحد إلا من طريقه: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١] .

أحبوه حتى جاء أحدهم إليه يفكر فيما بعد موت رسول الله ﷺ ويقول: «يا رسول الله! إنك لأحب إلي من نفسي ومن ولدي، وإني لأكون في البيت فأذكرك فما أصبر حتى آتي فأنظر إليك، فإذا ذكرت موتي وموتك عرفت أنك إذا دخلت الجنة رفعت مع النبيين، وأنا إن دخلت الجنة خشيت ألا أراك، فلم يجبه ﷺ ليتنزل الجواب قرآنًا يتلى: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَـٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّـٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَـٰٓئِكَ رَفِيقًا ۝ ﴾ [النساء: ٦٩] [(١)]

دليل المحبة عند ربيعة

ويقول ﷺ لربيعة الأسلمي : «سل شيئًا يا ربيعة!» قال: أسألك مرافقتك في الجنة، قال ﷺ : «أوغير ذلك؟» قال: ما هو إلا ذاك. قال: «فأعني على نفسك بكثرة السجود» [(٢)]

كان الناس يسألون ما يملأ بطونهم، ويواري جلودهم مما هم فيه، أما المحب فلا يريد إلا مرافقة حبيبه في الدنيا والآخرة.

أبو بكر وشدة حبه لرسول الله

وبعد عام من وفاته ﷺ يقف أبو بكر رضي الله عنه على المنبر ويقول: «سمعت

---

(١) صحيح بشواهده: أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٢/ ٨٦)، والألباني في «فقه السيرة» (١/ ١٩٩).

(٢) صحيح: مسلم (١١٢٢)، باب فضل السجود والحث عليه.

رسول الله ﷺ في هذا الموقف من عامي الأول، ثم استعبر أبو بكر وبكى، ثم قال أخرى: سمعت رسول الله ﷺ فلم يملك أن خنقته العبرة فبكى، ثم قال ثالثة فخنقته العبرة فبكى، ثم قال -لا يسمع صوته من نشيجه- قال ﷺ : «**لم تؤتوا شيئًا بعد كلمة الإخلاص مثل العافية، فسلوا الله العافية**»[1]، نسأل الله العافية.

مواقف دلت على حب رسول الله ﷺ

أما سعد بن الربيع فهو في آخر رمق يجده زيد بن ثابت بين القتلى، وإذا به يقول: «بلِّغ رسول الله ﷺ مني السلام، وقل له: إني لأجد ريح الجنة، وقل لقومي الأنصار: لا عذر لكم عند الله أن يخلص إلى رسول الله ﷺ وفيكم شِفْر يطرف».

والآخر يقول يوم أحد وقد كان يقوم النبي ﷺ ويجالد فيقول: «لا تشرف يصبك سهم، نحري دون نحرك[2] يا رسول الله!»[3]

أحبوه فامتثلوا أوامره وبينما بعضهم يصلي صلاة العصر إذ حولت القبلة إلى الكعبة، فمرَّ عليهم رجل صلى مع النبي ﷺ ، فقال: « أشهد أني صليت مع رسول الله ﷺ وقد وُجِّه إلى الكعبة، فانحرفوا وهم ركوع في صلاة العصر تأسيا برسول الله ﷺ».

نزل تحريم الخمر: ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ [المائدة: ٩١]، فأريقت الخمر حتى جرت بها سكك المدينة ولسان حالهم ومقالهم: انتهينا انتهينا.

خلع ﷺ نعليه وهو يصلي فألقوا نعالهم وراءه، فسألهم: «**لم فعلتم ذلك؟**» قالوا: رأيناك ألقيت فألقينا، فأخبرهم «**أن جبريل أتاه فأخبره أن فيهما قذرًا**»[4]

يقول يومًا وابن رواحة قادم إلى المسجد يريد الدخول: اجلسوا عباد الله! أو كما قال ﷺ فيجلس ابن رواحة خارج المسجد، ما وسعه إلا الاستجابة لأمر رسول الله ﷺ

أبو بكر رضي الله عنه بعد وفاة رسول الله ﷺ كان يتتبع أفعال النبي ﷺ فيفعلها

---

(١) **ضعيف**: أخرجه أحمد (١٠)، وفي «كنز العمال» (٣٢٠٧)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١٤٤٠)، والألباني في «ضعيف الجامع» (٤٧٥٦).

(٢) **نحري دون نحرك**: أقف بين يديك بحيث إذا جاء السهم يصيب نحري ولا يصيب نحرك، والنحر: الصدر وأسفل العنق.

(٣) **متفق عليه**: البخاري (٣٦٠٠)، (٣٨٣٧)، ومسلم (٧٨٦٠).

(٤) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٦٥٠)، وأحمد (١١٨٩٥)، والألباني في «الإرواء» (٢٨٤).

حبًّا لرسول الله ﷺ فالحب اتباع لا ابتداع.

وبعد وفاة النبي ﷺ يذهب إلى عمر ويقول له: «انطلق بنا إلى أم أيمن نزورها كما كان رسول الله ﷺ يزورها.

قال: فلما انتهينا إليها ورأتنا بكت، فقال لها أبو بكر ما يبكيك؟ ما عند الله خير لرسوله ﷺ

قالت: ما أبكي ألا أكون أعلم أن ما عند الله خير لرسول الله، ولكن أبكي لأن الوحي انقطع من السماء بموته ﷺ، ثم انفجرت تبكي رضي الله عنها، فهيجتهم على البكاء، فجعلا يبكيان معها» إيه يا أم أيمن.

يا أم أيمن قد بكيتِ وإنَّنا نلهُو	ونمجنُ دونَ معرفةَ الأدب
لم تبصري وضع الحديثِ ولا الكذب	لم تبصري وضع المعازفِ والطرب
لم تشهدي شرب الخمور أو الزنا	لم تلْحَظِي ما قدْ أتانا من عطَب
لم تلحظي بدعَ الضلالةَ والهوى	لولا مماتُك قدْ رأيتِ بنا العَجَب
لم تعلمي فعل العدو وصحبهم	ها نحن نجْثُو لليهودِ على الرُّكَب
واحرَّ قلبي من تَمَزُّقِ جَمعِنا	أضحتْ أمورُكِ -أمتي- مثلَ اللعب
تالله ما عَرفَ البكاءُ صراخَنا	ومع التباكي لا وشائجَ أو نَسَب

كيف لا يحبونه وقد أخرجهم من الظلمات إلى النور بإذن ربه. فكان لهم قائدًا ومربيًا وأبًا ورسولًا نبيًا، وسراجًا منيرًا؟!

ولن يؤمن أحد حتى يكون رسول الله ﷺ أحب إليه من ماله وولده وأهله ونفسه والناس أجمعين[1]؛ ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾ [الحشر: ٧]، وذلك هو الحب أيها الأحبة.

إن هذا الحب العميق لرسول الله ﷺ مع شدته، ومع مفاداتهم له بالنفس والنفيس، فإن عقائد المسلمين استقامت بفضل الله، ولم يتجاوزوا صفة النبوة، ولم ينسبوا إلى نبيهم

(١) **متفق عليه**: البخاري (١٥)، باب حب الرسول ﷺ (١٧٨) باب وجوب محبة رسول الله ﷺ، بلفظ «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين».

ﷺ صفة الإلوهية، ولم يعبدوه من دون الله، بل كان صوته يجلجل في عقولهم ويرددون قوله: «أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد[1] بمكة»[2]، القرآن يذكِّر ببشريته: ﴿ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ ﴾ [الكهف: ١١٠]، والقرآن يذكر أنه يصيبه ما يصيب البشر: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٞ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴾ [الزمر: ٣٠]، فالإتباع خير لو كانوا يعلمون.

أمنيات الصحابة وهممهم

صدقوا الله حتى في أمنياتهم وهممهم، وهمم أهل الدين يجب أن تكون أعلى وأسمى.

هكذا كانت مطالب الصحابة رضوان الله عليهم وأمانيهم، اجتمعوا يومًا من الأيام فقال قائلهم: تمنوا.

فقال رجل: أتمنى لو أن لي مثل هذه الدار مملوءة ذهبًا أنفقه في سبيل الله عز وجل.

وقال آخر: أتمنى لو أنها مملوءة لؤلؤًا وزبرجدًا وجواهرًا أنفقه في سبيل الله وأتصدق به.

وأما علي -رضي الله عنه- فيتمنى الضرب بالسيف، والصوم بالصيف، وإكرام الضيف.

وأما خالد فيتمنى ليلة شديدة البرد، كثيرة الجليد، يصبِّح فيها العدو؛ ليجاهد في سبيل الله.

وأما عمر -رضي الله عنه- فيقول: «أتمنى لو أن هذه الدار مملوءة برجال مثل أبي عبيدة ؛ أستعملهم في طاعة الله» رجال أمناء كأمين الأمة، يستعملهم في طاعة الله.

يا أيها الأحبة...

يتمنى عمر هذه الأمنية في أي وقت، في وقت امتلأت فيه الساحة الإسلامية برجال عز نظيرهم، وقل مثيلهم، وجل شبيههم؛ فما أعظم حاجتنا اليوم إلى مثل هذه الأمنية، وقد افتقرت البلاد وأجدبت، وعجزت النساء أن يلدن أمثال أولئك الرجال!

كم هي حاجة الأمة ماسة إلى أمين كـ أبي عبيدة بعد أن استشرت الخيانة.

---

(١) **القديد**: هو اللحم المملح المجفف في الشمس.

(٢) **صحيح**: أخرجه ابن ماجه (٣٣١٢)، والألباني في «الصحيحة» (١٨٧٦)، وفي «صحيح الجامع» (٧٠٥٢).

كم هي حاجتنا ماسة إلى رجل كـ أبي عبيدة يرفع لواء الجهاد بعد أن استنوق الجمل، وعاثت في الأرض الغربان، واستنسر في سماء الأمة بغاث الطير.

كم هي حاجة الأمة لأمين كـ أبي عبيدة في غيبة الأمناء، حتى صارت الأمة أضيع من الأيتام على مأدبة اللئام.

تداعت علينا الأمم كتداعى الأكلة على قصعتها، لا من قلة والله، ولكن لأننا غثاء[١] كغثاء السيل، أحببنا الدنيا، وكرهنا الموت، فكان ما كان[٢]

كأني -والله- بقدوة من أولئك الصادقين يقول بلسان حاله وهو مرابط في قبره: وا أسفاه! وا أسفاه! أأنتم أحفادنا؟ أأنتم من قرأتم القرآن؟! أأنتم من درستم سيرة المختار؟!

وا أسفاه! نقشتم وصايا المختار على الجدران والأحجار، وكان الأحرى أن تنقشوها على الجنان!

وا أسفاه! أما قلت لكم: أقيموا الصلاة؟! فما بالكم تركتم الصلاة، وغادرتم المساجد لتعمروا المسارح والملاعب والملاهي؟! وا أسفاه! أما قلت لكم: صوموا رمضان، وقوموه إيمانًا واحتسابًا؟! فما بالكم تجعلونه شهر الطعام والفوازير والسهر على الحرام مع ضياع الأوقات؟!

وا أسفاه! ألم أقل لكم: تصدقوا؟! فما بالكم بخلتم فما تنفقون درهمًا! إلا على أقدام راقصة أو لاعب أو صاحب مزمار أو آلة دمار وعار عار وأي عار؟!

وا أسفاه! ألم أقل لكم: حجوا واعتمروا؟! فما بالكم جُبْتُم أقطار الدنيا، وبيت الله منكم على مرمى حجر يهجر؟! أأنتم بشر؟

وا أسفاه! تغرقون في أزقة الغرب ومواخيرها، ولا تعرفون الخندق ولا بدرًا ولا أحدًا ولا الحديبية ! لا تعرفون المقام ولا الحطيم ولا زمزم ، وتعرفون أزقة باريس وما أشبهها!

ألم أقل لكم: انصحوا والدين النصيحة؟[٣] فما بالكم أتقنتم صفة النفاق تَغُشُّون وتُغَشُّون، والمؤمنون نصحة، والمنافقون غششة! وا أسفاه يا رجال الحق!

---

(١) **الغثاء**: ما يحمله السيل من زبد ووسخ.

(٢) **صحيح**: أخرجه أحمد (٢٢٤٥٠)، وأبو داود (٤٢٩٧)، والألباني في «الصحيحة» (٩٥٨) بلفظ قريب من ذلك.

(٣) **صحيح**: مسلم (٢٠٥)، بلفظ «الدين النصيحة».

يـا رجـال الحـق قـد جـلَّ الأسـى — أرجـال مـنْ أرى أمْ لا أرَى؟

ضـاعت الأمـةُ فِـي غفلـتكم — وتحيرنـا لأمـرٍ حيَّـرا

الجـوى ينخـر في أحـشائِكم — والهـوَى بَـينَ خوافِـيكُم سـرَى

اسـألوا عـن كـلِّ نـصرٍ خالـدًا — واسـألوا عـن كـلِّ عـدل عمـرا

يـا رجـالَ الحـق قـدْ طـالَ الجـوَى — وبلـغَ الـسيلُ الـرُّبا وانحـدرا

أنـتم القـدوة والـناسُ بكـم — تقَـتدي فَخـرًا وتَـزْهُو مَفخَـرَا

وحِّـدُوا أشـتاتكم واتحـدوا — واربطُـوا أحلامَكـم ربـطَ العُـرَى

واصـبروا إن عَظُـمَ الخطـبُ — فمـا يـدرك النـصر سِـوى مَـنْ صـبرا

وانـصروا الله يَهـبْكُم نَـصرَهُ — واشـكروه يُعـط مـن قـد شَـكَرَا

صدقوا ما عاهدوا: فكانوا قليلًا من الليل ما يهجعون، وبالأسحار هم يستغفرون، إذا ذكر الله وجلت قلوبهم، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانًا، أشداء على الكفار رحماء بينهم، أذلة على المؤمنين، أعزة على الكافرين؛ رضي الله عنهم أجمعين.

أحبتي في الله

هذه بعض الصفات للصادقين الغر الميامين؛ نوجه الجميع للنظر فيها: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ ﴾ [الأنعام: ٩٠]، والاقتداء المطلق كما تعلمون بنبي الله ﷺ الذي هو قدوتهم؛ لأنه لا ينطق عن الهوى ﴿ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ﴾ [النجم: ٤]، ثم يكون الاقتداء بالصالحين الصادقين في الجانب الذي تميز كل واحد فيه بما ينطبق مع أحكام الشرع ومقاصده، وكل يؤخذ من قوله ويرد إلا رسول الله ﷺ

دروس مستفادة من حياة الصحابة

وأخيرًا وبعد هذه الجولة في رياضهم: فإني أدعو الجميع من خلال ما سمعتم إلى أمور، وأسأل الله عز وجل ألا نكون من الذين إذا نزلوا بقوم خرجوا من عندهم حتى يدعوا الله عز وجل أن يفرج عنهم.

هذه أمور من خلال ما ذكر أريد أن أنبه إليها ولعلها خلاصة .

لا تحقرن من المعروف شيئًا

أولًا: لا تستقلوا قليلًا، ولا تستكثروا كثيرًا، وأحسنوا النية؛ فربَّ صغير تعظِّمه النية، ورب عظيم صغرته النية.

والقليل أولى من القعود، حتى لو كان حديثًا لأهل، أو كلامًا لطفل، أو مسحًا لرأس يتيم، أو تبسمًا لجار، أو نصحًا لرفيق في عمل، أو استماعًا لكلمة أو محاضرة أو قراءة قرآن، حتى لو كان ذلك في السيارة، وداوم فأحب العمل أدومه وإن قل، وكل ذلك يكسب الأجر، ويلحق بالركب.

﴿ فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝ ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

ألحق الطاعة بالطاعة

ثانيًا: إذا فرغت فانصب: إذا فرغت من طاعة فانصب في طاعة أخرى، ألحق العمل بالعمل، والتعب بالنَصَب، ولا تغتر بالرأي؛ فالحكمة ضالة المؤمن، وهو أولى بها.

ما ضرك أيها المؤمن بدلًا من صرف الوقت فيما لا ينفع أن تتناول كتابًا لتقرأه وتلخصه، أو تستمع لمحاضرة، أو تطالع في سير الصحابة؟! وما أكثر الأعمال! بل والله أين الأوقات؟

زيارة تكسب فيها صديقًا، أمرًا بمعروف، أو نهيًا عن منكر، تعرفًا على تاجر يعين أنشطة الدعوة الإسلامية بماله، بحثًا عن شيخ يؤثر في مستمعيه، درسًا للزوجة والأطفال ولو بالقراءة من كتاب، زيارة للمقابر، ذكرًا وتذكرًا للآخرة، حضور الجنائز، كثرة السنن، قيام الليل، صيام التطوع، صدقة السر، كل ذلك يكون في غير توان ولا بطالة؛ فإن التواني والبطالة -والله- لا يولدان إلا الخزي والندامة، على حد قول القائل:

تزوجت البطالة بالتواني ... فأولدها غلامًا مع غلامة

فأمَّا الابن سموه بفقر ... وأما البنت سموها ندامة

إن تيار الحياة محدود، وفرصة العيش بها قصيرة، فسددوا وقاربوا ولا تجهدوا أنفسكم فتملوا وتتركوا عملكم، وكونوا كما قيل:

يمشي الهوينا ويجي في الأول

الاستعجال من الشيطان

ثالثًا: لا تستعجلوا؛ فإن الاستعجال يقود إلى الفشل، فتضطر إلى تكرار العمل، فلو جمعت الوقت الأول مع وقت الإعادة لكان أطول من وقت واحد.

أقول هذا لبعض المتعجلين الذين يتهمون أهل الأناة بالتباطؤ؛ لأنهم هم يستعجلون، وليتهم يفلحون ويعملون، لكن لا حاجة يدركون، ولا أرضًا يقطعون، ولا ظهرًا يبقون، ولا لسانًا يكفون، وفي ذلك يستعجلون:

منا الأناةُ وبعضُ القومِ يحسبُنَا أنا بطاءٌ وفي إبطائِنَا سرع

اترك الفراغ

رابعا: إياكم والفراغ! فإن من مقت الإنسان أن يكون فارغًا ليس في عمل دنيا ولا آخرة، والوقت هو الحياة فلا يضيع، وما هذا المخيم إلا مساهمة في استغلال الوقت:

دقات قلب المرء قائلة له إنَّ الحياةَ دقائقٌ وثواني

المسارعة في التوبة وطلب الخيرات

خامسًا: إذا فتح لأحدكم باب خير فليسرع إليه؛ فإنه لا يدري متى يغلق عنه ذلك الباب

إذا هبت رياحك فاغتنمها فإن لكل خافقة سكون

سادسًا: إن حياة بعض الأخيار لا تخلو من ذنوب تضخم أحيانًا لحاجة في نفس، ولكني أقول للأخيار -والله ما أظن من حضر إلا أخيارًا-: إن التوبة تعدل ذلك كله ولا ضير، فصاحب التوبة على كل حال في خير، وكل منصف يعلم أن الكثير من أبناء الأمة غثاء، غفلات وشهوات، شطط وفساد، وعدوان وعداوات، فيهم كل منخنقة وموقوذة ومتردية ونطيحة وما أكل السبع، فيهم من لوَّثه الربا، وأذهله الخمر.

والأخيار -وما أنتم إلا جزء من الأخيار- رغم كل شيء هم أهل المناقب والصدق والعفة، ولا ننزِّه أحدًا، ولا نزكِّي أحدًا؛ فكلنا ذوو خطأ.

من لم يلحظ هذا فهو عن ميزان العدل ناكب!

يليق بكم -يا أيها الأخيار- أن تثقوا بأنفسكم أنكم أمثل من على الساحة، وأنكم

أهل للإصلاح، وأهل للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أهل لأن تأخذوا الزمام، فلا تلتفتوا إلى وسوسة شيطان أو أكاذيب ملا، أو تخذيل مخذِّل، ولكن اعملوا، ومن أخطأ فليتب.

ووالله! ثم والله! ثم والله! لا يسعكم القعود، إبرأوا ممن إذا أقدمتم أحْجَم، وإذا أعربتم أعجم، ألحقوا العملَ بالعمل؛ فالعمل يدفع إلى العمل، والحسنة تقود إلى الحسنة، والحركة تولِّد الحركة، والطاعة تجلب الطاعة، وليكن لسان حال الواحد منا:

أغارُ عَلَى أمَّتِي أنْ تَتِيهَ ... بهَوْجِ العَوَاصِفِ فِي العيلَمِ

وتقْعُدُ صَمَّاءَ مَضْرُورَةً ... وتطربُها لغةُ الأبكَمِ

وتَشْغَلُهَا سَفْسفَاتُ الأمورِ ... عن الفَرض والواجبِ الأقدَمِ

وتَدْفِنَ آمَالَهَا بالضُّحَى ... وتُمسِي وتُصْبِحُ فِي مَأْتَمِ

تُناشِدُ أبْنَاءَهَا عروةً ... مِنَ الدِّينِ والحقِّ لَمْ تُفْصَمِ

وتَرْجُو لِعِلاتِها مَرْهَمًا ... وَلَيْس سِوَى الدِّين مِنْ مَرْهَمِ

أخِي لا تَلِنْ فالأُلى قُدوة ... لِمِثْلِي ومِثْلِكَ في المَأزَمِ

لهم قدرهم باعتبارِ الرجال ... وسُمْعَتُهُم فِي ذُرَا الأنجُمِ

تقَدَّمْ فَأنْتَ الأبيُّ الشُّجَاعُ ... ولا تتهَيَّبْ وَلا تُحْجِمِ

علَيْك بهَدْي الرَّسُول الكريمِ ... ومنهاجِ قرآنك المُحْكَمِ

تحرَّكْ فَأنْتَ العَزِيزُ الكريمُ ... ولو أثَّرَ القيدُ فِي المِعْصَمِ

فلا تَتَنَازَلْ ولا تَنْحَرِفْ ... ولا تتشاءَمْ ولا تَسْأَم

ولا تكُ مِنْ معشرٍ تافهٍ ... يَقِيسُ السَّعَادَةَ بالدِّرْهَمِ

يعيشُ وليسَ لهُ غايةٌ ... سِوَى مشرب وسوى مطعمِ

لتكن لك خبيئة عند الله

سابعًا: ليكن لكل واحد منا خبيئة من عمل، لا يعلم بها إلا علام الغيوب؛ فلعلها الباقية النافعة.

أحبتي في الله

عليكم بمدارسة القرآن، ومدارسة السنة، ومدارسة السيرة، واقتدوا بجيل الصحابة، واتقوا الله وكونوا مع الصادقين، وما أقوله للرجال أقوله للنساء، ما يقال لهم يقال لهن، ولا أريد أن أزيد على ذلك فقد أطلت.

أسأل الله بأسمائه الحسنى، وصفاته العلا، أن يجمعنا وإياكم بالنبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا.

اللهم يا ذا العزة التي لا ترام، والملك الذي لا يضام، يا من لا يهزم جنده، ولا يغلب أولياؤه، أنت حسبنا، ومن كنت حسبه فقد كفيته، حسبنا الله ونعم الوكيل، حسبنا الله ونعم الوكيل، حسبنا الله ونعم الوكيل.

اللهم كن للمسلمين ولا تكن عليهم، اللهم كن للمسلمين ولا تكن عليهم، اللهم كن للمسلمين ولا تكن عليهم، وامكر لهم ولا تمكر بهم، وامكر لهم ولا تمكر بهم، وامكر لهم ولا تمكر بهم.

وانصرهم على من بغى عليهم، وانصرهم على من بغى عليهم.

اللهم فكَّ أسرهم، اللهم فكَّ أسرهم، اللهم فكَّ أسرهم.

اللهم قوِّ شوكتهم، واجعل الدائرة على عدوهم.

يا حي يا قيوم، يا ذا الجلال والإكرام.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.



[٢] الجنة ونعيمها

الحمد لك يا الله جعلت الفردوس لعبادك المؤمنين نُزُلا؛ فلك الحمد أولًا وآخرًا وظاهرًا وباطنًا، الحمد لله الذي يسَّرها لنا، ويسَّر الأعمال الصالحة لنا؛ فلم يتخذ السالكون إلى الله سواها شغلًا، وسهل لهم سبلها فلم يسلكوا سواها سبلًا، خلقها قبل أن يخلقهم، وأسكنهم إياها قبل أن يوجدهم، وحفَّها بالمكاره[1] ليبلوهم أيهم أحسن عملًا، وأودعها ما لا عين رأتْ، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر[2]، وفوق ذلك قال: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً ﴾ [الكهف: ١٠٨].

أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، شهادة أدَّخرها لي ولكم إلى يوم المصير، شهادة عبده وابن عبده وابن أَمَتِه، ومن لا غنى به طرفة عين عن رحمته وفضله ومنِّه وكرمه، ولا مطمع له في الفوز بالجنة والنجاة من النار إلا بمنِّه وكرمه ورحمته.

وأشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله، أرسله الله رحمة للعالمين، وقدوة للعاملين، ومحجة للسالكين، وحجة على العباد أجمعين، شرح الله به الصدور، وأنار به العقول، وفتح به أعينًا عميًا وآذانًا صمًّا وقلوبًا غلفًا:

قــدْ كــانَ هــذا الكــونُ قــبلَ وُصــولِهِ ... شُــــؤْمًا لظالِمِــــهِ وللمظلــــومِ

لمَّــا أَطَــلَّ محمــدٌ زَكــتِ الــرُّبا ... واخــضرَّ في البُــسْتانِ كــلُّ هــشيمِ

صلى الله عليه وعلى آله وصحبه والتابعين، وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته في روضة من رياض الجنة، لو أذن الله -عز وجل- لنا أن ننظر من يحفُّنا في هذا المكان لرأينا الملائكة تحفُّنا، ولرأينا السكينة تتنزل علينا، ولرأينا الرحمة تغشانا، وفوق ذلك كله أن الله -عز وجل- يذكرنا في ملئه الأعلى سبحانه وتعالى:

---

(١) صحيح: مسلم (٧٣٠٨) بلفظ «حفت الجنة بالمكاره».

(٢) متفق عليه: البخاري (٣٠٧٢)، ومسلم (٧٣١٠).

﴿ فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴾ [البقرة: ١٥٢]، ﴿ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨].

فيا عبد الله! طوبى لك يوم جئت إلى هذا البيت في ضيافة الرحمن لتنتفع بذكر قد سمعته ولكن: ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات: ٥٥].

فَأَكْثِرْ ذكرَهُ في الأرضِ دأبًا لِتُذْكَرَ في السماءِ إذا ذُكِرْتَا

ونَادِ إذا سجدتَّ لَهُ اعتِرافًا بِمَا نَاداهُ ذُو النون بنُ متَّى

تفِتُّ فؤادَك الأيامُ فتًّا وتَنْحَتُ جِسمَكَ السَّاعات نَحْتًا

وتدْعُوك المنونُ دعاءَ صدقٍ ألا يَا صَاحِ أنْتَ أريدُ أنتا

فلا تقل الصِّبَا فيه مَجَالٌ وفكرْ كَمْ صبيٍّ قد دَفَنْتَا

إذا مَا لَمْ يُفِدْك العلمُ شيئًا فليتَكَ ثمَّ ليتَك ما عَلِمْتَا

إذا لم يفدك العلم شيئًا فليتك ثم ليتك ما ذكرتا

وإنْ ألقَاكَ فهمُكَ في مَغَاوٍ فليتكَ ثمَّ ليتَك ما فَهِمْتَا

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته مرة أخرى، وأنتقل بكم إلى قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ۝ ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦].

لا إله إلا الله! لم يخلق الناس عبثًا ولم يتركهم سدى؛ بل خلقوا لأمر عظيم وخطب جسيم؛ عرض على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنَه وأشفقْنَ منه، وحمله الإنسان على ضعفه وعجزه ظلمًا وجهلًا فانقسم الحاملون له إلى فريقيْن: فريق عطَّل تفكيره، وانساق وراء شهواته وملذاته؛ كل همِّه إرضاء نزواته وإشباع غرائزه؛ بشرٌ في مسلاخ دواب -أجار الله هذه الوجوه أن تكون من هذا الصنف- نظرتهم قاصرة وعلمهم أقصر: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴾ [الروم: ٧]، ﴿ نَسُوا اللَّهَ فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [الحشر: ١٩].

أما الفريق الآخر -وأرجو الله أن أكون وأنتم منهم- فريق آمن بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًّا، جعل خوف الله في قلبه، وجعل خشية الله نصب عينيْه، فأتمر بأمر الله وانتهى عن نهيه وراقبه حق المراقبة، وقال عند سماع أوامره: ﴿ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

ومن كمال الإلوهية لله سبحانه وتعالى أن جعل للناس يومًا آخر إليه فيه يرجعون، ويوفَّون ما اكتسبوه بالقسطاس المستقيم، فيصدرون من أرض المحشر راضين بعدل الله المطلق: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ [التين: ٨]؟ بلى.

فائزين يُزفون إلى الجنة: ﴿ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [آل عمرن: ١٠٧].

وآخرون خاسرون يساقون إلى النار فهم في العذاب محضرون، يبين ذلك قول الله جل وعلا: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٦، ١٠٧].

أيها الإخوة في الله...

والإيمان بيوم الجزاء وباليوم الآخر ركن هام من أركان الإيمان؛ من لم يؤمن به لم يؤمن بالله جل وعلا.

لا يتم إيمان عبد حتى يؤمن باليوم الآخر.

وعرض الجنة ونعيمها والنار وجحيمها أسلوب ناجح لإصلاح النفوس ولهدايتها ولتهذيبها ولكسر كبريائها أحيانًا، ولحبسها أحيانًا، فمن الناس من ينفعه الترغيب، ومن الناس من ينفعه الترهيب، ومن الناس من ينتفع بالاثنين معًا، وكل ذلك ورد في كلام الله جل وعلا الذي ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ﴾ [فصلت: ٤٢]، تقدم أحدهما مرة، وتأخر أحدهما مرة، واقْترَنَا مرة أخرى، وكل ذلك في كتاب الله جل وعلا.

ومن فضل الله عز وجل أن جلَّى لنا أمر الجنة، ووصف نعيمها، وأكَّد خلودها وكمالها من غير نكد ولا تنغيص ولا نقص، لا حر ولا برد، لا تعب ولا صخب ولا نصب، لا عجز ولا هرم؛ غمسة في الجنة تنسي كل شقاء في هذه الحياة، ثم أظهر -سبحانه- في الجانب الآخر حقيقة النار وعذابها؛ لهيب يتصاعد، وصراخ مفزع، وخوف وحميم وزقوم، وتقريع وتوبيخ وأهوال، وشهيق وزفير؛ غمسة فيها تنسي كل نعيم في هذه الحياة، نسأل الله أن يجير هذه الوجوه.

ذلك كله لماذا يا عباد الله؟

ليسعى المؤمنون إلى الجنة بلهفة وشوق مشرئبين إلى نعيمها ورياضها وقصورها، ذلك كله -أيضًا- لينأى الخلق عن النار بحذر وخوف، كل ذلك: ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ

حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ﴾ [الأنفال: ٤٢]، كل ذلك ﴿ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ﴾ [الأنفال: ٣٧].

فيا أيها الإخوة في الله...

تلك مقدمة ذكرتها لابد منها

الترغيب في الجنة

أما وقفتنا هذه الليلة فوقفة -بإذن ربنا- مع الجانب المشرق ومع الجانب المفرح المشوق، مع الجنة ترغيبًا لا ترهيبًا، وحفزًا للهمم لتطلب ما عند الله، وتدفع الثمن ولو كان الدماء والأوقات والأموال وكل شيء، فحيهلًا بكم -يا عباد الله- إلى الجنة ورياضها وقصورها ودورها وحورها لنتعرف عليها؛ علَّنا أن نكون من أهلها، ولنعرف من هم أهلها؛ علنا أن نكون متشبهين بهم: إن التشبه بالكرام فلاح.

ونعرف السبل الموصلة إليها فنسلكها لنكون مع الذين أنعم الله عليهم، ففي رياضها نعيش وما راءٍ كمن سمع، وما مخبر كمعاين، أسكننا الله وإياكم فردوسها الأعلى برحمته ومنِّه وكرمه .

الجنة ما الجنة؟

الجنة ما الجنة؟!

والفردوس ما الفردوس؟!

لا خطر لها، لا مثيل لها، ورب الكعبة نور يتلألأ، وريحانة تهتز، وقصر مشيد، ونهر مطرد، وثمرة نضيجة، وحلل كثيرة، وزوجة حسناء جميلة، وفاكهة وخضرة، وحبرة ونعمة، في محلة عالية بهية، في جنة عدن عند مليك مقتدر.

بناها الله تعالى لعباده المتقين أحسن بناء، وملأها من كرامته ورحمته ورضوانه؛ فبناؤها أحسن وأجمل وأتم وأكمل بناء، وكيف لا يكون ذلك وهي لبنة من ذهب ولبنة من فضة، بلاطها المسك، وحصباؤها اللؤلؤ والياقوت والجوهر، وترابها الزعفران، وسقفها عرش الرحمن؛ لا إله إلا هو! غرفها مبنية يُرى ظاهرها من باطنها، ويرى باطنها من ظاهرها، من دخلها ينعم لا ييأس، ويخلد لا يموت، لا تبلى ثيابه، ولا يفنى شبابه.

أما أشجارها، فما أشجارها؟

ما من شجرة إلا ولها ساق من ذهب، ولها ساق من فضة.

أما ثمارها فألين من الزبد، وأحلى من العسل.

وأما ورقها فلا إله إلا الله! أحسن وأرق من رقائق الحلل.

أما تصفيق الرياح لذوائب أغصان أشجار الجنة، فيستفز من لا يطرب بالطرب.

ظل الشجرة يسير الراكب فيه مائة عام لا يقطعه؛ فأسأل الله عز وجل أن يجعلنا وإياكم ممن يستظل بظلال أشجارها، إنه غفور رحيم.

أما أنهارها فما أنهارها؟

أنهار من ماء غير آسن، وأنهار من لبن لم يتغير طعمه، وأنهار من خمر لذة للشاربين، وأنهار من عسل مصفى.

وفوق ذلك ظلُّها ممدودٌ، وطلحُها منضود، تعلمون -يا عباد الله- أن الطلح له شوك، يقول أحد الأعراب للنبي ﷺ: «ذُكر في الجنة شجرة ما نعرف منها إلا الأذى -يقصد شوكها- قال: «**ألم تسمع لقول الله تعالى**: ﴿ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴾ [الواقعة: ٢٩]». نضد هذا الشوك، فأنبت مكان كل شوكة ثمرة ألْيَن من الزبد، وأحلى من العسل، فضلا من الله ومِنَّة.

أما ماؤها -يا عباد الله- فمسكوب، حدائق وأعناب وكواعب أتراب.

أما طعام أهلها فلا إله إلا الله! فاكهة مما يتخيرون، ولحم طير مما يشتهون، شرابهم التسنيم والزنجبيل والكافور.

أما آنيتهم فالذهب والفضة في صفاء القوارير، وأَجْمِلْ بتلك الآنية!

فيها ما تشتهيه الأنفس، وتلذُّ الأعين، وفوق ذلك: مَن دخلها يخلد فيها أبدًا.

فيها روح وريحان ورب راضٍ غير غضبان.

قد ذُلِّلت قطوفُها تذليلًا، يتكئ أهلها على الأرائك لا يرون فيها شمسًا ولا زمهريرًا، ولا يسمعون فيها لغوًا ولا تأثيمًا إلا قيلًا سلامًا سلامًا.

فيها مائة درجة، والناس في الجنة على درجات؛ منهم من يبلغ أعلى الجنة، ومنهم من هو في وسط الجنة، ومنهم من هو في ربض الجنة[١]، لو أن العالمين اجتمعوا في درجة واحدة لوسعتهم[٢]

---

(١) **ربض الجنة**: ما حولها خارجًا عنها، تشبيهًا بالأبنية التي تكون حول المدن و...... القلاع.

(٢) **صحيح**: انظر «مسند أحمد» (٨٤٠٠)، و«سنن النسائي» (٣١٣٣)، و«سنن أبي داود» (٤٨٠٠)، =

سعة أبوابها: ما بين المصراعين مسيرة أربعين عامًا، وليأتين عليه يوم وهو كظيظ من الزحام.

فأسأل الله أن يجعلنا وإياكم ممن يزاحم على تلك المصاريع.

أما ما للمؤمن فيها: فللمؤمن في الجنة خيمة من لؤلؤة مجوَّفة طولها في السماء ستون ميلًا، له أهلون يطوف على بعضهم فلا يرى بعضهم بعضًا[1]، فضلًا من الله ونعمة.

أما لباس أهلها فلا تَسَل عن لباسهم؛ حرَّم عليهم الحرير والذهب في هذه الحياة وجعل لباسهم هناك من الحرير والذهب، وأنعم بذاك اللباس!

وأما صورتهم فأهلها جميعًا على صورة القمر ليلة البدر[2]؛ فلا إله إلا الله، أي جمال يكون ذاك الجمال!!! حليهم وأساورهم من ذهب وفضة ولؤلؤ وزبرجد وياقوت، من لذة إلى لذة إلى لذة، لا يجوعون ولا يظمئون، ولا ينصبون، ولا يشبعون، ولا يتعبون، وإنما لذَّات فوق لذّات: ﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [الزخرف: ٧١].

﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ ﴾ [الواقعة: ١٧، ١٨].

﴿ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا ﴿١٩﴾ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾ ﴾ [الإنسان: ١٩، ٢٠].

أما أسنان أهل الجنة: فأبناء ثلاث وثلاثين في سن الشباب، وما أجمل هذا السن يا عباد الله!

أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون: ﴿ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ ﴾ [هود: ١٠٨] في سعادة أبدية.

أما أمشاطهم فالذهب، وأما رشحهم فالمسك، وأما مجامرهم[3] فالألوَّة[4]، وهو أفضل الطيب وأفضل العود.

وأما أزواجهم فالحور العين، ولنا وقفة مع الحور العين يا عباد الله!

= و«صحيح الترغيب والترهيب» (١٣٩) جميعهم بنحوه.

(١) متفق عليه: البخاري (٣٠٧١)، ومسلم (٧٣٣٧).

(٢) متفق عليه: البخاري (٣٠٧٣)، ومسلم (٥٤٥).

(٣) مجامرهم: جمع مجمرة، وهي المبخرة، سميت بذلك لأنها يوضع فيها الجمر ليفوح به ما يوضع فيها من البخور.

(٤) صحيح: البخاري (٣٠٧٣).

أدنى أهل الجنة منزلة وأعلاهم

أما أدنى أهلها فيسير في ملكه وقصوره مسيرة ألفي عام؛ فما بالكم بأعلى أهل الجنة، إذا كان أدناهم كذلك؟ واسمعوا كما في صحيح مسلم عن المغيرة بن شعبة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «سأل موسى عليه السلام ربه: ما أدنى أهل الجنة منزلة؟ فقال الحكيم سبحانه وتعالى: رجل يأتي بعد ما أُدخل أهل الجنةِ الجنةَ، فيخيل إليه أنها ملأى، فيقول الله عز وجل له: ادخل الجنة.

فيقول: يا رب! كيف وقد نزل الناس منازلهم وأخذوا أخذاتهم؟! فيقول الله عز وجل: ادخل الجنة.

فيقول: كيف وقد أخذوا منازلهم، وأخذوا أخذاتهم، وأخذوا نعيمهم -يخيل إليه أنها ملأى- فيقول الله عز وجل له: ألا ترضى أن يكون لك مثل مُلْك مَلِكٍ من ملوك الدنيا؟ قال: بلى يا رب، وكيف لا أرضى بذلك؟! قال: فإن لك ذلك ومثله، ومثله، ومثله، ومثله، حتى بلغ الخامسة، فقال هذا العبد: يا رب رضيت رضيت، قال فإن لك ذلك، ولك عشرة أمثاله، ولك ما اشتهت عينك، ولذّت نفسك، وأنت فيها خالد: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٧]» (١)

وفي الحديث الآخر الذي روي في الصحيحين: «أن الله عز وجل بعد أن يقضي بين العباد، يبقى رجل مقبل بوجهه على النار، قد نجا منها، ولكنه لم يدخل الجنة، ولم يقدم إلى باب الجنة، فيقف، فيقول: يا رب! برحمتك اصرف وجهي عن النار، فقد قشبني ريحها، وآذاني وسمّني، وأحرقني ذكاؤها ولهبها، فيدعو ما شاء الله عز وجل أن يدعو، فيقول الله عز وجل له: هل عسيت إن صرفت وجهك عن النار ألا تسألني غير ذلك؟ قال: وعزتك وجلالك! لا أسألك غير ذلك، فاصرف وجهي عن النار.

فيصرف الله الرحيم الحليم الغفور وجهه عن النار.

فيبقى ما شاء الله أن يبقى ساكتًا ثم يسأل الله مرة أخرى، فيقول: يا رب! برحمتك قدِّمني إلى باب الجنة، فيقول الله: ويلك يا بن آدم ما أغدرك، وما أظلمك! ألم تُعطِ العهود والمواثيق ألا تسألني غير ذلك؟ قال: يا رب! برحمتك قدمني إلى باب الجنة.

---

(١) صحيح: مسلم (٤٨٥) بنحوه.

قال: هل عسيت إن أعطيتك ما سألت ألا تسألني غير ذلك؟ قال: وعزتك وجلالك! لا أسألك غير ذلك.

فيقدمه الله عز وجل إلى باب الجنة.

فيبقى هناك، ويسكت ما شاء الله أن يسكت، ثم تنفتح له الجنة، فيرى حورها، ويرى قصورها، ويرى رياضها، ويرى نعيمها، فيقول: يا رب! برحمتك أدخلني الجنة.

فيقول الله: ويلك يا بن آدم، ما أغدرك! ما أظلمك! ألم تعط العهود والمواثيق ألا تسألني غير ذلك.

قال: يا رب! برحمتك أدخلني الجنة.

قال: هل عسيت إن أدخلتك ألا تسألني غير ذلك؟ قال: وعزتك وجلالك! لا أسأل غير ذلك، قال الله عز وجل ادخل الجنة -برحمته وكرمه ومَنِّه- فيدخل الجنة فيكفيه هذا.

فيقول الله عز وجل له: تمنَّ يا عبدي فيتمنى، ثم يتمنى، ثم يتمنى، ويذكره الله -عز وجل- رحمة منه وفضلًا بالأماني التي يتمناها حتى تنقطع به الأماني، ثم يقول له: تَمنَّ، قال: لا أريد شيئًا يا رب! قال: فإن لك ما أخذت، ولك عشرة أمثاله، ولك ما اشتهت نفسك، ولذَّت عينك، وأنت فيها خالد: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٧]» [١]

يقول موسى -في الحديث الأول-: فما أعلاهم منزلة؟ قال: أولئك الذين أردت، غرست كرامتهم بيدي، وختمت عليها فلم تر عين، ولم تسمع أذن، ولم يخطر على قلب بشر: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [٢]

فلا إله إلا الله! ما أرحم الله! وما ألطف الله! وما أحلم الله! نسأله برحمته التي وسعت كل شيء أن يرحمنا برحمته، سبحانه وبحمده!

سُبحَانَ مَنْ يَعفُو وَنَهْفُو دَائِمًا ولا يزَل مهما هفا العبد عَفَا

يعطي الذي يخطى ولا يمنعه جلاله عن العطا لذي الخطا

خلق الله الرحمة يوم خلقها مائة رحمة، ثم أنزل إلى الأرض أو جزءًا واحدًا من هذه

(١) متفق عليه: البخاري (٧٧٣)، (٦٢٠٤)، ومسلم (٤٦٩) بنحوه.

(٢) صحيح: مسلم (٤٨٥) باب «أدنى أهل الجنة».

الرحمة؛ فبه يتراحم الخلق كلهم، إنسهم وجِنُّهم وعجماواتهم ودوابهم وبهائمهم؛ فإذا كان يوم القيامة رفع الله هذه الرحمة إلى التسع والتسعين عنده جل جلاله، فيتطاول إبليس -وهو في الموقف- بعنقه يظن أن رحمة الله سَتَسَعه في ذلك اليوم[(١)]

فيا من رحمته وسعت كل شيء؛ ارحمنا برحمتك.

والله! لو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة لم ييْئسْ من الجنة، ولَعمِلَ للجنة.

ووالله! لو يعلم المؤمن ما أعد الله من العذاب للكافرين لم يأمن النار أبدًا حتى يضع أول قدم من أقدامه في الجنة.

إخوتي في الله... هذا أدنى أهل الجنة وأعلاهم.

أزواج أهل الجنة

كأني بكم تقولون: ما أزواجهم؟

وأقول لكم: لا إله إلا الله! ماذا يصف الواصفون في أزواج أهل الجنة، إنهن الحور، **وما الحور يا عباد الله؟**

كواعب أتراب، لهن خدود كالورد والتفاح، ونهود كالرمان، وثغور كاللؤلؤ المنظوم، فيا له من نعيم، وأي نعيم لمن فاز بحوريات أهل الجنة! قدْ رقَّ خصر الواحدة منهن، وحاجبها وأنفها، وطال قوامها وعنقها وشعرها، تجري الشمس من محاسن وجهها إذا برزت، ويضيء البرق من بين ثناياها إذا ابتسمت، إذا قابلت زوجها، فقل ما تشاء في تقابل الشمس والقمر! إن حادثت فما ظنك بمحادثة المحبين! وإن ضمها فما ظنك بتعانق الغصنين!

يرى وجهه في صحن خدِّها، ويرى مخ ساقها من وراء لحمها وعظمها وجلدها وعصبها وحُللها، لو طلعت على أهل الدنيا لملأت ما بين السماوات والأرض ريحًا، ولاستنطقت أفواه الخلائق تسبيحًا وتهليلًا وتكبيرًا.

لو طلعت لقالوا: لا إله إلا الله! وسبحان الله والحمد لله والله أكبر!

لو طلعت لتزخرف لها ما بين السماوات والأرض، ولأغمضت عن غيرها كل عين،

---

(١) متفق عليه: البخاري (٦١٠٤)، ومسلم (٧١٥٠) بنحوه.

ولطمست ضوء الشمس كما تطمس الشمس ضوء النجوم، ولآمن مَن على ظهر الأرض بالله الحي القيوم.

نصيفها -أي: خمارها- على رأسها خير من الدنيا وما فيها[1]، لا تزداد على طول الدهور والأحقاب إلا حسنًا وجمالًا، مبرأة من الحمل والولادة والحيض والنفاس، مطهرة من المخاط والبصاق والبول والغائط وسائر الأدناس، لا يفنى شبابها، ولا تبلى ثيابها، لا يُمل طيب وصالها، قد قصرت طرفها على زوجها؛ فهن قاصرات الطرف، لا تطمح لأحد سوى زوجها، إن نظر إليها سرَّته، وإن أمرها أطاعته، وإن غاب حفظته؛ فهي معه وهو معها في غاية الأمان، لم يطمثها قبله إنس ولا جان.

كلما نظرت إليه ملأت قلبه سرورًا، وكلما حدثته ملأت أذنه لؤلؤًا منظومًا، وإذا برزت ملأت القصر والغرفة نورًا.

هن الخيرات الحسان، هن العُرُب المتحببات إلى الأزواج.

ما ظنُكم -يا أيها الإخوة في الله- بامرأة إذا ضحكت أضاءت الجنة كلها من ضحكها، إذا حاضرت زوجها فيا لذة المحاضرة! ويا لذة الكلام! وإن خاطرتْه فيا لذة المخاطرة والمعانقة! وإن كلمته فيا لذة الأسماع! فحديثها السحر الحلال.

إن طال لم يملل وإن هي حدثت ... ودَّ المُحَدَّثُ أنَّهَا لَمْ تُوجِزِ

سبحان من صورها! سبحان من عدلها! سبحان من أنشأها! سبحان من جعلها للمؤمنين الصادقين! سبحان من جمعني وإياكم في روضة من رياض الجنة، وأسأل الله أن يجمعنا وإياكم في روضة من رياض الجنة عنده .

غناء الحور

إن غنَّت هذه الحورية فيا لذة الأسماع! ليس كغنائنا؛ فُحش وخنا ومجون وتحلل، وبعضنا -يوم انتكست بصيرته- يأخذ هذا الغناء ليدخله إلى بيته، ليفسد بيته، ولينشر الفحش في بيته، وليخرج ملائكة الرحمن من بيته، وليدعو إلى الرذيلة في بيته، وينسى أن هناك غناء قد يحرمه إن لم يتُب إلى الله جل وعلا.

إن غنَّت الحورية فيا لذة الأسماع والأبصار! وإن قبَّلت فلا شيء أشهى من التقبيل،

(١) صحيح: البخاري (٢٦٤٣) باب «الحور العين وصفتهن».

وإن آنست فيا لذة الأُنس بسماع الغناء والكلام والمحاضرة، هؤلاء حوريات أهل الجنة الذين أنشأهم الله في الجنة إنشاءً.

لكن هناك حورًا من نساء أهل الدنيا صمن، وصلَّين، ووحدن وتصدقن، وقمن بالتكاليف كلها يكنَّ في الجنة أفضل من حوريات أهل الجنة، فضلًا من الله ونعمة لنساء أهل الدنيا، فطوبى لامرأة غضت بصرها عن محارم الله، وطوبى لامرأة اتجهت إلى الله لتكون أفضل من حوريات أهل الجنة الذين أنشأهم الله في الجنة إنشاء.

وأقف معكم ومع ابن الجوزي عليه رحمة الله في - رياض السامعين - وهو يصف مشهدًا من مشاهد نعيم أهل الجنة، حتى إنه ليتخايل ذلك النعيم، ويقول: والله إني لأتخيل دخول أهل الجنةِ الجنةَ وخلودهم فيها بلا تنكيد ولا تعب ولا نصب ولا صخب، يقول: فأكاد أطيش ويكاد طبعي يضيق عن تصديق ذلك لولا أن الله عز وجل ورسوله ﷺ ضمِنه لنا.

انظروا إليه وهو يصف هذا المشهد، يقول: يا أيها الإخوة! بينما رجل من أهل الجنة يتنعم فيها لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وإذا ببرق يضيء في الجنة، وهو مع حورية من حوريات أهل الجنة يتنعم معها، قال: فيرفع رأسه فإذا هو بحورية أجمل من التي بين يديه، وإذا بها تقول: يا ولي الله! أما لنا فيك جولة؟ أما لنا فيك نصيب؟

تعرض خدماتها عليه، تعرض نفسها عليه، فيقول: بالله من أنت؟

قالت: أنا ممن قال الله فيهن: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٧] وكل ما في الجنة مُذلل لأهل الجنة، فيطير بسريره إليها، فيأتي وإذا هي تَضْعُفُ بسبعين ألف جزء من النور عن التي كانت بين يديه هناك، فيتعجب ويقول: لمَ؟!

قالت: لأنني صليت وصمت وعبدت الله، أنا من نساء أهل الدنيا، لم أتزوج في الدنيا؛ فأنا أعرض نفسي عليك.

قال: أو أنت لي؟!

قالت: نعم.

جزاء من الله لك، وجزاء من الله لي.

قال: فيعتنقها أربعين عامًا لا تمله ولا يملها، تقف بين يديْه، وفي رجليْها خلاخل من ياقوت، إذا مشت سمع من خلاخلها صفير صوت كل طير في الجنة.

فلا إله إلا الله! أي نعيم هذا النعيم؟!

وهو يعتنقها ينظر ليدها اليمنى فإذا هو مكتوب عليها: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ ﴾ [الزمر: ٧٤].

يقول: مكتوب بالنور على اليمنى ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى صَدَقَنَا وَعْدَهُۥ ﴾، وعلى اليسرى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ﴾ [فاطر: ٣٤].

أما كفُّها فألْيَن من المخ، يُشم من رائحة كفها رائحة كل طيب في الجنة، وهي تمشي بين يديه، ثم يتمنى أن يمشين مشيات ومشيات؛ لأن كل مشية للحورية لها لذة ونعيم من نوع خاص، قال: فيتمنى أن تمشي، فيقول لها: اشتقت إلى مشيتك، فيكون معها سبعون ألف وصيفة -كما يقول ابن الجوزي في رياض السامعين - قال: فيمشون معها بسبعين ألف مشية فيضع الله لهم روضة من الكافور وروضة أخرى من الزعفران، فيمشين بسبعين ألف مشية في هذه الروضة ويرجعن بسبعين ألف مشية في الروضة الأخرى، لو قضى الله الموت عليه طربًا من مشيتهن لمات، ولكن خلود في الجنة ولا موت، لو تَفَلَتْ في بحار الدنيا لأصبحت بحار الدنيا كلها عذبة من تفال هذه الحورية.

ثم يشتاق بعد ذلك إلى البخور، وكل ما في الجنة رائحة طيبة، قال: فيأتين بمجامر من در فيها بخور من غير نار، فيمشين به تمشي رائحته في الجنة مسيرة مائة عام.

ثم يشتهي الغناء يا من صان سمعه عن الغناء! يا من نزَّه بيته وأهله وأذنه التي أنعم الله به عليه عن الغناء! يشتهي إلى الغناء فماذا يكون الأمر؟ كيف يكون الأمر يوم يشتهي الغناء يا أيها الإخوة؟ يقول: فيجتمعن قسمين من النساء المؤمنات اللائي كن في الدنيا قسم، وقسم آخر من نساء وحوريات أهل الجنة اللائي أنشأهن الله عز وجل في الجنة إنشاء.

فاسمع إلى كلمات هؤلاء واسمع إلى كلمات هؤلاء، أما أهل الجنة اللائي أُنشئن في الجنة فيقلن:

نحـــنُ الخَالِـــداتُ فَـــلا يَمُـــتْنَ   نحـــنُ الرَّاضِـــياتُ فَـــلا يـــسخطن

نحـــن المقـــيماتُ فـــلا يظعـــنَّ   نحـــنُ الـــنَّاعماتُ فـــلا يبأســـنَ[1]

---

(١) صحيح: «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٧٤٩)، «صحيح الجامع» (١٥٦١).

نحنُ الحورُ الحِسَان، أزواجُ قومٍ كِرَامٍ طوبى لمن كان لنا وكنا له.

فيرد نساء أهل الدنيا وحوريات أهل الجنة منهن:

نحـــنُ الُمـــصَلِّيات ومـــا صَـــلَّيْتُنَّ نحـــنُ الـــصَّائِمات وَمَـــا صُـــمْتُنَّ

نحـــنُ الُمتـــصدقاتُ ومَـــا تَـــصَدَقْتنَّ نحـــنُ العَابـــدَاتُ ومَـــا عَـــبَدْتُنَّ

تقول عائشة رضي الله عنها: فغلبنهن.

يا من سمع هذه الكلمات! لا فحش ولا خنا، لا فجور ولا تحلل، وليس كهذا الغناء، وإنما خلود بلا موت، إقامة بلا ظعن، نعيم بلا بأس، صلاة وصدقة وصيام، وكل يفخر بهذا النعيم.

أما موسيقاهن يا من نَزَّه نفسه عن الموسيقى في هذه الحياة! يرسل الله ريحه فتهز ذوائب أغصان أشجار الجنة فتحدث صوتًا يشبه صفير كل صوت طير في الجنة؛ فلا تسل عن ذاك النعيم، وهن يغنين بأصواتهن الرخيمات اللذيذات، لو قضى الله الموت على أهل الجنة طربًا بهذا الغناء لماتوا، ولكن خلود بلا موت. قال ابن عباس:

ويرسل ربنا ريحًا تهز ذوائب الأغصان، فتثير أصواتًا تلذ لمسمع الإنسان كالنغمات بالأوزان، يا خيبة الآذان لا تتبدلي بلذاذة الأوتار والعيدان.

خابت أذن تركت ذاك النعيم، وتلذَّذت بالأوتار والعيدان المحرمة: ﴿ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ﴾ [البقرة: ٦١]، هذا مشهد من مشاهد أهل الجنة، جعلنا الله وإياكم من أهل الجنة.

رجال تنافسوا على الحور

لهذا كله بادر المبادرون، وتنافس المتنافسون يوم سمعوا بما سمعوا من هذا الوصف، ماذا كان منهم يا عباد الله؟

أحدهم قال: لأشترين حورية من الحور العين بثلاثين ختمة للقرآن لا أنام حتى أختم هذه الثلاثين ختمة، ويختم تسعًا وعشرين فيغلبه النوم، فينام فيرى حورية من حوريات أهل الجنة تأتي فتركله برجلها، وتقول:

أتخطُـــبُ مثْلِـــي وعنِّـــي تَـــنَامُ ونـــومُ الُمحـــبِّينَ عنِّـــي حَـــرَام

لأنـــا خُلِقْـــنَا لكـــلِّ امــــرئٍ كَـــثيرِ الــــصلاةِ كـــثيرِ القِـــيام

فقام بعدها، وأكمل ذلك واجتهد، وقال: برحمة الله لأجتهدن إلى أن أنال هذه الحورية.

و أبو سليمان الداراني -عليه رحمة الله- ينام ليلة من الليالي، وهو عابد زاهد عبَد الله، وأخلص لله، وصدق مع الله، يمني نفسه بما في الجنة من نعيم، فيقول في ليلة من الليالي نائمًا -والنفس أحيانًا تحدث بما ترغب وبما تريد وبما تحب- قال: فرأيت -فيما يرى النائم- كأن حورية جاءتني، وقالت: ما هكذا يفعل الصالحون يا أبا سليمان ؟! أتنام وأنا أربى لك في الخدور من خمسمائة عام؟!

لا إله إلا الله! فما نام بعدها إلا قليلًا؛ جد وطلب ليلحق بها.

و أبو سليمان كانت له رحلة الحج المعروفة، والتي ذكرها صاحب حادي الأرواح -عليه رحمة الله- يقول: رافقه شاب عراقي في طريقه إلى الحج، قال: فما رأيت هذا الشاب إلا باكيًا أو تاليًا أو مصليًا؛ نركب فيتلو القرآن، ننزل فنصلي فيصلي، ويذكر الله، لا يتكلم بكلام إلا بذكر الله أو بالصلاة والقيام، قال: فقلت: لا أسأله ولا أشغله، وعندما رجعنا من رحلة الحج، ووصلنا إلى بلاد العراق .

قال: قلت له: أيها الشاب أسألك بالله؛ ما الذي هيَّجك على العبادة لا تفتر عنها؟

قال: يا أبا سليمان ! أما إن سألتني؛ فإني رأيت -فيما يرى النائم- حورية في قصر من ذهب، وقصر من فضة، له شرفتان من زبرجد وياقوت، وبينهما هذه الحورية مرخية شعرها لم أرَ جمالًا كذاك الجمال، وهي تقول لي: جِدّ إلى الله في طلبي؛ فإني أربى لك في الخدور من خمسمائة عام، فوالله برحمة الله! وأقسم على الله برحمته! لأجتهدنَّ حتى أصلها أو أهلك دونها. والله! لا أرتاح حتى أبلغ تلك المنزلة.

هيَّجهم ذكر الجنة إلى الجنة، طيَّرت الجنة نوم العابدين من جفونهم، فتركوا الفراش، واتجهوا إلى الله في أسحارهم وفي لياليهم: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ﴾ [السجدة: ١٦]، يبيتون لربهم سجدًا وقيامًا.

يأتي أحدهم، فيفرش فراشه، ثم يضع يده عليه، ويقول: والله! إنك لَلَيِّنٌ، لكن فراش الجنة ألْيَن، فيقوم ليله كله لا ينام.

هكذا -يا عباد الله- جَدُّوا إلى الله؛ لأنهم علموا ما عند الله.

سوق أهل الجنة

وكأني بكم تقولون: هل في الجنة سوق؟

ولا إله إلا الله -أيها الإخوة- كيف حال أسواقنا هذه الأيام؟

أسواقنا أشغلت المصلين عن صلاتهم، وأشغلتهم عن ذكر الله حتى يوم يُذكر الله يهربون من المساجد إلى الأسواق، إلى مجتمع الشياطين، أسواقنا فيها ما لا يعلمه إلا الله، ونسأل الله أن يعدل حال هذه الأسواق، وأن يرد الأمة إليه ردًا جميلًا؛ فما حالها سيئ في أسواقها بل حالها سيء في كثير وكثير، لكن نسأله برحمته أن يردنا إليه ردًا جميلًا.

وأهل الجنة لهم سوق لكن أي سوق يا عباد الله؟

سوقهم يوم الجمعة، فيوم الجمعة من شرفه أنه سوق -أيضًا- لأهل الجنة؛ فيأتون كل جمعة، فيركبون نجائبهم، ودوابهم من ذهب وفضة ولؤلؤ إلى كثبان المسك، فيجلسون عليها، ثم يأتيهم الريح، فتأخذ من كثبان المسك، فترمي في وجوههم، وفي نواصي خيلهم ونواصي دوابهم، فيرجعون إلى أهلهم، وقد ازدادوا حسنًا وجمالًا، فيقول أهلهم وزوجاتهم من الحوريات: والله لقد ازددتم حسنًا وجمالًا، فيقولون: وأنتم -والله- بعدنا لقد ازددتم حسنًا وجمالًا[1]

هذا هو سوق أهل الجنة، سوق أهل الجنة يا من أشغله سوق الدنيا عن طلب سوق الجنة! اتق الله، وتاجر مع الله، وإياك إياك أن تقصر رجلك عن مثل هذه المجتمعات، ومثل هذه الروضات، كم من إنسان قصر رجله عن مثل هذا المسجد، فقصرت به قدمه وزلّت به من على الصراط إلى كلاليب النار. نسأل الله العافية والسلامة.

يُعد الله -عز وجل- للذين يأتون إلى المساجد نزلًا في الجنة كلما غدوا وكلما راحوا فضلًا منه ونعمة.

نعيم الجنة لا ينفد، نعيم الجنة لا يبيد، نعيم الجنة لا يوصف، وإن من أعظم نعيم أهل الجنة -يا أيها الإخوة- حلول رضوان الله جل وعلا على عباده في الجنة، هذا من أعظم النعيم الذي ينالونه، وأعظم من ذلك التلذذ بالنظر إلى وجه الله الكريم جلّ جلاله وتقدست أسماؤه.

---

(١) صحيح: «كنز العمال» (٣٩٣٦٦)، «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٧٥٤).

ذلك اليوم يسمى يوم المزيد، يوم زيارة العزيز الحميد، تصور نفسك والله -عز وجل- يستزيرك ويزورك، لا إله إلا الله!

استمع ومَثِّل نفسك في روضات الجنة يوم يأتيك المنادي ينادي أنت وأهل الجنة: يا أهل الجنة! إن ربكم يستزيركم، فحي على زيارته.

لا إله إلا الله! من السائل جل جلاله، وتقدست أسماؤه، سبحانه لا إله إلا هو! يقولون: سمعًا وطاعة.

وينهضون إلى الزيارة مبادرين، وإذ بالنجائب أعدت لهم، فيستوون على ظهورها، وينهضون، فيستوون إلى الوادي الأفيح المبارك على كثبان المسك الذي جُعلت لهم موعدًا، ثم يأمر الرب تبارك وتعالى بكرسيه فيُنصب، ثم يأمر بمنابر لأهل الجنة منابر منوعة على قدر الأعمال من ذهب، من فضة، من لؤلؤ، من نور، من ياقوت، من زبرجد، وأدناهم -وما فيهم دنيء- على كثبان المسك؛ فلا إله إلا الله! ما أعظم نعيم الله في الجنة!

حتى إذا استقروا في مجالسهم، واطمأنت بهم أماكنهم، نادى المنادي مرة: يا أهل الجنة! إن لكم موعدًا عند الله يريد أن يُنجزكموه، يريد أن يعطيكم موعدًا فيقولون -وقد رضوا بما أتاهم من النعيم-: ألم يثقل موازيننا سبحانه وبحمده؟ ألم يزحزحنا عن النار؟ ألم يدخلنا الجنة؟ ألم يبيض وجوهنا؟ فبينا هم كذلك إذ سطع لهم نور أشرقت له الجنة، فرفعوا رءوسهم؛ فإذا الجبار جل جلاله وتقدست أسماؤه قد أشرف عليهم من فوقهم، وقال: يا أهل الجنة! سلام عليكم، فيردون بصوت واحد: اللهم أنت السلام، ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام.

ثم يضحك الله لهم -يقول أحد الأعراب: لا نعدَم خيرًا من رب يضحك[1]

ثم يقول: يا أهل الجنة! يا من أطاعوني بالغيب ولم يروني هذا يوم المزيد؛ فسلوني.

فيقولون: ربنا قد رضينا فارض عنا.

قال: لو لم أرضَ عنكم لم أسكنكم جنتي، أحللت عليكم رضواني، لا أسخط عليكم أبدًا، هذا يوم المزيد فسلوني.

لا إله إلا الله ما أكرم الله لا إله إلا الله ما أرحم الله!

---

(١) صحيح: «الصحيحة» (٢٨٠٩).

يا أيها الإخوة...

يعرض عليهم عرضًا، فيقولون: أرِنا وجهك نتلذذ بالنظر إليه، فيكشف لهم الرب جل جلاله الحجب، ويتجلى لهم، ويغشاهم من النور، ما لولا أن الله عز وجل قضى ألا يحترقوا لاحترقوا من نوره: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ [النور: ٣٥]، لا يبقى أحد في ذلك المجلس إلا حاضره ربه محاضرة، وكلمه ربه كفاحًا بلا ترجمان.

يقول الله: ألم تعمل كذا في يوم كذا ألم تعمل كذا ألم تعمل كذا فيذكره ببعض غدراته وزلاته فيقول: يارب ألم تغفر لي، قال: بمغفرتي بلغت ما بلغت.

فيا لذة الأسماع بتلك المحاضرة! ويا قرة عيون الأبرار بالنظر إلى وجه الكريم الغفار ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ۝ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ۝ ﴾ [القيامة: ٢٢، ٢٣].

فكيف تعلم؟

فإن كنت لا تدرى فتلك مصيبة ... وإن كنت تدرى فالمصيبة أعظم

هذا بعض ما أعده الله عز وجل لنا من النعيم في الجنة، يجمع هذا كله قول المصطفى ﷺ كما في الصحيحين : «**قال الله عز وجل: أعددت لعبادي الصالحين مالا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر وإن شئتم فاقرءوا: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾** [السجدة: ١٧]»[1]، إنها الجنة وكفى، إنها الفردوس وكفى، إنها طوبى وكفى.

فللَّه ما فِي حشْوِهَا من مَسرةٍ ... وأصناف لـذَّاتٍ بهـا يَتَنَعَّمُ

ولله بـرد العَيشِ بـيْنَ خِيامِها ... وَرَوْضَاتها والثَّغْرُ فِي الرَّوض يبسِمُ

ولله واديها الَّذِي هُوَ موعد المزيد ... لـوفد الحب لـو كـنتَ منهُمُ

ولله أفْـراحُ المحِبِّينَ عـندمَا ... يُخاطِبُهُم مَـولاهُمُ ويُسلِّمُ

ولله كـمْ حـوريةٍ إنْ تبسمتْ ... أضـاء لهـا نـور مـن الفَجْرِ أعظمُ

فـيَا لـذَّةَ الأبـصارِ إنْ هِـيَ أقْـبَلتْ ... ويـا لـذة الأسماع حـين تكلـم

فـيا خاطِـبَ الحسناءِ إنْ كـنْتَ بَاغِـيًا ... فهـذا زمـانُ المَهـر فَهْـوَ المُقَـدَّمُ

---

(١) متفق عليه: البخاري (٣٠٧٢)، ومسلم (٧٣١٠).

فأقْــدِمْ ولا تقــنعْ بعــيشٍ مُــنغصٍ فَمَـا فـاز باللّــذاتُ مَــن لـيس يَقْــدُمُ
وإن ضــاقتْ الدنــيَا علــيكَ بأســرِها ولَــمْ يكــن فــيها مَنــزِلٌ لــك يُعْلَــمُ
فحــيَّ علــى جــناتِ عــدنٍ فإنَّهــا منازلُــنَا الأُولَــى وفــيها المخــيمُ

رجال عملوا للجنة

يا أيها الإخوة في الله...

لما علم الصالحون هذا النعيم، ورأوا أن الفرصة قائمة، وأن السوق رائجة، وأن الثمن الجنة؛ رفعوا رءوسهم فنظروا إلى الأعلام فإذا هي أعلام الجنة قد نصبت، فشمروا إليها، فماذا عملوا؟

قدموا أموالهم ودماءهم وأوقاتهم وكل ذرة ونفس من حياتهم ثمنًا للجنة ففازوا وأفلحوا، يحدوهم في ذلك ترغيب المصطفى ﷺ إلى الجنة ونعيمها، يوم كان ﷺ لا يضع جائزة إلا الجنة على أي عمل من الأعمال.

يقول النبي ﷺ على سبيل الأمثلة في الجوائز: **«من يجهز جيش العسرة وله الجنة»** (١)، **«من يشتري بئر رومة وله الجنة»** (٢)، **«من يعمل كذا وله الجنة»**، **«من أقبل هذا اليوم ولم يدبر صادقًا محتسبًا فله الجنة»**، فتجده يرفعهم إلى الجنة دائمًا، لا يضع شيئًا ماديًا عندنا دنيويًا - وإنما يرفعهم على زخرف الدنيا إلى الجنة ونعيمها.

أرأيتم إليه يوم يرسل خالد بن الوليد رضي الله عنه وأرضاه إليه قميصًا مخوصًا بالذهب، والقميص هذا للأكيدر ملك دومة الجندل ، يوم ذهب إليه خالد فأخضعه واستأسره وأخذ قميصه الذي عليه وكان مخوصًا بالذهب -موشى بالذهب- فأرسله للمصطفى ﷺ ، يوم كنا نغزو ولا نغزى، يوم كنا نفرض شروطنا ولا تفرض علينا الشروط:

كــم صــرفتنا يــد كــنا نــصرفها وبــات يملكــنا شــعب ملكــناه

رباه! ارفع ما بالأمة.

---

(١) صحيح: البخاري (٢٦٢٦).
(٢) صحيح: البخاري (٣/ ١٣٥١) معلقًا.

رباه! ارفع ما بالأمة فإنها قد ذلت وأي ذل! ولا رافع لهذا الذل إلا أنت سبحانك وبحمدك!

يا أيها الإخوة...

يوم جاء النبي ﷺ هذا القميص نظر الصحابة وتجمعوا وقالوا: قميص من ذهب، والواحد منهم ما يجد ما يستر به سوءته، فأعجبوا بهذا، فقام النبي ﷺ ليرفعهم عن هذا الزخرف فقال -كما في البخاري -: «**أتعجبون من هذا! لمناديل سعد بن معاذ في الجنة خير منه**»[1] والله لبعض ذاك المنديل خير من هذا عند الله جل وعلا، فكان يرفعهم فارتفعوا .

أبو بكر من أهل الجنة

هاهو أولهم -وهو خير من دب على الثرى بعد الأنبياء والمرسلين- أبو بكر رضي الله عنه وأرضاه الذي كان سندًا للمصطفى ﷺ قدم ماله وأهله وكل شيء في سبيل الله يريد ما عند الله، فماذا قدم الله له من جائزة؟

اسمعوا إليه يوم يأتيه محمد ﷺ يدعوه ويدعوني ويدعوك ويدعو كل إنسان إلى قيام الساعة فيقول: «**قولوا لا إله إلا الله تفلحوا**»[2]

يريد أن ينقذهم من النار، لكن بعض الناس كالفراش لا يزال يرى النور فيتركه ويرمي بنفسه في النار.

فيقول أبو بكر -ماذا قال؟ أنفكر أو ننظر في هذا الأمر-: ما جربت عليك كذبًا، أشهد أنك رسول الله وأشهد أن لا إله إلا الله، قبل ذلك مُدَّ يدك أبايعك.

فكانت أول يد امتدت إلى المصطفى ﷺ هي يد أبي بكر رضي الله عنه الذي هضم حقه ولعنه بعض الذين أخذ الله سمعهم وأبصارهم، فرضي الله عنه وأرضاه ولعن من أبغضه وعاداه.

يا أيها الإخوة...

هل وقف أبو بكر بعد أن قال لا إله إلا الله؟

لا والله! بل قام بعد ذلك كلما سمع أمرًا للمصطفى ﷺ بلغه، وجاءه الصادون عن

---

١) متفق عليه: البخاري (٢٤٧٣)، ومسلم (٦٥٠٢).

٢) صحيح: أخرجه أحمد (١٦٠٦٦).

سبيل الله -يوم أُسري بالنبي- يقول رسولك -كما تزعم- أنه ذهب وعاد في ليلة، ونحن نضرب أكباد الإبل إلى بيت المقدس شهرًا، كانوا يظنون أن أبا بكر سيقول: أما هذه فلا، قال: إن كان قال فقد صدق(١)

يا ليت ذلك عنوان لنا في كل لحظة من لحظاتنا؛ يوم نسمع أوامر المصطفى؛ يوم نسمع أحاديث المصطفى نقول: إن كان قال فقد صدق، سمعنا وأطعنا.

فهل اكتفى بالتصديق فقط؟ لا. بل خرج من عند المصطفى ﷺ وهو لم يحفظ سوى بعض آيات من القرآن -لكنه رأى أن المسئولية عظيمة، وأن الخطب جسيم، وأن المؤمن له دور في بيته وفي مجتمعه، له دور سيسأله الله يوم يقف بين يديه: ماذا قدم لهذا الدين؟ وماذا عمل لهذا الدين؟ وعاد وقد أدخل ستة من العشرة المبشرين بالجنة في دين الله.

فلا إله إلا الله! يأتي يوم القيامة وقد أدخل في دين الله ستة من العشرة المبشرين بالجنة.

يأتي وهم في ميزانه يوم يلقى الله جل وعلا، وهل اكتفى بذلك؟ لا، بل صَفَّى تجارته وأمواله -أربعين ألفًا- ثم أخذها، فإلى أين يذهب؟ رأى المستضعفين من المسلمين ورأى الموالي الذين شهدوا أن لا إله إلا الله يوم رفض الشرفاء -كما يزعمون- والكبراء، رآهم يستضعفون ويذلون، خشي عليهم أن يفتنوا في دينهم، فقال: أتاجر مع الله.

ونعمت التجارة في شراء هؤلاء وإعتاقهم لوجه الله تعالى.

يمر على بلال في بطاح - مكة - وأهل مكة ! أعلم بشدة الحر في هذه البطاح- يمر عليه في الرمضاء وهو يضرب ويوضع فيها وتوضع الحجارة على صدره رضي الله عنه وأرضاه، وإذ به يقول: أحد أحد.

يتعلق بالله فيقول له: أحد ينجيك أحد ينجيك.

يعني الله الأحد سينجيك يا بلال ! ويذهب وهو يحترق لما يرى، فهل جلس في بيته وبقي يتكلم ويقول: إنا لله ولا حول ولا قوة إلا بالله؟ لا. بل ذهب وأخذ خمسة أواق من ذهب من حر ماله وذهب بها إلى أمية بن خلف ، إلى سيد هذا -مع أن بلالًا سيد له، وما كان سيدًا الكافر أبدًا-. وقال: هذه خمس أواق من ذهب، أتبيعني بلالًا ؟ قال: أبيعكه لا خير فيه؛ لأنه استعصى عليه ورفض أن ينساق معه إلى النار، فأخذ منه الخمس الأواقي،

---

(١) انظر «تهذيب الآثار» للطبري (٢٧٥٨)، و«مصنف عبد الرزاق» (٩٧١٩).

وقال: والله! لو أبيت إلا أوقية واحدة لأعطيتك بلالًا ، فهو زاهد فيه، قال: والله! لو أبيت إلا مائة أوقية من ذهب لأعطيتك إياها؛ لأن لأبي بكر معايير ومقاييس ليست لذاك ولأمثال ذاك من الذين أخذ الله سمعهم وأبصارهم.

فهل وقف عند ذلك؟

قام المستهزئون وقام الساخرون يقولون: ما أنفق أبو بكر هذا المال وأعتق بلالًا إلا ليد كانت لبلال عنده أي: لنعمة ولمعروف قدمه بلال يريد أن يكافئه أبو بكر ، لكن الرد جاء ممن يدافع عن الذين آمنوا، من الله جل وعلا يأتي فورًا الرد وينزل به جبريل على المصطفى ﷺ ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴾ [الليل: ١٩] ما لأحد عند أبي بكر من نعمة تجزى: ﴿ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ [الليل: ٢٠]، ما جزاؤك يا أبا بكر ﴿ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴾ [الليل: ٢١].

من الذي وعده بالرضا؟ الذي خلقه والذي أمره والذي أعد له ما أعد، والذي جعل إعتاق الأرقاء من أعظم الأعمال.

فهل توقف أبو بكر عند هذا؟ لا والله! ما توقف وما كان له أن يتوقف.

ووالله! لو استرسلنا في كلامنا عن أبي بكر لما كفانا هذا المجلس ولا مجالس أخر ولكن حسبنا منه هذه المواقف.

ماذا أعد الله عز وجل له؟

يدعى أما أبو بكر يوم القيامة من أبواب الجنة الثمانية، كل من باب، كما أخبر بذلك المصطفى ﷺ [1]

هل أبو بكر فقط؟

ننتقل لغيره لنرى ونعلم أن هناك رجالًا قد قدموا وأننا إذا مشينا على ما مشوا عليه واقتدينا بما اقتدوا به وصلنا إليهم بإذن الله جل وعلا.

أبو الدحداح يشتري نخلة في الجنة

جاءت المصطفى ﷺ خصومة -كما روى البخاري عليه رحمة الله- بين يتيم وصحابي على نخلة، والناس على الدنيا تجد النزاع بينهم عظيمًا، ولم يخل منه حتى عهد المصطفى ﷺ

(١) متفق عليه: البخاري (١٧٩٨)، ومسلم (٢٤١٨).

وكان هناك بستان لهذا الصحابي بجانب بستان آخر لهذا اليتيم وبينهما نخلة، وهذا اليتيم لا زال لم يدرك حق الإدراك، فقال هذا الصحابي: هذه النخلة لي.

وقال هذا اليتيم الصغير: هذه النخلة لي.

تشاجرا فذهب اليتيم فاشتكي هذا الصحابي إلى المصطفى ﷺ، فأحضر هذا الصحابي وقال: هذا اليتيم يشكوك -أو كما قال ﷺ - في نخلة أخذتها له.

قال: والله ما كان ذلك لي يا رسول الله! وما كنت لآخذ نخلته، قال النبي ﷺ : إذًا نخرج ونعاين.

خرج النبي ﷺ ولم يعتمد على كلام هذا ولا هذا وإنما خرج ليعاين البستانين ويعاين النخلة، تواضعًا منه ﷺ وحكمًا بالعدل؛ لأنه يأخذ عن العدل سبحانه وتعالى.

وعندما وصل إلى ذاك المكان؛ فإذا بالنخلة في بستان الصحابي واضحة جلية، فهل يعطف على هذا اليتيم فيحكم بغير حكم الله؟ لا. ما كان ذلك لرسول الله ﷺ .

فحكم بالنخلة للصحابي فذرفت دموع اليتيم على خديه؛ فأراد النبي ﷺ أن يجبر كسر قلب هذا اليتيم؛ لأنه لم يدرك الحق.

فقال لهذا الصحابي: أتعطيه هذه النخلة ولك بها عذق نخل في الجنة؟

لكن الصحابي كان في وقت غضب إذ كيف يشكوه إلى المصطفى ﷺ والحق له! وكان في الجلسة رجل يتمنى مثل هذه الفرصة اسمه أبو الدحداح رضي الله عنه وأرضاه، قال: يا رسول الله! لئن اشتريت هذه النخلة وأعطيتها هذا اليتيم ألي العذق في الجنة؟ قال: لك ذلك.

فيلحق بهذا الصحابي ويقول: أتبيعني هذه النخلة ببستاني كله.

قال: أبيعكها. لا خير في نخلة شكيت فيها إلى رسول الله ﷺ .

فباعه النخلة بالبستان كله، وذهب إلى أهله ونادى فيهم: يا أم الدحداح ! ويا أبناء أبي الدحداح ! قد بعناها من الله فاخرجوا منها، فخرج ومع أطفاله بعض الرطب فقام يأخذه ويرميه فيها ويقول: قد بعناها من الله جل وعلا بعذق في الجنة، لا نخرج منها بشيء، خرج هو وأهله وقد باع كل شيء واشترى عذقًا من نخلة عند الله جل وعلا[1]

---

(١) انظر «سنن البيهقي الكبرى» (٦/ ٦٤) بنحوه.

فهل قال: انتهينا.

لنا في الجنة عذقًا ويكفي، لا نصلي ولا نصوم ولا نعمل أي شيء، لا فإن الذي بذل هذه سيبذل أعظم منها، بذل المال وبذل الأولاد وبذل كل نعيم في هذه الحياة ثم في الأخير يقدم نفسه لله جل وعلا.

يخرج في معركة أحد ؛ والتي ابتلي فيها المؤمنون ابتلاء شديدًا، وربي فيها المؤمنون تربية عظيمة، وكسرت فيها رباعية المصطفى ﷺ وشج وجهه، يوم انتهت المعركة ذهب يفتش ﷺ وهو في تلك الحالة عن أصحابه يتفقدهم، ويأتي إلى صاحب العذق إلى أبي الدحداح ، وإذ به مضرج بدمائه، فيرفعه ويمسح الدم عن وجهه ويقول: **«رحمك الله يا أبا الدحداح ! كم من عذق مذلل الآن لأبي الدحداح في الجنة»** (١)

لا إله إلا الله! ماذا خسر أبو الدحداح ؟! خسر ترابًا؟! خسر شجيرات؟! خسر نخيلات؟! لكنه فاز بجنة عرضها كعرض الأرض والسماوات: ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

هل هذا فقط في عهد المصطفى ﷺ ؟ والله! إن الأمثلة لكثيرة وإن النماذج لعظيمة، ولكني أنتقل بكم إلى نموذج آخر قصير.

حنظلة تغسله الملائكة

حنظلة وما حنظلة يا أيها الإخوة؟!

ذلك العبد الذي يؤمن في يوم ويتزوج وفي ليلته التي يدخل فيها على زوجته وبعد ما يقضي وطره من زوجته، وإذ بمنادي الجهاد ينادي: يا خيل الله! اركبي.

يا خيل الله! اركبي.

أيجلس مع هذه في كامل زينتها في أول ليلة من زواجه، خرج وهو جنب ليقدم نفسه إلى الله لتنتهي المعركة ويجدوه مدرجًا بدمائه، والمياه لا زالت تقطر من على رأسه وجسده، من أين جاءته المياه ولا مطر؟

فيقول المصطفى ﷺ : **«لقد رأيته بين السماء والأرض تغسله الملائكة في صحاف من ذهب وفضة؛ فسلوا زوجه»** (٢)

---

(١) صحيح: مسلم (٢٢٨٣) بنحوه.

(٢) صحيح: أخرجه البيهقي في «الكبرى» (٤/ ١٥)، و ابن حبان في «صحيحه» ؛(٧٠٢٥)، والألباني في «أحكام الجنائز» (١ / ٥٦) بنحوه./

ذهبوا لزوجته ليسألوها قالت: خرج وهو جنب.

خرج وهو جنب فغسل في صحاف من ذهب، بشرى له الآن وله عند الله ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر؛ ذاك غسيل الملائكة والله! لن نبلغ مراتبهم حتى نتبع الطريق الذي اتبعوا، نتبع ذلك النور الذي أخذوا منه، والذي اقتبسوا منه، وإن لم نقتبس ونأخذ من ذلك النور فوالله! إنها الخيبة والندامة.

نسأل الله ألا نكون من أهل الخيبة والندامة.

لا نقول ذلك فقط، بل سننتقل بكم إلى نموذج آخر في عصر متأخر.

قصة طفل يرويها أبو قدامة الشامي

ويذكر هذا ابن الجوزي في صفة الصفوة في الجزء الرابع، رجل اسمه أبو قدامة الشامي - وهو غير ابن قدامة - يقول أبو قدامة الشامي أغارت جيوش النصارى على بلدة من بلاد الشام .

يوم كانوا إذا أغاروا وجدوا الليوث أمامهم، يوم كانوا إذا أغاروا نيل منهم ما نيل ورجعوا ليدفعوا الجزية صاغرين، فماذا يعمل؟

ذهب إلى المسجد الذي تعقد فيه مؤتمرات المسلمين، والذي تعقد فيه كل مشاكل المسلمين لحلولها، والذي تطرح فيه الآراء ومنه تنطلق الجيوش والكتائب، والذي ما كان ﷺ يعمل عملًا إلا وانطلق من هذا المسجد يذهب أبو قدامة إلى المسجد، ويقف على منبر المصطفى ﷺ وينادي في الناس على المنبر في خطبة الجمعة -حضر النساء والرجال- نداء عظيمًا ويقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ تِجَٰرَةٖ تُنجِيكُم مِّنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ۝ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ۝ ﴾ [الصف: ١٠، ١١]. ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا ﴾ [التوبة: ٤١]، لم يترك آية من آيات الجهاد، ولا حديثًا من أحاديث المصطفى ﷺ؛ فاشرأبت الأعناق إلى الجنة وأرادت ما عند الله، منهم من يريد اثنتين وسبعين حورية من الحور العين، ومنهم من يريد ما هو أعظم من ذلك كالنظر إلى وجه الله الكريم.

فخطب أبو قدامة خطبته وصلى الناس، وكل في نفسه أن يدَّخر له عند الله منزلة بمشاركته في هذا الجهاد حتى النساء والأطفال، وخرج ذاهبًا إلى بيته وبينا هو في الطريق في أحد الأزقة، وإذ بامرأة تقول: السلام عليك يا أبا قدامة ! قال: فقلت في نفسي: لعلها

تريد أن تفتنني ؛ لأنه يعلم أن النساء في الغالب فتنة، فاتقوا الدنيا واتقوا النساء.

قال: فلم أرد عليها.

فقالت: السلام عليك يا أبا قدامة ! قال: فلم أرد عليها.

قالت: السلام عليك يا أبا قدامة ! ما هكذا يفعل الصالحون.

قال: فتوقفت.

قال: فجاءت وقالت: يا أبا قدامة ! سمعت منك ما قلت على المنبر، سمعت آيات الله وأحاديث المصطفى ﷺ ، وهذا ظرف أقدمه لعلي أكتب عند الله من المجاهدات في سبيله فقال: ماذا فيه؟ قالت: فيه ضفيرتان من شعري، والله! لم أجد ما أقدمه أغلى من هاتين الضفيرتين، اجعلها لجامًا لفرسك في سبيل الله، علّ الله أن يكتبني في عداد المجاهدات في سبيله، فأجهش أبو قدامة بالبكاء، وقال: والله! هذا هو أول النصر.

هذه بشارة النصر؛ أن تقدم امرأة شعرها يوم لم تجد ما تقدمه إلا هذا، جادت بها لديها يوم لم تجد إلا شعرها وهو أعز ما لديها، فأخذه وذهب لبيته وبقي يجمع في الصفوف.

وفي اليوم الثاني ينطلق بكتائب الإيمان يريد أن يقابل الروم في موقعة من المواقع، وإذ بذاك الطفل يقابله، طفل صغير أمثاله عندنا لا زالوا يلعبون في الشوارع لا هدف لهم ولم يغرس فيهم أي هدف.

يقول يا أبا قدامة ! أسألك بالله إلا جعلتني في عداد المجاهدين في سبيل الله.

قال: يا بني! أخشى عليك أن تطأك الخيل والإبل بأخفافها.

قال: أسألك بالله لا تحرمني الشهادة في سبيل الله.

أطفال -يا أيها الإخوة- بهذه الهمم؛ أسأل الله يجعل في الأمة رجالًا كهؤلاء الأطفال.

ويتقدم أبو قدامة مندهشًا فيقول: أقبلك بشرط واحد: إن استُشهدت في هذه المعركة أن أكون من شفعائك عند الله لأنك ستشفع في سبعين.

قال: قبلت الشرط.

فركب معه، وأبو قدامة يحار في تلك المرأة ويحار في هذا الصبي.

ويقول: والله! جيش لجام الفرس فيه ضفائر امرأة وفيه مثل هذا الطفل يريد أن يموت في سبيل الله؛ جيش لا يهزم بإذن الله: ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ﴾ [الحج: ٤٠].

أخذه رديفًا له على دابته، وبينما هم مقبلون على الروم، قال: يا أبا قدامة ! وكان يحمل معه خرجًا لا يعلمون ما فيه- فقال: يا أبا قدامة ! أسألك بالله ثلاثة أسهم أرمي بها في سبيل الله.

قال: يا بني! ستضيعها ولا نستفيد منها دعها لمجاهد يوغل بها في الروم.

قال: أسألك بالله ثلاثة أسهم.

قال: لا تنس الشرط.

قال: لا أنساه.

قال: فأعطاه ثلاثة.

وعندما قابلوا الجيش أخذ الأول وقال: السلام عليك يا أبا قدامة ! وأطلقه فقتل روميًا، ثم أخذ الثاني وقال: السلام عليك يا أبا قدامة ! فقتل روميًا آخر، ثم أخذ الثالث فقال: السلام عليك يا أبا قدامة ! سلام مودع ثم رمى به فقتل روميًا وجاءه سهم طائش فضربه في لُبته فسقط من على الفرس.

يقول أبو قدامة : فسقطت وراءه، وأقول له: يا بني! لا تنس الوصية، أي: لا ينسى أن يشفع له عند الله جل وعلا، قال: يا أبا قدامة ! خذ هذا الخرج وأعطه أمي، قال: ومن أمك؟ فقال: أمي صاحبة الضفيرتين.

الله أكبر! أُسَر يخرج منها أمثال هؤلاء هي أُسَر المؤمنين، هذه هي الأسر التي نرجو من الله أن يكثر من هذه الأسر في أسر المؤمنين.

فيندهش مكانه ويجهش بالبكاء ويجلس، ويقول: الله أكبر! جيش فيه مثل هؤلاء وفيه مثل هذه الأُسَر لا يهزم أبدًا، أبشروا بالنصر أبشروا بالنصر.

ويأتوا ليدفنوه فيفتحوا له القبر ويضعوه وبينما هم يدفنونه إذ لفظته الأرض فتعجبوا وخافوا واندهشوا.

يقول ابن الجوزي : والموقف يستحق ذلك -أن يدهشوا- قال: فأخذتني سنة من نوم -والناس يدوكون ويقولون: لعله لم يستأذن أبويه، لعله مراء، لعله كذا مع أنه لم يبلغ الحلم، ولم يكلف بهذا كله- وإذ بمناد يناديني ويقول: يا أبا قدامة ! اترك ولي الله.

يا أبا قدامة ! اترك ولي الله.

هؤلاء هم أولياء الله الذين أخذوا طريق الله وأخذوا طريق رسول الله؛ لا أولياء الشر

والبدعة والخرافة، إن هؤلاء هم الأولياء.

أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، الذين يتبعون الرسول ﷺ الذي يأخذ عن الوحي والذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحي.

وإذ بطير تنزل من السماء فتلقط لحمه من على عظمه حتى لا يبقى على عظمه شيء، وتأخذه إلى السماء.

قال: فزادت الدهشة.

قال: ثم دفنا عظامه وذهبنا، وكان أن نصرنا في هذه الموقعة، ورجعنا بالخرج هذا لنذهب به إلى صاحبة الضفيرتين أم الولد لنعزيها في ابنها.

قال: فجئت إلى البيت وطرقت الباب فخرجت أخته وقالت: أمهنئ أم معز؟ قال: بل مهنئ.

قالت: إذًا استشهد أخي.

قال: إي والله لقد استشهد.

قالت: إذًا فهنئنا، لقد رزئنا بأبينا فاحتسبناه عند الله، ورزئنا بأخينا الأكبر فاحتسبناه عند الله، والآن روزئنا بأخينا الأصغر فنحتسبه عند الله، فلنا ما لهم في الجنة عند الله.

فتخرج أمه فيقول: أحسن الله عزاءك في ابنك.

قالت: أمعز.

أم مهنئ قال: بل مهنئ.

قالت: وما أدراك؟ قال: أنه شهيد.

قال: لذلك علامة ذكرها لي.

فما كان منه إلا أن قام ليذكر هذه العلامة.

وقال: يوم أن دفناه لفظته الأرض وجاء الطير من السماء فالتقطت هذا اللحم فلم يبق إلا عظمه، قالت: إذا فهنئني الآن، إنه شهيد بإذن ربه تبارك وتعالى.

قال: فما هذا الخرج الذي أوصاني أن أعطيك إياه؟ قالت: أتدري ماذا فيه؟ ثم أخرجت ما فيه فإذا هو قيد وإذا هو لباس من صوف خشن.

قال: ما هذا يا أمة الله؟

قالت: كان إذا جنه الليل أخذ هذا القيد فقيد نفسه، ثم أخذ هذا اللباس فلبسه، ثم بقي طول ليله يذكر الله قائمًا وقاعدًا وعلى جنبه يبكي ويضرع إلى الله، فإذا جاء وقت السحر -وقت نزول الرب تبارك وتعالى: ﴿ هل من داع فأستجيب له ﴾ يوم يأتي ذاك الوقت- يرفع يديه ويقول: اللهم لا تحشرني إلا من حواصل الطير شهيدًا في سبيلك، اللهم لا تحشرني إلا من حواصل الطير شهيدًا في سبيلك(١)

طفل صدق الله فأعطاه الله ما سأل فله في الجنة ما لا عين، رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

والنماذج -والله- كثيرة، ولن نتوقف عند ذلك، وإنما نأخذ بعض الأعمال التي توصلنا إلى ما وصلوا إليه يا أيها الإخوة.

سلعة الله الجنة

يا أيها الإخوة...

هذه سلعة الله، وهذا بعض نعيمها: وما راءٍ كمن سمع، وما مخبر كمعاين.

سلعة الله غالية! سلعة الله الجنة! خلقها الله يوم خلقها وخلق فيها ما لا عين رأت ثم قال لجبريل: اذهب فانظر إليها -كما في صحيح مسلم - فذهب إليها ونظر، فإذا فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت فرجع وقال: يا رب! وعزتك وجلالك لا يسمع بها أحد إلا دخلها، فحفها الله بالمكاره -حفها الله بالتكاليف وبما يجب أن نعمله- ثم قال: ارجع ثم انظر إليها يا جبريل.

فنظر فإذا هي حفت بالمكاره فعاد فقال: يا رب! وعزتك وجلالك قد خشيت ألا يدخلها أحد. يخشى ألا يدخلها أحد لما حفت به من المكاره(٢)

يا أيها الإخوة...

خلقها الله وجعلها دار رحمته وكرامته ورضوانه ثم قال لها: تكلمي.

قالت: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ [المؤمنون: ١].

---

(١) انظر «صفة الصفوة» (٤/ ١٩٩- ٢٠١).

(٢) حسن صحيح: أخرجه النسائي (٣٧٦٣)، وأحمد (٨٦٣٣)، وأبو داود (٤٧٤٦)، والألباني في «صحيح الجامع» (٥٢١٠).

فمن هم أهلها إذًا؟

أهلها المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون، والذين هم عن اللغو معرضون، والذين هم للزكاة فاعلون، واقرءوا أول سورة المؤمنون.

أهلها من أطاع الله ورسوله فحققوا التوحيد، وأصلحوا العمل، واتبعوا المصطفى ﷺ ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ [الفتح: ١٧].

وقال ﷺ مبينًا أهلها: «**كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى!**» قالوا: ومن يأبى يا رسول الله؟ - لا يتصورون أن هناك إنسان يأبى ذلك - قال: «**من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى**»[١]

أهلها من حاربوا البدع وأحيوا السنن وعلموا أن البدع مردودة ليس لها قبول، قبيحة ليس فيها حسن، ضلالة ليس فيها هدى، باطل ليس فيها حق، وزر ليس فيها أجر؛ لأنها شرع لم يأذن الله به، ولم تكن على أمر المصطفى ﷺ ولا على أمر أصحابه، والنبي ﷺ يقول: «**من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو عليه رد**»[٢] وهو القائل ﷺ: «**كل بدعة ضلالة**»[٣]

أهلها من أقام الصلاة وآتى الزكاة وصام وحج وصدق مع الله واتبع سنة المصطفى ﷺ: «**من رغب عن سنتي فليس مني**» كما أخبر ﷺ[٤]

أهلها من تركوا المراء: «**أنا زعيم ببيت في ربض**[٥] **الجنة لمن ترك المراء وإن كان محقًا**».

أهلها من ترك الكذب: «**أنا زعيم ببيت في وسط الجنة لمن ترك الكذب وإن كان مازحًا**».

مَن أهلها؟

أهلها من حسنت أخلاقهم: «**أنا زعيم ببيت في أعلى الجنة لمن حسن خلقه**»[٦]

---

(١) صحيح: البخاري (٦٨٥١).
(٢) صحيح: مسلم (٤٥٩٠).
(٣) صحيح: مسلم (٢٠٤٢).
(٤) متفق عليه: البخاري (٤٧٧٦)، ومسلم (٣٤٦٩).
(٥) الربض: حوالي الجنة وأطرافها.
(٦) حسن. أخرجه أبو داود (٤٨٠٠)، والألباني في «الصحيحة» (٢٧٣)، وفي «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٦٤٨).

يقول أحد السلف: ذهب حسن الخلق بخيري الدنيا والآخرة.

أهلها أهل قيام الليل: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [السجدة: ١٦].

أهلها ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١٣٤].

أهلها من بذلوا أنفسهم ليأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر، ولما كان الأمر والنهي يجد الإنسان في طريقه المتاعب ويجد المشاق، جعل الله له في الجنة جزاء عظيمًا، اسمع لأبي هريرة رضي الله عنه يوم يذكرك بهذا الجزاء، فيقول: «إن في الجنة حوراء يقال لها العيناء، إذا مشت مشى حولها سبعون ألف وصيفة، كلهن مثل جمالها، تقول هذه العيناء: أين الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر؟»[1] عوضًا لهم عما لاقوه في الدنيا من أذى، عوضًا عما لاقوه من مشقة، واستهزاء وسخرية.

من أهلها؟

أهلها من باتوا لا يحملون على أحد حسدًا.

أهلها أهل العفو.

أهلها من ضمن ما بين لحييه وما بين فخذيه.

أهلها من أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، ووصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام.

أهلها من راقبوا الله جل وعلا في كل حركة من حركاتهم وسكناتهم وعلموا كما أخبر الصادق المصدوق ﷺ: **«أن ما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام، وسمك كل سماء خمسمائة عام، وما بين كل سماء وسماء مسيرة خمسمائة عام، ومن فوق ذلك خمسمائة عام ومن فوق ذلك عرش الرحمن»** .

الله مستو عليه عال عليه بائن من خلقه: ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ﴾ [المجادلة: ٧]

---

(١) انظر «عمدة القاري شرح صحيح البخاري» (٢١/ ١٩٥)، و«إحياء علوم الدين» (٤/ ٥٤٣)، و«التذكرة» للقرطبي (١ / ٥٥٥).

يجب أن نستشعر هذا.

الله عز وجل معنا بعلمه، ومعنا بقدرته، لا يمكن أن نذهب عن نظر الله طرفة.

إن بعض الناس يوم يعصي الله يستتر بالجدران ويستتر بالحيطان ونسي الواحد الديان.

لا تنظر إلى المعصية ولكن انظر إلى عظمة من عصيت.

ألا أن سلعة الله غالية! ألا إن سلعة الله الجنة! هبت رياح الجنة فاغتنموها لتفوزوا بنعيمها: ﴿ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، ألا فالسباق السباق!

ألا فالبدار البدار!

جددوا السفن فإن البحر عميق، وأكثروا الزاد فإن السفر طويل، وخففوا الحمل فإن العقبة كئود: ﴿ سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الحديد: ٢١].

﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٣١].

يا مذنبًا! أذنب وأساء وكلنا ذاك المذنب، يا مخطًا أخطأ وزل وكلنا ذلك المخطأ والزال؛ عودة إلى الله: **«وخير الخطائين التوابون»** يقول الحق تبارك وتعالى: **«يا ابن آدم! إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك ما كان منك ولا أبالي، يا بن آدم! لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك، يا بن آدم! لو أتيتني بقراب الأرض[(١)] خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئًا؛ لأتيتك بقرابها مغفرة»** [(٢)]

ما أرحم الله! ما ألطف الله! ما أحلم الله! نسأله برحمته التي وسعت كل شيء أن يتقبل منا أعمالنا، وأن يتوب علينا.

من لنا إلا أنت يا ربنا إن لم تتب علينا.

«يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعًا فاستغفروني أغفر لكم».

فلنستغفر الله، ولنعد إلى الله.

---

(١) **قراب الأرض**: ما يقارب ملأها.

(٢) **صحيح**: أخرجه الترمذي (٣٥٤٠)، وأحمد (٢١٥١٠)، وصححه الألباني في «صحيح الترمذي».

والله! نحن بحاجة إلى التوبة -ملتزمنا ومنحرفنا وضالنا- أحوج من الماء والطعام واللباس؛ لقد كان المصطفى ﷺ يستغفر الله ويتوب إليه في اليوم سبعين مرة[(١)]، وقيل: مائة مرة[(٢)]، وهو من غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

ثم اعلموا: أن المولود إذا ولد نؤذن في أذنه اليمنى، فإذا مات نصلي عليه، فكأن الحياة ما بين الأذان والصلاة.

ولا إله إلا الله! ما أقصرها من حياة! أتقصر بالمعاصي؟! أتقصر بالشهوات والجري وراء الغرائز والنزوات؟! ما قصَّرها بهذا إلا شقي.

ونسأل الله ألا يكون بيننا شقي.

فإياكم و(سوف) وإنما عزمة إلى الله وانتبهوا من (سوف) فإن (سوف) جندي من جنود إبليس: سوف أعمل، سوف أعمل:

أعمــاركم تمــضي بــسوف ورُبمــا لا تجتــنون ســوى عــسى ولعلمــا

هـم المسوف كالتعلق بالسما

أعماركم تمضي عجالى إنما أنتم على سفر من الأسفار

كأنكم بالجنة وقد فتحت أبوابها، وتقسمها أصحابها، وغنت ألسن الأماني قريبًا من قبابها. بشرها دليلها وقال: غدًا ترين الطلح والجبالا.

فحــي علــى جــنات عــدن فإنهــا منازلــنا الأولى وفــيها المخــيم

وحــي علــى روضــاتها وخــيامها وحــي علــى عــيش بهــا لــيس يــسأم

أيـا سـاهيًا في غمـرة الجهـل والهـوى صــريع الأمانــي عمــا قلــيل ســتندم

أفـق قـد دنـا الـوقت الـذي لـيس بعـده ســوى جــنة أو حــر نــار تــضرم

وتــشهد أعــضاء المــسيء بمــا جنــى كــذاك عــلا فِــيه المهــيمن يخــتم

أسأل الله برحمته التي وسعت كل شيء أن يرحمنا.

---

(١) صحيح: البخاري (٥٩٤٨) بنحوه.

(٢) صحيح: مسلم (٧٠٣٣).

اللهم إنا نحن عبادك الفقراء إلى رحمتك فارحمنا برحمتك التي وسعت كل شيء.

اللهم جازنا بالإحسان إحسانًا وبالسيئات عفوًا وغفرانًا.

اللهم اجعل هذا الجمع جمعًا مباركًا.

اللهم اجعلنا منصرفين منه وقد كتبت لنا أن نسكن رياض جنانك.

اللهم لا تحرمنا نعيم الجنان.

اللهم ويسر لنا الطريق إليك إنك على كل شيء قدير.

اللهم بيض وجوهنا يوم تبيض وجوه أهل السنة ، وتسود وجوه أهل البدعة إنك غفور رحيم، وبالإجابة جدير.

اللهم إنا نسألك من فضلك الكريم، اللهم اجعل هذا الجمع جمعًا مغفورًا له، وإذا مشى كنت معه بسمعك وبصرك وأنت الله لا إله إلا أنت.

سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين،

والحمد لله رب العالمين

۞۞۞۞۞

[٣] صفحات مطوية

الحمد لله قَدَّم من شاء بفضله، وأخر من شاء بعدله، لا يعترِض عليه ذو عقلٍ بعقله، ولا يسأله مخلوق عن علة فعله.

هو الكريم الوهاب، هازم الأحزاب، ومنشئ السحاب، ومنزل الكتاب، ومسبب الأسباب، وخالق الناس من تراب.

الواحد الأحد العزيز الماجد، المتفرد بالتوحيد والتمجيد، ليس له مثل ولا نديد، هو المبدئ المعيد، الفعال لما يريد، جل عن اتخاذ الصاحبة والولد، ولم يكن له كفوًا أحد.

لم يزل حكيمًا قديرًا، عليمًا خبيرًا، سبق الأشياءَ علمُه، ونفذت فيها إرادته، ولا يعزب عنه مثقال ذرة سبحانه وبحمده.

لم يلحقه في خلق شيء مما خلق كلال ولا تعب، وما مسه لغوب ولا نصب، خلق الأشياء بقدرته، ودبرها بمشيئته، وقهرها بجبروته، وذللها بعزته، فذلت له الرقاب، وحارت في ملكوته فطن ذوي الألباب، وقامت بكلمته السماوات السبع والأرض المهاد، وثبتت الجبال الرواسي، وجرت الرياح اللواقح، وسار في جو السماء السحاب، وقامت البحار، وهو الله الواحد القهار، مغشي الليل النهار، خضع لعظمته المتعززون المتكبرون، وخشع له المترفعون، واستكان لربوبيته المتعظمون، ودان طوعًا وكرّها له الخلق أجمعون.

نحمده على حَزن الأمر وسهله، ونحمده كما حمد نفسه، وكما حمده الحامدون من جميع خلقه.

ونستعينه استعانة من فوَّض أمره إليه، وأقر أنه لا ملجأ ولا منجى منه إلا إليه.

ونستغفره استغفار مقرٍّ بذنبه، معترف بخطيئته.

ونشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير.

شهادة عبده، وابن عبده وابن أَمَته ومن لا غنى به طرفة عين عن رحمته؛ إقرارًا بوحدانيته، وإخلاصًا لربوبيته، فهو العالم بما تبطنه الضمائر، وما تنطوي عليه السرائر، وما تغيض الأرحام وما تزداد، وكل شئ عنده بمقدار، لا يوارى عنه كلمة، ولا يغيب عنه غائبة.

﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام: ٥٩]، ونشهد أن محمدًا عبده ونبيه ورسوله إلى خلقه، وأمينه على وحيه، أشرف من وطئ الحصى بنعله، بلغ عن الله رسالاته، ونصح له في برياته، وجاهد في الله حق الجهاد، وقاتل أهل البغي والزيغ والعناد والفساد؛ حتى تمت كلمة الله، وقطع دابر الفساد، صلوات الله عليه وسلامه -من قائد إلى الهدى- وعلى آل بيته الطاهرين، وعلى أصحابه المنتخبين، وعلى أزواجه الطاهرات أمهات المؤمنين، ومن سار على نهجهم واقتدى بهديهم من الفقهاء والزهاد والدعاة العاملين المشمرين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وسلم تسليمًا كثيرًا.

آمين آمين لا أرضى بواحدة حتى أبلغها مليون.. آمين.

أما بعد:

أحبتي في الله

لقاؤنا الليلة معكم يتجدد بعد زمن في هذه الكلمات القلائل المُعَنْوَنِ لها كما رأيتم وسمعتم: بـ(صفحات مطوية) أودعتها طرفًا من حياة بعض العلماء الأفذاذ، ونتفًا من حرص طلاب العلم على العلم، ونادرًا من ثبات أكثر أهل الملة، ونبذًا من نصح الأمة لدينها، وشذرًا من زهد العلية الأجِلَّة، وطيفًا من قوة البرهان والحجة مع السير على المحجة.

هي باقة من مكارم الآباء تهدى إلى الأبناء، وطاقات علمية نادرة، وعبقريات فذة مدهشة، هي لأهل العلم تذكرة، وللعامة والخاصة تبصرة، نرجوا أن ينعش بها العليل، ويشحذ بها الكليل، ويُبعث الوسنان، ويُوقظ الهاجع، ويُنشر المطوي، ويُفتح المغلق، وينهض المقعد، ويمشي الكسيح.

أضعها بين أيديكم كالمائدة تختلف عليها أصناف الأطعمة لاختلاف شهوات الآكلين، وأنا لا أدعي -معاذ الله- أني أتيت فيها بجديد، ولا أدعي أني أتيت بخفي أو دقيق، فهي أشهر من أن تذكر، ما أظن أحدًا منكم إلا وقد سمعها.

جمعتها من كتب السير والتراجم، مجتهدًا -فقط- باختيار اللفظ المناسب للموقف؛ فجاءت مشكلة المباني، مختلفة المعاني، راجيًا أن تنبع من بين الجوانح لتصل إلى الجوانح وتظهر على الجوارح، فإذا مر بك -يا أخي- ما لا يعجبك فلا تصعِّر خدك، ولا تعرض

بوجهك، ولا تسُلّ لسَانَكَ، ولا تجلب بخيلك وَرَجِلَك، وخذ من المائدة ما يعجبك واتهم فهمك.

فكــمْ مِــنْ عائــبٍ قــوْلا صَــحِيحًا وآفَـــتُهُ مـــنَ الفَهْـــمِ الـــسَّقِيمِ

ولا يصدنك عن الحكمة قائلها؛ فقد يقول الحكمة غير الحكيم، وتكون الرمية من غير الرامي، وربَّ حامل فقه إلى من هو أفْقَهُ.

اعْمَلْ بعلمِي وغُضَّ الطَّرْفَ عَنْ زَلَلي يَـنفَعْكَ قَوْلِـي ولا يَـضْرُرْكَ تَقْـصِيرِي

لقد خففت وإن كنت أكثرت، واختصرت وإن كنت أطلت، وتوقيت ما يتوقاه من رضي من الغنيمة فيها بالسلامة، ومن بعد الشقة بالإياب، لكني لم أجد بدًا من الوقوف على ما أودعته هذه الصفحات؛ إذ لا يسع الصمت؛ ففي الصمت عِيٌّ كعي الكَلِم، فأسأل الله بعزته وقدرته أن يمحو ببعض بعضًا، ويغفر بخير شرًّا، وبجد هزلًا، ثم يعود علينا بفضله، ويتغمدنا بعفوه، ويعيذنا بعد طول الأمل فيه، وحسن الظن به من الخيبة والحرمان.

اللهم إنا نعوذ بك من فتنة القول والعمل، ونعوذ بك من التكلف لما لا نحسن، ونعوذ بَك من العُجْب لما نحسن، ونعوذ بك من السلاطة والهذر، ونعوذ بك من العي والحصر.... آمين.

فالقـــــولُ ذُو خَطَـــــلٍ إذا مَـــا لَـــمْ يَكُـــنْ ربِّـــي مُعِينِـــي

أعذنـــي ربِّ مِـــنْ حَـــصَرٍ وَعِـــي ومـــن نفـــسٍ أُعَالِجُهَـــا عِلاجًـــا

اللهم إنا نستعينك ونتوكل عليك، ونفر من حولنا وقوتنا إلى حولك وقوتك، لا إله إلا أنت، لا سهل إلا ما جعلته سهلًا، وأنت تجعل الحَزْن إذا شئت سهلًا

فيم يختصمون؟

الصفحة الأولى: فِيمَ يختصمون؟

روي أن أبا بكر رضي الله عنه وأرضاه عيَّن عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه قاضيًا على المدينة ، فمكث عمر سنة كاملة لم يختصم إليه اثنان، لم يعقد جلسة قضاء واحدة، وعندها طلب من أبي بكر رضي الله عنه وأرضاه إعفاءه من القضاء، فقال أبو بكر: أمن مشقة القضاء تطلب الإعفاء يا عمر !

قال عمر: لا يا خليفة رسول الله ﷺ ولكن لا حاجة بي عند قوم مؤمنين، عرف كل منهم ما له من حق، فلم يطلب أكثر منه، وما عليه من واجب فلم يقصر في أدائه، أحب كل منهم لأخيه ما يحب لنفسه، إذا غاب أحدهم تفقدوه، وإذا مرض عادوه، وإذا افتقر أعانوه، وإذا احتاج ساعدوه، وإذا أصيب عزوه وواسوه، دينهم النصيحة، وخلقهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ففيمَ يختصمون؟ ففيمَ يختصمون؟ هنيئًا، ثم هنيئًا، ثم هنيئًا لمن اكتحلت عيناه برؤية ذلك الجمع.

اللهم كما حرمناه في هذه الحياة فأقر أعيننا برؤيتهم في جنات النعيم، إخوانًا على سرر متقابلين.

أولــئك الــنَّاسُ إنْ عُــدُّوا وإنْ ذُكِــرُوا ... ومـــا سِـــوَاهُم فَلَغْـــوٌ غَيْـــرُ مَعْـــدُودِ

واحــرَّ شَــوقِي إلــيهِم كُلَّمَــا هَجَــست ... نفــسِي فنفــسي بهــمْ مجــنونة الكَلَــفِ

إنِّــي ســئِمْتُ هَــوَى الدُّنْــيَا وزَهْــرَتَهَا ... ومــــلَّ قَلبِـــي ذُرَا رَوْضَـــاتِها الأُنُـــفِ

وقــد بلــوتُ لياليــهَا وأنهُــرها فَتًــى ... وحُـــــزْت لآلــــيها مــــنَ الــــصَّدَفِ

فلــم أجِــدْ غــير دربِ اللهِ دربَ هُــدَى ... وغـــــير ينـــــبوعِهِم نـــــبعًا لمُغـــــترِفِ

كَــرِّرْ عَلَــي حديــثَهُم يَــا حَــادِي ... فحدِيـــثُهُم يَجْلُـــو الفـــؤادَ الـــصَّادِي

شامة في جبين التاريخ

الصفحة الثانية: شامة في جبين التاريخ، وغرة في ثبات المؤمنين.

روى أهل السير: كالذهبي وابن حجر وغيرهم: أن عمر رضي الله عنه وجه في السنة التاسعة عشرة للهجرة جيشًا لحرب الروم، وفتح بلادهم للإسلام، وقد علم قيصر الروم من أخبار جند المسلمين، وما يتحلون به من صدق إيمان، ورسوخ عقيدة، واسترخاص النفوس في سبيل الله، وصبر وبذل للمُهَج والأرواح في سبيل الله ما علم.

علم ما أذهله وما أدهشه وما أشدهَهُ! فأمر رجالاته أن إذا ظفروا بأسير من المسلمين أن يبقوا عليه حيًا ويأتوه به، وشاء الله جل وعلا أن يقع في الأسر عدد من المسلمين من بينهم صحابي جليل قد أدرك معنى العبودية لله عز وجل فتخلص من رقِّ المخلوقين، فلا تراه إلا وهو يصوم النهار، ويتلو القرآن، يقوم في جنح الليل، ويستغفر بالأسحار، فقليلًا ما يهجع، راقبوه، فرأوا من تقاه وصلاحه وصلابته ورجولته وعقله ورزانته ما أدهشهم،

ورأوا إن كسبوه لدينهم أنهم حققوا نصرًا عظيمًا، وكسبًا عظيما، فذكروه لقيصرهم.

فقال: ائتوني به، فجاءوا به فكان الخُبْر أعظم من الخَبَر، وجاوزت المعاينة الخبر، (وما راءٍ كمن سمع) كما قيل.

نظر إليه قيصرهم فرأى فيه عزة واستعلاء المؤمن، ونجابة الأبطال، فبادره قائلا: إني أعرض عليك أمرًا، قال: ما هو؟ قال: أن تَتَنَصَّر، فإن فعلت خلَّيت سبيلك وأكرمت مثواك، فقال الأسير في أنفة وحزم: هيهات هيهات! إن الموت لأحب إليَّ ألف مرة مما تدعوني إليه.

هيهات! أنَّى لقلوب خالطتها بشاشة الإيمان أن تعود إلى ظلمات الكفر والضلال مهما كانت الإغراءات، أنَّى لقلوب عرفت النور بحق أن تتدثر بالظلام مرة أخرى مهما كانت المغريات، يفشل العرض الأول من هذا القيصر ويتحطم على صخرة الإيمان؛ لأن هذا الرجل امتلأ قلبه بعبودية الله، فلم يبقَ في قلبه متسعٌ لغير تلك العبودية.

بدأ بالإغراءات، فقال قيصرهم: لو تنصرت شاطرتك ملكي، وقاسمتك سلطاني.

يريدون أن يبيع دينه بعرض من الدنيا، يريدون أن يُصرف عن عبودية الله إلى رق المركز الذي طالما سال له لعاب كثير من الناس، فضيعوا حقوق الله في سبيل نيله، وباعوا دينهم بعرض من الدنيا.

هربوا من الرقِّ الَّذي خُلِقُوا لَهُ فَبُلُوا بِرِقِّ النَّفسِ والشَّيطانِ

فقال رضي الله عنه مبتسما في قيده: اخسأ عدو الله، والذي لا إله إلا هو! لو أعطيتني جميع ما تملك وما تملكه العرب والعجم على أن أرجع عن دين محمد طرفة عين ما قبلت.

الله أكبر! يتحطم الإغراء بالمركز على صخور الإيمان الشُّمِّ في نفس ذلك الصحابي، لماذا؟ لأنه طالب جنة، ولا يمكن أن يغرى بما هو دون الجنة، وليس بأيديهم ما هو أعلى من الجنة ليغروه به، فأنى لهم أن يصلوا إليه، إنها سلعة الله، غالية جد غالية، مهرها بذل النفس والنفيس لمالكها الذي اشتراها من المؤمنين، وايم الله! ما هزلت حتى يستامها المفلسون المعرضون الجبناء، وايم الله! ما كسدت حتى يبتاعها نسيئة وتأجيلًا المعسرون المفلسون، لقد أقيمت للعرض في السوق لمن يريد، وقيل: هل من مزيد؟ فلم يرضَ لها بثمن دون حبل الوريد.

عندها قال قيصرهم: ردوه إلى الأسْرِ، فردوه، وطلب من حاشيته وبطانته الاجتماع

فورًا لتداول الرأي في طريق يكسب به هذا الفتى ليكون من جند النصارى -وحقًا إنه كسب.

وبعد المداولة استقر الرأي على أن الشهوة طريق مجرب ناجح صُرِفَ به الكثير عن دينه ومبادئه وثوابته، فلكم رأوا ولكم رأينا ولكم نرى من أناس يعبدون الشهوة، فينفقون أموالهم في الشهوة المحرَّمة؛ لتكون عليهم حسرة وبئس الإنفاق.

يسافرون وراء الشهوة المحرمة وبئس السفر والركب، يبيعون دينهم في سبيل الشهوة المحرمة وخسر البيع، والنار حفت بالشهوات وهم يتهافتون إليها وساء التهافت، عبَّاد شهوة وبئس العبيد.

قال قيصرهم: ائتوني بأجمل فتاة في بلادي، فجيء بملكة جمال البلاد -كما يقولون- وأغراها بالأموال العظيمة إن استطاعت أن توقعه في الفاحشة؛ لأن الفاحشة طريق إلى ترك دينه، ولك أن تتصور -أخي الحبيب- ما حال هذا الرجل، شاب في كامل فتوته ورجولته وشبابه وقوته وفوق ذلك غائب عن أهله منذ شهور، وهذا عامل يجعلهم يتفاءلون، فأدخلوها عليه، فتجردت من ملابسها بعد تجردها من الحياء المترتب على التجرد من الإيمان، ولا ذنب بعد كفر، فقامت تعرض نفسها أمامه، ثم ترتمي في أحضانه، فيهرب منها قائلا: معاذ الله، معاذ الله، فتطارده ويتجنبها، ويغمض عينيه؛ خشية أن يُفتن بها، ويقرأ القرآن ويستعيذ بالرحمن ولسان حاله ومقاله: رب القتل أحب إليَّ مما تدعونني إليه، وإلا تصرف عني كيدها أَصْبُ إليها وأكن من الجاهلين.

تتابعه من جهة إلى جهة، وهو يستعيذ بالله الذي ما امتلأ قلبه إلا بعبوديته حتى يئست منه، نَقَلَة الأخبار على الباب من شياطين الإنس ينتظرون خبر فتنة ذلك الصحابي ووقوعه في الفاحشة لينقلوه إلى الآفاق شماتة في الإسلام وأهله، وإعلانًا لانتصارهم في صرفه عن دينه، ولعل غيره يتبعه في ذلك: ﴿ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ﴾ [البقرة: ٢١٧].

وإذا بها تصيح: أخرجوني أخرجوني، فأخرجوها قد تغير لونها، إذ قد فشلت مهمتها، كرتها خاسرة عاهرة فاجرة، سألها مَن عند الباب من نقلة الأخبار: ما الذي حدث؟ هاتِ البشرى، يريدون أن يطيروا بالخبر.

قالت: والله ما يدري أأنثى أنا أم ذكر، ووالله ما أدري أأدخلتموني على بشر أم على حجر.

الله أكبر! الإغراء بالشهوة يفشل أمام عبودية الله التي ما تركت متسعًا لغيرها في قلبه.

كيف يرضى طالب الحور العين بعاهرة فاجرة، ولذة قد يعقبها الهاوية؟!

كيف يرضى وقد وُعِدَ بمن لو اطلعت إحداهن إلى أهل الأرض لملأت ما بين السماء والأرض ريحًا ولأضاءت ما بينهما؟!

كيف ونصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها؟!

كيف وقد وعد بمن ينظر إلى وجهه في خدها أصفى من المرآة؟!

كيف وقد وعد بمن أدنى لؤلؤة عليها تضيء ما بين المشرق والمغرب؟!

كيف وقد وعد بمن يكون عليها سبعون ثوبًا ينفذ البصر حتى يرى مخَّ ساقها من وراء اللحم والدم والعصب والعظم؟!

كيف وقد وعد بما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر؟!

خاب من باع باقيًا بفانٍ، خاب من باع الجنة بما فيها بشهوة ساعة.

هنا يقول قيصرهم: إذًا أقتلك.

انتقل الأمر إلى التهديد وأنى لمؤمن امتلأ قلبه بعبودية الله أن يخشى تهديدًا دون نار جهنم؟! إنه هارب من النار وما هناك تهديد بما هو أعظم من النار؛ فكل تهديد دونها ولا شك.

قال رضي الله عنه: أنت وما تريد.

افعل ما بدا لك، فأمر بصلبه، ثم أمر برميه بالسهام قرب يديه ورجليه وهو يعرض عليه أثناء ذلك أن يرتد عن دينه فيأبى.

فيطلب منهم قيصرهم أن ينزلوه عن خشبة الصلب لينوع التهديد عليه؛ علّه أن يلين، فيدعو بقِدْرٍ عظيم ويصب فيه الزيت، ويوقد تحته النار حتى أصبح الزيت يغلي، ثم يأتي بأسيرين من أسرى المسلمين فيلقيهما في القدر أمام عينيه، فإذا بلحمهما يتفتت وعظامهما تبدو عارية، منظر فظيع بشع وحشي، ظنوا أنهم به وصلوا إلى قلب هذا الصحابي وإلى بغيتهم منه.

التفت القيصر إلى الصحابي وعرض عليه النصرانية ؛ فكان أشد إباء من ذي قبل، فلما يئس منه أمر به أن يلقى في القدر مع صاحبيه، فلما ذهب به دمعت عيناه، فظنوا أنه قد

جزع وسيرتد عن دينه، فعرضوا عليه النصرانية مرة أخرى فأبى، قال: ويحك فما أبكاك؟ قال: أبكاني أن قلت في نفسي إنما هي نفس تلقى الآن في هذا القدر فتذهب، وقد كنت أشتهي أن يكون لي بعدد ما في جسدي من شعر أنفس تلقى كلها في هذا القدر في سبيل الله.

لا إله إلا الله! والله أكبر! ويا لها من قلوب امتلأت بخشية الله! وعبودية الله! لم يترك فيها فراغًا لوعد أو وعيد دون الجنة أو الجحيم.

عندها ردوه إلى الأسر ووضعوا معه خمرًا ولحم خنزير، ومنعوا عنه الطعام والشراب، وبقي ثلاثة أيام يُراقَب علَّه أن يأكل لحم الخنزير، أو يشرب من الخمر فلم يفعل، وانثنت عنقه رضي الله عنه وأرضاه -مالت عنقه- من شدة الجوع والعطش وأشرف على الهلاك، فأخرجوه وقالوا له: ما منعك أن تأكل أو تشرب؟ فقال: أما إن الضرورة قد أحلت لي ذلك، ولكن -والذي لا إله إلا هو- لقد كرهت أن يشمت أمثالكم بالإسلام وأهله. لسان حاله:

فَـيَا أيُّهـا الكـونُ منِّـي اسْـتَمِعْ ... ويـا أُذُنَ الدَّهـرِ عنِّـي افهمِـي

فَإِنِّـي صـريحٌ كَمَـا تَعْلَمِـين ... حـريصٌ عَلَـى مَـبدأ قِـيِّم

ومَهْمَـا تعـدَدَتِ الـواجهات ... فَلَـستُ إِلَـى وِجْهَـةٍ أنْتَمِـي

سِـوَى قِـبلة المُـصطَفَى والمَقـامِ ... لأَرْوِى الحُـشَاشَةَ مِـنْ زَمْـزَمِ

وأُشـهدُ مَـنْ دبَّ فـوقَ الثَّـرَى ... وتحـتَ الـسَّمَا عـزةَ المُـسْلِم

يا لها من كلمة! كرهت أن يشمت أمثالكم بالإسلام وأهله.

هذه الكلمة أهديها إلى أحبتنا الذين يخجلون من مواجهة الناس بالتزامهم، تجده يوم تلاحقه أعين السفهاء بالهمز والغمز واللمز يمشي على خجل وعلى استحياء، يتوارى من القوم ليشمت غيره به، إن حامل الحق يجبر غيره على أن يخجل منه أو يموت بغيظه، فليتنبه لذلك وليكن لسان الحال:

أنَـا مُـسْلمٌ وأقـولُها مِـلءَ الـوَرَى ... وعقيدَتِـي نـورُ الحـيَاةِ وَسُـؤْدُدِي

كرهت أن يشمت أمثالكم بالإسلام وأهله.

فقال له القيصر معجبًا بثباته ورشده وقوة عقله ولبِّه: هل لك أن تُقبِّلَ رأسي فأخلي عنك -وكانوا لا يعيشون لأنفسهم- فقال: وعن جميع أسرى المسلمين؟ قال: وعن جميعهم.

فقال يُسائل نفسه: عدو من أعداء الله أقبل رأسه ليخلي عن أسرى المسلمين لئلا يقتلوا، لا ضير في ذلك، فقبله فأطلق له الأسرى وأجازه بثلاثين ألف دينار وثلاثين وصيفًا وثلاثين وصيفة كما روى ابن عائذ في السير للذهبي ، وقدم على عمر بن الخطاب رضي الله عنه وأرضاه بأسرى المسلمين ثابتًا كالطود الشامخ، يطأ بأخمصه الثرى، وهامه توازي الثريَّا، وأخبر عمر الخبر، فسُرَّ أعظم سرور، ثم قام فقبَّل رأسه وقال: «حق على كل مسلم أن يقبل رأسك»، رأس مَنْ؟ لا أظن أحدًا يجهل مثل هذا الرجل إنه عبد الله بن حذافة السهمي رضي الله عنه وأرضاه، شامة في جبين التاريخ، وغرة في جبين الزمن[1]

أحبتي في الله

لا يملك الإنسان أمام هذه المواقف التي تقف لها الهام إلا أن يقول: إنها النفوس المؤمنة يوم تجاهد في سبيل الله، لا في سبيل قول، ولا في سبيل نفس، ولا في سبيل وطن، بل في سبيل الله؛ لتحقيق منهج الله في أرض الله في سبيل الله؛ لتنفيذ شرع الله على عباد الله، ليس لها لنفسها حظ، بل كلها لله الواحد القهار، لا يخافون لومة لائم، وفيم الخوف من لوم الناس وقد ضمنوا حب وعبودية رب الناس؟ إنما يخشى الناس ولومهم من يستمد حركاته وسكناته ومقاييسه من أهواء الناس، فهو أرضيٌّ طينيٌّ دونيٌّ.

أما من يعود إلى موازين الله ليجعلها فوق كل الموازين فما يبالي بأهواء البشر وشهواتهم وقيمهم، ولا يبالي بما يقولون، ولا بما يفعلون، ولا بما يتوعدون، إنها سمة المؤمنين المحبين لله ورسوله، الاطمئنان إلى الله يملأ قلوبهم، فهلا أعددت نفسك لتكون من أمثال هؤلاء؟!

فإن الينبوع واحد، وإن المورد واحد، وإن النهر واحد، ما أخذوا منه أنت تأخذ منه، ثبات على المبادئ، وصدق مع الباري، وإخلاص في الظاهر والخافي، سماويون لا أرضيون، لا دونيون، لا طينيون، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

---

(١) انظر «شعب الإيمان» للبيهقي (١٦٣٩)، و «كنز العمال» (١٣/ ٤٩٢)، و«البداية والنهاية» (٧/ ٢٤٧)، و«تاريخ الإسلام» للذهبي (٣/ ٣٤٣).

فيا ضعيف العزم! ويا دنيء الهمَّة! أين أنت؟ لا تستطل الطريق، الطريق طريق تعب فيه آدم، وناح لأجله نوح، ورمي في النار الخليل، وأفجع للذبح إسماعيل، وبيع يوسف بثمن بخس، ولبث في السجن بضع سنين، ونشر بالمنشار زكريا، وذبح السيد الحصور يحيى، وقاسى الضر أيوب، وزاد بكاء داود، وعالج الأذى محمد ﷺ، ولكنكم تستعجلون.

إنما يقطع الطريق ويصل المسافر بلزوم الجادة وسير الليل، فإذا حاد السائر عن الطريق أو استطاله ونام الليل فمتى يصل إلى المقصود؟ متى؟ أفيقوا استيقظوا.

وخُذُوا مِنَ الأَسْلافِ مِمَّنْ قبلكُم عظةً تُنِيرُ قلوبكم وتبصروا

رُومانَ في جَبروتِها وغُرورِهَا رضخت لِمَنْ حَمَلُوا الضياءَ وحرَّرُوا

دُحِر البغاةَ بظلمِهِم وشُرُورِهِم فخذوا دروسًا منهم واستعبروا

إنما هي نفس واحدة

الصفحة الثالثة: إنما هي نفس واحدة:

روى حميد بن هلال كما في السير للذهبي قال: أتى بعض مخالفي أهل السنة مطرف ابن عبد الله عليه رحمة الله يدعونه إلى رأيهم المخالف لأهل السنة ، فقال -واسمعوا لما قال- قال: يا هؤلاء لو كان لي نفسان بايعتكم بإحداهما وأمسكت الأخرى، فإن تبين أن الذي تقولونه هدى أتبعتها الأخرى، وإن كان ضلالة هلكت نفس وبقيت لي نفس، ولكن إنما هي نفس واحدة، والله لا أغرِّر بها، والله لا أغرر بها.

إجابة حازمة وجازمة للدعاة على أبواب جهنم من أجابهم قذفوه فيها: (إنما هي نفس لا يغرر بها).

إجابة لمن لا يملك تقوى أهل الإسلام، ولا عقول أهل الجاهلية: (إنما هي نفس لا أغرر بها).

إجابة حاسمة جازمة لمن يريد أن تجعل دينك دونه: (إنما هي نفس واحدة لا أغرر بها).

يا من باع كل شيء بلا شيء! واشترى لا شيء بكل شيء: (إنما هي نفس واحدة).

إلى عباد الأهواء والشهوات: (إنما هي نفس واحدة) إلى المتاجرين ببث الشبهات:

(إنما هي نفس واحدة).

مَنْ كانَ حينَ تصيبُ الشمسُ جبهتَهُ ... أو الغبارُ يخافُ الشَّينَ والشَّعثَا
ويألفُ الظِّلَ كيْ تبقَى بَشَاشَتُهُ ... فسوفَ يسكنُ يَومًا راغمًا جَدَثَا
في قعْرِ مظلمةٍ غبراءَ موحشةٍ ... يُطيلُ فِي قَعْرِهَا تحتَ الثَّرَى اللَّبثَا
تَجَهزِي بجهازٍ تَبْلُغِينَ بِهِ ... يَا نَفْسُ قَبْلَ الرَّدَى لَمْ تُخْلَقِي عَبَثًا

إنما هي نفس يا عبد الله! فلا تغرر بها، اشترها اليوم فإن السوق قائمة، والثمن موجود وخطير، والبضائع رخيصة وفي ذات الوقت نفيسة، وسيأتي على السوق والبضائع يوم لا تصل فيه إلى قليل ولا كثير: ﴿ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ﴾ [التغابن: ٩]، ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٢٧].

يوم الحساب...

إنَّ يومَ الحسابِ يومٌ عَسِيرٌ ... ليسَ فيه للظَّالمينَ نَصِيرُ

من استطاع منكم أن يؤثر الله في كل مقام فليفعل

الصفحة الرابعة: من استطاع منكم أن يؤثر الله في كل مقام فليفعل.

في تهذيب الكمال، وفي صور من حياة التابعين أن ابن هبيرة كان واليًا على العراقين؛ والمقصود بالعراقين «البصرة والكوفة» في عهد الخليفة يزيد بن عبد الملك، وكان يزيد يرسل إليه بالكتاب تلو الكتاب ويأمره بإنفاذ ما في تلك الكتب ولو كان مجافيًا للحق أحيانا، فدعا ابن هبيرة عالميْن؛ هما الحسن البصري، وعامر الشعبي يستفتيهما في ذلك، هل له مخرج في دين الله أن ينفذ تلك الكتب؟

فأجاب الشعبي جوابًا فيه ملاطفة ومسايرة والحسن ساكت، فالتفت ابن هبيرة إلى الحسن وقال: ما تقول يا أبا سعيد؟ فقال: يـ ابن هبيرة ! خَف الله في يزيد، ولا تخف يزيد في الله، واعلم أن الله عز وجل يمنعك من يزيد، وأن يزيد لا يمنعك من الله.

يا ابن هبيرة ! إنه يوشك أن ينزل بك ملك غليظ شديد لا يعصي الله ما أمره، فيزيلك عن سريرك، وينقلك من سعة قصرك إلى ضيق قبرك حيث لا تجد هناك يزيد، وإنما تجد عملك الذي خالفت فيه رب يزيد.

يا ابن هبيرة ! إنك إن تكن مع الله وفي طاعته يكفك بائقة يزيد، وإن تكن مع يزيد في معصية الله فإن الله يكلك إلى يزيد.

فبكى ابن هبيرة حتى بللت دموعه لحيته، ومال عن الشعبي إلى الحسن وبالغ في إعظامه وإكرامه.

فلما خرجا من عنده توجها إلى المسجد فاجتمع عليهما الناس وجعلوا يسألونهما عن خبرهما مع ابن هبيرة، فالتفت الشعبي إليهم وقال: أيها الناس! من استطاع منكم أن يؤثر الله عز وجل على خلقه في كل مقام فليفعل؛ فوالذي نفسي بيده! ما قال الحسن لابن هبيرة قولًا أجهله، ولكني أردت فيما قلته وجه ابن هبيرة، وأراد الحسن وجه الله فأقصاني الله منه، وأدنى الحسن وحببه إليه[1]

أيها الأحبة...

إن القلب هو محل التأثر من الإنسان، والقلوب بيد الرحمن يقلبها كيف يشاء، ومن راءى بعلمه ونصحه فقد قطع ما بينه وبين الله، وأنى له أن يمنحه الله إقبالًا من الناس أو تأثيرًا فيهم! لذا تراه إن تكلم لم يُسْمع، وإن عمل لم يحرك ويظن أنه قد أحسن، ولكن كم من مسيء يرى أنه محسن، وجاهل يرى أنه عالم، وبخيل يرى أنه كريم، وأحمق يرى أنه عاقل، وظالم يرى أنه مظلوم، وآكل للحرام يرى أنه متورع، وفاسق يعتقد أنه عدل، وطالب علم للدنيا يرى أنه لله، والأجل قصير، والأمل طويل، والمرد إلى الله، ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله، من آثر الله دله الله على الطريق، وإنا لله من بُعْدٍ عن الطريق.

وفي السير -أيضًا- أن الحسن قد خرج من عند ابن هبيرة فإذا هو بالقراء على الباب، فقال: «ما يجلسكم هنا؟! تريدون الدخول؟! أتجالسونه مجالسة الأبرار؟ تفرقوا فرَّق الله بين أرواحكم وأجسادكم، قد فَرْطَحْتُم نعالكم، وشمرتم ثيابكم، فضحتم القراء فضحكم الله، والله! لو زهدتم لرغبوا فيما عندكم من العلم، ولكنكم رغبتم فيما عندهم فزهدوا فيكم.

أبعد الله من أبعد، أبعد الله من أبعد، أبعد الله من أبعد.

أهينوا الدنيا؛ فوالله لأهنأ ما تكونون إذا أهنتموها، ثم كان مما قال: «السكين تُحدُّ،

---

(١) انظر «مختصر منهاج القاصدين» (٢/ ٨٣)، حديث أبي الفضل الزهري (٥٩٨).

والكبش يُعْلف، والتنور يُسْجَر، ومن سمع سمّع الله به، وما أحد أعز الدرهم إلا أذله الله. تعس عبد الدرهم، تعس عبد الدينار».

أيها الأحبة...

إننا نفوس لا ألفاظ، والكلمة من قائلها بمعناها في نفسه، لا بمعناها في نفسها، فما يحسن بحامل الشريعة أن ينطق بكلام يرده عليه الشرع، ولو نافق طالب العلم لكان كل منافق أشرف منه، ولطخة في الثوب الأبيض ليست كلطخة في الثوب الأسود.

والدينار إذا كان صحيحًا في أحد وجهيه دون الآخر، أو في بعضه دون بعض فهو زائف كله، فمن ترك واجبًا مخافة أحد نزعت منه هيبة الله حتى لو أمر بعض ولده أو مواليه لاستخف به.

يقول الفضيل: إنما يهابك الخلق على قدر هيبتك لله عز وجل.

فاجعلْ رِضَا اللهِ كلَّ القَصدِ تنْجُ فَمَا يُغني رِضَا الخَلْق والخَلاقُ قد سخطا

هل يبسطون لِمَا القهارُ قابضهُ أوْ يَقْبِضونَ إذا الرّحمنُ قد بَسَطَا

لا والله.

من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه

الصفحة الخامسة: من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه[(١)]

في ذيل طبقات الحنابلة ذكر ابن رجب في ترجمة القاضي أبي بكر الأنصاري البزاز أنه قال: كنت مجاورًا في مكة -حرسها الله- فأصابني يومًا من الأيام جوع شديد، ولم أجد شيئًا أدفع به عني ذلك الجوع، وخرجت أبحث عن طعام فلم أجد، فوجدت كيسًا من حرير مشدودًا برباط من حرير أيضًا، قال: فأخذته وجئت به إلى بيتي، وحللته فوجدت فيه عقدًا من لؤلؤ لم أرَ مثله قط، قال: فربطته وأعدته كما كان، ثم خرجت أبحث عن طعام فوجدت شيخًا ينادي ويقول: من وجد لنا كيسًا صفته كذا وكذا فله خمسمائة دينار من الذهب.

قال: فقلت في نفسي إني محتاج وجائع أفآخذ هذه الدنانير لأنتفع بها وأرد عليه كيسه؟

(١) إسناده صحيح: أخرجه أحمد (٢٠٧٥٨) بنحوه.

لا ضير، فقلت له: تعال إليَّ فأخذته، وذهبت به إلى بيتي، وسألته عن علامة الكيس، وعلامة اللؤلؤ، وعدد اللؤلؤ، والخيط المشدود به، فإذا هو كما قال، قال: فأخرجته ودفعته إليه، فسلم إليَّ خمسمائة دينار -الجائزة التي ذكرها- قال: فقلت له: يجب علي أن أعيده لك ولا آخذ له جزاءً، قال: لابد أن تأخذ، وألحَّ عليَّ كثيرًا، وأنا أحوج ما أكون، قال: فقلت: والذي لا إله إلا هو! ما آخذ عليه جزاءً من أحد سوى الله، فلم يقبل الدنانير، قال: فتركني ومضى.

ورجع الشيخ بعد موسم الحج إلى بلده، وأما أنا -الإمام البزاز الكلام له- فإني خرجت من مكة وركبت البحر في وسط أمواجه المتلاطمة وأهواله، فانكسر المركب، وغرق الناس، وهلكت الأموال.

قال: وسلمني الله إذ بقيت على قطعة من المركب تذهب بي يمنة ويسرة لا أدري إلى أين تذهب بي، وبقيت مدة في البحر تتقاذفني الأمواج من مكان إلى مكان حتى لفظتني إلى جزيرة فيها قوم أميون لا يقرءون ولا يكتبون.

قال: فجلست في مسجدهم، وكنت أقرأ، قال: فما أن رآني أهل المسجد حتى اجتمعوا عليَّ، فلم يبقَ في الجزيرة أحد إلا قال: علمني القرآن.

قال: فعلمتهم القرآن، وحصل لي خير كثير من جراء ذلك، قال: ثم إني رأيت في ذلك المسجد مصحفًا ممزقًا، فأخذت أوراقه لأقرأ فيها، فقالوا: أتحسن الكتابة؟ قلت: نعم، قالوا: علمنا الخط، قال: قلت: لا بأس، فجاءوا بصبيانهم وشبابهم فكنت أعلمهم، وحصل لي من ذلك خير عظيم.

ثم رغبوا فيه فقالوا له بعد ذلك وهم يريدون أن يبقى معهم: عندنا صبية يتيمة ومعها شيء من الدنيا، ونريد أن نزوجك بها، وتبقى معنا في هذه الجزيرة.

قال: فامتنعت، فألحوا عليَّ وألزموني، فلم أملك أمام إلحاحهم وإصرارهم إلا أن جبت لطلبهم، فجهَّزوها لي، وزفُّوها إليَّ -زفها محارمها- وجلست معهم، وإذا بي أنظر إليها وإذا ذلك العقد الذي رأيته بمكة بعينه معلق في عنقها فدهشت، وما كان لي حينئذ من شغل إلا النظر لهذا العقد، فقال محارمها: يا شيخ! كسرت قلب هذه اليتيمة، لم تنظر إليها، وإنما تنظر إلى العقد، قلت لهم: إن لهذا العقد قصة، قالوا: وما هي؟ فقصصتها عليهم فصاحوا وضجوا بالتهليل والتكبير، وصرخوا بالتسبيح حتى بلغ صوتهم أنحاء الجزيرة.

فقلت: سبحان الله! ما بكم؟ قالوا: إن الشيخ الذي أخذ منك العقد في مكة هو أبو هذه الصبية، وكان يقول عند عودته من الحج ويردد دائمًا: والله! ما وجدت على وجه الأرض مسلمًا كهذا الذي ردَّ عليَّ العقد في مكة، اللهم اجمع بيني وبينه حتى أزوجه ابنتي، وتوفى ذلك الرجل، وحقق الله دعوته وزوَّجك بابنته.

فيقول: فبقيت معها مدة من الزمن فكانت خير امرأة، رزقت منها بولدين، ثم توفيت فعليها رحمة الله، فورثت العقد المعهود أنا وولدي، قال: ثم توفي الولدان واحدًا تلو الآخر، فورثت العقد منهما، فبعته بمائة ألف دينار.

ويحدث بعد مدة ويقول: هذا من بقايا ثمن ذلك العقد، فرحمة الله على الجميع.

«من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه»، و«صنائع المعروف تقي مصارع السوء» [1]، ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴾ [الطلاق: ٤].

زد من الضرب وزد من الحديث

الصفحة السادسة: زد من الضرب وزد من الحديث.

ذكر أهل السير أن هشام بن عمار عليه رحمة الله كان شغوفًا بطلب علم النبوة وهو صغير، وكان معاصرًا للإمام مالك عليه رحمة الله فجاءه في رحلة شاقة طويلة -فاسمع لها يا طالب العلم وعِهَا فلعل لك فيها عظة وعبرة- عن محمد بن الفيض الغساني قال: سمعت هشام بن عمار يقول: باع أبي بيته بعشرين دينارًا وجهزني للحج وطلب العلم، قال: فتوجهت من دمشق تاركًا أهلي ووطني رغبة في الحج إلى بيت الله ولقاءِ الأئمة أمثال مالك رحمه الله قال: فلما صرت إلى المدينة أتيت مجلس الإمام مالك ومعي مسائل -أعدَّ مسائل يريد أن يسائل الإمام فيها- قال: وأريد مع ذلك أن يحدثني، قال: فأتيته وهو جالس في هيئة الملوك، وغلمانه قيام حوله، والناس يسألونه ويجيبهم، يتدفق كالبحر، قال: فلما انقضى المجلس قمت لأسأله وأطلب أن يحدثني، فاستصغرني ورآني لست أهلا للرواية.

فقال: حصِّلنا على الصبيان -يعني أنه لم يبقَ إلا الصبيان- يا غلام -لأحد غلمانه

---

(١) صحيح: «صحيح الجامع» (٣٧٩٥).

الذين حواليه- احمله، قال: فحملني كما يُحْمل الصبي، وأنا يومئذ غلام مدرك، فأخرجني.

يقول ابن جزرة: ودخل هشام ذات يوم على الإمام مالك بغير إذن وقال له: حدثني، فرفض الإمام مالك، يقول هشام: فكررت عليه ورادته فقال لغلامه: خذ هذا واضربه خمسة عشر سوطًا، قال: فأخذه وذهب به وضربه خمسة عشر سوطًا.

فوقف يبكي على الباب حتى خرج الإمام مالك فإذا به يبكي، فقال له: ما يبكيك يا هشام ! أو أوجعتك؟ قال هشام: إن أبي باع منزله بعشرين دينارًا، ووجه بي إليك لأتشرف بالسماع منك، فضربتني وظلمتني بغير جرم فعلته سوى أني أطلب حديث رسول الله ﷺ والله لا جعلتك في حلٍّ، لأسائلنك بين يدي الله.

فتأثر الإمام مالك، وعلم أنه طالب حديث وجامع سنة بحق، فقال: يا بني! ما يرضيك؟ ما كفارة ذلك؟

فقال هشام: أن تحدثني بكل سوط ضربتنيه حديثًا عن رسول الله ﷺ ، قال: فجلس الإمام وقال: حدثنا فلان عن فلان عن فلان، فسرد له خمسة عشر حديثًا، فقال بعدها: يا إمام! زد في الضرب، وزد من الحديث.

فضحك الإمام مالك وقال: اذهب.

فانظر يا طالب العلم! كيف عرفوا العلم وقدره، واستعذبوا العذاب في سبيل الحصول عليه، باعوا بيوتهم، وقطعوا الفيافي والقفار حتى وصلوا؛ لأنهم يعرفون أنه بواسطة العلم يُعْبد الله في الأرض على بصيرة.

هاهو الحافظ ابن عساكر عليه رحمة الله لاقى في تحصيل العلم ما لاقى من الشدائد مما تنقله كتب السير والتراجم وهاجر من دمشق إلى نيسابور وكانت ذات ثلج شديد، وبرد زمهرير لم يألفه في موطنه دمشق، وفي ذات ليلة تحت وطأة الغربة، وفراق الأحبة، وفراق الأبناء، وشدة برد البلدة -في نيسابور - قال يصور معاناته، ويذكر لأهله أنه لا زال على عهده أن يطلب العلم ثم يعود إليهم، فكان مما قال:

لولا الجحيم الذي في القلبِ من حُرَقي ... لفُرقة الأهلِ والأحبابِ والوطنِ
لِمتُّ من شِدةِ البَردِ الذي ظهرتْ ... آثارُ شدَّتِهِ في ظَاهرِ البَدَنِ
يا قوم دُوموا على عهدِ الهُدى وثِقوا ... أنّي على العهدِ لم أغدِرْ ولَم أخُنِ

ثم ذكر ما كان له من أسفار متواصلة، ورحلات في الأرض متباعدة في سبيل طلب العلم الشرعي، فقال رحمه الله:

وأنـــا الـــذي ســـافرتُ في طلـــبِ الهُـدى سـفرَيْن بـينَ فدافـدٍ وتـنائفِ
وأنـــا الـــذي طـــوَّفت غـــيرَ مديـــنةٍ مـــنْ أصـــبهان إلى حـــدودِ الطائـــف
الـــشرق قـــد عايـــنت أكثـــر مدْنِـــه بعـــدَ العـــراق وشـــامِنا المُـــتَعارفِ
وجمعـــت في الأســـفار كـــل نفيـــسةٍ ولقـــيت كـــل مخالِـــفٍ ومآلـــف
وسمعـــتُ ســـنةَ أحمـــد مـــنْ بَعـــد مـــا أنفقـــت فـــيها تالـــدي مـــع طَارِفِـــي

صلى الله على نبينا محمد.

لله درهم! ما أمضى عزائمهم! وما أشد جلدهم وشوقهم لطلب العلم لوجه الله! وما أقواهم على الدخول فيما يريدون حين يريدون! طافوا الدنيا لتحصيل العلم، زرعوها بالأقدام زرعًا يوم لم يكن قطار ولا سيارة ولا باخرة ولا طيارة، طواف للبلدان، ونَصَب للأبدان، وكسب للزمان، لا راحة ولا استرخاء، لا صعوبة تمنعهم من لقاء العلماء، أمانيهم في تحصيل العلم، وخدمة هذا الدين تحدوهم إلى المزيد، وتنسيهم ما يلقون من تعب وعناء شديد، لسان حال بعضهم:

كَنَفِـــي بَعِـــيرِي إنْ ظَعَـــنتُ ومَفْرشِـــي كُمِّـــي وجُـــنحُ اللـــيلِ مطـــرح هَوْدجِـــي
ماتـــوا وغُـــيِّبَ في الـــترابِ شُخُوصُـــهم فالنَّـــــشرُ مـــــسكٌ والعظـــــامُ رمـــــيمُ

هل من مقتد بهم -يا طلبة العلم- في هذا الزمان؟

إن مرحلة تحصيل العلم شاقة تنقطع دون بلوغها حيازيم الصبر، وتنحسر أمامها عزمات الرجال، ولا يصبر على اجتيازها إلا الأفذاذ الأبطال، من لم يستسلموا للكسل والتواني، ولو لاقوا الألاقي.

من لم يطيعوا التواني ولم يضيعوا الحقوق.

فيا طلبة العلم...

اعلموا أن علوم الإسلام لم تدون في ظلال الأشجار والثمار، وعلى ضفاف الأنهار، إنما دوِّنت باللحم والدم والعصب، وظمأ الهواجر، وسهر الليالي، على السراج الذي لا يكاد يضيء نفسه أحيانًا، في ظل الجوع والعري، وانقطاع النفقة في بلاد الغربة، والصبر

على أهوال الأسفار، وملاقاة الخطوب والأخطار، والتيه في الفيافي والقفار، والغرق في البحار، مع البعد عن الأهل والزوجة والدار.

لسان حال الكثير منهم من علماء الإسلام:

في الشام أهلِي وبغداد الهوَى ... وأنا بالرقمتين وبـ الفسطاط خِلاَّنِي

بالصبرِ بلَغُوا ما أرادُوا:

والصبرُ يُوجدُ إنْ باءٌ له كُسِرَت ... لكنَّهُ بسُكُون الباءِ مفقودُ

رحمهم الله، تحمَّلوا ما تحملوا لتدوين العلم، فلم يبقَ لك إلا أن تطلبه في مظانه بهمة الرجال التي تتصاغر وتتضاءل أمامها المشاق والمتاعب والأخطار، ولن يخيب الله مسعى من سعى، ولن يتخلف الصادق عن النبوغ؛ فالنبوغ صبر طويل كما قيل.

وإنَّ سِيادةَ الأقوامِ فاعلمْ ... لَهَا صُعَدَاءُ مَطلعُهَا طَوِيلُ

وأنت لها أهل.

خلَقَ اللهُ للخُطُوبِ رجالاً ... ورجالاً لقَصْعَةٍ وثَرِيدِ

فكن من رجال الخطوب لا من رجال القصعة والثريد، فمنساير الأماني، وصاحب التواني، واستلذَّ المطاعم، واستحبَّ النوم، وشغلته تقلبات الفصول عن التحصيل فما أبعده عن العلم! وما أبعد العلم عنه! وما أنفره عن العلم! وما أنفر العلم عنه!

إذا كان يؤذيك حر المصيف ... ويبس الخريف وبرد الشتا

ويلهيك حسن زمان الربيع ... فأخذك للعلم قل لي متى

فكُنْ رجُلا عَلَى العَلْياءِ جَلْدًا ... وشيمتُك التَّصَبُّرُ للعَنَاءِ

فقلْ مَنْ جدَّ في أمرٍ يحاولُهُ ... واستَصْحَبَ الصَّبْرَ إلا فَازَ بالظَّفرِ

كمْ حاجةٍ بمكانِ النَّجْمِ قرَّبها ... طولُ التَّرَدُّدِ فِي الرَّوْحَاتِ والبكرِ

تكليف لا تشريف

الصفحة السابعة: تكليف لا تشريف.

حدَّث الفضيل بن الربيع قال: حج أمير المؤمنين هارون الرشيد عليه رحمة الله قال:

ثم أتاني وخرجت مسرعًا، أقول له: لو أرسلت إليَّ لأتيتك، قال: ويحك قد حاك في نفسي شيء فانظر لي رجلًا أسأله، فقلت له: هاهنا سفيان بن عيينة، فقال: امض بنا إليه.

قال: فأتينا فقرعنا الباب، فقال: من؟ قلت: أمير المؤمنين، فخرج وقال: لو أرسلت إليَّ أتيتك، فحادثه ساعة، ثم قال له: أعليك دين؟ قال: نعم.

قال: اقض دينه.

فلما خرجنا قال: ما أغنى عني صاحبك شيئًا، انظر لي رجلا آخر أسأله، قلت: هاهنا عبد الرزاق بن همام قال: امض بنا إليه، فأتيناه، فقرعنا الباب وخرج إلينا، فإذا هو بأمير المؤمنين، فقال: لو أرسلت إليَّ لأتيتك، فحادثه ساعة، ثم قال: أعليك دين؟ قال: نعم.

قال: يا أبا عباس اقضِ دينه.

قال: فلما خرجنا قال: ما أغنى عنى صاحبك شيئًا، انظر لي رجلًا أسأله، قلت: هاهنا الفضيل بن عياض قال: امض بنا إليه، قال: فأتينا، فإذا هو قائم يتلو آية من القرآن يرددها.

قال: فقرعت الباب فلم يرد، فقلت: أجب أمير المؤمنين، قال: فاستمر في قراءته، فقلت: أما عليك طاعة، قال: بلى.

لكن ليس للمؤمن أن يذل نفسه، ثم نزل ففتح باب الدار، ثم ارتقى إلى غرفة من الغرف، وأطفأ السراج، والتجأ إلى زاوية في بيته، قال: فدخلنا فجعلنا نجول بأيدينا علَّنا نجده، فسبقت كف هارون إليه، فقال: يا لها من كف ما ألينها إن نجت غدًا من عذاب الله عز وجل!

فقلت في نفسي: ليكلمنه الليلة بكلام قوي من قلب تقي، قال: خذ -رحمك الله- لمجيئنا إليك، وأعطاه مالا، فقال: إن عمر بن عبد العزيز لما وليَ الخلافة دعا سالم بن عبد الله، ومحمد بن كعب، ورجاء بن حيوة فقال لهم: إني قد ابتليت بهذا البلاء، فأشيروا عليَّ.

فعدَّ الخلافة بلاء، وعددتها أنت نعمة، خذ مالك لا أريده.

ثم واصل فقال: قال له سالم: يعني قال سالمٌ لعمر: إن أردت النجاة من عذاب الله فصم عن الدنيا، وليكن إفطارك منها الموت.

وقال له محمد بن كعب: إن أردت النجاة من عذاب الله فليكن كبير المؤمنين لك أبًا، وأوسطهم أخًا، وأصغرهم ابنًا، ووقِّر أباك، وأكرم أخاك، واحنُ على ولدك.

وقال له رجاء: إن أردت النجاة غدًا من عذاب الله، فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك، واكره لهم ما تكره لنفسك، ثم مت إن شئت، وإني أقول لك -يا أمير المؤمنين- إني أخاف عليك أشدَّ الخوف من يوم تزل فيه الأقدام، فهل معك -رحمك الله- من يشير عليك بمثل ذلك.

فبكى هارون بكاءً شديدًا حتى غشي عليه، فقلت له: ارفق بأمير المؤمنين، فقال: يـ ابن الربيع؛ تقتله أنت وأصحابك وأرفق به أنا، النصح رفق، النصح رفق.

ثم أفاق الرشيد وقال: زدني رحمك الله.

فقال: يا أمير المؤمنين! بلغني أن عاملًا لعمر بن عبد العزيز شُكي إليه، فكتب عمر إليه قائلًا: يا أخي! أذكرك طول سهر أهلَ النار في النار مع خلود الأبد.

فلما قرأ الكتاب طوى البلاد حتى قدم على عمر فقال له عمر: ما أقدمك؟

قال: خلعت قلبي بكتابك، والله لا أعود إلى ولاية حتى ألقى الله عز وجل فبكى الرشيد بكاءً شديدًا، ثم قال: زدني رحمك الله.

فقال: يا حسن الوجه! أنت الذي سيسألك الله عز وجل عن هذا الخلق يوم القيامة، فإن استطعت أن تقيَ هذا الوجه النار فافعل، وإياك أن تصبح وتمسي وفي قلبك غش لأحد من رعيتك؛ فإن نبينا ﷺ قال: **«من أصبح لهم غاشًا لم يرح رائحة الجنة»** (١)

فبكى هارون بكاءً شديدًا، ثم أفاق وقال له: أعليك دين؟ قال: نعم، دين لربي لم يحاسبني عليه، فالويل لي إن سألني، والويل لي إن ناقشني، والويل لي إن لم أُلْهَم حُجَّتي، ثم تفجر باكيًا مضطربًا كما يضطرب العصفور المبلل بالماء، ثم هدأ.

فقال له هارون: أما عليك دين لعباد الله نقضيه عنك؟ قال: إن ربي أمرني أن أصدق وعده وأطيع أمره، فقال: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾ [الذاريات: ٥٦- ٥٨].

تــوكلت في رزقــي علــى الله خالقــي ... وأيقـــنتُ أنَّ اللهَ لا شـــكَّ رَازِقـــي

ومــا يــك مــنْ رزق فلــيسَ يَفــوتني ... ولَــوْ كــانَ في قــاعِ الــبحارِ العَوَامِــقِ

---

(١) صحيح لغيره: «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٢٠٧) بنحوه.

قال: هذه ألف دينار تقوَّ بها على عبادتك، وأنفقها على عيالك، وسد بها حاجاتهم، قال: سبحان الله! أدلك على طريق النجاة، وتكافئني بمثل هذا سلمك الله.

ثم صمت فلم يتكلم بعدها، قال: فخرجنا من عنده، فلما صرنا إلى الباب قال هارون لحاجبه: إذا سألتك أن تدلني على أحد فدلني على مثل هذا، فلما انصرفنا قال: دخلت عليه امرأته فقالت: يا هذا قد ترى ما نحن فيه من ضيق الحال، فلو قبلت المال لتسد به حاجتنا.

فقال لها: إنما مَثَلِي ومثلكم كمَثَل قوم كان لهم بعير يأكلون من كسبه، فلما كبر نحروه فأكلوا لحمه، فلما سمع هارون كلامه وهو على الباب قال: نرجع إليه فعسى أن يقبل الدراهم، فلما علم الفضيل بعودتهم خرج فجلس على سطح الغرفة، فجاء هارون وجلس إلى جنبه، فجعل يكلمه فلا يجيبه، فبينما هم كذلك إذ خرجت جارية فقالت: يا هذا! قد آذيتموه هذه الليلة، دعوه مع كتاب الله وانصرفوا رحمكم الله.

فانصرفوا رحم الله الجميع.

أُحبتي في الله...

يمكننا أن نأخذ من هذه الحادثة عبرتين:

أولًا: أن طلب النصيحة من صاحب المنزلة والسعي للبحث عنها في مظانها، وطرق الأبواب لها، وتلمس الوسائل للحصول عليها، عقل ورشد وأي رشد! لأن إتيان النصيحة إلى صاحب المكانة يجعلها في مركز الضعف، والعكس بالعكس؛ إتيانه للنصيحة يجعلها في مركز القوة.

ثانيًا: أن المؤمنين إخوة لا تظالم، ولا تخاذل، ولا تحاقر بينهم، الصغير ابن، والوسط أخ، والكبير أب، جسد واحد، وأمة واحدة.

قد قالها عمر بن الخطاب رضي الله عنه لإخوة له خرجوا يريدون نشر دين الله في الأرض بأمره خلف السهوب والبحار والفيافي والقفار، فقال لهم: سيروا على بركة الله، وأنا أبو العيال حتى تعودوا.

قالها حتى لا يترك في قلوبهم شغلًا بهؤلاء الصغار.

فهل تستطيع أمة الإسلام أن تربي مثل هذه النماذج؟ نعم والله!

إنها لأمة خير يتعاقبه جيل بعد جيل، ولن تعدم الأمة وسائل لتربية مثل هذه النماذج، وأعلى وسيلة علم كل فرد وهو على ثغرة من ثغور الإسلام أن المسئولية تكليف لا تشريف،

وأن له شيئًا وعليه شيء، فليأخذ ما له من حق وليقم بما عليه من واجب، وليكن مع ذلك أصم سميعًا، أعمى بصيرًا، سكوتًا نطوقًا.

والله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

حكمها رحمة ونعمة

الصفحة الثامنة: حكمها رحمة ونعمة.

كان قتيبة بن مسلم الباهلي عليه رحمة الله في شرق الكرة الأرضية يفتح المدن والقرى، ينشر دين الله في الأرض، ويفتح الله على يديه مدينة سمرقند، افتتحها بدون أن يدعو أهلها للإسلام أو الجزية، ثم يمهلهم ثلاثًا؛ كعادة المسلمين، ثم يبدأ القتال.

فلما علم أهل سمرقند بأن هذا الأمر في دين الإسلام كتب كهنتها رسالة إلى سلطان المسلمين في ذلك الوقت؛ وهو عمر بن عبد العزيز عليه رحمة الله وأرسلوا بهذه الرسالة أحد أهل سمرقند، فاسمع إلى هذا الرسول.

يقول: أخذت أتنقل من بلد إلى بلد شهرًا حتى وصلت إلى دمشق دار الخلافة، فلما وصلت أخذت أتنقل في أحيائها، وأحدث نفسي بأن أسأل عن دار السلطان، ثم أخشى على نفسي إن نطقت باسم السلطان أن أؤخذ أخذًا، فلما رأيت أعظم بناء في المدينة دخلت إليه، وإذا بالناس يدخلون ويخرجون ويدوكون، وإذا بحلقات في هذا البناء، وأناس يركعون ويسجدون، يقول: فقلت لأحدهم: أهذه دار الوالي؟ قال: لا. بل هذا هو المسجد.

قال: هل صليت؟ قلت: وما صليت؟ قال: فما دينك؟ قلت: على دين أهل سمرقند، فجعل يحدثني عن الإسلام حتى اعتنقته، وشهدت أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله ﷺ ثم قلت له: أنا رجل غريب، أريد السلطان، دلني عليه -يرحمك الله- قال: تعني أمير المؤمنين، قلت: نعم، قال: اسلك هذا الطريق حتى تصل إلى تلك الدار، وأشار إلى دار من طين، فقلت: أتهزأ بي؟ قال: لا. ولكن اسلك هذا الطريق، فتلك دار أمير المؤمنين إن كنت تريده، قال: فذهبت واقتربت، وإذا برجل يأخذ طينًا، ويسد به ثلمة في الدار، وامرأة تناوله الطين.

قال: فرجعت إلى الذي دلَّني وقلت: أسألك عن دار أمير المؤمنين فتدلني على دار رجل طيَّان؟! قال: هو ذاك أمير المؤمنين.

قال: فطرقت الباب، وذهبت المرأة، ونزل الرجل، ورحب بي، وغسل يديه وخرج وقال: ما تريد؟

قلت: هذه رسالة من كهنة سمرقند، فقرأها، ثم قلبها فكتب على ظهرها، من عبد الله عمر بن عبد العزيز إلى عامله بسمرقند: أن نصِّب قاضيًا ينظر فيما ذكروا، ثم ختمها، وناولني، وانطلقت. يقول: فلولا أني خشيت أن يكذبني أهل سمرقند لألقيتها في الطريق، ماذا تفعل هذه الورقة وهذه الكلمات في إخراج الجيوش الجرارة، وذلك القائد الذي دوَّخ شرق الكرة الأرضية برمتها؛ يعني قتيبة بن مسلم؟

قال: وعدت بفضل الله مسلمًا، كلما دخلت بلدًا صليت في مسجده واجتمعت بإخوتي وأنست بهم، فأكرموني وأنسوا بي، فلما وصلت إلى سمرقند وقرأ الكهنة الرسالة أظلمت عليهم الأرض، وضاقت بها رحبت وقالوا: ما تنفع هذه الرسالة وماذا تغني عنا؟!

ذهبوا بها إلى عامل عمر على سمرقند، فنصَّب لهم الوالي «جميع بن حاضر الباجي» قاضيًا لهم لينظر في شكواهم.

وحدد القاضي لهم يومًا اجتمعوا فيه، ثم قال القاضي: ما دعواك يا سمرقندي؟ قال: اجتاحنا قتيبة ولم يدعُنَا إلى الإسلام، ويمهلنا لينظر في أمرنا، فقال القاضي لخليفة قتيبة، وقد مات قتيبة عليه رحمة الله قال: أنت ما تقول؟

قال: لقد كانت أرضهم خصبة، وأرضهم واسعة، وخشي قتيبة إن هو آذنهم وأمهلهم أن يتحصنوا عليه، والحرب خدعة.

قال واسمعوا إلى ما قال: لقد خرجنا مجاهدين في سبيل الله، وما خرجنا فاتحين للأرض أشرًا وبطرًا، ثم قضى القاضي بإخراج المسلمين على أن ينذرهم قائد الجيش الإسلامي بعد ذلك وينابذهم وفقًا للمبادئ الإسلامية.

ما ظن أهل سمرقند أن تلك الكلمات ستفعل فعلها، وما غربت شمس ذلك اليوم ورجل من الجيش الإسلامي في أرض سمرقند، فخرج الجيش كله، وبدأ لينذرهم ويدعوهم إلى الإسلام أو الجزية أو القتال، فلما رأى أهل سمرقند ما لا مثيل له في تاريخ البشرية؛ من عدالة تنفذها الدولة علي جيشها وقائدها قالوا: هذه أمة حكمها رحمة ونعمة، فدخل أغلبهم في دين الله، وفرضت الجزية على الباقين.

فيا لله! أرأيتم جيشًا يفتح مدينة ويدخلها ويشتكي أهل المدينة للدولة المنتصرة،

فيحكم قضاؤها على الجيش الظافر بالخروج، بل هل رأيتم في التاريخ قديمًا وحديثًا حربًا يتقيد أصحابها بمبادئ الأخلاق والحق كما تقيد به الجيش الإسلامي؟ والله لا نعلم في الدنيا كلها موقفًا مثل هذا لأمة من أمم الأرض.

والليلُ يشهدُ والكواكبُ والثَّرى	وكفى بهم شهداء يومَ الدِّين
جمال ذي الأرض كانُوا فِي الحياةِ	وهم بعد الممات جمال الكُتُب والسير

لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبر

الصفحة التاسعة: لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبر .

جاء في إنباء الرواة في ترجمة أبي نصر القرطبي قال: كنا نختلف إلى أبي علي القالي رحمه الله وقت إملائه النوادر في جامع الزهراء بقرطبة ونحن في فصل الربيع، قال: فبينما أنا ذات يوم في بعض الطريق إذ أخذتني سحابة، فما وصلت إلى مجلس أبي علي إلا وقد ابتلت ثيابي كلها، وحوالي أبي علي أعلام أهل قرطبة، فلما رآني مبتلًا بالماء أمرني بالدنو منه، وقال لي: مهلًا يا أبا نصر ! لا تأسف، ولا تأس، ولا تحزن على ما عرض لك؛ فهذا شيء يضمحل عنك بسرعة، بثياب تبدِّلها بغير ثيابك، لكن اسمع -يريد أن يعزيه وأن يسليه على ما أصابه- قد عرض لي -يقول أبو علي عن نفسه- ما أبقى في جسمي ندوبًا وجروحًا تدخل معي القبر، لقد كنت أختلف في الطلب؛ يعني في طلب العلم إلى ابن مجاهد رحمة الله عليه فذهبت إليه آخر الليل قبل طلوع الفجر؛ لأقترب منه لأستفيد.

فلما انتهيت إلى الطريق الذي كنت أخرج منه إلى مجلسه ألفيته مغلقًا، قال وعسر عليَّ فتحه، فقلت: سبحان الله! أبكِّر هذا البكور ثم أغلب على القرب منه، والله لا يكون ذلك، فنظرت إلى سَرَبٍ بجانب الدار ضيق فاقتحمته، فلما توسطته ضاق بي ذلك السرب وذلك النفق، فلم أقدر على الخروج منه، ولم أستطع النهوض، قال: فاقتحمته بشدة حتى خرجت بعد أن تخرقت ثيابي، وأثَّر السرب في لحمي حتى انكشف العظم، ومنَّ الله علي بالخروج فوافيت مجلس الشيخ على حالتي هذه، فأين أنت مما عرض لي؟ ثم أنشد يقول:

دببتُ للمجدِ والساَّعينَ قدْ بَلَغُوا	جُهدَ النُّفوسِ وألقوا دُونَهُ الأزرَا
وكابدوا المجدَ حتَّى ملَّ أكثرُهُم	وعانَقَ المجدَ مَنْ أوْفَى ومَنْ صبرَا
لا تحسب المجد تمرًا أنت آكله	لن تبلغ المجد حتى تلعق الصبرا

قال أبو نصر: فسلاني ما حكاه، وهان عندي ما عرض لي من بلل للثياب بجانب ما أصابه، فلازمته حتى مات، فرحمة الله على الجميع.

هم أسلافنا، وندعي الصلة بهم، فهل مجالسنا مجالسهم، وهممنا هممهم؟

لَّـمَّا تَبَدَّلَتِ المَجَالسُ أوجُهًا   غيرَ الذينَ عَهِدتُ مِنْ عُلمائِهَا

ورأيتُها محفوفةً بِسِوَى الأُلَى   كَانُوا وُلاةَ صُدُورِهَا وفَنَائِها

أنشدتُ بيتًا ثائرًا متقدمًا   والعينُ قدْ شرَقَت بجاري مائِها

أما الخيامُ فإنَّها كخيامهمِ   وأرَى نِساءَ الحيِّ غير نِسَائِها

يا حسرةً من لي بصفقةِ رابح   فِي مَتْجَرِ والعِلْمُ رأسُ المالِ

يا ويح أهل العلمِ كيفَ تأخَّرُوا   والسَّبْقُ كُلُّ السَّبْقِ للجُهَّالِ

فإلَى إلهِي المُشْتَكَى وبفضلِهِ   دونَ الأنامِ منوطة آمَالِي

لله هذه المواقف ما أبلغها! وما أعلى على هام الثُّرَيَّا مواضعها! وهكذا فليكن الطلب وإلا فلا.

إن هذه الصفحة - أعني الماضية- لتذكِّر بموقف آخر لابن برهان؛ كما جاء في طبقات الشافعية يوم تزاحم الطلاب على بابه حتى صار جميع نهاره، وقطعة من ليله مستوعبًا في التدريس، يجلس من وقت السحر إلى وقت العشاء الآخرة، ويتأخر أحيانًا بعدها إذا دعت الحاجة لذلك.

ذكر أن مجموعة من طلبة العلم سألوه أن يدرس لهم كتابًا فقال: لا أجد لكم وقتًا، فذكروا أوقاتًا معينة فلم يجد إلا في نصف الليل فوافقوا.

وانظر يا أخي كيف نظم أوقاته للعبادة والطاعة والمنام والمطالعة والحفظ والتدريس والقراءة وهذا شيء مهم جدًا يتمكن به العالم وطالب العلم من بلوغ مرغوباته العلمية جميعًا، فلا يطغى مرغوب على مرغوب.

ثم انظر أخي طالب العلم -رعاك الله- إلى هذا الصبر العجيب من هذا الشيخ الجليل على بث العلم ونشره، والاحتساب في أدائه ونقله، ثم انظر أخرى إلى هذا الشوق والحرص المحرق من أولئك الطلبة المحترقين بالعلم الذين لم يجدوا وقتًا ليقرءوا عليه إلا نصف الليل، فأتوا مسرورين وظنوا أنهم محظوظون مكرمون.

ثم انظر لذلك الذي نسي بدنه واقتحم السرب وخرج اللحم عن العظم ليحظى بالقرب من العالم ليستفيد فلله در أولئك المشائخ! ولله در أولئك الآباء والطلبة الأبناء! ما أشد حب أولئك للطلب! وما أصبر أولئك على إشاعة العلم وإيصاله للمتعلمين! أداءً للأمانة ووفاءً بالعهد، وإنا لله من طلبة هذا العصر الذين يستعجلون دق الجرس ليخرجوا من الدرس المؤقت بخمس وأربعين دقيقة، في ألين الأوقات راحة، وأفضلها نشاطًا، وأجمعها ذهنًا، من قاعات مبردة صيفًا مدفأة شتاءً، يخرجون يزحم بعضهم بعضًا كأنما يفرون من حريق، أو ينطلقون من سجن ظالم عنيد واهٍ لهم.

إذا مَا علا المرء رَامَ العُلى ... ويقنَعُ بالدُّون مَنْ كَانَ دُونَا

إذا رأيْتَ شبابَ الحيِّ قَدْ نشئوا ... لا ينقلونَ مِدَادَ الحِبْرِ والوَرَقا

وَلا تَرَاهُم لَدَى الأشْيَاخِ في حِلَق ... يَعُونَ مِنْ صَالحِ الأخبارِ مَا اتَّسَقَا

فذَرْهُم عنكَ واعْلَم أنَّهُم هَمَجٌ ... قد بَدَّلُوا بعُلُوِّ الهمَّةِ الخَرَقَا

أنتم كأسلافكم ومَنْ ... يشابه أبَهُ فمَا ظَلَمْ

على المرءِ أنْ يَسعَى إلَى الخيرِ جاهدًا وليسَ علَيْهِ أن تَتِمَّ المَقاصِدُ.

فانْفُضُوا النومَ وهُبُّوا للعُلى ... فالعلى وقْفٌ علَى مَنْ لَمْ يَنَم

أفيقوا لا مجال لخامل ... ولا سبْقَ إلا للذي يتَقَحَمُ

استراحة

الصفحة العاشرة: استراحة:

في السير للذهبي أن همام بن منبه قعد في مجلس ابن الزبير، وكان هناك رجل من نجران يعظمونه اسمه حنش، كبير السن، وليس له لحية، فقال رجل قرشي في مجلس لابن الزبير لهمام: من أين أنت؟ قال همام: من أهل اليمن.

قال: ما فعلت عجوزكم؟ يعني كبير السن حنش؟ قال -واسمعوا إلى القول-: عجوزنا أسلمت مع سليمان لله رب العالمين، وعجوزكم يا قريش حمَّالة الحطب، فبهت القرشي، وقال ابن الزبير: أتدري من كلَّمت؟ إنه همام، وله من اسمه نصيب.

وروي أن أبا حنيفة رحمه الله كان عند الخليفة العباسي أبي جعفر ومعه الربيع حاجبه،

وكان بين الربيع وبين أبي حنيفة بعض سوء فهم، فقال الربيع محاولًا الإيقاع بين أبي حنيفة وأبي جعفر: يا أمير المؤمنين! إن هذا يخالف جدك ابن عباس فلا يجيز الاستثناء في اليمين إلا متصلًا باليمين، فلو استثنى بعد يوم لم يجز له ذلك، فقال أبو حنيفة: يا أمير المؤمنين! إن الربيع يزعم أن ليس لك في رقاب الناس بيعة، فقال المنصور: كيف؟

قال أبو حنيفة: إنهم يحلفون لك على البيعة، ثم يرجعون إلى منازلهم فيستثنون فتبطل أيمانهم.

فضحك المنصور، وقال للربيع: لا تعرض لأبي حنيفة، وانقلب السحر -كما يقال- على الساحر.

وفي السير للذهبي: أرسل الأمير عيسى بن موسى إلى الإمام الأعمش بألف درهم وصحيفة ليكتب له فيها الحديث، فكتب فيها الأعمش: بسم الله الرحمن الرحيم: ﴿ قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص: ١]، ثم أرسل بها إليه، فلما وصلت إلى عيسى رفعها ونظر فيها وقال: يابن الفاعلة؛ ظننت أني لا أحسن كتاب الله؟! فرد عليه الأعمش قال: وظننت أني أبيع الحديث؟!

وفي السير للذهبي -أيضًا- أنه أتي بعبد الرحمن بن عائذ إلى الحجاج، فقال له الحجاج: كيف أصبحت؟ قال: لا كما يريد الله، ولا كما يريد الشيطان، ولا كما أريد، قال: ويحك ما تقول؟

قال: نعم.

يريد الله أن أكون عابدًا زاهدًا، وأنا أعلم أني لست كذلك، ويريد الشيطان أن أكون فاسقًا مارقًا، وما أنا بذاك، وأريد أن أكون مخلىً في بيتي، آمنا في أهلي، ولم تتركني يا حجاج، فقال الحجاج: أدبٌ عراقي، ومولدٌ شامي، وجيراننا إذ كنا بالطائف، خلُّوا عنه. فخلوا عنه.

وفي السير للذهبي -أيضًا- أن سليمان بن عبد الملك استصغر أبا العلاء؛ مولى من موالي الحجاج؛ وكان مشوهًا ودميًا.

فقال هذا المولى: إنك رأيتني والأمور مدبرة عني، ولو رأيتني وهي مقبلة لاستعظمت ما احتقرت، فقال سليمان: قاتلك الله، ما أسدَّ عقلك! أترى الحجاج يهوي بعد في جهنم أم بلغ قعرها؟ قال: لا تقل ذاك، فإنه يحشر مع من ولاَّه، والذي ولاَّه أبو سليمان، فقال: مثل هذا فليُصْطَنَع.

ودخل أعرابي على سليمان بن عبد الملك فقال: يا أمير المؤمنين! إني مكلِّمك بكلام فاحتمله وإن كرهته؛ فإن وراءه ما تحب إن قبلته.

فقال: يا أعرابي -وكان عاقلًا- إنا لنجود بسعة الاحتمال على من لا نرجو نصحه، ولا نأمن غشه، فكيف بمن نأمن غشه، ونرجو نصحه؟

فقال الأعرابي: يا أمير المؤمنين! لقد تكنَّفك رجال أساءوا الاختيار لأنفسهم، وابتاعوا دنياهم بدينهم، ورضاك بسخط ربهم، خافوك في الله ولم يخافوا الله فيك، حرب للآخرة وسلم للدنيا، فلا تأمنهم على ما ائتمنك الله؛ فإنهم لم يألوا في الأمانة تضييعًا، وفي الأمة خَسْفًا وعَسْفًا، وأنت مسئول عما اجترحوا، وليسوا بمسئولين عما اجترحت، فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك؛ فإن أعظم الناس غبْنًا من باع آخرته بدنيا غيره.

فقال سليمان: يا أعرابي! أما إنك سللت لسانك وهو أقطع من سيفك.

قال: أجل يا أمير المؤمنين! ولكن لك لا عليك.

والدين النصيحة، والمؤمنون نصحة، والمنافقون غششة، والنصيحة لك لا عليك.

من أورق بوعد فليثمر بفعل

الصفحة الحادية عشرة: من أورق بوعد فليثمر بفعل:

يروي أهل السير أن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أعطى رجلًا من قريش شبه وعد أن يزوجه ابنته، فلما حضرته الوفاة أرسل إليه فزوَّجه إياها، وقال: كرهت أن ألقى الله عز وجل بثلث نفاق.

إذا قـــالَ تمَّ عَلَـــى قـــولِهِ ... ومـــات العـــناءُ بـــلا أو نَعَـــمْ

وبعـــضُ الـــرجال بمَوعـــودِه ... قـــريبٌ وبالفِعْـــلِ تحـــتَ الـــرَّجَم

كجَـــارِي الـــسرابِ تَـــرَى لمعَـــهُ ... ولـــستَ بـــواجِدِهِ عِـــنْدَكَم

هذه الصفحة رسالة لي، ولإخوتي معشر طلاب العلم، وللناس عامة؛ أن نتق الله فيما نعد به؛ فكم من أوقات تهدر ومصالح للأمة تتعطل بناءً على مواعيد عرقوب، يعدك الواحد في السابعة ويأتيك إن أتى في العاشرة، أو لا يأتيك ولا يعتذر إليك عن مجيئه، وما هكذا تكون أخلاق المسلم أبدًا.

إن عرقوبًا المضروب به المثل أصبح واقع كثير منا هذه الأيام.

وما قصة عرقوب؟

يأتيه أخ محتاج سائل فيسأله شيئًا، فيقول: عرقوب: إذا أطلع النخل أعطيتك، فلما أطلع أتاه فقال: إذا صار بلحًا أعطيتك، فلما صار بلحًا أتاه، فقال: إذا أزهى بحمرة وصفرة، فلما أزهى أتاه، فقال: إذا صار رطبًا، فلما صار رطبا أتاه، فقال: إذا صار تمرًا، فلما صار تمرًا خرج إليه في الليل، وقطعه في الليل ولم يعط أخاه شيئًا، فقال ذلك الرجل:

وعـــدتني ثـــم لم تُـــوف بموعدتـــي فكـــنت كالمُـــزْن لم يمطـــرْ وقـــدْ رعَـــدَا

كانـــت مواعـــيد عـــرقوبٍ لـــنا مـــثلا ومــــــا مواعــــــيدُهُ إلاَّ الأبَاطِـــــيلُ

فيا أيها المؤمنون عامة! ويا طلبة العلم خاصة! إن وعد الكريم نقد، ووعد اللئيم تسويف، فإن وعدت بخير فأوف، وإن أوعدت بشر فاعف، وإياك أن تلقى الله بخصلة نفاق؛ فإن من آية المنافق أنه «**إذا حدَّث كذب، وإذا ائتمن خان، وإذا وعد أخلف**»[1]، والنسيان جائز ومغفور: ﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

الحق يدفع الباطل

الصفحة الأخيرة: الحق يدفع الباطل:

أورد ابن كثير في البداية والنهاية: أنه في القرن الخامس الهجري زور يهود خيبر إحدى الوثائق -وكثيرًا ما يزورون ويغشون ويكذبون ويفترون ويمكرون، وتاريخهم لا يخفى على ذي عين- زعموا في وثيقتهم أن النبي ﷺ أسقط عنهم الجزية، وأقرهم على خيبر، يمكثون فيها ما شاءوا، وكما هو معلوم فقد أخرجهم عمر رضي الله عنه وما أخرجهم عبثًا، فإن النبي ﷺ قال: «**أخرجوا اليهود والنصارى من جزيرة العرب**»[2]

فحاولوا بهذه الوثيقة الرجوع إلى خيبر، كما يحاولون في كل زمان وبكل الوسائل المتاحة لإطفاء النور، ولن يرضوا حتى تتبع ملتهم، والله متم نوره ولو كرهوا وخططوا ودبروا ومكروا والله خير الماكرين، والعاقبة للمتقين.

زوروا الوثيقة وجاءوا بها إلى الوزير العباسي أبي القاسم بن مسلمة، جاءوا إليه وقالوا: معنا كتاب نبوي بإسقاط الجزية وإقرارنا على خيبر، بكتابة صحابي، وشهادة

---

(١) **متفق عليه**: البخاري (٣٣) (٢٣٢٧)، ومسلم (٢١٩، ٢٢٠، ٢٢١).

(٢) **صحيح**: مسلم (٤٦٩٣) بنحوه.

الصحابة، فنظر الوزير في الوثيقة وفكَّر وقدَّر وتأمل وتملَّى، ثم لم يفصل في المسألة، بل رد الأمر إلى أهله الذين يستنبطونه.

دفع الكتاب -وحسنًا فعل- إلى الحافظ الخطيب البغدادي؛ شيخ علماء بغداد ومؤرخها ومحدثها في عصره، فنظر فيها ثم قال: هذا كذب والذي لا إله إلا هو! قال الوزير: كيف ذلك؟ ما دليل كذبها؟ أريد دليلًا.

قال: لأنها بكتابة وشهادة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه ولم يكن أسلم إلا عام فتح مكة، فكيف يكتب للنبي ﷺ أو يشهد قبل إسلامه بعام، **هذه واحدة**.

أما الثانية: فإنها بشهادة سعد بن معاذ رضي الله عنه، وسعد بن معاذ قد مات بعد الأحزاب وقبل خيبر، فكيف يشهد بعد وفاته بأكثر من عام؟

فبهت الذين كفروا، والله لا يهدي القوم الظالمين، وخابوا وخسروا، أولئك في الأذلين.

وبذلك نقضت الوثيقة، وظهر زيفها وباطلها، ولو جيء بها إلى غير أهلها -العلماء- لوقعت الأمة في شباك أعدائها ولكنه العلم.

العلم يجلو العمى عن قلب صاحبه ... كما يجلي سوادَ الظلمة القمرُ

وقبل ذلك بعدة قرون يجيء رجل من الخوارج إلى أبي حنيفة رحمه الله فيقول له: تب وعد إلى الله، قال أبو حنيفة: مِمَّ؟ قال الخارجي: من قولك بتجويز الحكمين في الخلاف بين علي ومعاوية، والله يقول: ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ [الأنعام: ٥٧]، ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤].

فقال أبو حنيفة: ألا تقبل أن تناظرني في هذا الموضوع؟ قال الخارجي: قد قبلت.

فقال أبو حنيفة: فإن اختلفنا فمن يحكم بيني وبينك؟

قال الخارجي: من شئت.

قال - وكان مع الخارجي صاحب له آخر- فالتفت أبو حنيفة إلى صاحبه وقال: اقعد فاحكم بيننا فيما اختلفنا فيه إن اختلفنا، فسر الخارجي بكون صاحبه هو الحكم، عندها فاجأه أبو حنيفة قائلًا: أترضى بهذا حكمًا بيني وبينك؟ قال: نعم.

فقال أبو حنيفة: إذًا أنت جوَّزت التحكيم، فبهت الخارجي ولم يحر جوابًا، وبهت الذين كفروا، والله لا يهدي القوم الظالمين.

العلم فيه حياة للقلوب كما تحيا البلاد إذا ما مسها المطر

وإن نسيت فلا أنسى بالأمس القريب يوم يزور أحد علماء المسلمين مدرسة نصرانية، ويُجري حديثا طويلًا بينه وبين مديرها، فكان مما قاله هذا العالم لمديرها: لماذا تحملون على الإسلام وعلى نبي الله محمد ﷺ في كتبكم المدرسية، وفي اجتماعاتكم بما لا يصح أن يقال في عصر تعارفت فيه الشعوب، والتقت فيه الثقافات كما تدعون؟

فأجاب قائلًا: نحن الغربيين لا نستطيع أن نحترم رجلًا تزوج من تسع نساء؛ يعني رسول الله ﷺ

قال: ومن تحترمون من أنبياء الله؟ هل تحترمون نبي الله داود عليه صلوات الله وسلامه؟ قال: نعم.

إنه من أنبياء التوراة، قال: ونبي الله سليمان؟ قال: نعم.

إنه من أنبياء التوراة أيضًا.

فقال العالم المستضيء بنور العلم الساطع، بحجة الحق: إن نبي الله داود كان له تسع وتسعون زوجة، وأكملهن مائة من أجمل فتيات زمانهن، ونبي الله سليمان كما جاء في التوراة له سبعمائة زوجة وثلاثمائة ألف جارية، وكن من أجمل أهل زمانهن، فلم يستحق احترامكم من يتزوج ألف امرأة، ولا يستحق احترامكم من يتزوج تسعًا؛ ثمان منهن ثيِّبات وأمهات، والتاسعة هي الفتاة البكر الوحيدة التي تزوجها طيلة العمر، فسكت الرجل، وألقم الحجر، ولم يُحِر جوابًا، والحق يعلو والأباطل تسفل.

أرأيتم إلى العلماء -يا أيها الأحبة- كيف يدفعون الشبه عن الأمة، ويلجمون من يقع في الأنبياء؟ لأنهم ورثة الأنبياء، بل إنهم صمام أمان الأمة ولا شك، إليهم يُرْجع في النوازل والمدلهمات، فضلهم عظيم، وخيرهم جزيل، الحيتان والنمل لهم في البحر والجحور تستغفر، والملائكة بأجنحتها لهم تخضع، والعلماء في القيامة تشفع، حياتهم غنيمة، وموتهم مصيبة، يذكِّرون الغافل، ويعلِّمون الجاهل، لا يتوقع منهم بائقة، ولا يخاف منهم غائلة، بجميل موعظتهم يرجع المقصرون.

الطاعة لهم في غير معصية الله واجبة، والمعصية لهم محرمة، من أطاعهم رشد، ومن عصاهم عند، ما ورد على إمام المسلمين من أمر اشتبه عليه فبقول العلماء يعمل، وعن رأيهم يصدر، وما ورد على ولاة المسلمين من حكم لا علم لهم به فبقولهم يعملون، وعن

رأيهم يصدرون، وما أشكل على قضاة المسلمين من حكم، فبقول العلماء يحكمون وبعلمهم وعلى علمهم يعولون.

حجة الله على العباد، ولن تخلو الأرض من قائم لله بحجة: ﴿ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [النساء: ١٦٥] هم سراج البلاد، ومنار العباد، وقوام الأمة، وينابيع الحكمة.

هم غيظ الشيطان، بهم تحيا قلوب أهل الحق، وتموت قلوب أهل الزيف، مَثَلهم في الأرض كالنجوم في السماء يُهْتَدى بها في ظلمات البر والبحر، إذا طمست النجوم تحيروا، وإذا أسفر الظلام أبصروا.

فليس ذو العلم بالفتوى كجاهلها ... ولا البصير كأعمى ما له بصر

لحومهم مسمومة، وعادة الله في هتك أستار منتقصيهم معلومة، ومن وقع في العلماء بالسلب، بلاه الله قبل موته بموت القلب.

أحبتي في الله...

هذا ما تيسر جمعه من مطوي الصفحات من تاريخ مشرف احتوى على أحداث ووقائع قامت على أكتاف رجال كالنجوم تضيء لمن يسري، وتبدد الظلام، رجال أسسوا حضارة نابعة من عقيدة ليست مسخًا مشوَّهًا من حضارات مشوهة، لم يقيموا حضارتنا على فكر بشري، أو رؤية شخصية، بل أدركوا دورهم وفق ما شرعه الله، فقدموا الإسلام في صورة بناء حقيقي متماسك، في صورة مجتمع ملموس محسوس، في صورة أمَّة واقعية، فلم يتخلوا عن حياتهم، ويقبعوا في زوايا مساجدهم، بل انتشروا في الأرض يدعون بدعوة المرسلين: ﴿ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ﴾ [المؤمنون: ٣٢]. فكانت حضارة الإسلام التي نعم بها العالم أجمع، حضارة تجمع الدين والدنيا، تحققت بها مطالب البشرية من غير اعتبارات جاهلية لعنصر أو لون أو قومية، أكرمكم أتقاكم.

صفحات مطوية مضيئة وضعتها بين أيديكم مشعلًا ومنارًا ومَعْلَمًا ومقتدىً مع اشتغال البال، وكثرة الأوزار، فلعل سامعًا ينتفع بها.

جعل الله الجهد نافعًا، وجعلني للحق طالبًا، ومن الشر محذرًا، وإلى الخير مناديًا.

فلئن أُفِدْ أو قد أجَدتُ ... فإنها مطوية من ربنا الباري فَتَح

فالله يجزيكم بأجر وافر ... ويثيبكم ويزيدكم مِمَّا صَلَح

ويـــبارك الـــرحمن في أوقـــاتكم حتــى نــرى مــنكم ســواها قــد نجــح

ثــم الــصلاة مــع الــسلام لأحمــد والآل والأصــحاب مــا نُــور وَضَــح

اللهم إنا نسألك بأنَّا نشهد أن لا إله إلا أنت، الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، نسألك بكل اسم هو لك، ونسألك باسمك الأعظم الذي إذا سئلت به أعطيت، وإذا دعيت به أجبت، يا حي يا قيوم، يا ذا الجلال والإكرام أن تعز الإسلام والمسلمين، وأن تدمر أعداء الدين، وأن تصلح من في صلاحه صلاح للإسلام والمسلمين، وأن تهلك من في هلاكه صلاح للإسلام والمسلمين.

اللهم ثبِّتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة، اللهم احرسنا بعينك التي لا تنام، واكنفا بركنك الذي لا يرام، ولا تهلكنا وأنت رجاؤنا.

يا رب كم من نعمة أنعمت بها علينا قلَّ لك عندها شكرنا، وكم من بليَّة ابتليتنا بها قل لها عندك صبرنا.

يا من قل عند نعمته شكرنا فلم يحرمنا! ويا من قل عند بليته صبرنا فلم يخذلنا! يا من رآنا على المعاصي فلم يفضحنا! يا ذا النعم التي لا تحصى! يا ذا المعروف الذي لا ينقطع أبدًا! هب لنا فرجًا قريبًا، وصبرًا جميلًا، وأعنَّا على ديننا بدنيانا، وعلى آخرتنا بتقوى، وكن لنا في الآخرة والأولى، وامكر لنا ولا تمكر بنا، وكن لنا ولا تكن علينا، وتول أمرنا، أنت حسبنا ومن كنت حسبه فقد كفيته، حسبنا الله ونعم الوكيل.

وآخر دعوانا أنِ الحمد لله رب العالمين وصلِّ اللهم على نبينا محمد.

وسبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت.

سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين



[٤] كشف الكربة عند فقد الأحبة

الحمد لله المنفرد بالبقاء والقهر، الواحد الأحد، ذي العزة والستر، لا نِدَّ له فيُبارى، ولا شريك له فيدارى.

كتب الفناء على أهل هذه الدار، وجعل الجنة عقبى الذين اتقَوْا وعقبى الكافرين النار.

قدَّر مقادير الخلائق وأقسامها، وبعث أمراضها وأسقامها، وخلق الموت والحياة ليبلوكم أيُّكم أحسن عملًا.

جعل للمحسنين الدرجات، وللمسيئين الدَّركات؛ فحمدًا لك اللهم مفرج الهموم، ومُنفِّس الكروب، ومُبدِّد الأحزان والأشجان والغموم، جعل بعد الشدة فرجًا، وبعد الضيق والضر سعة ومخرجًا، لم يخلِّ محنة من منحة، ولا نقمة من نعمة، ولا نكبة ورزية من هبة وعَطِيَّة.

نحمده على حلوِ القضاء ومُرِّه، ونعوذ به من سطواته ومكره، ونشكره على ما أنفذ من أمره، وعلى كل حالٍ نحمده.

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، عدة الصابرين، وسلوان المصابين، الكريم، الشكور، الرحيم، الغفور، المُنزَّه عن أن يظلم أو يجور، الذي خلق السماوات والأرض، وجعل الظلمات والنور، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون.

له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير. يخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي، ويحي الأرض بعد موتها، وكذلك تخرجون.

ونشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله، وخِيرته من خلقه وأمينه على وحيه، أعرف الخلق به، وأقومهم بخشيته، وأنصحهم لأمته، وأصبرهم لحكمه، وأشكرهم على نعمه.

أعلاهم عند الله منزلة، وأعظمهم عند الله جاهًا، بعثه للإيمان مناديًا، وفي مرضاته ساعيًا، وبالمعروف آمرًا، وعن المنكر ناهيًا.

بلَّغ رسالة ربه، وصدع بأمره، وتحمل ما لم يتحمله بشر سواه، وقام لله بالصبر حتى بلَّغه رضاه.

دعانا إلى الجنة، وأرشدنا إلى اتباع السنة، وأخبر أن أعلانا منزلة أعظمنا صبرًا، من استرجع واحتسب مصيبته كانت له ذخرًا ومنزلة عالية وقدرًا، وكان مقتفيًا هديًا ومتبعًا أثرًا، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وأزواجه وذرياته الأخيار، وسلم تسليمًا كثيرًا متصلًا مستمرًا ما تعاقب الليل والنهار: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّقُوا ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

لا أملك أمام ما سمعت إلا أن أقول: اللهم اجعلني خيرًا مما يظنون، واغفر لي ما لا يعلمون، ولا تؤاخذني بما يقولون.

أما بعد:

فإن الله تعالى جعل الموت محتومًا على جميع العباد من الإنس والجان وجميع الحيوان؛ فلا مَفرَّ لأحد من الموت ولا أمان: ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ [الرحمن: ٢٦]، ساوى فيه بين العبد والحر، والصغير والكبير، والذكر والأنثى، والغني والفقير، وكل ذلك بتقدير العزيز العليم: ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [فاطر: ١١].

فالكيِّس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والحازم من بادر بالعمل قبل حلول الفوت، والمسلم من استسلم للقضاء والقدر، والمؤمن من تيقَّن بصبره الثواب على المصيبة والضرر.

أيها الأحبة...

كُربُ الزمان وفقد الأحبة عمومًا مع أخصية الأبناء والأحفاد والآباء خَطْب مؤلم، وحدث موجع، وأمر مهول مزعج؛ بل هو من أثقل الأنكاد التي تمر على الإنسان.

نار تستعر، وحرقة تضطرم، تحترق به الكبد، ويفت به العضد؛ إذ هو الريحانة للفؤاد، والزينة بين العباد، لكن مع هذا نقول:

فلـــــرُبَّ أمــــر محــــزن لـــــك	في عواقـــــــبه الرضـــــــــا
ولــــــربما اتـــــسع المــــضيق	وربمـــــــا ضـــــاق الفـــــضا

كم مغبوط بنعمة هي داؤه، ومحروم من دواء حرمانه هو شفاؤه! كم من خير منشور، وشر مستور! ورب محبوب في مكروه، ومكروه في محبوب! ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ﴾ [البقرة: ٢١٦].

لا تكـــره المكـــروه عـــند حلـــوله إن العـــــواقب لم تــــزل متبايــــنة

كــم نعمـــة لا يُـــستهان بـــشكرها لله في طــــي المكـــــاره كامــــــنة

لو استخبر المنصف العقل والنقل لأخبراه أن الدنيا دار مصائب وشرور، ليس فيها لذة على الحقيقة إلا وهي مشوبة بكَدَر؛ فما يُظن في الدنيا أنه شراب فهو سراب، وعمارتها -وإن حسنت صورتها- خراب، والعجب كل العجب مِمَّن يدُه في سلة الأفاعي كيف ينكر اللدغ واللسع؟!

وأعجب منه من يطلب ممن طُبع على الضر النفع.

طُــبعت علــى كــدر وأنــت تــريدها صـــفوًا مـــن الأقـــذار والأكـــدار

إنها على ذا وضعت، لا تخلو من بلية ولا تصفو من محنة ورزية، لا ينتظر الصحيح فيها إلا السقم، والكبير إلا الهرم، والموجود إلا العدم.

علـى ذا مـضى الـناس؛ اجـتماعٌ وفـرقة ومـــيتٌ ومولـــود، وبـــشْرٌ وأحـــزان

والمــرء رهــن مــصائب مــا تنقــضي حتــى يوســد جــسمه في رَمــسِهِ

فمــؤجل يلقـــى الـــردى في غـــيره ومعجـــل يلقـــى الـــردى في نفـــسه

هل رأيتم، بل هل سمعتم بإنسان على وجه هذه الأرض لم يُصَبْ بمصيبة دقَّت أو جلَّت حتى في قطع شسع نعله؟

الجواب معلوم: لا وألف لا، ولولا مصائب الدنيا مع الاحتساب لوردنا القيامة مفاليس، كما ورد عن أحد السلف:

ثمانـــية لابـــد مـــنها علـــى الفتـــى ولابـــد أن تجـــري علـــيه الثمانـــية

ســـرور وهـــمٌّ واجـــتماع وفـــرقة ويُـــسْر وعـــسر ثـــم ســـقم وعافـــية

كشف الكربة عند فقد الأحبة

لهذا كله أحببت أن أجمع هذه الكلمات اللطيفة في كشف كرب من أصيب بمصيبة، عَنْوَنْتُها بعنوان كتاب في هذا الموضوع هو: «**كشف الكربة عند فقد الأحبة**» راجيًا من الملك الديَّان أن ينفعني بها وسائر الإخوان، وأن يجعلها تذكرة لأولي الألباب، وتسلية وعزاء لكل مؤمن محزون مصاب، تشرح صدره، وتجلب صبره، وتهون خطبه، وتخفف

أمره، ويلحظ بها ثوابه على الصبر وأجره.

والله تعالى هو المسئول أن يجعل لي ولها القبول، لا رب غيره، ولا إله سواه، هو المأمول، وأحتسب عند الله ثواب من تسلى بهذه الكلمات، وأسأله الدعاء بأن يثبتني الله في ساعة فقري وحاجتي، وألاَّ يحرمني ثواب هذه الكلمات؛ فالمُصاب -حقًا- من حُرِم الثواب، نفع الله بها وأثاب، إنه الكريم الوهاب.

«اللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلًا، وأنت تجعل الحَزْن إذا شئت سهلًا».

من وسائل كشف الكربة: التأمل والنظر في الكتاب والسنة:

أولًا: مما يكشف الكربة عند فقد الأحبة: التأمل والتملي والتدبر والنظر في كتاب الله جل وعلا وسنة رسوله ﷺ، ففيهما ما تقرُّ به الأعين، وتسكن به القلوب، وتطمئن له -تبعًا لذلك- الجوارح مما منحه الله ويمنحه لمن صبر ورضي واحتسب من الثواب العظيم والأجر الجزيل؛ فلو قارن المكروب بين ما أُخذ منه وما أعطي لاشك أنه سيجد أن ما أُعطيَ من الأجر والثواب أعظم من فوات تلك المصيبة بأضعاف مضاعفة، ولو شاء الله لجعلها أعظم وأكبر وأجلَّ، وكل ذلك عنده بحكمة، وكل شيء عنده بمقدار.

فلنقف -أيها الأحبة- مع آية في كتاب الله جل وعلا، وفي أول سورة في كتاب الله جل وعلا، وكفى بها واعظًا، وكفى بها مسلية، وكفى بها كاشفة للكروب.

قال الله تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [البقرة: ١١٥ - ١٥٧].

إنا لله وإنا إليه راجعون، علاج من الله عز وجل لكل من أصيب بمصيبة دقيقة أو جليلة؛ بل إنه أبلغ العلاج وأنفعه للعبد في عاجله وآجله؛ فإذا ما تحقق العبد أن نفسه وماله وأهله وولده ملك لله عز وجل، قد جعلها الله عنده عارية؛ فإذا أخذها منه فهو كالمعير يأخذ عاريته من المستعير؛ فهل في ذلك ضيْر؟! لا والذي رفع السماء بلا عَمَدٍ.

ثم إنما يؤخذ منك -أيها العبد- المُصاب المُبتلى محفوف بعدمين، عدم قبله؛ فلم يك شيئًا في يوم من الأيام، وعدم بعده؛ فكان ثم لم يكن؛ فمُلْكُك له متعة مستودعة في زمن يسير، ثم تعود إلى مُعيرها وموجدها الحقيقي سبحانه وبحمده: ﴿ ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ أَلَا لَهُ ٱلْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ ٱلْحَٰسِبِينَ ﴾ [الأنعام: ٦٢].

فمصير العبد ومرجعه إلى الله مولاه الحق، لابد أن يُخَلِّفَ الدنيا وراء ظهره يومًا ما، ويأتي ربَّه فردًا كما خلقه أول مرة بلا أهل ولا عشيرة ولا مال، ولكن بالحسنات والسيئات، نسأله حسن المآل.

هل علمت هذا أخي المصاب المكروب؟إن علمت حقًا؛ فكيف الفرح الزائد بمتاع الدنيا أيًا كان؟ ثم كيف الأسى على أيِّ مفقود أيًا كان؟ يكفيك من ذلك تفكيرك في بداية العبد ونهايته علاجًا وبلسمًا لكل همٍّ وغمٍّ وكرب، ومعها: (إِنَّا لِلَّـهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ) فهي الصلاة والرحمة والهدى، ونعم العدلان ونِعْمَتْ العلاوة!فهم ذلك السلف حقَّ الفهم -رضي الله عنهم وأرضاهم- فاسمع لأحدهم وهو عبد الله بن مطرف يوم مات ولده، فقال: والله لو أن الدنيا وما فيها لي، فأخذها الله عز وجل مني، ثم وعدني عليها شربة من ماء لرأيتها لتلك الشربة أهلًا؛ فكيف بالصلاة والرحمة والهدى؟

إذا ما لقيت الله عني راضيًا ... فإن شفاء النفس فيما هنالك

ثم اسمع معي بعض أحاديث المصطفى ﷺ؛ ففيها الدواء لما بك من الكروب والأشجان والهموم والأحزان، إن وعيتها كشف الكرب وكأنه ما كان.

يروي مسلم في صحيحه من حديث أم سلمة -رضي الله عنها- قالت: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما من عبد تصيبه مصيبة، فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبتي، واخلفني خيرًا منها؛ إلا آجره الله في مصيبته، وأخلف له خيرًا منها**»[1]، قالت: فلما توفي أبو سلمة قلت: ومن خير من أبي سلمة صاحب رسول الله ﷺ؟ ثم عزم الله عليَّ، فقلتها -فما الخلف؟- قالت: فتزوجت رسول الله ﷺ ومن خير من رسول الله؟!».

صلى عليه الله جل جلاله ... ما لاح نور في البروق اللُّمَّع

وفي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة -رضي الله عنهما- عن النبي ﷺ قال: «**ما يصيب المؤمن من نَصَبٍ[2] ولا وَصَبٍ[3] ولا هم ولا حزن ولا أذىً ولا غم حتى**

---

(١) **صحيح**: مسلم (٢١٦٥) (٢١٦٦) باب «ما يقال عند المصيبة».

(٢) **نصب**: تعب.

(٣) **وصب**: مرض.

الشوكة يُشاكها إلا كفَّرَ الله بها خطاياه»[(١)]

وفي صحيح ابن حبان عن سعد بن أبي وقاص -رضي الله عنه- قال: سُئل رسول الله ﷺ: أيُّ الناس أشدُّ بلاءً؟ قال: «الأنبياء، ثم الأمثل، فالأمثل؛ يُبتلى الناس على قَدر دينهم؛ فمن ثَخُنَ دينه اشتد بلاؤه، ومن ضَعُف دينه ضعف بلاؤه، وإن الرجل ليصيبه البلاء حتى يمشي في الناس وما عليه خطيئة»[(٢)]

وفي سنن الترمذي: «ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتى يلقى الله تعالى وما عليه خطيئة»[(٣)]

وفي الصحيحين عن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد، فتمسه النار إلا تحلة القسم»[(٤)(٥)]، يشير لقول الله -عز وجل-: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ۝﴾ [مريم: ٧١، ٧٢].

وأخرج مسلم عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: أَتَتْ امرأة إلى النبي ﷺ بصبي لها، فقالت: يا رسول الله! ادعُ الله له؛ فلقد دفنت ثلاثة قبله.

فقال ﷺ: «دفنت ثلاثة؟!» -مستعظمًا أمرها- قالت: نعم، قال: «لقد احتظرت[(٦)] بحظار[(٧)] شديد من النار»[(٨)]، أي: لقد احتميت بحمى عظيم من النار؛ فما أعظم الأجر! وما أكمل الثواب! وما أجدر أن يُستعذَب العذاب في طلب مثل هذا الثواب!وجاء في

---

(١) متفق عليه: البخاري (٥٣١٨)، ومسلم (٦٧٣٠) بنحوه.

(٢) صحيح: صحيح ابن حبان (٢٩٢٠)، و «كنز العمال» (٦٧٨٣)، و «صحيح الترغيب والترهيب» (٣/ ١٧٩).

(٣) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٣٩٩)، والألباني في «الصحيحة» (٢٢٨٠)، وفي «صحيح الجامع» (٥٨١٥).

(٤) تحلة القسم: أي يرد عليها ورودًا سريعًا بقدر يبر الله تعالى به قسمه في قوله ﴿وإن منكم إلا واردها﴾ [مريم: ٧١]، ومعنى الآية: ما من إنسان إلا سيأتي جهنم حين يمر على الصراط الموضوع على ظهرها.

(٥) متفق عليه: البخاري (١١٩٣)، (٦٢٨٠)، ومسلم (٦٨٦٥) (٦٨٦٦).

(٦) احتظر: احتمى.

(٧) حظار: الحمى.

(٨) صحيح: مسلم (٦٨٧١)، (٦٨٧٢)، باب «فضل من يموت له ولد».

الحديث الصحيح -كما في السلسلة الصحيحة - عن رسول الله ﷺ أنه قال: **«إذا مات ولد الرجل يقول الله تعالى لملائكته: أقبضتم ولد عبدي؟ فيقولون: نعم. فيقول -وهو أعلم-: أقبضتم ثمرة فؤاده؟ فيقولون: نعم. فيقول: ماذا قال عبدي؟ قالوا: حمدك واسترجع. فيقول الله جلّ وعلا: ابنوا لعبدي بيتًا في الجنة، وسمُّوه بيت الحمد»** (١)

يا لها من بشارة بالموت على الإيمان؛ لأن الله إذا أمر ببناء بيت لأحد عبيده لابد لذلك العبد من سكنى ذلك البيت يومًا من الأيام.

وروى الإمام أحمد من حديث معاوية بن قرة عن أبيه: أن رجلًا كان يأتي النبي ﷺ ومعه ابن له، فقال له النبي ﷺ : **«أتحبه؟»**، فقال: يا رسول الله! أحبك الله كما أُحبُّه.

فتفقده النبي! فقال: ما فعل ابن فلان؟ فقالوا: يا رسول الله! مات.

فقال النبي ﷺ لأبيه: **«أما تحب أن تأتي بابًا من أبواب الجنة إلا وجدته عليه ينتظرك؟»**.

فقال رجل: يا رسول الله! أَلَهُ خاصة أم لكلنا؟ فقال ﷺ : **«بل لكلِكم»** (٢)

أيها الأحبة...

فهم السلف الصالح -رضوان الله عليهم- ذلك فهمًا عميقًا؛ فتمنَّوْا أن يُقدِّموا أولادهم وأحبتهم، ثم يرضوا بذلك ويحتسبوا لينالوا الأجر العظيم من الرب الكريم.

هاهو أبو مسلم الخولاني عليه رحمة الله يقول: لأن يولد لي مولود يُحسن الله نباته حتى إذا استوى على شبابه، وكان أعجب ما يكون إليّ؛ قبضه الله تعالى مني أحب إليّ من الدنيا وما فيها.

وكان للمحدث إبراهيم الحربي عليه رحمة الله ابنٌ له إحدى عشرة سنة حفظ القرآن، ولقنه من الفقه جانبًا كبيرًا، ثم مات هذا الولد، قال محمد بن خلف: فجئت أعزيه، فقال: الحمد لله، والله! لقد كنت على حبي له أشتهي موته، قال: فقلت له: يا أبا إسحاق ! أنت عالم الدنيا تقول ذلك في صبي قد حفظ القرآن، ولقنته الحديث والفقه؟ قال: نعم أو يخفى عليك أجر تقديمه؟ -أو كما قال- ثم قال: وفوق ذلك فلقد رأيت في منامي كأن القيامة قامت، وكأن صبيانًا بأيديهم قلال فيها ماء يستقبلون الناس، فيسقونهم، وكان اليوم حارًّا

---

(١) حسن: أخرجه الترمذي (١٠٢١)، وأحمد (١٩٧٤٠)، و الألباني في«الصحيحة» (١٤٠٨).

(٢) صحيح:أخرجه أحمد (١٥٦٣٣) (٢٠٣٨١)، والألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٠٠٧).

شديد حره، قال: فقلت لأحدهم: اسقني من هذا الماء.

قال: فنظر إليَّ وقال: لست أبي. قال: قلت: من أنتم؟ قال: نحن الصبية الذين مِتْنا، واحتسبنا آباؤنا ننتظرهم لنسقيهم، فنسقيهم الماء.

قال: فلذلك اشتهيت موته، والحمد لله، وإنا لله وإنا إليه راجعون!وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله ﷺ قال: «**يقول الله عز وجل: ما لعبدي المؤمن عندي جزاء إذا قبضت صَفِيَّه من أهل الدنيا، ثم احتسبه إلا الجنة**» (١)

يا له من جزاء! فعندك اللهم نحتسب أصفياءنا وأصدقاءنا وأحبابنا وآباءنا وأمهاتنا، وأنت حسبنا ونعم الوكيل، وإنا لله وإنا إليه راجعون!

أخي المصاب... أخي المكروب...

هذه بعض أحاديث رسول الله ﷺ قد قُدِّمَت بين يديْك؛ فلعل لك فيها سلوى، ولعلها كشف لكربتك، ولا أظنك إلا قد سلوت وكشف ما بك؛ فاحمد الله، وأحسن نيتك، واحتسب مصيبتك، وارضَ بما قسم الله لك؛ فلعل لك عند الله منزلة لا تبلغها بعمل؛ فما يزال الله يبتليك بحكمته بما تكره، ويصبرك على ما يبتليك عليه حتى تبلغ تلك المنزلة التي سبقت لك من الله عز وجل فاحمد الله حمدًا ، وشكرًا له شكرًا، ورضًا بقضائه رضًا ولهجًا بـ(إنا لله وإنا إليه راجعون) فهي الصلاة والرحمة والهدى:

يا صاحب الهم إن الهم منفرج ... أبشر بخير فإن الفارج اللهُ

اليأس يقطع أحيانًا بصاحبه ... لا تيئسنَّ فإن الكافي اللهُ

الله يحدث بعد الكرب ميسرةً ... لا تجزعنَّ فإن الكاشف اللهُ

إذا بُليت فثق بالله وارض به ... إن الذي يكشف البلوى هو اللهُ

واللهِ مالك غير الله من أحد ... فحسبك الله في كلٍ لك اللهُ

تذكر موت النبي ﷺ

ثانيًا: ومن وسائل كشف الكربة: تذكُّر المصيبة العظمى بموت رسول الله ﷺ، وكل مصيبة دون مصيبتنا بموته ﷺ تهون؛ فبموته ﷺ انقطع الوحي من السماء إلى يوم

(١) صحيح: البخاري (٦٠٦٠).

القيامة، وبموته انقطعت النبوات، وبموته ظهر الفساد بارتداد العرب عن الدين؛ فهو أول انقطاع عُرَى الدين أو نقصانه، وفيه غاية التسلية عن كل مصيبة تصيب العبد أو تحلُّ بأمة الإسلام جمعاء.

وهاهو ﷺ يطلب منا أن نذكر بمصائبنا موته وفراقه، وبذلك تهون علينا المصائب والخطوب؛ فيقول ﷺ في الحديث الذي صححه الألباني في السلسلة: «**إذا أصيب أحدكم بمصيبة فليذكر مصيبته بي؛ فإنها أعظم المصائب**» (١)

إي والله! ما من عزيز أو حبيب أو قريب أو صديق فقدناه إلا وذاق القلب من لوعة فراقه وحرقة وداعه ما الله به عليم؛ فهل شعرنا بشيء من هذا، ونحن نستشعر فراق وموت النبي ﷺ؟

ماذا لو فقد الرجل أسرته كلها، وقد احترق فؤاده، وأدمي قلبه، وأنبتت دموعه الأسى، ثم تزوج بعد فترة، ثم رزق بأبناء، وعقب سنوات مات أحد أبنائه؛ كيف يكون حزنه وألمه إذا قورن بالمصاب الأول؟ أليس الخطب أهون؟ أليست المصيبة أقل؟ بلى.

فهكذا ينبغي أن نعزي أنفسنا كلما أصابتنا المصائب بذكر موت النبي ﷺ فهو أعظم المصائب.

إن رسول الله ﷺ الذي ما من مسلم إلا وأصيب بموته وفراقه، ويتمنى أن يفتدي رؤيته بالدنيا جميعها، يخاطبنا، فيقول كما في صحيح سنن ابن ماجه: «**يا أيها الناس! أيُّما أحد من الناس -أو من المؤمنين- أصيب بمصيبة فليتعزَّ بمصيبته بي عن المصيبة التي تصيبه بغيري؛ فإن أحدًا من أمتي لن يُصاب بمصيبة بعدي أشدَّ عليه من مصيبتي**» (٢)

ولو تأملنا كلمة: فليتعزَّ؛ لوجدنا فيها العلاج والدواء، إنها حروف يُستطبُّ بها الفؤاد، وتُربُّ بها الأكباد.

ماذا لو فقد الإنسان أبويْه الحبيبيْن في جادث سيارة؟! ألا يظلُّ أثر المصيبة في قلبه مدى الدهر؟!

إن المصيبة ينبغي أن تعظم إذا سمعنا قوله ﷺ -كما روي البخاري ومسلم -: «لا

---

(١) صحيح: أخرجه الطبراني في «الكبير» (٧/ ١٦٧)، و «شعب الإيمان» للبيهقي (١٠١٥٢)، و الألباني في «الصحيحة» (١١٠٦).

(٢) صحيح: أخرجه ابن ماجه (١٥٩٩)، و الألباني في «صحيح الجامع» (٧٨٧٩).

يؤمن أحدكم حتى أكونَ أحبَّ إليه من ولده ووالده والناس أجمعين» [(١)]

وكأن المعنى بعد هذا النص سيكون: لا يؤمن أحدكم حتى يكون موتي أعظم مصيبة من موت ولده ووالده والناس أجمعين.

فأين هذا الإحساس؟! وأين بربكم هذا الشعور؟!

إن فقْدَ النبي ﷺ من مصائب الدين، وإن أي إنسان فقدتَه ليهون أمام فقدان النبي ﷺ.

يــا نفــس بعــد المــصطفى أفتطمعــي في الخلــد كــلا مــا إلــيه ســبيل

هل فقدت أمك يومًا ما، وتذكرت عند موتها، وأنت تتألم لفقدها أنها -بإذن ربها- أخرجتك من ظلمات البطن إلى نور الدنيا، ورعتك وربَّتك؟ فهل تنسى في خِضَمِّ ذلك الشعور أن الله أخرجك بدعوة محمد ﷺ من ظلمات الضلالة إلى نور الهدى والتوحيد، وهذا -بإذن الله- إنقاذ لك من الخلود في النار؟ فهل بلبن أمك وحنانها وعطفها وعنايتها ورعايتها تُنقَذ من الخلود في النار؟ لا والله؛ فلو كان لكل واحد منا ألف أم بحنان أمِّه وعطفها ومُتْنَ في يوم واحد ما ينبغي أن يُحزن عليهن أكثر من الحزن على موت رسول الله ﷺ.

فإذا فقدت ابنك، فإذا فقدت حبيبك، فإذا فقدت صديقك، فتألمت وبكيت، ثم زاد أَلمُك، وزاد بكاؤك، وزادت لوْعتُك بتذكر عونه ومساعدته وعطفه وبرِّه وصلته؛ فاعلم -والله الذي لا إله إلا هو- أن كل ذلك لن يبلغ ما قدمه لك ﷺ من هدى ونور يدخلك -بعون الله- جنة عرضها السماوات والأرض لتخلد فيها وتُنعَّم.

نُمتع بعون الأبناء وعطفهم سنوات سرعان ما تمضي، لكن التمتع في الجنة لا نهاية له ولا آخر؛ أفلا يستحق رسول الله ﷺ منا أن نحزن على موته أكثر ممن سواه، ونتعزَّى به عن فراق من سواه، ونذكره فنتمسك بسنته، ونمضي على شرعته لننعم بعدها في صحبة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين؟! ولعل من فقدته في ركبهم فعندها يجمع الله الشتيتيْن.

أيها المصاب...

تذكر هذا جيدًا لتحس بمصيبة فقده ﷺ؛ فتهون مصيبتك، ثم تساءل: ماذا لولا ما

---

(١) متفق عليه: البخاري (١٥)، ومسلم (١٧٨).

حباك الله به من هديِه وسنته؟ ماذا لو دخلت النار -أجارك الله-؟ ماذا لو حُرمت الجنة -أعاذك الله-؟ ماذا لو عُذِّبت في القبر -حماك الله-؟ من الذي ينفعك؟ وما الذي ينقذك؟! الأحباب؟! الأصحاب؟! الأبناء؟! الأحفاد؟! لا والله، إلا الإخلاص في اتباع هدي رسول الله ﷺ

فاصبر لكل مصيبة وتجلَّدِ	واعلم بأن المرء غير مخلدِ
واصبر كما صبر الكرام فإنها	نُوَبٌ تنوب اليوم تُكشَف في غد
أوَما ترى أن المصائب جمة	وترى المنية للعباد بمرصدِ؟
من لم يُصب ممن ترى بمصيبة	هذا سبيل لست عنه بأوحدِ
فإذا ذكرت مصيبة ومصابها	فاذكر مصابك بالنبي محمد

العلم بأن ما أصابه لم يكن ليخطئه

ثالثًا: ومن وسائل كشف الكربة: أن يعلم المكروب المصاب علم اليقين أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه[1]: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ۝ لِّكَيْلَا تَأْسَوْاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ۝ ﴾ [الحديد: ٢٢، ٢٣].

إن من تأمل هذه الآية وتدبرها وجد فيها شفاء وتبديدًا لجميع الكرب والأدواء: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق: ٣٧].

كم من عليلٍ قد تخطاه الردى	فنجا ومات طبيبه والعُوَّد

ما أصاب من مصيبة إلا بإذن الله، ولذلك الذين علموا وتدبروا هذهَ الآيات عرفوا كيفية التعامل مع المُصاب؛ فها هي إحدى المكروبات المصابات تقول -عند مصيبتها بأحد أبنائها-: الحمد لله على السراء والضراء، والعافية والبلاء، والله ما أحب تأخير ما عجل الله، ولا تعجيل ما أخَّره الله، وكل ذلك في كتاب، إن ذلك على الله يسير.

---

(١) انظر حديث الرسول الذي رواه ابن ماجه في «سننه»: «ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك» والحديث رواه أيضًا أحمد، وأبو داود، وصححه الألباني.

فمـــــا أبـــــرم الله لم ينـــــتقض ومـــــا نقـــــض الله لم يـــــبرم

ومات ولد لأنس بن مالك -عليه رحمة الله ورضوانه- فقال أنس -عند قبره-: «الحمد لله، اللهم عبدك وابن عبدك، وقد رُدَّ إليك؛ فارْأف به، وارحمه، وجافِ الأرض عن بدنه، وافتح أبواب السماء لروحه، وتقبله بقبول حسن ثم انصرف، فأكل، وشرب، وادَّهن، وأصاب من أهله» ولسان حاله: ﴿ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [الحج: ٧٠].

وكان أبو ذر -رضي الله عنه- لا يعيش له ولد، فقيل له: «إنك امرؤ لا يبقى لك ولد.

فقال: الحمد لله، كل ذلك في كتاب، الحمد لله الذي يأخذهم في دار الفناء، ويدَّخرهم في دار البقاء» أو كما قال رضي الله عنه وأرضاه.

وتموت ابنة لعبد الله بن عباس -رضي الله عنهما- وكان راكبًا في طريقه إلى مكة ليأتيه الخبر، فنزل عن دابته، وصلى ركعتيْن، ثم رفع رأسه إلى السماء، وقال: «الحمد لله، وإنا لله، عورةٌ سترها الله، ومئونة كفاها الله، وأجرٌ ساقه الله» ثم ركب، ومضى في رعاية الله.

والله يفعـــــل مـــــا يـــــشاء فَكِـــــلِ الأمـــــور إلى القـــــضاء

ومات لعبد الله بن عامر سبعة أبناء في يوم واحد، والأمر -كما تعلمون- مهول ومزعج وفظيع؛ فكيف استقبله هذا الرجل؟ قال: الحمد لله، إني مسلم مُسَلِّم.

يمـــضى الـــصغير إذا انقـــضت أيامـــه إثـــر الكـــبير ويـــولد المولـــود

والـــناس في قـــسم المنـــية بيـــنهم كالـــزرع مـــنه قـــائم وحـــصيد

وفي سلوة الحزين: يُذكر أن أعرابية فقدت أباها، ثم وقفت بعد دفنه، فقالت: يا أبتِ! إن في الله عوضًا عن فقدك، وفي رسول الله ﷺ من مصيبتك أسوة، ثم قالت: ربِّ لك الحمد، اللهم نزل عبدك مفتقرًا من الزاد، مخشوشنَ المهاد، غنيًّا عمّا في أيدي العباد، فقيرًا إلى ما في يدك يا جواد، وأنت يا رب خير من نزل بك المُرمِلون، واستغنى بفضلك المُقِلُّون، وولج في سعة رحمتك المذنبون.

اللهم فليكن قرى عبدك منك رحمتك، ومهاده جنتك.

ثم انصرفت راضية محتسبة مأجورة بإذن الله غير مأزورة.

فـــإذا ابتلـــيت بمحـــنة فاصـــبر لهـــا صـــبر الكـــريم فـــإن ذلـــك أســـلم

وإذا ابُتليت بكربة فالْبسْ لها ... ثوب السكوت فإن ذلك أسلم

لا تشكوَنَّ إلى العباد فإنما ... تشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم

ويقف محمد بن سليمان على قبر ابنه وفلذة كبده بعد ما دفنه قائلًا: كل ذلك في كتاب، الحمد لله، وإنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم إني أرجوك له، وأخافك عليه.

اللهم فحقِّقْ رجائي فيه، وآمِنْ خوفي عليه. حاله:

أبكيه ثم أقول معتذرا له ... وُفِّقْتَ حين تركت ألأَمَ دارِ

جاورتُ أعدائي وجاور ربَّه ... شتان بين جواره وجواري

يا كوكبًا ما كان أقصر عمره ... وكذاك عمر كواكب الأسحارِ

دُرَّتْ عليك من الغمام مراضع ... وتكنَّفتْك من النجوم جَواري

فيا أيها المصاب... يا أيها المكروب...

المصيبة واقعة؛ فوطِّنْ نفسك على أن كل مصيبة تأتي إنما هي بإذن الله -عز وجل- وقضائه وقدره، فسلِّم الأمر له؛ فإنه كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، **«واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء أو يضروك بشيء لم ينفعوك ولم يضروك إلا بشيء قد كُتب لك أو عليك، ولو كان لرجل مثل أحد ذهبًا ينفقه في سبيل الله لم يقبله الله منه حتى يؤمن بالقدر خيرِه وشرِّه»**[(١)]

ويعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وإن مات على غير هذا أُدخل النار.

ما قد قُضى يا نفسي فاصطبري له ... ولكِ الأمان من الذي لم يقدر

ثم اعلمي أن المقدَّر كائن ... حتمًا عليكِ صبرتِ أم لم تصبري

الاستعانة بالله على الكربة

رابعًا: ومما يكشف الكربة: الاستعانة بالله، والاتكال عليه، والرضا بقضائه، والتسليم لقدره.

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٦١٠)، والألباني في «ظلال الجنة» (٢٤٥).

روى الإمام أحمد في مسنده من حديث أنس بن مالك -رضي الله عنه- قال: ألا أحدثكم بحديث لا يحدثكم به أحد غيري؟ قالوا: بلى.

قال: كنا عند رسول الله ﷺ جلوسًا، فضحك، ثم قال: «**أتدرون مما ضحكت؟**». قالوا: الله ورسوله أعلم! فقال ﷺ: «**عجبت للمؤمن إن الله عز وجل لا يقضي قضاءً إلا كان خيرًا له**» [١]

فليعلم المكروب أن حظَّه من المصيبة ما يحدث له؛ فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط.

من رضي بقضاء الله جرى عليه، وكان له أجر، ومن لم يرضَ بقضاء الله جرى عليه، وحبط عمله.

فقضاء الله نافذ كالسيف، وأمره واقع لا رادَّ لقضائه، ولا معقِّب لحكمه، ولكن العبد هو الذي يربح أو يخسر بحسب رضاه أو سخطه.

جعلنا الله وإياكم من الراضين بقضاء الله وقدره.

مع الراضين بقضاء الله

ولنعِشْ -أيها الأحبة- مع الراضين دقائق غالية قليلة لنتخذهم قدوة وأسوة ومثلًا، من باب:

سيروا كما ساروا لتَجْنُوا ما جَنَوْا وتشبهوا بهم إن لم تكونوا مثلهم

عمر بن عبد العزيز وجلده في المصائب

قال أبو الحسن المدائني -عليه رحمة الله- دخل عمر بن عبد العزيز على ابنه عبد الملك في مرضه -رحمهما الله جميعًا- فقال: يا بني! كيف تجدك؟ قال: تجدني -أبتاه- في الموت.

قال: يا بني! لأن تكون في ميزاني أحب إليَّ من أن أكون في ميزانك، فقال الابن: يا أبتِ! والله لأن يكون ما تحبُّه أحبُّ إليَّ من أن يكون ما أحبُّه، ثم مات -عليه رحمة الله-.

ويروي الإمام أحمد في الزهد عن زياد بن أبي حسان أنه شهد عمر -رحمه الله -حين دفن عبد الملك ابنه قد استوى قائمًا عند القبر، وأحاط به الناس، فقال: والله -يا بني- لقد

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٨١/ ١٢) (١٢٩٢٩)، و«صحيح الجامع» (٣٩٨٥).

كنت بارًّا بأبيك، والله ما زلت مسرورًا بك منذ وهبك الله لي إلى أن استودعتك الله في المنزل الذي صيَّرك الله إليه، فرحمك الله، وغفر ذنبك، وجزاك بأحسن عملك، ورحم كل شافع يشفع لك بخير شاهد أو غائب، رضينا بقضاء الله، وسلمنا لأمر الله، والحمد لله رب العالمين، وإنا لله وإنا إليه راجعون. ثم انصرف ورجع إلى مجلسه(١)

وكان قبل وفاة عبد الملك قد هلك أخوه سهل -وهو من أحب إخوته- وهلك مولاه مزاحم وهو عزيز عليه، كل ذلك في أوقات متتابعة، فلما استوى في مجلسه جاء الربيع بن سبرة -عليه رحمة الله- فقال: عظَّم الله أجرك يا أمير المؤمنين، ما رأيت أحدًا أصيب بأعظمَ من مصيبتك؛ ما رأيت مثل ابنك ابنًا، ولا مثل أخيك أخًا، ولا مثل مولاك مولى قط.

فطأطأ رأسه عمر -رحمه الله- فقال أحد الحاضرين: لقد هيَّجت عليه، قال: ثم رفع رأسه، فقال: كيف قلت يا ربيع؟ أعد.

قال: فأعدت عليه، فقال: لا والذي قضى عليهم الموت ما أحب أن شيئًا كان من ذلك لم يكن.

فيا أيها الكون منه استمع ... ويا أذن الدهر عنه افهمي

وروى ابن أبي حاتم بسنده عن خالد بن يزيد عن عياض عن عقبة أنه مات له ابن يقال له: يحيى؛ فلما نزل في قبره قال له رجل: والله! إن كان لسيد الجيش فاحتسبه، فقال والده: وما يمنعني أن أحتسبه وقد كان من زينة الحياة الدنيا، وهو اليوم من الباقيات الصالحات.

فلله ما أحسن فهمهم! ولله ما أحسن تعزيتهم لأنفسهم وثقتهم بما أعطى الله -عز وجل- من ثواب للصابرين!

معاذ بن جبل وصبره على الطاعون

ولا يُنَسى إن نُسي أمرٌ يوم وقع الطاعون بأرض الشام -كما في السير للذهبي- فخطب الناس عمرو -رضي الله عنه- فقال: إن هذا الطاعون رجس؛ ففروا منه في الأودية والشعاب، فبلغ ذلك شرحبيل بن حسنة -رضي الله عنه- فغضب، وجاء يجرُّ

(١) انظر «بغية الطلب في تاريخ حلب» (٤/ ١٢٢).

ثوبه، ونعلاه في يده، قائلًا: لقد صحبت رسول الله ﷺ فاسمعوا: «الطاعون رحمة ربكم، ودعوة نبيكم، يستشهد الله به أنفسكم، ويزكي أعمالكم».

فبلغ ذلك معاذًا -رضي الله عنه، وهو يتوق إلى الشهادة في سبيل الله- فقال: «اللهم اجعل نصيب أهل بيت معاذ الأوفر منه»؛ لأنه يعلم أن من أصيب به له مثل أجر الشهيد، فتصاب ابنتاه الاثنتان، وتموتان، فدفنهما في قبر واحد، وحمد الله واسترجع، ثم أصيب ابنه عبد الرحمن -وهو من أعز أبنائه- فقال معاذ لابنه: كيف تجدك؟ قال: أبتاه! ﴿ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾ [آل عمران: ٦٠].

فقال معاذ -رضي الله عنه-: ستجدني إن شاء الله من الصابرين.

ثم توفي -رحمه الله- ثم أصاب الطاعون كفَّ معاذ -رضي الله عنه وأرضاه- فجعل يقبلها، ويقول: «لَهِيَ أحب إليَّ من حمر النعم، ثم يُغشى عليه فإذا سرِّيَ عنه قال: يا رب! غُمّ غمك، واخنق خنقتك؛ فوعزتك إنك لتعلم أني لأحبك» ثم لقي الله جل وعلا بعد أن احتسب أهل بيته جميعًا؛ فما كان إلا الرضا والتسليم بقضاء الله وقدره.

وقبل ذلك لمعاذ يروى عن المعاف بن عمران عن شهاب بن خراش عن عبد الرحمن ابن غنم قال: دخلنا على معاذ -رضي الله عنه- وهو قائم عند رأس ابن له، وهو يجود بنفسه؛ فما ملكنا أنفسنا أن ذرفت أعيننا، وانتحب بعضنا، فزجره معاذ، وقال: «مه! فوالله لأن يعلم الله برضائي بهذا أحب إليّ من كل غزاة غزوتها، من كان عليه عزيز وبه ضنين، فصبرِ على مصيبته واحتسب أبدل الله الميت دارًا خيرًا من داره، وقرارًا خيرًا من قراره، وأبدل المصاب الصلاة والرحمة والمغفرة والرضوان» قال: فما برحنا حتى قضى الغلام، فقام فغسله وحنَّطه وكفَّنه وصلينا عليه، ثم نزل في قبره ووضعه، ثم سوَّى عليه التراب، ثم رجع إلى مجلسه، فدعى بدهن فادَّهن، وبكحل فاكتحل، وببردة جميلة فلبسها وأكثر من التبسم -ينوي ما ينوي- ثم قال: «إنا لله وإنا إليه راجعون، في الله خلف من كل هالك، وعزاء من كل مصيبة، ولله الأمر من قبل ومن بعد، ولكن أكثر الناس لا يعلمون».

لسان حاله:

كل ما كان من قضاء ... فيحلو بفؤادي نزوله ويطيب

أيها الأحبة...

لا زلنا في رياض الراضين بالقضاء نعيش لنعتبر ونتعظ ونسلو ونرضى.

الفضيل بن عياض ورضاه بالقدر

يقول أبو علي -رحمه الله- صحبت الفضيل بن عياض -رحمه الله- ثلاثين سنة ما رأيته ضاحكًا متبسمًا إلا يوم مات ابنه علي -رحمه الله-، فقلت: ما هذا؟ قال: إن الله -سبحانه- أحب أمرًا، فأحببت أن أحبَّ ما أحب الله، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

وضحك أحد السلف يوم مات ابنه، فقيل له: أتضحك في مثل هذا الحال؟! قال: نعم. أردت أن أرغم الشيطان، وقضى الله القضاء، فأحب أن أرضى بقضائه؛ فهو أرحم الراحمين وأكرم الأكرمين.

ويشتكي ابن لعبد الله بن عمر -رضي الله عنهم- فيشتدُّ وجده عليه حتى قال بعض القوم: لقد خشينا على هذا الشيخ إن حدث بهذا الغلام حدث، وشاء الله، فمات الغلام، فخرج ابن عمر في جنازته، وما رجل أبدى سرورًا إلا ابن عمر، فقيل: ما هذا، قد خشينا عليك يا بن عمر؟! قال: «إنما تلك كانت رحمة به؛ فلما وقع أمر الله رضينا به» لا تعجبوا، ولا تدهشوا إنه ابن عمر بن الخطاب، والفرع للأصل ينسب رضي الله عن الجميع، الذي قال يومًا ما: «ما من أهل ولا مال ولا ولد إلا وأنا أحب أن أقول عليه: إنا لله وإنا إليه راجعون إلا عبد الله بن عمر؛ فإني أرجو أن يطول عمره لعلمي بمنفعته للناس، والأعمال بالنيات» ولكل امرئ ما نوى.

شريح القاضي واحتسابه الأجر

ويروى أن شريحًا القاضي مات له صبي، فجهزه وغسله ودفنه بالليل، ولم يشعر به أحد، ولما جلس للقضاء من الغد جاء الناس على حسب العادة يعودونه ويسألونه عنه، فقال: الحمد لله، الآن فقد الأنين والوجع، ففرح الناس وظنوا أنه قد عوفي من مرضه، فقال -وهو يضحك-: احتسبناه في جنب الله، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

من عجائب الصبر

ويذكر ابن الجوزي -عليه رحمة الله- في عيون الحكايات قال الأصمعي: خرجت أنا وصديق لي إلى البادية، فضللنا الطريق؛ فإذا نحن بخيمة عن يمين الطريق، فقصدنا نحوها، فسلمنا؛ فإذا عجوز ترد السلام، ثم قالت: من أنتم؟ قلنا: قوم ضللنا الطريق، وأَنِسْنَا بكم، وقوم جياع.

قالت: ولُّوا وجوهكم حتى أقضي من حقكم ما أنتم له أهل.

ففعلنا، وجلسنا على فراش أَلْقَتْهُ لنا، وإذا ببعير مقبل، عليه راكب، وإذا بها تقول: أسأل الله بركة المقبل، أما البعير فبعير ولدي، وأما راكبه فليس بولدي.

جاء الراكب، وقال: يا أم عقيل! السلام عليك أعظم الله أجرك في عقيل، فقالت: ويحك! أوقد مات عقيل؟ قال: نعم.

قالت: وما سبب موته؟ قال: ازدحمت عليه الإبل فرمت به في البئر، فقالت: انزل، ودفعت له كبشًا، ونحن مدهوشون، فذبحه وأصلحه، وقرَّب إلينا الطعام، فجعلنا نتعجب من صبرها؛ فلما فرغنا قالت: هل فيكم أحد يحسن من كتاب الله -عز وجل- شيئًا فقلنا: نعم.

قالت: فاقرءوا عليَّ آيات أتعزَّى بها عن ابني، قال: قلت: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [البقرة: ١٥٥، ١٥٧].

قالت: آلله إنها لفي كتاب الله؟ قلت: والله إنها لفي كتاب الله.

قالت: إنا لله وإنا إليه راجعون، صبرًا جميلًا، وعند الله أحتسب عقيلًا.

اللهم إني فعلت ما أمرتني به؛ فانجزني ما وعدتني، ولو بقي أحد لأحد لبقي محمد ﷺ لأمته.

قال: فخرجنا، ونحن نقول: ما أكمل منها ولا أجزل! لما علمت أن الموت لا مدفع له ولا محيص عنه، وأن الجزع لا يجدي نفعًا، وأن البكاء لا يرد هالكًا؛ رجعت إلى الصبر الجميل والرضا بقضاء السميع العليم، فاحتسبت ابنها عند الله -عز وجل- ذخيرة نافعة ليوم الفقر والفاقة.

فما أجمل الرضا بقضاء الله في كشف محن المصاب ومكروباته! هذه سجايا السلف؛ صبرٌ واحتسابٌ، وتجلُّدٌ وتحمُّلٌ، ورضا واسترجاعٌ، وبُعْدٌ عن الجزع والتسخُّط والتذمُّر عند المصاب.

لهم قدرهم باعتبار الرجال ... وسمعتهم في ذرى الأنجم

أنتم كهُم ومن ... يشابهْ أبه فما ظلم

موقف النبي ﷺ في وفاة ابنه إبراهيم

ولنعلم أن البكاء الذي لا صوت معه ولا تسخط لا يعارض الرضا؛ فأشد الناس حرصًا على رضا مولاهم هم الأنبياء، وأرضاهم وأرضى الخلق نبينا محمد ﷺ بكى يوم مات ابنه إبراهيم رأفة ورحمة منه للولد ورقة عليه، وقلبه ﷺ ممتلئ بالرضا، ولسانه مشتغل بحمد الله وذكره، وهذا هو أكمل هدي وأتم؛ فإنه ﷺ حملته الرحمة بالطفل على البكاء، ومحبة الله على الرضا، وخير الهَدْي هديُه ﷺ

ففي الصحيحين: أن النبي ﷺ دخل على ابنه إبراهيم، وهو يجود بنفسه، فجعلت عينا رسول الله ﷺ تذرفان، فقال له عبد الرحمن بن عوف: وأنت يا رسول الله؟! قال: «**يا ابن عوف ! إنها رحمة، إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا لفراقك يا إبراهيم لَمحزونون**» [١]

وفي الحديث المتفق عليه أن النبي ﷺ قال: «**إن الله لا يعذب بدمع العين ولا بحزن القلب، ولكن يعذب بهذا أو يرحم**» وأشار إلى لسانه ﷺ [٢]

وفي الصحيح -أيضًا- عن أسامة بن زيد: أن النبي ﷺ رُفع إليه ابن ابنته، وهو في الموت نفسه تُقعقع، ففاضت عينا رسول الله ﷺ ، فقال له سعد: ما هذا يا رسول الله؟ قال: «**هذه رحمة جعلها الله -تعالى- في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء**» [٣]

عودة إلى وسائل كشف الكربة :

أيها الأحبة...

الله يقضي؛ فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط.

ومن استعان بالله، وشكر الله في السراء والضراء، ورضي بقدر الله انكشف كربه، ورضيت نفسه؛ فهو في حياة طيبة على كل حال؛ إن أصابته سرَّاء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له: ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت: ٣٥].

---

(١) متفق عليه: البخاري (١٢٤١)، ومسلم (٦١٦٧).

(٢) متفق عليه: البخاري (١٢٤٢)، ومسلم (٢١٧٦).

(٣) متفق عليه: البخاري (١٢٢٤) (٦٩٤٢)، ومسلم (٢١٧٤).

العلم بأن الجزع لا يرد المصيبة

خامسًا: ومما يكشف الكربة عند فقد الأحبة: العلم اليقيني أن الجزع لا يرد المصيبة؛ بل يضاعفها؛ فالجازع يزيد مصيبته، ويُشمِّتُ أعداءه، ويسوء أصدقاءه، ويغضب ربه، ويسر شيطانه، ويحبط أجره، ويضعف نفسه.

أما إذا احتسب وصبر ورضي أخزى شيطانه، وأرضى ربه، وسرَّ صديقه، وساء عدوه، وحمل على إخوانه فعزاهم قبل أن يعزوه.

هذا هو الثبات في الأمر؛ فنسأل الله الثبات في الحياة وفي الممات.

يقول بعض الحكماء: العاقل يفعل في أول يوم من المصيبة ما يفعله الجاهل بعد أيام، ومن لم يصبر صبر الكرام سلى سلوَّ البهائم، وإنما الصبر عند الصدمة الأولى.

إذا أنت لم تَسْلُ اصطبارًا وحسبةً سلَوْتَ على الأيام مثل البهائم

وكل أحد لابد أن يصبر على بعض ما يكره؛ فإما باختيار، وإما باضطرار؛ فالكريم المؤمن يصبر مختارًا لعلمه بحسن عاقبة الصبر، وأنه يُحمد عليه، ويُذَمُّ في المقابل على الجزع، ويعلم أنه إن لم يصبر لم يُعِدْ عليه الجزاء فائتًا، ولم ينتزع منه مكروهًا، والمقدور لا حيلة في دفعه، وما لم يُكتب لا حيلة في تحصيله؛ فالجزع ضرُّه أقرب من نفعه؛ فما دام أن آخر الأمر الصبر، والعبد معه غير محمود؛ فما أحسن أن يُستقبَلَ الأمر في أوله بما يستدبره الأحمق في آخره.

إن علم المصاب بما يعقب الصبر والاحتساب من اللذة والمَسَرَّة أضعاف ما يحصل له ببقاء ما أصيب به لو بقي عليه لكان كاشف لكربه لو تأمل ذلك.

يروى عن أنس -رضي الله عنه وأرضاه- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**تُنصَبُ الموازين يوم القيامة، فيُؤتى بأهل الصلاة والصيام والزكاة والحج، فيُوَفَّوْن أجورهم بالموازين، ثم يُؤتى بأهل البلاء، فلا يُنصب لهم ميزان، ولا يُنشر لهم ديوان، ويُصبُّ عليهم الأجر صبًّا بغير حساب**»، ثم قرأ قول الله جل وعلا: ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر: ١٠] [(١)]

(١) ضعيف: «اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة» (٢/ ٣٣٣)، و«ضعيف الترغيب والترهيب» (١٩٨٥) بنحوه.

وفي الترمذي مرفوعًا: «**يودُّ أناسٌ لو أن جلودهم كانت تُقرض بالمقاريض لِمَا يَروْن من ثواب أهل البلاء**»[1]. فسبحان من يرحم ببلائه!

قــد يُــنعم الله بالــبلوى وإن عظمــت ... ويبتلـــي الله بعـــض القـــوم بالـــنعم

هاهي امرأة من السلف قد مات ابنها، فجاءوا يعزونها، ويقولون: يا أمة الله! اتقي الله واصبري.

فقالت: الحمد لله، وإنا لله، مصيبتي أعظم من أن أفسدها بالجزع.

لسان حالها:

كلمـــا ازدادت علـــيَّ المِحَـــن ... وتـــوالت إِحَـــنٌ لا تَهِـــنُ

وكـــروب تُـــصطفى في زمـــن ... فلِـــتطهيرٍ وتـــدريب عمـــيق

فالجزع -وإن بلغ غايته وإن بلغ نهايته- فآخر أمر الجازع إلى الصبر اضطرارًا وهو غير محمود ولا مثاب؛ فإنه استسلم للقدر رغم أنفه، وهذا ليس من الصبر.

على هذا يُذكر أن أعرابيًا مات له ولد، فبكي عليه بكاء عظيمًا، وجزع عليه جزعًا عظيمًا؛ فلما همَّ أن يسلو عن هذا مات له ابن آخر، فقال:

إن أَفِـقْ مـن حـزن هـاج حـزن ... ففـؤادي مـا لـه الـيوم سـكن

فكمـا تبلـى وجـوه في الثـرى ... فكـذا يبلـى علـيهم مـن حـزن

فطوبى للصابرين ثم طوبى ثم طوبى.

العلم بأن النعم زائلة

سادسًا: ومما يكشف الكربة عند فقد الأحبة: العلم بأن النعم زائرة، وأنها -لا محالة- زائلة، وأن السرور بها إذا أقبلت مشوب بالحذر من فراقها إذا أدبرت، وأنها لا تُفرح بإقبالها فرحًا حتى تُعقب بفراقها تَرَحًا؛ فعلى قدر السرور يكون الحزن، والمفروح به اليوم هو المحزون عليه غدًا، ومن بلغ غاية من يحب فليتوقع غاية ما يكره، ومن علم أن كل نائبة إلى انقضاء حَسُن عزاؤه عند نزول البلاء، سُنة الله ولن تجد لسُنة الله تبديلًا.

(١) حسن: أخرجه البيهقي في «الكبرى» (٦٣٤٥)، و «كنز العمال» (٦٦٦٠)، و الألباني في «الصحيحة» (٢٢٠٦)، و «صحيح الجامع» (٥٤٨٤).

العلم بتفاوت المصائب

سابعًا: ومما يكشف الكربة عند فقد الأحبة: العلم بتفاوت المصائب؛ فإن كانت المصيبة بعيدة عن الدين؛ فإنها هيِّنة سهلة يسيرة؛ لأن مصيبة الدين هي أعظم وأفدح مصيبة.

ومصائب الدنيا كذلك تتفاوت، فإذا حصَّلت الأدنى من المصائب فتسلَّ بذلك عن ما هو أعلى وأعظم واحْمَدِ الله على ذلك.

قال السفاريني -عليه رحمة الله-: المصائب تتفاوت؛ فأعظمُها المصيبةُ في الدين -نعوذ بالله من ذلك- فإنها أعظم من كل مصيبة، والمسلوب من سُلب دينه.

وكل كسر لعل الله جابره ... وما لكسر قناة الدين جُبرانُ

فإذا رأيت إنسانًا لا يبالي بما أصابه في دينه من ارتكاب الذنوب والخطايا، من فوات للجمعة والجماعة وأوقات الطاعة، من ولوغ في المحرمات، من انتهاك للحرمات، ومن انتهاك لحدود الله وتجاوز لها؛ فاعلم أنه المُصابُ حقًّا، ثم اعلم أخرى أنه ميت لا يُحس بألم المصيبة ولا يشعر: ﴿ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴾ [الروم: ٥٢].

وبعد مصيبة الدين المصيبة في النفس، ثم في الأهل، ثم في المال، وكلها تتفاوت بحسب ضخامة المصاب فيه وحقارته، فتندرج إلى أن تكون المصيبة في الشوكة وفي قطع شسع النعل، وشسع النعل في غاية الخسة كما تعلمون.

ولذا يقول شريح -عليه رحمة الله-: إني لأصاب بالمصيبة، فأحمد الله -عز وجل- عليها أربع مرات؛ أحمده إذا لم يجعلها أعظم مما هي عليه، وأحمده إذ رزقني الصبر عليها والاحتساب، وأحمده إذ وفقني للاسترجاع لما أرجو فيه من الثواب، وأحمده إذ لم يجعلها في ديني؛ فإن من كل شيء عوضًا إلا الدين.

من كل شيء إذا ضيعته عوض ... وما من الدين إذا ضيعت من عوض

العلم بأن الدنيا فانية

ثامنًا: ومما يكشف الكربة عند فقد الأحبة: العلم بأن الدنيا فانية زائلة، كل ما فيها يتغير ويحول ويضمحل ويفنى ويزول؛ لأنها إلى الآخرة طريق، وهي مزرعة للآخرة على

التحقيق، إنها ألم يخفيه أمل، وأمل يحققه -بإذن الله- عمل، وعمل يقطعه الأجل، وعندها يُجزى كل امرئ بما فعل.

إنها الدنيا إن حَلَتْ أَوْحَلَتْ، وإن كَسَتْ أَوْكَسَتْ، وإن دَنَتْ أَوْدَنَتْ، وكم من ملكٍ فيها رُفعت له علامات فلما علا مات.

هي الأيام لا يبقى عزيز وساعات السرور بها قليلة
إذا نشر الضياء عليك نجم وأشرق فارتقب يومًا أُفُولَه

إن أضحكت قليلًا أبكت كثيرًا، وإن سرَّت يومًا أحزنت شهورًا، وإن متَّعت يسيرًا منعت طويلًا.

لا يبقى لها حبور ولا يدوم فيها ثبور

اليوم عندك دلُّها وحديثها وغدًا لغيرك كفُّها والمِعصمِ

قال الله تعالى: ﴿ ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴾ [الحديد: ٢٠]، ما أدقَّ التعبير القرآني! يوم يشير إلى أن الحياة الدنيا يوم تُوزن بموازين الدنيا تبدو أمرًا عظيمًا هائلًا ضخمًا، لكنها حين تُقاس وتوزن بموازين الآخرة تبدو شيئًا تافهًا زهيدًا حقيرًا، بل هي لعبة أطفال بالقياس إلى ما في الآخرة من جد تنتهي إليه المصائر بعد لعبة الحياة الدنيا، لعب ولهو وزينة وتفاخر وتكاثر، ثم تأتي الصورة القرآنية المبدعة لتصور الدنيا كزرع يعجب الزُّراع نباته، ينمو شيئًا فشيئًا حتى يكتمل، ثم يهيج، فتراه مصفرًا جاهزًا للحصاد؛ فهو موقوت الأجل ينتهي عاجلًا، ويبلغ أجله قريبًا، ثم يكون حُطامًا، وينتهي شريط الحياة بمشهد الحُطام، ويا لها من نهاية!

وأما الآخرة فلها شأن وأي شأن! يستحق شأنها أن يُحسب حسابه، ويُنظر إليه ويُستعد له: ﴿ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴾ فهي لا تنتهي في لمحة كالحياة الدنيا، وهي لا تنتهي إلى حطام كالنبات البالغ أجله؛ بل حساب وجزاء ودوام يستحق الاهتمام.

﴿ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ ﴾ متاع يستمد قوامه من الغرور الخادع يُلهي وينسي،

وينتهي بأهله إلى غرور خادع؛ فما أحوج المؤمن إلى الاستعلاء على هذا الغرور الخادع ليحقق عقيدته، ولو اقتضى أن يضحي بالحياة الدنيا جميعها؛ فما هي إلا حطام أو كظلٍ أو سراب.

روى الترمذي وابن ماجة بإسناد حسن قال: قال ﷺ: **«مالي وللدنيا! إنما مثلي ومثل الدنيا كراكب قَالَ في ظل شجرة، ثم راح وتركها»** [(١)]

أحــلام نــوم أو كظــلٍ زائــلٍ إن اللبــيب بمــثلها لا يُخــدعُ

يقول بعض أهل العلم: لَنِعَم الله علينا فيما زوى عنا من الدنيا أفضل من نعمه منها فيما بسط لنا فيها؛ ذلك أن الله لم يرضَ لنبيِّه الدنيا؛ فلأن أكون فيما رضي الله لنبيه وأحبَّ له أحبُّ إليّ من أن أكون فيما كره له وسخط.

وأجمل بقول ابن القيم -عليه رحمة الله- من قول، يوم قال يشبه الدنيا: أشبه الأشياء بالدنيا الظل تحسب له حقيقة ثابتة، وهو في تقلُّص وانقباض، تتبعه لتدركه؛ فلا تلحقه.

وأشبه الأشياء بالدنيا السراب يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا، ووجد الله عنده فوفَّاه حسابه والله سريع الحساب.

وأشبه الأشياء بالدنيا المنام يرى فيه العبد ما يحب وما يكره؛ فإذا استيقظ علم أن ذلك لا حقيقة له.

تــرجو الــبقاء بــدار لا ثــبات لهــا فهــل سمعــت بظــل غــير منــتقل

حــيَاتها رصــدٌ وشــربها كــدرٌ وعيــشها نكــد وملكهــا دُوَلُ

مــن ذا الــذي قــد نــال راحــة فكــره في عــسره مــن عمــره أو يُــسره؟

يلقــى الغــني لحفظــه مــا قــد حــوى أضــعاف مــا يلقــى الفقــير لفقــره

فــيظل هــذا ســاخطًا في قُلِّــه ويظــل هــذا ناصــبًا في كُثْــرِه

سُــنَّ البلــى ولكــل شمــل فــرقة يُرمــى بهــا في يــومه أو شــهره

والجــن مــثل الإنــس يجــري فــيهم حكــم القــضاء بحلــوه وبمــرِّه

---

(١) صحيح: أخرجه ابن ماجه (٤١٠٩)، والترمذي (٢٣٧٧)، وأحمد (٣٧٠٩)، و الألباني في «الصحيحة» (٤٣٨).

أوَمـا تـرى الـرجل العزيـز بجـنده ... رهـن الهمـوم علـى جلالـة قـدره
فيـسرُّه خـير وفي أعقابـه هـمٌّ ... تـضيق بـه جـوانب صـدره
وأخـو الـتجارة لاهـث متفكـر ... ممـا يلاقـي في خـسارة سـعره
وأبـو العيال أبـو الهموم وحسرة الـ ... رجـل الوحـيد كميـنة في صـدره
ولـرُبَّ طالـب راحـة في نـومه ... جاءتـه أحـلام فهـام بأمـره
والطفـل مـن بطـن أمـه يخـرج إلى ... غُـصَص الفطـام تـروعه في صُـغره
ولقـد خـبرت الطـير في أوكارهـا ... فـوجدت مـنها مـا يُـصاد بوكـره
والـوحش يأتـيه الـردى في بـرِّه ... والحـوت يأتـي حـتفه في بحـره
ولـربما تأتـي الـسباع لمـيت ... فاسـتخرجته مـن قـرارة قـبره
تـالله لـو عـاش الفتـى في دهـره ... ألفًـا مـن الأعـوام مالـك أمـره
مـتلذذًا معـه بكـل لذيـذةٍ ... متـنعمًا بالعـيش مـدة عمـره
لا يعتريـه الـنقص في أحـواله ... كـلا ولا تجـري الهمـوم بفكـره
مـا كـان ذلـك كلـه في أن يفـي ... بمبـيت أول لـيلة في قـبره
كـيف الفعـال أيـا أخـي فـيما تـرى ... صـبرًا علـى حُلـوِ القـضاء ومـرِّه

صبرًا فغمسة في الجنة تُنسي كل شقاء وبؤس وبلاء، وغمسة في النار -عياذًا بالله- تنسي كل لذة ونعيم.

لكـل شـيء إذا مـا تمَّ نقـصان ... فـلا يُغَـرُّ بطـيب العـيش إنـسان
هـي الأمـور كمـا شـاهدتها دول ... مـن سـرَّه زمـن سـاءته أزمـان

كم من مؤملٍ أدركه الموت قبل تحقيق أمله! وكم من زرعٍ عاش ومات زارعه! فاسمع:

لما حضرت الوفاة سيبويه النحوي -رحمه الله- وضع رأسه في حجر أخيه، ثم أغمي عليه، فقطرت قطرة من دموع أخيه على خده، فأفاق من غشيته متمثلًا بقول القائل:

يــــؤمل دنــــيا لتبقـــى لـــه فمـــات المـــؤمل قـــبل الأمـــل

وبـــات يـــروّي أصـــول النخـــيل فعـــاش النخـــيل ومـــات الـــرجل

ثم قال لأخيه:

أخـــيين كـــنا، ففـــرق الله بينـــنا إلى الأمـد الأقـصى، ومـن يـأمن الدهـر

ثم لقي الله عز وجل.

هذه هي الحياة الدنيا، والآخرة هي الحياة لو كانوا يعلمون.

إنمـا الدنـيا هـبات وعَـوارٍ مـستردة شـدة بعـد رخـاء ورخـاء بعـد شـدة

تذكر ما في البلاء من فوائد

تاسعًا: ومما يكشف الكربة عند فقد الأحبة: تذكُّر ما في البلاء من لطائف وفوائد، منها على سبيل المثال:

أولًا: تذكير العبد بذنوبه؛ فربما تاب إلى الله عز وجل، فلتوبته إلى الله عز وجل أعظم عزاء له من كل شيء.

يقول بعض السلف: «إن العبد لَيُصاب بالمصيبة، فيذكر ذنوبه، فيخرج من عينه مثلُ رأس الذباب دمعًا من خشية الله، فيغفر الله عز وجل له».

ثانيًا: زوال قسوة القلب مع حدوث رقة القلب وانكسار العبد لله عز وجل، وذلك ملاحظ في المصائب، وذلك -والله- خير من كثير من طاعات الطائعين؛ فانكسار المذنب خير وأعظم من صولة المطيع.

ثالثًا: البلاء يوجب من العبد الرجوع إلى الله عز وجل، والوقوف ببابه، والتضرع له، والاستكانة والدعاء، وذلك من أعظم فوائد البلاء؛ ففي بعض الآثار: «**إن الله ليبتلي العبد** -وهو يحبه- **ليسمع تضرُّعَه ودعاءه**».

رابعًا: البلاء يقطع قلب المؤمن عن الالتفات إلى المخلوقين، ويوجب له الإقبال على الخالق وحده لا شريك له؛ فالمشركون -وهم مشركون- حكى الله عنهم إخلاص الدعاء له عند الشدائد: ﴿ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلْفُلْكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٥] فكيف بالمؤمنين؟!.

خامسًا: رحمة أهل البلاء ومساعدتهم على بلواهم؛ فإن العبد إذا أحس بألم المصيبة رقَّ قلبه لأهل المصائب والبلايا ورحمهم.

أخيرًا: معرفة قدر نعمة العافية؛ فإن النعم لا تعرف أقدارها إلا بعد فَقْدِها؛ فلا يعرف نعمة إلا من ذاق مرارة ضدها، وبضدها تتميز الأشياء. فمن تأمل هذه اللطائف زال ما به، وانشرح صدره، وانفرج همُّه بإذن ربه.

لطيف التعزية

عاشرًا: ومما يكشف الكربة عند فقد الأحبة: لطيف التعزية عند فقد الأعزة؛ فإن الكلمة الطيبة للمصاب يُثبَّت بها -بإذن الله- ويعان، ويغدو الصبر عليه سهلًا يسيرًا؛ فإن المؤمن -كما تعلمون- قليل بنفسه كثير بإخوانه، ضعيف بنفسه قوي بإخوانه، شديد بأعوانه؛ فإذا وجد هذا يُعزِّيه، وهذا يُسليه سهلت عليه الأمور العظام، وكُشِفَ ما به بإذن الله رب الأرض والسماء.

ولذا فإن الشارع -بحكمته البالغة- شرع لنا التعزية لأهل المصيبة والدعاء لهم بالثبات والأجر والخلف، وللميت بالرحمة والمغفرة؛ فعزاء الله الذي نتعزَّى به دائمًا وأبدًا: (إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ) ورسول الله ﷺ هو الأسوة والقدوة عزَّى أصحابه عند نزول المصائب، وواساهم -كما في السُنة الصحيحة- والسلف اقتدوا به في ذلك؛ فلعلنا أن نقف على بعض ما في السنة الصحيحة وأقوال السلف في لطيف التعزية والدعاء بما هو خير، وفي السنة وأقوال السلف غُنيةٌ عن غيرهما، وخير الهدْيِ هديُه ﷺ :

وكل خير في اتباع من سلف … وكل شر في ابتداع من خلف

في صحيح مسلم عن أم سلمة -رضي الله عنها- قالت: دخل رسول الله ﷺ على أبي سلمة -وقد شخص بصره- فأغمضه، ثم قال: «**إن الروح إذا قُبضت تبعها البصر**»، فضجَّ ناسٌ من أهله، فقال: «**لا تدعوا على أنفسكم إلا بخير؛ فإن الملائكة يؤمِّنون على ما تقولون**»، ثم قال -واسمعوا إلى العزاء-: «**اللهم اغفر لأبي سلمة، وارفع درجته في المهديين، واخلفه في عقبه في الغابرين**[1]**، واغفر لنا وله -يا رب العالمين- وأفسح له في قبره، ونوِّر له فيه**»[2]

(١) الغابر: الباقي.
(٢) صحيح: مسلم (٢١٦٩).

فدعاء رسول الله ﷺ أعظم عزاء ومواساة.

وفي الصحيحين عن أسامة بن زيد -رضي الله عنه- قال: «أرسلت إحدى بنات النبي ﷺ إلى النبي ﷺ تدعوه، وتخبره أن لها صبيًا في الموت، فقال: «**ارجع إليها، فأخبرها أن لله تعالى ما أخذ، وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمى؛ فلتصبر، ولتحتسب**» [١]

وفي الحديث الحسن بشواهده أن النبي ﷺ قال: «**ما من مؤمن يعزي أخاه بمصيبة إلا كساه الله من حُلل الكرامة يوم القيامة**» [٢]

وروي عن علي رضى الله عنه كما في التعازي أنه قال لمصاب: «إنك إن صبرت جَرَتْ عليك المقادير وأنت مأجور، وإن جزعت[٣] جرت عليك المقادير وأنت موزور» [٤]

وروي البيهقي -بإسناده في مناقب الإمام الشافعي رحمه الله-: أن عبد الرحمن بن مهدي مات له ابن، فجزع عليه جزعًا شديدًا، فبعث إليه الشافعي يقول له: يا أخي! عزِّ نفسك بما تعزي به غيرك، واستقبح من فعلك ما تستقبحه من غيرك، واعلم أن أعظم المصائب فقد سرور، وحرمان أجر؛ فكيف إذا اجتمعا مع اكتساب وزر؟ ألْهمك الله عند المصائب صبرًا، وأحرز لنا ولك بالصبر أجرًا، ثم أنشد قائلًا:

إنـي معـزيك لا إنِّـي علـى ثقـة ... مـن الحـياة ولكـن سُـنة الـدين

فـلا المعُـزَّى بـباقٍ بعـد ميـته ... ولا المُعـزِّى ولـو عاشـا إلى حـي

ويشاء الله -عز وجل- فيموت بعدها ابن للشافعي -رحمه الله تعالى- الذي كان يُعزِّي أصبح يُعزَّى[٥]

جاءوا يعزونه، فأنشد قائلًا:

ومـا الدهـر إلا هكـذا فاصـطبر لـه ... رزيـة مـال أو فـراق حبـيب

ولما توفيت ياقوتة بنت المهدي جزع عليها جزعًا لم يُسمَع بمثله، فجلس وجاء الناس

---

(١) متفق عليه: البخاري (١٢٢٤)، (٦٩٤٢)، ومسلم (٢١٧٤).
(٢) حسن: أخرجه ابن ماجه (١٦٠١)، و الألباني في «الصحيحة» (١٩٥)، وفي «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٥٠٨).
(٣) الجزع: الخوف والفزع وعدم الصبر والحزن.
(٤) انظر «معجم ابن المقرئ» (٣٦٩).
(٥) انظر «الكبائر» للذهبي (١ / ١٨٣).

يعزونه، فأمر ألا يُحجب عنه أحد، فأكثر الناس في التعازي، واجتهدوا في البلاغة والفصاحة لكونه الخليفة، ثم أجمعوا بعد ذلك أنهم لم يسمعوا تعزية أوجز ولا أبلغ من تعزية ابن شبة -رحمه الله- يوم قال: أعطاك الله -يا أمير المؤمنين- على ما رُزئت أجرًا، وأعقبك خيرًا، ولا أجهد بلاءك بنقمة، ولا نزع منك نعمة، ثواب الله خير لك منها، ورحمة الله خير لها منك، أسأل الله ألا يحزنك ولا يفتنك، فكان مما سرَّى على أمير المؤمنين مثل هذه التعزية.

ويقول أحد المعزِّين في لطائف التعازي لقاضٍ من قضاة بلخ -وقد توفيت أمه- قال له: إن كانت وفاتها عظةً لك؛ فعظَّم الله أجرك على موتها، وإن لم يكن عظة لك؛ فعظم الله أجرك على موت قلبك، ثم قال: أيها القاضي! أنت تحكم بين عباد الله منذ ثلاثين سنة، ولم يرد عليك أحد حكمًا؛ فكيف بحكم واحدٍ عليك من الواحد الأحد ترده ولا ترضى به؟! فسري عنه، وكشف ما به، وقال: تعزَّيت، تعزَّيت.

وعزَّى موسى بن المهدي سليمان بن أبي جعفر في ابنٍ له مات، فقال: أيسرُّك وهو بلية وفتنة، ويحزنك وهو صلاة ورحمة وهدى؟! يشير إلى قول الله -عز وجل-: ﴿ إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ ﴾ [التغابن: ١٥]، ويشير في الثانية إلى قول الله: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٧].

فلله ما أعطى، ولله ما حوى … وليس لأيام الرزية كالصبرِ
فحسبك منهم موحشًا فَقْدُ برِّهمُ … وحسبك منهم مُسْلِيًا طلب الأجرِ

وروي أن سليمان بن عبد الملك لما مات ابنه أيوب قال لعمر بن عبد العزيز ورجاء: إني لأجد في كبدي جمرة لا يُطفئها إلا عبرة، فقال عمر بن عبد العزيز: اذكر الله يا أمير المؤمنين، وعليك بالصبر؛ فهو أقرب وسيلة إلى الله، وليس الجزع بمحيي من مات، وبالله العصمة؛ فلا تحبطنَّ أجرك.

قال: فنظر إلى رجاء، فقال رجاء لأمير المؤمنين: اقضها يا أمير المؤمنين؛ فما بذاك من بأس، فقد دمعت عينا رسول الله ﷺ على ابنه إبراهيم ولم يقل ما يُسخط ربه، فأرسل سليمان عينيه بالبكاء حتى ظنوا أن نياط قلبه ستتقطع.

فقال عمر لرجاء -معاتبًا-: هذا ما فعلت بأمير المؤمنين، فقال رجاء: دعه - يا عمر - يقضي من بكائه وطرًا؛ فلو لم يُخرج من صدره ما ترى لخفت عليه، ثم دعا بماء،

فغسل وجهه، ثم قال لهما: لو لم أنزف هذه العبرة لانصدعت كبدي.

ثم انتهى إلى مجلسه فدخل عليه رجل فعزَّاه، فقال: عليكم نزل الكتاب، وأنتم أعرف به مِنَّا، وأنتم أعلم برسول الله ﷺ منا، ولسنا نعلمك شيئًا لا تعلمه، ولا نذكرك شيئًا قد تنساه، لكنا نعزيك ونواسيك ثم أنشد قائلًا:

وهـــوَّن مـــا ألقـــى مـــن الـــوجد أنـــني أجـــاوره في قـــبره الـــيوم أو غـــدًا

قال: أعد، فقال:

وهـــوَّن مـــا ألقـــى مـــن الـــوجد أنـــني أجـــاوره في قـــبره الـــيوم أو غـــدًا

فقال: يا غلام! هات الغداء فأكل وشرب، وحمد الله، وسُرِّي عنه.

ومن لطيف التعزية ما قيل من بعض الأعراب عندما دخل على بعض ملوك بني العباس، وقد توفي له ولد اسمه العباس، فعزاه، ثم قال:

اصـــبر نكـــن بـــك صـــابرين فإنمـا صـبر الـرعية عـند صـبر الـرأس

خـــير مـــن العـــباس أجـــرك بعـــده والله خـــير مـــنك للعـــباس

ومن ذلك أن أحدهم أصيب بمصيبة، فجزع، فجاء أخ له، فقال: عظَّم الله أجرك، وأحسن عزاءك:

أخـــي مـــا بـــال قلـــبك لـــيس ينقـــى كأنـــك لا تظـــن المـــوت حقًّـــا

ألا يـــا بـــن الـــذين مـــضوا وبـــادوا أمـــا والله مـــا ذهـــبوا لتبقـــى

فكُشف ما به.

ومات لرجل من السلف ولد، فعزَّاه سفيان بن عيينة -رحمه الله- وهو في كرب شديد، وعزاه آخرون؛ فلم يُكشف ما به حتى جاء الفضيل، فقال: يا هذا! أرأيت لو كنت وابنك في سجن، فأُفرج عن ابنك قبلك أوما كنت تفرح؟ قال: بلى.

قال: فإن ابنك قد خرج من سجن الدنيا قبلك.

قال: فسُرِّي عن الرجل، وانكشف همه، وقال: تعزيت.

وأخيرًا: فإن من ألطف وأقوى ما سمعت من تعزية غير كلام رسول البرية وسلف الأمة -رضوان الله عليهم- ما قاله ابن سناء الملك، وقد مات لأحد أقاربه ميت، فجزع

عليه هذا جزعًا عظيمًا، فكان مما قاله ابن سناء: إنا لله، إلى متى هذا الجزع الصبياني، والهلع النسواني، إلى متى هذا الحزن الذي لا يحيي دفينك، بل يميت دينك، ويسلب هدوءك، ويشمت فيك عدوك.

أما على هذا مضى الزمان، وعلى هذا درج الثقلان، وللخراب بُني العمران، وللانتقال سكن السكان، وللموت ولد المولود، وللعدم خلق الوجود.

أتحب أن تبقى ويبقى من تحب فذا خلود، إنا لله وإنا إليه راجعون، أفضل قول الصابر، وفي سبيل الله، وإلى رحمة الله من حُسب في أهل المقابر، أجزل الله أجرك، وأحيا على دفينك صبرك، ووسع لهذه النازلة صدرك، وأنزل على قلبك السكينة ربك، وخفَّف عن قلبك وطيئة كربك، لا جمع الله عليك فراق الأحباب وفراق الثواب، وجمع الله عليك النعمتين نعمة الجلد ونعمة الاحتساب، إني -والله- لشريكك في المصاب، ونصيبي منه لأكثر، ودمع عيني لأغزر:

ولو شئت أن أبكي دمًا لبكيته ... ولكنني في ساحة الصبر أجمل

أخي المصاب...

لعل فيما سمعته عزاء لك؛ فلست أول ولا آخر مصاب، جعل الله التعزية لك لا عنك، والخلف عليك لا منك، في الله -عز جل- عزاء من كل هالك، وخلف من كل فائت، وعوض من كل مصيبة، وشر من المصيبة حرمان الأجر فيها:

لابد من فقد ومن فاقد ... هيهات ما في الناس من خالد

ولا يفوتني هنا أن أنبه بهذا الكاشف إلى ما يلي:

أولًا: ينبغي تجنب الاجتماع والجلوس عند أهل الميت للتعزية؛ لأن في ذلك تجديدًا للحزن وتكليفًا للمعزى، ومخالفة لهدي السلف الصالح -رضوان الله عليهم- ففي الحديث الصحيح أن جرير بن عبد الله البجلي قال: «كنا نعد الاجتماع إلى أهل الميت بعد دفنه من النياحة»، فالذي ينبغي أن ينصرف الناس إلى شئونهم وحوائجهم، فمن صادفهم عزَّاهم في المسجد، في العمل، في الشارع، في السوق وهكذا.

ثانيًا: أن ما يُفعل اليوم في التعزية من نصب للخيام والجلوس فيها، من قيل وقال، وصرف للأموال الطائلة من أجل المباهاة والمفاخرة أمر مخالف للمشروع، وواجب علينا أن نتبع فقد كُفينا.

يقول ابن القيم -عليه رحمة الله-: وكان من هديه ﷺ تعزية أهل الميت، ولم يكن من هديه الاجتماع للعزاء، ولا قراءة القرآن عند قبره، وكل هذه بدعة حادثة.

ثالثًا: ألا يُحدَّ[1] على ميت فوق ثلاثة أيام -كما يفعل كثير من النساء- إلا على زوج أربعة أشهر وعشرًا، فليُعلم كما في الصحيح[2]: عليكم بهدي الرسول الكريم ومنهاج قرآنه المحكم.

رزقنا الله اتباع السنة، ورحمنا الله وموتانا بكرمه ومنِّه.

التأسي بأهل المصائب

حادي عشر: ومما يكشف الكربة عند فقد الأحبة: برد التأسي بأهل المصائب؛ ففي ذلك إطفاء لنار المصيبة، وليعلم أنه في كل قرية ومدينة بل في كل بيت من أصيب؛ فمنهم من أصيب مرة، ومنهم من أصيب مرارًا، وليس ذلك بمنقطع حتى يأتي على جميع أهل البيت، حتى نفس المصاب سيصاب بنفسه يومًا ما، أسوة بأمثاله ممن تقدمه؛ فإن نظر فلن يرى يمنة إلا محنة، ويسرة إلا حسرة.

ذكر ابن الجوزي بإسناده عن عبد الله بن زياد قال: حدثني بعض من قرأ في الكتب: أن ذا القرنين لما رجع من مشارق الأرض ومغاربها، وبلغ أرض بابل مرض مرضًا شديدًا، فعلم أنه مرض الموت، وأشفق على نفسه، فكتب إلى أمه معزِّيًا في ذكاء قائلًا: يا أماه! إذا جاءكِ كتابي فاصنعي طعامًا، واجمعي من قدرت عليه من الناس، ولا يأكل طعامك من أصيب بمصيبة، واعلمي هل وجدتِ لشيء قرارًا.

إني لأرجو أن يكون الذي أذهب إليه خيرًا مما أنا فيه.

فلما وصل كتابه صنعت طعامًا عظيمًا، وجمعت الناس، وقالت: لا يأكل هذا من أُصيب بمصيبة، فلم يتقدم أحد للأكل من هذا الطعام، فعلمت مراد ابنها، فقالت: بني! من مبلغك عني أنك وعظتني فاتعظت، وعزيتني فتعزيت؛ فعليك السلام حيًّا وميتًا.

فما من مصيبة أصيب بها مصاب إلا وهناك ما هو أعظم منها عند غيره.

قيل لرجل: كم لك من ولد؟ قال: تسعة.

---

(١) الإحداد: هو الامتناع عن الزينة.

(٢) متفق عليه: البخاري (٣٠٧) (١٢٢١)، ومسلم (٣٧٩٨)، (٣٧٩٩).

قيل له: إنما نعرف لك ابنًا واحدًا.

فقال: الحمد لله، كان لي عشرة، فقدمت تسعة، أحتسبهم عند الباري الرحيم، وبقى لي واحد لا أدري أنا له أم هو لي؟

لكـــل اجــتماع مـــن خلـــيلين فــرقة وكـــل الـــذي دون الممـــات قلـــيل

وإن افـــتقادي واحـــدًا بعـــد واحـــد دلـــيل علــــى ألا يـــدوم خلـــيل

وهاهي أعرابية اسمها أم غسان -كما في عيون الأخبار - فقدت جميع أبنائها، وفوق ذلك كُفَّ بصرها.

مصيبة وأي مصيبة! كانت تعيش بمِغْزَلِها، وتقول: الحمد لله على ما قضى، رضيت من الله ما رضي لي، وأستعين الله على بيت ضيق الفناء قليل الإيواء، ثم تُصاب مصيبة أخرى بموت جارة لها كانت تبثُّها أشجانها وأحزانها، فيقال لها: أين فلانة؟ فتقول: الحمد لله على قضاء الله، والرجعة إلى الله.

تقـــسم جاراتهــــا بيــــتها وســـارت إلى بيـــــتها الأدلج

وفي «العاقبة» للإشبيلي: يروي أن امرأة من الأعراب حجَّت، ومعها وحيدها، فمرض منها في الطريق، ومات، فدفنته بمساعدة الركب الذين معها، ثم وقفت بعد دفنه، وقالت: يا بني! والله لقد غذوتك رضيعًا، وفقدتك سريعًا، وكأن لم يكن بين الحالتين مدة ألتذُّ بها بعيشك، وأتمتع فيها بالنظر إلى وجهك، ثم قالت: اللهم منك العدل، ومن خلقك الجور، اللهم وهبتني قرة عين، فلم تمتعني به كثيرًا بل سلبتنيه وشيكًا، ثم أمرتني بالصبر، ووعدتني عليه الأجر، فصدقت وعدك، ورضيت قضاءك، فلك الحمد في السَّراء والضَّراء.

اللهم ارحم غربته، واستر عورته يوم تُكشف العورات وتظهر السوءات، رحم الله من ترحَّم على من استودعته الردم، ووسدته الثرى.

ثم لما أرادت الانصراف قالت: أي بني! لقد تزودت لسفري فيا ليت شعري ما زادُك لسفرك ويوم ميعادك؟! اللهم إني أسألك الرضا عنه برضائي عنه.

اللهم إني أسألك الرضا عنه برضائي عنه. أستودعك بني من استودعني إياك جنينًا في الأحشاء، ومن يجازي من صبر في السراء والضراء.

مــــن شـــاء بعــــدك فلـــيمُت فعلـــــيك كـــــنت أحـــــاذر
كـــــنت الـــــسواد لناظـــــري فعمـــــى علـــــيك الناظـــــر
لـــــيت المـــــنازل والـــــديار حفائـــــــرُ ومقابـــــــر
إنــــــي وغـــــيري لا محالـــــة حـــــيث صـــــرت لـــــصائر

وأخرج ابن أبي الدنيا من الاعتبار عن الكندي قال: كانت امرأة من بني عامر لها تسعة من الأولاد دخلت بهم -ذات يوم- غارًا، ثم خرجت لحاجة، وتركتهم في الغار، ولما رجعت سقط الغار عليهم، وانطبق، فجعلت تسمع أنينهم وتتلظَّى بجحيم عويلهم، لا تملك لهم حولًا ولا طولًا، تَئِنُّ وتزفر زفرات قطّعت أحشاءها والذي عانا البلايا عرف، حتى فقدت أنينهم؛ فلم تسمع لهم أنينًا، فعلمت أنهم ماتوا جميعًا تحت هذا الغار، فرجعت وبها من الأسى ما الله به عليم، فكانت تردد وتقول:

ربيـــتهم تـــسعة حتـــى إذا اتـــسقوا أُفــردت مــنهم كقــرن الأعــضب الــوحدِ
وكــل أم وإن سُــرَّت بمــا ولــدت يــومًا ســـتفقد مـــن ربَّـــت مـــن الـــولدِ

وأخيرًا: فلقد حدَثني من أثق به من الصالحين -كما أحسبه والله حسيبه- أن هناك رجلًا كان له ثلاثة أولاد صغار وزوجة في هناء وأمان وسعادة وسكينة واطمئنان، وذات يوم جاءهم أضياف، فقام الأب وذبح لأضيافه كبشًا، والأولاد ينظرون، ودخل للجلوس مع أضيافه في انتظار إعداد الطعام، وقامت الأم بتغسيل وتنظيف أصغرهم في وعاء كبير مليء بالماء، أخذ أكبر الأولاد السكين يقلد أباه في ذبح الشياه، وقام على أخيه الأوسط، فأضجعه، ثم ذبحه ذبح الشاه، وجاء لأمه يخبرها فصاحت ورمت بالصغير في ذهول في وعاء الماء، فغرق الصغير في وعاء الماء، وخرجت إلى الأوسط فإذا هو يتشحط في دمه! وهرب أكبرهم إلى الشارع، فاعترضته سيارة، فدهسته! ذُهلت الأم، وثكلت جميع أبنائها، وجاء الأب فإذا بها تترنح، وتخبره الخبر، ثم تسقط ميتة وجدًا على أبنائها الثلاثة، ولا إله إلا الله!

صُـــبَّت علـــيها مـــصائب لـــو أنهـــا صُـــبت علـــى الأيـــام عـــدن ليالـــيا

أما الأب فحمد الله -عز وجل- وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون، ودخل إلى أضيافه، وطلب منهم أن يحفروا قبورًا، وأخبرهم الخبر، ويا له من خبر! ويا لها من ضيافة!

حفروا القبور، وصلُّوا على الجميع، ودعوا للميت والحي، واستعدَّ كل ضيف منهم

أن يقدم ابنته زوجة لذلك الأب الصابر المحتسب، ويختار ابنة واحد منهم ويتزوجها، فيذكر لي من نقل لي هذا أن له -الآن- ثلاثة عشرًا ولدًا من هذه الزوجة، حدث عظيم وخطب أليم؛ فهلا نظرت لمثل هذا المَصاب أيها المُصاب.

فما مصابك مع مثل هذا المصاب؟ ستهون عليك مصيبتك ولا شك، واعلم أن هناك من هو أعظم منه مصابًا؛ فإذا علم المصاب علم اليقين أنه لو فتش العالم كله لم يرَ فيهم إلا مبتلى؛ إما بفوات محبوب، أو بحصول مكروه سُرِّي عنه؛ فسرور الدنيا أحلام نوم إن أضحكت أبكتْ، وإن سرَّتْ ساءت، وما ملئت دار حبرة إلا مُلئت عبرة، وما حصل للشخص في يوم من سرور إلا وأعقبه شرور؛ فلكل فرحة ترحة، وما كان ضحك قط إلا وكان بعده بكاء.

فلتعلم ولتتأمل أحوال المكروبين -أيها المصاب- فما مصيبتك بينهم إلا ذرة في فضاء المصائب، وقطرة في بحار الكروب.

تأسَّ أطال الله عمرك بالأُلى ... مضَوْا ولهم ذكر جميل مُخلَّد

فلو لم يكن في الموت خير لمن مضى ... لما مات خير الأنبياء محمد

صلوات الله وسلامه عليه.

الدعاء واللجوء إلى الله

وآخرًا: فإن مما يكشف الكربة عند فقد الأحبة: الدعاء والتضرُّع واللجأ إلى الله رب الأرض والسماء؛ فهو كاشف الضراء، وإن يصبك بسراء فلا راد للسراء.

وفي السنة الغرَّاء من الأدعية النبوية الصحيحة ما يكشف الهم والكرب والضراء؛ ففي الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «**ما أصاب عبدًا همٌّ قط ولا حزن فقال: اللهم إني عبدك ابن عبدك ابن أَمَتِك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيَّ حكمك، عدل فيَّ قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سمَّيت به نفسك أو أنزلته في كتابك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أو علمته أحدًا من خلقك أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، وذهاب همي؛ إلا أذهب الله همَّه وحزنه، وأبدله مكانه فرحًا**»[1]، رواه الإمام أحمد.

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٣٧١٢)، (٤٣١٨)، و الألباني في «الصحيحة» (١٩٩)، وفي «صحيح الترغيب والترهيب» (١٨٢٢).

فالدعاء الدعاء! فالله عز وجل يقول ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾ [غافر: ٦٠].

يا أيها المكروب خاصة.. ويا أيها الناس عامة...

ادعوا ربكم تضرُّعًا وخُفية، وأَلِظُّوا بيا ذا الجلال والإكرام فإليه المفزع، وفيه المطمع، لا إله إلا هو.

من لكم غيره يجبر كسركم!

من لكم غيره يبدِّد أحزانكم وأشجانكم!

من لكم غيره يؤنسكم في كربكم ووحشتكم!

من لكم إذا دُفِعْتم عن الأبواب إلا بابه!

من لكم إذا صُرِفتم وخاب الرجاء فيمن سواه إلا رجاه!

من لكم غيره أعز مطلوب وأشرف مرغوب!

لا إله إلا هو!

أيها المصابون...

عليكم من الله الرحمات عدد ما سكبتم من العبرات، وكظمتم من الأنَّات، وجعل الله مصابكم من الباقيات الصالحات، وأمَّنكم من الفزع يوم تُنشر السِّجلات، وتقَبَّل منا ومنكم، وكتب لنا السعادة في الحياة والممات.

العلم بأن الله لا يقدر شيئًا عبثًا

وآخر ما يكشف الكرب: اعلم أن الذي قدَّر عليك الأقدار حكيم خبير عليم، لا يفعل شيئًا عبثًا، ولا يقدر شيئًا سُدى؛ بل هو رحيم تنوَّعت رحمته -سبحانه وبحمده- يرحم العبد فيعطيه، ثم يرحمه فيوفقه للشكر، ثم يرحمه فيبتليه، ثم يرحمه فيوفقه للصبر، ثم يرحمه فيكفر بالبلاء ذنوبه وآثامه، ثم ينمي حسناته ويرفع درجاته، ثم يرحمه فيخفف من مصيبته وطأتها ويهون مشقتها، ثم يتمم أجرها.

فرحمة الله متقدمة على التدابير السارة والضارة، ومتأخرة عنها و: ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الحديد: ٢١].

أحبتي في الله...

هذه الكلمات جمعتها من كتيبات ومن كتب، وصغتها لكم صياغة فقط -بعون من الله وتوفيق منه وتسديد- إن أكن أصبت فذاك الذي أردت، وإن تكن الأخرى فحسبي أن ذاك وسعي وجهدي وحسب معرفتي وقدرتي:

لكن قدرة مثلي غير خافية والنمل يُعْذَر في القدر الذي حملا

عظَّم الله أجر الجميع، وجبر الله كسرهم، وعوَّضهم خيرَيْ الدنيا والآخرة فيما فقدوا، وجعل هذه الكلمات في صحائف الحسنات في يوم تعز فيه الحسنات خالصة لوجه رب الأرض والسماوات.

اللهم مالك الملك، تؤتي الملك من تشاء، وتنزع الملك ممن تشاء، وتعز من تشاء، وتذل من تشاء، بيدك الخير إنك على كل شيء قدير.

يا الله! يا حي! يا قيوم! يا من لا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم! يا بديع السماوات والأرض! يا فالق الحب والنوى! يا ذا الجلال والإكرام! يا عظيم العفو! يا واسع المغفرة! يا قريب الرحمة! نسألك بعزِّك الذي لا يُرام، وملكك الذي لا يُضام، يا هادي المضلين! ويا راحم المذنبين! يا من عنت له الوجوه، وخضعت له الرقاب، وخشعت له الأصوات، وفاضت له العَبَرَات، ورغمت له الأنوف! انقطع الرجاء إلا منك، وخابت الظنون إلا فيك، وضعف الاعتماد إلا عليك؛ نسألك أن تكفينا ما أهمَّنا وأغمَّنا، وأن تجبر كسرنا، وأن تعظم أجرنا، وأن تعيذنا من شرور أنفسنا، وأن ترحم موتانا، وأن تلطف بمبتلانا، وأن ترحم غربتنا في الدنيا، ومصرعنا عند الموت، ووقوفنا بين يديك، وأن تقينا من ميتة السوء، ومن يوم السوء، وساعة السوء، وليلة السوء، وجار السوء، وصاحب السوء، وأن تعيذنا من النفاق وسوء الأخلاق.

اللهم إنا نسألك فرجًا عاجلًا للمسلمين مما هم فيه وملاقوه، اللهم إنا نسألك فرجًا عاجلًا للمسلمين مما هم فيه وملاقوه، اللهم إنا نسألك فرجًا عاجلًا للمسلمين مما هم فيه وملاقوه.

اللهم اكشف كروبنا، ونفِّسْ همومنا واقضِ حاجاتنا. اللهم هبْنا عطاءك، ولا تكشف عنا غطاءك، ورضِّنا بقضائك. اللهم اغفر لجميع موتى المسلمين، وأخصُّ من أُوصيت فيه بالدعاء. اللهم اغفر لجميع موتى المسلمين وأخصُّ من أُوصيت فيه بالدعاء.

اللهم اجعل قبورهم من الجنة رياضًا. اللهم اجعل قبورهم من الجنة رياضًا، اللهم

اجعل قبورهم من الجنة رياضًا. اللهم إنهم عبيدك، بنو عبيدك، بنو إمائك، احتاجوا لرحمتك، وأنت غني عن عذابهم. اللهم زد في حسناتهم، وتجاوز عن سيئاتهم؛ اللهم زد في حسناتهم، وتجاوز عن سيئاتهم؛ فأنت أرحم بهم من أمهاتهم.

لا إله غيرك، ولا معبود سواك، لك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت، ولك الحمد بعد الرضا.

اللهم يا رب

ومن قد عاش في الدنيا على الأمر ... بالتقى وعن موبقات الإثم ما زال ناهيا

تغمدْه يا رب عفوًا بفضلك ... ولا زال هطَّالُ من العفو هاميا

على قبره يهني عشيًا وبكرة ... وبوِّأه قصرًا من الخلد عاليا

وصلِّ إلهي كلما هبَّت الصَّبَا ... وما انهلَّت لجُون الغدَاف العواديا

على المصطفى والآل والصَّحْب كلهم ... وتابعهم والتابعين الهواديا

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

وصلى الله وسلم على نبينا محمد.

وسبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

[٥] أين المفر؟

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه. ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير.

وأشهد أن محمدا عبد الله ورسوله صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

أما بعد...

عباد الله...

اتقوا الله عباد الله، واتقوا يومًا ترجعون فيه إلى الله، يومَ ينفخ في الصورِ، ويبعث من في القبورِ، ويظهرُ المستورُ، يومَ تبلَى السرائرَ، وتُكشَفُ الضمائرُ ويتميزُ البرُ من الفاجر.

ثم أعلموا أن هناك حقيقةً وأيُ حقيقة! حقيقةٌ طالما غفلَ عنها الإنسانُ، ولحظةٌ حاسمةٌ ومصيرٌ ومآل. إنها لحظةُ ملاقيكُم إلى أين من هذه اللحظةِ المهرب، وإلى أين منها المفر؟ إلى الأمام ملاقيكُم. إلى الوراءِ ملاقيكُم. إلى اليمين والشمالِ ملاقيكُم. إلى أعلا إلى أسفلِ ملاقيكُم، إلى الوراء ملاقيكم. لا تمنعُ منه جنود، ولا يُتحصنُ منه في حصون، مدركُكم أينما كنتم.

إنه واعظٌ لا ينطق، واعظ صامت يأخذَ الغنيَ والفقير، والصحيحَ والسقيمَ، والشريفَ والوضيع، والمقرَ والجاحدَ، والزاهدَ والعابد، والصغيرَ والكبيرَ، الذكرَ والأنثى، كلُ نفسٍ ستذوقهُ شاءت أم أبت.

لعلكم عرفتموه، لا أظنُ أحدًا يجهلُه، أما حقيقتُه فالكل يجهله، إنه الموت. ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

الموتُ ما الموت؟

أمرٌ كبار وكأسٌ يدار، في من أقامَ وسار، يخرجُ بصاحبه إلى الجنةِ أو إلى النار.

ما زالَ لأهلِ اللذاتِ مكدرا، ولأصحابِ العقولِ مغيرا ومحيرا، ولأرباب القلوبِ عن الرغبةِ فيها سوى الله زاجرا.

كيفَ وورائُه قبرٌ وحساب، وسؤالٌ وجواب، ومن بعدهِ يومٌ تدهشُ فيه الألبابُ فيعدمُ الجواب.

السكرات، ما أدراكم ما السكرات؟

عاني منها رسول الله ﷺ، فكان يقول: **«لا إله إلا الله إن للموت لسكرات، اللهم هون علينا سكرات الموت»** (١)

سكرات أي سكرات؟

يقول العلماء: كل سكرة منها أشد من ألف ضربة بالسيف.

ملك الموت، ما ملك الموت؟

الدنيا بين يديه كالمائدة بين يدي الرجل يمد يده إلى ما شاء منها بأمر الله فيأخذه.

وإن له لأعوانا ما يعلم عددهم إلا الله، ليس منهم ملك إلا لو أذن الله له أن يلتقم السماوات السبع والأراضين في لقمة واحدة لفعل.

فلا إله إلا الله من لحظة حاسمة لو لم تعتقل الألسنة، وتخدر الأجسام وقت الاحتضار لما مات أحد إلا في شعف الجبال ألما، ولصاح الميت من شدة ما يعاني حتى تندك عليه جدران الغرفة التي هو فيها ولما استطاع أن يحضر ميتا أحدٌ أبدًا، فنسأل الله العافية والسلامة، وأن يهون علينا السكرات.

روي عن الحسن أنه قال: رأي أحد الصالحين بعد موته فقيل له كيف وجدت طعم الموت؟

قال: أواه أواه وجدته والله شديدًا، والذي لا إله إلا هو لهو أشد من الطبخ في القدور والنشر بالمناشير، أقبل ملك الموت نحوي حتى استل الروح من كل عضو مني فلو أني

---

(١) صحيح: البخاري (٤١٨٤)، (٦١٤٥)، باب «سكرات الموت» دون قوله: «اللهم هوِّن علينا سكرات الموت».

طُبخت في القدور سبعين مرة لكان أهون علي.

كفى بالموت طامة وما بعد الموت أطم وأعظم.

ويرى آخر بعد موته في المنام فيقال له: كيف وجدت نفسك ساعة الاحتضار؟

قال كعصفور في مقلاة لا يموت فيستريح ولا ينجو فيطير.

فالله المستعان على تلك اللحظات، واللهم هون علينا السكرات واجعلها لنا كفرات وآخر المعاناة، وهي كذلك بأذن الله للمؤمنين والمؤمنات، ولغيرهم بداية المعاناة.

عبادَ الله...

وفي تلك اللحظاتُ الحرجةُ ينقسمُ الناسُ إلى قسمين، إلى فريقين شقي وسعيد:

فريقُ السعداء حالُهم ما حالُهم: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ [فصلت: ٣٠- ٣٢].

ها هيَ أسماءُ بنتُ عميسٍ رضي اللهُ عنها تقول كما روي عنها: إنا لعند علي رضي اللهُ عنه وأرضاه بعدما ضربَه ابن مُلجِم عليه من الله ما يستحق.

إذ بعلِي يشهقُ شهقةً فيغمى عليه، ثم يفيقُ ثانيةً وهو يقول: مرحبًا مرحبا، الحمدُ لله الذي صدقَنا وعده وأورثنا الجنةَ، الحمد لله الذي أذهبَ عنا الحزن، لمثلِ هذا فليعملِ العاملون، وليتنافسِ المتنافسون.

فيالها من موعظة ومصير لو وافقت من القلوب حياة. من ظفر بثواب الله فكأنما لم يصب في دنياه.

كأنك لم توتر من الدهر مرة إذا أنت أدركت الذي أنت طالبه

واسمع معي حديث آخر لسعيد بن جبير رضي الله عنه يوم يروي لنا قصة صحيحة متواترة كما قال الذهبي في سيره فيقول: لما مات ابن عباس رضي الله عنه في الطائف، جاء طائر لم يرى مثل خلقته فدخل نعشه، ثم لم يخرج منه، فلما دفن فإذا على شفير القبر تال يتلو لا يرى: ﴿ يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى ﴿٣٠﴾ ﴾ [الفجر: ٢٧- ٣٠]..

فيا لها من خاتمة، ويا له من مصير.

والخير في الأمة يستمر، ولن تعدم الأمة خيّر، فاسمع ثالثة إلى هذا الحدث الذي ذكره صاحب كتاب «يا ليت قومي يعلمون»، قال: حدثني أحد الصالحين قائلا: كان هناك رجل صالح من أهل الطائف، كان عابدا فاضلا، نزل مع بعض أصحابه إلى مكة محرما، ودخلوا الحرم بعد أن انتهت صلاة العشاء، فتقدم ليصلي بهم، وهو محرم قد خرج لله عز وجل كما يحسب، فقرأ سورة الضحى، فلما بلغ قول الله عز وجل: ﴿ وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ ﴾ [الضحى: ٤]، شهق وبكى وأبكى، فلما قرأ ﴿ وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ ﴾ [الضحى: ٥]، ترنح قليلا ثم سقط ميتا. فعليه رحمة الله، ليبعث يوم القيامة بأذن الله مصليا، فمن مات على شيء بُعث عليه كما ورد عن المصطفى ﷺ [(١)]

وآخر يقضي حياته مؤذنا يهتف بالتوحيد كل يوم وليلة خمس مرات، ويؤذن يوما من الأيام ثم يشرع ليقيم الصلاة، ولما انتصف في إقامة الصلاة سقط ميتا فعليه رحمة الله، سنوات يؤذن ثم يجيب داع الله مؤذنا فيُبعث يوم القيامة من أطول الناس أعناقا مؤذنا، فرحمة الله عليه.

يا لها من خواتم طيبة، ملائكةٌ بيضُ الوجوه يتقدمُهم ملكُ الموت، يخاطبُ تلك الأرواح الطيبة: أيتها النفسُ الطيبةُ اخرجي إلى مغفرةٍ من الله ورضوان وربٍ راضٍ غيرِ غضبان، فتخرجُ تسيل كما تسيلُ القطرةُ من فم السقاء، وتفتحُ لها أبوابُ السماء، وتحملُ الجنازةُ على الأكتاف وهي تصيح وتقول قدموني، قدموني، تسألُ فتجيبُ وتثبتُ، ويفرشُ لها من الجنة، ويفتحُ لها بابٌ إلى الجنة، قد استراحت من تعبِ هذه الدار، وإلى راحةٍ أبديةٍ في دار القرار.

وفريقٌ آخر في تلك الساعة يشقى، حسبَ أن الحياة عبثٌ ولهوٌ ولعب، وإذا به يعاني أول المعاناة.

نزلت عليه ملائكةٌ سودُ الوجوه يتقدمهم ملكُ الموت -نعوذ بالله من ختام السوء وساعة السوء- يقول أيتها النفسُ الخبيثةُ اخرجي إلى سخطٍ من الله وغضب.

فتنتزَعُ نزعًا بعد أن تُفرقَ في الجسد، ثم ترفعُ فلا تُفتحُ لها أبوبُ السماء، تحملُ الجنازةُ على الأكتافِ وهي تصيح: يا ويلها أين تذهبون بها، ثم تسألُ فلا تجيب، ويفرشُ لها من

(١) صحيح: أخرجه أحمد (١٤٤١٣)، و الألباني في «الصحيحة» (٢٨٣).

النار، ويفتحُ لها بابٌ إلى النار، فنعوذ بالله من النار ومن سوءِ الختامِ وغضبِ الجبار.

ذكر صاحب قصص السعداء والأشقياء أنه وقع حادث في مدينة الرياض على إحدى الطرق السريعة لثلاثة من الشباب، كانوا يستقلون سيارة واحدة، توفي اثنان منهما في الحال، وبقي الثالث في آخر رمق، يقول له رجل المرور الذي حضر الحادث قل لا إله إلا الله، فأخذ يحكي عن نفسه ويقول: أنا في سقر، أنا في سقر أنا في سقر حتى مات عل ذلك، فلا إله إلا الله.

رجل المرور يسأل ويقول: ما هي سقر، فوجد الجواب في كتاب الله عز وجل: ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ۝ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ۝ ﴾ [المدثر: ٤٢، ٤٣]. ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۝ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ ۝ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ۝ لَوَّاحَةٌ لِلْبَشَرِ ۝ ﴾ [المدثر: ٢٦-٢٩].

نسأل الله السلامة والعافية.

عباد الله...

فريقان لا ثالث، شقي وسعيد: فريق في الجنة وفريق في السعير.

فريق استراح، وفريق استراح منه العباد والبلاد ومضى إلى جهنم وبئس المهاد.

ألا ترون ألا تتفكرون ألا تنظرون، تشيعون كلَ يوم غاديًا إلى الله قد قضى نحبه وانقضى أجلَه، حتى تغيبوه في صدعٍ من الأرضِ خُلعَ الأسبَاب، وتركَ الأحباب، وسكنَ الترابَ، وواجهَ الحسابَ، انتهى أجلُه وأملُه، تبعَه أهلَه ومالُه وعملُه، فرجع الأهلُ والمال وبقي العمل. فارق الأحبةَ والجيران، هجرَه الأصحابُ والخلان، ما كأنَه فرِحَ يوما ولا ضحك يومًا ما، أرتُهِنَ بعملِه فصار فقيرًا إلى ما قدم غنيًا عن ما تركَ.

جمعوا فما أكلوا الذي جمعوا ... وبنوا مساكنهم وما سكنوا

فكأنهم كانوا بها ظعنا ... لم استراحوا بها ساعةً ظعنوا

ولذلك كان الرسول ﷺ أرحم الناس بالأموات، يقول عوف بن مالك: صلى بنا رسول الله ﷺ على جنازة رجل من الأنصار، يقول فتخطيت الصفوف حتى اقتربت منه، فسمعته يبكي ويقول: «**اللهم اغفر له، اللهم ارحمه وعافه واعف عنه، وأكرم نزله ووسع مدخله، واغسله بالثلج والماء والبرد**[1]»[2]

---

(١) البرد: الماء الجامد ينزل من السماء قطعًا صغارًا.

(٢) صحيح: مسلم (٢٢٧٦) (٢٢٧٨).

يقول عوف: والذي لا إله إلا هو لوددت أني أنا الميت من حسن دعائه ﷺ له.

ومن رحمته بالأموات ﷺ كان يذهب في الليل ليقف على مقبرة البقيع.فيدعو لهم طويلا ويترحم عليهم طويلًا (صلوات الله وسلامه عليه)، فما أرسله الله إلا رحمة للعالمين.

وأصحابه كذلك ابن عمر كان إذا قرأ قول الله: ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ [سبأ: ٥٤]، بكى وأبكى ودعا للأموات وقال: اللهم لا تحل بيني وبين ما أشتهي، قالوا وما تشتهي؟ قال أن أقول لا إله إلا الله.

فلا إله إلا الله.. ما من ميت إلا ويود أن يسجل في صحيفته لا إله إلا الله، ولكن هيهات حيل بينهم وبينها، وبقي الجزاء والحساب.

فرحم الله امرأ قدم من الصالحات لتلك الحفر، ورحم الله من حاسب نفسه قبل ذاك اللحد الذي لا أنيس فيه ولا صاحب إلا العمل، وكفى بالموت واعظا.

روي أن عمر بن عبد العزيز رحمَه الله يقول لجلاسه يوما ما: أرقتُ البارحةَ فلم أنم حتى طلعَ الفجر، قالوا ما أسهرك؟

قال لما أويتُ إلى فراشي ووضعتُ عليَ لحافي تذكرتُ القبرَ، وتذكرتُ الميتَ بعد ليالٍي تمرُ عليه، حينما تركَه أهلُه وأحبتُه وخلانه، تغير ريحُه وتمزقَ كفنُه وسرى الدودُ على خدودِه فليتك ترى تلك الرائحةَ المنتنةَ، وتلك الأكفانَ الممزقةَ، إذا لرأيتَ أمرًا مهولا، ثم انفجر يبكي ويقولُ لا إله إلا الله ولسانُ حالِه:

واللهِ لو قيل لي تأتي بفاحشةٍ — وأنا عُقباكَ دنيانا وما فيها

لقلتُ لا والذي أخشى عقوبَتَه — ولا بأضعافِها ما كنتُ أتيها

تجهزي بجهاز تبلغين به — يا نفس قبل الردى لم تخلقي عبثا

كفى بالموت واعظا لمن كان له قلب أو ألقى السمع.

يمر عمرو بن العاص رضي الله عنه بالمقبرة فيبكي ثم يرجع فيتوضأ ويصلي ركعتين، فيقول أصحابه: لم فعلت ذلك؟

قال تذكرت قول الله: ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾، وأنا أشتهي الصلاة قبل أن يحال بيني وبينها.

عمر الذي حضرته الوفاة فبكى، فقال له ابنه: يا أبتاه صف لنا الموت.

قال: يا بني الموت أعظم من أن يوصف، لكأن على كتفي جبل رضوى، وكأن في جوفي شوكة عوسج، وكأن روحي تخرج من ثقب إبرة، وكأن السماء أطبقت على الأرض وأنا بينهما.

ثم حول وجهه إلى الحائط ليبكي بكاء مرا فيقول ابنه محسنًا ظنه: أنت من أصحاب رسول الله ﷺ، أما فتحت مصرا، أما جاهدت في سبيل الله!

فيقول: يا بني لقد عشت مراحل ثلاث: لقد كنت أحرص الناس على قتل رسول الله ﷺ فيا ويلتاه لو مت في ذلك الوقت.

ثم هداني الله فكان رسول الله ﷺ أحب الناس إلي، والله ما كنت أستطيع أن أملأ عيني من وجهه حياء منه، والله لو سألتموني أن أصفه الآن ما استطعت، والله ما كنت أملأ عيني إجلالا له، فيا ليتني مت في ذلك الوقت لأنال دعاء النبي ﷺ.

يقول: ثم تخلفت بعد رسول الله ﷺ فلعبت بنا الدنيا ظهرا لبطن، فما أدري أيؤمر بي إلى الجنة أو النار، لكن عندي كلمة أحاج بها لنفسي عند الله هي لا إله إلا الله محمد رسول الله.

ثم قبض على لا إله إلا الله: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

يقول ابن عوفٍ رضي الله عنه: خرجتُ مع عمرَ رضي الله عنه إلى المقبرة، فلما وقفنا عليها، ارتعد واختلس يدَه من يدي، ثم وضع نفسَه على الأرض وبكى بكاءً طويلًا.

فقلت: ما لك يا أميرَ المؤمنين؟

قال: يا ابن عوف ثكلتك أمك أنسيت هذه الحفرة.

حاله يقول: لمثل هذا فأعد.

شد حيازيمك للموت فإن الموت لاقيك ... لأن لا تجزع للموت إذا حل بواديك

كفى بالموت واعظا، وبسير الصالحين عنده عبرا.

تحل السكرات بمحمد بن أدهم فيقول لخادمه: وقد أصابته رعده، يصيح ويقول: ما ي وللناس، والذي لا إله إلا هو لو استطعت أن أتطوع لله وحدي حيث لا يراني ملكاي فعلت خوفا من الرياء، ولكن لا أستطيع.

كان يدخل بيته ومعه كوز ماء فيغلق بابه ويقرأ القرآن ويبكي وينشج، فيسمعه ابن له صغير فيقلده في البكاء، فإذا خرج من بيته غسل وجهه واكتحل لكي لا يرى أثر البكاء عليه.

يقول خادمه: دخلت عليه قبل موته بأربعة أيام فقال: يا أبا عبد الله أبشر فقد نزل بي الموت، وقد منَّ الله علي أن ليس عندي درهم يحاسبني الله عليه، فقد علم ضعفي فإني والله لا أطيق الحساب، فلم يدع عندي شيء يحاسبني عليه فله الحمد.

ثم قال لخادمه أغلق علي الباب، ولا تأذن لأحد علي حتى أموت واعلم أني أخرج من الدنيا ليس عندي ميراث غير كسائي وإنائي الذي أتوضأ فيه، فغطوا علي بكسائي وتصدقوا بإنائي على مسكين يتوضأ فيه.

ثم لفظ روحه في اليوم الرابع ليلقى الله ليس معه من الدنيا شيء، فرحمه الله رحمة واسعة.

خذ القناعة من دنياك وارض بها لو لم يكن لك فيها إلا راحة البدن

وانظر إلى من حوى الدنيا بأجمعها هل راح منها بغير الحنط والكفن

كفى بالموت واعظا

ووالله لو كان الأمرُ سينتهي بالموت لكان هينًا سهلًا، لكنَه مع شدتِه وهولِه أهونُ مما يليه، والقبرُ مع ظلمتِه أهونُ مما يليه، كلُ ذلك هينٌ إذا قُرنَ بالوقوفِ بين يدي الله الكبيرِ المتعال.

تلفت المرءُ يمينًا فلم يرى إلا ما قدم.

وشمالًا فلم يرى إلا ما قدم.

ونظرَ تلقاء وجه فلم يرى إلا النار.

فيا له من موقفٍ ويا لها من خطوبٍ تذهلُ المرضعةُ عما أرضعت وتضعُ كلُ ذاتِ حملٍ حملها، وترى الناسَ سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد.

يبلغ العرق أن يلجم الناس إلجاما، والشمس تدنو منهم قدر ميل، فيالها من أحداثٍ مجردُ تصورُها يخلعُ ويذيبُ الأكباد.

يومُ القيامةِ لو علمت بهولِه لفررتَ من أهل ومن أوطان

روي عن الحسن رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ كان رأسُه ذات يوم في حجرِ عائشة، فنعس فتذكرت الآخرة فسالت دموعُها على خدِ رسولِ الله ﷺ، فاستيقظَ بدموعها ورفع رأسه وقال: «**ما يبكيك؟**»

قالت: يا رسول الله ذكرتُ الآخرة، فهل تذكرونَ أهليكُم يومَ القيامة؟

قال ﷺ : «**والذي نفسي بيده في ثلاثةِ مواطنَ فإن أحدًا لا يذكرُ إلا نفسَه: إذا وضعتِ الموازين حتى ينظرَ ابنُ أدمَ أيخفُ ميزانُه أم يثقل. وعند الصحف حتى ينظرَ أبيمينِه يأخذُ أم بشمالِه. وعند الصراط حتى ينظرَ أيمرَ أم يكردس على وجههِ في جهنم**».

يؤتي بابن أدم حتى يوقفُ بين كفتي الميزان، فتصور نفسِك يا عبد الله وأنت واقفٌ بين الخلائقَ إذ نوديَ باسمك، هلمَّ إلى العرضِ على الله الكبير المتعال.

قمتَ ولم يقم غيرك ترتعدُ فرائصُك، تضطربُ رجلاك وجميع جوارحك، قلبك لدى حنجرتك، خوفٌ وذلٌ وانهيار أعصاب:

- شبابكَ في ما أبليتَه؟
- عمرُك فيما أفنيتَه؟
- مالُك من أين اكتسبتَه وفيما أنفقتَه؟
- علمُك ماذا عملتَ به؟

هذه الأسئلةُ فما الإجابةُ.

- كم من كبيرةٍ نسيتهَا قد أثبتَها عليك الملك.
- كم من بليةٍ أحدثتهَا.
- كم من سريرةٍ كتمتها ظهرت وبدت أمامَ عينيك.

أعظم به من موقف، وأعظم به من سائلٍ لا تخفى عليه خافيةٍ، وأعظم به من حياءٍ يداخلُك وغم وحزنٍ وأسفٍ شديد، فإما أن يقول الله: يا عبدي أنا سترتُها عليكَ في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم. فيا لسرورِك وهدئت بالك واطمئنان قلبك والمنادي ينادي: سعدَ فلانُ ابن فلان سعادةً لا يشقى بعدها أبدًا.

وإما أن يقولَ الله – عافاك وسلمك الله– إما أن يقول: خذوه فغلوه ثم الجحيمَ صلوه فيذهبُ بك إلى جهنمَ مسود الوجه، كتابك في شمالك ومن وراء ظهرك قد غلت ناصيتك

إلى قدمك، أي خزي وأي عارٍ على رؤوس الخلائق ينادى: شقي فلانُ ابن فلان شقاوة لا يسعدُ بعده أبدًا.

عباد الله...

الأمر خطير جد خطير، إبليس قد قطع العهد على نفسه ليغوينكم أجمعين، فقال: وعزتك وجلالك يا رب لا أزال أغويهم ما دامت أرواحهم في أجسادهم.

والله برحمته ومنِّه يقول: وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني.

فالبدار البدار، والتوبة التوبة، والاستغفار الاستغفار لا يهلك إلا هالك، ولا يشقى إلا شقي.

- أكثروا من ذكر هادم اللذات[١]
- زوروا المقابر فإنها تذكركم الآخرة[٢]
- احضروا المحتضرين معتبرين.
- اصدقوا الله يصدقكم.
- احفظوه يحفظكم وعاملوا الله فلن تخيبوا.

﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٨١].

نفعني الله وإياكم بالقرآن وبسنة سيد الأنام عليه الصلاة والسلام، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

عباد الله...

اعلموا أن الآمال تطوى، والأعمار تفنى، والأبدان تحت التراب تبلى، والليل والنهار يقربان كل بعيد ويبليان كل جديد، وفي ذلك والله ما يلهي عن الشهوات، ويسلي عن اللذات، ويرغب في الباقيات الصالحات.

---

(١) صحيح: أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٢٩٩٥)، والألباني في «الإرواء» (٦٨٢)، وفي «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٣٣٤).

(٢) صحيح: أخرجه ابن ماجه (١٥٦٩)، وأحمد (١٢٣٥)، و الألباني في «أحكام الجنائز» (١ / ١٧٨)، وفي «صحيح الجامع» (٣٥٧٧).

وتلفتوا وانظروا وتدبروا وتأملوا بعيون قلوبكم أين من كان حولكم:

أيـــن مـــن كـــان حـــولكم ... مـــن ذوي الـــبأس والخطـــر

ســـائلوا عـــنهم الـــديار ... واســـتبحثوا الخـــبر

ســـبقونا إلى الـــرحيل ... وإنـــا علـــى الأثـــر

كان عبد الرحمن بنُ يزيد بنُ معاوية خلا لعبد الملك بنُ مروان، فلما مات عبدُ الملكِ ودفنَ وتفرق الناسُ عن قبرِه، وقفَ عليهِ عبد الرحمنُ قائلًا: أنتَ عبدُ الملك، أنت من كنتَ تعدوني خيرًا فأرجوك، وتتوعدُني فأخافُك، الآن تصبحُ وتمسي وليسَ معكَ من ملكِك غير ثوبُك، وليسَ لك من مُلكِكَ سوى ترابِ أربعةِ أذرُعٍ في ذراعين.

إنه لملكٌ هينٌ حقيرٌ وضيعٌ، أفٍ ثم أفٍ لدنيًا لا يدومُ نعيمُها، ثم رجعَ إلا أهلِه فاجتهدَ وجد في العبادةِ وعلم أنها الباقيةَ، حتى كان كأنه شن بال من كثرة ما أجهد نفسَه في العبادة.

فدخلَ عليه بعض يعاتبَه لأنه أضر بنفسه، فقال لمن عاتبه: أسألكَ عن شيء فهل تصدقني فيها، قال نعم.

قال: نشدتُك الله عن حالتِكَ التي أنتَ عليها أترضاها حين يأتيك الموت؟

قال: اللهم لا.

قال: نشدتُك الله أعزمتَ على انتقال منها إلى غيرها؟

قال: اللهمَ لم أشاور عقلي بعد.

قال: أفتأمن أن لا يأتيكَ ملكُ الموتِ على الحالةِ التي أنت عليها؟

قال: اللهم لا آمن.

فقال: حالُ ما أقام عليها عاقلٌ وما يقيم عليها ذو قلبٍ ولب، إن الطائرَ إذا علم أن الأنثى قد حملت البيض، أخذ ينقل العيدان لبناء العش قبل الوضع.

أفترُاك ما علمت قُرب رحيلِك إلى القبرِ الذي ستنفردُ فيه وحدَك، ويسدُ عليك فيه بالطينِ وحدَك، آلا عملتَ لك فراشًا من تقوى الله، فمن عمل صالحًا فلأنفسِهم يمهدون.

فـــلا يـــومُك الماضـــي علـــيك بعائـــد ... ولا يـــومُكَ الآتـــي بـــهِ أنـــت واثـــقُ

فاستعد وأعد.

يا شابا عكف على القرآن...

مسجده ومصلاه، والمسجد مظهره ومخبره اسأل الله الثبات، وازدد من الحسنات، واجعل الآخرة همك يجعل الله غناك في قلبك ويجمع عليك شملك، وتأتيك الدنيا راغمة، فجد وسارع واغتنم زمن الصبا.

و يا شابا هجر القرآن...

وأعطى نفسَه هواها فدساها، لتقفنَ موقفًا ينسى الخليلُ به الخليل، وليركبنَ عليكَ من الثرى ثقلُ ثقيل، ولتسألنَ عن النقيرِ، والقطميرِ والصغيرِ والكبير، فعد فالعودُ أحمد قبل أن تقولَ ربي ارجعون فلا رجوع: ذهبَ العمرُ وفات، يا أسير الشهوات، ومضى وقتُك في لهوٍ وسهوٍ وسبات.

يا شيخا اقترب من القبر...

عرف أنه منه قاب قوسين أو أدنى، فأكثر من الاستغفار، وحبل لسانه عن الزور، ورعى رعيته كما ينبغي، وعرف قدر يومه وليلته بشراكَ بشراك، ضاعف العمل فإن الخيل إذا وصلت إلى نهاية السباق قدمت كل ما لديها من قوة لتفوز بالجائزة.

ويا شيخا نسي الله في شيخوخته بعد شبابه...

فارتكب الجرائم وقارف الكبائر ووقف على عتبة الموت، أين الهوى والشهوات؟ ذهبت وبقيت التبعات، تتمنى بعد يبس العود العَودَ وهيهات.

يا من شاب رأسه فما استحى من الله...

يا من شاب رأسه فانتهك حدود الله وأعرض عن منهج الله تب إلى الله قبل أن تكون ممن لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم.

إلى من ضيعَ الصلاة واتبعَ الشهوات.

إلى المنافقين والزناة.

إلى الظَلَمةِ والبغاة.

إلى من طغى وآثر الحياة الدنيا.

إلى المغتابينَ والنمامينَ والحاسدين وأكلة الربا.

إلى من ألهاهم التكاثرَ فنسوا بعثرةَ المقابر وتحصيلَ من في السرائر.

إلى من أضنى عينيه بمشاهدةِ المسلسلات واستقبالِ القاذورات.

إلى من طربت أذنُه باستماعِ الأغنيات.

إلى من شغلته أمواله المحرمة والشركات.

إلى من أعمى الهوى بصرَه وأصم سمعه فكانَ حيًّا وهو في عدادِ الأموات.

إلى الراشين والمرتشين وأهلِ السكرِ والمخدرات.

إلى المسبل والمنان والمنفق سلعته بالحلف الكاذب.

إلى الكاسيات العاريات.

إلى العصاةِ جميعًا:

من الموتِ والقبرِ والحسابِ أين المفر، أين المفر؟

﴿ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ۝ ﴾ [القيامة: ١١، ١٢].

﴿ أَفَرَءَيْتَ إِن مَّتَّعْنَـٰهُمْ سِنِينَ ۝ ثُمَّ جَآءَهُم مَّا كَانُوا۟ يُوعَدُونَ ۝ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يُمَتَّعُونَ ۝ ﴾ [الشعراء: ٢٠٥، ٢٠٧].

عباد الله...

آن الأوان أن نعلنها توبة إلى الله باللسان والجنان.

اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد.

وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد.

اللهم آتي نفوسنا تقواها.

اللهم زكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولها. وأنت أرحم الراحمين.

اللهم أعز الإسلام والمسلمين وانصر عبادك الموحدين.

اللهم ارحم من لا راحم له سواك، ولا ناصر له سواك ولا مأوى له سواك، ولا مغيث له سواك.

اللهم ارحم سائلك ومؤملك لا منجى له ولا ملجئ إلا إليك.

اللهم كن للمستضعفين والمضطهدين والمظلومين.

اللهم فرج همهم ونفس كربهم وارفع درجتهم واخلفهم في أهلهم.

اللهم أنزل عليهم من الصبر أضعاف ما نزل بهم من البلاء.

يا سميع الدعاء

الله ارحم موتى المسلمين، اللهم إنهم عبيدك بنوا عبيدك بنو إمائك احتاجوا إلى رحمتك وأنت غني عن عذابهم، الله زد في حسناتهم، وتجاوز عن سيئاتهم أنت أرحم بهم وأنت أرحم الراحمين.

سبحان ربك رب العزة عن ما يصفون وسلام على المرسلين

والحمد لله رب العالمين

✡✡✡✡✡

[٦] هكذا علمتني الحياة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، شهادة عبده وابن عبده وابن أمته، ومن لا غنى به طرفة عين عن رحمته.

وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، أرسله الله رحمة للعالمين فشرح به الصدور، وأنار به العقول، وفتح به أعينًا عميًا، وآذانًا صمًا، وقلوبًا غلفًا، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان وسلم تسليمًا كثيرًا.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ﴾ [النساء: ١].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ۝ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته:

وأسأل الله أن يجمعنا وإياكم في هذه الحياة تحت ظل لا إله إلا الله، وأن يجعل آخر كلامنا فيها لا إله إلا الله، ثم يجمعنا أخرى سرمدية أبدية في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

أشهد الله الذي لا إله إلا هو على حبكم فيه، ولعلكم تلحظون ذلك فالوجه يعبر عما في النفس:

والنفس تعرف في عيني محدثها ... إن كان من حزبها أو من أعاديها

عيناك قد دلتا عيني منك ... على أشياء لولاهما ما كنت أدريها

اللهم لا تعذب جمعًا التقى فيك ولك.

اللهم لا تعذب ألسنة تخبر عنك.

اللهم لا تعذب قلوبًا تشتاق إلى لقاك.

اللهم لا تعذب أعينا ترجوا لذة النظر إلى وجهك برحمتك يا أرحم الراحمين.

أحسن الظن إخوتي بي إذ دعوني؛ فأجبت الدعوة وما حالي وحالكم هذه الليلة إلا كبائع زمزم على أهل مكة أو كبائع التمر على أهل المدينة أوكبائع السمك على أهل جدة؛ لكني أسأل الله الذي لا إله إلا هو أن يجعلني خيرًا مما تظنون، وأن يغفر لي ما لا تعلمون، وألا يأخذني بما تقولون.

يــــا منـــزل الآيـــات والقـــرآن	**بـــيني وبيـــنك حـــرمة الفـــرقان**
اشـرح بــه صـدري لمعـرفة الهـدى	**واعـــصم بـــه قلــبي مـــن الـــشيطان**
يـــسر بـــه أمـــري واقـــض مآربـــي	**وأجـــر بـــه جـــسدي مـــن الـــنيران**
واحطـــط بـــه وزرى وأخلـــص نيتـــى	**واشـــدد بـــه أزري وأصـــلح شـــانى**
واقطـع بــه طمعـــي وشـــرِّف همـــتي	**كثـــر بـــه ورعـــي وأحـــي جنانـــي**
أنـــت الـــذي صـــورتني وخلقـــتني	**وهديـــــتني لـــــشرائع الإيمـــــان**
أنـــت الـــذي أطعمـــتني وســـقيتني	**مـــن غـــير كـــسب يـــد ولا دكـــان**
أنـــت الـــذي آويـــتني وحـــبوتني	**وهديـــتني مـــن حـــيرة الخـــذلان**
وزرعـــت لـــي بـــين القلـــوب مـــودة	**والعطـــف مـــنك بـــرحمة وحـــنان**
ونـــشرت لـــي في العـــالمين محاســـنًا	**وســـترت عـــن أبـــصارهم عـــصياني**
والله لـــو علمـــوا قبـــيح ســـريرتي	**لأبـــى الـــسلام علـــي مـــن يلقانـــي**
ولأعرضـــوا عـــني وملـــوا صـــحبتي	**ولـــبؤت بعـــد كـــرامة بهـــوان**
لكـــن ســـترت معـــايبي ومـــثالبي	**وحلمـــت عـــن ســـقطي وعـــن طغيانـــي**
فلـــك المحامـــد والمـــدائح كلـــها	**بخواطـــري وجوانحـــي ولـــساني**

هكذا علمتني الحياة

أي حياة تعلم؟ وأي حياة تدرس؟ وأي حياة تربي أيها الأحبة؟

أهي حياة اللهو واللعب؟ أهي حياة العبث واللعب؟ أهي حياة الضياع والتيه؟

لا والذي رفع السماء بلا عمد!

إنها الحياة في ظل العقيدة الإسلامية.

إنها الحياة التي تجعلك متفاعلًا مع هذا الكون، تتدبر فيه وتتفكر:

حياة على الحق نعم الحياة … وبئس الحياة إذا لم نحق

إنها الحياة الحقيقية؛ حياة تحت ظل الإسلام، تعلم وتربي وتدرس.

حياة على الهدى والنور، حياة الحبور والنعيم والسرور، من عاش تحت ظلها عاش في نور وعلى نور، ومات على نور، ولقي الله بنور، وعبر الصراط ومعه النور: ﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ [النور: ٣٥].

إذا جاء يوم القيامة وقسمت الأنوار بين المؤمنين والمنافقين عندما توضع الأقدام على الصراط يتبين من بكى ممن تباكى، سرعان ما تنطفئ أنوار المنافقين فهم في ظلمات لا يبصرون، ينادون: ﴿ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ ۖ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الحديد: ١٣- ١٥].

في تلك اللحظات وفي هذه الساعات يكون المؤمنون قد عبروا بنورهم: ﴿ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴾، فلا يرضى المؤمنون إلا بجوار الرحمن في جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين: أو من كان ميتا ﴿ أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ﴾ [الأنعام: ١٢٢].

هل يستويان مثلًا؟ كلا وألف كلا؛ ﴿ وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا ٱلظُّلُمَٰتُ وَلَا ٱلنُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا ٱلظِّلُّ وَلَا ٱلْحَرُورُ ﴿٢١﴾ [فاطر: وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَآءُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ ﴾ [فاطر: ١٩- ٢٢].

لا يستوي عاقل كلا وذو سفه … لا والذي علم الإنسان بالقلم

هل يستوي من على حق تصرفه … ومن مشى تائهًا في حالك الظلم

لا يستوون أبدًا.

أحبتي في الله...

الحياة في ظل العقيدة مدرسة وأي مدرسة! عظات وعبر لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، فإليكم هذه الليلة أزف بعض دروس علمتنيها الحياة تحت ذلك الظل، وهي تعلم كل شخص كان من هذه الأمة إن كان له قلب.

أسأل الله أن يرزقنا وإياكم العلم النافع والعمل الصالح والنظر الثاقب والبصيرة النافذة والعظة والاعتبار، وأن يظلنا تحت ظله يوم لا ظل إلا ظله.

«اللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلًا، وأنت تجعل الحزن سهلًا إذا شئت».

توحيد الله هو محور الرسالات

علمتني الحياة في ظل العقيدة الإسلامية: أن توحيد الله هو محور الرسالات السماوية، ومحور حياة الإنسان الحق.

فقيمة الإنسان تظهر عندما يجعل ربه محور حياته فيستعبد كل ذرة من ذرات جسده وكل حركة من حركاته وكل سكنة من سكناته ونفسه؛ لله رب العالمين.

فصلاته لله ونسكه لله وحياته لله وموته لله، شعاره: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

وبذلك تتفق وجهة الإنسان مع هذا الكون الذي يعيش فيه، فالكون -يا أيها الأحبة- كله مطيع لله جل وعلا، خاضع لسلطان الله، مسبح بحمد الله.

فإذا تمرد هذا العبد أصبح شاذا في هذا الكون الهائل المتجه إلى الله وحده بالطاعة والخشوع والخضوع، فالكون كله في اتجاه وهو في اتجاه مضاد: ﴿ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴾ [الروم: ٤٤].

خلق الله سوانا كثير وكثير لا يعلمهم إلا خالقهم سبحانه وبحمده، وطاعتك -أيها العبد- لك، ومعصيتك -أيها العبد- عليك ولن تضر الله شيئًا.

في صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال: «**قال الله تعالى: يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئًا.**

يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئًا. يا عبادي! لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل واحد مسألته ما نقص ذلك من ملكي شيئًا إلا كما

ينقص المخيط إذا أدخل البحر. يا عبادي! إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرًا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه»[١]

إذا ما خلوت الدهر يومًا فلا تقل خلوت ولكن قل علي رقيب

ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا أن ما تخفيه عنه يغيب

التوحيد نقطة البداية

علمتني الحياة في ظل العقيدة: أن توحيد الله هو نقطة البداية في حياة المسلم والأمة، وأن التوحيد هو كذلك نقطة النهاية في حياة المسلم والأمة.

من ضل عنه خسر الدنيا والآخرة، فهو أضل من حمار أهله، قلبه لا يفقه، وعينه لا تبصر، وأذنه لا تسمع، بهيمة في مسلاخ بشر، حياته ضنك، وسعيه مردود، وذنبه غير مغفور: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٤٨]، ﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴾ [الحج: ٣١]، ﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ﴾ [المائدة: ٧٢]، نعوذ بالله من النار.

وفي المقابل من ظفر بتوحيد الله جل وعلا فقد ربح الدنيا والآخرة وسعد في الدنيا والآخرة. فسعيه مشكور، وذنبه مغفور، وتجارته لن تبور، يقول الله جل وعلا: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾ ﴾ [الكهف: ١٠٧، ١٠٨].

العز في كنف العزيز ومن عبد العبيد أذله الله

بلسم الجراحات هو الإيمان بالقضاء والقدر

علمتني الحياة في ظل العقيدة: أن بلسم الجراحات هو الإيمان بالقضاء والقدر، «وعجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله له خير، إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له»[٢]، قد علم أن «ما أصابه لم يكن ليخطئه، وعلم أن ما أخطأه لم

(١) صحيح: مسلم (٦٧٣٧).

(٢) صحيح: مسلم (٧٦٩٢).

يكن ليصيبه» [(١)]؛ علم **«أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوه بشيء لم ينفعوه إلا بشيء قد كتبه الله له، ولو اجتمعت على أن يضروه بشيء لم يضروه إلا بشيء قد كتبه الله عز وجل عليه»** [(٢)]

رضي فرضي الله عنه وسعد في حياته وأخراه واطمأن قلبه وسكنت روحه، فهو في نعيم وأي نعيم.

في الموقف العظيم يوم يقول الله -والناس في عرصات القيامة- لأناس من بين الخلائق جميعهم: ادخلوا الجنة بلا حساب، فيقولون: ياربنا ويامولانا! قد حاسبت الناس وتركتنا؟ فيقول: قد حاسبتكم في الدنيا، وعزتي وجلالي لا أجمع عليكم مصيبتين، ادخلوا الجنة.

فيتمنى أهل الموقف أن لو قرضوا بالمقاريض لينالوا ما نال هؤلاء من النعيم.

وفي الصحيح أن الله عز وجل يقول كما في الحديث القدسي: **«ما لعبدي المؤمن عندي من جزاء إذا قبضت صفيه وخليله من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة»** [(٣)]، ويا له من جزاء! ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

وفي الصحيح أن الله عز وجل -كما في الحديث القدسي- يقول للملائكته: **«قبضتم ابن عبدي المؤمن قبضتم ثمرة فؤاده؟ -وهو أعلم سبحانه وبحمده- فتقول الملائكة: نعم. فيقول: وماذا قال؟ -وهو أعلم جل وعلا- قالوا: حمدك واسترجع. فيقول الله جل وعلا: ابنوا له بيتا في الجنة وسموه بيت الحمد»** [(٤)]

﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ [البقرة: ١٥٥- ١٥٧].

دع الأيام تفعل ما تشاء ... وطب نفسًا إذا حكم القضاء

ولا تجزع لحادثة الليالي ... فما لحوادث الدنيا بقاء

ومن نزلت بساحته المنايا ... فلا أرض تقيه ولا سماء

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٢٧٥٣٠)، و الألباني في «الصحيحة» (٢٤٣٩) (٢٤٧١).

(٢) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٥١٦)، وأحمد (٢٦٦٩)، والألباني في «صحيح الجامع» (٧٩٥٧).

(٣) صحيح: البخاري (٦٠٦٠).

(٤) حسن: أخرجه الترمذي (١٠٢١)، وأحمد (١٩٧٤٠)، والألباني في «صحيح الجامع» (٧٩٥).

مروا بيزيد بن هارون عليه رحمة الله وقد عمي، وكانت له عينان جميلتان قل أن توجد عند أحد في عصره مثل تلك العينين، فقالوا له وقد عمي: ما فعلت العينان الجميلتان يا بن هارون؟ فقال: ذهب بهما بكاء الأسحار، وإني لأحتسبهما عند الله الواحد الغفار.

فالإيمان بالقضاء والقدر نعمة على البشر، وبلسم وظل وارف من الطمأنينة وفيض من الأمن والسكينة ووقاية من الشرور وحافز على العمل وباعث على الصبر والرضا، والصبر مر مذاقه لذيذة عاقبته:

صبرت ومن يصبر يجد غب صبره ... ألذ وأحلى من جنى النحل في الفم

«فاحرص على ما ينفعك - وارض بما قسم الله لك- واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل» (١)

ولست بمدرك ما فات مني ... بلهف ولا بليت ولا لو أني

الجزاء من جنس العمل

علمتني الحياة في ظل العقيدة: أنه كما تدين تدان، وكما تزرع تحصد، والجزاء من جنس العمل، ولا يظلم ربك أحدًا:

حصادك يوما ما زرعت ... وإنما يدان الفتى يومًا كما هو دائن

إن زرعت خيرًا حصدت خيرًا ... وإن زرعت شرًا حصدت مثله

وإن لم تزرع وأبصرت حاصدًا ... ندمت على التفريط في زمن البذر

ها هو رجل كان له عبد يعمل في مزرعته، فيقول هذا السيد لهذا العبد: ازرع هذه القطعة برًّا، وذهب وتركه وكان هذا العبد لبيبًا عاقلًا، فما كان منه إلا أن زرع القطعة شعيرًا بدل البر، ولم يأت ذلك الرجل إلا بعد أن استوى وحان وقت حصاده، فجاء فإذا هي قد زرعت شعيرًا، فما كان منه إلا أن قال: أنا قلت لك ازرعها برًّا لم زرعتها شعيرًا؟! قال: رجوت من الشعير أن ينتج برًا.

قال: يا أحمق! أو ترجو من الشعير أن ينتج برًّا؟! قال: يا سيدي! أفتعصي الله وترجو رحمته؟! أفتعصي الله وترجو جنته؟! فذعر وخاف واندهش وتذكر أنه إلى الله قادم، فقال:

---

(١) صحيح: مسلم (٦٩٤٥).

تبت إلى الله وأبت إلى الله، أنت حر لوجه الله.

كما تدين تدان والجزاء من جنس العمل ولا يظلم ربك أحدًا: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧].

ها هو رجل كان له أب قد بلغ من الكبر عتيًا وقد قام على خدمته زمنًا طويلًا ثم مله وسئمه، فما كان منه إلا أن أخذه في يوم من الأيام على ظهر دابة وخرج به إلى الصحراء، ويوم وصل إلى الصحراء قال الأب لابنه: يا بني! ماذا تريد مني هنا.

قال: أريد أن أذبحك.

لا إله إلا الله! ابن يذبح أباه! قال: أهكذا جزاء الإحسان يا بني؟! قال: لابد من ذبحك فقد أسأمتني وأمللتني، قال: إن كان ولابد يا بني فاذبحني عند تلك الصخرة.

قال: أبتاه! ما ضرك أن أذبحك هنا أو أذبحك هناك؟! قال: إن كان الجزاء من جنس العمل فاذبحني عند تلك الصخرة فلقد ذبحت أبي هناك، ولك يا بني مثلها والجزاء من جنس العمل، وكما تدين تدان ولا يظلم ربك أحدًا.

العقيدة قوة عظمى

علمتني الحياة في ظل العقيدة: أن العقيدة قوة عظمى، لا تعدلها قوة مادية بشرية أرضية أيًا كانت هذه القوة.

والأمثلة على ذلك كثيرة وبالمثال يتضح المقال.

ها هي جموع المسلمين وعددها ثلاثة آلاف في مؤتة تقابل مائتي ألف بقلوب ملؤها العقيدة، يقول قائل المسلمين: والله! ما نقاتلهم بعدد ولا عدة وإنما نقاتلهم بهذا الدين، فسل خالدًا كم سيف اندق في يمينه؟ يجبك خالد: اندق في يميني تسعة أسياف.

وسل خالدًا: ما الذي ثبت في يده وهو يضرب الكافرين؟ يجبك: إنها صحيفة يمانية ثبتت في يده.

انظر إليه يوم يقبل مائتا ألف مقاتل إلى ثلاثة آلاف ليهجموا عليهم هجمة واحدة، يوم يأتي بعض المسلمين ويرى هذه الحشود فيقول لخالد: يا خالد ! إلى أين الملجأ؟ أإلى سلمى وأجا؟ فتذرف عيناه الدموع وينتخي ويقول: لا إلى سلمى ولا إلى أجا ولكن إلى الله الملتجا؛ فينصره الله الذي التجأ إليه سبحانه وبحمده.

بربك هل هذه قوة جسدية في خالد بن الوليد؟ لا والذي رفع السماء بلا عمد ! إنها العقيدة وكفى:

إن العقـــيدة في قلـــوب رجالهـــا ... مـــن ذرة أقـــوى وألـــف مهـــند

وها هو صلاح الدين في عصر آخر غير ذلك العصر -عليه رحمة الله- تأتيه رسالة على لسان المسجد الأقصى وقد كان أسيرًا في يد الصليبيين يوم ذاك، تقول الرسالة:

يـــا أيهـــا الملـــك الـــذي ... لمعـــالم الـــصلبان نكـــس

جـــاءت إلـــيك ظلامـــة ... تـــسعى مـــن البـــيت المقـــدس

كـــل المـــساجد طهـــرت ... وأنـــا علـــى شـــرفي أنجـــس

فينتخي صلاح الدين ويقودها حملة لا تبقي ولا تذر، ويشحذ الهمم قبل ذلك، فيمنع المزاح في جيشه، ويمنع الضحك في جيشه، ويهيئ الأمة لاسترداد المسجد الأقصى الذي هو أسير في يد الصليبيين يوم ذاك، ثم يقودها حملة لا تبقي ولا تذر، فيكسر شوكتهم ويعيد الأقصى بإذن الله إلى حظيرة المسلمين.

ثم ماذا بعد صلاح الدين يا أيها الأحبة؟

عادوا بعد صلاح الدين بفترة يوم تخلى مَنْ تخلى عن مبادئ صلاح الدين، عادوا فاحتلوه وذهبوا إلى قبر صلاح الدين ورفسوه بأرجلهم وقالوا: ها قد عدنا يا صلاح الدين ! ها قد عدنا يا صلاح الدين ! وهم ينشدون: محمد مات. خلّف بنات.

فما الحال الآن يا أيها الأحبة؟

إن ما يجري هناك لتتفطر له الأكباد، إن المسجد الأقصى -بلسان حاله- ليصيح بالأمة المسلمة: هل من صلاح؟ هل من عمر؟ هل من صلاح؟ هل من عمر؟ فلا أذن تسمع، ولا قلوب تجيب:

إنـــي تذكـــرت والذكـــرى مـــؤرقة ... مجـــدًا تلـــيدًا بأيديـــنا أضـــعناه

أنـــى اتجهـــت إلى الإســـلام في بلـــد ... تجـــده كـــالطير مقـــصوصًا جـــناحاه

كـــم صـــرفتنا يـــد كـــنا نـــصرفها ... وبـــات يملكـــنا شـــعب ملكـــناه

استرشـــد الغـــرب بالماضـــي فأرشـــده ... ونحـــن كـــان لـــنا مـــاض نـــسيناه

إنـــا مـــشينا وراء الغـــرب نقتـــبس ... مـــن ضـــيائه فأصـــابتنا شـــظاياه

بالله سل خلف بحر الروم عن عرب ... بالأمس كانوا هنا واليوم قد تاهوا
وانزل دمشق وسائل صخر مسجدها ... عمن بناه لعل الصخر ينعاه
هذي معالم خرس كل واحدة منهن ... قامت خطيبًا فاغرًا فاه
الله يعلم ما قلبت سيرتهم يومًا ... وأخطأ دمع العين مجراه
لا در امرئ يطري أوائله ... فخرًا ويطرق إن ساءلته ماهو
يا من يرى عمرًا تكسوه بردته ... والزيت أدم له والكوخ مأواه
يهتز كسرى على كرسيه فرقا ... من خوفه وملوك الروم تخشاه
يا رب فابعث لنا من مثلهم ... نفرًا يشيدون لنا مجدًا أضعناه

وها هو ألب أرسلان ذلكم الفتى المسلم الشجاع المؤمن بالله، كان عائدًا من إحدى معاركه متجها ببقية جيشه إلى عاصمته خراسان، فسمع به إمبراطور القسطنطينية رومانوس فجهز جيشًا قوامه ستمائة ألف مقاتل، والله! ما جمعوا هذه الجموع إلا بقلوب ملؤها الخور والضعف والهون.

جاء الخبر لأرسلان ومعه خمسة عشر ألف مقاتل في سبيل لا إله إلا الله، وانظروا ووازنوا بين الجيشين: ستمائة ألف تقابل خمسة عشر ألف مقاتل، بمعنى أن الواحد يقابل أربعين.

هل هذه قوى جسدية؟ إنها قوى العقيدة وكفى يا أيها الأحبة.

نظر هذا الرجل في جيشه، جيش منهك من القتال، ما بين مصاب وجريح، قد أنهكه السير الطويل، فكر وقدر ونظر في جيشه، أيترك هذا الجيش القادم ليدخل بلاده ويعيث فيها الفساد أم يجازف بهذا الجيش؟ خمسة عشر ألف مقابل ستمائة ألف.

فكر قليلًا ثم هزه الإيمان وخرجت العقيدة لتبرز في مواقفها الحرجة، فدخل خيمته وخلع ملابسه وحنط جسده ثم تكفن وخرج إلى الجيش وخطبهم قائلًا: إن الإسلام اليوم في خطر وإن المسلمين كذلك، وإني لأخشى أن يقضى على لا إله إلا الله من الوجود، ثم صاح: وا إسلاماه! وا إسلاماه! هأنذا قد تحنطت وتكفنت فمن أراد الجنة فليلبس كما لبست ولنقاتل دون لا إله إلا الله حتى نهلك أو ترفع لا إله إلا الله:

فما هو إلا الوحي أوحد مرهف ... تقيم ظباه أخدعي كل مائل
فهذا دواء الداء من كل عاقل ... وهذا دواء الداء من كل جاهل

وما هي إلا ساعة، ويتكفن الجيش الإسلامي كله، وتفوح رائحة الحنوط وتهب رياح الجنة وتدوي السماء بصيحات: الله أكبر! يا خيل الله! اثبتي، يا خيل الله! اركبي.

لا إله إلا الله! هل سمعتم بجيش مكفن؟

هل سمعتم بجيش لبس ثياب حشره قبل أن يدخل المعركة؟

هل شممتم رائحة حنوط خمسة عشر ألف مسلم في آن واحد؟

هل تخيلتم صورة جيش كامل يسير إلى معركة يثق أنه من على أرضها يكون بعثه يوم ينفخ في الصور؟

التقى الجمعان واصطدمت الفئتان: فئة تؤمن بالله وتشتاق إلى لقاء الله، وفئة تكفر بالله ولا تحب لقاء الله، ودوَّت صيحات: الله أكبر، واندفع كل مؤمن ولسان حاله: ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾ [طه: ٨٤]، تطايرت رءوس، وسقطت جماجم، وسالت دماء، وفي خضم المعركة إذ بالمنادي ينادي مبشرًا: انهزم الرومان وأسر قائدهم رومانوس.

الله أكبر! لا إله إلا الله! صدق وعده ونصر جنده: ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

ذهب من جند الله كثير وكثير -نحسبهم شهداء- وبقي الباقون يبكون، فهل يبكون على ما فاتهم من غنائم؟ لا والذي رفع السماء بلا عمد! لكنهم يبكون لأنهم مضطرون إلى خلع أكفانهم وقد باعوا أنفسهم لله.

أما القائد المسلم فبكى طويلًا وحمد الله حمدًا كثيرًا وبقي يجاهد حتى لقي الله بعقيدة لا يقف في وجهها أي قوة، ويوم حلت به سكرات الموت كان يقول: آه آه! آمال لم تنل، وحوائج لم تقض، وأنفس تموت بحسراتها.

كان يتمنى أن يموت تحت ظلال السيوف، ولكن شاء الله له أن يموت على الفراش:

إن العقـــيدة في قلـــوب رجالهـــا	مـــن ذرة أقـــوى وألـــف مهـــند
فاعـــرف يـــا بـــن أمـــي في العقـــيدة	يـــا أخـــا الإســـلام في الأرض المديـــدة
مـــا حـــياة المـــرء مـــن غـــير عقـــيدة	وجهـــاد وصـــراعات عنـــيدة
فهـــي طوبـــى واختـــبارات مجـــيدة	فانطلـــق وامـــض بإيمـــان وثـــيق
وإذا مـــا مـــسك الـــضر صـــديقي	فلأنَّـــا قـــد مـــشينا في الطـــريق

من حفظ الله حفظه الله

علمتني الحياة في ظل العقيدة: أن من حفظ الله حفظه الله، ومن وقف عند أوامر الله بالامتثال، ونواهيه بالاجتناب، وحدوده بعدم التجاوز؛ حفظه الله.

من حفظ الرأس وما وعى والبطن وما حوى حفظه الله.

من حفظ ما بين فكيه وما بين فخذيه حفظه الله.

من حفظ الله في وقت الرخاء حفظه الله في وقت الشدة.

من حفظ الله في شبابه حفظه الله عند ضعفه وقوته: ﴿ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [يوسف: ٦٤].

ها هو الإمام الأوزاعي ذلكم الإمام العابد المحدث الورع الفقيه عندما يدخل عبد الله بن علي ذلكم الحاكم العباسي دمشق في يوم من الأيام فيقتل فيها ثمانية وثلاثين ألف مسلم، ثم يُدخل الخيول مسجد بني أمية، ثم يتبجح ويقول: من ينكر علي فيما أفعل؟ قالوا: لا نعلم أحدًا غير الإمام الأوزاعي.

فيستدعيه، فيذهب من يذهب ليستدعيه؛ فعلم أنه الامتحان؛ وعلم أنه الابتلاء؛ وعلم أنه إما أن ينجح ونجاح ما بعده رسوب، وإما أن يرسب ورسوبٌ ما بعده نجاح.

فماذا كان من هذا الرجل؟ قام واغتسل وتحنط وتكفن ولبس ثيابه من على كفنه ثم أخذ عصاه في يده واتجه إلى من حفظه في وقت الرخاء فقال: يا ذا العزة التي لا تضام! والركن الذي لا يرام! يا من لا يهزم جنده! ولا يغلب أولياؤه! أنت حسبي ومن كنت حسبه فقد كفيته، حسبي الله ونعم الوكيل.

ثم ينطلق وقد اتصل بالله سبحانه وتعالى انطلاقة الأسد إلى ذاك، وذاك قد صف وزراءه وصف سماطين من الجلود يريد أن يقتله وأن يرهبه بها، قال: فدخلت -ويوم دخلت- وإذا السيوف مسلطة، وإذا السماط معد، وإذا الأمور غير ما كنت أتوقع، قال: فدخلت، ووالله! ما تصورت في تلك اللحظة إلا عرش الرحمن بارزًا، والمنادي ينادي: فريق في الجنة وفريق في السعير.

فوالله! ما رأيته أمامي إلا كالذباب، والله! ما دخلت بلاطه حتى بعت نفسي من الله جل وعلا. قال: فانعقد جبين هذا الرجل من الغضب ثم قال: أأنت الأوزاعي؟ قال: يقول الناس: أني الأوزاعي.

قال: ما ترى في هذه الدماء التي سفكنا؟ قال: حدثنا فلان عن فلان عن فلان عن جدك ابن عباس وعن ابن مسعود وعن أنس وعن أبي هريرة وعن عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «**لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة**»(١)

قال: فتلمظ كما تتلمظ الحية، قال: وقام الناس يتحفزون ويرفعون ثيابهم لئلا يصيبهم دمي، قال: ورفعت عمامتي ليقع السيف على رقبتي مباشرة، قال: وإذا به يقول وما ترى في هذه الدور التي اغتصبنا والأموال التي أخذنا، قال: سوف يجردك الله عريانًا كما خلقك، ثم يسألك عن الصغير والكبير والنقير والقطمير؛ فإن كانت حلالًا فحساب وإن كانت حرامًا فعقاب.

قال: فانعقد جبينه مرة أخرى من الغضب، قال: وقام الوزراء يرفعون ثيابهم، قال: وقمت لأرفع عمامتي ليقع السيف على رقبتي مباشرة، قال: وإذ به تنتفخ أوداجه ثم يقول: اخرج.

قال: فخرجت، فوالله! ما زادني ربي إلا عزة.

ذهب وما كان منه إلا أن سار في طريقه إلى الله عز وجل حتى لقي الله جل وعلا بحفظه سبحانه وتعالى.

ثم جاء هذا الحاكم ومر على قبره بعد أن توفي، فوقف عليه وقال: والله! ما كنت أخاف أحدًا على وجه الأرض كخوفي من هذا المدفون في هذا القبر، والله! إني كنت إذا رأيته رأيت الأسد بارزًا.

اعتصم بالله، وحفظ الله في الرخاء فحفظه الله في الشدة: ﴿ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَـٰفِظًا ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [يوسف: ٦٤].

ويا أيها الأحبة...

ما ندري أنحن مقبلون على مرحلة عزة وتمكين أم نحن مقبلون على مرحلة ابتلاء، يجب أن نحفظ أنفسنا ونحفظ الله عز وجل وحدوده وأوامره ونواهيه في الرخاء ليحفظنا سبحانه وبحمده في وقت الشدة ولابد من الابتلاء: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا

---

(١) متفق عليه: البخاري (٦٤٨٤)، ومسلم (٤٤٦٨)، (٤٤٧٠).

وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ﴿٢﴾ ﴾ [العنكبوت: ٢].

ها هو الأسود العنسي ذلكم الساحر القبيح الظالم، الذي ادعى النبوة باليمن، يجتمع حوله اللصوص وقطاع الطرق ليكونوا فرقة تسمى فرقة الصد عن سبيل الله جل وعلا؛ ليذبح الدعاة في سبيل الله، ذبح من المسلمين من ذبح، وأحرق منهم من أحرق، وطرد منهم من طرد، وهتك أعراض بعضهم وفر الناس بدينهم، عذب من الدعاة من عذب وكان من هؤلاء أبو مسلم الخولاني -عليه رحمة الله ورضوانه- عذبه فثبت كثبات سحرة فرعون، حاول أن يثنيه عن دعوته قال: كلا والذي فطرني! لن أقف: ﴿ فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ ﴾ [طه: ٧٢].

فما كان منه إلا أن جمع الجموع كلها، وقال لهم: إن كان داعيتكم على حق فسينجيه الحق، وإن كان على غير ذلك فسترون.

ثم أمر بنار عظيمَة فأضرمت، ثم جاء بأبي مسلم الخولاني -عليه رحمة الله- فربط يديه وربط رجليه ووضعوه في مقلاع ثم رموه في لهيب النار ولظاها.

إن هذه النار -كما يقولون- كان يمر الطير من فوقها فتسقط الطيور في وسطها من عظم ألسنة لهبها، وهو بين السماء والأرض لم يذكر إلا الله جل وعلا، فكان يقول: حسبي الله ونعم الوكيل؛ ليسقط فى وسط النار وكادت قلوب الموحدين أن تنخلع وكادت أن تنفطر وانتظروا والنار تخبو شيئًا فشيئًا وإذا بأبي مسلم قد فكت النار وثاقه، ثيابه لم تحترق، رجلاه حافيتان يمشي بهما على الجمر ويتبسم، ذهل الطاغية وخاف أن يسلم من بقي من الناس فقام يتهددهم ويتوعدهم، أما هذا الرجل فانطلق إلى المدينة النبوية إلى أصحاب رسول الله ﷺ في خلافة أبي بكر ويصل إلى المسجد ويصلي ركعتين، ويسمع عمر رضي الله عنه وأرضاه بهذا الرجل، فينطلق ويأتي إليه، ويقول: أأنت أبو مسلم؟ قال: نعم.

قال: أأنت الذي قذفت في النار وأنقذك الله منها؟ قال: نعم.

فيعتنقه ويبكي ويقول: الحمد لله الذي أراني في أمة محمد ﷺ من فعل به كما فعل بإبراهيم عليه السلام، من حفظ أبا مسلم؟ إنه الله الذي لا إله إلا هو، حفظ الله عز وجل فحفظه الله: ﴿ فَٱللَّهُ خَيۡرٌ حَٰفِظٗاۖ وَهُوَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [يوسف: ٦٤].

وها هو ابن طولون وال من ولاة مصر، هذا الوالي - يا أيها الأحبة- ما كان منه إلا أن قتل ثمانية عشر ألف مسلم في تلك الأرض، وقد قتلهم بقتلة هي من أبشع أنواع القتل،

حبس عنهم الطعام والشراب حتى ماتوا جوعًا وعطشًا، فسمع أبو الحسن الزاهد -عليه رحمة الله- فأقض مضجعه أن يسمع بإخوته يعذبون ثم لا يذهب، وقد سمع قبل ذلك رسول الله ﷺ وهو يقول: «**أفضل الجهاد كلمة حق تقال عند سلطان جائر**»[(١)]، فذهب إليه وقال له: اتق الله في دماء المسلمين.

وخوفه بالله، فأرغى وأزبد وأمر بأن يسجن فى سجن، وأمر بأسد أن يجوع لمدة ثلاثة أيام، ثم جاء فجمع الناس جميعهم، ثم ما كان منه إلا أن جاء بهذا الرجل وجاء بذلك الأسد المجوع ثلاثة أيام، فقام هذا الرجل متصلًا بالله الذي لا إله إلا هو، وقام يصلي.

أما الأسد فقد أطلقوه عليه فانطلق الأسد حتى قرب منه ثم توقف وقام ينظر إليه ويشمشمه ويسيل اللعاب على يديه وفيها من الجراح ما فيها، فما كان من الناس إلا أن ذهلوا، وما كان من الطاغية إلا أن ذهل، وما كان من الأسد إلا أن رجع وهو جائع ثلاثة أيام.

من الذي حفظه إلا الله الذي يحفظ من يحفظه في وقت الرخاء، فما كان من طلاب الشيخ إلا أن اجتمعوا بشيخهم وإمامهم بعد ذلك وقالوا: يا أبا الحسن ! فيم كنت تفكر يوم قدم عليك الأسد؟ قال: والله! ما فكرت فيما فيه تفكرون ولا خفت مما منه تخافون، ولكني كنت أقول في نفسي: ألعاب الأسد نجس أم طاهر لكيلا يفسد وضوئي وأنا متصل بالله الذي لا إله إلا هو.

حفظوا الله فحفظهم الله، وما اعتصم عبد بالله فكادته السماوات والأرض إلا جعل الله له منها فرجًا ومخرجًا.

اللهم احفظنا من بين أيدينا ومن خلفنا، وعن أيماننا وعن شمائلنا ومن فوقنا ونعوذ بك اللهم أن نغتال من تحتنا.

الظلم مرتعه وخيم

علمتني الحياة في ظل العقيدة الإسلامية: أن الظلم مرتعه وخيم، وأن الظلم يفضي إلى الندم، وأنه ظلمات يوم القيامة، وأن الله لا يغفل عما يعمل الظالمون؛ لكن يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار.

---

(١) صحيح: أخرجه ابن ماجه (٤٠١٢)، والنسائي (٤٢٠٩)، وأحمد (١١١٥٩) (١٨٨٤٨)، والألباني في «المشكاة» (٣٧٠٥)، وفي «صحيح الجامع» (١١٠٠).

في الحديث القدسي يقول النبي ﷺ : «قال الله: يا عبادي! إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا»[(١)]

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة على المرء من وقع الحسام المهند

ها هم أهل قرية من القرى قبل وقت من الزمن نقص عددهم نتيجة الحروب التي كانت تقام بين القبائل لأتفه الأسباب، فما كان منهم إلا أن فكروا في أن يزيدوا عددهم فاجتمعوا وعقدوا مؤتمرًا لهم، وكان قائدهم في ذلك المؤتمر إبليس عليه غضب الله جل وعلا ونعوذ بالله منه، فاتفقوا على أن يرجع كل واحد من أهل هذه القرية فيقع على محارمه؛ يقع على أخته وعلى بنته ليكثر العدد، والحادثة معروفة ومشهورة والقرية معروفة ومشهورة، وهي عبرة وعظة لكل من يعتبر.

ما كان منهم إلا أن رجعوا من اجتماعهم فمنهم من رجع إلى أهله ونفذ ما اجتمعوا عليه، ومنهم من رضي بذلك ولم يفعل، والراضي كالفاعل، فما كانت النتيجة؟ أي ظلم -يا أيها الأحبة- وأي ظلمات أن يقع الأب على ابنته، أو يقع الأخ على أخته، أو يقع المحرم على محارمه؟ إنه -والله- الظلم والظلمات.

فيرسل الله عز وجل جنديًا من جنوده: ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ [المدثر: ٣١]، فيخرج عليهم النمل، تقوم النملة فتلدغ الواحد منهم فيذبل ثم يذبل ثم يذبل ثم يموت، وهكذا واحدا وراء الآخر، فما كان من أحدهم إلا أن أراد أن يفلت، فسرق من أموالهم ما سرق، وجمع من الذهب والفضة ما جمع، ثم أخذه في وعاء معين، ثم حفر له تحت صخرة من الصخرات، ثم ما كان منه إلا أن علمه بهذه الصخرة، وذهب هاربًا إلى مكة، وبقي في مكة ردحًا من الزمن، قيل: إنها عشرون سنة أو أكثر من ذلك، ثم تذكر ذلك الذي حصل ولم يبق في تلك القرية إلا النساء، فماذا كان يا أيها الأحبة؟

ما كان من هذا الرجل بعد عشرين سنة إلا أن أرسل واحدًا من أهل مكة -وما استطاع هو بنفسه أن يرجع إلى هناك- وقال: اذهب إلى ذاك المكان وستجد في المكان الفلاني تحت الصخرة الفلانية وعاء فيه كذا وكذا، خذه وائتنا به ولك كذا وكذا، فذهب الرجل على وصفه وسأل عن المكان واستخرج ذلك الكنز وجاء به إليه في مكة، ويوم وصل به إلى مكة جاء الرجل ليفتحه، وكان ذلك الرجل أمينًا لم يغير فيه ولم يبدل، أخذه

(١) صحيح: مسلم (٦٧٣٧).

كما هو، وعندما فتحه وإذا بنملة على ظهره إذ بها تأتي فتقفز إلى أنفه فتلدغه فيذبل ثم يذبل ثم يموت: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [إبراهيم: ٤٢].

وها هو المعتمد حاكم بعض ولايات الأندلس ذلكم الشجاع القوي المترف، يستعين به حاكم ولاية مجاورة، غزاها أحد أعدائه فيسرع المعتمد لنجدة ذلك الرجل ويرجع ذلك الغازي مدحورًا لما رأى جيوش المعتمد.

وهنا انتهت مهمة المعتمد، لكنه في ظلام الليل يقوم ليبث جنوده في المدينة وحول قصر من استنجد به ويحتل المدينة ويا له من مجير:

والمستجير بعمرو عند كربته كالمستجير من الرمضاء بالنار

أصيب ذلك الحاكم -لأنه دعاه- بصدمة عنيفة شُلَّ منها، قبض عليه وعلى والده وأخذت أمواله وأودع السجن، وسبيت زوجاته وبناته ثم أخرج من ولايته مهانًا ذليلًا، يقول أبوه: والله! إن هذا بسبب دعوة مظلوم ظلمناه بالأمس.

ثم يرفع يديه إلى من لا يغفل عما يعمل الظالمون، قائلا: اللهم كما انتقمت للمظلومين منا فانتقم لنا من الظالمين.

وتصعد الدعوة إلى من ينصر المظلوم، ويظل المعتمد في ملكه فترة، ينام والمظلوم يدعو عليه وعين الله لم تنم، وتجتاحه دولة المرابطين في ليلة من الليالي وتأسره في آخر الليل:

يا راقد الليل مسرورا بأوله إن الحوادث قد يطرقن أسحارا

ويقضي حياته في أغمات في بلاد المغرب أسيرًا حسيرًا كسيرًا، وأصبحن بناته المترفات اللائي كن يخلط لهن التراب بالمسك ليمشين عليه؛ حسيرات يغزلن للناس الصوف ما عندهن ما يسترن به سوآتهن، ويأتين أباهن يوم العيد في السجن يزرنه، فيتأوه ويبكي وينشد وكان شاعرًا:

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورًا فساءك العيد في أغمات مأسورًا

ترى بناتك في الأطمار جائعة يغزلن للناس ما يملكن قطميرا

برزن نحوك للتسليم خاشعة أبصارهن حسيرات مكاسيرا

يطأن في الطين والأقدام حافية كأنها لم تطأ مسكا وكافورا

من بات بعدك في ملك يسر به فإنما بات بالأحلام مغرورا

كم من دعوة مظلوم قصمت ظهر طاغية، والعدل أساس الملك: ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٩].

ها هو حمزة البسيوني الجبار الطاغية الظالم، كان يقول للمؤمنين وهو يعذبهم وهم يستغيثون الله جل وعلا -وما نقموا منهم إلا أن آمنوا بالله- يقول لهم متبجحًا: أين إلهكم الذي تستغيثون؛ لأضعنه معكم في الحديد. جل الله وتبارك سبحانه وبحمده.

ويخرج ويركب سيارته وظن أنه بعيد عن قبضة الله جل وعلا، وإذ به يرتطم بشاحنة ليدخل الحديد في جسده فما يخرجونه منه إلا قطعة قطعة.

«إن الله ليملي[(١)] للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته[(٢)]»[(٣)]

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [هود: ١٠٢].

ولما أهين الإمام أحمد بن حنبل من قبل ابن أبي دؤاد رفع يديه إلى من ينصر المظلوم وقال: اللهم إنه ظلمني وما لي من ناصر إلا أنت؛ اللهم احبسه في جلده وعذبه، فما مات هذا حتى أصابه الفالج فيبس نصف جسمه وبقي نصفه حيًّا، دخلوا عليه وإذا به يخور كما يخور الثور، ويقول: أصابتني دعوة الإمام أحمد ما لي وللإمام أحمد؟! ما لي وللإمام أحمد؟!

ثم يقول: والله لو وقع ذباب على نصف جسمي لكأن جبال الدنيا وقعت علي، أما النصف الآخر فلو قرض بالمقاريض ما أحسست به.

فإياك والظلم مهما استطعت فظلم العباد شديد الوخم

وفي الأثر أن الله عز وجل يقول: **«وعزتي وجلالي لا تنصرفون اليوم ولأحد عند أحد مظلمة، وعزتي وجلالي لا يجاوز هذا الجسر اليوم ظالم»**[(٤)]

لا تظلمن إذا ما كنت مقتدرًا ... فالظلم آخره يفضي إلى الندم

تنام عينك والمظلوم منتبه ... يدعو عليك وعين الله لم تنم

---

(١) **ليملي**: ليمهل.

(٢) **لم يفلته**: لم يخلصه ولم يتركه حتى يستوفي عقابه.

(٣) **متفق عليه**: البخاري (٤٤٠٩)، ومسلم (٦٧٤٦).

(٤) انظر «الكبائر» للذهبي (١ / ١٠٤).

البناء صعب والهدم سهل

علمتني الحياة في ظل العقيدة: أن البناء صعب جد صعب، والهدم سهل جد سهل؛ فما يبنى في مئات الأعوام من المدن والقرى والقصور والدور يمكن هدمه في لحظات.

وما يبنى من الأخلاق والقيم والمثل في قرون يمكن هدمه في أيام وليال.

ما رأيكم -يا أيها الأحبة- إن كان هناك ألف بان ووراءهم هادم واحد هل يقوم البناء؟ كلا لا يمكن أن يقوم.

فما رأيكم إن كان الباني واحدًا والهادم ألفًا.

أرى ألــف بــان لا يقومـوا لهــادم فكــيف بــبان خلفــه ألــف هــادم

وسائل في غالبها تهدم، ومجتمع في بعض أفراده يهدم، ومدارس في بعض أفرادها تهدم، وشوارع تهدم، وأندية تهدم، وبناة قلة إذا قيسوا بهؤلاء الهادمين؛ لكن الحق يعلو والباطل يسفل، فهل يستقيم الظل والعود أعوج:

أعمــى يقــود بــصيرًا لا أبــا لكــم قــد ضـل مــن كانــت العمــيان تهديــه

عدم اليأس

علمتني الحياة في ظل العقيدة: ألا أيئس وألا أقنط وأن أعمل وأدعو إلى الله ولا أستعجل النتائج، وأن أبذر الحب قطفت جنيه أم لم أقطف جنيه: فلا ييئس ﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴾ [يوسف: ٨٧]، ﴿ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ ﴾ [الحجر: ٥٦].

لو تأملت -أخي الحبيب- قصة نوح عليه السلام، الذي طالما دعا بالليل والنهار، بالسر والإعلان، ﴿ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَـٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ۝ ﴾ [نوح: ٧].

والدعوة لمدة تسعمائة وخمسين عامًا، ومع ذلك ما آمن معه إلا قليل، قيل: اثني عشر، وغاية ما قيل أنهم ثمانون، بمعنى أنه في كل خمس وثمانين سنة يؤمن واحدًا أو في كل اثنتي عشرة سنة يؤمن واحدًا، ولم ييئس صلوات الله وسلامه عليه وما كان له أن ييئس.

ها هو ﷺ كما في الصحيح يقول: «يأتي النبي ومعه الرجل، ويأتي النبي ومعه الرجلان، ويأتي النبي ومعه الرهط، ويأتي النبي وليس معه شيء»[(١)]، ولم ييئسوا صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وها هم أصحاب القرية -قرية أنطاكية - يرسل الله إليهم رسولين فكذبوهما فعزز بثالث فكذبوه، ثلاثة رسل إلى قرية واحدة، ثم يقوم داعية من بينهم قد آمن بالله الذي لا إله إلا هو، فما كان منهم إلا أن قتلوه، فما النتيجة؟

﴿ قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ۝ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ۝ ﴾ [يس: ٢٦، ٢٧].

يا أيها الأحبة...

النملة تلكم الحشرة الصغيرة تعمل وتجمع الحب في الصيف لتأكله في الشتاء، ينزل المطر فتخرجه من جحورها ومن مخازنها لتعرضه للشمس، ثم تعيده مرة أخرى، تحاول صعود الجدار فتسقط، ثم تحاول أخرى وتسقط، ثم تحاول مرتين وثلاثًا وأربعًا حتى تصعد الجدار، أفيعجز أحدنا أن يكون ولو كهذه الحشرة يا أيها الأحبة؟

بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين.

إن الله جل وعلا يقول: ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ۝ ﴾ [الغاشية: ١٧ - ٢٠].

ثم ماذا قال بعدها: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ۝ ﴾ [الغاشية: ٢١]، كأن الله عز وجل يريد من الذين يدعون إلى الله أن يأخذوا: صبر الإبل، وسمو السماء، وثبات الجبال، وذلة الأرض للمؤمنين، ثم بعد ذلك: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾ ليس لليأس مكان عند المؤمن، وليس للقنوط مكان عند المؤمن.

ها هو رجل يركب البحر وتنكسر به سفينته فيسبح إلى جزيرة في وسط البحر ويمكث ثلاثة أيام لم يذق طعامًا ولا شرابًا، ويئس من الحياة فقام ينشد ويقول:

إذا شاب الغراب أتيت أهلي ... وصار القار كاللبن الحليب

لا يمكن أن يكون القار كاللبن ولا يمكن أن يشيب الغراب، معنى ذلك أنه يئس

---

(١) صحيح: البخاري (٥٣٧٨)، (٥٤٢٠).

وأيقن بالموت، وإذا بهاتف يهتف ويقول:

عسى الكرب الذي أمسيت فيه يكون وراءه فرج قريب

وبينما هو يسمع هذا النداء وإذا بسفينة تمر فَيُلوح لها، فتأتي فتحمله وإذ على ظهر السفينة أحدهم يردد منشدًا:

عسى فرج يأتي به الله إنه له كل يوم في خليقته أمر

إذا لاح عسر فارج يسرا فإنه قضى الله أن العسر يتبعه اليسر

ولن يغلب عسر يسرين، فاعمل أخي! لا تيئس وابذر الحب.

فعليك بذر الحب لا قطف الجنى والله للساعين خير معين

ستسير فلك الحق تحمل جنده وستنتهي للشاطئ المأمون

بالله مجراها ومرساها فهل تخشى الردى والله خير ضمين

ولنا بيوسف أسوة في صبره وقد ارتمى في السجن بضع سنين

لا يأس يسكننا فإن كبر الأسى وطغى فإن يقين قلبي أكبر

في منهج الرحمن أمن مخاوفي وإليه في ليل الشدائد نجأر

النظر في أمور الدنيا لمن هو أدنى
وفي أمور الدين لمن هو أعلى

علمتني الحياة في ظل العقيدة: أن أنظر في أمور دنياي إلى من هو تحتي، فذلك جدير ألا أزدري نعمة الله علي.

وأن أنظر في أمور آخرتي إلى من هو فوقي فأجتهد اجتهاده لعلي ألحق به وبالصالحين، فلا أحقد على أحد ما استطعت ولا أحسد أحدًا ما استطعت.

يقول أحدهم عن ابن تيمية -عليه رحمة الله- وددت -والله- أني لأصحابي مثله لأعدائه وخصومه.

ويقول: والله! ما رأيته يدعو على أحد من خصومه بل كان يدعو لهم، جئته يومًا مبشرًا له بموت أكبر أعدائه، قال: فنهرني واسترجع وحوقل وذهب إلى بيت الميت فعزاهم

وقال: إني لكم مكان أبيكم فسلوا ما شئتم.

فسروا به كثيرًا ودعوا له كثيرًا وعظموا حاله ولسان حالهم: والله! ما رأينا مثلك:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم لطالما ملك الإنسان إحسان

لا يحمل الحقد من تعلو به الرتب ولا ينال العلى مَن طبعه الغضب

ماذا استفاد الحاقدون؟ ماذا استفاد الحاسدون؟ ما استفادوا إلا النصب، وما استفادوا إلا التعب، وما استفادوا إلا السيئات، ووالله! لن يردوا نعمة أنعمها الله على عبد أيًّا كان، ولله در الحسد ما أعدله! بدأ بصاحبه فقتله:

اصبر على مضض الحسود فإن صبرك قاتله

كالنار تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله

من عرف الحق هانت عنده التضحيات

علمتني الحياة في ظل العقيدة: أن من عرف الحق هانت عنده التضحيات، فيتعالى على متع الحياة وعلى زخارفها؛ لأنه ينتظر متعة أبدية سرمدية في جنات ونهر، في مقعد صدق عند مليك مقتدر: فيقدم مراد الله على شهواته ولذائذه، ويقدم مراد الله على كل ما يلذ لعينه وما يلذ لقلبه، فيسعد في دنياه ويسعد في أخراه، وفي الأثر أن الله جل وعلا يقول: **«وعزتي وجلالي ما من عبد آثر هواي على هواه -أي قدم مراد الله على لذائذ نفسه- إلا أقللت همومه، وجمعت له ضيعته، ونزعت الفقر من قلبه، وجعلت الغنى بين عينيه، واتجرت له من وراء كل تاجر»** (١)

هاهو أحد صحابة رسول الله ﷺ؛ دميم الخلقة لكنه رجل أعطاه الله من الإيمان ما أعطاه، وما ضره أنه دميم الخلقة، تقدم ليتزوج من أحد البيوت، فكان كلما تقدم إلى بنت رفضته؛ لأنه دميم الخلقة ولأنه قصير لا ترغب فيه النساء.

فجاء إلى النبي ﷺ يشكو أصحابه ويقول: يا رسول الله! أليس من آمن بالله وصدق بك يدخل الجنة ويزوج من الحور العين؟ -أو كما قال- قال: «بلى».

قال: فما بال أصحابك لا يزوجونني؟! قال: **«اذهب إلى بيت فلان وقل لهم: رسول الله**

---

(١) انظر «صفة الصفوة» (٢/ ٢٢٠)، و«تفسير التستري» (٢/ ١٣٦).

يطلب ابنتكم».

فذهب إلى بيت رجل من الأنصار وطرق الباب عليه فخرج صاحب البيت فسلم عليه وقال: رسول الله يطلب ابنتكم.

قالوا: نعم ونعمة عين! من لنا بغير رسول الله ﷺ؟! -أي نسب نريد غير هذا النسب- قال: لكنه يطلبها لي أنا.

قال: الله المستعان! -أو كما قال- ثم ذهب ليستشير زوجه فأخبرها بذلك فقالت: رسول الله يطلب ابنتنا؟! نعم ونعمة عين! قال: ولكنه يطلبها لفلان -وسماه باسمه- فما كان منها إلا أن ترددت وقالت: أما كان أبو بكر أو عمر أو عثمان؟ ألم يجد رسول الله غير هذا؟ وكانت البنت -التقية العابدة الزاهدة التي تقدم مراد الله على لذائذ وشهوات النفس- تسمع ذلك، فخرجت إليهم وقالت: ما بكم؟ قالوا: إن رسول الله يطلبك لفلان.

قالت: وما تقولان؟ قالوا: نستشير ونرى.

قالت: أتردان أمر رسول الله ﷺ؟! أين تذهبان من قول الله: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، ادفعوني إليه، فإن الله لا يضيعني.

ويسمع الرجل وينتقل إلى النبي ﷺ ويخبره الخبر، فتبرق أسارير وجهه ﷺ ويفرح بها ويدعو لهذه المرأة، ففازت بدعوته ﷺ.

قيل: إن المال كان يأتيها لا تعلم من أين يأتيها.

وفي ليلة الزفاف -ليلة الدخول- إذ بمنادي الجهاد ينادي: يا خيل الله! اركبي.

وهنا يقف موقفًا أيدخل على زوجته في أول ليلة في كامل زينتها أم يجيب داعي الله جل وعلا؟ فما كان منه إلا أن ترك هذه البنت وانطلق يطلب الحور العين، وذهب وانتهت المعركة وقام النبي يتفقد أصحابه فيقول: «**هل تفقدون من أحد؟**» قالوا: نفقد فلانًا وفلانًا.

وما فقدوا هذا الرجل -خفي تقي- فما كان منه ﷺ إلا أن قال: «**لكني أفقد أخي جليبيًا قوموا معي لنطلبه في القتلى**»، ذهب يبحث عنه ﷺ، ووجده قد قتل سبعة من المشركين وقتلوه، فأخذه النبي ﷺ على ذراعيه ومسح التراب عن وجهه، وقال: «**قتل**

سبعة من المشركين وقتلوه، هذا مني وأنا منه، هذا مني وأنا منه، هذا مني وأنا منه» [(١)]

ماذا قدم هذا الرجل؟ قدم قليلًا وأخذ كثيرًا وكثيرًا وكثيرًا.

وهاهو الشيخ الحامد أحد مشايخ الشام عليه رحمة الله، ذلك الورع التقي كما نحسبه، يتوفى أخوه الأكبر فيثني على علمه ودينه في يوم من الأيام، فيقولون له: كيف أولاده وزوجته؟ قال: لقد تحولت زوجته وأولاده إلى منزل آخر، والله! ما رأيتها خلال اثني عشر عامًا وهم يسكنون معي في المنزل إلا يوم خرجت وكانت مولية ظهرها لنا وألقت علينا السلام.

تعيش معه ولم ينظر إليها ولم يجلس معها وهم في بيت واحد؛ لأنه يعلم أن النبي ﷺ قال: «الحمو[(٢)] الموت» [(٣)] ولقد آثر أن يكون خطيب جامع على أن يكون رئيسًا للقضاة في عهده فرحمه الله.

وهاهو صحابي اسمه أبو لبابة يختلف مع يتيم على نخلة كانت بين بستانين لهما، يدّعي اليتيم الصغير أن هذه النخلة له، فيخرج النبي ﷺ ليعاين المكان، فإذا النخلة في بستان الصحابي أبي لبابة، فيحكم بها لهذا الصحابي، فتذرف دموع اليتيم.

ما كان لرسول الله ﷺ أن يغير حكمه أبدًا؛ لأنه العدل الحق،لكنه أعلن عن مسابقة، قال لأبي لبابة: «**أتعطيه النخلة ولك بها عذق في الجنة**» لكنه كان مغضبًا، إذ كيف يشكوه والحق له، وكان في المجلس رجل يبحث عن مثل هذه الأمنية، وهو أبو الدحداح عليه رضوان الله، قال: يا رسول الله! ألي العذق في الجنة إن اشتريت نخلته بحديقتي وأعطيتها هذا اليتيم؟ قال: لك العذق .

فما كان من أبي الدحداح إلا أن لحق بأبي لبابة رضي الله عنه فقال: أتبيعني نخلتك ببستاني كله؟ قال: بعتكها لا خير في نخلة شُكيت فيها لرسول الله ﷺ .

فباعه إياها، فذهب أبو الدحداح إلى بستانه ودخل ونادى أم الدحداح وأولاد أبي الدحداح: أن اخرجوا فقد بعناها من الله بعذق في الجنة.

حتى قيل: إن بعض أطفاله كان في أيديهم بعض الرطب فكان يقول: قد بعناه لله ويرميه في البستان.

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (١٩٧٩٣)، و أخرجه البيهقي في «الكبرى» (٦٦٣٣).

(٢) الحمو: أقارب الزوج من غير المحارم، كالأخ، والعم، والخال، وأبنائهم.

(٣) متفق عليه: البخاري (٤٩٣٤)، ومسلم (٥٨٠٣).

فخرج ولم يكتف بذلك ولم يرض ثمنًا للجنة إلا أن يقدم دمه وروحه لتزهق في سبيل الله عز وجل، وتأتي موقعة أحد ويشارك الجيش ويكون النبي ﷺ في حالة تعلمونها في آخر المعركة، قد شج وجهه وكسرت رباعيته -بأبي هو وأمي ﷺ- ولم ينس أصحابه في تلك اللحظة الحرجة، يمر بهم فإذا هو بأبي الدحداح فيمسح التراب عن وجهه ويقول: «يرحمك الله! كم من عذق مذلل الآن لأبي الدحداح في الجنة»[1] ماذا خسر أبو الدحداح؛ خسر ترابًا وشجيرات ونخيلات؛ لكنه فاز بجنة عرضها الأرض والسماوات، وذلك هو الفوز العظيم.

ومن عرف الحق هانت عنده التضحيات.

عدم احتقار الأشياء

علمتني الحياة في ظل العقيدة: ألا أحقر شيئًا مهما قل، بل أتعلم وأعمل وأداب وأداوم ما استطعت إلى ذلك سبيلًا، وأحب العمل أدومه وإن قل، والقليل إلى القليل كثير، وإنما السيل اجتماع النقط:

اليوم شيء وغدًا مثله	**من نخب العلم التي تلتقط**
يحصل المرء بها حكمة	**وإنما السيل اجتماع النقط**

حسن الظن بالمؤمنين

علمتني الحياة في ظل العقيدة: أن أحسن الظن بالمؤمنين وأن أحملهم على خير المحامل ما استطعت إلى ذلك سبيلًا؛ ذلك الخلق الذي لا يتصف به حقًا إلا المؤمنون: ﴿ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ [فصلت: ٣٥].

هاهو أبو أيوب بعد حادثة الإفك التي عاش فيها نبينا ﷺ شهرًا كاملًا من المحنة والابتلاء، يوم رمي في عرضه وفي صميم دعوته وفي قواعد رسالته، يأتي أبو أيوب قبل أن تنزل البراءة من فوق سبع سماوات إلى أم أيوب ويقول: يا أم أيوب ! أرأيت لو كنت مكان عائشة أيمكن أن تفعلي ما رميت به عائشة رضي الله عنها؟ قالت: لا والله! قال: فوالله ! لعائشة خير منك وخير من نساء العالمين.

---

(١) صحيح: مسلم (٢٢٨٣).

فقالت هي: يا أبا أيوب ! أرأيت لو كنت مكان صفوان أيمكن أن تفعل ما رمي به صفوان؟ قال: لا والله! قالت: فصفوان والله خير منك.

إحسان ظن بالمؤمنين، وهذا هو الخلق الذي لا يتصف به إلا المؤمنون، بل إن عائشة رضي الله عنها صاحبة المعاناة في حديث الإفك والتي بقيت وقتًا من الزمن لا يرقأ لها دمع، وقلبها يتفطر تسمع رجلًا يسب حسان؛ لأن حسان كان ممن وقع وتكلم في حديث الإفك، فتقول: دعوه أليس هو القائل:

فـــإن أبـــي وولـــده وعرضـــي — لعـــرض محمـــد مـــنكم وقـــاء

وهكذا علمتني الحياة.

أعدى الأعداء من يغدر بك

علمتني الحياة في ظل العقيدة: أن أعدى الأعداء من لا يواجهك وإنما يغدر بك ويقتلك ويتقمص شخصك ويتقمص عملك أحيانًا لينقض عليك وهو يتبسم، هذا هو أشرس الأعداء وهو أقوى الأعداء ظاهريًا وإلا ففي باطنه هو على شفا جرف هار:

إذا رأيـــت نـــيوب الـــضبع بـــارزة — فـــلا تظـــنن أن الـــضبع يبتـــسم

إنه النفاق والمنافقون:

إن الـــــنفاق لآفـــــة فـــــتاكة — إن أهملـــــت أدت إلى الأســـــقام

وقـــضت علـــى آمالـــنا في أمـــة — راياتهـــا في البحـــر كـــالأعلام

المنافقون: ذلكم السوس الذي ينخر في جسد الأمة المسلمة منذ عهد النبوة إلى اليوم وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، لا يريدون أن يتكلم داعية، لا يريدون أن يؤمر بمعروف ولا ينهى عن فاحشة فقبحهم الله وأرداهم في الحافرة: ﴿ وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحۡدَهُ ٱشۡمَأَزَّتۡ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِۖ وَإِذَا ذُكِرَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦٓ إِذَا هُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ﴾ [الزمر: ٤٥].

لهـم ألـف وجـه بعـدما ضاع وجههـم — فلـم تـدر فـيها أي وجـه تـصدق

﴿ مَّلۡعُونِينَۖ أَيۡنَمَا ثُقِفُوٓاْ ﴾ [الأحزاب: ٦١] فهم في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرًا.

إن المنافقين جراثيم تسمم، وبكتيريا عفونة يتربصون بالمؤمنين الدوائر، خذلوا

المؤمنين في أحد وتبوك وما زالوا يخذلونهم إلى اليوم وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، لسان حالهم:

لـــــن تـــــستريح قلوبـــــنا إلا إذا لم يـــبق في الأرض الفـــسيحة مـــسلم

يريدون غير ما يظهرون، ويسرون غير ما يبدون، قائدهم وكبيرهم ومنظرهم الذي علمهم الخبث ابن سبأ، الذي ظهر في عهد عثمان رضي الله عنه وأرضاه، واندس في الصفوف على أنه مسلم وكم من مندس في الصفوف على أنه مسلم:

ولـــو كـــان ســـهمًا واحـــدًا لاتقيـــته ولكـــــنه ســـــهم وثــــان وثالـــــث

يديـــر رحاهـــا ألـــف كـــسرى وقيـــصر وألـــــف مديـــــر للمديـــــر مديـــــر

قد تقولون: من هم؟ فنقول: ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ﴾ [محمد: ٣٠]، ظهر هذا الرجل في عهد عثمان وقام يجوب البلدان ليجمع قطاع الطرق والمفسدين ليكون عصابة من المنافقين وبعض المغفلين؛ ليفسد نفوسهم على عثمان وقد نجح إلى حد ما؛ ونجاحهم دائما مؤقت، وهو خسارة وإنما تسميته بالنجاح من باب تسمية اللديغ بالسليم؛ حتى إنه ليأتي في يوم من الأيام مع عصابته ليدفعهم ليحاصروا عثمان رضي الله عنه وأرضاه في بيته، لينفردوا به ليضربه الغافقي بحديدة معه ثم يضرب المصحف برجله وهو يقرأ منه رضي الله عنه، ليستدير المصحف ويستقر أخرى بين يدي عثمان ويتخضب بالدماء، ويغشى عليه ويُجر برجله رضي الله عنه وأرضاه.

ويأتي أحدهم بسيفه يريد وضعه في بطنه فتقيه إحدى النساء بيدها فيقطع يدها قطع الله دابره، ثم يتكأ بالسيف على صدر عثمان وبينما هو كذلك إذ وثب شقي آخر على صدره وبه رمق رضي الله عنه فطعنه تسع طعنات قائلًا: أما ثلاث منها فلله وأما ست فلشيء كان في صدري عليه، ثم يثب آخر عليه فيكسر ضلعًا من أضلاعه.

فلا إله إلا الله! إنها مجزرة دموية يدبرها السبئيون في كل مكان وفي كل زمان يريدون قطع رأس هذا الدين وكسر أضلاع معتنقيه والمبرر أنها لله، ولو صدقوا لقالوا: ست منها لما في الصدور: ﴿ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٠]، وبصيحة (لله) الصادرة من المنافقين في كل زمان ضاع كثير من شباب المسلمين وثبط شباب آخرون وكشفت أسرار وملئت سجون، وكلها لله كما يزعمون ولو صدقوا وأنصفوا لقالوا: ست منها لما في الصدور.

ووالله! إنها لكلها لما في الصدور، حتى وعثمان يذهب به ليدفن يرجم سريره ويحاول أن يمنع من الدفن في البقيع ويقتل معه عبدان كانا يدافعان عنه ويرمى بهما لتأكلهما الكلاب ولما تدفن جثتهما بعد.

فانظر -أخي الكريم- كيف وصلت الأمور بالمنافقين إلى أن يقدموا جثثًا أعزها الله طعامًا للكلاب، لهم أشد على المؤمنين من اليهود والنصارى: ﴿ وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ﴾ [المنافقون: ٤].

ولا إله إلا الله! يقول الحسن: «لو كان للمنافقين أذناب لما استطعنا أن نمشي في الطرقات» وهو يقول هذا على عهده رضي الله عنه وأرضاه، فما نقول نحن الآن؟! لكن نقول: كل سيلقى الله بسريرته وعلانيته وعندها يتبين من بكى ممن تباكى.

ويذكر أئمتنا أن رجلًا تاب من عمل كان يقوم به، وهو من أرذل الأعمال، كان يأتي على قبر الميت في أول ليلة من لياليه فيفتح القبر ويسرق الكفن ويذهب ليبيعه، هذه حالته لفترة طويلة ثم ترك هذا العمل، فلما قيل له: لم تركت هذا العمل؟ قال: والله! لقد فتحت ألف قبر من قبور أهل القبلة فما وجدت واحدًا منهم موجهًا إلى القبلة، وأنا أفتحه في أول ليلة من ليالي الدفن، فما الذي حوله عن القبلة؟! الذي حوله عن ذلك ما كان يظهر هنا ويسر، ما كان يخادع به هنا ظهر هناك.

بيننا وبينهم يوم تبلى فيه السرائر، بيننا وبينهم يوم يبعثر من في القبور ويحصل ما في الصدور وأقول مع ذلك:

فتنبهوا يا معشر الإسلام من ... أحلامكم فالضعف في الأحلام
لا تغفلوا عن حاقد يقظان ... يرقب نومكم كالوحش في الآجام
حرب المعاصي والنفاق صراحة ... ليست سوى حرب على الإسلام

لا تقل زال عصر النفاق فلكل عصر رجاله:

ما زال فينا ألوف من بني سبأ ... يؤذون أهل التقى بغيًا وعدوانا
ما زال لابن سلول شيعة كثروا ... أضحى النفاق لهم وسمًا وعنوانا
لكن أخي لا تبتئس فالكون يملكه ... رب إذا قال كن في أمره كانا

﴿ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

والمؤمنون على عناية ربهم يتوكلون لا خوف يرهبهم ولا هم في الحوادث

لو مر واحدهم على فرعون يجتز الرءوس لأراك في الإفصاح هارون وفي الإقدام موسى

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [المنافقون: ٨].

لن تنجح الدعوة بفضول الأوقات

علمتني الحياة في ظل العقيدة: أنه لا نجاح للدعوة ولا ثمرة لها إن نحن أعطيناها فضول أوقاتنا، إذا لم ننس معها طعامنا وشرابنا وراحتنا، إذا لم نجند كل طاقتنا فلن نفلح في إيصال الأمانة التي كلفنا الله بها.

يقول ﷺ: «بلغوا عني ولو آية» [١] لم يدع فرصة لكسول ولا لخامل ولا لتنبل ولا لبطال: «بلغوا عني ولو آية» ألا فليكن الوجود للإسلام، والرسالة الإسلام، والهوية الإسلام، له نحيا وبه نحيا وعليه نموت، حزننا لله وغضبنا لله ورضانا لله حياتنا لله ومماتنا لله، لسان حال الواحد منا:

قد اختارنا الله في دعوته وإنا سنمضي على سنته

فمنا الذين قضوا نحبهم ومنا الحفيظ على ذمته

ها هو نوح يدعو ويسعى -كما سمعتم قبل قليل- لا يفتر ولا ييئس بالليل والنهار لمدة تسعمائة وخمسين عامًا، ماذا بقي في حياة نوح لم يسخر للدعوة إلى الله جل وعلا؟ وما النتيجة؟ لم يؤمن معه كما سمعتم إلا قليل.

وهاهو ﷺ يحمل هم هذا الدين ويثقل الهم به حتى يواسيه ربه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ﴾ [فاطر: ٨].

يريد حياتهم ويريدون موته.

يريد نجاتهم ويريدون غرقه.

يأخذ بحجزهم وهم يتهافتون كالفراش على النار.

ثم انظر من بعده إلى صحابته رضوان الله عليهم تجد حياتهم قد أوقفت لله رب العالمين، في اليقظة يعملون لهذا الدين، وفي الليل يعملون لهذا الدين، أمانيهم حتى لخدمة

---

(١) صحيح: البخاري (٣٢٧٤).

هذا الدين، لم تكن حول قضايا شخصية ولا هموم أرضية،يجمع عمر أصحابه يومًا من الأيام ويقول: تمنوا.

فيقول أحدهم: أتمنى أن يكون معي ملء هذا البيت جواهر فأنفقها في سبيل الله.

فيقول الآخر: أتمنى أن يكون معي ملء هذا البيت ذهبًا أنفقه في سبيل الله.

فيقول عمر: لكني أتمنى أن يكون معي ملء هذا البيت رجالًا أستعملهم في طاعة الله.

حملوا هم هذا الدين:

لا تعرضن بذكرنا مع ذكرهم ... ليس الصحيح إذا مشى كالمقعد

فهل أعجبتك خصالهم:

إذا أعجبتك خصال امرئ ... فكنه يكن منك ما يعجبك

فليس على الجود والمكرمات ... إذا جئتها حاجب يحجبك

ليسأل كل واحد منا نفسه: كم جعل من وقته للدعوة إلى الله؟ ماذا قدم لدين الله عز وجل؟ ماذا قدم لنفسه؟ كم اهتدى على يديه؟

إن الإجابات واضحة ومخجلة، لم نعط للدعوة سوى فضول أوقاتنا وسوى فضول جهودنا إلا عند من رحم الله، لكن الفرصة لا زالت قائمة، فجد واجتهد عبد الله وسارع فستبقى طائفة على الحق منصورة، فجند نفسك أن تكون في ركاب هذه الطائفة.

لئن عرف التاريخ أوسا وخزرجًا ... فلله أوس قادمون وخزرج

وإنا لندعو الله حتى كأنما ... نرى بجميل الظن ما الله صانع

صوت الحق لا يخمد أبدًا

علمتني الحياة في ظل العقيدة: أن صوت الحق لا يخمد أبدًا إذ هو أبلج، والباطل زبد لجج.

الباطل ساعة والحق إلى قيام الساعة:

والحق يعلو والأباطل تسفل ... والحق عن أحكامه لا يسأل

وإذا استحالت حالة وتبدلت ... فالله عز وجل لا يتبدل

هاهو رسول الله ﷺ يقف في صف لوحده في بداية دعوته والبشرية كلها ضده، تريد إطفاء النور الذي جاء به، ومع ذلك خسئوا: ﴿ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾ [غافر: ٢٥]، ﴿ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [التوبة: ٣٢]، ولو كره المنافقون ولو كره الفاسقون.

ويأتي صحابته من بعده ﷺ فيصدعون بالحق لا يخشون في الله لومة لائم، ومن بعدهم وإلى اليوم وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها لا تزال هناك طائفة فيها خير عظيم قد أخبر بها النبي ﷺ.

ولئلا نيأس ولئلا نقنط؛ نأتي بهذه الحادثة: ها هو الشيخ عبد الحميد الجزائري رحمه الله كما ورد في تاريخ الجزائر: ورد أن المندوب الفرنسي أيام الاستعمار كان يقول بكل صراحة: جئنا لطمس معالم الإسلام، واستدعى الشيخ عبد الحميد وقال له: إما أن تقلع عن تلقين تلاميذك هذه الأفكار وإلا أرسلت الجنود لقفل المسجد وإخماد أصواتكم المنكرة.

فقال الشيخ بثبات المؤمن: إنك لن تستطيع.

فاستشاط غضبًا وأرغى وأزبد.

وقال: كيف؟ قال: إن كنت في حفل عرس علمت المحتفلين، وإن كنت في اجتماع علمت المجتمعين، وإن ركبت سيارة علمت الراكبين، وإن ركبت قطارًا علمت المسافرين، وإن دخلت السجن أرشدت المسجونين، وإن قتلتموني ألهبتم مشاعر المسلمين، وخير لكم ثم خير لكم ألا تتعرضوا للأمة في دينها، فوالله! ما نقاتلكم إلا بهذا الدين، ووالله! ما نقاتلكم إلا لهذا الدين:

إذا الله أحيا أمة لن يردها ... إلى الموت جبار ولا متكبر

ديننا الحق والكفر ذا دينهم ... كل دين سوى ديننا باطل

الأذى لا يهزم دعوة أبدًا

علمتني الحياة في ظل العقيدة: أن الأذى لا يهزم دعوة أبدًا، ولن يصل الطغاة إلى قلب مؤمن مهما فعلوا: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴾ [غافر: ٥١].

هاهو أبو بكر النابلسي -عليه رحمة الله- ذلك الزاهد الورع العالم يوم ملك الفاطميون الروافض بلاد مصر، فعطلوا الصلوات وحاربوا أهل السنة وذبحوا من علماء السنة الكثير، واستدعى المعز أبا بكر النابلسي -عليه رحمة الله- فقال له: بلغني عنك أنك قلت: لو أن معي عشرة أسهم لرميت الروم بتسعة ورميت الفاطميين بسهم. قال: لا.

فظن أنه رجع عن قوله، قال: كيف؟ قال: قلت: ينبغي رميكم -أيها الفاطميون- بتسعة ورمي الروم بالعاشر.

فأرغى وأزبد وأمر بضربه في اليوم الأول، ثم أمر بإشهاره في اليوم التالي، ثم أمر في اليوم الثالث بسلخه حيًا، فجيء بيهودي فجعل يسلخه وهو يقرأ القرآن حتى أشفق عليه اليهودي، فلما وصل في سلخه إلى قلبه طعنه بالسكين ليلقى ربه فكان يسمى بالشهيد:

علـــو في الحـــياة وفي المـــات

فهل انتهت دعوة أبي بكر بقتل أبي بكر؟ هل خلف أبو بكر أحدًا؟ نعم.

خلف أبو بكر ألف أبي بكر من أهل السنة وأهل السنة يقوم بذمتهم أدناهم:

إذا سـيد منا مضى قـام سـيد ... قـئول بما قـال الكـرام فعـول

وهكذا فكم عالم سقط على الطريق وعاشت كلمة الحق! وكم عالم عذب وأهين من أجل أن تبقى كلمة الحق عالية وبقيت كلمة الحق! وكم من عالم حرم جميع حقوقه من أجل أن يحفظ حق الله وبقيت كلمة الحق: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [المنافقون: ٨].

تـا لله مـا الدعـوات تهـزم بـالأذى أبـدًا ... وفي الـتاريخ بـر يمـيني

ضـع في يـدي القـيد ألهـب أضـلعي ... بالـسوط ضـع عنقـي علـى الـسكين

لـن تـستطيع حـصار فكـري سـاعة ... أو كـبح إيمانـي ورد يقـيني

فالـنور في قلـبي وقلـبي في يـدي ... ربـي وربـي حافظـي ومعـيني

سهام الليل لا تخطئ

علمتني الحياة في ظل العقيدة: أن سهام الليل لا تخطئ، ولكن لها أمد وللأمد انقضاء، فإذا ادلهمت الخطوب وضاقت عليك الأرض وعز الصديق وقل الناصر وزمجر الباطل

وأهله، ودعم الفساد وأهله، وكبت الحق وأهله، ونطق الرويبضة، وغدا القرد ليثًا، وأفلتت الغنم؛ فارفع يديك إلى من يقول: ﴿ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ ﴾ [غافر: ٦٠].

يـا مـن أجـبت دعـاء نـوح فانتـصر	وحملــته في فلكــك المــشحون
يـا مـن أحـال الـنار حـول خلـيله	روحًـا وريحانًـا بقـولك كونـي
يـا مـن أمـرت الحـوت يلفـظ يـونس	وسـترته بـشجيرة الـيقطين
يـا رب إنـا مـثله في كـربة	فـارحم عـبادًا كلـهم ذو الـنون
تم الكـلام وربـنا محمـود	ولـه المكـارم والعلـى والجـود
وعلـى الـنبي محمـد صـلواته	مـا نـاح قمـري وأورق عـود

سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين
وأشهد أن لا إله إلا هو سبحانه وبحمده.



[٧] هكذا علمتني الحياة

وهناك أناس عاشوا تحت رايتها لكنهم لم يقتبسوا من نورها، ولم ينهلوا من معينها.

وفي المقابل هناك رجال أفذاذ علموا بحقيقتها، فتنافسوا في الاستفادة من عظاتها.

فهاك نبذ من فوائدها، ووقفات مع بعض دروسها.

منزلة الكلمة الطيبة

الحمد لله الواحد الأحد، تعالى عن الشريك والصاحبة والولد، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهدِه الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير.

وأشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله، أرسله الله رحمة للعالمين، فشرح به الصدور، وأنار به العقول، وفتح به أعينًا عميًا، وآذانًا صُمًّا، وقلوبًا غُلفًا.

اللهم اجزِه عنا أفضل ما جزيت نبيًا عن أمته، وأعْلِ على جميع الدرجات درجته، واحشرنا تحت لوائه وزمرته، وأوردنا حوضه في الآخرة.

اللهم لا تجعل لقلوبنا -الآن- حوضًا تَرِدُه إلا كتابك وسُنة نبيك ﷺ أفضل صلاة وأتم سلام وأكمله وأعلاه.

اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين.

اللهم وبغض إلى قلوبنا البدعة والمبتدعين، وأرنا الحق حقًا، والباطل باطلًا، ووفقنا لاتباع الحق والعمل به، والدعوة إليه والصبر على الأذى فيه، ابتغاء وجهك وطلبًا لمرضاتك: ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾ ﴾ [آل عمران: ١٩٣، ١٩٤].

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ۝﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

سلام الله عليكم ورحمته وبركاته:

وأسأل الله العظيم رب العرش الكريم! أن يجمعنا وإياكم على الإيمان والذكر والقرآن، وأن يجعل آخر كلامنا من الدنيا لا إله إلا الله ثم يجمعنا أخرى سرمدية أبدية في دار:

قصورها ذهب والمسك طينتها ... والزعفران حشيش نابت فيها

أحبتي في الله...

لقاؤنا الليلة يتجدد مع الجزء الثاني من محاضرة: هكذا علمتني الحياة.

لكم غُنْم هذه المحاضرة، وعليَّ غُرْمها، لكم صفْوُها، وعلي كدرُها، هذه بضاعتي -وإن كنت قليل البضاعة- تُعرض عليكم، وهذه بنات أفكاري تُزفُّ إليكم؛ فإن صادفت قبولًا فإمساك بمعروف، وإن لم يكن فتسريح بإحسان، والله المستعان.

ما كان من صواب فمن الله الواحد المنَّان، وما كان من خطأ فمني ومن الشيطان، والله بريء منه ورسوله -والله المستعان- وأنا العبد الفقير القليل الضعيف المهوان.

نُبَذٌ مما سنح لي من المعارف تحت ظل العقيدة، أسأل الله أن يجعلها لي ولكم ذخرًا في يوم تتقلب فيه القلوب والأبصار، وأسأله أن يجعلها من صالحات الأعمال وخالصات الآثار، وباقيات الحسنات إلى آخر الأعمار.

رباه رباه!

يظنُّ النَّاسُ بي خيرًا وإنِّي ... لشرُّ النَّاسِ إنْ لم تعفُ عني

ومالي حيلةٌ إلا رجائي ... وعفوك إن عفوتَ وحُسْن ظَنِي

اللهم اجعلني خيرًا مما يظنون، واغفر لي مالا يعلمون.

وهكذا علمتني الحياة.

علمتني الحياة في ظل العقيدة: أنه لا خير ولا أفضل ولا أجمل ولا أحسن من كلمة طيبة: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ۝﴾ [إبراهيم: ٢٤، ٢٥].

أُخَيَّ إنَّ البر شيءٌ هينُ ... وجهٌ طليقٌ وكلامٌ لينُ

أمثلة توضح أهمية الكلمة الطيبة

هاهو أعرابي -كما يُروى- يدخل على رسول الله ﷺ وهو بين أصحابه فيمسكه بتلابيبه، ويهزُّه ويقول: «أعطني من مال الله الذي أعطاك، لا من مال أبيك ولا من مال أمك، فيقوم صحابة رسول الله ﷺ يريدون أن يؤدبوا من يعتدي على شخص محمد ﷺ، فيقول: «**على رِسلكم، المال مال الله**». أو كما قال ﷺ، ثم يأخذ هذا الأعرابي ويداعبه، ويلاطفه، ويذهب به إلى بيته ﷺ، فيقول: «**خذ ما شئت ودع ما شئت**»، لكن ماذا يأخذ من بيت محمد ﷺ، بيت لا توقد فيه النار شهرين ولا ثلاثة أشهر، بيت لم يشبع أهله من خبز الشعير، ولم يشبعوا من دَقَل التمر ورديء التمر، بيت يأتي السائل يسأل فلا يوجد -يومًا من الأيام- فيه سوى عنبة، وفي يوم من الأيام لا يوجد في بيته ﷺ سوى تمرة واحدة، لكنه خير بيت وجد على وجه الأرض، بأبي وأمي صاحب ذاك البيت ﷺ، ما ملك الأعرابي إلا أن قال: أحسنت وجزاك الله من أهل وعشيرة خيرًا.

قال: «**إن أصحابي قد وجدوا عليك** -أو كما قال ﷺ- **فاخرج إليهم، وقل لهم ما قلت لي الآن**»، فخرج، وجاء إليهم، فقال ﷺ: «**هل أحسنت إليك يا أعرابي؟**» قال: نعم وجزاك الله من أهل وعشيرة خيرًا، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أنك لرسول الله . فقال ﷺ: «**إنما مثلي ومثلكم ومثل هذا الأعرابي كرجل كانت له دابة فنفرت منه، فذهب يُطاردها، فجاء الناس كلهم وراءه يطاردون؛ فما ازدادت الدابة إلا نفارًا وشرادًا، فقال: دعوني أنا ودابتي، أنا أعلم بدابتي، فأخذ من خشاش الأرض ولوَّح به لهذه الدابة؛ فما كان منها إلا أن انساقت إليه، وجاءت إليه، فأمسك بها، أما إني لو تركتكم على هذا الأعرابي لضربتموه، فأوجعتموه؛ فذهب من عندكم على كفره، فمات، فدخل النار**»[1]

أرأيتم الكلمة الطيبة يا أيها الأحبة؟

فلا إله إلا الله! لا أفضل من دفع السيئة بالحسنة، إنها آسرة القلوب والأرواح، إنها مُسْتلة الأضغان والأحقاد والسخائم من القلوب: ﴿ وَمَا يُلَقَّنهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّنهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت: ٣٥].

المؤمن الحق -يا أيها الأحبة- كالشجرة المثمرة، كلما رُجمت بالحجارة أسقطت ثمرًا

---

(١) انظر «أخلاق النبي ﷺ» لأبي الشيخ (١٧٠)، و«تعظيم قدر الصلاة» (٢/ ٩٣١)، و«مجمع الزوائد» (١٤١٩٣)، و«سبل الصدى والرشاد في سيرة خير العباد» (٧/ ١١).

طيبًا؛ فيا له من قمة! ويا لها من مُثل!

هاهو يهودي معه كلب -واليهود لطالما استفزوا المسلمين يريدون أن يوقعوهم في شَرَكِهم- يمر على إبراهيم بن أدهم عليه رحمة الله ذلكم المؤمن، فيقول له: ألحيتك -يا إبراهيم - أطهر من ذنب هذا الكلب، أم ذنب الكلب أطهر من لحيتك؟

فما كان منه إلا أن قال -بهدوء المؤمن الواثق بموعود الله عز وجل-: إن كانت في الجنة فهي أطهر من ذنب كلبك، وإن كانت في النار لذنب كلبك أطهر منها.

فما ملك هذا اليهودي إلا إن قال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدًا رسول الله، والله ما هذه إلا أخلاق الأنبياء: ﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ [فصلت: ٣٤، ٣٥].

أقول هذا لعموم الناس، أما نحن -الدعاة وطلبة العلم والمفترض في الحاضرين أن يكونوا طلبة علم- ليس لنا أن ننزل عن مستوى دعوتنا إلى التراشق برديء الكلام، ليس لنا أن ننزل إلى سفاسف الأمور، ولو حاول غيرنا جرَّنا إلى هذه الأمور، ليكن تحركنا ذاتيًا، فلا يحركنا غيرنا؛ لئلا نُجرَّ إلى معارك وهمية خاسرة -ولا شك- ثم علينا ألا نغضب لأنفسنا، بل علينا أن نسمو بأنفسنا، عن كل بذيء، وعن كل ساقط.

لَو كلُّ كلبٍ عَوى ألقَمته حجرًا ... لأصبحَ الصخرُ مثقالاً بدِينار

ومَنْ عاتبَ الجُهَّال أتعب نفسه ... ومَنْ لام مَنْ لا يعرف اللوم أفسدَا

توضيح لحقيقة الكلمة الطيبة

وليس معنى ذلك أن نستسلم فلا ندافع، لكن المدافعة أحيانًا -يا أيها الأحبة- تكون بالسكوت، والمدافعة أحيانًا تكون بالاختفاء، والمدافعة أحيانًا تكون بالإعراض عن الجاهلين.

في يوم أحد -وما أدراكم ما يوم أحد - يوم أصاب المسلمين ما أصابهم، نادى أبو سفيان -وكان لا زال مشركًا- رضي الله عنه وأرضاه: هل فيكم محمد؟ فلم يرد ﷺ، ولم يأمر أحدًا بالرد.

هل فيكم أبو بكر؟ هل فيكم عمر؟ فلم يُجبه أحد.

مع أن الجواب قد كان أغيظَ له، لكن الموقف كان يستلزم السكوت من باب قول القائل:

إذا نطقَ السفيه فلا تُجْبهُ ... فَخَير من إجابته السكوتُ

فإنْ كلمْتَه فرَّجت عنهُ ... وإنْ خَلَّيته كمدًا يموتُ

ومن باب قول الآخر:

والصَّمتُ عنْ جاهلٍ أو أحمق شرفٌ ... وفيه أيضًا لصونِ العِرض إصلاحُ

أما ترى الأُسْد تُخْشى وهي صامتةٌ ... والكَلْبُ يُخْزى لعَمر الله نبَّاحُ

هاهو الإمام أحمد عليه رحمة الله في مجلسه وبين تلاميذه، ويأتي سفيه من السفهاء فيسبُّه ويشتمه ويقذعه بالسب والشتم، فيقول طلابه وتلاميذه: يا أبا عبد الله ! رُدّ على هذا السفيه.

قال: لا والله! فأين القرآن إذًا؟ ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا ﴾ [الفرقان: ٦٣].

إذا سبني نَذلٌ تزايدتُ رفعةً ... وما العيبُ إلا أن أكونَ مُسابِبه

ولو لم تكن نَفْسِي عليَّ عزيزةً ... لمكنْتُها من كلِ نذل تُحاربه

استخدام الكلمة الطيبة في الدعوة إلى الله

هاهو مصعب بن عمير رضي الله عنه- سفير الدعوة الأول إلى المدينة النبوية - يأتيه أسيد بن حضير بحربته -وهو ما زال مشركًا- فيقول لمصعب: ما الذي جاء بك إلينا؟ تسفه أحلامنا، وتشتم آلهتنا، وتُضيع ضعفاءنا، اعتزلنا إن كنت في حاجة إلى نفسك، وإلا فاعتبر نفسك مقتولًا

فما كان من مصعب -بهدوء المؤمن الواثق بموعود الله وبنصر الله لهذه الدعوة- إلا أن قال له -في كلمات هادئة-: أو تجلس فتسمع؛ فإن رضيت أمرنا قبلته، وإن كرهته كففنا عنك ما تكره؟ قال: لقد أنصفت -وكان عاقلا لبيبًا- فكلمه مصعب رضي الله عنه عن الإسلام، وقرأ عليه القرآن؛ فتهلَّل وجهه، وبرقت أسارير وجهه، واستهل وجهه، وقال: كيف تصنعون إذا أردتم الدخول في هذا الدين؟ -جاء ليقتله، والآن يريد أن ينهل مما نهل منه مصعب !- قال: اغتسل وتطهر، واشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله ﷺ.

أسلم الرجل وفي نفس الوقت أصبح داعية.

يقول: إن وراءي رجلًا إن اتبعكم لم يتخلف عنه أحد من قومه -هو سعد بن معاذ- وذهب إلى هذا الرجل، واستفزه بكلمات معينة، فجاء هذا يركض إلى مصعب، ويقول: إما أن تكف عنا وإما أن نقتلك، قال: أو تجلس فتسمع؛ فإن رضيت أمرنا قبلته، وإن لم ترضَه كففنا عنك ما تكره؟ فجلس، فقام يخبره عن الإسلام ويبين له هذا الدين، فما كان منه إلا أن استهل وجهه، وبرقت أسارير وجهه، وقال: كيف يفعل من يريد الدخول في هذا الدين؟ قال: اغتسل وتطهر، واشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله ﷺ ففعل، ثم خرج من توِّه داعية إلى قومه، فذهب إلى بني عبد الأشهل، وقال: يا بني عبد الأشهل -وهم قومه-! كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيدنا، وأفضلنا رأيًا، وخيرنا، وأيمننا.

قال: فإن كلامكم عليَّ حرام رجالكم والنساء حتى تؤمنوا بالله الذي لا إله إلا هو وتُصدقوا برسالة محمد ﷺ، يقول: فلم يبق رجل ولا امرأة في تلك الليلة إلا مسلم أو مسلمة.

فلا إله إلا الله! الكلمة الطيبة الكلمة الطيبة! الإحسان الإحسان، والله يحب المحسنين.

أَحسنْ إلى النَّاس تَستعبدْ قلوبَهمُ ... لطالما استعبد الإنسانَ إحسانُ

ضرورة الاجتماع والألفة بين المؤمنين

علمتني الحياة في ظل العقيدة: أن الاجتماع والألفة بين المؤمنين قوة، وأن التفرق والتشتت ضعف؛ فإن الإنسان قليل بنفسه، كثير بإخوانه.

وما المرءُ إلا بإخوانه ... كما تقبضُ الكفُ بالمِعْصمِ

ولا خير في الكفِّ مقطوعةً ... ولا خير في السَّاعد الأَجذمِ

يقول عمر رضي الله عنه وأرضاه: «ما أُعطي عبد بعد الإسلام خيرًا من أخ صالح يذكره بالله؛ فإذا رأى أحدكم من أخيه ودًّا فليتمسك به».

تمسَّك به مَسْكَ البخيلِ بماله ... وعَضَّ عليه بالنواجذِ تَغْنم

ويقول الحسن عليه رحمة الله: «إخواننا أحب إلينا من أهلنا وأولادنا؛ لأن أهلنا يذكروننا بالدنيا، وإخواننا يذكروننا بالآخرة، ويُعينوننا على الشدائد في العاجلة».

إنْ يختلفْ نسبٌ يؤلِفْ بيننا ... دينٌ أقمناه مقامَ الوالدِ

أو يختــــلفُ مــاءُ الوِصَــال فماؤنــا   عـــذبٌ تحـــدَّر مـــنْ غمـــامٍ واحـــدِ

يقول عمر رضي الله عنه: «والله! لولا أن أجالس إخوة لي ينتقون أطايب القول كما يُلتقط أحدكم أطايب الثمر، لأحببت أن ألْحق بالله الآن».

وهاهي جماعة من النمل تصادف بعيرًا، فيقول بعضها: تفرقن عنه لا يحطمكنَّ بخفه، فقالت حكيمة منهن: اجتمعن عليه تقتلنه.

تأبـــى الـــرماحُ إذا اجـــتمعن تكـــسرًا   وإذا انفـــــردت تكـــــسرت آحـــــادا

بنيان واحد جسد واحد أمة واحدة:

لـــو كبِّـــرت في جمـــوع الـــصين مِـئذنةٌ   سمعـــت في الغـــربِ تهلـــيلَ المـــصلينَ

﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

أهمية اغتنام الفرص في الطاعات

علمتني الحياة في ظل العقيدة: ألا تضيع فرصة في طاعة، فإن لكل متحرك سكونًا، ولكل إقبال إدبارًا، ورحم الله أبا بكر ورضي الله عنه وأرضاه يوم يقول ﷺ، كما في صحيح مسلم: «من أصبح منكم اليوم صائمًا؟» قال أبو بكر: أنا.

قال ﷺ: «من تبع منكم اليوم جنازة؟» قال أبو بكر: أنا.

قال ﷺ: «من عاد منكم اليوم مريضًا؟» قال أبو بكر: أنا.

قال ﷺ: «من تصدق اليوم على مسكين؟» قال أبو بكر: أنا.

قال ﷺ: «ما اجتمعن في امرئ إلا دخل الجنة» (١)

مـــن لـــي بمـــثلِ مـــشيك المعـــتدل   تمـــشي الهُويـــنا وتجـــي في الأول

صور من مبادرة أبي بكر في الطاعات

خرج أبو بكر من عند رسول الله ﷺ ولم يكن عمره في الإسلام بضعة أيام، وعاد وهو يقود الكتيبة الأولى من كتائب هذه الأمة، فعاد وقد أدخل في دين الله ستة من العشرة

(١) صحيح: مسلم (٢٤٢١)، (٦٣٣٣).

المبشرين بالجنة، يأتي يوم القيامة، وهم في صحيفة حسناته، وبعضنا يعيش عشرين عامًا وثلاثين عامًا وستين عامًا ومائة عام، وما هدى الله على يديْه رجلًا واحدًا! إلى الله نشكو ضعفنا وتقصيرنا.

ليس هذا فحسب؛ بل يمر يومًا من الأيام على بلال رضى الله عنه وأرضاه وهو يُعذب في رمضاء مكة، وبه من الجهد ما به، وهو يقول: أَحَدٌ أحدٌ.

فيقول: ينجيك الله الواحد الأحد.

ويذهب ويرى أنها فرصة لا تتعوَّض لإنقاذ هؤلاء الضعفاء؛ لئلا يُفتنوا في دينهم فيصفي تجاراته، ويصفي أمواله، ويأتي إلى أمية بن خلف، ويقول: أتبيعني بلالًا؟ قال: أبيعكه فلا خير فيه، فيعطيه خمس أواقٍ ذهبًا، فيأخذ هذه الخمس، ويقول: والله لو أبيت إلا أوقية واحدة لبعتك بلالًا.

قال: ووالله لو أبيت -يا أمية - إلا مائة أوقية لأخذته منك[1]

لأن لأبي بكر موازين ومقاييس ليست لهذا ولا لغيره من البشر، فرضي الله عنه وأرضاه.

يقول أبوه: إن كنت ولابد منفقًا أموالك فأنفقها على رجالٍ أشداء ينفعونك في وقت الشدائد، فيقول: أبتاه! إنما أريد ما أريد.

ماذا يريد أبو بكر رضي الله عنه وأرضاه؟

إنه يريد ما عند الله ويريد وجه الله والدار الآخرة، يقول أناس: ما أعتق بلالًا إلا ليدٍ كانت له عند بلال؛ يعني: لمعروف أسداه بلال إليه، فأراد أن يكافئَه بذلك، فيتولى الله سبحانه وتعالى الرد من فوق سبع سماوات: ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ١٩ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٠ وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ٢١ ﴾ [الليل: ١٩- ٢١].

رضي الله عنه وأرضاه، لقد كان سباقًا إلى كل فرصة يغتنمها.

وهاهو خيثمة بن الحارث كان له ابن يسمى سعد بن خيثمة بن الحارث، ولما أراد المسلمون النفور إلى بدر، وأرادوا الجهاد في سبيل الله؛ فما كان من هذا الرجل إلا أن قال لابنه: يا بني! تعلم أنه ليس مع النساء من يحميهن، وأريد أن تبقى معهن.

---

(١) انظر «مصنف ابن أبي شيبة» (٧/ ٣٣٧)، و«مختصر تاريخ دمشق» (٢/ ٢٠٤).

ورأى هذا الشاب أن هذه فرصة لا تتعوض للجهاد في سبيل الله، قال: والله يا أبتاه! لا أجلس مع هؤلاء النساء.

للنساء رب يحميهن، والله! ما في الدنيا شيء تطمع به نفسي دونك، والله! لو كان غير الجنة -يا أبتاه- لآثرتك به، ولكنها الجنة، والله لا أوثر بها أحدًا.

ثم ذهب الشاب، وترك الشيخ الكبير مع هؤلاء النساء، ذهب يطلب ما عند الله، فاستشهد في سبيل الله -بإذن الله نحسبه شهيدًا، ولا نزكي على الله أحدًا- يقول أبوه بعد ذلك: والله! لقد كان سعد أعقل مني، أواه أواه! لقد فاز بها دوني، والله! لقد رأيته البارحة في المنام: يسرح في أنهار الجنة وثمارها، ويقول: أبتاه! الْحَقْ بنا فإنَّا قد وجدنا ما وعد ربنا حقًّا.

موقف أبي خيثمة في غزوة تبوك

وهاهو أبو خيثمة يتخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، وكانت له زوجتان، جاءهما يومًا فوجد كل واحدة منهما قد رشَّت عريشها بالماء، وبردت له الماء، ووضعت له الطعام؛ فلما رأى ذلك بكى وقال: أواه أواه! يكون رسول الله ﷺ في الحر والريح، وأبو خيثمة في الظل والماء البارد؟! والله! ما هذا بالنصف.

ورأى أنها فرصة لو فاتته لعُدَّ من المنافقين، قال: والله! لا أذوق شيئًا حتى ألْحق برسول الله ﷺ.

فهيَّأ زاده، وهيأ راحلته، وانطلق وحيدًا في صحاري يبيد فيها البيد، ويضيع فيها الذكي والبليد.

ولَحَق بالنبي ﷺ فأدركه قرب تبوك، ورآه الناس فقالوا: راكب مقبل يا رسول الله. فقال ﷺ: «**كن أبا خيثمة ! كن أبا خيثمة**» قال الصحابة: هو أبو خيثمة[1]

فدعا له رسول الله ﷺ . ففاز بدعوة النبي ﷺ، ويا له من فوز!

مسارعة الحسن البصري في الدعوة إلى الله

وهاهو الحسن عليه رحمة الله: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۗ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ ﴾ [يوسف: ١١١]، كانوا سباقين إلى الخير، لا يضيعون فرصة لطاعة الله عز وجل.

---

(١) صحيح: مسلم (٧١٩٢).

والٍ من الولاة في عهده بنى له بناء في واسط وزخرفه، وأكثر فيه من الزخرفة، ثم دعا الناس للفرجة عليه والدعاء له.

فما كان من الحسن يوم اجتمع الناس كلهم إلا أن رآها فرصة لا تُعوَّض أن يعظ الناس، ويذكرهم بالله، ويزهدهم في الدنيا، ويرغبهم فيما عند الله جل وعلا، فما كان منه إلا أن انطلق، ثم وقف بجانبهم هناك، فحمد الله وأثنى عليه، فاتجهت إليه القلوب والأبصار، ثم كان مما قال: لقد نظرتم إلى ما ابتنى أخبث الأخبثين فوجدنا أن فرعون بنى أعلى مما بنى، وشيَّد أعلى مما شيَّد، أليس هو القائل: ﴿ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ﴾ [الزخرف: ٥١]، فأجرى الله الأنهار من فوق رأسه؟

ليته يعلم أن أهل السماء مقتوه، وأن أهل الأرض قد غرُّوه واندفع يتدفق في موعظته حتى أشفق عليه بعض السامعين من هذا الوالي، فقالوا: حسبك يا أبا سعيد ! حسبك.

قال: لا والله! لقد أخذ الله الميثاق على أهل العلم ليبيننَّه للناس ولا يكتمونه: «من كتم علمًا ألجمه الله بلجام من نار» (١)

ويسمع ذلك الوالي، ويأتي لجُلاسه يتميز من الغيظ، ويدخل عليهم، ويقول: تبًا لكم، وسحقًا، وهلاكًا لكم وبعدًا، يقوم عبد من عبيد أهل البصرة فيقول فينا ما شاء أن يقول، ثم لا يجد من يرده أو ينكر عليه، والله لأسقينَّكم من دمه يا معشر الجبناء! ثم أمر بالسيف والجلاد والنطع، وما كان منه إلا أن استدعى الحسن عليه رحمة الله.

فجاء الحسن، ويوم رأى السيف ورأى الجلاد، تمتم بكلمات لم يعرف الحجاب والحُراس ماذا يقول؟

ويوم دخل، وقد خاف الله؛ خوَّف الله منه كل شيء، دخل على هذا الوالي فما كان منه إلا أن قال: أهلًا بك أيها الإمام! وقام يرحب به، ويقول: هاهنا هاهنا يا أبا سعيد ! حتى أجلسه على مجلسه، وعلى كرسيه، وجلس بجانبه، يسأله بعض الأسئلة ويقول له بعد ذلك: أنت أعلم العلماء يا أبا سعيد ! انصرف راشدًا.

وهذا بعد أن طيَّب لحيته، فخرج من عنده فلَحِق به أحد الحجاب، وقال له: والله! لقد دعاك لغير ما فعل بك، فماذا كنت تقول؟ قال: دعني ونفسي.

---

(١) حسن صحيح: أخرجه أحمد (١٠٤٩٢) (١٠٦٠٥)، والألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٢١)، وفي «صحيح الجامع» (٦٥١٧).

قال: أسألك بالله! ماذا كنت تقول وأنت داخل؟ قال: كنت أقول: يا وليّ نعمتي، وملاذي عند كربتي، اجعل نقمته عليّ بردًا وسلامًا، كما جعلت النار بردًا وسلامًا على إبراهيم.

اتصل بالله عز وجل ولم يضيع هذه الفرصة، وعلم الله صدقه، فأنجاه وأنقذه وحفظه: ﴿ فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾ [يوسف: ٦٤].

فالحياة -يا أيها الأحبة- فرص من اغتنمها فاز، ومن ضيَّعها خسر: ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [الحديد: ٢٠].

إذا هبت رياحُك فاغتنمها فإن لكل خافقةٍ سكون
ولا تغفل عن الإحسانِ فيها فلا تدري السكون متى يكونُ
وإن درَّت نياقُك فاحتلبها فلا تدري الفَصيل لمن يكونُ

***

أترجو أن تكون وأنت شيخٌ كما قد كنت أيام الشبابِ
لقد خدعتك نفسك ليس ثوب دريس كالجديد من الثياب

الاشتغال بإصلاح عيوب النفس

علمتني الحياة في ظل العقيدة: ألا أعيب أحدًا ما استطعت إلى ذلك سبيلًا، وأن أشتغل بإصلاح عيوبي، وإنها لكبيرة جِد كبيرة، أما يستحي من يعيب الناس وهو معيب؟!

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلُّها كفى المرء نبلاً أن تُعَدَّ معايبه

***

من ذا الذي ما ساء قط ومن له الحسنى فقط
تريد مبرأً لا عيب فيه وهل نارٌ تَفوح بلا دُخَان

هاهو عمر بن عبد العزيز عليه رحمة الله ورضوانه، يختار جلاسه اختيارًا، ويشترط عليهم شروطًا، فكان من شروطه: ألا تغتابوا، ولا تعيبوا أحدًا في مجلسي حتى تنصرفوا.

السهل أسهلُ مسلكًا فدع الطريق الأوعَرا
واحفظ لسانك تسترح فلقد كفى ما قد جرى

هاهو ابن سيرين عليه رحمة الله كان إذا ذُكر في مجلسه رجل بسيئة بادر فذكره بأحسن ما يعلم من أمره، فيذب عن عرضه.

فيذب الله عز وجل عن عرضه، سمع يومًا أحد جلاسه يسبّ الحجاج بعد وفاته، فأقبل مغضبًا، وقال: صهٍ يا بن أخي! فقد مضى الحجاج إلى ربه، وإنك حين تقدم على الله ستجد أن أحقر ذنب ارتكبته في الدنيا أشد على نفسك من أعظم ذنب اجترحه الحجاج، ولكل منكما -يومئذ- شأن يغنيه، واعلم يا بن أخي! أن الله عز وجل سوف يقتص من الحجاج لمن ظلمهم، كما سيقتص للحجاج ممن ظلموه، فلا تشغلن نفسك بعد اليوم بعيب أحد، ولا تتبع عثرات أحد:

ومن يتبع جاهدًا كل عثرةٍ يجدْها ولا يسلم له الدهر صاحبُ

يا عائب الناس وهو معيب! اتق الله، أعراض المسلمين حفرة من حفر النار، وخواص المسلمين هم العلماء، والوقيعة فيهم عظيمة جد عظيمة، لحومهم مسمومة، وعادة الله في هتك أستار منتقصيهم معلومة، ومن أطلق لسانه في العلماء بالسب بلاه الله قبل موته بموت القلب:

وكم من عائبٍ قولا صحيحًا وآفته من الفَهم السقيمِ
ومن يك ذا فمٍ مرٍ مريضٍ يجدْ مُرًا به الماءَ الزلالا
فإن عبت قومًا بالذي فيك مثْلُه فكيف يعيبُ الناسُ من هو أعورُ؟
وإن عبت قومًا بالذي ليس فيهمُ فذلك عند اللهِ والناس أكبرُ

من طلب أخًا بلا عيب صار بلا أخ، ألا فانظر لإخوانك بعين الرضا.

فعين الرضا عن كلِّ عيبٍ كليلة ولكن عين السخطِ تُبْدي المساويا
وكيف ترى في عين صاحبك القذى ويخفى قذى عينيك وهو عظيمُ

بعض الإخوة ظلمة بعض الإخوة غير منصفين، يرون القذاة في أعين غيرهم، ولا يرون الجذع في أعينهم، فحالهم كقول القائل:

إن يسمعوا سُبّةً طاروا بها فرحًا مني وما يسمعوا من صالح دفنوا
صمٌ إذا سمعوا خيرًا ذُكِرت به وإنْ ذُكرت بسوءٍ عندهم أذِنوا
إن يعلموا الخير أخفوه وإن يَعلموا شرًا أذاعوا وإن لم يعلموا كذبوا

طوبى لمن شغلته عيوبه عن عيوب غيره، وكان حاله:

لنفسي أبكي لستُ أبكي لغيرها لنفسي عن نفسي من الناس شاغلُ

والكيِّس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنى على الله الأمانيّ.

أهمية اختيار الأصحاب

علمتني الحياة في ظل العقيدة: أن الصاحب ساحب، وأن القرين بالقرين يقتدى، وأن الناس أشكال كأشكال الطير؛ الحمام مع الحمام، والغراب مع الغراب، والدجاج مع الدجاج، والنسور مع النسور، والصقور مع الصقور، وكل مع شكله.

والطيور على أشكالها تقع. والخليل على دين خليله.

فَفِرّ من خليل السوء فرارك من الأسد؛ فهو أجرب مُعدٍ، يقودك إلى جهنم، إن أجبته قذفك فيها، وسيكون لك عدوًا بين يديْ الواحد الأحد: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ۝٦٧ ﴾ [الزخرف: ٦٧].

هاهو عقبة بن أبي معيط كان يجلس مع النبي ﷺ في مكة ولا يؤذيه وكان كافرًا، وليس كبقية قريش إذا جلسوا معه ﷺ يؤذونه، وكان لابن أبي معيط صديق كافر غائب بالشام، وقد ظنت قريش أن عقبة قد أسلم لما يعامل النبي ﷺ من معاملة حسنة، فلما قدم خليله من الشام، قالت قريش: هاهو خليلك ابن أبي معيط قد أسلم.

فغضب خليله وقرينه غضبًا شديدًا، وأبى أن يكلم عقبة، وأبى أن يسلم عليه، حتى يؤذي النبي ﷺ، فاستجاب عقبة له وآذى النبي ﷺ حتى إنه خنقه بتلابيبه ذات مرة، وحتى إنه بصق في وجهه الشريف مرة أخرى، فاستأثر بكل حقارة ولؤم على وجه الأرض في تلك الساعة، وكان عاقبته أن مات يوم بدر كافرًا، فأنزل الله فيه وفي أمثاله قرآنًا يتلى إلى يوم القيامة: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ۝٢٧ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ۝٢٨ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ۝٢٩ ﴾ [الفرقان: ٢٧- ٢٩].

فإياك وصديق السوء؛ فإنه يعدي كما يعدي الصحيحَ الأجربُ.

إذا كنت في قومٍ فصاحب خيارَهم ... ولا تصحب الأرْدَى فتردى مع الردِي

عن المرءِ لا تسأل وسلْ عن قرينِه ... فكلُّ قرين بالمُقَارن يقتدي

من جالس الجُرب يومًا في أماكِنها ... لو كان ذا صحةٍ لا يأمن الجربا

***

أنت في الناس تقاسُ ... بالذي اخترتَ خليلاً

فاصحبْ الأَخْيار تعلُ ... وتنلْ ذكرًا جميلاً

ضرورة موافقة الأعمال الأقوال

علمتني الحياة في ظل العقيدة: أن أعمل بما أقول ما استطعت إلى ذلك سبيلًا، ومن لم يعمل بما يقول، ويدعو له؛ فإنما يسخر من نفسه أولًا

كالعيس في البيداء يقتلها الظما ... والماءُ فوق ظهورِها محمولُ

***

كحاملٍ لثياب الناس يغسلُها ... وثوبُه غارق في الرجس والنجس

ترجو النجاةَ ولم تسلكْ مسالِكها ... إن السفينةَ لا تجري على اليبس

ركوبك النَّعش ينْسيك الركوب ... على ما كنت تركب من بغلٍ ومن فرسِ

يوم القيامة لا مالٌ ولا ولدٌ ... وضمة القبرِ تُنْسِي ليلةَ العُرُس

***

ابدأ بنفسك فانهها عن غيِّها ... فإذا انتهت عنه فأنت حكيمُ

فهناك ينفع ما تقول ويُشتفى ... بالوعظ منك وينفع التعليمُ

لا تنْهَ عن خلقٍ وتأتي مثله ... عار عليك إذا فعلتَ عظيمُ

فاحرص على ما ينفعك، واعمل بما تقول ما استطعت: ﴿ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ ﴾ [الصف: ٣].

إرضاء الناس غاية لا تدرك

علمتني الحياة في ظل العقيدة: أن إرضاء الناس غاية لا تدرك؛ فإرضاء البشر ليس في الإمكان أبدًا؛ لأن علمهم قاصر، ولأن عقولهم محدودة، يعتَوِرُهم الهوى، ويعتَوِرُهم النقص، ويتفاوتون في الفهم والإدراك، فلا يمكن إرضاؤهم.

فمَن تُرضي إذًا؟ أرض الله جل وعلا وكفى.

هاهو رجل يبني له بيتًا، فيضع الباب جهة الشرق، فيمر عليه قوم، فقالوا: هلا وضعته جهة الغرب لكان أنسب.

فيمر آخرون ويقولون: هلا وضعته جهة الشمال لكان أجمل.

ويمر آخرون، فيقولون: هلا وضعته جهة الجنوب لكان أنسب.

وكلٌّ له نظر، ولن ترضيهم جميعًا، فأرض الله وكفى.

هاهو رجل وابنه ومعهما حمار، ركب الأب وترك الابن ومشيا، فمروا على قوم، فقالوا: يا له من أب ليس فيه شفقة ولا رحمة، يركب ويترك هذا الابن المسكين يمشي وراءه! فما كان منه إلا أن نزل، وأركب هذا الطفل، ومشى، فمر على قوم آخرين، فقالوا: يا له من ابن عاق يترك أباه يمشي وراء الدابة وهو يركب الدابة!، فركب الاثنان على الدابة، ومروا على قوم آخرين، فقالوا: يا لهم من فجرة حمّلوها فوق طاقتها! فنزل الاثنان ومشيَا وراء الدابة، فمروا على قوم، فقالوا: حمقى مغفلون يُسخر الله لهم هذه الدابة، ثم يتركونها تمشي ويمشون وراءها!

﴿ وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ [المؤمنون: ٧١].

من ترضي أخي في الله؟ أرض الله وكفى، من أرضى الله بسخط الناس، رضي الله عليه وأرضى عنه الناس.

ومن أرضى الناس بسخط الله، سخط الله عليه، وأسخط عليه الناس. لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

أما إرضاء رب الناس فهو الممكن بل هو الواجب؛ لأن سبيل الله واحد؛ ولأن دينه واحد: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

يذكر الشيخ عمر الأشقر في كتابه «مواقف» حدثًا يناسب هذه النقطة: يذكر أن طفلة

صغيرة تعود لأمها من المدرسة ذات يوم، وعليها سحابة حزن وكآبة وهمٍّ وغمٍّ، فتسألها أمها عن سبب ذلك؟ فتقول -وهي من بيت محافظ-: إن مُدرستي هددتني إن جئت مرة أخرى بمثل هذه الملابس الطويلة ضربتني، فتقول الأم: ولكنها الملابس التي يريدها الله جل وعلا، فتقول الطفلة: لكن المُدرسة لا تريدها.

قالت الأم: المُدرسة لا تريد والله يريد، فمن تُطيعين إذًا، الذي خلقك وصوَّرك وأنعم عليك، أم مخلوق لا يملك ضرًا ولا نفعًا؟ فقالت الطفلة بفطرتها السليمة: لا. بل أطيع الله، وليكن ما يكون.

وفي اليوم الثاني تلبس تلك الملابس، وتذهب بها إلى المدرسة، ولما رأتها المعلمة انفجرت غاضبة، تؤنب تلك الفتاة التي تتحدى إرادتها، ولا تستجيب لطلبها، ولا تخاف من تهديدها ووعيدها، وأكثرت عليها من الكلام، ولما زادت المعلمة في التأنيب والتبكيت، ثقل الأمر على الطفلة البريئة المسكينة، فانفجرت في بكاء عظيم شديد مرير أَلِيم، أذهل المعلمة ثم كفْكفتْ دموعها، وقالت كلمة حق تخرج من فمها كالقذيفة، فتقول: والله! لا أدري من أطيع؟ أنت أم هو؟ قالت المعلمة: ومن هو؟ قالت: الله رب العالمين، الذي خلقني وخلقك وصوَّرني وصوَّرك، أو أطيعك، فألبس ما تريدين، وأغضبه هو.

أم أطيعه وأعصيك أنت؟، لا. لا. سأطيعه، وليكن ما يكون.

إذا لم يكـــن إلا الأســـنةُ مــركبًا ... فمــا حــيلةُ المــضَّطر إلا ركــوبُها

ذهلت المعلمة، وشُدِهت وسكنت، وهل هي تتكلم مع طفلة أم مع راشدة؟ ووقعت منها الكلمات موقعًا عظيمًا بليغًا، وسكتت عنها المعلمة.

وفي اليوم التالي تستدعي المعلمة أمَّ البنت، وتقول لها: لقد وعظتني ابنتك أعظم موعظة سمعتها في حياتي، لقد تبت إلى الله، وأُبت إلى الله، فقد جعلت نفسي ندًا لله حتى عرفتني ابنتك من أنا.

فجزاكِ الله من أم مربية خيرًا.

وهنا أقول: يا أيها الأحبة! ما أحوجَنا إلى أن نرضي الله جل وعلا، وأن نعرف أن الحق إنما يصل إلى القلوب إذا خرج من القلوب التي تؤمن به، وتعمل بمقتضاه، أما الكلمات الباردة فلن تؤثر في السامعين أبدًا؛ ألا فأرضِ الله جل وعلا وكفى.

فلست بناجٍ من مقالةِ طاعن ولو كنتَ في غارٍ على جبلٍ وعرِ
ومن ذا الذي ينجو من الناسِ سالمًا ولو غاب عنهم بين خافقتي نسر

﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٦]، ﴿ وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٣].

ضرورة اتباع الحق

علمتني الحياة في ظل العقيدة: أن أحب الحق وفلانًا ما اجتمعا، فإذا افترقا كان الحق أحب من فلان ومن نفسي ومالي وأهلي وولدي والناس أجمعين:

لأنني مولعٌ بالحقِ لستُ إلى سواه أنحو ولا في نصره أهِنُ
دعهم يعضوا على صمِّ الحصى كمدًا مَنْ مات منهم له كفنُ

هاهو سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه وأرضاه يستجيب لدعوة الهدى والحق، فيكون ثالث ثلاثة أسلموا، لكن إسلامه لم يمر هينًا سهلًا، وإنما تعرض الفتى لتجربة من أقسى التجارب، أنزل الله في شأنها قرآنًا يُتلى.

لما سمعت أمه بخبر إسلامه ثارت ثائرتها، يقول: وكنت فتى بارًا محبًا لها، فأقبلت تقول: يا سعد ! ما هذا الدين الذي اعتنقته فصرفك عن دين آبائك وأجدادك؟ لتتركن هذا الدين أو لأمتنعن عن الطعام والشراب حتى أموت، فيتفطر قلبك حزنًا عليَّ، ويأكلك الندم على فعلتك التي فعلت، ويعيرك الناس بها أبد الدهر، قال: قلت: يا أماه! لا تفعلي فأنا لا أدع ديني لشيء.

لكنها نفذت وعيدها وامتنعت عن الطعام والشراب أيامًا، كان يأتيها ويسألها أن تتبلغ بقليل من طعام أو شراب فترفض ذلك، فما كان منه ذلك اليوم إلا أن جاءها وقال: يا أماه! إني لعلى شديد حبي لك أشد حبًا لله ورسوله، والله! لو كانت لك ألف نفس فخرجت منك نفسًا بعد نفس ما ارتددت عن ديني، فكلي أو دعي.

فلما وضعها أمام هذا الأمر ما كان منها إلا أن أكلت على كره منها، فأنزل الله عز وجل فيه وفيها: ﴿ وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ﴾ [لقمان: ١٥].

وهاهو الإمام مالك، يأتيه رجل يستفتيه، وهو في حلقة العلم في مسجد رسول الله

ﷺ، فيدخل هذا الرجل إليه، ويقول: يا إمام! قد قلت لزوجتي: أنت طالق إن لم تكوني أحلى من قمر، ففكر الإمام قليلًا، ثم قال: ليس هناك أحلى من القمر، فهذه طلقة، ولا تعد لذلك.

وكان تلميذه الشافعي يجلس إلى سارية من السواري، ولم يدرِ ما الذي حدث بينهما، وكان حريصًا على طلب العلم، فلحق بهذا الأعرابي، وقال له: ما السؤال؟ وما الإجابة؟ -يريد أن يستفيد فائدة- قال: قلت للإمام كذا وكذا، فقال: القمر أحلى من زوجتك، فزوجتك قد طلقت طلقة.

فقال الإمام الشافعي له: بل زوجتك أحلى من قمر.

قال: أوقد رأيتها؟! وكانوا ذوو غَيْرة؛ فاغتاظ منه، قال: لا ألم تسمع قول الله جل وعلا: ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝ وَطُورِ سِينِينَ ۝ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ ۝ لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِيٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝ ﴾ [التين: ١ - ٤].

فخَلْقُ الإنسان أحسن خلق، وأقوم خلق، وأعدل خلق.

قال: إذًا نرجع إلى الإمام مالك. قال: نرجع إليه.

فرجعوا إلى الإمام مالك. فأخبروه بالخبر، فقال: الحق أحق أن يُتبع، أخطأ مالك وأصاب الشافعي.

فما أحوجنا إلى معرفة الرجال بالحق، لا العكس.

والحقُّ يعلو والأباطل تسفل ... والحق عن أحكامه لا يُسألُ

وإذا استحالت حالة وتبدلت ... فالله عز وجل لا يتبدلُ

أهمية الرجال الذين يحملون الحق بقوة

علمتني الحياة في ظل العقيدة: ألا نفرح في صفوفنا بالهازلين، المضيعين لأوقاتهم المفرطين في المزاح، المنغمسين في المُلْهيات، نريد رجالًا أشداء لا ينثنون للريح، يشقون الطريق بعزم وجد، لا تلهيهم كرة، ولا يضيعهم تلفاز ولا هراء، وقتهم أعظم وأثمن من أن يضيع في مثل هذه الترهات.

نريد من يأخذ الحياة بجد؛ فالحياة الحقيقية للشجعان الأقوياء العاملين، لا مكان فيها للكُسالى والتنابلة والبطالين والمتخاذلين، نريد من يشق طريقه معتمدًا على الله بعيدًا عن

التفكير الهامشي السافل التفكير في الشهوات التفكير في الملهيات، والركض وراءها، والتفكير المادي المنحط.

نريد شبابًا يتربى على معالي الأمور، ويترفع عن سفاسف الأمور ليكونوا ممن قيل فيهم:

شبابٌ ذَلَّلوا سُبلَ المعالي ... وما عرفوا سوى الإسلام دينا
إذا شهدوا الوغى كانوا كماةً ... يدكون المعاقلَ والحصونا
وإن جن المساءُ فلا تراهم ... من الإشفاقِ إلا ساجدينا
شباب لم تُحطمه الليالي ... ولم يُسلم إلى الخصم العرينا
وما عرفوا الأغاني مائعاتٍ ... ولكن العلى صيغت لحونا
ولم يتشدقوا بقشورِ علمٍ ... ولم يتقلبوا في الملحدينا
ولم يتبجحوا في كل أمرٍ ... خطيرٍ كي يُقال مثقفونا
كذلك أخرج الإسلام قومي ... شبابًا مخلصًا حُرًا أمينا
وعلمه الكرامةَ كيف تُبْنَى ... فيأبى أن يذل وأن يهونا

أين نجد هؤلاء الشباب؟

أنجد هؤلاء في المسارح؟ أعلى المدرجات؟ أعلى الأرصفة؟ لا. إنما نجدهم في حلقات العلم والتعلم، في بيوت الله، في الأمر والنهي، فلتأخذ الحياة بجد، ولتُعد الأنفس ليوم الشدائد، فما ندري ما المرحلة القادمة:

يا راقدَ الليلِ مسرورًا بأوله ... إن الحوادثَ قد يطرقن أسحارا

***

كيف يرجو من به كسلُ ... نيلَ ما قدْ ناله الرَّجلُ؟
من يريد العزَّ يطلبهُ ... في دروبٍ ما بها سهلُ

حقيقة النفس البشرية

علمتني الحياة في ظل العقيدة: أن النفس البشرية كالطفل تمامًا.

إن أدبتها وهذَّبتها صلحت واستقامت، وإن أهملتها وتركتها خابت وخسرت، بل

هي كالبعير إن علفتها وغذيتها بالمفيد سكنت وثبتت واطمأنت وخدمت، وإن تركتها صدَّت وندَّت وشردَت.

النَّفس بطبيعتها تميل إلى الشهوات واللذات والهوى، وتأمر بالسوء والفحشاء، إذا لم يقيدها وازع ديني عظيم؛ تنقاد إلى السقوط والهلاك:

والنَّفْسُ كالطفل إن تُهمله شبَّ على حب الرَّضَاعِ وإن تفطمه ينفطمِ

فخالف النفس والشيطانَ واعصهما وإن هما محضاكَ النصحَ فاتهمِ

وإصلاح نفسك بمَّ يكون يا أيها الحبيب؟

بالمجاهدة: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

يقول ثابت البناني عليه رحمة الله: تعذبت بالصلاة عشرين سنة -يجاهد نفسه عشرين سنة ليصلي لله في بيوت الله- قال: ثم تنعمت بها عشرين سنة أخرى، والله إني أدخل في الصلاة فأحمل هَمَّ خروجي منها.

وأعظم المجاهدة مجاهدة النيات: «**فإنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى**».

﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ١١٠].

يقول أحد السلف: ما من فعلة صغرت أو كبرت إلا ويُنشَر لها ديوانان: لِمَ؟ وكيف؟

لِمَ فعلت؟ ما علة الفعل؟ وما باعث هذا الفعل؟ هل لحظ دنيوي؟ لجلب نفع؟ لدفع ضر؟ أم لتحقيق العبودية لله وابتغاء الوسيلة إليه سبحانه وبحمده؟ هل فعلت هذا الفعل لمولاك أم لحظِّك وهواك؟

وكيف فعلت هذا الفعل؟ هل العمل مما شرعه الله ورسوله؟ أم ليس عليه أمر الرسول ﷺ القائل: «**من عمل عملًا ليس عليه أمرنا فهو رد**» (١) فأعظم ما يربي النفس مجاهدة النية.

يقول سفيان: ما عالجت شيئًا أشد عليّ من نيتي.

يا نفس! أخلصي تتخلصي، إخلاص ساعةٍ نجاة الأبد، ولكن الإخلاص عزيز.

طوبى لمن صحت له خطوة يُراد بها وجه الله تعالى.

---

(١) صحيح: مسلم (٤٥٩٠).

هاهو ابن الجوزي عليه رحمة الله الذي لطالما جاهد نيته تحلُ به سكرات الموت، فيشتد بكاؤه ونحيبه، فيقول جُلاسه: يا إمام! أحسن الظن بالله، ألست من فعلت، ومن فعلت؟ قال: والله ما أخشى إلا قول الله: ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ۝ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ۝ ﴾ [الزمر: ٤٧، ٤٨].

أخشى أن أكون فرطت وخلطت ونافقت، فيبدو لي الآن ما لم أكن أحتسب، وتبدو لي سيئات ما كسبت، وهو الذي يقول عن نفسه كما في صيد الخاطر: لقد تاب على يدي في مجالس الذكر أكثر من مائتيْ ألف، وأسلم على يديْ أكثر من مائتيْ نفس، وكم سالت عين متجبر بوعظي لم تكن تسيل!

ويحق لمن تلمَّح هذا الإنعام أن يرجو التمام، ولكم اشتد خوفي بنظري إلى تقصيري وزللي، لقد جلست يومًا واعظًا فرأيت حولي أكثر من عشرة آلاف، ما منهم من أحد إلا رقَّ قلبه، أو دمعت عينُه، قال: فقلت في نفسي: كيف بك يا بن الجوزي ! إن نجا هؤلاء وهلكت؟ كيف بك يا بن الجوزي ! إن نجا هؤلاء وهلكت؟ ثم صاح: إلهي ومولاي وسيدي إن عذبتني غدًا فلا تخبرهم بعذابي، لئلا يُقال عذب الله من دعا إليه، عذب الله من دل عليه، إلهي -وأنت أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين- لا تخيب من علق أمله ورجاءه بك، وخضع لسلطانك، دعا عبادك إلى دينك ولم يكن أهلًا لولوج باب رحمتك، لكنه طامع في سعة جودك ورحمتك، أنت أهل الجود والكرم.

فأخلصوا تتخلصوا. طوبى لمن صحت له خطوة يراد بها وجه الله تعالى.

مكانة المرأة المسلمة وبعض مواقفها

علمتني الحياة في ظل العقيدة: أن كثيرًا من النساء محَاضن خالدة لتربية الأجيال، ولبعضهن مواقف مشرفة، تصلح نبراسًا وأُنموذجًا لفتياتنا وأمهاتنا وأخواتنا، في وقت أصبحت مصممة الأزياء والممثلة والراقصة والفنانة العاهرة الفاجرة هي القدوة، وهي الأسوة، إلا عند من رحمهن الله سبحانه فإليكم بعض النماذج:

١- صفية بنت عبد المطلب:

هاهي صفية بنت عبد المطلب رضي الله عنها يتوفى عنها زوجها، ويترك لها ابنًا هو الزبير رضي الله عنه وأرضاه، فنشأته نشأة الخشونة، وربَّته على الفروسية والحرب، وجعلت لعبه في بري السهام وإصلاح القسي، ودأبت على قذفه في كل مخوفة، وتقحمه في

كل خطر، فإذا أحجم ضربته ضربًا مبرحًا، حتى إنها عوتبت من بعض أعمامه، حيث قال لها: إنك تضربينه ضرب مبغضة لا ضرب أم.

فقالت مرتجزة:

مَن قالَ قد أبغضتُه فقد كذبْ وإنما أضربُه لكي يلبْ

ويهزم الجيشَ ويأتي بالسلبْ

آمنت بالله جل وعلا، وصدقت برسول الله ﷺ، وهاجرت مع من هاجر، وهي تخطو إلى الستين من عمرها، وفي أحد جاهدت مع ابن أخيها رسول الله ﷺ، وجاهدت مع أخيها حمزة رضي الله عنه، ومع ابنها الزبير رضي الله عنه: ﴿ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ ﴾ [آل عمران: ٣٤]، فلما انكشف المسلمون في أحد -كما تعلمون- هبَّت هذه المرأة كاللبؤة، وانتزعت رمحًا من أحد المنهزمين، وانقضَّت تشق الصفوف وتزأر في المسلمين كالأسد، وتقول: ويحكم أتفرون عن رسول الله ﷺ؟! ويراها رسول الله ﷺ فيقول لابنها الزبير: «**ردها فإن أخاها حمزة قد مَثَّل**[١] **به المشركون**»، فقال لها ابنها: إليك يا أماه! إليك يا أماه! قالت: تنحَّ عني لا أم لك، أتفِرُّ عن رسول الله ﷺ؟ قال: إن رسول الله يأمرك أن ترجعي. فقالت -وقد كانوا وقَّافين عند أمر الله وأمر رسوله-: الأمر أمر الله، وأمر رسوله ﷺ.

فتوقفت، وقالت: ولم يردني رسول الله ﷺ؟ إنه قد بلغني أنه قد مُثِّل بأخي وذلك في ذات الله، وذلك في سبيل الله، والحمد لله، فقال ﷺ لابنها: «**خَلِّ سبيلها، خلِّ سبيلها**». فخاضت المعركة حتى انتهت، ولما وضعت الحرب أوزارها، وقفت على حمزة أخيها وقفة العظماء، قد بُقر بطنه، وأُخرجت كبده، وجُدع أنفه، وُقطعت أُذناه، وشُوِّه وجهه، فاستغفرت له، وجعلت تقول: إن ذلك في ذات الله، إن ذلك لفي ذات الله،وقد رضيت بقضاء الله، دموعها تذرف وقلبها يلتهب:

وليس الذي يجري من العين ماؤها ولكنها روحٌ تسيلُ فتقطرُ

تقول: لأصبرن وأحتسبن إن شاء الله. لأصبرن وأحتسبن إن شاء الله[٢]

---

(١) **التمثيل**: جدع الأطراف أو قطعها أو تشويه الجسد والتنكيل به.

(٢) انظر «مسند البزار» (٢/ ٥٥)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (١١٦٧)، و«السيرة النبوية» لابن كثير (٣/ ٨٣)، و«ذخائر العقبى» (١ / ١٨١)، و«الروض الأنف» (٣/ ٢٨٣).

هذا موقف من مواقف صفية.

وموقف آخر: لا يقل عن هذا الموقف، في يوم الخندق تركها النبي ﷺ مع نساء المسلمين في حصن حسان، وهو من أمنع الحصون هناك، وجاء اليهود، فأرسلوا واحدًا؛ ليرى هل أبقى الرسول ﷺ حُماة للنساء والذراري في هذا الحصن أم لم يُبقِ أحدًا؟ فرأت ذلك اليهودي يتسلل إلى الحصن، فما كان منها إلا أن نزلت عليه بعمود، فضربته أولى وثانية وثالثة، وقتلته، ثم احتزت رأسه، ثم طلعت به إلى أعلى الحصن، ثم رمت برأسه؛ فإذا هو يتدحرج بين أيدي اليهود، فقال قائل اليهود: قد علمنا أن محمدًا لن يترك النساء من غير حُماة.

فرحم الله صفية رحمة واسعة، قد كانت مثلا فذًّا للأم المربية المسلمة، ربَّت وحيدها وصبرت على أخيها، وكانت أول امرأة قتلت مشركًا في الإسلام، فرحمها الله رحمة واسعة، وأخرج من أصلاب هذه الأمة نساء كتلك المرأة، بل رجالًا كصفية.

٢- أسماء بنت أبي بكر:

وهاهي ذات النطاقين أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها وأرضاها تلكم المرأة التي حظيت بموقف لم تحظَ به امرأة قبلها ولا بعدها، وهي خدمة رسول الله ﷺ في طريق الهجرة بالغار.

ثم انظر لتلك المرأة في أواخر سني عمرها في أحلك المواقف، وقد بلغت السابعة والتسعين، ابنها يُحاصر في الحرم، ويصبح في موقف حرج، فيذهب مباشرة إلى أمه يستشيرها في الموقف.

ماذا يفعل؟ فقالت تلكم المؤمنة الصابرة: أنت أعلم بنفسك.

إن كنت تعلم أنك على حق، وتدعو إلى الحق فاصبر عليه حتى تموت في سبيله، وإن كنت تريد الدنيا فلبئس العبد أنت، أهلكت نفسك ومن معك!

قال: يا أماه! والله ما أردت الدنيا، وما جُرت في حكم، وما ظلمت، وما غدرت، والله يعلم سريرتي وما في قلبي.

فقالت: الحمد لله، وإني لأرجو الله أن يكون عزائي فيك حسنًا، إن سبقتني إلى الله جل وعلا.

تعانقا عناق الوداع، ثم قالت: يا بني اقترب حتى أشم رائحتك، وأضم جسدك، فقد

يكون هذا آخر العهد بك، فأكبَّ على يديها، ورجليها، ووجهها، يلثمها ويقبلها، دموع تشتبك في دموع، وهي تتلمس ابنها وهي عمياء لا ترى، ثم ترفع يدها، وهي تقول: ما هذا الذي تلبسه؟ قال: درعي.

قالت: يا بني! ما هذا لباس من يريد الشهادة في سبيل الله؟ انزعه عنك؛ فهو أقوى لوثبتك، وأخف لحركتك، والبس بدلًا منه سراويل مضاعفة، حتى إذا صُرعت لم تنكشف عورتك، فنزع درعه وشدَّ سراويله، ومضى إلى الحرم لمواصلة القتال، وهو يقول: لا تفتري عن الدعاء يا أماه! فرفعت كفها قائلة:

اللهم ارحم طول قيامه، وشدة نحيبه في سواد الليل والناس نيام.

اللهم ارحم جوعه وظمأه في هواجر مكة والمدينة، وهو صائم.

اللهم إني قد أسلمته لك، ورضيت بما قضيت فيه فأثبني فيه ثواب الصابرين.

ويذهب ابنها، وبعد ساعة من الزمن انقضت في قتال مرير غير متكافئ، تلقى ابنها عبد الله ضربة الموت، ليلقى الله عز وجل.

ليس هذا فحسب؛ بل يُصلب جثمانه كالطود الشامخ في الحجون.

علـــوٌ في الحـــياةِ وفي المـــاتِ لحـــقٍ أنــت إحـــدى المَكـــرُمات

كأنَّـــك واقـــفٌ فـــيهم خطيـــبًا وهـــم وقفـــوا قـــيامًا للـــصلاةِ

وتسمع الأم الصابرة ذات السبع والتسعين سنة، العمياء البصيرة، وتذهب إلى ولدها المصلوب تتلمس الطريق حتى تصل، فتأتي فإذا هو كالطود الشامخ، تقترب منه وتدعو له، وإذ بقاتله يأتي إليها في هوان وذلة، ويقول: يا أماه! إن الخليفة أوصاني بك خيرًا، فتصيح به: لست لك بأم، أنا أم هذا المصلوب، وعند الله تجتمع الخصوم.

ويتقدم ابن عمر رضي الله عنه معزيًا لها، ومواسيًا لها، فيقول: اتقي الله واصبري، فتقول -له بلسان المؤمنة الواثقة بموعود الله-: يا بن عمر ! وماذا يمنعني أن أصبر، وقد أُهدي رأس يحيى بن زكريا إلى بغيٍّ من بغايا بني إسرائيل؟

أرأيتم ما أعظم الأم! وما أعظم الابن! وما أعظم الأب!

سلام على ذات النطاقين، وسلام على ابن الزبير، وسلام على الزبير، والسلام على أبي بكر، وسلام على صحابة رسول الله، وسلام على أمهات المؤمنين.

النساء محاضن الرجال، بصلاحهن يصلح الجيل، وبفسادهن يفسد الجيل، ولو استطردنا في الأمثلة لوجدنا أمثلة كثيرة يعجز الرجال أن يقفوا تلك المواقف، ناهيك عن النساء.

٣- فاطمة بنت النبي ﷺ :

فاطمة بنت محمد ﷺ تتزوج عليًّا رضي الله عنه، تجر بالرحى حتى تؤثر الرحى في يدها، وتستقي بالقربة حتى أثَّرت في نحرها، وتقُمُّ البيت، وتوقد النار، وتربي أبناءها؛ فيكون من أبنائها الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة:

هي بنت من؟ هي أم من؟ هي زوج من؟ ... من ذا يساوي في الأنام عُلاها

أما أبوها فهو أكرم مرسلٍ ... جبريلُ بالتَّوحيد قد رَباها

وعليٌ زوجٌ لا تسل عنهُ ... سوى سيفٍ غدا بيمينه تيَّاهًا

فلو كان النساءُ كمن ذكرنا ... لفضلت النساءِ على الرجال

وما التأنيث لاسم الشمس عيب ... وما التذكيرُ فخرٌ للهلال

آن للنساء أن يقتدين بالطهر والعفة والفضيلة؛ بصفية وأسماء وعائشة وفاطمة.

فالأمُّ مدرسةٌ إذا أعددتها ... أعددت شعبًا طيبَ الأعْراق

حال الدهر والأيام

علمتني الحياة في ظل العقيدة: أن الدهر دول، والأيام قُلَّب لا تدوم على حال: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، الدنيا غرَّارة خداعة، إذا حلَت أوْحلت، وإذا كسَت أوْكست، وإذا جلت أوْجلت.

وكم من ملكٍ رُفعت له علاماتٌ؛ فلما عَلا مات.

هي الأقدارُ لا تُبقي عزيزًا ... وساعات السرورِ بها قليله

إذا نشر الضِّياءُ عليك نجمٌ ... وأشرق فارتقبْ يومًا أفوله

***

فيومٌ علينا ويومٌ لنا ... ويومٌ نُساءُ ويوم نُسَرّ

***

الأمـر جـدُ وهـو غـيرُ مِـزَاحِ	فاعمـلْ لنفـسك صـالحًا يـا صـاحِ
كـيف الـبقاء مـع اخـتلاف طـبائعٍ	وكـرور لـيلٍ دائـمٍ وصـباحِ
تجـري بـنا الدُنـيا علـى خطـرٍ	كمـا تجـري علـيه سـفينةُ المَـلاحِ
تجـري بـنا في لُـجِ بحـرٍ مالـهُ	مـن سـاحلٍ أبـدًا ولا ضحـضاح

***

فاقـضوا مَـآربكم عجـالاً إنَّمـا	أعمـارُكم سـفر مـن الأسـفارِ
وتراكـضوا خـيل الـشبابِ وبـادرُوا	أن تُـستردَ فـإنهنَّ عـوارِ
الدهـرُ يـومان ذا أمـن وذا خطـرُ	والعـيشُ عيـشان ذا صـفو وذا كـدر
أمـا تـرى البحـر يعلـو فـوقه جـيفُ	وتـستقرُ بأقـصى قاعـه الـدُرَرُ؟
وفي الـسَّماء نجـومٌ لا عِـداد لهـا	ولـيس يكـسفُ إلا الـشَّمسُ والقمـرُ

حقيقة ميت الأحياء

علمتني الحياة في ظل العقيدة: أن ميت الأحياء، من لا يأمر بالمعروف، ولا ينهى عن المنكر: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ۝٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ۝٧٩ ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩].

ويقول ﷺ: «لتأمُرُنَّ بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، ولتأخذنَّ على يد السفيه، ولتأطرنَّه على الحق أطرًا[١]؛ أو ليضربنَّ الله قلوب بعضكم ببعض، ثم يلعنكم كما لعنهم»[٢].

«لتأمُرُنَّ بالمعروف، ولتنهون عن المنكر؛ أو ليُسلطنَّ الله عليكم شراركم، ثم يدعو خياركم فلا يستجاب لهم»[٣].

---

(١) تأطروه على الحق أطرًا: أي تعطفوه عليه.

(٢) ضعيف: أخرجه ابن ماجه (٤٠٠٦)، والترمذي (٣٠٤٧)، وأحمد (٣٧١٣)، وأبو داود (٤٣٣٦)، والألباني في «الضعيفة» (١١٠٥)، جميعهم بنحوه.

(٣) ضعيف: أخرجه أحمد (٢٣٣٦٠)، والألباني في «الضعيفة» (٤٢٩٨).

«لتأمُرُنَّ بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، أو ليسلطنَّ الله عليكم من لا يرحم صغيركم، ولا يوقر كبيركم» (١).

كم من ميت هو حي بأعماله؛ بأمره ونهيه، بعلمه وعمله! وكم حي ميت يرى المنكر فلا يهزه!

يا رب حيٍ رخامُ القبرِ مسكنُه ... وربَّ ميت على أقدامِه انْتصبا

علاقة العصا بالتربية والإصلاح

علمتني الحياة: أن العصا أداة للتقويم والتربية والإصلاح، إذا صاحبتها يد حانية، ولسان هادئ، وقلب رحيم.

العصا أداة نافعة متى ما وجدت من يستخدمها بحكمة ولُطف، متى ما وضعت في موضعها أفادت، كالدواء تمامًا.

إننا نريد العصا عندما نستنفذ كل سبيل للعلاج، وآخر الدواء الكيُّ، ومن الكير يخرج الذهب:

واقسا ليزدجروا ومن يك حازمًا ... فليقسُ أحيانًا على من يرحم

وهي كذلك أداة للتوكؤ والهش على الغنم، وفيها مآرب أخرى، وإن للخير سبلًا، وكم من مريد للخير لا يدركه!: **«وكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته»**.

لكل بداية في الدنيا نهاية

علمتني الحياة في ظل العقيدة: أن لكل بداية في الدنيا نهاية، ولكل شمل مجتمع فرقة، ولكل نعيم انقطاع.

إذا تم شيء بدا نقصه ... ترقبْ زوالاً إذا قيل تمّ

بينما المولود يولد ويُفرح به، ويؤذن في أذنه؛ إذ به بعد وقت ليس بالطويل، يُحمل ليُصلى عليه، ما كأنه ضحك مع من ضحك، ولا كأنه فرح مع من فرح، ولا كأنه استبشر مع من استبشر، فكأن حياته ما بين أذان وصلاة، ولا إله إلا الله، ما أقصرها من حياة!.

---

(١) انظر «جامع الأحاديث» (٣٦/ ٣١٠)، و«كنز العمال» (٨٤٦٤).

أذان المـــرءِ حـــين الطفـــلُ يأتـــي ... وتـــأخيرُ الـــصلاةِ إلى الممـــاتِ

دلـــيلٌ أن مَحْـــياه يـــسيرٌ ... كمـــا بـــين الأذانِ إلى الـــصلاةِ

بينما الإنسان في أهله في ليلة آمنًا مطمئنًا فرحًا يخبر عن غيره، إذ به في ليلة أخرى وحيدًا فريدًا، لا مال، ولا ولد، ولا أنيس، ولا صاحب سوى العمل، وإذ به خبر يخبر به.

بيـنا يُـرى الإنـسانُ فـيها مُخـبرًا ... فـإذا بـه خـبرٌ مـن الأخـبارِ

بينما الطبيب يعالج من مرض إذا به يصاب بنفس المرض، فلا طبُّه ينفعه، ولا دواؤه يرفعه، وإذ به يلقى ما لقيه غيره على يديْه، وحال الناس:

مـا لِلطبـيب يمـوتُ بالـداءِ الـذي ... قـد كـان يُبْـرِئ مـثله فـيما مَـضى

مـات الُمـداوِي والمـداوَى والـذِي ... جلـب الـدواءَ وباعـه ومَـنْ اشـترى

ما أنت -والله- إلا كقطعة ثلج، تذوب ثم تذوب حتى تتلاشى، وكأن لم تكن.

سيـــصير المـــرءُ يـــومًا ... جـــسدًا مـــا فـــيه رُوح

نُـــحْ علـــى نفـــسك يـــا مِـــسـ ... ـــكينُ إن كـــنتَ تَـــنوح

لـــست بالباقـــي وإنْ ... عُمـــرت مـــا عُمـــر نـــوح

***

فانتـــبه مـــن رقـــدةِ ... الغفلـــةِ فالعمـــرُ قـــصيرُ

واطـــرحْ ســـوف وحتـــى ... فهمـــا داء دخـــيل

***

واتَّـــقِ اللَـــه وقَـــصر أمـــلا ... لـــيس في الدنـــيا خلـــوُد للمـــلا

***

المـــوت لـــنا بالمرصـــدِ إن ... لم يُفاجـــئ الـــيومَ فاجـــأ في غـــدِ

الموتُ بابٌ، وكل الناسِ سيدخلون من هذا الباب، وما من باب إلا وبعده دار.

لا دار للمـرءِ بعـدَ المـوتِ يـسكنُها ... إلا الـتي كـان قـبلَ المـوتِ يبنـيها

فــإن بـــناها بخـــيرٍ طــاب مــسكنُه وإنْ بـــناها بــــشرٍ خـــابَ بانـــيها

***

كُــتبَ المــوتُ علــى الخلــقِ فكــم فــلَّ مـــن جـــيشٍ وأفنـــى مـــن دُول

أيـــن نمـــرود وكـــنعان ومـــن ملـــك الأرض وولَّـــى وعَـــزَل؟

أيــن مـــن ســادُوا وشــادُوا وبـــنَوا؟ هلــك الكـــلُّ ولمْ تُغْـــنِ الحِيَـــل

أيــن أربــابُ الحجــا أهــلُ التُّقــى؟ أيـــن أهـــلُ العلــمِ والقَــوم الأول؟

ســـيُعِيد الله كـــلاً مِـــنهم وســـيجزِي فـــاعلاً مـــا قـــد فعـــل

نهاية الإنسان في هذه الدنيا

هل شاهدت محتضرًا في شدة سكراته ونزعاته؟ هل تأملت صورته بعد مماته؟ هل تذكرت أنك صائر إلى ما صار إليه، وذائق ما ذاقه من آلام الموت وكرباته، فاستعددت لتلك اللحظات العصيبة؛ فزدت في عملك، وزدت في إجهاد نفسك واجتهادك؟

هاهو الحسن عليه رحمة الله يدخل على مريض يعوده، فيجده في سكرات الموت، فينظر إلى كربه وإلى شدة ما نزل به، فيرجع إلى أهله حزينًا كئيبًا بغير اللون الذي خرج به من عندهم، فقالوا له: يا إمام! الطعام يرحمك الله! فقال: يا أهلاه! عليكم بطعامكم وشرابكم؛ فوالذي نفسي بيده! لقد لقيت مصرعًا ما أزال أعمل له حتى ألقاه.

فمثِّلْ لنفسك -يا عبد الله- وقد حلَّت بك السكرات، ونزلت بك الغمرات، وابنتك تبكي كالأسيرة، وتتضرع وتقول: من لِيُتْمِي بعدك؟ وابنك ينظر إليك وينظر ما يتعجل من اليتم بعدك، ويقول: من لحاجتي أبتاه؟ وأنت تسمع فلا ترد الجواب.

هل رأيت جنازة محمولة على الأكتاف لتُوارى في التراب؟ ثم تساءلت عن حالها؛ ما حالها؟

في صحيح البخاري من حديث أبي سعيد قال: قال ﷺ: «**إذا وضعت الجنازة، واحتملها الرجال على أعناقهم؛ إن كانت صالحة قالت: قدِّموني قدِّموني، وإن كانت غير ذلك قالت: يا ويلها! أين تذهبون بها؟ يا ويلها! أين تذهبون بها؟ يسمع صوتها كل شيء إلا الإنسان، ولو سمعه لصعق**»[1] تصرخ صرخات تقض المضاجع.

---

(١) صحيح: البخاري (١٣١٤).

هل مثلت لنفسك أنك المحمول، ما حالنا لو احتملنا جنازة ثم صرخت تلك الصرخات: يا ويلها! أين تذهبون بها؟ والله لصُعقنا ولما حملنا جنازة أبدًا، وهذا ما خشيه علينا رسول الله ﷺ يوم قال -كما في صحيح مسلم -: «**لولا ألا تدافنوا لدعوت الله أن يُسمعكم من عذاب القبر الذي أسمع**»[1]، فخيِّل لنفسك يا بن آدم إذا أُخذت من فراشك إلى لوح مغتسلك، فغسلك الغاسل وأُلبست الأكفان، وأوحش منك الأهل والجيران، وبكى عليك الأصحاب والإخوان، فما ينفع البكاء، وما ينفع العويل، وما ينفع إلا ما قدمته من صالح الأعمال.

هاهو يزيد الرقاشي عليه رحمة الله يحضر عابدًا قد حضرته الوفاة، وحوله أهله يبكون، فقال لوالده: أيها الشيخ ما الذي يبكيك؟ قال: أبكي فقدك، وما أرى من جهدك.

فبكت أمه، قال: أيتها الوالدة الشفيقة الرفيقة ما الذي يبكيكِ؟ قالت: أبكي فراقك، وما أتعجل من الوحشة بعدك.

فبكى صبيانه وأهله وزوجه، قال: يا معشر اليتامى! ما الذي يبكيكم؟ قالوا: نبكي ما نتعجله من اليتم بعدك.

فما كان منه إلا أن صرخ، وقال: كلكم يبكي لدنياي، أما فيكم من يبكي لآخرتي؟ أما فيكم من يبكي لملاقاة التراب وجهي؟ أما فيكم من يبكي لسؤال منكر ونكير إياي؟أما فيكم من يبكي لوقوفي بين يديْ الله ربي؟ ثم صرخ صرخة عظيمة، شهد بعدها أن لا إله إلا الله ليلحق بالله عز وجل.

يا أيها المسلم: هل نظرت إلى القبور؟ ما نظر عبد لها إلا انكسر قلبه، وكان أبرأ ما يكون من القسوة والغرور، ما حافظ عبد على زيارة المقابر مع التفكر والتدبر إلا رقَّ قلبه، وذرفت عينه؛ إذ يرى فيها الآباء والأمهات والأصحاب والأحباب والإخوان والأخوات، يرى منازلهم، ويتذكر أنه -قريبًا- سيكون بينهم، وأنهم جيران لبعضهم، قد انقطع التزاور بينهم مع الجيرة: ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ [سبأ: ٥٤].

قد يتدانى القبران، وبينهما ما بين السماء والأرض؛ نعيمًا وجحيمًا.

ما تذكر عبد هذه المنازل إلا رقَّ قلبه من خشية الله، ولا وقف على شفير قبر فرآه محفورًا، فهيَّأ نفسه أن لو كان صاحبه إلا رق قلبه، ولا وقف على شفير قبر، فرأى صاحبه

(١) صحيح: مسلم (٧٣٩٢).

يُدلى فيه، فسأل نفسه: على ماذا أُغلق؛ على نعيم أم على جحيم؛ على مطيع أم على عاصٍ إلا رقَّ قلبه.

فلا إله إلا الله! هو العالم بأحوالهم، هو الحكم العدل الذي يفصل بينهم.

ألا فتذكر هاذم اللذات، وتذكر القبر والعظام النخرات، ليهتز قلبك خشية من الله؛ فتنيب إليه إنابة الصادق الخاشع الذليل.

هاهو ابن عوف رضي الله عنه يقول: خرجت مع عمر رضي الله عنه فلما وقفنا على مقبرة البقيع اختلس يده من يدي، وكنت قابضًا على يده، ثم وضع نفسه على قبر، فبكى بكاءً طويلًا، فقلت: ما بك يا أمير المؤمنين؟! قال: يا ليت أم عمر لم تلِد عمر، يا ليتني كنت شجرة، أنسيت يا بن عوف هذه الحفرة؟ قال: فأبكاني والله!

فالله المستعان على تلك اللحود الضيقات، والله المستعان على تلك اللحظات الحرجات.

هاهو ﷺ، كما في المسند من حديث البراء: أنه رأى أُناسًا مجتمعين، فسأل عن سبب اجتماعهم؟ فقيل: على قبر يحفرونه، ففزع ﷺ وذهب مسرعًا، حتى انتهى إلى القبر، ثم جثا على ركبتيْه، وبكى طويلا، ثم أقبل على الناس، وهو يقول: **«يا إخواني! لمثل هذا فأعدوا. يا إخواني! لمثل هذا فأعدوا»** (١)

فهلا أعددنا أنفسنا لتلك اللحود الضيقات، إنه القائل ﷺ كما في حديث أبي ذر: **«إني أرى ما لا ترون، وأسمع مالا تسمعون؛ أطَّت(٢) السماء وحُقَّ لها أن تَئِطَّ، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملَكٌ واضع جبهته ساجد أو راكع، والله! لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا، ولبكيتم كثيرًا، ولما تلذذتم بالنساء على الفُرش، ولخرجتم إلى الصعُدات(٣)، تجأرون(٤) إلى الله»** (٥)

---

(١) حسن: أخرجه ابن ماجه (٤١٩٥)، والألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٣٣٨).

(٢) الأطيط: صوت الرحل، ومعناه: أن كثرة من في السماء من الملائكة العابدين قد أثقلتها حتى أطت.

(٣) الصعدات: الطرقات.

(٤) تجأرون: تستغيثون.

(٥) حسن: أخرجه ابن ماجه (٤١٩٠)، والترمذي (٢٣١٢)، و الألباني في «الصحيحة» (١٧٢٢).

وفي رواية المنذري: «ولحثَوْتم على رءوسكم التراب»[١] والله! لو علمنا حق العلم لقام أحدنا حتى ينكسر صُلبه، ولصاح حتى ينقطع صوته.

الأمر خطير جد خطير:

يـا نفـسُ قـد أزفَ الـرَّحيل — وأظَلَّـك الخَطْـبُ الجلـيلُ

فـتأهبي يـا نفـسُ لا يلعـبْ — بـك الأمـلُ الطـويلُ

لتنـزلنَّ بموضـعٍ ينـسى — الخلـيلُ بـه الخلـيل

وليركـبنَّ علـيك — مـن الثـرى حمـلٌ ثقـيل

قُـرن الفـناءُ بـنا فمـا يبقـى — العزيـزُ ولا الذلـيل

***

خالـف هـواكَ إذا دعـاكَ لـريبةٍ — فلـربَّ خـيرٍ في مخالفـةِ الهـوى

حتـى متـى لا تَـرْعَوِي يـا صـاحبي — حتـى متـى لا تَـرْعَوِي حتـى متـى؟

دروس علمتنيها الحياة في ظل العقيدة

وأسرد لكم بعض دروس علمتنيها الحياة في ظل العقيدة سردًا بلا توسع فيها:

علمتني الحياة: أن من خدم المحابر خدمته المنابر.

وكم من سراج أطفأته الريح، وكم من عِبادة أفسدها العُجب.

وأن:

وَضْع الـنَّدى في موضـع الـسيف بالعلـى — مـضر كوضـع الـسيف في موضـع الـندى

وأن من أراد أميرًا كأبي بكر؛ فليكن كخالد وسعد، وأن «سوف» جندي من جنود إبليس.

وأن معظم النار من مستصغر الشرر.

---

(١) ضعيف: أخرجه ابن أبي الدنيا (١ / ٤) في «صفة النار»، والألباني في «ضعيف الترغيب والترهيب» (٢١٢٤).

وأن الحق لابد أن تحرسه قوة.

وأنه بالشكر تدوم النعم.

وأن من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل.

وأن النارَ بالعودين تُذكى وأنَّ الحربَ مبدؤها كلامُ

وأن ثمن العزة قد يكون قطرة دم.

وأن الجواد قد يكبو، وأن الصارم قد ينبو، وأن النار قد تخبو.

وأن الإنسان محل النسيان، و: ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾ [هود: ١١٤].

أعظم سلاح في أيدي المؤمنين

وأخيرًا علمتني الحياة في ظل العقيدة: أن أعظم سلاح بأيدي المؤمنين هو الدعاء.

سهامُ الليل لا تخطئ ولكن لها أمدٌ وللأمدُ انقضاءُ

***

لا تسألن بُنَي آدم حاجةً وسل الذي أبوابُه لا تُحجَبُ

الله يغضب إن تركت سؤالَه وبُنَي آدم حين يُسأل يغضبُ

سلاح عظيم، غفل عنه المؤمنون، لن يهلك معه أحد بإذن الله، إنه الدعاء والالتجاء إلى رب الأرض والسماء: ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر: ٦٠]، ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة: ١٨٦].

يقول ابن كثير عليه رحمة الله: كان بقي بن مخلد -أحد الصالحين الأخيار- عابدًا قانتًا خاشعًا، أتته امرأة صالحة، فقالت: يا بقي ! إن ابني أسره الأعداء في أرض الأندلس، وليس لي من معين بعد الله إلا ابني هذا، فسل الله أن يردّ عليّ ابني، وأن يطلقه من أسره.

فقام وتوضأ، ورفع يديْه إلى الحييِّ الكريم الذي يستحيي أن يرد يدي العبد صفرًا خائبتيْن سبحانه وبحمده، فدعا الله عز وجل أن يفكّ أسر ابنها، وأن يجمع شملها بابنها، وأن يفك قيده، وبعد أيام وإذا بابنها يأتي من أرض الأندلس، فتسأله أمه: ما الذي حدث؟ قال: في يوم كذا في ساعة كذا- وهي ساعة دعاء بقي - سقط قيدي من رجلي، أعادوه

فسقط، ألجموه فسقط، فذُعروا ودُهشوا وخافوا، وقالوا: أطلقوه.

قالت: فعلمت أن ذلك بدعاء صالح من عبد صالح: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾ [النمل: ٦٢]، «الدعاء هو العبادة» (١).

هاهو صلة بن أشيم كان في غزوة فمات فرسه، فتلفت يمينًا وشمالًا، ثم قال: اللهم لا تجعل لمخلوق عليَّ منَّة، فإني أستحيي من سؤال غيرك، وعلم الله صدقه في سرائه وضرائه، فأحيا الله عز وجل له فرسه، فركبه حتى إذا وصل أهله، قال لغلامه: فك السرج فإن الفرس عارية، فنزع السرج، فهبط الفرس ميتًا.

ولا عجب؛ فمن توكل على الله، ومن التجأ إلى الله أجاب دعاءه وحفظه، ولو كادته السماوات والأرض، لجعل الله له من ذلك فرجًا ومخرجًا.

فمرة أخرى إذا ادلهَمَّت الخطوب، وضاقت عليك الأرض، وقلَّ الناصر، وزمجر الفساد، ودُعم الباطل، وكُبت الحق، وعيَّر البخيلُ الكريمَ، وعيَّر العييُّ الفصيح، وعيَّر الظلام الشمس:

وطاولت الأرض السماء سفاهة ... وفاخرت الشهبَ الحصا والجنادل

وتمَنَطق كل جبان، وتخلى الأمناء، ورُفع السفهاء، وتظاهر بالوفا كل خوّان، ونطق الرويبضة، وغدا القرد ليثًا، وأفلتت الغنم، فارفع يديْك إلى من يقول: ﴿ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ [غافر: ٦٠].

يا من أجبت دعاءَ نوحٍ فانتصر ... وحملته في فُلْكِك المشحونِ

يا من أحال النارَ حول خليله ... روحًا وريحانًا بقولك كوني

يا من أمرت الحوت يلفظ يونس ... وسترته بشجيرة اليقطين

يا رب إنا مِثْله في كربةٍ ... فارحم عبادًا كلهم ذو النون

اللهم إنا نسألك في هذه الساعة المباركة، باسمك الأعظم الذي إذا سُئلت به أعطيت، وإذا استرحمت به رحمت، وإذا استفرجت به فرَّجت؛ أن تجيرنا من النار، وأن ترزقنا ألسنة

---

(١) صحيح: أخرجه ابن ماجه (٣٨٢٨)، والترمذي (٢٩٦٩)، وأحمد (١٨٣٧٨)، وأبو داود (١٤٧٩)، والألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٦٢٧).

ذاكرة، وقلوبًا خاشعة، وأعينًا مدرارة، وإيمانًا نجد حلاوته إلى أن نلقاك.

رباه! إن حالنا لا يخفى عليك، وذلنا ظاهر بين يديك، والمسلمون عبيدك، وبنو عبيدك، وحملة كتابك وأتباع رسولك، يرجون رحمتك، ويخشون عذابك.

اللهم الْطف بنا. اللهم ارحمنا.

ربنا لا تؤاخذنا بما فعل السفهاء منا.

يا مغيثًا لمن لاذ بحماه! يا قريبًا لمن دعاه! يا معيذًا من استعاذ به! أجِرْنا من النار، ومن دار الخزي والبوار.

اللهم إن أردت بعبادك فتنة فاقبضنا إليك غير مفرطين ولا مفتونين.

نسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يتوفانا مسلمين، وأن يُلحقنا بالصالحين، وأن يجعلنا من عباده المتقين الفائزين.

اللهم واجعل ما قلناه خالصًا لوجهك الكريم، بمنِّك وكرمك يا أكرم الأكرمين.

تم الكـــلامُ وربُـــنا محمـــود ولـــه المكـــارمُ والعلـــى والجـــودُ

وعلـــى الـــنبي محمـــدٍ صـــلواته مـــا نـــاحَ قُمـــريٌّ وأَوْرَق عـــودُ

✿✿✿✿✿

[٨] إيماض البرق في خلق سيد الخلق ﷺ الحق

الحمد لله الذي قد أنزلا كتابه وللرسول أرسلا. اللهم لك الحمد حمدًا يليق بجلال وجهك وعظيم سلطانك. ولك الحمد زنة عرشك وعدد خلقك ورضا نفسك ومداد كلماتك. لا تشكر نعمتك إلا بنعمتك، ولا تنال كرامتك إلا برحمتك.

أنت أهل الثناء والمجد ... فامنن بجميل من الثناء المواتي

يا محب الثناء والمدح إني ... من حيائي خواطري في شتاتي

***

حمدنا وثناؤنا ليس إلا ... هبة منك يا عظيم الهبات

لو نظمنا قلائد من جمان ... ومعان خلابة بالمئات

لو برينا الأشجار أقلام شكر ... بمداد من دجلة والفرات

لو نقشنا ثناءنا من دمانا ... أو بذلنا أرواحنا الغاليات

أو وصلنا نهارنا بدجانا ... في صلاة وألسن ذاكرات

أو قطعنا مفاوز من لهيب ... ومشينا بأرجل حافيات

أو بكينا دما وفاضت عيون ... بلهيب المدامع الحارقات

ما أبنا عن همسة من معاني ... في حنايا نفوسنا ماكينات

أي شيء أبقى وأنقى وأرقى ... من حروف بمدحكم مترعات

فالق الحب والنوى جل شانئنا، لم يزل مرغما أنوف الطغاة، الولي المتين ما خاب ظن لنفوس في فضله طامعات، الحمد لك لا ند لك، والملك لك من عالم الذر الخفي إلى الفلك، ما عام أو ما طار فيه أو سلك، ما كان من إنس وجن أو ملك، إلا وقد شهدوا بأن الملك لك، الحمد لله على توفيقه ومنه وفضله وجوده، وصلوات الله والسلام ما ناح طير الأيك والحمام، على النبي المصطفى البشير الهاشمي المجتبى النذير وآله، ما انبلج الصباح وصحبه ما هبت الرياح، بذكر الله ترتاح القلوب، ودنيانا بذكراه تطيب، من شاء في ظل

السعادة هجعته، فهنا تشاد صروحها وتقام، أورام نسيان الهموم فهاهنا، تنسى الهموم وتنسخ الألأم، سبحان من لا هدي إلا هديه، نفنى ويبقى الواحد العلام.

أي فلذات الأكباد وثمرات الفؤاد، فتيان الحمى وجنود الهدى، معاقد الأمل ورجال العمل، قادة السفينة في موج كالجبال، وليل خافت الذبال، حداة القافلة في خضم العواصف الهوج والملتويات العوج.

نظر الله هذه الوجوه التي أحسبها في الخير قد رقت أندائها، وتجاوبت أصدائها، وغردت أطيارها، وتنفست أزهارها، وفاح أريج أصائلها وأسحارها، فالسعد والإيمان في بسماتها، والورد والريحان من نسماتها، في هذه الليلة الغراء، التي لا أرى فيها إلا المغوار وأب المغوار، والرجال وأبناء الرجال وأحفاد الرجال.

أحييكم بتحية الإسلام تحية ظامىء لريكم ورياكم، ومتطلع لسهيلكم وثرياكم، تحية الأبوة للبنوة، والشيخوخة للفتوة، والقرابة للأخوة، فالسلام عليكم ورحمة الله وبركاته، تصافح مواطن الإحساس من نفوسكم، وتخالط معاقد الإيمان من قلوبكم، وتحرك أوتار الحمية في صدوركم، سائلين لكم التأييد من ذي العرش المجيد، وزيادة في النعيم، وسيادة تدفع إلى حرم العز من ثنية التنعيم.

أهلا بني طه ونون والضحى، وبني تبارك والكتاب المحكم، وبني الأباطح والمشاعر والصفا، والركن والبيت العتيق وزمزم.

حياكم الله وأحياكم للأمة، ترفعون منارها، وتورون نارها، وتقومون منآدها، وتصلحون فسادها، وتنفقون كسادها، وتحسنون تهيئتها وإعدادها، فتملكون قيادها، وتستنشقون رندها وعرارها وشيحها وقيصومها وريحانها،

جمـــع الهدايـــة قـــد شـــرفت منـــزلا قـــدر المـــنازل عـــن ســـناها نـــازل

كـم ســرت فـيها نحــو ربعــك منشدا لـــك يـــا مـــنازل في القلـــوب مـــنازل

معشر الإخوة،

غير خاف على الغبي والنبيه، والحليم والسفيه، أننا نعيش مرحلة حرجة لم يسبق لها مثال، الأمة كثير فيها يعد العادون لكنهم مع هذا العدد مبددون،

مـــدوا يـــدا لغـــريب بـــات يقطعهـــا وكـــان يلـــثمها لـــو أنـــه لطمـــا

أسـراهم في سـجون البغـي مـا عـرفوا ... لـون الحـياة وقـتلاهم بـلا قـودي

بـنوا اللقـيطة داسـوا حـرمة الـصحف ... واستأسـد الغـي حـين اسـتنوق الرشـدوا

يهان كتاب الله في حملة إذلال منظمة، فلا تنشق مرارة ولا تثور حرارة، فتتخذ مواقف تدل على الثأر للكرامة،

مـاذا سـيبقى مـن كـرامة ديـننا ... لـما تـداس وتـستباح مـصاحف

ردود أفعال هلاهيل!! لا تتناسب مع فداحة المصيبة ومقدار الإهانة!! فلم يجد أبرهة حتى من يقول: أنا رب الأسرى وللمصحف رب يحميه، فوا ذلاه!!!

في زمـان الـصقور صـرنا حمامـا ... كـيف يحـيا مـع الـصقور الحمامـا؟

وقـع الـسقف يـا صـناديد قومـي ... أوى صـاحون أنـتم أم نـياما

لا يهـين الجمـوع إلا رضـاها ... رضـي الـناس بالهـوان فهانـوا

ولا عجـب إذا أرخـصت نفـسك عـند ... قـوم فـلا تغـضب علـيهم إن أسـاءوا

لـو كـنت مـن هاشم لم تـستبح صحفي ... بـنوا اللقـيطة مـن قـرد ابـن نـصرانيا

أمة تداعى عليها الأعداء، فإذا هي في عمومها غثاء لا منفعة ولا غناء، في اضطراب واحتراب، السرائر منها بليت، والصحائف نشرت، والدفائن نبشت.

فهـي والأحـداث تـستهدفها ... تعـشق اللهـو وتعـشق الطـربَ

تـساق إلى الـذبح خاضـعة ... وتـرفع للـذابحين الـذنبَ

تتلمس الهداية من مطالع الظلال، وتطلب الشفاء بأسباب المرض العضال، تبحث عن الدليل وهو معها وحي من ربها، يراد لها ومنها أن تفزع إلى عدوها، تتعادى لإرضائه!! وتتهادى بإغوائه!! تتنازل عن عقلها لعقله وإن كان مأفونا!! وعن فكرها لفكره وإن كان مجنونا!! يراد لها أن تلقح فضائلها برذائله!! وتهزأ بماضيها افتتانا بحاضره!! وتسخر من رجالها إعجابا برجاله!! وتنسى تاريخها لتحفظ تاريخه!! وتحتقر لسانها احتراما للسانه!! وتحت ضغط ما يراد لها تضاءلت فيها السوابق، وتصاهلت عرج الحمير، وترجل الجنس اللطيف، مخلفا فينا شبابا للأنوثة ينتمي، ونطق الرويبضة والتافه، وأشار بالرأي البليد للذكا، وتؤم أشباه الرجال نسائها، خابت ذكور إذ تأمهم نساء،

ووئدت الأخلاق بأيدي نساء بلحى، من كل ذي وجه لو أن صفاته تندى لكان من الفضيحة يقطر.

بـــئس المـــناخ لقـــد حـــسبت هـــوائه دنـــــسا وأن بحـــــاره لا تطهـــــر

كل ذلك عبر شبكات وقنوات وصحف ومجلات، نظَّرَ لها المفسدون، واستحوذ عليها المستهترون، لو اطلعت عليها لوليت منها فرارا ولملئت منها رعبا، ولازالوا يخصفون عليها زخرف القول غرورا، واتخذوا معها القرآن مهجورا، تنفث السموم وتحمل النفاق والتدجيل، فإذا الحق باطل والأباطيل حقوق والإفك أقوم قيلا، شعاراها من ذا يعيب هز البطون، وذاك من روائع الفنون، الدين أن تبدوا ظريفا مرنا، وإن عبدت نعجة أو وثنا.

مـــا الـــدين بالعفـــاف والـــصلاة الـــدين خـــذ فـــيه خفـــة وهـــات

فيها أعذب مطرب هو الحمار، وشر مزعج هو الهزار، وأشجع الشجعان ذاك الأرنب، والليث رمز الجبن لا تعجب، دنيا الإعلام تقليب الحقائق، وتظهر العلقم حلو الرائق، فأفرزت لنا جيلا غالبه مظلم الروح، بليد الذهن، ضعيف الإرادة، يترنح كالذي يتخبطه الشيطان من المس، سقط متاع لا يباع ولا يبتاع، دوٍ كحال الطبل، ما في جوفه شيء، ولكن للمسامع يشغل، هبل إذا اجتمعوا صاحوا، كأنهم ثعالب ظبحت بين النواويس، رؤاهم أهدافهم ما عرضت إلا رأيت عجبا، ترى ناسا يتمنون العمى، وآخرين يحمدون الصمم!!

معشر الأخوة...

إن بلائنا ليس في هجمة عدونا فحسب، بل إن من بلائنا فئة من بني جلدتنا، هي بمثابة بوق عدونا!! لا دور لها سوى ترديد كلامه لكن بصوت أعلى!! آله صماء يديروها على ما شاء!! ويريدها على ما شاء!! يحركها للفتنة فتتحرك، لتغطي الشمس بغربال، وتطاول العماليق بالتنبال!! يدعوها لتفريق الصفوف فتستجيب وتجيد التخريب!! يريدها حمى تنهك فتكون طاعون يُهلك!! يريدها لسانا فتكون لسانًا وعينًا وأذنًا ويدًا ورجلًا ومقراضًا للقطع وفأسًا للقلع ومعولًا للصدع!! ما يشاء العدو إخماد حركة إلا كانت على يديها الهلكة!! قد تهيأت فيها أدوات الفتنة، فجنسها وفردها غبي العين عن طلب المعالي، وفي السوءات شيطان مريد!! بينه وبين أمته إدغام بغير غنة!! كما تدغم اللام في اللام فلا يظهر إلا المتحرك!! طويل اليد اليسرى وأما يمينه فليس لها في المكرمات بنان!! يهدم الأمة ويدعي إنهاضها!!

يـــا مـــن حملـــت الفـــأس تهـــدمها علـــى أنقاضـــها
أقعـــد فمـــا أنـــت الـــذي يـــسعى إلى إنهاضـــها
كـــم قلـــت أمـــراض الـــبلاد وأنـــت مـــن أمراضـــها

وتحت وطأة تداعي الأعداء، خرج مدافعون عن الإسلام بمنطق الضعفاء العجزة، يتمسكون بالقشة لينفوا عنهم التهمة، فلا الإسلام نصروا!! ولا لأعدائه كسروا!! فضروا وما نفعوا!! بل سوغوا وميعوا وخلطوا البعر بالدر الثمين!! فلم يميز بين غث وسمين!! فجاءوا بالكفن في ثياب العرس!! وعرضوا النوائح في مواكب الفرح!! فصارت الأمة في عمومها تمثالا، لا يؤوي بل يغري، وسراب يخدعوا ولا يروي، ﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٧]، ﴿ أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ﴾ [آل عمران: ١٦٥].

إن أمة تتزحزح عن دينها مقدار شعرة، تنأى عن مراق الفلاح والعزة سبعين ذراعا!! ومع هذا كله فهي أمة مرحومة، لا تزال فيها طائفة على الحق ظاهرين إلى قيام الساعة، فما زال في الكرخ زند يوري بالمرخ نلمح شعلته، وما زلنا نرى من السنان صفحته،

لا تقـــل ذلـــت فمـــا يـــصدق أن يـــستذل الفـــار لـــيث الأجمـــي
مـــا غفـــا طرفـــي ولا قلـــبي ســـها
لم أزل ألمـــح في روضـــتنا وجـــنة الـــورد وأهـــداب المهـــا
لم أزل أحمـــل في ذاكرتـــي صـــورة الـــنجم الـــذي فـــوق الـــسها
والـــناس مـــثل الأرض مـــنها بقعـــة تلقـــي بهـــا خبـــثا وأخـــرى مـــسجد

لهذا كله كانت هذه الكلمات بعنوان: «إيماض البرق في خلق سيد الخلق صلى وسلم عليه الحق».

خفـــق القلـــب لـــه لمـــا ومـــض بـــارق شـــب الجـــوى لمـــا بـــرق
خلـــته مـــن بـــين أســـداف الدجـــى أمـــلا مـــن بعـــد يـــأس قـــد بـــرق

إيماض يقول: إن المعركة مع أعداء الله ليست معركة خاطفة سريعة!! لكنها شاقة طويلة مستمرة!! ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ﴾ [البقرة: ٢١٧]،

نحتاج معها إلى طول نفس، وشدة صبر، وعمق إيمان، ورسوخ يقين، وبذل جهد، وتظافر جهود، لاستنقاذ الغثاء من دوامة السيل، فالسيل فيه غرق وويل، ورسولنا ﷺ في ذلك أسوة، فإن لم نجعل الإنقاذ نهجا، فسوف تضيق بالدمع المآقي!!

إيماض يقول: لئن تخلينا اليوم عن كل وسائل الانتصار المادية، فقد بقي في أيدينا سلاح من أنضى الأسلحة، لا يقوم له شيء؛ ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ۝ ﴾ [فصلت: ٤٢].

والله ما هي إلا نفحة من نفحاته، تهب على هذا القطيع المبدد، فإذا قلوبهم مجتمعة، ونوافرهم متآلفة، وأخلاقهم شاما،

كلمات رب العالمين بها … سما عقل وفيها للظلام كواشف

إيماض يقول: زمزم فينا ولكن أين من يقنع الدنيا بجدوى زمزم،؟؟!!

إيماض يقول: إن الدعوة إلى الله بأخلاق الإسلام، روح تجري، ونفحة تسري، حقيقة جذابة، ليس بين النفوس وبين الإذعان لها إلا إشراقها عليها،

ولولاها لساوى الليث ذئبا … وساوى الصارم الماضي قرابا

يشهد بذلك العقل والنقل والقريب والغريب والموالي والمعادي، يذكر الأستاذ النجار أن أحد عقلاء الغرب وقف يخاطب جمعًا من المسلمين يقول: يا أيها المسلمون إنكم لن تستطيعوا أن تسايروا الغرب اليوم، لا اقتصاديا ولا عسكريا ولا سياسيا ولا إعلاميا!! ولكنكم تستطيعون هذا الغرب المتكبر المتغطرس المستعلي يجثوا على ركبهم أمامكم بالإسلام!! ثم يقول إيتوني بأربعين شابًا يحسنون فهم هذا الدين فهما دقيقا، ويحسنون تطبيقه على أنفسهم تطبيق دقيقًا، ويحسنون عرضه على الناس بلغة العصر عرضا دقيقًا، وأنا أضمن لكم أن أفتح بهم الأمريكيتين الشمالية والجنوبية!!

حاله:

ولسوف تشرق شمسكم بسمائهم … يومًا وليست بعد ذلك تغرب

والتاريخ أثبت أن انتشار الإسلام في بقاع من آسيا ورقاع من أفريقيا، لم يكن بجيوش ولا حشود، بل بأخلاق الإسلام التي كان يتعامل بها معهم تجار الإسلام!!

ليس بعد اليقين يا عين شك … أكد الفعل ما حواه الكلام

إيماض يقول: أننا نعيش أزمة أخلاق وإننا أمة الأخلاق، وإنما الأمم الأخلاق.

إذا الأخــــلاق قــــد ولى ذووهــــا فقــل يــا مــوت مــر بــنا ســريعا

إيماض يقول: ألا ما أحوج الأمة الغافلة المنقطعة عن القافلة، إلى صور مثالية عليا لأخلاق فاضلة، وليس ذلك إلا في أخلاق رسول الله ﷺ الزاكية.

سـل الـشيح عـنها والخزامـى ورنـدها وطــيب مغانــيها وصــفو الجــداول

فالــورد والــريحان عــرف عــبيرها والمــسك كــدرة ماءهــا والعنــبر

إيماض يقول: والله وبالله وتالله، لا نعرف أحدًا كمله الله بكل فضيلة ونزهه عن كل رذيلة، مثل رسول الله ﷺ !!

فلـــن تـــرى في وصـــفه مثـــيلا مـــستوجب ثنائـــي الجمـــيلا

فهـــو خـــتام الرســـل باتفـــاق وأفـــضل الخلـــق علـــى الإطـــلاق

ما فضيلة إلا وهي صفته إتمام مكارم الأخلاق من مهمة بعثته، سئلت عائشة رضي الله عنها عن خُلقه فقالت:

تنثـــر الـــدر عبقـــريا عجيـــبا لـــيس مـــن مـــسقط ولا مـــن عمـــان

قالت: «كان خلقه القرآن»[1]، ما خُلق سني دعا القرآن له، إلا كان أول عامل به وداع إليه، وما خُلق سيء حذر منه القرآن، إلا كان أول مجتنب له ومحذر منه.

وحاله: ﴿ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُ ﴾ [هود: ٨٨].

في وجهـــه قـــسمات قـــد دللـــن علـــى مـــا ضـــمه القلـــب مـــن أخـــلاق قـــرآن

إيماض يقول: ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهۡتَدُواْ ﴾ [النور: ٥٤].

فكــن في إتــباع المــصطفى مــثل عــصبة وراء خـــبير في ملغـــم بقعـــة

فمـن ينحـرف يـردى ومـن يتـبع يفـز وبـــين الـــردى والفـــوز زح بخطـــوة

فلـــزم صـــفاته وإيـــاك المللـــل إن يـــستطل الوصـــف ولم يـــستطل

---

(١) صحيح: مسلم (١٧٧٣).

اجعلـــه نـــصب العـــين والقلـــب ولا تعـــدل بـــه فهـــو يـــضاهي المـــثلَ

إيهاض فحواه: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ ﴾ [الأحزاب: ٢١]، صلاح القدوة صلاح الأتباع، وإن صلحت العين صلح سواقيها، وإن رشد المربي كان موسى، وإن هو ضل كان السامري.

إنه إيهاض برق يكاد يخطف بصر زنيم، ليس يعرف من أبوه، نبطي من زجاج مظلم، نسبة لا يعرف إلا بالسراج، من أسخن الله عينه وأدنى هلاكه وحينا، فكشف عن لكنته، وصرح بسوءته، يتطاول على رسول الله ﷺ، ويطعن في رسالته وفي خلقه، بل وفي نسبه، ويا لله.

يـــريد بقـــوله تدنـــيس شمـــس وأيـــن الـــشمس مـــن دنـــس وعـــار

ضربيان سلاحه الفسا، نعوذ بالله وبالله نعوذ، قد جف من ماء الكرامة وجهه، لكنه واقحة ولؤم ينقط، لو أن صاعقة هوت، ما أثرت في وجه الوقح العديم الماء، لا تعجبن إذا امتحنت بسخفه، فالحر ممتحن بأولاد الزنا!! إنه شواظ يقول:

أرعـــد وأبـــرق يـــا ســـخيف فمـــا علـــى آســـاد غـــيل مـــن نـــباح جـــراء

أخـــسأ رقـــيع فلـــيس كفـــؤك غـــير مـــا يجـــري مـــن الأعفـــاج والأمعـــاء

لو ذات سوار لطمتني، والضرورة دعتني، ولولا الضرورة لم آته، وعند الضرورات آتي الكنيف!!

آلا أرغم الله معطسك من شآن، مغالط أنتن من حلتيت، وأثقل من كبريت، وأهدى إلى الظلال من خريت، وعريت وهريت، وقطعت وفريت، وأحرقت وذريت، وأذبت وأجريت، أَغريت أم أُغريت، وضريت أم ضريت، وتطوعت أم كريت، ألا خبت، لو ضربت الجبل بالزجاج ألف ضربة ما انكسر!! ولو سترت الصبح بكل شيء ما أنستر!! إنه خيار من خيار زكاه الله وكفاه، زكى استقامته ﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝ ﴾ [النجم: ٢]، ، ونطقه ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ ﴾ [النجم: ٣]، وعلمه ﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝ ﴾ [النجم: ٥]، وفؤاده ﴿ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝ ﴾ [النجم: ١١]، وبصره ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝ ﴾ [النجم: ١٧]، وصدره وذِكره ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝ ﴾ [الشرح:١، ٢]، وخُلقه ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝ ﴾ [القلم: ٤]،

وزكَّاه كله ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

فإذا كتاب الله أثنى مفصحا　　كان القصور قصارى كل فصيح

وأين دوي الذباب والزنبور من نغم الفرقان والزبور.

فما على البدر أن قالوا به كلف　　ولا على المسك أن المسك مفتوت

وطالما أخلي الياقوت جمر غضا　　ثم انطفى الجمر والياقوت ياقوت

ومن العجائب والعجائب جمة أن تسخر القرعاء بالفرعاء!!

والشمس لا تخفى محاسنها وإن غطى عليها برقع الأنواء.

لكن أنى يرى الشمس خفاش يلاحظها　　والشمس تبهر أبصار الخفافيش

إيماض يقول: إن رسول الله ﷺ مثلٌ أعلى، لأقصى ما يبلغه البشر من مراق الكمال، وغاية تنقطع دونها الآمال، يقول الصديق من رجح إيمانه بإيمان الأمة: أما كلفتموني أخلاق رسول الله ﷺ، والله ما ذاك عندي ولا عند أحد من الناس، والله ما في طاقة متحدث ولو ألقت إليه البلاغة أعنتها، أن يتقصى أخلاقه ويستوربها، لكنها تتحدث عن نفسها.

فالمسك ما قد شف عن　　ذاته لا ما غدا ينعته بائعه

فحسبي وحسبكم أن نُنيخَ ركائبنا على ساحل بحر مسك أخلاقه، لنظفر منه الليلة بدرة، وعلى روض ريحان خلاله، لنشتم منها نفحه، فيكون العنوان: «إيماض البرق في شجاعة سيد الخلق».

وأنا على يقين أني لن أبلغ، من تأمل هذا الخُلق، في هذه الدقائق، إلا مقدار ما يبلغه واصف الشمس وهو لا يعرف منها إلا أنها كوكب ينسخ طلوعه سواد الليل!!

ماذا عسى بلغاء اليوم قائلة　　من بعد ما نطقت حم تنزيل

موضع النجم لا ينال بباع لا تقسه بغيره في جناس، سبع الغاب ليس مثل السباع، ما عسى أجمله من ورق العرار إلى العبير والعنبر، في خير من حملت أنثى ووضعت، وخير حاف على الدنيا ومنتعل، إن هي إلا دماجيل للعضد، وقلائد للجيد، عجزت فيها عن أداء الواجب، وأحاول الجبر بالمسنون، وفضل الله على من يشاء ليس بممنوع ولا ممنون،

وكلن ينفق على قدر استطاعته، وهو ابن ساعته، من لم يقل له ربي أعيت عليه مطالبه، أسالك اللهم أن تجعلها لوجهك الأعلى وأن تقبلها، أقول والله تعالى المستعان ومن بغيره استعان لا يعان.

شجاعة رسول الله ﷺ ما شجاعته،؟! تناقلتها الأخبار، وسارت مسير الشمس في رائعة النهار، حدث عنها لا حرج، بمكان لا يجهل، ومنزلة لا تدفع، تناقلها الرواة بكل فج، وأهدتها الحواضر للبوادي، وحسبه أنه نبي، وأنه أبو الشجعان وصانعهم، على عينيه ملك الشجاعة فهي طوع زمامه، ولغيره جمحت وليست تركب، والذي رفع السماء وعلم آدم الأسماء، ما شهدت الغبراء أشجع من رسول الله ﷺ، ولا أثبت منه قلبا، كان طودا لا يتزعزع، شامخا لا يتزلزل، لا ترهبه الأزمات، ولا تهزه الحوادث والملمات.

تـروى أحاديـث الوغـى عـن بأسـه فالـسيف يـسند والعوالـي تطلـق

ومـا رآه فـارس إلا اسـتتر في فعـل الـنجوم عـاين القمـر

وحسبه أنه نبي، كان ﷺ أشجع الناس حين خرج على قومه بدعوة ينكرونها جميعا، وليس له من معين سوى ربه، فصدع بها في جميع الأماكن والأزمان والأحوال، فوق الجبل وفي المسجد وفي الطريق والسوق، في المنازل والمواسم والحواضر والبوادي حتى في المقابر، في الحضر والسفر والأمن والقتال والصحة والمرض، وحين يزور وحين يزار، دعا من أحبوه ومن أبغضوه، ومن استمعوا له ومن أعرضوا عنه، خطيبه يقارع الخطباء، وشاعره ينازل الشعراء، دعاته يجوبون الآفاق، في إستنفار دعوي لم تملك قريش أمامه إلا أن تقول: لا تسمعوا لهذا القران والغوا فيه لعلكم تغلبون!!

بذل كل وسعه، واستخدم كل أسلوب ووسيلة مشروعة، في حلم وأناة وهدوء، قذف بالحق على الباطل، فأزاح العلل وسد الخلل، وقال ما يرضي الله وإن أغضب البشر، فذهب الزبد جفاء وطاعنا حتى لم يجد من مطاعن، ونازل حتى لم يجد من منازل، وبقي ﷺ قدوة، يصبوا إليها كل من عرف الحق، وبالحق يدين مثلا، أعلى لنفس جمعت، سطوة العادل في أنس الحليم، فهو الحياء ما حل في بلد إلا بإذن الله أحياه، وحسبه أنه نبي.

كان أشجع الناس، حين قوطع وحوصر مع بني هاشم في شعب لسنوات بلا ميرة، حتى اضطروا لأكل ورق الشجر، وسمع صوت الصبية يتضائون من شد الجوع، فصبر وما وهن وما ضعف وما استكان، حتى انتصر وسقطت المقاطعة، وأحق الله الحق وأبطل

الباطل، وكذلك الحق لا يتغير أصله وسوسه، وإن تغير لبوسه.

ففـي المعـادن مـا تمـضي بـرونقه يـد الـصباغر لا يـصدأ الـذهب

والصخر في ظل العقيدة عسجد والآل في ظل العقيد ماء، والعز في كنف العزيز ومن عبد العبيد أذله الله.

وحسبه انه نبي، كان ﷺ شجاعا أشجع من الشجاعة، وأشد في الحق من الشدة،

ماضـي العـزيمة والـسيوف كلـيلة طلـق المحـيا والخطـوب دواجـي

سعى كفار قريش إلى عمه أبي طالب فقالوا: يا أبا طالب إن لك فينا سنا ومنزلة وشرفا، وإنا قد إستنهيناك في ابن أخيك فلم تنه عنا، وإنا والله لا نصبر على ذلك، فإما أن تكفه عنا أو ننازلك وإياه حتى يهلك أحد الفريقين ثم انصرفوا، فعظم عليه فراق قومه ولم يطب نفسا بإسلام ابن أخيه لهم وخذلانه، فبعث إلى رسول الله ﷺ فقال له: يا ابن أخي أبقي علي وعلى نفسك ولا تحملني من الأمر مالا أطيق، فظن رسول الله ﷺ أنه خاذله، فحلق وحدق ببصره إلى السماء، ووقفت الدنيا مشدودة السمع لما تفتر عنه شفتا رسول الله ﷺ، وأصاخ الكون وأنصت التاريخ لكلمة التي يتوقف عليها مصير السعادة البشرية والحضارة الإنسانية، فقال: أترون هذه الشمس.؟! قالوا: نعم.! ففي تصميم يفل الحديد، وعزيمة لا تعرف الهزيمة، وتحد يقهر الخصوم اللد، وإصرار يقتحم البحر بجزره والمد، قال كلمة صريحة لا يقبل معناها التأويل، ببلاغة لو قست سحبانا بها ألفيته ذا منطق تمتامي، قال: والله ما أنا بأقدر أن أدع ما بعثت به من إن يشعل أحدكم من هذه شمسي شعلة نار، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه، ثم استعبر وبكى وولى، كأنما أنفاسه حرجف، وبين جنبيه لظى واقده، لو مادت الأجبال من تحته، أو خرت الأفلاك ما زعزع!

يا لقوة الإيمان وجلال البطولة، رجل يظن أنه تخلى عنه ناصره الوحيد من أهله، ثم يقف هذا الموقف العظيم، إنه ثبات النبوة.

إن يكـن أعـزل فالحـق لـه سـيف ولامه فهـو في جـيش مـن الإيمـان مـا فل لهامه

وقف أبو طالب مأخوذا بما سمع ورأى، وهو في قرارة نفسه يقول: والله ما هذا إلا نبي كريم، بلغ أسمى درجات الثقة بالله رب العالمين، فلن ينكس على عقبيه لأنه يأوي إلى ركن شديد، فما عليه وبين جنبيه دين، لو أراد به صم الجبال لما قرت رواسيها، ثم يناديه

أقبل يا ابن أخي فأقبل ﷺ فقال له: إذهب فقل ما أحببت والله لا أسلمك لشيء أبدًا[١]، والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أوسد في التراب دفينا، حاله:

قم وأبلغ نوره للعلمين قم واسمعه البرايا أجمعين

إن تكون في مثل نيران الخليل أسمع النمرود توحيد الجليل

فلم يزل يجهر بالتوحيد ولا يخاف سطوة العبيد! وحسبه أنه نبي ﷺ

كان أشجع الناس ﷺ ، عرضت عليه المغريات من مال وملك وشرف وجاه ونساء، نظير أن يتنازل عن دعوته فأبى ذلك العرض وازدراه ورفضه.

متميزا كالليث ديس عرينه متوثبا يدعوا الرجال نزالي

لا تذكروا نار الصواعق عنده نار الصواعق عنده كذبالي

قال قائل قريش: يا معشر قريش إنه والله قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيله، قد كان محمد غلاما حدثا فيكم، أصدقكم حديثا وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم الشيب في صدغيه قلتم ساحر كاهن شاعر مجنون، والله ما هو بذلك فانظروا في شأنكم، وما معهم إلا العناد وما بهم من العقل من الإنصاف مثقال درهم، أجمعوا رأيهم على أن يفاوض ويغرى بالدنيا والنساء، وهو القائل ﷺ : «فاتقوا الدنيا واتقوا النساء»[٢]، انتدبوا لتلك المهمة أبا الوليد بن عتبة، فأتى رسول الله ﷺ وقال: يا محمد أنت خير أم هاشم؟! أنت خير أم عبد المطلب؟! أنت خير أم عبد الله؟! فلم يجبه رسول الله ﷺ ، لأنه يريد هدايته، فمن الحكمة أن لا يدخل معه في معارك جانبيه تعيقه عن ذلك الهدف، لقد كان بإمكانه ﷺ أن يقول أنا أفضل وصدق، فهو سيد ولد آدم أجمعين، لكنه بذلك قد يضيع الفرصة الذهبية من هداية هذا الرجل، وكان بإمكانه أن يثني على آباءه بما فيهم من صفات حميدة، لكنه بذلك يتيح الفرصة أن يلزمه بما يترتب على ذلك من إتباع دينهم، وقد فعل ولذا آثر بحكمته عدم الإجابة، فالسؤال لا يستحق ذلك، لأنه ليس في صميم الموضوع الذي عقد من أجله الحوار، فهم عتبة ذلك فقال: إن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك، فقد عبدوا الآلهة التي عبت، وإن كنت تزعم أنك خير منهم، فقل حتى نسمع قولك، والله ما رأينا

---

(١) انظر «نور اليقين في سيرة سيد المرسلين» (١ / ٣٢).

(٢) صحيح : مسلم (٧١٢٤).

سخلة أشئم على قومه منك، فرقت جماعتنا، وعبت ديننا، وفضحتنا، والله ما ننتظر إلا مثل صيحة الحبلى، فيقوم بعضنا إلى بعض بالسيوف، فنقتتل حتى نتفانى، وياله من عور عن الحقيقة.

لابـد في العـور مـن تـيه ومـن صـلفا ... لأنهـم يحسـبون النـاس أنـصافا

مـن أيـن يـدري الفـضل معدومـه ... لا يعـرف المعـروف إلا ذووه

تظـن بعـض القـوم علامـة ... وهـو إذا يـنطق بـوم يفـوه

ثم ألقى عتبة حباله وعصيه، إغراءات تغشى البصائر، وتزيغ الأبصار، بلغة مسمومة، ما لامست مستشرفا لها، إلا أهدته السم ونزعت منه الروح، وأبقت الجسم، وكم لعبت بهذا النغمات من نشاز أصابع من على أوتار، فلم يبالي الصادقون بها وقع منها وطار، قال: يا محمد إن كان إن ما بك المال جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت تريد شرفا سودناك فلا نقطع أمرا دونك، وإن كنت تريد ملكا ملكناك، وإن كان شيئا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب حتى نبرئك، وإن كان إن ما بك النسا فاختر من أجمل نساء قريش عشرا، يا محمد قل نسمع:

فلـوا كـان الحديـد لليـنوه ... ولكـن كـان أشـد مـن الحديـد

في حلم ورحابة صدر، أعرض عن كرهات عتبة وأغضى عن سبابه، وقال في أدب النبوة يكنيه: أفرغت يا أبا الوليد،؟ قال: نعم! فأعلن موقفه الحاسم بشجاعة نادرة، دون مراوغة أو مداهنة أو استعطاف أو استلطاف، لأن قضيته قضية عقيدة تقوم على الصراحة والبيان فلا تنازل ولا إدهان.

كالكـوكب الـدري تلقـاه ... العـز بـين يديـه والجـاه

والأرض في عينـيه خـردله ... وعلـى عبـيد الأرض نعـلاه

قذف باطلهم بأوائل فصلت، فالشمس منها سطعت وحسمت، ورفعت الحجاب، وأثارت الإعجاب، ومحت السلب بالإيجاب، ﴿ حمٓ ۝ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴾ [فصلت: ١- ٤].

عتبة يسمع القرآن من فم من أنزل عليه القرآن، فيلقي يديه خلف ظهره وقد فغر فوه مأخوذا بسلطان البيان، ورسول الله قد استحضر عظمة الله الذي خاطبه به، يتلوه بكل

أحاسيسه ومشاعره، ويهوي به على إغراءاتهم ومطامعهم.

فكـــان الآي صــــاعقة علـــيهم تـــشب علـــى مطـــامعهم ســـعيرا

كـــذالك الـــسيف أمـــضى وهـــو هـــاو واقطـــع مـــضربا مـــنه شـــهيرا

لما بلغ قول الله: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ [فصلت: ١٣]، هب عتبة مذعورا قد خيل إليه أن الصاعقة حلت به، فأمسك بفم النبي ﷺ يناشده الله والرحم إلا صمت، فصمت رسول الله ﷺ، ﴿ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝ فَغُلِبُواْ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُواْ صَٰغِرِينَ ۝ ﴾ [الأعراف: ١١٨، ١١٩].

انقلب إلى قومه فلما راؤه قالوا: نحلف بالله لقد جاءكم بغير الوجه الذي ذهب به!!

قـــد نطقـــت بـــضعفه العـــيون مـــا أبلـــغ العـــيون إذ تـــبين

بادروه، ما وراءك يا أبا الوليد،؟؟ فقال وقد آمن بسلطان اللغة والبيان وإن لم يؤمن بالقران: ما هو والله إلا أن جئته فعرضت عليه ما عرضت، ثم سمعت منه قولا والله ما سمعت مثله قط! والله ما هو بالسحر ولا بالكهانة ولا الشعر ما فقهت إلا قوله: ﴿ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ فأمسكت بفيه وناشدته أن يكف، ولقد علمتم أن محمد إذا قال شيئا لم يكذب، يا معشر قريش أطيعوني واجعلوها بي وخلوا بين هذا الرجل وما هو فيه، والله ليكونن قوله بالذي سمعته نبأ عظيم، قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد[1]!! فعاد كالكلب بالوصيد، وكان قريبا على صحة، فقد داخلته حروف العلل ولا عجب!!

من يكن للجرب خلا، ليس يخلوا من إصابة، وهل يبصر الرمداء شمس الضحى؟ وهل يحس بطعم العذب من إيف في الفم؟ ﴿ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [الصف: ٨].

معشر الإخوة...

إنها إشارة منه ﷺ في شجاعة فذة، مفادها لا لقاء بين الحق والباطل، لا إجتماع بين النور والظلام، الاختلاف جوهري يستحيل معه اللقاء على شيء في منتصف الطريق،

---

(١) انظر «كنز العمال» (٣٥٤٢٨)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (٥٠٩)، و«عيون الأثر» (١ / ١٤٠)، و«السيرة النبوية» لابن كثير (١ / ٥٠٥).

الأمر لا يحتاج إلى مراوغة ولا مساومة، ليس إلا الخروج عن الكفر بجملته إلى الإسلام بجملته، وإلا فالبراءة التامة، ﴿ لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: ٤١]، إن قوة الهجمة اليوم على الدين، ينبغي أن تقابل برد في غاية الوضوح، بعيدًا عن التعميم والتمييع، فالأمر جد لا هزل فيه، ﴿ وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ ۝٩ ﴾ [القلم: ٩]، لا بد من الوضوح التام، في القضايا المصيرية التي لا تحتمل إلا وجهًا واحدًا، ﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْكَـٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ ﴾ [الكافرون: ١، ٢].

من يملك النبع لن يحتاج من ظمأ ... إلى الدلاء ولن يحتاج للقرب

يا ابن الإسلام...

إن الرءوس التي رفعها الإسلام تأبى أن تخضع لغير الإسلام، وإن الألسنة التي استقامة على قول الحق، تأبى أن يلويها لاوي لغير الحق، الإسلام دعوة ربانية لا مجال فيها للمساومات، مهما كانت الدوافع والإغراءات والمبررات، فإذا نثر الحب وتساقطت العصافير، وطرح الأب وتهافتت اليعافير، فكن ليثا ديس عرينه، ووسم عرنينه، وأبرق وأرعد، وقلها بملأ الفم، مطعم خبيث لا يأكله إلا الخاطئون، والذي خلق الضب وأنبت النجم والأب، وفلق النوى والحب، لو حالف بطن الراحة الشعر، وسقطت السماء على الغبراء، وصار الشرق غربا والشمال جنوبا، فإني لأرجوا الله أن لا يزل لي قدم، ولا يزيغ لي بصر، ولا أحيد عن مبدأ حق، إني على بينة من ربي.

ألا يا قبح الله شهوة أبيع بها ديني!! وأعق بها سلفي!! وأهين بها نفسي!! وأهدم شرفي!! وأكون عارا على أمتي!!

عرى العقيدة جلت عن مساومة ... ما قيمتي في الملا من غير معتقدي

هل يصير الحر عبدا آبقا،؟! هل يصير الصقر مثل الرخم،؟! هل يتيه الشهم في أوهامه ينحني بعد بلوغ القمم،؟!، لا، لا يكون العير مهرا لا يكون، المهر مهر، المهر مهر، وحسب أنه نبي.

كان ﷺ أشجع الناس، كبير الهمة، لا ينقض عزمه، ولا ينكث عقده.

أصالة عزم أخجلت كل صارم ... من البيض حتى خاف أن يتجردا

وحسب الفتى من عزمه خير ... صاحب يؤازره في كل خطب يئوده

فــإن لم يكــن للمــرء مــن عــزماته نــصير فأخلــق أن تخــيب جــذوده

أشار الشباب على رسول الله ﷺ قبل أحد، بالخروج إلى المشركين خارج المدينة، وكان ﷺ يرى القتال داخلها، فنزل على رأيهم، وعلم الله أنه ما به إليهم من حاجة، ولكن ليستن به من بعده من القادة، كما قال الحسن رحمه الله، صلى بالمسلمين ثم دخل منزله، فتدجج بسلاحه وخرج في كامل عدته، وأمرهم بالخروج إلى العدو، فندم ذوي الرأي منهم حين شعروا أنه أشاروا عليه بخطه كان يفضل غيرها، فقالوا: يا رسول الله ما كان لنا أن نخالفك فامكث واصنع ما شئت، فأتى بالإعجاز في باب الإيجاز، وقال بقلب أسد في همة تدك الجبل الأشم والخصم الألد: ما كان لنبي إذا لبس لامته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه[1]

مــاض البـصيرة غـلاب إذا اشـتبهت مــسالك الــرأي صــاد الــباز بالحجــل

إن قــال بــرا وإن نــاداه منتــصر لبــى وإن هــم لم يــرجع بــلا نفــلِ

وحسبه أنه نبي، كان ﷺ أشجع الناس.

هــو للــصديق كمــا يحــب وللعــدى عــند الكــريهة ضــيغم زئــار

يجتمعون على حربه، ويحرض بعضهم بعضا، للوقوف في وجهه، وعدم التقصير في عداوته، ويتطاولون عليه بالسخرية، وهو صامد كالجبل الشهيق في علياءه، يقرر أن ما جاء به سينفذ، لو كان الثمن إهلاك هؤلاء الصناديد، وحاله:

إن قومــي تجمعــوا وبقتلــي تحدثــوا لا أبالــي بجمعهــم كــل جمــع مــؤنث

يقول عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: اجتمع أشراف قريش في الحجر، فذكروا رسول الله ﷺ، قالوا: ما رأينا مثل صبرنا على هذا الرجل، سفه أحلامنا، وعاب ديننا، وفرق جماعتنا فبين هم كذلك، إذ طلع عليهم رسول الله ﷺ، فأقبل يمشي حتى أستلم الركن، وعداته منه تغص وتشرق، فمغرب من غيظه ومشرق، ثم مر بهم وهو يطوف بالبيت، فغمزوه ببعض ما يقول، وأشاروا بأعينهم وحواجبهم، وهروا هرير المجحرات اللواهث، قال ابن عمر: فعرفت ذلك في وجهه إذ تغير، وظهرت عليه علامات الغضب،

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٦/ ٢٦٨١) معلقًا.

ثم مضى فغمزوه بمثلها، ثم مضى فغمزوه بمثلها، فإذا السكون تحرك، وإذا الخمود تلهب، وإذا السكوت كلام، يستنزل الهلك من أعلى منابره، ويستوي عنده الرعديد والبطل، فسل حساما من بيان فهومه، فرد سيوف الغي مفلولة الحد، قال : تسمعون يا معشر قريش أما والذي نفس محمد بيده، لقد جئتكم بالذبح، ألا إنها لو تنزلت على جبل، أهوت به وهو خاشع، فأخذت القوم كلمته، حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر.

حال الجريظ دون القريظ، صادف در السل در يدفعه، في هضبته ترفعه وتضعه، وإن أشدهم وصات على إيذاءه، ليرفؤه ويسكنه بأحسن ما يجد من القول، يا أبا القاسم انصرف راشدا والله ما كنت جهولًا[1]، والله ما كان جهولا ﷺ.

لكنه جبل الوقار رسا وأشرف ... واعتلى وسما فطأطأت التلال رءوس

من أنكر الفضل الذي أوتيته ... جحد العيان وأنكر المحسوس

كذلك كان إذا غضب، ولا يغضب إلا لله ثم لا يقوم لغضبه شيء.

فإذا أوثير رأيت بركان رمى ... حمما ودك الأرض زلزالا

ترى الرجال وقوفا بعد فتكته ... بهم يظنون أحياء وقد قتلوا

وحسبه أنه نبي، كان ﷺ أشجع الناس، أدركته القائلة في إحدى غزواته في واد كثير العظاح، فنزل تحت سمرة وعلق بها سيفه، وتفرق عنه أصحابه، فجاء أعرابي فاختلط سيفه وسله، ويا لله عدو متمكن وسيف شاهر وموت حاضر، يقول: يا محمد أتخافني،؟؟ فلا نفس جزعت ولا حال تغيرت ولا روعة حصلت!! وما كان إلا الرعد دعوى هديده، يقول:، لا.

كأنما الليث شبيه له ... فهو أخو الليث لام وأب

من اتق الله فأسد الشرى ... لديه مثل الأكلب العاوية

قال: فمن يمنعك مني يا محمد،؟؟ فاستحضر عظمة الله وقدرته ونصرته لأولياءه، وقال:

يهوي فصيح القول من لهواته ... كالصخر يهبط من ذرى ثهلان

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٧٠٣٦)، والألباني في «السيرة النبوية» (١ / ١٤٩).

الله، فخارت قواه وانحلت وسقط السيف من يده وأمكن من نفسه، وقال: كن خير آخذ يا محمد فعفا عنه يتألفه[1]، فالله ما أشجعه وما أحلمه.

تهوي الجبال الراسيات وحلمه في الصدر لا يهوي ولا يتزعزع

رجع الأعرابي إلى قومه يقول جئتكم من عند خير الناس، حاله:

قضيت التعجب من أمره فصرت أطالع باب البدل

وحسبه أنه نبي، كان ﷺ أشجع الناس، خبيرا بفنون المنازلة، يزلزل الخصم فيوهي بنيانه، يقوض أركانه، يرعب جنانه.

عزيمته ترد الغمد سيفا وحكمة ترد السيف غمدا

إن تعدوا يا سيف لتستعينه أجاب قبل أن تتم سينه

ثبت في سنن الترمذي رحمه الله، أن ركانة مصارع لم يضع أحد جنبه على الأرض، طلب منازلة رسول الله ﷺ ومصارعته تبجحا بقوته وإعجابا ببنيته وسطوته، معه ثلاثمائة من الغنم وقال: يا محمد هي لك أن تصارعني؟

وساوس إبليس تغشى النظر وتخفي عن العقل نور الفكر

أي ركان أرح المطية ولا تكن كمحاول صيد النجوم من المياه الركد

هل لك أن تصارعني يا محمد؟ فرأى رسول الله ﷺ في هذا العرض وسيلة لهدف أسمى من المصارعة، وهو إسلام هذا الرجل مع توظيف هذه الطاقة المتفجرة لإعلاء كلمة الله، لا يريد صرعه لا يريد قتله، وإنما يريد حياته، فما هو إلا الغيث، أما وقوعه خصب، وأما ماؤه فطهور ﷺ، عامله ﷺ على أنه غريق بحاجة إلى من ينتشله، حاله:

يا رب حيران لو شئته تدا ظمآن لو شئت وردت

يقول له: «**وما تجعل لي إن صرعتك؟**» فقال: مائة من الغنم، فصارعه رسول الله ﷺ فصرعه، فقال ركانة: هل لك في العود؟ قال ﷺ: «**وما تجعل لي إن صرعتك؟**» قال: مائة أخرى، فصارعه رسول الله ﷺ فصرعه.

---

(١) متفق عليه: البخاري (٣٩٠٦)، ومسلم (١٩٨٦) بنحوه.

هـــو بـــالله وهـــل يخـــشى انهـــزاما مـــن يكـــون الله في الدنـــيا نـــصيره

قال: هل لك في العود؟ قال ﷺ: «وما تجعل لي إن صرعتك؟» قال المائة الباقية فصارعه رسول الله ﷺ وصرعه، ثم بقي عليه كسرت شوكته ومالت هامته، ارتطم بالأرض ظهره هوى بأسه وهوت قواه، ومع ذلك فقد ذهب ماله وصار حاله:

وإنـــي لمقـــدام وعـــندك هائـــب وفي الحـــي ســـحفان ونـــدك باقـــل

ثم قال: يا محمد والله ما وضع جنبي على الأرض أحد قبلك، وما كان أحد أبغض إليّ منك وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله[1]، حاله: والله ما على الأرض أحد أحب إليّ منك اليوم

وأســـبلت العيـــنان مـــنه بواكـــف مـــن الدمـــع يجـــري بعـــد ســـح بوابلـــي

واللـــيل ولى والظـــلام تـــبددا والـــصبح أشـــرق والـــضياء تجـــددا

فصار حال ركانة، عملت الجزم بي، وخفضت مني محل النصب، ثم رفعت حالي، قام عنه ﷺ ورد عليه غنمه، وهدفه هدايته، فما الدنيا والله ببغيته، يرى الدنيا وإن عظمت وجلت لديه، أقل من شسع النعال، ومن شيمة العضب المهند، أنه يخاف ويرجى مغمدا ومجردا، وحسبه أنه نبي.

تبلـــى عظامـــي وفـــيها مـــن محبـــته حـــب مقـــيم وشـــوق غـــير منـــصرم

كان ﷺ أشجع الناس، لا يجارى في قوة رأيه وإدراكه وبعد نظره فطن.

تكـــاد العمـــي تبـــصر الدجـــى لـــو أنهـــا اكـــتحلت بـــنور ذكائـــه

وقف ضد رغبات أصحابه يوم الحديبية حين بركت ناقته فأعلن مقسما، والذي نفسي بيده لا يسألونني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم، حاله: مع حرمات الله فديتك بالسويدا من فؤادي، ومن حدقي فديتك بالسواد، دارت المفاوضات وسدت قريش السبل وأشيع مقتل عثمان رضي الله عنه، فبايع أصحابه تحت الشجرة على الموت وعدم الفرار، وتحت ذلك التصميم أرسلت قريش سهيل للصلح.

---

(١) حسن: أخرجه أبو داود (٤٠٧٨) بنحوه، والألباني في «صحيح السيرة» (١ / ٢١٧) بنحوه، وفي «الإرواء» (١٥٠٣) بنحوه.

ولا ملامة إن هابوا وإن حرجوا ... لا يزار الليث إلا فرق الغنم

أجبتهم معلننا بالسيف منصلتا ... ولو أجبت بغير السيف لم تجبي

النبي ﷺ يفاوض من مركز قوة، ويتنازل في بعد نظر وأصالة رأي، عن بسم الله إلى باسمك اللهم، وعن رسول الله إلى محمد ابن عبدالله.

عذب المناهل غير أن ورودها ... نار المنايا حوله تتأجج

وكانت قريش إذ تأبى لشرطها ... كباحثت عن مدية تستثيرها

رسول الله ﷺ يقبل برد من جاء من المسلمين مهاجرا ولا العكس، ويعلل ويقول: من ذهب منا إليهم فأبعده الله، ومن جاءنا فرد جعل الله له فرجا ومخرجا، وثقل ذلك على المسلمين وذهلوا عن أنفسهم، لما أعيد أبو جندل رضي الله عنه إلى أبيه يرفس في قيوده، يضربه أبوه في وجهه ويأخذ بتلابيبه وهو يستصرخ، أأرد إلى المشركين وقد جئت مسلما؟

فاضطرمت القلوب واضطربت، وزلزل الهم قاصيهم ودانيهم، حتى السماء رأوها غير ما عهدوا، أما الصديق رضي الله عنه فقد تلقى ذلك بالرضا والتسليم، فكان قلبه على قلب محمد ﷺ حاله:

والكف ليس الزند ينكر قربه ... والعين لا يقسوا عليها المحجر

من لحمه لحمي ومن دمه دمعي ... وعلى محبته أموت وأحشر

أما عمر رضي الله عنه لعظم الوارد عليه، أبى إلا أن يعلن عما في نفسه فيقول: يا رسول الله ألست نبي الله حقا؟ ألسنا المسلمين؟ أليسوا بالمشركين؟ ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ ورسول الله ﷺ يعطي عمر حرية إبداء رأيه، مع تسديده بلا عقاب ولا تجريم، ويقول لعمر في كل ذلك: بلى، بلى، فيقول عمر: فلم نعطي الدنية في ديننا يا رسول الله، فيقول ﷺ إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصري[1]، ويذعن الفاروق ويؤنب نفسه بعد، وماهي والله إلا غيرة على الإسلام منه، فهم بعدها هو وغيره إنما يحقق المكاسب العليا للإسلام، فهو السنة النبوية والسياسة الشرعية التي يجب أن تقتفى، فأذعنوا وندموا وعرفوا قصورهم فاقتصروا.

---

(١) صحيح: البخاري (٢٥٨١).

أخاطب البرق إن يسقي ديارهم … ولو أراد بدمعي أو أراد دمي

معشر الأخوة...

ومع ما فيه الصحابة من غم لا مزيد عليه، لم يخرجوا عن طوع رسول الله ﷺ، وهم يرون سهيل فردا في جيش يتهادى في تفاوضه، فلم ينله أحد بأذى وإنما مرجعهم رسول الله ﷺ، ورسول الله يسعه بالحلم حتى وصل إلى الغاية المنشودة من الصلح، وانبلج الصبح فإذا الصلح فتح، والغبن في الظاهر نصر، سمعوا كلام الله وعظمت حرمات الله.

وكلما أوقدوا نارا بها احترقوا … وأحدثوا الحرب فيهم يحدث الحرب

هكذا تبدوا شجاعة وسياسة رسول الله ﷺ العملاقة، إلى جانب سطحية التفكير لدى زعماء المشركين، فشرطهم الذي اشترطوه تعنتا واستعلاء، كان وبالا عليهم حيث سبب لهم حروبا عصابات على أيدي أبي بصير وصحبه لم يحسبوا لها حسابًا.

حتى أقامت رؤوسا كان يحبلها … أجلاف قوم وفي أعناقهم صعر

فقدوا الهدف الأعلى من الصلح، وهو تأمين طريقهم إلى الشام، فعادوا خاضعين ذليلين يعلنون تنازلهم عن شرطهم الجائر، ويرجون من رسول الله ﷺ أن يؤوي كل من جاءه من المسلمين.

فصار لواء الحق بالنصر خافقا … وظل لواء الشرك بالذل يقهر

فما هو في صورته الظاهرة ظيم للمسلمين، هو عز وفتح ونصر مبين، نزلت السكينة على المؤمنين ودخل في دين الله أضعاف ما دخل قبل من المشركين، وما فتح في الإسلام فتح قبله كان أعظم منه، وتم تحييد قريش وتكبيلها بهذه المعاهدة، فلم يفكروا في الحرب لعشر سنين!! فحول المسلمون المعركة إلى اليهود وغيرهم من المجرمين.

عافوا المذلة في الدنيا فعندهم … عز الحياة وعز الموت سياني

تلكم هي الشجاعة حقًا.

يا معشر الإخوة...

تريث في غير عجلة، تشبت في تؤدة، بعد نظر في أصالة رأي، لزم الوحي مع اتهام الرأي، قضاء المصالح على أحسن وجه، درء المفاسد في أجمل هيئة.

مــن يلاقــي الــنار بالــنار يــزهدها لهـــبا إطفائـــه يغـــدوا محـــالا

الحد والشدة ليست لوازم قوة، والتعقل والمدارات ليست مؤشرات ضعف، والحزم والقوة والشجاعة حقا فعل ما ينبغي كما ينبغي في الوقت الذي ينبغي!!

وريـــث الثابـــر أمـــضى خطـــا وأبلـــغ مـــن قفـــزات الـــصخب

وصدق رسول الله ﷺ: **«ليس الشديد بالسرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»** [١]

والــسيف لا يمــضي بــدون رويــة والــرأي لا يمــضي بغــير مهــند

وقـد يدفـع الإنـسان عـن نفـسه الأذى بمقـــوله إن لم يدافعـــه بالـــيد

كان ﷺ أشجع الناس، خاض غمار الحروب في سبيل الله، لإعلاء كلمة الله حتى لم تكن فتنة وكان الدين كله لله.

أزال ظـلام الغـي عـن نـير الهـدى وحكـم سـيف الحـق في كـل باطـل

مـضى فعلـه المـشتق مـن مـصدر العـلا فـصح لـه مـنه اشـتقاق اسـم فاعـل

في يوم حنين اختل نظام جيشه وانفض عنه معظمه، وهو ثابت في الميدان لا يبرح، مقبل لا يدبر، ظاهر لا يتوارى، وكيف يتوارى عن الموت، من يوقن أن موته انتقال من حياة نصب ومشقة، إلى ما اشتهت نفسه ولذت عينه، يركض بغلته البيضاء في نحر العدو، ويترجل عنها حينا، فلا يرى أحد أشد منه يومئذ، كالسيل في دفعاته، والسيف في عزماته، والموت في وثباته، يشهر نفسه وهو هدف العدو الأعلى، ويزأر، **«هلموا إلي أيها الناس، أنا رسول الله، أنا محمد ابن عبدالله، أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبدالمطلب»** [٢]

تخـــرج الألفـــاظ مـــن فـــيه كمـــا تخـــرج الـــدرة مـــن جـــوف الـــصدف

لـــه عـــزمة لـــو صـــادمت ركـــن يـــذبل ورضـــوى لهـــدت يـــذبل ومحـــت رضـــوى

مناديه ينادي: يا أصحاب السمرة، يا أصحاب سورة البقرة، فجر النداء مكامن الإباء، وثاب الفار منهم ولبى، وأما الصوت وحاله: يا رسول الله هأنذا.

---

(١) متفق عليه: البخاري (٥٧٦٣)، ومسلم (٦٨٠٩)، (٦٨١٠).

(٢) صحيح: البخاري (٤٠٦٢) بنحوه.

أنـــا بعـــض مـــنك والكـــف علـــى ... كـــل حـــال لا تـــضيع المعـــصم

وحمي الوطيس وبذل النفيس، ورمى رسول الله ﷺ وجوه القوم بقبضة من تراب قائلا: شاهت الوجوه فما خلق الله إنسانا منهم، إلا ملئت عيناه من تلك القبضة فولوا مدبرين.

قـد زلـزل الـرعب أيـديهم وأرجلـهم ... وعـــاد ثعلـــب قفـــر ذلـــك الأســـد

فمجدل ومرمل وموسد ومضرج ومضمخ ومخضب، ونزلت السكينة على المؤمنين، ﴿ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الأنعام: ٤٥].

ومـــــن لاذ بـــــالله في دربـــــه ... كفـــاه المهـــيمن مـــن كـــل شـــر

كان ﷺ أشجع الناس على الإطلاق، فر عنه الكماة الأبطال غير مرة. وما أحصيت غير مرة، ذهل عنه الشجعان ووجم الفرسان غير مرة، ولم يحفظ له وجمة،

علـــى الـــزعازع والأهـــوال والـــباس ... لـو مـادت الأرض يبقـى الـشامخ الراسي

ما وقعت هيعة أو صيحة أو فزع، إلا تقلد السيف في عنقه وبادر ظهر الفرس يسبق إلى العدو، يستبرأ الخبر ويطمئن أصحابه بشعار، لن تراعوا لن تراعوا.

لـــيس يدنـــوا الخـــوف مـــنه أبـــدا ... لـــيس غـــير الله يخـــشى أحـــدا

يغـــدوا وهـــوج الـــذاريات رواكـــد ... ويبـــيت يـــسري والكـــواكب نـــومٌ

وحسبه أنه نبي، كان النبي ﷺ أشجع الناس يحقر كل ما يسميه الناس خطرا، يثبت حين تزلزل أقدام الأبطال رهبا، موقفه أقرب موقف من عدوه، إذا اتقدت جمرة الحرب آوى الناس إليه وإحتموا بظله.

يتقـــي المـــوت بـــه أشـــياعه ... حـــين جـــف الـــريق وانـــشق البـــصر

يشهد بذلك غصن من دوحته وجزء من جملته، يؤكد العيان بالبيان ويؤد الإصطاح بالمصباح، إنه علي رضي الله عنه فارس الفرسان وفتى الفتيان، البطل المقدام همام الهمام الليث الكرار، مفرق كتائب الكفار من روي في شجاعته مشهود الأخبار، ما أمسك بذراع علج إلا حار وانقطع نفسه وخار.

لـــو عـــاين الأســـد الـــضرغام لمـــته ... مـــا لـــيم أن ظـــن رعـــبا أنـــه الأســـد

يقول علي رضي الله عنه في رسول الله ﷺ، ولقد رأيتنا يوم بدر وقد حمي البأس واحمرت الحدق، ونحن نلوذ ونتقي برسول الله ﷺ وهو أقربنا إلى العدو وأشدنا بأسا، وإن الشجاع منا للذي يحاذي به.

له من بديع العزم ما لو تلوته ... على جبل لنهال في الدوي ربده

له هيبة في قوله وفعاله ... فلوا شاهدته الأسد كانت تهابه

هذه شهادة علي، وحسبه أنه رسول نبي.

لا تسألن القوافي عن شجاعته ... إن شئت فاستنطق القران والصحف

كان ﷺ أشجع الناس لم يملأ صدره هول قط، وما كر إلا كان أول طاعن ولا عاينته الخيل إلا اقشعرت.

يكون أمام الخيل أولا طاعن ... ويضرب أخراها إذا هي ولت

روي أن أبيّ ابن خلف قال بعد بدر متهددا، إني لي فرسا أعلفه كل يوم فرقا من ذرة أقتل عليها محمدًا.

ظل عنك المحال يا من تعنى ... ليس يلقى الرجال غير الرجال

هيهات لقد رمت أمرا يا أبيّ ... ودونه خياطف إلود صعاب مراتبه

شماريخ لو أن أبيّ أراداها ... رأى نفسه أذل من القرد

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ۝ ﴾ [الأنفال: ٣٦].

بلغت المقالة رسول الله ﷺ وهو بالمدينة، بل أنا أقتله عليها إن شاء الله، وحاله:

فأنتم وعدتم بالهدية قبلنا ... فكان علينا يا أبيّ ثوابها

وفي يوم أحد قال رسول الله ﷺ إذا رأيتم أبيّ فآذنوني، لأنه ﷺ لا يلتفت في القتال وراءه.

هزبر تفادى الأسد من وثباته ... لو مربض عنه يحيد الأكابر

إذا ما رأته العين غير لونها ... له واقشعرت من عراه الدوائر

أقبل أبيّ يركض فرسه متدرعا بالحديد مملوء الوطاب من سوء أدب الخطاب.

لــو أن خفــة عقلــه في رجلــه ... ســبق الغــزال ولم يفــته الأرنــب

يــبحث عــن حــتفه بظلفــه ... ويجــدع مــارن أنفــه بكفــه

يصيح بأعلى صوته: يا محمد لا نجوت إن نجوت، يا محمد لا نجوت إن نجوت، فقال أصحاب النبي ﷺ: يا رسول الله ما كنت صانع حين يغشاك فقد أتاك، وإن شئت عطف عليه بعضنا فكفاكه، فأبى ﷺ أشد الإباء.

بطــل تــشيعه الأســود إذا غــزى ... حتــى وثقــنا أنهــا مــن جــنده

قنــصت مهابــته البــزات وصــادت ... الأســد الكمــاة قــشاعم مــن جــرده

فصاح أصحاب النبي ﷺ لما أبى: نوصيك بالبغل شرا فإنه ابن الحمار، رسول الله ﷺ لم يبادره، بل تركه يرعد وهو في غاية السكون والتؤدة والهدوء.

وهــدوء أمــواج الــبحار تأهــب ... للمــد يكتــسح الــشواطيء صرصــرا

إذا رأيــت المــوج في البحــر ســكن ... فالمــوت كــامن لإغــراق الــسفن

ما أحد يشبهه ﷺ ولا يكون له إذا جد الجد.

يتلاشــى البحــر في نيرانــه ... ويخــاف البحــر مــن طــوفانه

ولما دنى أبيّ تناول رسول الله ﷺ الحربة ثم هزها، وحاله:

اقــترب الــوعد وحــان الهــلاك ... وكــل مــا تحــذره قــد أتــاك

ثم انتفض بالحربة كما ينتفض البعير، فتطاير الصحابة من حوله تطاير الشعارير، هيبة له حتى إذا رضيها عطف عليها بالفاء لا بثم، فضربه بها في عنقه في فرجَة بين درعه وبيضته، فأقتلعه من على فرسه فخر.

فلــم يــزده الله إلا هــوانا ... وهــو مهتــضم حقــير

وكــان كفاقــع عينــيه عمــدا ... فأصــبح لا يــضيء لهــا الــنهار

جعل يخور كما يخور الثور، قتلني محمد، قتلني محمد[1]، وعاد عواء بعد نبح هريره.

---

(١) انظر «الشفا بتعريف حقوق المصطفى» (١ / ١١٧).

متــــبرقعا لــــؤما كــــأن عـــيونه طلـــيت حواجـــبها عنـــية قـــاري

لم تغـني عـنه سـيوف الهـند مـصلتتا لمـــا أتـــته ســـيوف الـــواحد الـــصمد

جاءه أصحابه يقولون: أبا عامر والله ما بك من بأس ولو كان الذي بك بعين أحدنا ما ضره، فقال: واللات والعزى لو كان الذي بي بأهل ذي المجاز لماتوا أجمعون، أليس قال لأقتلنك!! والله لو بصق علي لقتلني، فأصمت منهم كل من كان ينطق!!

ومـــا هـــم إلا بائـــل مـــن مخـــافتي وآخـــر مـــنهم ظـــل بالـــريق يـــشرق

وبـــاء أبـــيّ بالـــصفقة الخاســـرة وضـــــيع الدنـــــيا والآخـــــرة

وهلك في طريقهم إلى مكة ولا يجني الظالم إلا على نفسه.

ومـــن ينـــزوا في أرض تـــسوخ فإنـــه علـــى قـــدر مـــا ينـــزو يغـــوص ويغـــرق

شـــــجاعة أعجـــــزت قولـــــي وفخـــــري أن يلـــــم بهـــــا لمامـــــا

ولـــولا إحـــتقار الأســـد شـــبهتها بـــه ولكـــــنها معـــــدودة في الـــــبهائم

كـل الـذي قلـت شـيءٍ مـن شـجاعته مـــا زدت إلا لعلـــي زدت نقـــصانا

فمن رام من شجاعة المختار كل الأخبار، فدونه نزح البحار وما هذه كلها إلا إيماض برق باختصار!!

ألفاظهـــا نمـــت علـــى مـــضمونها وصـــدورها دلـــت علـــى الإعجـــاز

قولـــوا لأشـــباه الـــرجال تـــصنعا إلا تكونـــــوا مـــــثله فتقـــــنعوا

معشر الإخوة...

أما إنه لولا الإيمان مقرونا بهذا الخُلق، ما قام لله ناصح وما نفح عن الإسلام منافح، إن الشجاعة ليست منازلة في الحروب فحسب!! «الشجاعة» تكليف يلتزم المسلم أداءه في السلم والحرب، الأمر والنهي عن المنكر في عالم ضال «شجاعة»، الدعوة إلى الإصلاح في أمة فاسدة النظم «شجاعة»، الثبات أمام الشبهات والشهوات «شجاعة»، فعل أوامر الله والكف عن نواهي الله «شجاعة»، الدفاع عن النفس والمال والعرض والدين والمظلوم «شجاعة»، ثبات المسلمة أمام شبهات أدعياء تحرير المرأة «شجاعة».

هكـــذا كونـــي ولا تخـــشي أذى مـــن أحـــب الـــشهد قـــاس الأبـــرا

الإنفاق في السراء والضراء وكظم الغيظ والعفو عن الناس «شجاعة»، المجاهدة على ذلك كله «شجاعة».

وكـــل شـــجاعة في المـــرء تغـــني ولا مـــثل الـــشجاعة في الحكـــيم

معشر الإخوة...

بهذا الخُلق نصر الإسلام على يدي أبي بكر رضي الله عنه يوم الردة، والإمام أحمد رحمه الله يوم المحنة.

وإن لم يـــسر نجـــل الـــسري بـــسيره فـــلا بـــدع إن طـــال العـــدى إنـــه دعـــي

هذا الخُلق هو الذي ترجم معنى لا إله إلا الله في قلب عبد الله رضي الله عنه ابن رأس النفاق أبي، حين بلغه أن رسول الله ﷺ مر بأبيه ودعاه، فخمر أنفه وقال: غبر علينا ابن أبي كبشة إليك عنا فقد آذانا نتن حمارك، فغضب عبد الله لله، وفي ظلال قول الله: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ [المجادلة: ٢٢]، أتى رسول الله وقال: يا رسول الله والذي أكرمك بالهدى ودين الحق لإن شئت لآتيتك برأسه، حاله:

وإنـــي لأرجـــوا أن أنـــال بقـــتله مـــن الله أجـــرا مـــثل أجـــر المـــرابط

فقال ﷺ :، **«لا، ولكن بر أباك وأحسن صحبته»** (١)، والحال:

فمـــا البحـــر الخـــضم يعـــاب يـــوما إذا بالـــت بجانـــبه القـــرود

هذا الخُلق مع الإيمان هو الذي حرك الغيرة في قلب الشيخ المحاربي، حين رأى منكرا على الحجاج لا يسعه السكوت عليه، فأنكر عليه وهو يستشعر أن أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر، فقال له: أسكت وأغرب والله لقد هممت أن أخلع لسانك فأضرب بها وجهك.

فقـــال الـــشيخ بعـــزيمة جـــبارة لـــو حملـــت أحـــدا لمـــا شـــعرت لـــه بكـــلال

سبحان الله إن صدقناك أغضبناك وإن غششناك أغضبنا الله، ولا والله الذي لا إله إلا هو، لغضب الأمير أهون من غضب الله، ﴿ وَأُفَوِّضُ أَمْرِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [غافر: ٤٤]، ثم مضى،

---

(١) حسن: أخرجه أحمد (٩٢٠٧)، و الألباني في «الصحيحة» (٣٢٢٣).

وحاله:

فما دحضت رجلي ولا زل مقولي ... ولا طاش عقلي يوم تلك الزلازل

وما أنا ممن تقبل الضيم نفسه ... ويرضى بما يرضى به كل مائق

هذا الخُلق مع الإيمان هو الذي جعل عبادة في فتنة القول بخلق القرآن يصدع ويقول: كلام الله منزل غير مخلوق منه بدأ وإليه يعود، ثم كان حجة يفهم من يقول بذلك القول، حين دخل يوما على الواثق وقال: يا أمير المؤمنين أعظم الله أجرك في القرآن!! قال: ويلك القرآن يموت!! قال: يا أمير المؤمنين كل مخلوق يموت، ثم موه عليه ومخرق، قال: بالله يا أمير المؤمنين من يصلي بالناس التراويح إذا مات القرآن.

فأعاد الحر منهم حائرا ... وثنا منهم المنطيق مفحما

سيرت سفنهم في بحره ... فهوت في قعره والتطما

سدت الطريق وأغص بالريق ويئس من الساحل الغريق!!

وإن رغمت أنوف من أناس ... فقل يا رب لا ترغم سواه

وما كانت كِلام السيف يوما ... لتبلغ مثل ما بلغ الكلام

هذا الخُلق مع الإيمان هو الذي جعل دعاة القيم يزدرون حطام الدنيا وينظرون بشفقة ورثاء لمن يلهث ورائها كخادم لسيده.

تراه يشفق من تضييع درهمه ... وليس يشفق من دين يضيعه

حداه في درهمه أعز عندي من وحيد أمه كل المنى في ضمه وشمه، فرفعوا أصواتهم إنما هذه الحياة الدنيا متاع، من هؤلاء شاعر مسلم شجاع استنفر فوجب عليه النفير، لما سمع يا خيل الله اركبي وبالجنة ابشري، خرج مجاهدا في سبيل الله أمسكت به زوجته وهي تبكي وتقول: كيف تخرج وتتركني،؟! إلى من تدعني،؟! فكر وتأمل ورأى أن لا عذر له فولى وهو يغالب عواطفه، يقول:

باتت تذكرني بالله قاعدة ... والدمع ينهل من شانيه سبلا

يا بنت عمي كتاب الله أخرجني ... كرها وهل أمنع الله ما فعلا

فإن رجعت فرب الكون أرجعني ... وان لحقت بربي فابتغي بدلا

مـا كـنت أعـرج أو أعمـى فيعذرنـي　　　أو ضـارع مـن ضـنا لم يـستطع هـولا

ثم مضى شجاعا آثر الله ورسوله والدار الآخرة وجعل الدنيا دابة يركبها يستخدمها ولا يخدمها حداءه.

اخـتر لنفـسك منـزلا تعلـوا بـه　　　أو مـت كـريما تحـت ظـل القـسطل

مـوت الفتـى في عـزة خـير لـه　　　مـن أن يعـيش أسـير طـرف أكحـل

عبد الله...

مـن يرضى بـالعير يهجر كاهل الفرس　　　أتطلـب جيفة الغربان يا خير الشياهين

خذها رافعيا إذا رأيت أمة فتنت بدنياها، فاعلم أنها أمة جبانة مأكولة مفلولة، فلو شهرت السيف الماضي، لقاتل في يدها بروح ملعقة، ولو رعدت بالأسطول المهول، لصلصل كآنية المطبخ.

أسـود لـدى الأبـيات عـند نـسائهم　　　ولكـنهم عـند الهـياج نقانـق

إذا أبـصروا شخـصا يقولـون جحفـل　　　وجـبن الفتـى سـيف لعينـيه بـارق

فـلا رحـم الله امـرأ بـاع ديـنه　　　بدنـيا سـواه وهـو للحـق رامـق

هذا الخُلق مع خوف الله هو الذي جعل القاسم ابن محمد رحمه الله أحد الفقهاء السبعة يقول لمن سأله عن شيء لا يعلمه: لا أعلمه، لا أحسنه، فجعل يقول الرجل: إني أرسلت إليك لا أعرف غيرك!! فقال القاسم: لا تنظر إلى طول لحيتي وكثرة الناس حولي، والله لا أحسنه، ووالله لأن يقطع لساني أحب إليّ من أن أتكلم بما لا علم لي به.

نـأى بأعطافـه مـن خـوفه ورسـا　　　بأصـله وسمـا بالأنـف والراسـي

فقال شيخ من قريش كان بجنبه: إلزمها فوالله ما رأيتك في مجلس أنبل منك اليوم!!

تحكـي الـسماء إذا أنـوارها لمعـت　　　بـرج بـبرج ونبراسـا بنـبراس

كـم شـارب عـسلا فـيه منيـته　　　وكـم تقلـد سـيفا مـن بـه ذبحـا

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ﴾ [الأنعام: ١٤٤].

هذا الخُلق مع القرآن هو الذي جعل الشيخ ابن باز رحمه الله أسد إذا علم بظلم يقع

على المسلمين أو عدوان على شريعة رب العالمين.

الحلــم شــيمته ولكــن حيــنما يعــصى الإلــه فإنمــا هــو ضــيغم
فــلا يغــرنك وجــه راق منظــره فالنــصل فــيه المــنايا وهــو بــسام

يقول المجذوب رحمه الله: حينما كان الشيخ للجامعة الإسلامية صدر حكم بقتل أحد الدعاة في بلد ما فاعترى الشيخ ما يعتري المؤمن من غم في هذه النازلة التي تستهدف الإسلام، فنفسه تخذل عنه يقول المجذوب: فكلفني بصياغة برقية لحاكم ذلك البلد، قال: فكتبتها بقلب منذر يقطر غيرة وغضبا وجئت بها وكلي يقين أنه سيدخل على لهجتها من التعديل ما يجعلها إلى لغة المسئولين المنذرين، لكنه حطم كل توقعاتي!! فأقرها جميعا ثم قال أضف إليها قول الله: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ ﴾ [النساء: ٩٣]، وأرسلت الرسالة وقضى الله قضاءه وقد أدى الشيخ ما عليه رحمه الله، وحاله:

ومــا كــل نفــس تحمــل الــذل إنــني رأيــت احــتمال الــذل شــأن الــبهائم
ولا خــير في العــيدان إلا صــلابها ولا ناهــضات الطــير إلا صــقورها

ولا عجب يا معشر الإخوة فقد نقل عنه أنه قال يوما: والله منذ عقلت إلى اليوم ما أعلم أني عملت عملا لغير الله.

تعــود صــدق القــول حتــى لــو أنــه تكلــف قــولا غــيره لا يجــيده

فرحمه الله.

هذا الخُلق مع الحق هو الذي جعل شابا مسلما يدخل في جموع النصارى، ليفحم كبيرهم حين وقف يتحدث عن عيسى عليه السلام ويضعه في منزلة الله ويقول: من قال آمنت بعيسى إله لم يضره شيء ولم يتعرض لأذى!! واستمر بعقول الناس ويداعب خيالهم وآمالهم بتعاليل لا تطفيء الغليل!!

كــلام كــل مــا فــيه هــراء وأشــخاص الحكايــة أغبــياء

فقل أين التصامم والعماء،؟! لكن أعذب الأصوات عند الحمير صوت الحمار، عندما انتهى قام الشاب المسلم الشجاع وسأله قائلا: هل فعلا أنت تؤمن حق الإيمان بأن من قال آمنت بعيسى إله لا يضره شيء،؟! قال القس: نعم!! فأخرج الشاب كأسا استجلس بها

الراكب واستركب بها الجالس وقال: إن في هذه الكأس سما نوعه كذا ودرجة تأثيره كذا أرجوا أن تثبت لنا بطريقة عمليه تترجم صدق إيمانك بما قلت وتشرب بما في داخل هذه الكأس؟!

فمحا بنور الحق آية ليلهم وتطايروا كالحمر لاقت قسورا

اتضح الحق، والقس افتضح، إسود وجه، وأربد وهدد وأرعد، ثم لان الجعد وسكن الرعد، وحاله:

لا مساس، لله الأمر من قبل ومن بعد، كالسامري يقول إن حركته دعني، فليس علي غير إزاري!!

كذلك يعلوا الحق والحق واضح ويسهل كعب الزور والزور عاثر

هذا الخُلق مع الإيمان هو الذي جعل المهلب يعرض عن من شتمه وأقذعه وبهته بما ليس فيه، ولما قيل له: لما لا ترد عليه،؟! قال: لا أعرف مساوئه وأخشى الله أن أبهته بما ليس فيه!!

ومن الناس اسود خدر ومن الناس ذباب وطنين

وهذا الخُلق مع إيمان كالجبال هو الذي حرك سيف الله ليث الإسلام وفارس المشاهد، أبا سليمان خالد رضي الله عنه فدمر جيش مهران الفارسي مع نصارى العرب بأكمله، دون أن يخسر جنديا واحدا!!

يستسهل الصعب إن هاجت حفيظته لا يشاور إلا السيف إن غضبا

لما إلتقى جيش الإسلام بجيش الفرس مع النصارى العرب قال أحد نصارى العرب لمهران الفارسي: دعنا وخالدا نحن العرب أعلم بقتال العرب، فقدمه مهران الفارسي ليتقي به.

وكيف يجيء البغل يوما بحاجة تسر وفيه للحمار نصيب

ولكن،؟!

وإذا الحمار بأرض قوم لم يروا خيلا قالوا أغروا محجل

بلغت المقالة خالدا رضي الله عنه فعزم على أن يلقن المغرور درسا لكل مغرور ويخبره

أي رجال حرب هم المسلمون، وفي أناة القطاة ووثوب الأسد قام عاشق المفاجأة من لا ينام ولا ينيم، ولا يبالي أوقع على الموت أم وقع الموت عليه، وقال: إني حامل عليه بعينه ومينه!!

فما كان إلا الليث انهوه الطوى … وما كان إلا السيف فارقه الغمد

خرج إليه في جريدة من الخيل وهو مشغول بتسوية صفوف جيشه وجيشه منشغل بالنظر إلى خالد، ما عسى أن يفعل أمام عشرات الآلاف وبينا هم غارقون في دهشتهم، إذ انقض خالد في أسلوب صاعق مفاجيء كالبرق الخاطف والرعد القاصف والريح العاصف، على المغرور فاختطفه من بين يدي جيشه كأنه ذباب.

ذباب طار في لهواته ليث … كذاك الليث يلتهم الذباب

حمله على فرسه كما يحمل الصبي الرضيع ليرجع به إلى المسلمين، وحاله:

فلو كنت حر العرض أو ذا حفيظة … غلبت ولكن لم تلدتك الحرائر

ثم قال له خالد نفس مقالته: نحن العرب أعلم بقتال العرب، ثم قده بالسيف ورماه على الجسر وقال: هكذا فاصنعوا بهم، لله در أبي سليمان، إنتضح بحره فأغرق!! وقدح زنده فأحرق!! فصار حيهم ميتا وهذرهم صمتا وجبالهم لا ترى فيها عوجا ولا أمتا، لم يتحملوا الصدمة فلاذوا بالفرار!!

وضاقت الأرض حتى صار هاربهم … إذا رأى غير شيء ظنه رجلا

فركبهم المسلمون يقتلون ويأسرون ويسبون وهرب من هرب منهم إلى الحصن ثم نزلوا على رأيه فدمر جيشهم بأكمله ولم يخسر من جيشه!!

لا يغمد السيف إلا بعد ملحمة … ولا يعاقب إلا بعد تحذير

بعض المواقف يا رجال حرائر … والبعض يا ابن الأكرمين إماء

ما جاء سيف الله من خمارة … ما أنجبته الليلة الحمراء

حاله:

أناضل عن دين عظيم وهبته … عطاء مقل مهجتي وحياتيا

فممتثل لله أسلم وجهه يقول أنا وحدي سأحمي دينيا

بظهري ببطني بالذراع بمقلتي بجنبي بعظم الصدر حتى التراقيا

على ذروة التوحيد تخفق رايتي وتحت روابيها تصب دمائيا

بمثل هذا الشجاعة في إيمان بالله ترتفع راية الله، في أرض الله، وعندها يفرح المؤمنون بنصر الله، لا توهمه بعيدا إنما الآتي قريب!

لكن النصر لا يأتي جزافا بائنا عن مقصدي

لكنه بالصبر والإيمان لا الفعل الردي

يا قوموا إن الله أكبر من جموع المعتدي

فامضوا على نهج الرسول وعزمه المتوقدي

تجمل أيها الآسي وبث الخير في الناسي

وقرب فارس الإيمان واطرد فارس اليأسي

ليزرع دربنا وردا ويتحفنا بريحاني

ويقطع مارد الأشواك في رفق وإحساني

ويسقي من معين الوحي عذبا كل ظمآني

أيها الجيل...

إن سلاحنا الذي لا يفل هو إيماننا، فكلما قوي إيماننا ازداد يقيننا بتحقق وعد الله بالدفاع عنا، ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ﴾ [الحج: ٣٨].

أيها الجيل...

مالنا من فائت أضعناه من خصال أسلافنا، وحرمناه بسوء فعالنا، مثل الشجاعة بلا تهور ولا حماقة، ولعمر الله، إن تلك الشجاعة لم تمت إنما هي كامنة!! ولم تنطفىء شعلتها فهي في كنف القرآن والسنة آمنة!! وما دامت نفحات الوحي تلامس القلوب والعقول على أيدي القدوات فلابد من يوم يتحرك فيه ذلك العرق المخبوء ليأتي بالعجائب!!

إن الرماح حدائد منبوذة حتى يثقف جنبيها سمهر

أيها الجيل الخاطب...

الشجاعة عقيلة كرام لا يساق في مهرها بهرج الكلام!! إنها كريمة بيت لا تنال بلو أو ليت!! إنها تنال بالإيمان الثابت، يظاهره مجاهدة ومصابرة، وقوة توكل في ثقة وحلم وأناة وشدة بأس، بلا يأس ولا طمع ولا فزع، مع نظر في سير أنبياء الله، وكثرة ذكر لله وحبس للنفس مع منهم كذلك من عباد الله.

تــــرنوا إلى تلـــك الوجـــوه الـــتي ... فـــيها يـــضيء اللـــيل بـــل يـــرحل

﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

مـــن رام نـــيل الـــشيء قـــبل أوانـــه ... رام انـــــتقال يلملـــــم وعـــــسيب

ومــــستعجل الـــشيء قـــبل الأوان ... يـــصيب الخـــسارة ويجـــني الـــتعب

أيها الجيل...

الحق ساهر والعدو وقح كافر، لم يعد يخشى من التصريح بنا، يريد فعله في ديار المسلمين، ألفاظه محددة صريحة لا تورية، فعلى الأمة أخذ الحذر في تعقل ووعي، لا يجر الأمة إلى معركة ليست مستعدة لها، الهجمة عظيمة لو قدر لها أن تنجح فلن تبقي ولن تذر!! وعندها تتحول الأمة عافاها الله، إلى رعاة خنازير لعباد صليب!!

فـــيا أمـــتي فكـــري في المـــصير ... فـــان الحـــساب علينـــا عـــسير

فلنطرح التصرفات الرعناء جانبا، لسنا دعاة حرب اليوم، بل في حالة دفاع عن ضرورياتنا، من دين ونفس ومال وعرض ومقدسات بكل وسيلة تنفع ولا تضر، وليس يكون ذلك إلا برد الأمر إلى أهله الذين يستنبطونه، لسنا في حالة هجوم لكن علينا أن نشعر من تسول له نفسه أن يقترب من حياضنا، أننا لسنا اللقمة السائغة بل اللقمة المرة!! التي لن يشعر معها بسعادة إن حاول بلعها أبدا، بل تسد حلقه حتى تقضي عليه والله غالب على أمره.

أعداء الله مسلكهم خائب وكيدهم حابط، وسعيهم في ضلال وأخرتهم خزي ووبال، ولم يبق منا نحن إلا أن ننصر الله لِنُنْصَر، حققوا الشرط يحقق الله الجزاء، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾ [محمد: ٧].

عبد الله...

تعرف سبيل المجرمين من كتاب رب العالمين، وجدد الإيمان وأكد التوحيد وزد نون التوكيد●

خـــذ يـــا ملـــيك فكلـــنا	**مـــن بحـــر جـــودك والعطـــا**
خـــذ مـــن ســـويدانا	**قـــرابين المحـــبة والـــولا**
مـــا ظـــل مـــاء في الـــبحار	**وطـــار طـــير في الـــسما**

أيها الجيل...

إنما السائل من لون الإناء، إن تأنيث الأسماء جبن يورث تأنيث الشمائل والطباع، والظاهر يؤثر على الباطن، لقد كان المسلمون على عدوهم صخورا وجنادل، يوم كان منهم صخر وجندلا!!

وكانوا عليهم غصصا وسموما يوم كان فيهم مرة وحنظلا!! وكانوا عليهم حسكا وشوكا يوم كان فيهم قتادة وعوسجا!! ولا يرضى بالأسماء والكنى والألقاب الرخوة إلا العبيد!! وما شاعت هذه الرخاوة يوم كان المسلمون سادة!! وما راجت بينهم إلا عندما أضاعوا السيادة والقيادة!! أما والله لو نادى منادي ببعض هذه الأسماء في حظرة عمر رضي الله عنه لهاجت شرته وبادرت بالجواب درته!!

فـــإن لم يكـــن حـــسن فعـــال فلـــيكن	**قـــوة اســـم وكنـــية ولقـــب وحـــسن فـــال**
وعـــادت النـــصل أن يزهـــى بجوهـــره	**ولـــيس يعمـــل إلا في يـــدي بطـــل**

أيها الجيل...

المسلمون جسد واحد، ودار الإسلام دار واحدة، لا تقبل القسمان!! فإذا حاول تفريقها محاول، سفهته السواحل باتحاد أمواجها، وصدمته الجبال بتناوح أثباجها، واشتباه فجاجها، وكذبته الصحاري بسرابها وسراجها، ومراتع غزلانها ونعاجها ومراعي أذوادها وأعراجها.

لـــن نـــبلغ الآمـــال في دربـــنا	**مـــا لم نـــوحد ســـيرنا في اللقـــاء**
وهـــل يهـــز العـــضو إذا لم	**تكـــن الأعـــضاء ذات الـــتقاء**

إن الخلاف جبن وفشل وذهاب ريح، والشاهد وحي الله، لا يكاد يذكر الأحزاب بلفظ الجمع إلا في مقام الهزيمة والخلاف ﴿ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ﴾ [مريم: ٣٧]، ولا يكاد يذكر الحزب بلفظ مفرد إلا في مقام الخير والفلاح ﴿ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [المجادلة: ٢٢] ، لقد مللنا جمع التكسير لكثرة ما تردد، وسئمنا منه لكثرة ما تعدد ونتطلع لجمع السالم الصحيح يحدوا ويغرد.

إن التفرق شر كله، وشره ما كان في الدين، وأشنعه ما كان عن هوى، ونتيجته التعادي، وأثره السخرية من الدين، وما أعظم جناية مسلم، يقيم من عمله الفاسد، حجة على دينه الصحيح.

إذا افترقت آراء قوم تشتتوا ... ولم يرجعوا إلا بعار التخاذل

نريد مواجهة عدونا فلا يكون بأسنا بيننا.

نريد إقامة فرض فلا تشغلونا بالخلاف في نافلٍ.

نريد بالإسلام العاليا فلا تنزلوا به بالخلاف السافلا.

الخلاف شر كله والعدو يستهدف الجمع كله؛ ﴿ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

أرضنا أرض كتاب الله فيها ... كملت دائرة الوحي الأخيره

شهدت مبعث خير الناس لما ... تتمم الأخلاق في أكرم سيره

يئس الشيطان أن يعبد فيها ... فانبرى يطلب تفريق العشيره

اجمعوا الآراء كي نبني بناءً ... دونه تهوي الأساطيل المغيره

واحذوا أن يوقد الشيطان فيكم ... لهب التحريش يا أهل الجزيره

فاتقوا أكناف ورد الحب ... حتى يجد البائس والشاتي عبيره

أيها الجيل...

ما غرد بلبل بغير حنجرة :

قل من يحتقر الليث تقدم ... حينما تسمع عن قرب زئيره

والله لن نجاري الأمم ونفوقها في ميادين الحياة، إلا «بالإسلام وأخلاقه»، فإن لم يكن

فنحن هازلون في جد الزمان!! مغترون بالخوف بعهده الأمان!! سائرون إلى الورا بهدى الشيطان!! من تطلع إلى ثوب العز فليحكه بأنامله.

وليجلبه بعوامله وإلا فشاعر الذي يقول:

مـا حـك جلـدك صـارخ في واد ... وسـيبويه نـافخ في رمـاد

***

يـا مـن يـداوي الجـرح مـن دائـه ... مهـلا فلـن تحظـى بطعـم الـشفا

مـاذا يفـيد الظامـئين المنـى ... إن لم يـروا مـاء بـذاك الـسقا

أيها الجيل...

ظل سبيل من وها سقائه، ومن أريق بالفلاة ماؤه، لا تطلب الحكمة من عند غيرك، فعندك معدن الحكمة كتاب وسنة، لا تتطفل على موائد الغير فعندك الجفنة الرائدة.

هـل يطلـب المـاء ممـن يـشتكي عطـشا ... أو يطلـب الـثوب ممـن جـسمه عـاري

العمل، العمل، بكتاب الله تلك نصرته حقًا، ﴿ وَجَٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾ [الفرقان: ٥٢]، لا تكونن كبارق ليس في برقه ندى!!

أوقـد مـن الحـق للـراجين نبراسـا ... واقـرع لإيقـاظ أهـل الكهـف أجراسـا

وأبشر، أبشر

فإنـك رأس والعـلا جـسد ... والمجـد وجـه وأنـت الـسمع والبـصر

ولم تزل نخلة الإسلام باسقة مليئة بعذوق التمر والرطب، وإن الفقاقيع تطفوا ثم يمضينا!!

لا يأس، فالنخلة الشماء كانت بذرة تحت التراب والموجة الرعناء كانت قطرة فوق السحاب!!

لا يأس، فالفجر يولد رغم أشباح الظلام والشمس تشرق رغم أطباق القتام!!

لا يأس، فالريح لا تهوى سوى قمم الجبال والطير لا ترقى سوى الشجر الطوال والورد لا يزدان إلا فوق أطراف التلال!!

لا يأس، إن أظلمت فستنجلي وكمثل ما حملت تضع!!

لا يأس، إن ضاقت الأرض على بلبل فسوف يشدو في رحاب السماء!!

أيها الرافع في وجه غصون الشوك ما أخفيت بال،!

إنني أملك في وجه المآسي السود رايات اتزان،!

إنني أبصر شمسا تشرئب الأرض في شوق إليها يتسامى الأخشبان،!

وأرى نهرا من النور يغني فيتيه الشاطئان،!

وأرى القصواء تحيي في رمال البيد أقوى مهرجان،!

وأرى بلقاء سعد وأبا محجل والسيف اليماني وأطراف السنان،!

وأرى اليرموك تستعذب صوت النهروان،!

أيها الرافع في وجه غصون الشوك ما أخفيت بان!

مرحبا بالموت في عز ويا بعد هوان،!

﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

هو الله الذي يخشى.

هو الله الذي يحيي.

هو الله الذي يحمي.

وأهل الأرض كل الأرض، لا والله ما ضروا ولا نفعوا، ولا رفعوا ولا خفضوا، فما لاقيته في الله فلا تجزع ولا تيأس ﴿ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ﴾ [آل عمران: ١٢٠].

سيروا فإن لكم خيلا ومضمارا … وفجروا الصخر ريحانا ونوارا

وذكرونا بأيام لنا سلفت … فقد نسينا شرحبيلا وعمارا

***

وإن الفجر مرتقب بلا ريب سيأتينا … ويملأ نوره أرجاء هذي الأرض يحيينا

وإنا لنأمل نصر الليوث وأن يلقم الحجر النابح!!، إلهنا قد تم ما أردنا وغاية انتهائي ما قصدنا.

إيماض لمع ومر، نقطة من يم، وقرطعب من جم وعبر، ووخز إبر، وجمل من الأخلاق سمعنا ومبتداها ولا زلنا في انتظار الخبر، فإيعاب هدي المصطفى وخلاله عسير، فمن يقوى على حصر الأنجم، أرجو الله أن يهز بهذا الإيماض جامدا، ويؤز إلى الخير خامدا، لنجني شيئا من ثمرة النية، ونغير أواخر الأسماء المبينة، فإن تم فبيان وتوكيد، وذاك ما نريد، وإلا فهو بث ونفث، ومعراج صعود لمن يريد، ربما تبلغ يوما كلماتي للقلوب، والله يقضي بهبات جمة، لي ولكم ولجميع الأمة، ونسأل الله القبول والرضا، والختم بالحسنى إذا العمر انقضى، اللهم إليك نشكو ضعف قوتنا، وقلة حيلتنا، وهواننا على الناس، أنت رب المستضعفين وأنت ربنا وأنت أرحم الراحمين، نعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات من أن تنزل بنا غضبك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك، يا من لا يهزم جنده، ولا يغلب أولياؤه، أنت حسبنا ومن كنت حسبه فقد كفيته، حسبنا الله ونعم الوكيل، حسبنا الله ونعم الوكيل، حسبنا الله ونعم الوكيل.

والحمد لله على إتمامه، ثم صلاة الله مع سلامه، على النبي وآله وصحبه وحزبه وكل مؤمن به، سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.



[٩] أختاه هل تريدين السعادة

إن الحمد لله؛ نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، شهادة عبده وابن عبده وابن أمته ومن لا غنى به طرفة عين عن رحمته، وأشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله، أرسله الله رحمة للعالمين، فشرح به الصدور، وأنار به العقول، وفتح به أعينًا عميًا، وآذانًا صمًا، وقلوبًا غلفًا، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان وسلم تسليمًا كثيرًا.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١ ﴾ [النساء: ١].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١ ﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

وأسأل الله الذي جمعنا وإياكم في هذه الروضة أن يجعلنا ممن تتنزل عليه الرحمة، وتغشاه السكينة، وتحفه الملائكة، ويذكره الله عز وجل فيمن عنده.

اللهم إنا نسألك ألا تصرفنا -رجالنا والنساء- من هذا المسجد إلا وقد غفرت لنا ما تقدم من ذنوبنا، اللهم لا تعذب جمعًا الْتقى فيك ولك، اللهم لا تعذب ألسنة تخبر عنك، اللهم لا تعذب أعينًا ترجو لذة النظر إلى وجهك، اللهم لا تعذب قلوبًا تشتاق إلى لقائك.

ما أجمل أن تلتقي الأسر المسلمة على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ما أجمل أن نتذاكر الله عز وجل جميعًا ليعم النفع للرجل والمرأة، والصغير والكبير، والذكر والأنثى! إنها لَنعمة عظيمة كان ﷺ يفعلها، وذاك من هديِه، وخير الهدي هديُه ﷺ

وعذرًا لكم أيها الرجال! سيكون الخطاب هذه المرة من بين مرات كثيرة وكثيرة -لطالما خوطبتم أنتم- للنساء، فعذرًا وعفوًا، وما يُقال للرجل يُقال للمرأة، وما يُقال

للمرأة يُقال للرجل إلا فيما اختص به كل جنس عن جنس آخر، والذي خصَّه به شرعنا المطهر الذي أُنزَل على محمد ﷺ

أيتها الأخوات أيتها الأمهات! هل تُردْن السعادة؟ هل تُردْن السكينة؟ هل تُردْن الأمن والطمأنينة؟ هل تُردْن ذلك في الدنيا والآخرة؟ أم تُردْنها في وقت غير وقت من هذه الأوقات؟

السعادة الدنيوية

إنني لأقول لَكنَّ: إن السعادة سعادتان: دنيوية مؤقَّتة بعمر قصير محدود: من طلبها مجردة وحدها فسينسى ذلك في غمسة واحدة يُغمسها في جهنم، يُؤتَى بأَنعَم أهل الدنيا من أهل النار فيغمس في النار غمسة، ثم يقال له: هل مرَّ بك خير قط؟ هل مرَّ بك نعيم قط؟ فيقول: لا والله يا رب[1]!

فينسى كل نعيم ولذة في الحياة بغمسة واحدة يُغمسها في النار، نعوذ بالله من النار.

السعادة الأخروية

أما السعادة الثانية: فهي سعادةٌ أخروية دائمة لا انقطاع لها أبدًا: وهذه هي المطلوبة، فلو حصل للإنسان في حياته ما حصل من التعاسة والشقاء لم يكن بعد ذلك نادمًا أبدًا؛ لأن غمسة واحدة في الجنة تُنسيه تلك الآلام، وتُنسيه ذلك الشقاء وتلك التعاسة.

ويا أيها الأحبة! إن سعادة الدنيا مقرونة بسعادة الآخرة، وإنما السعادة الكاملة في الدنيا والآخرة للمؤمنين والمؤمنات، للصالحين والصالحات، للطيبين والطيبات، للقانتين والقانتات، للعابدين والعابدات، للمتقين والمتقيات؛ اسمع إلى ربك يوم يقول سبحانه وبحمده: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ [النحل: ٩٧]، فالسعادة كلها في طاعة الله، والسعادة كلها في السير على منهج الله وعلى طريقة محمد بن عبد الله ﷺ ، يقول الله جل وعلا: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧١]، والشقاوة كلها في معصية الله، والتعاسة كلها في منهج غير منهج الله وغير منهج محمد ﷺ ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب: ٣٦].

---

(١) صحيح: مسلم (٧٢٦٦) بنحوه.

فيا أيتها الأخوات المسلمات! هل تُردْن السعادة؟ إن كنتن كذلك، وما أظنكن إلا كذلك.

فلتسمعن مني النصيحة والعتاب
من مخلص في نصحِكن يرجو لكُنْ حُسن الثواب
يخشى على هذه الوجوه من الحميم من العذاب
أخواتنا لا تغضبن فالحق أولى أن يُجاب

أيتها الأخت المسلمة...

بصوتِ المحب المشفق، وكلام الناصح المنذر، أدعوكِ وأدعو الكل وأدعو نفسي إلى تقوى الله عز وجل، وأن نقدم لأنفسنا أعمالًا صالحة تُبيض وجوهنا يوم أن نلقى الله ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩]. ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٦، ١٠٧]. تبيضُّ وجوهنا يوم أن نلقى الله: ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ﴾ [آل عمران: ٣٠]

ألا هل تُردْن النجاة؟ إن النجاة لفي تقوى الله -جل وعلا- لا غير: ﴿ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦١﴾ ﴾ [الزمر: ٦١].

مكانة المرأة في الجاهلية

ثم إني أدعوكِ أخرى -يا أخت الإسلام- إلى أن تحمدي الله عز وجل الذي أنعم عليك بنعمة الإيمان، ونعمة القرآن، وكرَّمكِ، وطهَّركِ، ورفع منزلتك أيَّ رفعة، ولم تُرفَع منزلة المرأة تحت أي مظلة مثلما رُفعَت تحت مظلة: (لا إله إلا الله محمد رسول الله) ليس هذا فحسب؛ بل أنزل الله فيك وفي أخواتك سورةً كاملة في قرآنه باسم (سورة النساء)، وسورة أخرى باسم (سورة مريم)، وسورةً ثالثة باسم (سورة المجادلة).

ليس هذا فحسب؛ بل خصَّك بأحكام عديدة في كتابه الكريم، في حين كانت المرأة قبل هذا الدين سلعة رخيصة سلعة ممتهنة كسقط المتاع، عار على وليها، وعار على أهلها، وعار على مجتمعها الذي تعيش فيه؛ ولذلك تعامل أحيانًا كالحشرة، بل تُفضَّل البهائم عليها.

لم تنالِ عِزَّكِ إلا في وسط هذا الدين يا أَمَة الله؛ فاستمسكي به، واسمعي إلى قول الله عز وجل يوم يحكي ماضيًا لابد أن تتذكريه؛ فتحمدي الله أولًا وأخرًا وظاهرًا وباطنًا على ما أنتِ فيه: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴾ [النحل: ٥٨، ٥٩].

لا إله إلا الله، إنه ليئدُها ويقتلها ويدفنها حية أحيانًا.

فاسمعي يا أمة الله...

يُذكر أن صحابيًا اسمه عبد الله بن مغفل -رضي الله عنه وأرضاه- كان إذا جلس عند رسول الله ﷺ ظهر على وجهه حزن وكآبة -حزن عظيم وكآبة عظيمة- فسأله النبي ﷺ عن سبب حزنه ذلك الذي لا ينقطع أبدًا.

فقال: يا رسول الله! كنت في الجاهلية، وخرجت من عند زوجي وهي حامل، وذهبت في سفرٍ طويل لم أعُدْ إلا بعد سنوات، وجئت وإذا بها قد أنجبت لي طفلة تلعب بين الصبيان كأجمل ما يكون الأطفال، قال: فأخذتها، وقلت لأمها: زيِّنيها زيِّنيها! وهي تعلم أني سأئدها وأقتلها، فقامت أمها تزينها وبها من الهمِّ ما بها، زينتها وتقول لأبيها: يا رجل! لا تضيِّع الأمانة، يا رجل! لا تضيِّع الأمانة، قال: ثم أخذتها كأجمل ما يكون الأطفال براءة وجمالًا، فخرجت بها إلى شِعْب من الشعاب، قال: وبقيت في ذلك الشعب أبحث عن بئر أعرفها هناك، فجئت إلى بئرٍ طوية دوية، ليس فيها قطرة ماء، قال: فوقفت على شفير البئر، أنظر إلى تلك الصغيرة، فيرقُّ قلبي لما بها من البراءة وليس لها من ذنب، ثم أتذكر نكاحها وسفاحها؛ فيقسو قلبي عليها، بين هاتين العاطفتين أعيش، قال: ثم استجمعت قواي، فأخذتها، فنكبتها على رأسها في وسط تلك البئر.

قال: وبقيت أنتظر هل ماتت؟ وإذا بها تقول: يا أبتاه! ضيعت الأمانة، يا أبتاه! ضيعت الأمانة.

ترددها وترددها حتى انقطع صوتها؛ فوالله يا رسول الله! ما ذكرت تلك الحادثة إلا وعلاني الحزن والهم، وتمنيت أن لو كنت نسيًا منسيًا لو كان ذلك في الإسلام، ثم نظر إلى النبي ﷺ فإذا دموعه تهراق على لحيته ﷺ، وإذ به يقول -فيما رُوي- « **يا عبد الله! والله لو كنت مقيمًا الحد على رجل فَعَل فعلًا في الجاهلية لأقمته عليك، لكن الإسلام يَجُبُّ ما قبله**»، أو كما قال ﷺ.

وصايا للمرأة المسلمة

العمل بطاعة الله سبحانه

ألا فاحمدي الله -يا أخت الإسلام- الذي هداك لهذا الدين، وشرَّفكِ وأكرمكِ ورفع قدركِ بهذا الدين يوم ضلَّ غيرُك من نساء العالمين، ثم استمسكي بحبل الله جل وعلا، واعتصمي بدين الله عز وجل؛ فإنه الركن إن خانتكِ أركان، ثم أنقذي نفسك من النار، يا أَمَة الله! والله لستِ خيرًا من فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ، وقد قال لها أبوها يومًا من الأيام كما في صحيح مسلم: « **يا فاطمة بنت محمد! أنقذي نفسك من النار، لا أُغني عنكِ من الله شيئًا، يا فاطمة بنت محمد أنقذي نفسك من النار لا أُغني عنكِ من الله شيئًا**» [1]، وهذا إخطار لكِ -أمة الله- وإنذار منه ﷺ، يوم عُرضت عليه النار فرأى أكثرها النساء.

ألا فاعلمي أنكِ عرضة لعذاب الله إن لم تخضعي لأوامر الله إن لم تطيعي الله إن لم تقفي عند أوامره وحدوده وتجتنبي نواهيَه.

ألا فأنقذي نفسك من النار، واعملي بطاعة الله، ولا تجعلي لكِ رقيبًا غير الله -جل وعلا- الذي ﴿ **مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا** ﴾ [المجادلة: ٧].

إنك -والله- لأعجز من أن تطيقي عذاب النار، إن الجبال لو سُيِّرت في النار لذابت من شدة حرِّها؛ فأين أنتِ -أيتها الضعيفة- من الجبال الشمِّ الراسيات ﴿ **قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ** ﴾ [النساء: ٧٧]، لا مهرب من الله إلا إليه، ولا ملجأ منه إلا إليه الكل راجع إليه الكل مسئول بين يديه الكل موقوف بين يديه، الكل سيُسأل عن الصغير والكبير والنقير والقطمير: ﴿ **فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣].

فماذا عسى يكون الجواب؟!

ماذا عسى يكون الجواب يا أخا الإسلام ويا أخت الإسلام؟!

ألا فأعدي للسؤال جوابًا، ثم أعدي للجواب صوابًا.

أطيعي الله يا أمة الله! وأطيعي رسوله ﷺ، خذي من أوامر الله ما استطعتِ، واجتنبي نواهيَه، وقفي عند حدوده، وتمسكي بدين الله.

---

(١) متفق عليه: البخاري (٣٣٣٦)، ومسلم (٥٢٥) بنحوه.

الشعور بالمسئولية

ثم تمسكي بحيائك -والحياء من الإيمان- ما استطعتِ إلى ذلك سبيلا؛ فإنكِ إمَّا قدوة اليوم، وإما قدوة الغد، وكلٌ سيُسأل؛ فماذا سيكون الجواب؟

أنت راعية في بيتك أَمَة الله، وأنت راعية إن كنتِ معلمة في مدرسة، ومسئولة عن رعيتك أيًا كانت تلك الرعية -يا أَمَة الله- ألا فلتكوني قدوة حسنة في تربية الجيل، ألا ولتقومي بهذه المسئولية؛ فإن الله سائلكِ عمَّن استرعيت ماذا فعلتِ؟ أَقُمتِ بالأمانة فيهم أم ضيعت الأمانة؛ ليكون لك مثل أجور من اتبعك إن عملت بالحق لا يُنقَص من أجورهم شيء، وإياك ثم إياك! أن تكوني قدوة السوء للأخرى؛ فتأتين يوم القيامة تحملين أوزارك وأوزار من أضللت كاملة، ألا ساء ما تزرين.

ألم تسمعي لقول النبي ﷺ: «**كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته**»[1]، ثم خصَّك -أيتها المرأة- فقال: «**المرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها**»، وفي الحديث الصحيح الآخر: «**وما من راعٍ استرعاه الله رعية فبات غاشًا لهم إلا حرَّم الله عليه رائحة الجنة**»[2]

أنت راعية في مدرستك في بيتك؛ فاللهَ اللهَ لا يأتي يوم القيامة ولكل ابن من أبنائك عليكِ مظلمة، ولكل بنت من بناتك عليكِ مظلمة؛ لم تأمريهم ولم تنهيهم، ولم تربيهم على قال الله وقال رسول الله ﷺ.

إياكِ أن يأتي يوم القيامة، ولكل طالبة -إن كنت معلمة- عليكِ مظلمة؛ لأنكِ لم تربيهم على قال الله وقال رسوله ﷺ، عندها التعامل بالحسنات والسيئات، يأخذون حسناتكِ، ثم تحملين من سيئاتهم، ثم تُطرَحين في النار، أجارَكِ الله من النار ومن غضب الجبار وكل مسلمة ومسلم.

اسمعي يوم يقف الناس في عرصات القيامة، يوم يقول الله -كما في الأثر-: «**وعزتي وجلالي! لا تنصرفون اليوم ولأحد عند أحد مظلمة، وعزتي وجلالي! لا يجاوز هذا الجسر اليوم ظالم**»[3]، يؤخذ بيَدِ العبد ويؤخذ بيدِ الأَمَة يوم القيامة -كما يقول ابن مسعود -

---

(١) **متفق عليه**: البخاري (٨٥٣)، (٢٢٧٨)، ومسلم (٤٨٢٨).

(٢) **حسن صحيح**: أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٧٢٣٠)، و«شعب الإيمان» للبيهقي (٧٤١١)، والألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٢٠٧).

(٣) سبق تخريجه.

فيُنادَى على رءوس الخلائق: هذا فلان أو فلانة من كان عليه حق فليأتِ إلى حقِّه، فتفرح المرأة أن يكون لها حق على أبيها أو أخيها أو زوجها أو أمها.

﴿ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠١]، ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عبس: ٣٤- ٣٧].

فاللهَ اللهَ لا يكون أبناؤك وبناتك خُصماءكِ عند الله فتهلكي، أجاركِ الله من الهلاك يا أَمَة الله! يا أيتها الأخت المسلمة.

الاقتداء بالمرأة الصالحة

هل تريدين السعادة؟

اقتدي بالصالحات تفوزي في الحياة وفي الممات، واعملي صالحًا ثم اخلصي العمل لله -جل وعلا- تتخلصي، وبلغي العلم إن كنتِ تعلمين شيئًا، بلِّغيه لأنكِ ستُسألين عنه بين يدَي الله عز وجل ماذا عملتِ في ذلك العلم، وإن لم تكوني قد تعلَّمت من العلم شيئًا، فعليكِ أن تتعلمي ما يجب عليكِ؛ لتعبدي الله -عز وجل- على بصيرة وعلى هدى؛ فهذا واجب وفرض عين لا يسقط عن أي إنسان كائنًا من كان.

يا أمة الله! إن الإنسان ليَأْلَم يوم يسمع عن عجائز في البيوت لا يُجِدْن قراءة الفاتحة، بل لا يعرفن كيف يصلين، بل لا يعرفن بعض أحكام النساء.

أحد الرجال -كما يذكر أحد الدعاة إلى الله- يعود إلى أهله في البيت في يوم من الأيام، ويُجلس أسرته ليربيهم، ويعرف ماذا وراء هذه الأسرة؟ فجلس معهم، وقال لأمه العجوز اقرئي لي الفاتحة، يريد أن يعرف هل هي تعرف قراءة الفاتحة التي لا تتم الصلاة إلا بها أم لا؟ قالت: وما الفاتحة يا بني؟ قال: إذا كبرتِ ماذا تقولين في صلاتكِ؟ قالت: أقول: لا قرأت كتابًا، ولا حسبت حسابًا، فلا تعذبني يوم العذاب.

عمرها سبعون سنة، وأنا أقول: ربما أنه يخرج من بيتها من يذهب إلى المتوسطة، وقد حفظ من القرآن ما حفظ، ويخرج من بيتها ويذهب إلى الثانوية، وقد حفظ ما حفظ، وتخرج من بيتها المعلمة وقد حفظت من كتاب الله ما حفظت، لكننا تعلمنا العلم لا لنعمل به، ولكن لتنال شهادة، حاشاكِ -أختي المسلمة- أن يكون هذا ديدنك، إنكِ مسئولة عن هذا «**لن تزول قدما عبدٍ يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع: عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما**

أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وعن علمه ماذا عمل به؟»[1]، فماذا سيكون الجواب يا أمهات المستقبل! ويا معلمات الجيل! ويا مربيات الأمة! اقتدي بالصالحات -كما قلت- وتشبهي بهم، واعملي بما عملوا به، وامشي على أثرهم ليلحقك الله عز وجل بهن.

نماذج من النساء الصالحات

موقف سارة زوج الخليل عليه السلام من طاغية مصر

ها هي سارة زوج الخليل عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، اعتصمت بالله عز وجل، والْتجأت إلى الله عز وجل، وحفظت الله في الرخاء فحفظها الله عز وجل في الشدة، أُخذت من بيتها بالقوة من قِبَل زبانية طاغية مصر آنذاك، وقام إليها يريد فعل الفاحشة بها.

امرأة ضعيفة لكنها عزيزة قوية يوم تستمسك بحبل العزيز القوي سبحانه وبحمده.

قامت وتوضأت وقامت لتصلي، واتصلت بربها -سبحانه وبحمده- مباشرة، لا وسائط بين أحدٍ وبين الله سبحانه وتعالى قائلة: «اللهم إن كنت تعلم أني آمنت بك وبرسولك، وأحصنت فرجي إلا على زوجي؛ فلا تسلط عليَّ هذا الكافر، اللهم اكفنيه بما شئت»، فجَمُد الكافر هذا مكانه لا يستطيع أن يتحرك منه شيء، يوم لجأت إلى الله وقد حفظته في وقت الرخاء، فحفظها الله عز وجل في وقت الشدة، جمُدَ في مكانه ولم يتحرك ولم يتزحزح، ثم يُطلق بعد ذلك، فيمدُّ يدَه مرة أخرى على زوج الخليل، فتتجمد أعضاؤه مرة أخرى، ويبقى على ما كان عليه في المرة الأولى، ثم يمد الثالثة، ثم يمد الرابعة، ثم في الأخيرة يقول لهم: ما جئتموني إلا بشيطان، أرجعوها إلى إبراهيم، وأخدموها هاجر.

لم ترجع سليمة محفوظة بحفظ الله فقط؛ بل رجعت ومعها مملوكة لها وهي هاجر عليها رضوان الله، رجعت إلى إبراهيم عليه السلام وهي محفوظة بحفظ الله؛ لأن الله عز وجل قد قال: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

---

(١) صحيح لغيره: «كنز العمال» (٣٩٠١٢)، و«كشف الخفاء» (٢/ ١٥١)، والألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٥٩٣).

وقد قال رسوله ﷺ : «احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك» [١]

فالعـــز في كـــنف العزيـــز ومـــن عـــبد العبـــيد أذلَّـــه الله

فهلاَّ ائتسيتنَّ بها أيتها المسلمات! هلَّا لجأْتُنَّ إلى الله وتركتنَّ ما يُبعدكنَّ عن الله، وعكفتُنَّ على كتاب الله وسنة رسول الله محمد بن عبد الله ﷺ ، فتعلمتُنَّ كتاب الله وعلمتنَّ وبلغتنَّ فكنتنَّ فيمن قال فيهم رسول الله ﷺ : «خيركم من تعلم القرآن وعلمه» [٢]

بعض مواقف فاطمة بنت رسول الله ﷺ

ليس هذا فحسب، هل كانت أسوتكِ -أختي المسلمة- فاطمة بنت رسول الله ﷺ ، تلك التي تربَّت في بيت النبوة، وذاقت ما ذاقه ذاك البيت من أذى في سبيل الله عز وجل، ترى أباها ﷺ وهو يقوم بالدعوة يقف صفًا واحدًا، والبشرية كلها صفٌّ ضده.

تراه وهو يصلي، فيقول أحدهم: أيكم يُمهل هذا المرائي حتى يسجد، فيأخذ سَلى جَزور بني فلان، فيضعه على ظهره ﷺ ؟

رأت المنظر وهي طفلةٌ صغيرة تتربى على (لا إله إلا الله محمد رسول الله)، يسجد أبوها، والسَّلى -والفرث والدم- على ظهره ﷺ ولم يجد نصيرًا له في تلك اللحظة بعد الله إلا ابنته فاطمة، وهي جارية صغيرة لتمتد إليه وتأخذه من على ظهره، وتدعو عليهم وتسبهم وتشتمهم، عاشت حياة رسول الله ﷺ أيام كان في مكة، ويوم هاجر إلى المدينة، ويوم استقرَّ هناك.

انظر إليها في تمسُّكها بدينها، وتمسكها بعفتها وحيائها وصبرها العظيم، تلك المرأة التي تزوجت بعلي رضي الله عنه وأرضاه، فما حملت معها الجواهر ولا الفساتين، وما دخلت القصور ولا الدُّور، وإنما دخلت بيتًا من طين.

أما جهازها -يا أمة الله- فهو وسادة محشوة بليف، وسقاء وجرتين، ورَحَى تطحن الحبَّ عليها، وهي سيدة نساء العالمين -رضي الله عنها- وأرضاها ما ضرَّها ذلك وما أنقص من قدرها ذلك.

انظر إليها يوم يتحدث عنها زوجها في آخر حياته، يتحدث عنها علي -رضي الله عنه

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٥١٦)، وأحمد (٢٦٦٩)، والألباني في «صحيح الجامع» (٧٩٥٧).
(٢) صحيح: البخاري (٤٧٣٩).

وأرضاه- فيقول: «كانت بنت رسول الله ﷺ -وكانت أكرم أهله عليه- جرت بالرحى تطحن الحب حتى أثَّر الجر في يدها، واستقت بالقربة حتى أثَّر الحبل في نحرِها رضي الله عنها وأرضاها، وقَمَّت البيت حتى تغبَّرت هيئتها رضي الله عنها وأرضاها، وأوقدت النار حتى تغيرت هيئتها، وأصابها من ذلك ضرٌ أيَّما ضر».

اسمعي إليها يوم تقول -يومًا من الأيام-: «خيرٌ للنساء ألا يَرَيْنَ الرجال، ولا يراهنَّ الرجال».

بضعة منه ﷺ أخذت من علمه وفقهه وحكمته ﷺ.

انظري إليها يوم تَقمُّ البيت، وتوقد النار، وتجرُّ بالرَّحى، وتطحن الحب، وتصبر، ولم تتشكي، أو تسخط من قضاء الله عز وجل، ثم فوق ذلك تُربي أبناءها تربيةً عظيمة؛ تُربيهم على كتاب الله، وعلى سنة رسوله ﷺ، وألَّا يُراقبوا أحدًا غير الله عز وجل، فمن كان من أبنائها؟

كان الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة رضى الله عنهم أجمعين.

هـي بنت مَنْ؟ هي أمُّ مَنْ؟ هي زوج مَنْ؟ ... مـن ذا يـساوي في الأنـام علاهـا

أمَّـا أبـوها فهـو أكـرم مرسـل ... جـبريل بالتوحـيد قـد رباهـا

و علـيٌّ زوج لا تـسل عـنه ... سـوى سـيف غـدا بيميـنه تـيَّاها

طلبت من رسول الله ﷺ أن يخدمها مملوكة من المماليك؛ فما كان منه ﷺ إلا أن قال: «**لا والله! ما دام على الصفة فقير يحتاج إلى لقمة أو إلى كسرة**»، أو كما قال ﷺ، فذهبت إلى بيتها وقد تعبت من أعمال البيت، وجاء النبي ﷺ إليها ليدخل بيتها وهي وزوجها في فراش واحد، ثم قال لهما ﷺ: «**أولا أدلكما على خير لكما من خادم**» من الذي قال هذا؟ إنه من لا ينطق عن الهوى.

﴿ **إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ** ﴾ [النجم: ٤]، قال: «**إذا أويتما إلى فراشكما فَسَبِّحا ثلاثًا وثلاثين، واحمدا ثلاثًا وثلاثين، وكبِّرا أربعًا وثلاثين؛ فذلكما خير لكما من خادم**»[(١)]

هل فعلنا ذلك يا أيها الأحبة؟

---

(١) صحيح البخاري (٥٠٤٦)، (٥٩٥٩).

بل هل علمنا نساءنا أن يذكروا هذا الذكر قبل أن يناموا؟

إنه من المعين على خدمة البيت.

يقول علي: «والله ما تركته من بعد ذلك اليوم حتى لقيت الله -جل وعلا- قالوا: حتى ولا ليلة صفين قال: ولا ليلة صفين» في وسط المعركة وفي وسط ما حصل ما نسيه رضي الله عنه وأرضاه.

إني أقول لكنَّ أيتها الأخوات: عليكنَّ بهذا فذلكنَّ خيرٌ لكنَّ من خادم هل تعلمين يا أَمَةَ الله! أن في بيوت المسلمين -الآن- سبعمائة وخمسين ألف خادم في هذه الجزيرة، ما بين مسلمة وبوذية ونصرانية ومجوسية، تولَّى هؤلاء، فماذا تولوا؟

تولوا تربية فلذات الأكباد، والله إن هذا لأعظمُ الغش، وأعظم ما تغشين به أطفالك ومجتمعك وأُمتك وبلادك - الجزيرة - التي لا يجوز دخول كافر إليها أبدًا.

يا أيها الأحبة! عليكم بهذا الدعاء فذلكما خير لكما من خادم، اذكري فاطمة يا أيتها الأخت المؤمنة! ثم اذكري ما عليه بعض أخواتك في الرغبة الملحة من النظر إلى الرجال، والحديث مع الرجال، والاختلاط بهم، وتشبههن بالكافرات في لباسهن ومشيتهن.

وبالله يا أختي المسلمة! أنت قمَّة، وأنت فضيلة، وأنت طهر قمة بالقرآن فضيلة بالإيمان طهر بتمسكك بهذا الدين؛ فكيف تتشبه القمة بالسافلة؟ وكيف تتشبه الفضيلة بالرذيلة؟ وكيف يتشبه الطهر بالنجس؟

يعيش المرء ما استحيا بخيرٍ ويبقى العود ما بقي اللِّحاء

فلا والله ما في العيش خيرٌ ولا الدنيا إذا ذهب الحياء

إني لأذكركِ مرات ومرات بتلك المؤمنة الطاهرة التي يذكرها أهل السِيَر، بأنها قد قُتل لها ولد في إحدى الغزوات مع رسول الله ﷺ، فجاءت تبحث عن ولدها بين القتلى وهي متنقبة ومتحجبة، فقيل لها: كيف تبحثين عنه وأنت متنقبة ومتحجبة قد لا تعرفينه؟! فأجابت إجابة المؤمنة، إجابة من أطاعت الله: «لأَن أفقد -والله- ولدي خيرٌ من أن أفقد حيائي وديني! إن الله خاطب رسوله قائلًا: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ﴾ [الأحزاب: ٥٩]، والله ما أنا بخير من أمهات المؤمنين ولا من نساء المؤمنين ولا من بناته ﷺ».

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالكرام فلاح

بنت من بنات الأنصار واستجابتها لأمر رسول الله

وهاهو رسول الله ﷺ يرسل رجلًا لخطبة بنت من بنات الأنصار له، ويأتي ويقول: رسول الله يطلب ابنتكم لي -وكان رجلًا فقيرًا ودميمًا- فما كان من الرجل إلا أن تردد، وما كان من الأم بعد ذلك إلا أن ترددت؛ فما كان من هذه المرأة التي تربت على الإيمان إلا أن خرجت، وقالت: أتَرُدَّان أمر رسول الله ﷺ؟ أين تذهبان من قول الله: ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ ﴾ [الأحزاب: ٣٦]. ادفعوني إليه فإن الله لا يضيعني.

أرأيتم -يا أيتها الأخوات- الاستجابة لله عز وجل إذا قضى أمرًا هو أو رسوله ﷺ فهلا كانت هذه أُسوة لكِ.

سمية أول شهيدة في الإسلام

سمية: تعتنق الإسلام، وتُضَرب وتُؤذَى، يريدون أن يردُّوها عن دينها، وما نقموا منها إلا أن آمنت بالله الذي لا إله إلا هو فأبَتْ؛ لأنها علمت أنها على الحق؛ فماذا كان منها؟ تقدم إليها الشقي بحربته ليطعنها في موطن عِفّتها، ولسانُ حالها يقول: ﴿ وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴾ [طه: ٨٤]، فكانت أول شهيدة في الإسلام بإذن الله سبحانه وبحمده.

موقف آسية بنت مزاحم مع فرعون

ومن قبل هؤلاء: امرأة فرعون آسية التي آمنت في وسط بيت من يقول: ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى ﴾ [النازعات: ٢٤] لم يصدها جبروته، ولم يصدها قوته، ولم يصدها طغيانه.

لما تبين إسلامها طلب فرعون منها أن ترجع عن دينها، فأَبَتْ وأنَّى لمسلم يعرف هذا الدين ثم يعود عنه وينكص على أعقابه؛ فماذا كان منه؟

أوْتدَ رجليها، وأوْتدَ يديها بأربعة أوتاد، ثم ربطها وألقاها في الشمس، ومنع عنها الطعام والشراب، وضربها ضربًا مبرحًا، وآذاها ووكَّل من يؤذيها، فقالت؛ ماذا قالت؟ وإلى من لجأت؟ لجأت إلى فاطر السماوات والأرض: ﴿ رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [التحريم: ١١]، روي أنها لما قالت ذلك رُفعت دونها الحُجُبُ حتى رأت بيتها في الجنة من دُرة بيضاء مُجوَّفة، فضحكت وهي تُعذَّب حتى قالوا: هذه مجنونة، تُعذَّب وتضحك؟!

يقول الضحَّاك: «فأمر فرعون بعد ذلك بحجر يُلقى عليها، وهي في أوتادها؛ فما وصل الحجر إليها حتى أخذ الله روحها قبل ذلك، فصارت مثلًا للذين آمنوا».

أرأيتم -يا أيها الأحبة ويا أيتها الأخوات- كيف تكون المؤمنة متعلقة بالله عز وجل فيحفظها سبحانه وبحمده؟

امرأة تموت وهي ساجدة لله

قد تقولون: هؤلاء في عصر مضى، فسأذكر لكم نموذجًا من هذا العصر.

عجوز جالست النساء وهي تخشى الله عز وجل، وتعلم أن هذا اللسان لطالما أردى الكثير من الناس في حفرةٍ من حفر النار، وأوقعهم في أعراض المسلمين -وأعراض المسلمين حفرةٍ من حفر النار- ما كان من هذه المرأة يوم أن جالستهم؛ فلم تجد فائدة إلا أن اعتزلت بيتها؛ فهي تذكر الله آناء الليل وأطراف النهار، وتقرأ القرآن، واعتزلت النساء ولم تجلس معهن، وكان لها ولد بارٌ بها، وفي ليلةٍ من الليالي، قد كانت تقوم أكثر ليلها يوم أصبح قيامنا وقيام أهل بيتنا -إلا من رحم الله- على التمثيليات والمسلسلات، ونسأل الله أن يعصم قلوبنا وأن نلقى الله على ذلك.

يا أيها الأحبة...

كانت تقوم ليلها، وفي ليلةٍ من الليالي، وإذا بها تنادي ابنها في ثلث الليل الآخر، وتقول: يا بني! ها أنا على وضع سجودي لا يتحرك مني عضو واحد.

فما كان منه إلا أن أخذها وذهب بها إلى المستشفى، وهو بارٌ بها، يريد أن تعود إلى صحتها، نورٌ في البيت تذكر الله ليلًا ونهارًا، وذهب بها إلى الأطباء، وفعلوا ما فعلوا، وأنَّى لبشر أن ينجي من قدر؟ وأنَّى لِحَذَرٍ أن ينجي من قدَر، سألته بالله أن يعيدها إلى بيتها، فأخذها وذهب بها إلى البيت، ووضَّأها، ثم قالت: أعِدني على وضع السجود كما كنت على سجادتي في آخر الليل، وإذا بها بعد فترة ليست بالطويلة تنادي ابنها، وتقول: يا بني! أستودعك الله الذي لا تضيع ودائعه، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

لتلقى الله -عز وجل- وهي ساجدة؛ يغسلونها وهي ساجدة؛ ويكفنونها وهي ساجدة؛ ويذهبون ليصلوا عليها وهي ساجدة، تُحمل إلى المقبرة وهي ساجدة، وتدخل القبر وهي ساجدة، ومن مات على شيءٍ بُعث عليه، تُبعث بإذن الله ساجدة.

يا أيها الأحبة رجالًا ونساءً...

امرأة تقوم من الليل ما تقوم، وبعضنا لا يقوم من ليله ولو لساعة أو لنصف ساعة أو لدقائق أو لركعتين أو ثلاث يرجو بها رحمة الله، يرجو بها نفحة من نفحات الله عز وجل.

إني أقول: تشبهوا بهذه العجوز وقد منحكم الله ما لم يمنحها من الصحة والقوة.

ابنة سعيد بن المسيب وغزارة علمها

وهاهي ابنة سعيد بن المسيب -عليه رحمة الله- وهذه مثل للأخوات المتعلمات؛ لما دخل عليها زوجها -وكان من طلبة العلم- أصبح في الصباح فأخذ رداءه يريد أن يذهب ليُثنيَ ركبته في مجلس سعيد بن المسيب أبيها.

فقالت: إلى أين تريد؟ قال: إلى مجلس أبيكِ سعيد أتعلمُ العلم، فقالت له: اجلس أعلمك علم سعيد؟ فوجد ما كان يتعلمه من سعيد عند ابنته.

هكذا تكون المرأة المسلمة، وهكذا تكون المعلمة الفاضلة، تصبح نورًا يَشِعُّ على زوجها وعلى بيتها؛ فلا يخرجون من البيت إلا طيبين وصالحين بإذن الله.

عائشة رضي الله عنها العالمة الفاضلة

وإن نسينا فلا ننسى عائشة -رضى الله عنها- تلكم العالمة التي مات عنها زوجها ولم تَخْطُ بعد إلى التاسعة عشر، وملأت الأرض علمًا حتى قال فيها الزهري: «لو جُمع علم عائشة إلى علم جميع النساء لكان علم عائشة أفضل وأكثر وأفيد».

طلبت العلم ولم تعزف عن الزواج، كما يفعل بعض أخواتنا في هذه الأيام، يطلبون العلم فيعزفون عن الزواج.

تزوجت -يا أيها الأحبة- وهي في التاسعة أو أقل من ذلك، ولم تتعلم إلا قال الله وقال الرسول ﷺ، لم تتعلم قصص الغرام والحب أو الأدب الإنجليزي، ولم تصرف وقتها إلا فيما ينجيها؛ كتاب الله وسنة نبينا محمد ﷺ، فرضي الله عنها وأرضاها، ووفق أخواتنا لتكون هي وأمثالها قدوة لهن.

امرأة تشارك في الجهاد بضفائرها

وهاهو أبو قدامة الشامي يقف خطيبًا في يوم من الأيام على المنبر يَعِظ الناس، ويذكرهم بفضيلة الجهاد في سبيل الله جل وعلا.

ماذا كان من هذا الرجل؟

خرج من المسجد، وقد اشْرَأَبَّتْ الأعناق للذهاب إلى القتال في سبيل الله، وخرج يمشي في شارع من شوارع مدينته، وإذا بهذه المرأة تقول: يا أبا قدامة! السلام عليك، فلم يرد عليها السلام؛ لأنه خشي أن تفتنه؛ لأن نبيه ﷺ يقول: «**فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء؛ فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء**»[1]، فلم يرد عليها في الأولى، ولا في الثانية، وفي الثالثة قالت: السلام عليك يا أبا قدامة! ما هكذا يفعل الصالحون.

قال: فتوقفت فتقدمت إليّ، وقالت: سمعتك وأنت تشحذ الهمم للجهاد في سبيل الله، وفتشت، فلم أجد -والله- أغلى عندي من ضفيرتَيْ شعري، فقصصتهما، فخذهما، واجعلهما لجامًا لفَرَسِك في سبيل الله؛ علَّ الله أن يكتبني من المجاهدات في سبيله.

ولا إله إلا الله تقصُّ ضفائرها لجامًا لخيل الله ولجند الله، وأخرى تقصُّ ضفائرها لتكون أشبه بالبغايا العاهرات، شتان بين مشرق ومغرب! شتان بين الفريقين!

يا أيها الأحبة...

«**من تشبَّه بقوم فهو منهم**».

أرأيتم هذه المرأة في اليوم الذي بعده؟ يقول أبو قدامة: وقد انطلقنا نريد الجهاد في سبيل الله، قال وإذا بطفل يأتي ويلحق بنا، ويقول: يا أبا قدامة! سألتك بالله أن تجيزني في القتال في سبيل الله. قال: تطؤك الخيل بحوافرها. قال: سألتك بالله إلا أخذتني. قال: إن قُتلت تشفع لي عند الله شرط؟ قال: نعم. فأخذه معه على فرسه، وانطلقوا حتى قابلوا الروم، وحينما قابلوهم قال: سألتك بالله ثلاثة أسهم. قال: تضيعها إذًا.

قال: سألتك بالله ثلاثة أسهم، فأعطاه، فأخذ سهمًا، وقال: السلام عليك يا أبا قدامة! باسم الله، ثم أطلقه، فقتل روميًا، ثم أطلق الثاني فقتل روميًا، ثم أطلق الثالث فقتل روميًا ثالثًا، ثم جاءه سهم فضربه في لُبته، فأرداه من فوق الفرس وهو يقول: السلام عليك يا أبا قدامة! سلام مودع، ثم سقط فسقط وراءه أبو قدامة، وقال: لا تنسَ الوصية، لا تنسَ الوصية.

فما كان منه بعد ذلك إلا أن قال: خذ هذا وأعطِه أمي. قال: ومن أمك؟ قال: أمي

---

(١) صحيح: مسلم (٧١٢٤).

صاحبة الضفيرتين التي أعطتك إياها بالأمس[١]

أرأيتم إلى البيوت المسلمة يوم تُربَّى على لا إله إلا الله محمد رسول الله، المرأة مربية الأجيال.

والأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعبًا طيِّب الأعراق

صفية بنت عبد المطلب الصابرة المجاهدة

هاهي صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ، تِلْكُم المرأة الحازمة التي ربَّتْ للأمة أول فارس سلَّ سيفًا في سبيل الله، توفي عنها زوجها وترك لها الزبير -وهو طفل صغير- فنشَّأته على الخشونة والبأس، وربَّتْه على الفروسية، لم تُنشِّئْه على التنعُّم والترفُّه والميوعة حتى أصبح الأطفال والرجال -الآن- أشباه رجال ولا رجال، جعلت لعبَه في برْيِ السهام وإصلاح القسي، لم تجعل لعبه في لعب الكرة، وفي مطاردة الدراجات في الشوارع يمينًا وشمالًا؛ يتسكعون.

كانت تقدمه في كل مخوفة، وكانت ترميه في كل خطر؛ تريد أن يكون لَبِنَة صالحة في هذا المجتمع؛ فإذا تردد عنها ضربته وأوجعته، حتى إنَّ أحد أعمامه يومًا من الأيام قال لها: إنكِ تضربينه ضربَ مبغضةٍ لا ضرب أم، فارتجزت قائلة:

من قال قد أبغضته فقد كذب وإنما أضربه لكي يَلُبّ

ويختم الجيش ويأتي بالسلب

هاجرت إلى المدينة النبوية، وهي تقفو إلى الستين من عمرها، تركت مدارج الشباب، وتركت مكة، وهاجرت بدينها فارَّةً إلى الله -جل وعلا- في المدينة، شاركت في يوم أحد لما رأت ما حل بالمسلمين، وهي تسقيهم بالماء، هبَّت كاللبؤة، وانتزعت رمحًا من أَحَد المنهزمين، ومضَتْ تشق الصفوف به، وتزأر وتقول: «ويحكم أتنهزمون عن رسول الله ﷺ؟» فلما رآها النبي ﷺ خشيَ أن ترى أخاها حمزة وقد مثِّل به المشركون؛ فما كان منه إلا أن أشار إلى ابنها الزبير، وقال: «**دونك أمك**» أو كما قال ﷺ

فقال الزبير: «يا أماه! إليكِ يا أماه إليكِ.

---

(١) انظر «صفة الصفوة» (٤/ ١٩٩، ٢٠٠).

قالت: تنحَّ عني، لا أمَّ لك.

فقال: إن رسول الله يأمركِ أن ترجعي.

قالت: الأمر أمر الله وأمر رسوله» فتوقفت.

ثم قالت: «والله لقد بلغني أنه مُثِّلَ بأخي حمزة ولأصبرنَّ[1]، وذلك في ذات الله وفي سبيل الله» ثم انتهت المعركة، وما كان منها إلا أن وقفت على أخيها وقد بُقِرَ بطنُه، وأُخرِجت كبدُه، وجُدِع أنفه وأُذناه، وشُوِّهَ وجهُه، فاستغفرت الله له، وجعلت تقول: «في ذات الله، لقد رضيت بقضاء الله لقد رضيت بقضاء الله».

لم تلطم خدًّا، ولم تُشق جيبًا، ولم تَنُح، وما كان لها أن تكون كذلك.

وها هي في يوم الخندق يوم وضع النبي ﷺ النساء في حصن حسان -وهو حصن من أمنع الحصون- ولم يترك معهن من الرجال، فذهب الجيش إلى الخندق، وما كان منها إلا أن رأت يهوديًا يتسلل إلى القصر، وإلى هذا الحصن يريد أن ينظر هل في الحصن رجال أم يستخلي اليهود بهذا الحصن؛ ليسلبوا النساء والذراري؟

لما رأته أخذت عمودًا من الحصن، ثم هجمت عليه حتى قتلته، ثم لم تكتف بذلك فاحتزت رأسه واقتطعته، وأخذته وخرجت إلى أعلى الحصن، ثم رمَتْ برأسه على اليهود يتدحرج بينهم، فقالوا: قد علمنا أن محمدًا لن يترك النساء بلا رجال.

رضي الله عن صفية، ربَّت وحيدها أحسن تربية، وأُصيبَتْ في شقيقها، فاحتسبت ذلك، وعملت لهذا الدين، وحملت همَّ هذا الدين، وهكذا يكون نساء المسلمين أيتها الأخوات.

أم الإمام أحمد وتربيتها له

إن النماذج لكثيرة كثيرة لكني أقف مع نموذج أخير أو قبل الأخير، وهو مع أم الإمام أحمد الذي يموتِ أبوه عنه وهو صغير، فتكفله أمه الزاهدة العابدة الصائمة القائمة، تقوم بتربيته،وهذا دور المرأة يوم تكون صالحة.

تنتج اللَّبِنات الصالحة، نشَّأت ابنها على حب الله ورسوله، وعلى حب كتاب الله، يقول أحمد: «حفَّظتني القرآن وعمري عشر سنوات»، ومن حفظ القرآن فقد استدرج النبوة بين جنبيْه.

---

(١) انظر «مسند البزار» (٢/ ٥٥)، و«دلائل النبوة» للبيهقي (١١٦٧) بنحوه.

يقول: كانت توقظني قبل صلاة الفجر بوقت ليس بالقصير، وتدفئ لي الماء؛ لأن الجو كان باردًا في بغداد، وتُلبسُني اللباس، ثم نصلي أنا وإياها ما شئنا، ثم ننطلق إلى المسجد وهي مختمرة؛ لأن الطريق كان بعيدًا مظلمًا موحشًا لتصلي معه صلاة الفجر في المسجد -وعمره عشر سنوات- وتبقى معه حتى منتصف النهار لتعلمه العلم، ولتربيه التربية؛ ليكون لَبِنَةً صالحة ينفعها يوم تقْدمُ على الله جل وعلا.

يقول: فلما بلغت السادسة عشرة قالت: يا بُني! سافِرْ في طلب الحديث؛ فإن طلب الحديث هجرة في سبيل الله.

أعدت له بعض متاع السفر من أرغفة الشعير، ومن صُرَّة ملح، ومن بعض مستلْزَمَات السفر، ثم قالت: إن الله إذا استُودِع شيئًا حفظه، فأستودعك الله الذي لا تضيع ودائعه.

ذهب من عندها إلى المدينة، وإلى مكة، وإلى صنعاء ليعود الإمام أحمد، وقد قدَّم للأمة ما قدَّم ولأمه -إن شاء الله- من الحسنات مثلما عمل أحمد، ومثل من يعمل بعمل أحمد إلى أن يلقى الله بمنِّه وكرمه، والخير في الأمة كثير وكثير.

فلو كان النساء كمن ذكرنا ... لفَضلت النساء على الرجال
وما التأنيث لاسم الشمس عيب ... وما التذكير فخر للهلال

هل أعجبتكِ خصال هؤلاء النساء؟

إذا أعجبتك خصال امرئ ... فكنه يكن ما يعجبك
فليس على الجود والمكرمات ... إذا جئتها حاجب يمنعك

المؤامرة الكبرى على المرأة المسلمة

يا أيتها الأخت المؤمنة...

إن أعداءكِ كُثرٌ، وإنما يريدون استغلالكِ لهدم الدين والحياء والفضيلة كُثر كُثر، وقد يكونون ممن يتكلمون بألسنتنا، ومن بني جلدتنا.

يقول أحدهم: لا تستقيم حالة الشرق إلا إذا رفعت الفتاة حجابها عن وجهها وغطَّت به القرآن الكريم!!

ويقول آخر: كأس وغانية تفعلان بالأمة المحمدية ما لم تفعله المدافع والقذائف؛ فأغْرِقوهم بالشهوات والملذَّات.

فما موقفكِ أمَةَ الله من هؤلاء؟

إن الموقف المنتظَر مِنكن هو الاعتصام بدين الله والوقوف عند حدود الله، ولكننا نرى -ويا ليتنا ما نرى- أحيانًا الكاسية العارية، نرى أن بعض النساء تتصور أن السفور هو كشف الوجه فقط! لا، ذاك شيء، ومعه -أيضًا- السفور الذي لو غَطَّت المرأة وجهها قد يكون أحيانًا برؤيتها، وكأنها تمشي في صالة عرض، تُبدي مفاتنها، وتُخرج محاسنها.

إن من السفور لبسَ الضيق، إن من السفور لبس العباءة الخفيفة الجذابة في منظرها، السفور بلبس القصير والخفيف من الملابس، أهان عليكِ -يا أختي المسلمة- أن تلبسي لباس أهل النار، ألم تسمعي قول النبي ﷺ: **«صنفان من أهل النار لم أرَهما بعد** -وذكر منهن: - **نساء كاسيات عاريات مائلات مميلات، رءوسهن كأَسْنِمَةِ البُخْت**[1] **المائلة، لا يدخلْنَ الجنة ولا يجِدْن ريحها، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا»** [2]

ألا هل ترضين أن تكوني من أهل النار؟

هل ترضين أن تخرجي من آداب القرآن والسنة إلى عادات قوم أخذوها من اليهود والنصارى؟

هل ترضين أن تكون ابنتكِ وثمرة فؤادك من أهل النار؟

هل ترضين أن تُلبسي بناتك لبسًا تتعرَّى به من الحياء، والحياء من الإيمان؟!

هل ترضين لابنتك أن تُعرَض كما تُعرَض السلع فاتنة ليتعلق بها كل سافل وحقير ومهين ورذيل؟

هل ترضين أن تَلبسي أو تُلبسي لباس أهل النار؟

لا -يا فتاة الإسلام- لن ترضَيْ، ولا ترضَيْ، وهذا هو المأمول، حصنكِ الحصين دينكِ العظيم؛ يحافظ على عفتكِ وحيائكِ وفضيلتكِ، يأمرك بالحجاب والاحتشام، متى ما تركتِ هذا الأمر كنت عرضة لعذاب الله في الآخرة، وفي الدنيا عرضة للذئاب البشرية

---

(١) **البخت**: واحدتها: البختية، وهي الناقة الطويلة العنق ذات السنامين.

(٢) **صحيح**: مسلم (٥٧٠٤) (٧٣٧٣).

التي تريد عفافك الذي به تشرفين، تريد أن تفجعك بعفافك لتتجرعي الغُصص مدى الحياة.

وبعض أخواتنا-هداهُنَّ الله- يسمعْن لنداء الذئاب، ويسعين لهم.

حالهن كقول القائل:

قطـــــيع يُـــــساق إلى حـــــتفه ويمـــــشي ويهـــــتف للكافـــــرين

يا فتاة الإسلام...

الأيادي الماكرة الخبيثة تمتد إليكِ في صورة مقالات ساحرة في صورة مجلات خليعة في صورة مسلسلات فاتنة في صورة كلمات أدبية في أعمدة الصحف تريد إخراجكِ إلى الشقاء والتعاسة؛ فكم من مقالة تقول: إن الإيمان في القلوب لا في ستر الوجه والجيوب، و﴿ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴾ [الكهف: ٥].

إنهم يريدون منك الخطوة الأولى: -وهي أصعب خطوة، ومسافة الميل تبدأ بخطوة واحدة- يريدون أن تكوني فاجرة عاهرة سافرة حاشاكِ من ذلك، ينتظرون منكِ بفارغ الصبر أن تلقي العباءة وتتخلصي من الحجاب ومن مستلزماته من الإيمان والحياء والطهر، ثم تتركي الصلاة، ويومها تقرُّ أعينهم؛ فيلعبون بكِ لَعِب الأطفال بالكرة، ويعبثون بك عبث الكلاب بالجِيَف -حفظكِ الله منهم- أغيظيهم بعدم الالتفات إليهم والسماع لهم، اقتليهم حسرة بتوفير حيائك وملازمة حجابك؛ فإنما أطمعهم في الوصول إلى غاياتهم ما لاحَ لهم من النجاح في سماع منكِ لمختلف الأغنيات والمسلسلات والأفلام الماجنات، أغراهم بالوصول إلى بعض فتياتنا الخروج إلى الأسواق، والوقوف أمام الباعة من غير ما ضرورة، والتجوال في الشوارع والأسواق، ألستِ تؤمنين بالله واليوم الآخر؟

ألستِ ترجين الله والدار الآخرة؟

إن عُرف هذا؛ فاعلمي أن الله حرَّم السفور كما حرَّم الفسق والفجور، وأمر المؤمنات بغضِّ الأبصار وحفظ الفروج، ونهاهنَّ عن إبداء شيء من الزينة؛ بل أمر أن يقَرْن في بيوتهن فلا يخرجن من غير ما حاجة، وإذا خرجن لحاجة فليخرجن متسترات غير متجملات ولا متعطرات وبإذن وليِّهن: «**أيما امرأة خرجت بغير إذن وليها فهي في سخط الله حتى ترجع، وأيما امرأة استعطرت ومرت على قوم ليجدوا ريحها فهي زانية**».

ألا فلتمشين متواضعات في أدب وحياء، ألا لا تتخذن -خلاخل أو ما يشبه

الخلاخل- ولا أحذية تضرب الأرض بقوة فيُسمَع قرعها، وربما أوقعت في القلوب شيئًا، فإن الله يقول: ﴿ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ﴾ [النور: ٣١]، «لا تخلونَّ امرأة بغير ذي محرم لها» (١)، «ما خلا رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما» (٢)

لا تصافحي الرجال؛ فإن رسول الله ﷺ قد امتدت إليه يد امرأة تبايعه، فقال: «إني لا أصافح النساء» (٣)

اتقين الله -أيتها الأخوات- فإنه لا صبر لكُنَّ على النار، إنكنَّ تصبرْنَ على الجوع وعلى الضر وعلى التكاليف، لكن -والله- لا صبر لكُنَّ على النار.

أجاركن الله وكل مسلمة من النار.

أيتها الأخوات...

لا تتَّبِعْن خطوات الشيطان؛ فإنه يأمر بالسوء والفحشاء.

يا من آمنت بالله! ويا من سجدت لله! ويا من استترت بستر الله! حذارِ حذارِ من السقوط؛ فإن السقوط إلى النار وبئس القرار، حذارِ حذار يا بنت عائشة وحفصة وسارة وزينب وأسماء أن تغتري بزيف حضارة الغرب المادية؛ فهي زَبَدٌ اكتووا هم بنارها؛ فاستمعي واعتبري.

واعـرف الـشر لا للـشر لكـن لتوقّـيه ... ومـن لا يعـرف الـشر مـن الخير يقع فيه

أخبار وأحداث مؤلمة

نشرت إحدى الصحف الأمريكية استقراءً خطيرًا في إحدى جامعاتها في سنة واحدة: ثبت أن عشرين ألف فتاة حملن من الزنا -نعوذ بالله من الفواحش ما ظهر منها وما بطن- وأن أمريكا تستقبل مليون طفل من الزنا والسفاح سنويًا، وتعاني من مشكلة رعاية هؤلاء الأطفال الآن.

---

(١) انظر «تلبيس إبليس» (١ / ٤٢)، و«فتح الباري» لابن حجر (٨/ ٦٤٠) بنحوه.

(٢) صحيح: أخرجه الترمذي (١١٧١) (٢١٦٥)، وأحمد (١١٤) (١٤٦٩٢)، و الألباني في «الصحيحة» (٤٣٠)، وفي «الإرواء» (١٨١٣).

(٣) صحيح: أخرجه ابن ماجه (٢٨٧٤)، والنسائي (٤١٨١)، وأحمد (٢٧٠٥١)، و الألباني في «الصحيحة» (٥٢٩).

وفي إحصائيات للتليفزيون الفرنسي بلغ عدد العازبات من النساء ثمانية ملايين امرأة، وبلغت حوادث اغتصاب الفتيات اثنتين وعشرين ألف حالة سنويًا.

كاتب أمريكي يقول: إن إحصائيات عام تسعة وسبعين للميلاد تدق ناقوس الخطر؛ فعدد اللواتي يلدن سنويًا دون زواج في سن المراهقة ستمائة ألف فتاة، منهن عشرة آلاف دون سن الرابعة عشرة.

ومع ذلك يقولون -وكبرت كلمة تخرج من أفواههم-: إن الحجاب وعدم الاختلاط كبْتٌ جنسي، ومع ذلك تجد الواقع يُكذبهم، أين اثنان وعشرون ألف حالة سنويًا من الاغتصاب عندهم؟! أين هذا الكبت الذي يقول: بأنه لا يعيشه إلا المسلمة التي تأتمر بأمر الله؟! حالات الاغتصاب -كما سمعتن- لا تُحصى، ونكاح الرجل ابنته وأمه وأخته مألوف ومشهور، عافانا الله وإياكم من الفسق والفجور.

وفي بريطانيا عشرون ألف حالة إجهاض سنويًا، ناهيك عن الأمراض التي طمَّت وعمَّتْ كالإيدز والسيلان والهربز.

وصدق رسول الله ﷺ القائل -قبل أربعة عشر قرنًا-: **«وما ظهرت الفاحشة في قوم حتى أعلنوا بها؛ إلا ظهرت فيهم الأوجاع التي لم تكن في أسلافهم»** (١)

﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ [المدثر: ٣١].

يا فتاة الإسلام...

إنهم يريدون لمجتمعنا أن يكون كمجتمعهم ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ﴾ [البقرة: ١٢٠]، فانتبهي واحذري يا أخت الإسلام! أنت أمام داعيَيْن: داعٍ إلى النار والعار والشنار؛ ففرِّي منه فرارك من الأسد، وداعٍ إلى الجنة وهو رسول الله ﷺ الذي جعل من أكبر اهتماماته المرأة، خاطبها، ووعظها، وبالله ذكَّرها وأبكاها، كان يصلي العيد، ثم ينتقل إلى النساء، فيعظهنَّ، ويذكرهن بالله، ويربيهن على الإيمان، وهديه ﷺ موجود بيْن أَيْديكنَّ، وخيرُ الهدي هديُه ﷺ فالْزموه.

في وقت ستجدين فيه من يستهزئ بكِ، ويريد منكِ أن تكوني غربية سافلة ساقطة.

---

(١) صحيح لغيره: أخرجه ابن ماجه (٤٠١٩)، و الألباني في «الصحيحة» (١٠٦)، وفي «صحيح الترغيب والترهيب» (١٧٦١).

ستجدين من يقول للحجاب: خيمة!! ولقد قيل وكبرت كلمة تخرج من أفواههم.

ستجدين من يقول: عليكِ أن تبحثي عن قائد يقودك إلى المدرسة! وستجدين من يقول: آن لكِ أن تمزقي حجابك وتمشى سافرة، يدعونكِ إلى جهنم إن أجبتيهم قذفوكِ فيها؛ فليكن جوابك: اخسئوا.

لأنــــي مــــولعة بالحــــق لــستُ	إلى ســـواه أنحـــو ولا في نـــصره أئـــنُّ
دعهـم يعـضوا علـى صـم الحـصى كمـدًا	مـن مـات مـن غـيظه مـنهم لـه كفـن

أسماء بنت أبي بكر وحملها هم الإسلام

ولنقف مع نموذج هنا وهو وقفة عظيمة أخيرة، وقفة تأمل وتدبر لابد أن نقفها مع هذا النموذج، إنه مع نموذج فريد، مع نموذج درس وحده لنقف مع أسماء رضى الله عنها وأرضاها ذات النطاقين، الصدِّيقة بنت الصديق التي حظيت بموقف لم تحظَ به امرأة قبلها ولا بعدها ولا حتى الرجال، ألا وهو خدمة رسول الله ﷺ وأبيها في الغار، في طريق الهجرة إلى المدينة النبوية، حدثٌ لم يتكرر، وخدمة لن تتكرر.

تزوجت بالزبير -رضى الله عنه وأرضاه- وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة، رضيت به زوجًا؛ لأنه ابن الدعوة الذي شهد فجرها كما شهدتها هي، ولأنه ابن الدعوة الذي ذاق حلاوة الأذى في سبيلها كما ذاقتها هي، إنهما يشتركان في الإيمان والدعوة والشجاعة.

انتقلت من بيت أبيها إلي بيت زوجها المتواضع، لم تحمل جواهر، أو فساتين، وإنما تحمل همَّ مستقبل الإسلام بين أضلاعها ومصير الدعوة.

خدمة أسماء لزوجها الزبير

تقول ذات يوم: «تزوجني الزبير، وما له في الأرض مالٌ ولا مملوك غير فرسه، فكنت أعلف فرسه، وكنت أكفيه مئونته، وكنت أقوم فوق ذلك بأعباء بيته».

واسمعوا -يا أيتها الأخوات- لم تكن أسماء عبئًا على زوجها الزبير بما لها من مطالب دنيوية ورغبات ذاتية؛ لأنها لم تطلب الدنيا للمتعة، ولم تطلب من زوجها أن يكون لها لوحدها يحقق رغباتها، ويسعى لتوفير السعادة لها؛ بل كانت هي في خدمة زوجها تسعده وترضيه، وتقف وراءه، وتحتسب ذلك، فهو على ثغر في خارج البيت، وهي على ثغر في داخل البيت، وهذه هي القسمة العادلة، وهكذا تكون الأسرة المسلمة.

فأين تقف المرأة المسلمة اليوم مع زوجها في دعوته؟ هل تتعهده بالطمأنينة؟ هل تشحنه بالعزيمة؟ هل تقف صفًّا وراءه، وتتخلى عن بعض رغباتها في سبيل الله؟ أم أنها تقف عقبة تُعيقُه في طريق دعوته ورسالته، إني لأدعو الأخوات إلى دفع الأزواج، والأبناء، والإخوان، والأخوات إلى الإصلاح والدعوة والعلم، ولهن في أسماء قدوة ونعم القدوة.

تربية أسماء لأبنائها

لا زلنا نعيش مع أسماء ويرزقها الله -جلَّ وعلا- بعبد الله، فتربيه تربية المؤمنات، تُتحفُ سمعه وقلبه بمبادئ هذا الدين، تُتْحف سمعه -صباحًا ومساءً- بتلاوة آيات الله البينات على آذانه، تُتْحِف سمعه وقلبه بذكر الله آناء الليل وأطراف النهار حتى شبَّ وترعرع، وأبواه لا يفتران عن تعليمه أمور الدين، وتربيته على الإسلام، حتى إنه ليقتحم مجلس رسول الله ﷺ يومًا من الأيام، وهو لا يزال صغيرًا؛ فيتبسم ﷺ يوم جاء يبايعه، ويقول: «إنه ابن أبيه، إنه ابن أبيه»، كما روي عنه ﷺ.

فهل تعي الأمهات مسئولية الأبناء؟ نرجوا ذلك.

إن المرأة الغارقة في الرفاه والتنعم والترف، والتي تستهلكها الدنيا من طعام وشراب، وزينة وتفاخر، ومظاهر براقة لا تربي الأطفال، ولا تربي العلماء، ولا تربي الأتقياء؛ إنما تربي التنابلة والبطَّالين، والكسالى والخاملين، والعالة على المجتمع المتسكعين؛ أشباه الرجال ولا رجال.

انظرن -يا أيتها الأخوات- لأسماء في أحْلَكِ المواقف، وقد بلغت السابعة والتسعين من عمرها، يوم حوصر ابنها في الحرم، فيدخل هو عليها يستشيرها في الموقف؛ ماذا يفعل.

فقالت بثبات المؤمنة المربية: «أنت أعلم بنفسك يا عبد الله! إن كنت تعلم أنك على حق وتدعو إلى الحق؛ فاصبر عليه حتى تموت في سبيله، وإن كنت تريد الدنيا فلبئس العبد أنت، أهلكت نفسك ومن معك، قال: يا أماه! والله ما أردت الدنيا، وما جُرْتُ في حكم، وما ظلمتُ، وما غدرت، والله يعلم سريرتي وما في قلبي.

فقالت: الحمد لله! وإني لأرجو الله أن يكون عزائي فيك حسنًا إن سبقتني إلى الله، تعانقَا عناق الوداع، ثم قالت: يا بني! اقترب حتى أشمَّ رائحتك، وأضم جسدك، فقد يكون هذا آخر العهد بك، فأكبَّ على يديها ووجهها يلثمها ويقبلها، وتشتبك دموعه بدموعها وهي تتلمسه -عمياء لا ترى- ثم ترفع يدها، وهي تقول: يا عبد الله! ما هذا

الذي تلبسه؟ قال: درعي.

قالت: يا بني! ما هذا لباس من يريد الشهادة في سبيل الله، انزعه عنك؛ فهو أقوى لوثبتك، وأخفُّ لحركتك، والبس بدلًا منه سراويل مضاعفة؛ حتى إذا صُرعت لم تنكشف عورتك».

نزع درعه، وشدَّ سراويله، ومضى إلى الحرم، وهو يقول: يا أماه! لا تَفْتُري عن الدعاء، فرفعت كفَّها وقلبها إلى الله قائلة: «اللهم ارحم طول قيامه، وشدة نحيبه في سواد الليل والناس نيام، اللهم ارحم جوعه وظمأه في هواجر مكة والمدينة وهو صائم، اللهم إني قد أسلمته إليك، ورضيت بما قضيت فيه، فأثبني فيه ثواب الصابرين».

ويذهب ويصلي طوال ليلته تلك، ويصلي بالناس الفجر، ثم يحمد الله، ويثني عليه، ويحرض أصحابه على القتال، ثم ينهض ليقاتل، وتأتيه ضربة في وجهه، يرتعش لها ويسيل الدم على وجهه، فيقول:

ولسنا على الأعقاب تدمى كلومنا ... ولكن على أقدامنا يقطر الدَّما

ثم سقط فأسرعوا إليه، فأجهزوا عليه، فارتجت مكة بالبكاء عليه -عليه رحمة الله- ثم لم يكتفوا بذلك، بل صلبوا جسمانه كالطود الشامخ في ريع الحجون.

عُلو في الحياة وفي الممات ... بحق أنت إحدى المكرمات

كأنك واقف فيهم خطيبًا ... وهم واقفوا قيامًا للصلاة

صبر أسماء عند مقتل ابنها عبد الله بن الزبير

وتسمع الأم الصابرة ذات السبع والتسعين سنة، العمياء البصيرة، وتذهب إلى ولدها المصلوب كالطود الشامخ، وتقترب منه، وهي لا ترى وتدعو له، وإذ بقاتله يأتي إليها في هوان، ويقول: يا أمَّه! إن الخليفة أوصاني بكِ خيرًا، فتصيح به: «لست لك بأم، إنما أم هذا المصلوب، وعند الله تجتمع الخصوم»، ويتقدم ابن عمر مخاطبًا عبد الله المصلوب: السلام عليك يا أبا خبيب! السلام عليك يا أبا خبيب، والله ما علمتك إلا صوَّامًا قوَّامًا وصولًا للرحم، أما وقد قال الناس: إنك شرُّ هذه الأمة، أما والله لأمةٌ أنت شرُّها لأمة خير كلها -ثم الْتفت إلى أصحابه قائلًا-: أما آن لهذا الفارس أن يترجل، ويتقدم ابن عمر إلى أسماء معزيًا مواسيًا، ثم يقول لها: اتقي الله واصبري، فقالت -بلسان الصابرة المؤمنة الواثقة

بموعود الله-: «يا ابن عمر! وماذا يمنعني من الصبر وقد أُهدي رأس يحيى بن زكريا إلى بَغِيٍ من بغايا بني إسرائيل؟!» أرأيتنَّ ما أعظم الأم المربية! وما أعظم الابن المربَّى! لم تلطم خدًّا، ولم تشق جيبًا، ولم تنُح، وإنما سلَّمت الأمر لله، فلله الأمر من قبل ومن بعد: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ۝ ﴾ [البقرة: ١٥٥، ١٥٦].

لتكن القدوة أسماء

انظرن -أيتها الأخوات- إلى أسماء يوم يقدم ابنها المنذر بن الزبير، فأرسل إليها بكسوة من بلاد مرو، كسوة رقاق عتاق، وهي لا ترى، فقامت تتلمس هذه الكسوة، ثم قالت: «أفٍ أفٍ، ردوا عليه كسوته»، فشقَّ ذلك على ابنها، وقال: «يا أماه! إنه لا يشفُّ -يعني: لا يشف عما تحته- قالت: إن لم يشفّ فهو يَصِفُ» فاشترى لها ثيابًا أخرى لا تشف وأعطاها، فقالت: «مثل هذا فاكسني يا بني، مثل هذا فاكسني يا بني» رحم الله أسماء لو رأت ما يصنع بعض نساء المسلمين اليوم، وما يلبسه بعض حفيدات أسماء وخديجة وسمية وصفية ماذا يكون الجواب؟

إننا لنعجب والله من أُذن تسمع قول رسول الله ﷺ: «**صنفان من أهل النار** -وذكر منهم- **نساءٌ كاسيات عاريات مائلات مميلات** -إلى أن قال-: **لا يدخلن الجنة ولا يجدن ريحها، وإن ريحها ليوجد من مسافة كذا وكذا**» [1]، ثم لا نزال نرى في بعض المسلمات - هداهنَّ الله- من تلبس الضيق، وتلبس الشفاف، وتجمع الحشف وسوء الكيل؛ فتلبس القصير والضيق والشفاف.

كأن الثوب ظل في صباح ... يزيد تقلصًا حينًا فحينًا

تظنين الرجال بلا شعور ... لأنك ربما لا تشعرين

إنه وعيد شديد، وزجر أليم، ماذا بعد الحرمان من الجنة ورائحتها الزكية التي توجد من مسيرة ألف عام وأكثر، إلا النار؟!

يا أيتها المسلمة...

إنكِ في هذه الحياة يوم تخالفين أمر الله، تقعين في الوعيد الشديد.

---

(١) صحيح: مسلم (٥٧٠٤).

يوم تجوبين الأسواق سافرة، وتقفين مع باعة الأغنيات والمجلات والفيديوهات ماجنة لتحطِّي من قدركِ في هذه الحياة؛ فلا عفاف ولا حياء، والحياء من الإيمان، ثم تتنازلين شيئًا فشيئًا حتى تقعي فيما نسأل الله أن يجيرك منه، وإذا وقعت بالطبع لا أحد -حتى الفجرة- يريدون رؤيتك بهذا المستوى.

إذا سقط الذباب على طعامٍ رفعتُ يدي ونفسي تشتهيه
وتجتنب الأسود ورود ماء إذا كان الكلاب ولغن فيه

تحذير للنساء وتذكير ونذير

فيا أيتها المسلمة المصلية الساجدة! يا من خضع رأسك للحي القيوم! وخشع له سمعك وبصرك، ألا يكفيكِ زاجرًا حديث رسول الله الذي سمعتيه آنفًا، والله إنه لعظيم لو صُبَّ على الجبال الراسيات لأذابها، فأي شيء بعد الحرمان من دار النعيم، وهل هناك دار إلا الجنة أو النار.

لا دار للمرء بعد الموت يسكنها إلا التي كان قبل الموت يبنيها
فإن بناها بخير طاب مسكنه وإن بناها بشر خاب بانيها

تذكير بالله والدار الآخرة

فارفعي رأسك أختي المسلمة، وانظري بعين بصيرتك إلى أُمهاتك وأخواتك من خير سلف الأمة، وسلي الله اللحاق بهن، واعملي عملهن، علَّكِ أن تلحقي بهن؛ فتُحشَري معهن، والمرء مع من أحب.

يا أَمَةَ الله...

راقبي الله، وقومي بما أوجب الله عليكِ من تكاليف، وادعي إلى الله ما استطعتِ إلي ذلك سبيلا: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ﴾ [فصلت: ٣٣]، وإذا قسا قلبك فتذكري كربًا بيد من سواك، لا تدرين متي يغشاك، إنه الموت الذي لا بُدَّ منه: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [آل عمران: ١٨٥].

يا أمة الله...

بكِ إذا صاح إسرافيل، ونفخ في الصور، وجُمِعْتِ مع الخلائق حافية عارية ذاهلة، قد دنت الشمس منك قدر ميل، ونادى الرب أبانا آدم: يا آدم! أخرج بَعْثَ النار من ذريتك، فيقول: يا رب! وما بعْثُ النار؟ فيقول الله عز وجل: من كل ألفٍ تسعمائة وتسعة وتسعون[1]، عند ذاك يشيب الصغير، ﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ [الحج: ٢].

كيف بكِ يا أمة الله! إذا رُجَّت الأرض، وبست الجبال، وشخصت الأبصار، وخشعت الأصوات للرحمن؛ فشاب الصغير، وزفرت النار، وتقطعت الأسباب، وصاح الكبير: واشيبتاه، وصاح المفرِّط: واخيبتاه، وأَزِفَتِ الآزفة، وبلغت القلوب الحناجر، وتوالت المِحَن على العباد، ونُوديتي باسمك من بين الخلائق للحساب، ما حالك عندها يا أمة الله؟ لا إله إلا الله! أين عُدتُك أيتها الغافلة؟ كم في كتابك من حسنات؟ كم فيه من سيئات؟ هل تنفع الأزياء والموديلات؟ هل تنفع الأغاني والمسلسلات والتمثيليات؟ هل تنفع الفيديوهات والتليفزيونات والإكسسوارات؟ هل تنفع الجواهر والمجوهرات؟

ألا فتوبي قبل ألا تستطيعي أن تتوبي ... واستغفري لذنوبك الرحمن غفار الذنوب

إن المنايا كالرياح عليك دائمة الهبوب

تحذير من التبرج والسفور

ألا فازدادي من الحسنات، والحسنات يُذهبن السيئات؛ فوالله ما بعد هذه الدار من دار إلا الجنة أو النار، والله لَلْجنَّة أقرب من شِراك النعل، والنار كذلك.

اتقي الله! يا ابنة الإسلام.

اتقي الله! يا من تخرجين إلى الأسواق متبرجة.

اتقي الله! يا من تلبسين العباءة للزينة لا للستر.

اتقي الله! يا من كلَّفكِ الله بمهمة عجزت عن حملها السماوات والأرض.

اتقي الله! وصوني نفسك من أن تكوني ألعوبة في يد ضعاف الإيمان.

اتقي الله! يا من تزاحمين الرجل، وتخرجين مع الرجل الذي ليس بمحرم لكِ كالسائق وغيره.

---

(١) متفق عليه: البخاري (٣١٧٠) (٤٤٦٤)، ومسلم (٥٥٤).

اتقي الله! يا من تدخلين على الطبيب بدون محرم ودونها ضرورة.

اتقي الله! يا من تربي أبناءها تربية البهائم؛ فلا تذكرهم بالله ولا تَعِظُهم.

اتقي الله! يا من تتعطر وتخرج حتى إلى الصلاة؛ فإن رسول الله قد نهى عن ذلك، يقول: «**أيما امرأة أصابت بخورًا؛ فلا تشهدْ معنا العشاء الآخرة**» (١) كما رواه مسلم.

اتقي الله وارجعي إلى الهدى قبل يوم تتقلب فيه القلوب والأبصار، واعلمي أن عذاب الله شديد، وأن الدنيا ليست مقرًا، وأن الفضيحة أمام الأولين والآخرين عظيمة؛ فاتقي الله، ثم اتقي الله، ثم اتقي الله.

ووفَّقكنَّ الله جميعًا -أيتها الأخوات- لما يحب ويرضى، ووفَّقنا الله جميعًا لما يُحبُّ ويرضى.

نسأل الله أن يحفظ فتيات المسلمين من كيْد الكائدين، وتربص المتربصين.

اللهم اجعلهن من الصالحات، وبالصالحات مقتديات، وعن الضلال معرضات، وللكتاب والسنة متبعات.

اللهم اجمعهن -كما جمعتهن في هذه الروضة- على الإيمان، وفي الآخرة في جنات ونهَر، في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

اللهم وفِّقنا للقيام بمسئولياتنا -أيها الرجال- فنحن القوَّامون على النساء.

اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا، واحفظنا من بين أيدينا ومن خلفنا، وعن أيماننا وعن شمائلنا، ومن فوقنا، ونعوذ بك اللهم أن نُغتال من تحتنا.

تم الكـــلام وربـــنا محمـــود ولـــه المكـــارم والعـــلا والجـــود

وعلـــي الـــنبي محمـــد صـــلواته مـــا نـــاح قُمَـــريٌ وأورق عـــود

سبحان ربك رب العزة عما يصفون،

وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين

۞۞۞۞۞

(١) صحيح: مسلم (١٠٢٦).

[١٠] دعوة للتأمل

هذه دعوة للتأمل في آيات الله... والتجول في صفحات هذا الكون وآياته ومعرفة عظمة الخالق فله في كل شيء آية يُعرف منها العظمة... والقدرة والتفرد والكمال.

الماء والهواء، والليل والنهار، والشمس والقمر، والحيوان والنبات واختلاف الألسنة والألوان كلها آيات تلهج بذكر الله، وتدل على وحدانيته، فهل من معتبر؟!

الحث على التفكر في آيات الله في الكون

قال تعالى: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ۝ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝ ﴾ [سبأ: ١- ٣].

الحمد لله، أصبحت له الوجوه ذليلة عَانِيَة، وحَذِرتَه النُّفوس مجدّة ومتوانية، ذمَّ الدنيا إذ هي حقيرة فانية، وشوَّق لجنة قطوفها دانية، وخوَّف صرعى الهوى أن يُسقوا من عينٍ آنية.

أحمده على تقويم شانيه، وأستعينه وأستعيذه من شر كل شان وشانية، وأحصِّن بتحقيق التوحيد إيمانيه، أحمده وهو العليم العالم بالسِّر والعلانية، فالسر عنده علانية.

فهو العليم أحاط علمًا بالذي	**في الكون من سر ومن إعلان**
وهو العليم بما يوسوس عبده	**في نفسه من غير نطق لسان**
بل يستوي في علمه الداني	**مع القاصي وذو الإصرار والإعلان**
فهو العليم بما يكون غدًا وما	**قد كان والمعلوم في ذا الآن**
وبكل شي لم يكن لو كان كيف	**يكون موجودًا لذي الأعيان**
فهو السميع يرى ويسمع كل ما	**في الكون من سرٍ ومن إعلان**

فلكـــل صـــوت مـــنه سمـــع حاضـــر فالـــــسر والإعــــلان مــــستويان
والــــسمع مــــنه واســـع الأصـــوات لا يخفـــى علـــيه بعـــيدها والدَّانـــي
ويـري دبـيب الـنمل في غـسق الدُّجـى ويـــرى كـــذاك تقلُّـــب الأجفـــان
لهـــو البـصير يـرى دبـيب الـنملة الـــسوداء تحـــت الـصَّخر والـصَّوَّان
ويـــرى مجـــاري القـــوت في أعـــضائها ويـــرى نِـــيَاطَ عـــروقها بعـــيان
ويـــرى خـــيانات العـــيون بلَحْظِهـــا إي والـــذي بـــرأ الـــورى وبَرَانِـــي
فهـــو الحمـــيد بكـــل حمـــدٍ واقـــع أو كـــان مفروضًـــا علـــى الأزمـــان
هـــو أهلـــه ســـبحانه وبحمـــده كـــل المحامـــد وصـــف ذي الإحـــسان
فلـــك المحامـــد والمـــدائح كلـــها بخواطـــري وجوارحـــي ولـــساني
ولـــك المحامـــد ربـــنا حمـــدا كمـــا يرضـــيك لا يفنـــى علـــى الأزمـــان
مـــلء الـــسماوات العـــلا والأرض والموجـــود بعـــد ومنتهـــى الإمكـــان
ممـــا تـــشاء وراء ذلـــك كلـــه حمـــدًا بغـــير نهايـــة بـــزمان
وعلـــى رســـولك أفـــضل الـــصلوات والتـــسليم مـــنك وأكمـــل الرضـــوان
صـــلى الإلـــه علـــى الـــنبي محمـــد مـــا نـــاح قُمْـــرِيٌّ علـــى الأغـــصان
وعلـــى جمـــيع بـــناته ونـــسائه وعلـــى جمـــيع الـــصَّحب والإخـــوان
وعلـــى صـــحابته جمـــيعًا والأُلَـــى تـــبعوهم مـــن بعـــد بالإحـــسان

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

أما بعد:

أحبتي في الله...

إنها دعوة؛ دعوة إلى التأمل، دعوة موجَّهة إلى القلوب الذاكرة العابدة الخاشعة، دعوة إلى من يتفكرون، ويسمعون، ويعقلون، ويؤمنون، ويفقهون إلى أولي الألباب إلى أولي الأبصار إلى أولي الأحلام والنُّهَى إلى من يتأملون، ويتدبرون فينتفعون، فلا عند حدود

النظر المشهود للعيان يقفون، بل إلى قدرة القادر في خلقه ينظرون، ولسان حالهم ومقالهم: ﴿ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [القصص: ٧٠]، ليزدادوا إيمانًا مع إيمانهم وكذلك يفعلون.

وهي كذلك دعوة إلى الغافلين، السَّاهين، اللاهين، المعْرِضين، إلى من لهم عيون بها لا يبصرون، وآذان بها لا يسمعون، وقلوب بها لا يفقهون.

إلى من هم كالأنعام يأكلون ويشربون ويتمتعون ولم يحققوا معنى: ﴿ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦].

إلى من هاجموا التوحيد ولم يفهموه، وهاجموا الإسلام ولم يعرفوه، ونقدوا القرآن ولم يقرءوه.

إلى من يمرُّون على آيات الله وهم عنها معرضون، إليهم هذه الدعوة؛ علَّهم يستيقظون، ويفقهون، ويعقلون، فيقدرون الله حقَّ قدره، لا إله إلا هو فأنى يؤفكون: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ ﴾ [الزمر: ٦].

إنها باختصار دعوة إلى العلم بالله علمًا يقود إلى خشيته ومحبته، فمن كان به أعلم كان له أخشى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ﴾ [فاطر: ٢٨]، وهي أيضًا دعوى لتعبد الله بمقتضى ذلك العلم، في تمام خضوع وذل ومحبة من طريقين اثنين:

الأول: التدبر في آيات الله الشرعية المتلوة في كتابه العزيز.

والثاني: النظر في مخلوقات الله، وآياته الكونية المشهودة: ﴿ إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

هي دعوة إلى التأمل في بديع صنع الله، وخلقه وبيان ما في هذا الكون من إبداع ينطق بعظمة الخالق جل وعلا، ووحدانيته في ربوبيَّته، وإلوهيته وأسمائه وصفاته.

كيف والكون كتاب مفتوح يُقرأ بكل لغة، ويُدرك بكل وسيلة، يطالعه ساكن الخيمة، وساكن الكوخ، وساكن العمارة والقصر، كل يطالعه فيجد فيه زادًا من الحق إن أراد التطلع إلى الحق.

إنه كتاب قائم مفتوح في كل زمان ومكان، تبصرة وذكرى لكل عبدٍ خضع وأناب.

يأخذك كتاب الله إن تأمّلته في جولات وجولات، ترتاد آفاق السماء، وتجول في جنبات الأرض والأحياء، يقف بك عند زهرات الحقول، ويصعد بك إلى مدارات الكواكب والنجوم.

يفتح بصرك وبصيرتك إلى غاية إحكام وإتقان ليس له مثيل، قد وضع كل شيء في موضع مناسب، وخُلِق بمقدار مناسب.

يُريك عظمة الله، وقدرة الله، وتقديره في المخلوقات، ثم يكشف لك أسرار الخلق والتكوين، ويهديك إلى الحكمة من الخلق والتصوير، ثم يقرع الفؤاد بقوله: ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ [النمل: ٦٣].

إن نظرت إليه بعين البصيرة طالعك بوحدانية الله في الربوبية مستدلًا بها على وحدانيته في العبادة والإلوهية، ذلّت لعزة وجهه الثّقلان.

وفي نهاية الآيات، يقرع القلوب، ويطرق الآذان، ويصكُّ المشاعر والأحاسيس بذلك التعقيب الإلهي العظيم: ﴿ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴾ ، ﴿ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴾، ﴿ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴾، ﴿ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ﴾ كل هذا، وهناك من هم عنه معرضون: ﴿ أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ ﴾ [الفرقان: ٤٤].

إنه حديث طويل، يطالعك في طوال السور وقصارها، لكنه مع ذلك شائق جميل، تسكن له النفس، ويتلذّذ به السمع، وتتحرك له الأحاسيس والمشاعر، تستجيب له الفِطَر السليمة المستقيمة، ومع ذا ينبّه الغافل، ويدمغ المجادل المكابر؛ إذ هو حق، والحق يسطع ويقطع.

والحق شمس والعيون نواظر ... لا يختفي إلا على العميان
والشرع والقرآن أكبر عُدَّة ... فهما لقطع لجاجهم سيفان

جولة في صفحات الكون الدالة على توحيد الله

فتعالَ معي أخي لجولة أرجو ألا يستطيلها مَلُول، وألا يستكثرها مشغول، نرتاد فيها هذا الكون بسماواته وأرضه وأحيائه، متأملين متدبِّرين: ﴿ إن فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ

وَٱلْأَرْضِ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [البقرة: ١٦٤].

فاللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلًا، وأنت تجعل الحَزن إذا شئت سهلًا.

تأمل في الوجود بعين فكر ... ترى الدنيا الدنيئة كالخيال

ومن فيها جميعًا سوف يفنى ... ويبقى وجه ربك ذو الجلال

***

تأمَّل واطعن برمح الحق كل معاندٍ ... واركب جواد العزم في الجولان

واجعل كتاب الله درعًا سابغًا ... والشرع سيفك وابْدُ في الميدان

السماء بغير عمدٍ ترونها، من رفعها؟ بل الكواكب من زيَّنها؟ الجبال: من نصبها؟ الأرض: من سطحها وذلَّلها وقال: ﴿ فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا ﴾ [الملك: ١٥]؟ الطبيب: من أرداه وقد كان يرجى بإذن ربه شفاه؟ المريض وقد يُئِس منه: من عافاه؟ الصحيح: من بالمنايا رماه؟ البصير: في الحفرة من أهواه؟ والأعمى في الزِّحام: من يقود خُطَاه؟ الجنين في ظلماتٍ ثلاثٍ: من يرعاه؟ الوليد: من أبكاه؟ الثعبان: من أحياه والسُّم يملأ فاه؟! الشَّهد: من حلاَّه؟ اللبن: من بين فرث ودم من صفَّاه؟ الهواء تحسُّه الأيدي ولا تراه الأعين: من أخفاه؟ النَّبت في الصحراء: من أرْبَاه؟ البدر: من أتمَّه وأسراه؟ النخل: من شقَّ نواه؟ الجبل: من أرساه؟ الصخر: من فجَّر منه المياه؟ النهر: من أجراه؟ البحر: من أطغاه؟ الليل: من حاك دُجَاه؟ الصُّبح: من أسفره وصاغ ضحاه؟ النوم: من جعله وفاة، واليقظة منه بعثًا وحياة؟ العقل: من منحه وأعطاه؟ النحل: من هداه؟ الطير في جو السماء: من أمسكه ورعاه؟ في أوكاره من غذَّاه ونمَّاه؟

الجبار: من يقصمه؟ المظلوم: من ينصره، المضطَّر: من يجيبه؟ الملهوف: من يغيثه؟ الضال: من يهديه؟ الحيران: من يرشده؟ العاري: من يكسوه؟ الجائع: من يشبعه؟ الكسير: من يجبره؟ الفقير: من يغنيه؟

أنت أنت: مَنْ خلقك؟ من صوَّرك؟ من شق سمعك وبصرك؟ من سوَّاك فعَدَلَك؟ من رزقك؟ من أطعمك؟ من آواك ونصرك؟ من جعل ملايين الكائنات ترتادُ وأنت لا تشعر فَمَك؛ ولو اختفت لاختلت وظائف فمك؟ من هداك؟

إنه الله الذي أحسن كل شيء خلقه.

لا إله إلا هو! أنت من آياته، والكون من آياته، والآفاق من آياته تشهد بوحدانيته.

إن تأملت ذلك عرفت حقًا كونه موحدًا خالقًا وكونك عبدًا مخلوقًا.

الكون كتاب مسطور ينطق تسبيحًا وتوحيدًا، وذراته تهتف تمجيدًا: ﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ [لقمان: ١١].

قصيدة إيمانية

لله في الآفاق آيات لعل ... أقلها هو ما إليه هداك

ولعل ما في النفس من آياته ... عجب عجاب لو ترى عيناكا

والكون مشحون بأسرار ... إذا حاولْتَ تفسيرًا لها أعياكا

قل للطبيب تخطَّفته يد الردى ... من يا طبيب بطبِّه أرْدَاكا

قل للمريض نجا وعُوفِيَ بعدما ... عجزت فنون الطب من عافاكا

قل للصحيح يموت لا من علة ... من بالمنايا يا صحيح دهاكا

قل للبصير وكان يحذر حفرة ... فهَوَى بها من ذا الذي أهواكا

بل سائل الأعمى خَطَا بين الزحا ... م بلا اصطدام من يقود خطاكا

قل للجنين يعيش معزولاً بلا ... راعٍ ومرعى ما الذي يرعاكا

قل للوليد بكى وأجهش بالبكا ... لدى الولادة من الذي أبكاكا

وإذا ترى الثعبان ينفث سمَّهُ ... فاسأله من ذا بالسموم حاشكا

واسأله كيف تعيش يا ثعبان ... أوتحيا وهذا السمُّ يملأ فَاكا

واسأل بطون النَّحل كيف تقا ... طرت شهدًا وقل للشهد من حلاَّكا

بل سائل اللبن المُصَفَّى كان ... بين دم وفرث ما الذي صفَّاكا

وإذا رأيت الحي يخرج من ... حَنَايا ميتٍ فاسأله من أحياكا

قل للهواء تحسه الأيدي ... ويخفى عن عيون الناس من أخفاكا

قل للنبات يجفُّ بعد تعهُّدٍ ... ورعاية من بالجفاف رَمَاكا

وإذا رأيت النَّبت في الصحراء … يربو وحده فاسأله من أرْبَاكا
وإذا رأيت البدر يسري ناشرا … أنواره فاسأله من أسْرَاكا
واسأل شعاع الشمس يدنو … وهي أبعد كل شيء ما الذي أدناكا؟
قل للمرير من الثمار من الذي … بالمر من دون الثمار غذاكا
وإذا رأيت النخل مشقوق النوى … فاسأله من يا نخل شقَّ نواكا
وإذا رأيت النار شبَّ لهيبها … فاسأل لهيب النار من أوراكا
وإذا رأيت الجبل الأشَمَّ مناطحا … قِمَمَ السَّحاب فسَلْه من أرساكا
وإذا رأيت صخرًا تفجر بالمياه … فسله من بالماء شقَّ صَفَاكا
وإذا رأيت النهر بالعذب الزُّلال … جرى فسَلْه من الذي أجراكا
وإذا رأيت البحر بالملح الأُجاج … طغى فسَلْه من الذي أطغاكا
وإذا رأيت الليل يغشى داجيًا … فاسأله من يا ليل حاك دُجاكا
وإذا رأيت الصُّبح يسفر ضاحيا … فاسأله من يا صبح صاغ ضُحَاكا
ستجيب ما في الكون من آياته … عجب عجاب لو ترى عيناكا
ربي لك الحمد العظيم لذاتك … حمدًا وليس لواحد إلَّاكا
يا مدرك الأبصار والأبصار … لا تدري له ولكُنْهِهِ إدراكا
إن لم تكن عيني تراك فإنني … في كل شيء أستبين عُلاكا
يا منبت الأزهار عاطرة الشَّذَى … ما خاب يومًا من دعا ورجَاكا
يا أيها الإنسان مهلاً ما الذي … بالله جل جلاله أغراكا

من آيات الله في الجنين

أحبتي في الله...

الله نصب لخلقه دلالات، وأوضح لهم آيات بيِّنات في الأنفس والأرضين والسماوات: ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ﴾ [الأنفال: ٤٢].

﴿ وَفِي ٱلۡأَرۡضِ ءَايَٰتٞ لِّلۡمُوقِنِينَ ۝ وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ۝ ﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١].

وتحسب أنك جرْم صغير وفيك انطوى عالم أكبر

تأمل أخي مدى معرفة الناس بالجنين قبل حوالي ثلاثين عامًا، لقد كان كائنًا حيًا لا يُعْلَم عنه إلا حركاته التي يصدرها داخل بطن أمه، ومع تطور وسائل الملاحظة والمشاهدة، ووصولها إلى بطن الجسم الإنساني -وكل ذلك بإذن الله - كالتصوير والتسجيل الضوئي والصوتي، علم أن للجنين نفسية لا ينفصل فيها عن أمه تمامًا، فتراه في حالات انكماش واكتئاب مرة، وحالات انشراح وانبساط أخرى، بل يبدي الانزعاج لبعض مخالفات أمه؛ كالتدخين مثلًا، عافانا الله وإياكم والمسلمين عمومًا.

يطلب طبيب مجرب من أم حامل في شهرها السادس -كانت تعتاد التدخين- أن تمتنع عنه لمدة أربع وعشرين ساعة، وهو يتابع الجنين بأجهزة التصوير الضوئي، فإذا به ساكن هادئ، وبينما هو كذلك، إذ قدم لها الطبيب لفافة سيجارة -عافانا الله وإياكم- وما أن وضعتها بين أصابعها، وتمَّ إشعالها إلا وأشار المقياس إلى اضطراب الجنين تبعًا لاضطراب قلب أمه.

فسبحان من جعله في وسط ظلمات ثلاث، يتأذى مما تتأذى منه أمه تبعًا وإن لم تشعر أمه بذلك! أمكنهم أن يروه مضطربًا حينما تقع أمه في أزمة انفعال حادة؛ كغضب وخجل، أو في تأثر جسدي كوقوع على الأرض، أو اصطدام بشيء تبعًا لتأثر أمه بذلك، ثم أمكن الأطباء أن يروه هادئًا عندما تنصت أمه لسماع ما تستريح إليه من قرآن وأناشيد وغيرها.

وحينما تسمع صوت أبيه، فتنصت له، رأوه كالمنصت له تبعًا لأمه، أما بعد الولادة، في أسبوعه الأول وجدوه أنه يأنس ويتبسم لصوت أبيه دون سائر الأصوات.

إنها أمور مذهلة، بل آيات بيِّنة بالغة، دالَّة على عظمة الله سبحانه وتعالى، وعلى أحقِّيَّته بالتَّفرُّد في العبادة لا شريك له.

أيضًا رأوا أنه حين ترغب الأم في الحمل ثم تحمل، تجدها ترسل إليه -بإذن الله- موجاتٍ من العواطف المكثَّفة، وتغمره بفيض زاخر من الرضا والحنان، فيبادلها الشعور مبتهجًا وكأنه يشكرها على حسن لقائها ورعايتها، ويعبر عن امتنانه لها بحركات لطيفة ساحرة، لا حد لعذوبتها على قلب أمه، فسبحان الله، وتبارك الله أحسن الخالقين!.

وحين لا ترغب الأم في الحمل، ثم تحمل مكرهة، تقطع الصِّلة العاطفية مع الجنين،

فتراه يحيا منكمشًا، ثم يبدأ يتَّجه نحو المشاكسة، ويعبر عن ذلك بركلات من قدميْه تعبر عن احتجاجه واستنكاره، ولربما يصبح سقطًا فيما بعد، وإن لم يسقط فإنه يبدو مهيًا للعناد والرفض والعدوان بعد ولادته، ويظهر ذلك في أول أيام ولادته.

يذكر صاحب «سنريهم آياتنا» أن امرأة حملت مكرهة، وحاولت إسقاط الجنين ولم تستطع؛ إذ قد ثبته الله، فجعله في قرار مكين؛ فأنَّى لأحدٍ أن يسقطه؟

ولدت بعد ذلك، وكان المولود أنثى، ولما وُلدت رفضت أن تتناول ثدي أمها، وأصرَّت أيامًا على هذا، ولكنها مع ذلك قبلت أن ترضع من مرضعة أخرى غير أمها، عندها أغمضت عيناها، وأعيدت إلى أمها معصوبة العينين، فرفضت ثديها مرة أخري وهي لم تره، فأجرى الطبيب حوارًا مع أمها، تبين أن الأم لم تكن راغبة في الحمل، فحملت على كُرْه، وحاولت الاعتداء عليه بإسقاطه، فانعكس ذلك على الجنين بعد ولادته.

فسبحان الله رب العالمين! إنها أحاسيس ومشاعر وأفعال أمه، تنعكس عليه فحسب، وإلا فهو لا يعلم شيئًا بنص قول الله جل وعلا: ﴿ وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [النحل: ٧٨]، لا تعلمون شيئًا مما أخذ عليكم من الميثاق، ولا تعلمون شيئًا مما قضى به عليكم من السعادة والشقاوة، ولا تعلمون مصالحكم ومنافعكم؛ فهم يخرجون من بطون أمهاتهم لا يعلمون، وبعد خروجهم يرزقهم الله السَّمع؛ فالأصوات يدركون، ويرزقهم البصر؛ فالمرئيات يعرفون ويحسون، ويرزقهم الأفئدة؛ فبها يميِّزون، وتحصل هذه الحواس بأمر الله تدريجيًا، كلما كبر زِيدَ في سمعه وبصره حتى يبلغ أشده ليتمكن بها من عبادة ربه وطاعة مولاه سبحانه وبحمده.

طالعت أمهات هذه الحقائق فكن يَبحثْن عمَّا يريح أحاسيسهنَّ ومشاعرهنَّ أثناء الحمل لينعكس على أبنائهن، ينشدن ويسمعن آيات من كتاب الله، ولذا جاء في نفس الكتاب الماضي: أن سيدة حاملة في دمشق كانت تكثر من قراءة القرآن وسماعه قائمة وعاملة ومضطجعة، والنتيجة أنه عندما وُلِد الجنين تمكن -بفضل الله- أن يختم القرآن؛ حفظًا وتلاوة في الخامسة من عمره، فتبارك الله أحسن الخالقين!

موجز القول: أن الجنين الذي يحيا في رباط مع أمه، سعيد من العواطف المُفْعَمة بالرضا والسكينة، يستجيب -بإذن ربه- بعد ولادته، معترفًا بإحسان أمه إليه في سلوك سَويٍّ ونفسية هادئة غالبًا، لسان حاله: ﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴾ [الرحمن: ٦٠].

فيا أيها العبد العاصي: ألك قَدْر إن فارقت صراط الله ودربه؟

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ۝ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝ ﴾ [يس: ٧٧، ٧٨].

تحتَجُّ على مولاك وقد هداك؟! وتحيد عن الطريق وقد دلَّك وأرشدك؟ بئس العبد عبد سها ولها ونسيَ المبدأ والمنتهى، بئس العبد عبد طغى وعَتَا ونسي الجبار الأعلى، السماء تستأذن ربها أن تَحْصدَه، والأرض أن تخسف به، والبحر أن يغرقه، من أنت؟ وما تكون الأرض وما عليها؟ ثق أنك سقطت من عين الله، ولو كان لك قدرٌ عند الله لعصمك من المعاصي.

يا أيها الماء المهين من الذي سوَّاك ... ومن الذي في ظلمة الأحشاء قد والاكا

ومن الذي غذَّاك من نَعْمَائِه ... ومن الكروب جميعها نجَّاكا

ومن الذي شقَّ العيون فأبصرت ... ومن الذي بالعقل قد حلاَّكا

ومن الذي تعصي ويغفر دائمًا ... ومن الذي تنسى ولا ينساكا

﴿ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [النمل: ٦٣].

من آيات الله في النوم

النوم: ما النوم؟ هل تأملته يومًا من الأيام؟ أنت تعرفه وتمارسه كل يوم، بل إن نصف عمرك أو أقل يذهب فيه، ضرورة لا غنى عنها، بل إن حياتك مؤلفة من قسمين اثنين لا ثالث لهما، من يقظة تبتغي فيها فضل الله وِفْقَ شرع الله، ونوم تبتغي فيه الراحة لتعاود العمل في طاعة الله، الليل لِبَاس، والنهار مَعَاش: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ [يونس: ٦٧].

النوم آية، بل إنه وفاة وموت؛ بنص قول الله: ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ﴾ [الزمر: ٤٢]، ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ﴾ [الأنعام: ٦٠].

«والله جل وعلا لا ينام، ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط[1] ويرفعه، حجابه النور، لو

---

(١) القسط: الميزان.

كشفه لأحرقت سبُحات[(١)] **وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه»**[(٢)] كما في صحيح مسلم.

حـــي وقـــيوم فـــلا يـــنام وجـــلَّ أن يـــشبه الأنـــام

لا تأخذه سنةٍ ولا نوم، لا إله إلاّ هو.

هل تأملت ما يجري للإنسان حين ينام وينسلخ من وعيه فيرفع عنه القلم، كيف يتسرب إليه النوم، ثم يستولي عليه؟ كيف يأتيه، أو كيف يأتي هو إلى النوم؟ إن أدنى درجات النوم -كما تعلمون- نعاس يصحبه تثاؤب، ثم تزنيق وتغفيق، سمع بلا فهم، ثم في درجة أخرى يأتي الوَسَن؛ وهو أول النوم، ثم في درجة ثالثة يأتي التهويم مع الغِرَار والإغفاء، ثم السِّنَة، ثم السهاد، ثم الكَرَى، ثم السُّبات، ثم الرُّقاد، ثم الغطيط المتميز بالشَّخير والنَّخِير؛ وهو أعلى وأثقل درجات النَّوم.

في النوم تتعطل وظائف الحس إجمالًا، يتوقف البصر -أولًا- بإغماض الجفون حتى لو لم تغمض العينان، كما هي عند بعض الناس، فتبقى الجفون مفتوحة، لكن الرؤية مفقودة، كذلك الموت، والنوم وفاة.

الحاسة التي تبقى تعمل خلال النوم هي السمع، وقد حدَّد العلماء والباحثون استمرار السمع خلال النوم بمقدار الثلثين على تفاوت بين الناس في السمع، فما أجمل الإعجاز في كتاب الله يوم يقول: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾ [الروم: ٢٣]، فجمع بين النوم والسمع في سياق واحد، كما قال في سورة الكهف أيضًا: ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾ [الكهف: ١١]، ﴿ وَلَبِثُوا۟ فِى كَهْفِهِمْ ثَلَٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا۟ تِسْعًا ﴾ [الكهف: ٢٥]. وتحقيقًا لاستقرار النوم وعدم اضطرابه عندهم أوقف الله تعالى السَّمع عنهم: ﴿ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ﴾ [الكهف: ١٨].

أما الدِّماغ أثناء النوم فلا ينام بالمعني المفهوم، لكنه يتغير، فبعد أن كان يبث على موجات عالية يصبح على موجات أقل ترددًا، ولذا رفع القلم عن النائم حتى يستيقظ؛ لأن العقل مناط التكليف كما هو معلوم.

---

(١) **السبحات**: نوره تعالى وجلاله وبهاؤه وعظمته، وهي جمع سبحة.

(٢) صحيح: مسلم (٤٦٣).

هل تأملت نائميْن متجاوريْن، ودار بِخَلَدِك أنَّ أحدهما ربما ينعم بالرؤى الصالحة بودِّه ألا يستيقظ الدهر كله مما يجد من لذة، والآخر يجاوره في شقاء يُعذَّب بالأحلام الشيطانية المزعجة، بودِّه لو لم يَنَم، ثم ساءلت نفسك، هل يعلم هذا عن مجاوره، أو ذاك عن هذا؟ أو أنت تعلم ما يدور بذهنهما، ألم يَدُر بخلدك وأنت تستعرض هذا في ذهنك أن تنتقل من هذه الصورة مباشرة إلى المقابر، فتتخيل الموتى صنوفًا بجانب بعضهم، هذا يُنعَّم، وذاك يُعذَّب: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق: ٣٧].

يــا رب إنــك ذو عفــوٍ ومغفــرة	**فنجِّــنا مــن عــذاب القــبر والــنَّكَدِ**
واجعــل إلى جــنة الفــردوس موئلــنا	**مــع النبــيين والأبــرار في الخلْــد**

هل تأمَّلت قيام النائم من فراشه، وتجوله في الدار، ثم عودته إلى الفراش، وهو ما يزال في نومه؟!

يذكر صاحب كتاب النوم والأرق: أن شخصًا نهض من فراشه نائمًا، وخرج من النافذة، ومشى على كورنيش العمارة من الخارج، وتجمع الناس في الشارع يحبسون أنفاسهم خشية وقوعه، وظل يمشي على الكورنيش مغمض العينين حتى دار حول العمارة، ثم عاد إلى النافذة ودخل منها ليعود إلى سريره، فيواصل نومه، ولما استيقظ لم يذكر شيئًا مما حدث له، لقد كان يتحرك وهو نائم، بل يمشي على ارتفاعات شاهقة مُغمَض العينين لو كان في صحوه ما استطاع ذلك ثم يعود إلى فراشه. من الذي قاد خطاه؟!

إن في هذا لدلالة قاطعة على وحدانية الله الواحد القهار؛ فإنما نفوس العباد بيده في الحياة والموت، والنوم والانتباه، هو الإله المتصرف فيهم جميعًا؛ فلا يسوغ لهم أن يتجهوا إلى غيره بأي حال من أحوالهم: ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [النمل: ٦٢]، ﴿ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢١]، آيات باهرات لا حدَّ لها ولا عدّ، كلها حق وصدق، تستحق الذكر والشكر باللسان والجنان والأركان، وقليل من العباد الشكور.

لـو كـنت أعـرف فـوق الـشكر منـزلة	**أعلــى مــن الــشكر عــند الله في الــثمن**
إذًا منحـــتكها ربـــي مهذبـــة شـــكرًا	**علــى صــنع مــا أولــيت مــن حــسن**

اللهم لك الحمد أولًا وآخرًا، وظاهرًا وباطنًا.

من آيات الله في السماوات والأرض

إنها آيات في الأنفس تنطق بحكمة الخالق وعظمته، هل استعظمتم هذا؟ هل استكبرتم هذا؟ إن هناك مَا هو أعظم وأكبر: ﴿ لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [غافر: ٥٧].

تأمل السماء، ثم ارجع البصر إليها أخرى، انظر فيها وفي كواكبها، دورانها، وطلوعها، وغروبها، واختلاف ألوانها وكثرتها، وشمسها وقمرها، باختلاف مشارقها ومغاربها، حركتها من غير فتور ولا تغير في سيرها، تجري في منازل قد رتِّبت لها بحساب مُقدَّر لا يزيد ولا ينقص إلى أن يطويها فاطرها.

تأمل: تجد أنه ما من كوكب إلا ولله من خَلْقِه حِكْمَة، في مقداره، في شكله، في لونه، في موضعه في السماء، في قربه من وسطها وبُعْدِه، في قربه من الكواكب التي تليه وبعده، على صفحة سماوات ترونها أُمْسِكت مع عِظَمِها وَعِظَم ما فيها، فثبتت بلا علائق من فوقها، ولا عُمُدٍ من تحتها: ﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾ [لقمان: ١٠]، ﴿ وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ ﴾ [الحج: ٦٥].

والإنسان العاقل أمام بديع صنع الله في سماواته يتوقف طويلًا أمام أصغر جسم، وأعظم جسم، يرى فيها فتثبت له أدلة الإيمان، بعظمة الخالق في ملكوته، فما يملك إلا أن تخشع جوارحه، وتخضع، وتذل، وتستجيب، فتَقْدُر الله حقَّ قَدْرِه، وتفرده بالعبادة وحده لا شريك له.

فسبحان الله لا يَقْدُر الخلْقَ قَدْرِه ... ومن هو فوق العرش فردٌ موحَّد

﴿ تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الملك: ١].

من أقوال علماء الفلك الباحثين في أسرار الكون

نظر أحد علماء الفلك الكفار إلى السماء من خلال منظار بَنَاه بنفسه، فرأى ما أذهله في هذا الكون، فقال: إن الإنسانية لن تنتهي من سَبْر أغوار الكون، ولن تعرف من الكون إلا مقدار ما نعرفه من نقطة ماء في محيط عظيم.

فهل آمن مع ذلك وصدَّق؟ لا.

وصدق الله: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴾ [الروم: ٧].

وقال آخر أيضًا: إن وضع الأجرام السماوية ليس مجرد مصادفة وعشوائية، بل هي موضوعة في الفضاء بدقة وإتقان؛ إذ أن القمر لو اقترب من الأرض بمقدار ربع المسافة التي تفصلنا عنه لأغرق مدّ البحر الأرض كلها، وما علاقة القمر بالبحر؟! الله يعلمها الذي قال وصدق: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَـٰتِنَا فِى ٱلْـَٔافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣].

ولا يزال علماء الفلك يكتشفون من خلال تجاربهم ومراصدهم ومناظيرهم كل يوم ما يشْدَه ويدهش العقول في هذا الكون الفسيح، حتى قال مكتشف الجاذبية معبرًا عن اكتشافه وضآلة ما اكتشفه بجانب ذلك الخلق العظيم، يقول: لست أدري كيف أبدو في نظر العالم، ولكني في نظر نفسي وأنا أبحث في هذا الكون أبدو كما لو كنت غلامًا يلعب على شاطئ البحر، ويلهو بين حين وآخر بالعثور على حَجَر أملس، أو محَارة بالغة الجمال، في الوقت الذي يمتد فيه محيط الحقيقة أمامي دون أن يسبر أحد غوره. نعم.

﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٥]، لقد رأى البروج الصغيرة وهي تتألف من عشرة ملايين نجم قد عُرِف منها ما عُرِف، ورأى العملاقة وقد وصل عدد نجومها المعروفة لنا إلى عشرة آلاف مليار نجم يرتبط بعضها ببعض في غاية دقة وإحكام.

الله أحكـــم خلـــق ذلـــك كلـــه صـــنعًا وأتقـــن أيمـــا إتقـــان

نعم. لقد رأى مجموعة النظام الشمسي وقد تألَّفت من مائة مليار نجم قد عُرِف وعرف منها الشمس، وتبدو هذه المجموعة كقرص قطره تسعون ألف سنة ضوئية، وسمكه خمسة آلاف سنة ضوئية، ومع هذا البعد الشاسع فإن ضوء الشمس يصلنا في لحظات وكذلك نور القمر.

بل قد رأى هناك مجموعات تكبرها بعشرات المرات، أحصى منها مائة مليار مجموعة تجري، كلها في نظام دقيق بسرعة هائلة، كل في مساره الخاص دون اصطدام، كل يجري لأجل: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴾ [الفرقان: ٦١]، هذا الذي رآه، وما لم يره أكثر، فقد قال الله عز وجل: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ۝ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الحاقة: ٣٨، ٣٩].

ويقول أحد كبار علماء الفلك –وهو يهودي-: أريد أن أعرف كيف خلق الله الكون؟ أريد أن أعرف أفكاره؟ الله بارع حاذق ليس بشرِّير، الله لا يلعب بالنرد مع الكون.

تعالى الله! وجلَّ الله: ﴿ وَيُرِيكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ فَأَىَّ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ تُنكِرُونَ ﴾ [غافر: ٨١].

كيف لو اطَّلع على ما جاء في القرآن؟ لربما كان من المؤمنين حقًّا، نعم.

الله لا يلعب مع الكون، عز وجل وتبارك وتعالى وتقدس هو القائل: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَآ أَن نَّتَّخِذَ لَهْوًا لَّٱتَّخَذْنَـٰهُ مِن لَّدُنَّآ إِن كُنَّا فَـٰعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَـٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٦ - ١٨].

أحبتي في الله...

ما الأرض بالنسبة للكون إلا كَحبة رمل في صحراء الربع الخالي تسير في مسار حول الشمس دون أن يصطدم بها ملايين النجوم والكواكب المنتشرة في الكون.

أما إننا لو علمنا ذلك يقينًا لاعترانا رهبة وخشوع يقود إلى امتثال لأمر الله في غاية حب وذل، وعندها نزكو مَن نفسَه زكَّاها.

إن السماء وتناثر الكواكب فيها أجمل مشهد تقع عليه العين، ولا تمل طول النظر إليه أبدًا، ولهذا -أخي المسلم- فإني أدعوك إلى أن تتطلع على شيء من علم الفلك، ثم اخلُ بنفسك بضع دقائق في ليل صفا أَدِيمه، وغاب قمره، ثم تأمل عالم النجوم، واعلم أن ما تراه ما هو إلا جزء يسير من مائة مليار مجموعة قد عرفت وكثير منها لم يعرف، كل منها في مسارها يسير، لا يختلط بغيره.

وأنت تتأمل انقل تفكيرك إلى ما بثَّه الله في السماوات من ملائكة لا يحصيهم إلا هو، فما من موضع أربعة أصابع إلا وملك قائم لله؛ راكع أو ساجد، يطوف منهم بالبيت المعمور في السماء السابعة كل يوم سبعون ألفًا لا يعودون إليه إلى قيام الساعة: «**أطَّت السماء وحقَّ لها أن تئط**»[1]، كما جاء في الصحيح.

ثم انقل نفسك أخرى وتجاوز تفكيرك إلى بصيرة يسير قلبك بها إلى عرش الرحمن، وقد علمت بالنقل سعته وعظمته ورفعته، عندها تعلم أن السماوات بملائكتها، ونجومها، ومجرَّاتها، ومجموعاتها، والأرضين بجبالها، وبحارها، وما بينهما بالنسبة للعرش كحلقة مُلْقاة بأرض فلاة.

فلا إله إلا الله! وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير.

الملائكة حفت من حول العرش، يسبحون، ويحمدون، ويقدسون، ويكبرون، والأمر

---

(١) سبق تخريجه.

يتنزل من الله بتدبير الممالك التي لا يعلمها إلا الله، يتنزل الأمر بإحياء قوم، وإماتة آخرين، وإعزاز قوم، وإذلال قوم، وإنشاء مُلْك، وسلب ملك، وتحويل نِعَم، وقضاء حاجات، من جبر كسير، وإغناء فقير، وشفاء مريض، وتفريج كرب، ومغفرة ذنب، وكشف ضُر، ونصر مظلوم، وهداية حيران، وتعليم جاهل، وردّ آبق، وأمان خائف، وإجارة مستجير، وإغاثة ملهوف، وإعانة عاجز، وانتقام من ظالم، وكف عدوان من معتدٍ.

مراسيم تدور بين العدل والفضل، والحكمة والرحمة، تنفذ أقطار العالم، لا يشغله سمع شيء منها عن سمع غيره، ولا تُغلطه كثرة المسائل والحوائج على تباينها واتحاد وقتها، لا يتبرم من إلحاح الملحِّين، لا تنقص ذرة من خزائنه، لا إله إلا هو! ذلكم الله ربكم، فتبارك الله رب العالمين، عندها حق للقلب والجوارح أن تسجد مطرقة لهيبته، عانية لعزَّته، سجدة لا يرفع الرأس منها إلى يوم المزيد، يلْهَج صاحبها مرددًا: ﴿ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [آل عمران: ١٩١]

آيات في اختلاف الألسنة واللغات

هل تأملت اختلاف الألسنة واللغات وتباينها من عربية وعجمية؛ كرومية وفارسية وتركية، وغيرها من اللغات، لا لغة تشبه لغة، ولا صوت يشبه صوتًا، إنَّ في ذلك لآَية.

ثم هل تأملت اختلاف الألوان من بيض وسود وحمر وصفر وخضر، لا لون يشبه لونًا، حتى صار كل واحدٍ متميزًا بينكم لا يلتبس هذا بذاك.

بل في كل فرد ما يميزه عن غيره، مع أن الجميع أولاد رجل واحد، وامرأة واحدة؛ آدم وحواء عليهما السلام.

إن في هذا من بديع قدرة الله ما يستحق أن يفرد معه بالعبودية، وما يعقله إلا العَالِمُون، ولا يفهمه إلا المتفكرون: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾ [الروم: ٢٢].

آيات في تعاقب الليل والنهار

تأمل تعاقب الليل والنهار بصورة معتدلة، وتفاوت الليل عن النهار، وكلًا عن مثله، فلا ليل يشبه ليلًا، ولا نهار يشبه نهارًا مذ خلق الله الخلق وحتى قيام الساعة، إن ذلك من أعجب وأبدع آيات الله الدالة على ربوبيته وإلوهيته وحكمته: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴾ [فصلت: ٣٧]، ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ

شُكُورًا ﴾ [الفرقان: ٦٢].

إن تعاقب الليل والنهار نعمة عظيمة؛ إذ هي تنظم وجود الأحياء على الأرض، من نمو النبات، وتفتُّحُ الأزهار، ونضج الثِّمار، وهجرة الطيور والأسماك والحشرات، ومن شاء فليتصور ليلًا بلا نهار، أو نهارًا بلا ليل، كيف تكون الحياة؟!

﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَآءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ۝ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ مَنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝ ﴾ [القصص: ٧١، ٧٢].

أما إنها لو سكنت حركة الشمس لغرق نصف الأرض في ليل سرمدي، وغرق نصفها الآخر في نهار سرمدي، وتعطلت مع ذلك مصالح ومنافع، ومن عاش في المناطق القطبية بعض الوقت عرف نعمة تعاقب الليل والنهار؛ إذ يبقى النهار لمدة ستة أشهر، والليل كذلك: ﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [القصص: ٧٣].

يقول رائد الفضاء السوفيتي الملحد عندما أسبح حول الأرض، ونظر من كُوَّة مركبته فرأى بديع خلق الله في السماوات والأرض، فقال: ماذا أرى؟! أنا في حلم أم سُحِرَت عيناي، ثم يقول: في الفضاء يحل الليل بصورة مفاجئة، وبسرعة تقطع الأنفاس، وتعمي العيون بلا تدرج كما هو الحال على الأرض، وليل الفضاء الخارجي من أشد الأشياء السوداء التي رأيتها في حياتي، يقول: ثم تظهر الشمس فجأة، وتلمع كأنها ضوء صاعقة مبدّدة خلال ثوانٍ في وسط الليل الحالك، فلا تدرج في الفضاء، بل ثوان وأنت في ليل مظلم في أَحْلَك الظلمات، وثوان أخرى وأنت في نهار ساطع النور وهاج يبدد الظلمات.

فيا لها من نعمة؛ نعمة الشروق والغروب، والليل والنهار، التي أقسم الله -عز وجل- بها في عدة آيات فقال: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَـٰرِقِ وَٱلْمَغَـٰرِبِ إِنَّا لَقَـٰدِرُونَ ۝ عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ۝ ﴾ [المعارج: ٤٠، ٤١]، وقال: ﴿ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝ ﴾ [الشمس: ٣، ٤].

ولك أن تتأمل أخرى، في قائل هذه الكلمات الشيوعي الملحد؛ فالبرَّغم من بديع ما رأى خلال دورانه حول الأرض؛ إلاّ أنه لم يَرِد على لسانه سوى الإعجاب بما صنعه الإنسان، والذُّهول أمام عظمة الكون، ثم السكوت المطلق عن خالق الكون ومبدعه،

واستحقاقه للعبادة وحده لا شريك له، فسبحان الله!

﴿ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ۚ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٦]، ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴾ [العاديات: ٦]، ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

تأمل كيف جعل الله الليل سكنًا ولباسًا، يغشى العالم فتسكن فيه الحركات، وتأوي إلى بيوتها الحيوانات، وإلى أوكارها الطير والحشرات، تستجمُّ فيه النفوس، ومن كَدِّ السعي والنَّصَب فيه تستريح، حتى إذا أخذت النفوس راحتها وَسُبَاتها وتطلَّعت إلى معاشها جاء فالق الإصباح -سبحانه- بالنهار يقدُمه بشير الصباح، فيهزم الظُّلْمَة ويمزِّقها كل مُمَزَّق، ويكشفها عن العالم فإذا هم مبصرون؛ فينتشر الحيوان، وتخرج الطير من أَوْكارِها لتطلب معاشها ومصالحها؛ فيا له من معادٍ ونشأة دالة على قدرة الله على المعاد الأكبر! ﴿ يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ ﴾ [الحاقة: ١٨].

ويا سبحان الله! كيف يُعْمِي عن هذه الآيات البينة من شاء من خلقه فلا يهتدي بها، ولا يبصرها؛ كمن هو واقف في الماء، إلى حَلْقِه وهو يستغيث من شدة العطش وينكر وجود الماء.

يهدي الله من يشاء، ويضل من يشاء، يحكم لا معقِّب لحكمه، لا إله إلا هو له الحكم وإليه ترجعون.

آية الخسف والزلزلة

تأمل في هذه الأرض: بينما هي هادئة ساكنة وادعة؛ مهاد وفراش، قرار وذلول، خاشعة، إذا بها تهتز، تتحرك، تثور، تتفجر، تدمّر، تبتلع، تتصدع، زلازل، خَسْف، براكين، تجدها آية من آيات الله، وكم لله من آية يخوف الله بها عباده لعلَّهم يرجعون! وهي مع ذلك جزاء لمن حقَّ عليه القول، وهي -أيضًا- تذكير بأهوال الفزع الأكبر، يوم يُبعثون ويُحشرون، وعندها لا ينفع مال ولا بنون.

يذكر صاحب: علوم الأرض القرآنية أنه قبل حوالي خمسة قرون ضرب زلزال شمال الصين عشر ثوان فقط، هلك بسببه أربعمائة ألف وثلاثون ألف شخص، وقبل ثلاثة قرون ضرب زلزال مدينة لشبونة في البرتغال لعدة ثوان، هلك فيه ستمائة ألف، وشعر الناس برعب وهَلَع وجزع إثر ارتجاج الأرض تحت أقدامهم على مساحة ملايين الأميال، فنعوذ بالله أن نُغْتَال من تحتنا.

وانفجرت جزيرة كاراكات في المحيط الهندي قبل قرن، فسُمِع الانفجار إلى مسافة خمسة آلاف كيلو متر، وسجلته آلات الرصد في العالم، وتحولت معه في ثوان جزيرة حجمها عشرون كيلو مترًا مربعًا إلى قطع نثرها الانفجار على مساحة مليون كيلو متر مربع، وارتفعت أعمدة الدخان والرَّماد إلى خمسة وثلاثين كيلو متر في الفضاء، وأظلمت السماء على مساحة مئات الكيلو مترات حاجبة نور الشمس لمدة سنتين، وارتفعت أمواج البحر إلى علوّ ثلاثين مترًا، فأغرقت ستة وثلاثين ألف نسمة من سكان جاوا وسمطرا ﴿ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ﴾ [المدثر: ٣١]، ﴿ قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ ﴾ [الأنعام: ٦٥].

قتل الإنسان ما أكفره!!

قال تعالى: ﴿ قُتِلَ ٱلْإِنسَٰنُ مَآ أَكْفَرَهُۥ ﴾ [عبس: ١٧] .

يسمع ويرى آيات الله من زلازل وبراكين وأعاصير وأوبئة تحصد الآلاف في ثوانٍ فلا يتأمل ولا يتدبر ولا يرعوي ولا يقدر الله حق قدره بل يعيد ذلك أحيانًا إلى الطبيعة في بلادة وبلاهة لا مثيل لها: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمر: ٦٧]، لا يملك المسلم إزاء هذه البلاهة والبلادة إلا أن يقول بقول الله: ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٩]، ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴾ [الأعراف: ٩٦]، ﴿ ۞ وَلَوْ رَحِمْنَٰهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِم مِّن ضُرٍّ لَّلَجُّوا۟ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ فَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ ﴾ [المؤمنون: ٧٥، ٧٦].

فإلى أولي الألباب: ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ ﴾ [الملك: ١٦، ١٧].

آية الهواء

تأمل الهواء تجده آية من آيات الله الباهرة، وقد حبسه الله بين السماء والأرض يدرك ولا يرى، جعله الله ملكًا للجميع ولو أمكن الإنسان التسلط عليه لباعه واشتراه وتقاتل مع غيره عليه كما فعل في أكثر الأشياء التي سخرها المولى له وجعلها أمانة بين يديه، والله بحكمته جعل الهواء يجري بين السماء والأرض، الطير فيه محلقة سابحة كما تسبح حيوانات البحر في مائه، ويضطرب عند هيجانه كما تضطرب أمواج البحر عند هيجانها،

يحركه الله بأمره فيجعله رياحًا رخاءً وبشرى بين يدي رحمته فبين مبشرات ولواقح، وذاريات، ومرسلات، ويحركه فيجعله عذابًا عاصفًا قاصفًا في البحر وعقيمًا صرصرًا في البر: ﴿ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ ءَايَٰتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ [الجاثية: ٥].

تتوزع على سطح الأرض تحت نظام محكم فتلقح الأزهار والسحاب؛ فتبارك من جعلها سائقة للسحاب تذروه إلى حيث شاء الله، فهل تأملت يومًا من الأيام سحابًا مظلمًا قد اجتمع في جوٍ صافٍ لا كدر فيه، وهو لينٌ رخو حامل للماء الثقيل بين السماء والأرض، حتى إذا أذن له خالقه أرسل الريح تلقحه وتسوقه فينزل قطرة قطرة، لا تختلط قطرة بأخرى، ولا تدرك قطرة صاحبتها فتمتزج بها، بل كل واحدة في طريق مرسوم لها حتى تصيب الأرض التي عينت لها لا تتعداها إلى غيرها، لا قطرة إلا وينزل نحوها ملك إلى الآكام والقيعان، هل تأملت ذلك؟ أحسب أنك تقول: نعم، ومعها: لا إله إلا الله!

﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [النمل: ٦٣].

آيات الله في البحر

تأمل معي البحر بأمواجه وأحيائه تجده آية من آيات الله، ومن عجائب مصنوعاته، وكم لله من آية، ثم أضف إلى علمك أن الماء في الأرض يملأ ثلاثة أرباع سطح الأرض، فما الأرض بجبالها، ومدنها، وسهولها، وأوديتها بالنسبة إلى الماء إلا كجزيرة صغيرة في بحر عظيم يعلوها الماء من كل جانب، وطبعه العلو، ولولا إمساك الرب -سبحانه وبحمده- له بقدرته ومشيئته؛ لطفح على الأرض فأغرقها ودمرها وجعل عاليها سافلها، فتبارك الله لا إله إلا هو رب العالمين.

ثم تأمل معي أخرى عجائب البحر وما فيه من الحيوانات على اختلاف أجناسها وأشكالها ومنافعها ومضارها وألوانها تجد عجبًا وقدرة قادر جل وعلا، في البحار حيوانات كالجبال لا يقوم لها شيء، وفيه من الحيوانات ما يرى من ظهورها فيظن من عظمها أنها جزيرة فينزل عليها الركاب ويشعلوا نارهم فتحس بالنار إذا أوقدت فتتحرك فَيُعْلَم أنه حيوان كما ذكر ابن القيم ذلك في مفتاح دار السعادة، قال ابن القيم: وما من صنف من أصناف حيوان البر إلا وفي البحر أمثاله، بل فيه أجناس لا يعهد لها نظير أصلًا، مع ما فيه أيضًا من اللآلئ والجواهر والمرجان، فسبحان الخالق الرحيم الرحمن!

ثم انظر إلى السفن وسيرها في البحر تشقه وتمخر عبابه، بلا قائد يقودها ولا سائق

يسوقها، وإنما قائدها وسائقها الريح الذي سخره الله لإجرائها، فإذا حبست عنها الريح ظلت راكدة على وجه الماء، فذاك قول الله: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ۝ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ [الشورى: ٣٢، ٣٣].

نعم. سخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره، لا بأمر غيره سبحانه وبحمده، سخرها بأمره تجري ليست وفق رغبات النفوس الأمارة بالسوء، ولا رغبات الجشعين من الأفراد والهيئات التي استعملت أساطيلها منذ أقدم العصور إلى يومك هذا لقهر الإنسان ونهب خيراته واحتقار آدميته، فلك الحمد ربنا، ولك الأمر من قبل ومن بعد، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي صنع الإنجليز باخرة عظيمة، كانت كما يقولون فخر صناعاتهم، ثم انطلقت في رحلة ترفيهية حاملة على متنها علية القوم ونخبة المجتمع كما يصفون أنفسهم، وقد بلغ الفخر والاعتزاز ببناة السفينة درجة كبيرة من الصلف والغرور فسموها: الباخرة التي لا تقهر، بل سمع أحد أفراد طاقمها يتشدق فخرًا أمام بعض كبار ركابها بما ترجمته: حتى الله نفسه لا يستطيع أن يغرق هذا المركب.

جل الله وتعالى وتقدس لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، يحيي ويميت: ﴿ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [آل عمران: ٤٧]، وفي اليوم الثالث من سيرها في المحيط الأطلسي وفي خضم كبرياء صنّاعها وركّابها تصطدم بجبل جليدي عائم؛ فيفتح فيها فجوة بطول تسعين مترًا- طعنت فانبجست- وبعد ساعتين وربع تستقر الباخرة التي لا تقهر -كما زعموا- في قعر المحيط ومعها ألف وخمسمائة وأربعة ركاب وحمولة بلغت ستة وأربعين ألف طن: ﴿ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

تأمل معي أخرى كيف مد الله البحار وخلطها، وجعل مع ذلك بينها حاجزًا ومكانًا محفوظًا، فلا تبغي محتويات بحرٍ على بحر، ولا خصائص بحرٍ على آخر عندما يلتقيان: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ ﴾ [طه: ٥٤]، في إيران أنهار عندما تلتقي بمياه البحر ترجع مياهها عائدة إلى مجاريها التي جاءت منها، ونهر الأمازون يجعل مياه المحيط الأطلسي عذبة لمئات الكيلو مترات من مصبه فيه فلا يختلط بمياه المحيط الأطلسي، وتلتقي مياه المحيط الأطلسي بمياه البحر الأبيض فتبقى مياه البحر الأبيض أسفل لثقلها ولكثرة

ملحها وتعلو مياه المحيط لخفتها.

وكذلك لا تختلط مياه البحر الأسود بمياه البحر الأبيض عندما تلتقي بل تشكل مجريين متلاصقين فوق بعضهما البعض، فمياه البحر الأسود تجري في الأعلى نحو مياه البحر الأبيض لأنها أخف، ومياه البحر الأبيض تجري في الأسفل لأنها أثقل فتجري نحو البحر الأسود، فتبارك الذي: ﴿ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَـٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَـٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا ﴾ [الفرقان: ٥٣]، ﴿ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣١]، عجائب البحر أعظم من أن يحصيها أحد إلا الله.

كشف علماء البحار من النصف الثاني من القرن العشرين أن في البحار أمواجًا عاتية دهماء مظلمة حالكة، إذا أخرج المرء يده لم يكد يراها، فعلى عمق ستين مترًا عن سطح البحر يصبح كل شيء مظلمًا في البحار، بمعنى أننا لا نستطيع رؤية الأشياء في أعماق تبعد ستين مترًا عن سطح البحر، ولذلك زود الله الأحياء البحرية التي تعيش في أعماق البحار اللجية بنور تولده لنفسها، ومن لم يجعل الله له نورًا في تلك الظلمات فما له من نور.

نسي هؤلاء المكتشفون أن الله ذكر تلك الظلمات في قوله قبل أن يخلقوا وآباؤهم وأجدادهم: ﴿ أَوْ كَظُلُمَـٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَـٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ [النور: ٤٠].

تُرْجِمَ معنى هذه الآية لعالم من علماء البحار أفنى عمره في ذلك وظن أنه على شيء وأنه اكتشف شيئًا وجاء بشيء فيه إبداع، فقال في دهشة بعد ترجمة الآية: إن هذا ليس من عند محمد الذي عاش حياته في الصحراء، ولم يعاين البحر ولجه وظلماته وأمواجه، إن هذا من عند عليم خبير، ثم شهد شهادة الحق ودخل في دين الله نعم.

لا يملك إلا ذلك.

من واصف الظلمات في قعر البحار	سوى الله العليم الباري
سبحانه ملكا على العرش استوى	وحوى جميع المُلْكِ والسلطان

لا إله إلا الله! كيف تعمى العيون وتعمى القلوب عن آيات الله: ﴿ أَءِلَـٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [النمل: ٦٣]، سأل رجل أحد السلف عن الله، فقال له: ألم تركب البحر؟ قال: بلى.

قال: فهل حدث لك مرة أن هاجت بكم الريح عاصفة؟ قال: نعم.

قال: وانقطع أملك من الملاحين ووسائل النجاة؟ قال: نعم.

قال: فهل خطر ببالك وانقدح في نفسك بأن هناك من يستطيع أن ينجيك إن شاء؟ قال: نعم.

قال: فذاك هو الله لا إله إلا هو وسع كل شيء علمًا: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [يونس: ٢٢، ٢٣].

ومن عجائب البحر التي تدل على إدراكه وعبوديته لله جل وعلا: أنه يعظم عليه أن يرى ابن آدم يعصي الله عز وجل مع حلم الله عليه، فيتألم البحر لذلك ويتمنى هلاك عصاة بني آدم، بل ويستأذن ربه في ذلك، جاء في مسند الإمام أحمد فيما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أن النبي ﷺ قال: **«ليس من ليلة إلا والبحر يشرق فيها ثلاث مرات يستأذن الله أن ينتضح عليهم -أي على العصاة- فيكفه الله بمنه وكرمه»** [1]، فلا إله إلا الله! البحر يتمعر، ويتمنى إغراق العصاة، ويستطيع لكنه مأمور، ومنا من لا تحرك فيه المعصية ساكنًا، تُنتَهَك حرمات الله، وتُتَجَاوز حدوده، وتُضَيَّع فرائضه، ويعادى أولياؤه، ثم لا تتمعر الوجوه، فأين الإيمان يا أهل الإيمان؟

إن في ذلك لآية وكم لله من آية، فتأملوا يا أولي الألباب!

آيات الله في النمل

تأمل تلك النملة الضعيفة، وما أعطيت من فطنة وحيلة في جمع القوت وادخاره، وحفظه ودفع الآفة عنه، ترى عبرًا وآيات باهرات تنطق بقدرة رب الأرض والسماوات وتقول: ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النمل: ٦٢].

انظر إليها تخرج من أسرابها طالبة أقواتها، فإذا ظفرت بها شرعت في نقلها على فرقتين اثنتين، فرقة تحملها إلى بيوتها ذاهبة، وأخرى خارجة من بيوتها إلى القوت، لا تخالط فرقة

---

(١) ضعيف: أخرجه أحمد (٣٠٣)، والألباني في «الضعيفة» (٤٣٩٢)، وفي «ضعيف الجامع» (٤٩٣٢).

أخرى كخيطين أو جماعتين من الناس، الذاهبون في طريق والراجعون في أخرى في تناسق عجيب.

ثم إذا ثقل عليها حمل شيء، استغاثت بأخواتها فتعاونت معها على حملها، ثم خلوا بينها وبينه، وبلا أجرة، تنقل الحب إلى مساكنها ثم تكسره اثنتين أو أربعة، لئلا ينبت إذا أصابه بلل، وإذا خافت عليه العفن، أخرجته إلى الشمس حتى يجف، ثم ترده إلى بيوتها، ولعلك قد مررت يومًا عليها وعلى أبواب مساكنها حب مكسر، ثم تعود عن قريب فلا ترى منه حبة واحدة.

والنمل مع ذلك يعتني بالزراعة وفلاحة الأرض، فقد شاهد أحد العلماء في إحدى الغابات قطعة من الأرض قد نما فيها أرز قصير من نوع بري مساحة القطعة خمسة أقدام في ثلاثة، ويترائى للناظر إلى هذه البقعة من الأرض أن أحدًا لا بد أن يعتني بها، الطينة مشققة، والأعشاب مستأصلة والغريب أنه ليس هناك مناطق أرز حول ذلك المكان.

ولاحظ ذلك العالم أن طوائف من النمل تأتي إلى هذه المزرعة الصغيرة وتذهب، فانبطح على الأرض ذات يوم ليراقب ماذا يصنع النمل، فإذا به يفاجأ أن النمل هو صاحب المزرعة، وإنه اتخذ الزراعة مهنة تشغل كل وقته، فبعضه يشق الأرض ويحرث، والبعض يزيل الأعشاب الضارة وينظف، وطال الأرز واستوى ونضج، وبدأ موسم الحصاد، وهذا لا زال بمناظيره يراقب، فيشاهد صفًا من النمل وهو في وقت الحصاد متسلقًا شجر الأرز، إلى أن يصل إلى الحبوب فتنزع كل نملة حبة من تلك الحبوب، ثم تهبط سريعًا إلى الأرض، ثم تذهب بها إلى مخازن تحت الأرض لتخزنها ثم تعودَ.

وطائفة أخرى أعجب من ذلك تتسلق مجموعةَ كبيرة منها أعواد الأرز، فتلقط الحب وتلقي به فبينما هي كذلك، إذ بمجموعة أخرى تحتها تتلقى هذا الحب وتذهب به إلى المخازن.

ويعيش النمل هناك عيشة مدنية في بيوت، بل في شقق وأدوار، أجزاء منها تحت الأرض، وأجزاء أخرى فوقها، له حراس وخدم وعبيد وهناك ممرضات تعنى بالمرضى ليلًا ونهارًا، وقسم آخر يرفع جثث الموتى ويشيعها ليدفنها، كل هذا يتم بغريزة أودعها الله في هذا القلب، فتبارك الله: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾ [الأنعام: ٣٨].

حكيمًا خبيرًا، بإفراد العبادة له جديرًا لا شريك له.

إنها تعرف ربها، وتعرف أنه فوق سماواته مستوٍ على عرشه، بيده كل شيء يوم ضل من ضل، روى الإمام أحمد في الزهد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه يرفعه قال: «**خرج نبي من الأنبياء بالناس يستسقون، فإذا هم بنملة مستلقية على ظهرها رافعة قوائمها إلى السماء تدعو ربها، فقال: ارجعوا فقد سقيتم بغيركم**»[(١)]

للنمل مدافن جماعية يدفن فيها موتاه كالإنسان، والنمل ذكي جد ذكي، ويصطاد بطريقة ذكية، يأتي إلى شجرة فينقسم إلى قسمين، قسم يرابط تحت الشجرة قرب جذعها، وآخر يتسلق جذعها لمهاجمة الحشرات التي تكون عليها، وبذلك يحكم الطوق على كل حشرة لا تطير، فتسقط التي تنجو من النمل المتسلق فتقع في شباك النمل المتربص بها عند قاعدتها، من هداها؟ من هيأ لها رزقها؟ إنه القائل: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [هود: ٦]، ألا له الخلق والأمر، لا إله إلا هو وحده لا شريك له.

آيات الله في الحيوانات

وقفة ولعلها استراحة مع عجائب الأحياء، يذكر صاحب من الثوابت العلمية في القرآن من بعض التصرفات الذكية الألمعية عند الحيوان، ما يلقي الضوء على معنى قول الله: ﴿ قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ [طه: ٥٠].

يذْكَرُ أن طبيبًا وجد في طريقه كلبًا كسرت إحدى قوائمه، فأخذه إلى عيادته واهتم بها وقومها وجبرها، واعتنى به حتى شفي تمامًا، ثم أطلق سراحه، وبعد ذلك بزمن سمع الطبيب قرعًا لطيفًا على باب عيادته فوجد الكلب نفسه مصطحبًا معه كلبًا آخر مكسور الرجل، جاء به إلى المعاينة والعلاج، فسبحان الله ولا إله إلا الله!

هـــذه عجائـــب طالمـــا أخـــذت بهـــا عيـــناك وانفـــتحت بهـــا أذنـــك

والأعجب من ذلك قصة هرٍ اعتاد أن يجد طعامه اليومي أمام بيت أحد المهتمين به فيأكله، وفي أحد الأيام لاحظ رب البيت أن الهر لم يعد يكتفي بالقليل مما كان يقدم له من

---

(١) ضعيف: أخرجه الدارقطني في «سننه» (٢/ ٦٦)، و «كنز العمال» (٢١٥٨٩)، والألباني في «الإرواء» (٦٧٠)، وفي «ضعيف الجامع» (٢٨٢٣).

قبل، بل أصبح يسرق غير ذلك، فقام رب البيت يرصده ويراقبه فوجده يذهب بالطعام إلى هرٍ أعمى فيضع الطعام أمامه، فتبارك الله: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ﴾ [هود: ٦]، و﴿ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [هود: ٥٦].

من آيات الله في الخيل

ويذكر أيضًا صاحب عجائب الأحياء: أن فرسًا صغيرًا ماتت أمه عنه، فقام صاحبها الأعرابي واسمه الزعتري الذي يسكن مصر برعاية الفرس اليتيم رعاية بلغت حد التدليل، فكان يقدم له الشعير مخلوطًا بالسكر، وإذا مرض استدعى له الطبيب البيطري لفحصه إذا أصابه ما أصابه، ولا غرابة في ذلك الاهتمام أيها الأحبة، إذا علمتم ما ثبت في صحيح الجامع عن أبي ذر رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ: «**إنه ليس من فرس عربي إلا وُيؤَذَنُ له مع كل فجر فيدعو بدعوة فيقول: اللهم إنك خولتني من خولتني من بني آدم فاجعلني من أحب أهله وماله إليه**»[(١)]، فالفرس العربي يتجه بالدعاء إلى من يستحق الدعاء، والله عز وجل يجيبه فيجعله من أحب أهل ومال الإنسان إليه والواقع يشهد بذلك، ولا عجب فإن جذع النخلة وهو جماد بكى وأنَّ وتألم وحزن وخار وتصدع لفراق الذكر حتى مسحه ﷺ، فسكن أحسن ما يكون السكون[(٢)]

حــن جــذع إلــيه وهــو جمــاد فعجــيب أن تجمــد الأحــياء

ويمرض الأعرابي الزعتري فيفقد الفرس شهيته ويترك حظيرته ليرابط أمام خيمة صاحبه، وظل كذلك أيامًا، ثم مات الزعتري وحمل المشيعون جنازته، فسار الفرس خلفهم حزينًا منكس الرأس حتى دُفِنَ صاحبه العزيز عليه في التراب، ولما هم المشيعون بالرجوع انطلق الفرس المفجوع كالبرق وظل منطلقًا حتى وصل إلى تلٍ عالٍ فصعده ثم ألقى بنفسه من قمته ليلقى حتفه وسط دهشة الجميع، فسبحان من رزقه تلك الأحاسيس والمشاعر ومن سلبها كثيرًا ممن كرمه الله من بني آدم.

---

(١) صحيح: أخرجه النسائي (٣٥٧٩)، وأحمد (٢١٥٣٥)، والألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٢٥١)، وفي «صحيح الجامع» (٢٤١٤).

(٢) صحيح: البخاري (٨٧٦) (٣٣٩٠) (٣٣٩٢).

ومن عجيب أمر القردة ما ذكره البخاري في صحيحه عن عمرو بن ميمون، قال: «رأيت في الجاهلية قردًا وقردةً زنيا فاجتمع عليهم القرود فرجموهما حتى ماتا» عجبًا لها من قرود، تقيم الحدود حين عطلها بعض بني آدم، إن هدايتها فوق هداية أكثر الناس: ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٤٤].

ومن عجيب أمر الفأر ما ذكره صاحب العقيدة في الله: أنها إذا شربت من الزيت الذي في أعلى الجرة ينقص ويعز عليها الوصول إليه في أسفل الجرة فتذهب وتحمل في أفواهها الماء ثم تصبه في الجرة، حتى يرتفع الزيت ويقترب منها ثم تشربه: من علمها ذلك؟ إنه الله أحق مَن عُبِدَ وصُلِّيَ لَهُ وسُجِد.

سبحان من يجري الأمور بحكمة ... في الخلق بالأرزاق والحرمان

من علم الذئب إذا نام أن يناوب بين عينيه، فينام بإحداهما حتى إذا نعست الأخرى نام وفتح بها الثانية:

ينام بإحدى مقلتيه ويتقي ... بأخرى المنايا فهو يقظان نائم

من علم الطاووس أن يلقي ريشه في الخريف إذا ألقى الشجر ورقه، فإذا اكتسى الشجر اكتسى أيضًا؟ وبإذن من؟!

من علم العصفورة إذا سقط فرخها أن تستغيث؟ فلا يسمعها عصفور حولها حتى يجيء فيطير الجميع حول الفرخ ويحركونه ويحدثون له همة وقوة وحركة حتى يطير معهم، ذاكم هو الله القائل: ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾ [الأنعام: ٣٨].

واستطرادًا فما أجمل قول سفيان بن عيينة رحمه الله حول قول الله: ﴿ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم ﴾ [الأنعام: ٣٨]

يوم قال: «فما في الأرض من آدمي إلا وفيه شبه من البهائم، فمنهم من يهتصر اهتصار الأسد، ومنهم من يعدو عدو الذئب، ومنهم من ينبح نباح الكلب، ومنهم من يختال كالطاوس، ومنهم من يشبه الخنازير التي إذا ألقي إليها أطيب الطعام عافته، فإذا قام الرجل عن غائطه ولغت فيه، فلذلك تجد من الآدميين من لو سمع خمسين حكمة لم يحفظ واحدة منها» رحم الله سفيان.

نعم. وإن أخطأ أخوه حفظ ذلك الخطأ وشنع عليه بلا هدى تحت طيش الهوى وحب الغلبة ورغبة الاستعلاء، وإرادة خفض الغير، تحريش غامض وتصنيف ساقط بلا برهان ولا بينة كفى أخي ثم كفى.

إذا لم تجد قولاً سديدًا تقوله ... فصمتك عن غير السداد سداد

أحبتي في الله...

إن فيما أودع الله في مخلوقاته ما يستنطق الأفواه بالتسبيح، ويملأ القلوب إجلالًا من معرفة حكمته وقدرته، وما به يعلم العاقل أنه لم يخلق عبثًا ولم يترك سُدى، فلله في كل مخلوق حكمة باهرة، وآية ظاهرة وبرهان قاطع يدل على أنه المنفرد بكل كمال، وأنه على كل شيء قدير وبكل شيء عليم، قد خلق الخلق ليعبدوه.

آيات الله في النحل

هل تأملت النحل وأحواله وأعماله وما فيها من العبر والآيات الباهرات، ألم ترى أقراص شمعها السداسية في دقتها الحسابية وإتقان بنائها وإحكام صنعها، الذي أدهش وما زال يدهش علماء النحل والحساب؟

ما هي آلات الحساب والمقاييس التي سمحت لهذا المخلوق بالوصول إلى هذا العمل الهندسي الدقيق؟ هل هذا بواسطة قرنين استشعار والفكين الذين يدعي علماء الأحياء أن الطبيعة زودتها بهما؟ سبحان الله! وتبارك الله! عجيب وغريب منطق هؤلاء، يتسترون وراء كلمات جوفاء كالطبيعة والتطور والصدفة، كلما وقفوا أمام بديع صنع الله وإعجازه في الخلق فأنى يؤفكون! ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل: ١٤].

أفتستر الشمس المضيئة بالسها ... أم هل يقاس البحر بالخلجان

سبحان الله! لله في كل شيءٍ آية، وتعمى عنها عيون أو تتعامى.

فقل للعيون الرُّمد إياكِ أن تري ... سنا الشمس واستغشي ظلام اللياليا

خفافيش أعشاها النهار بضوئه ... ولاءمها قِطْعٌ من الليل باديا

فجالت وصالت فيه حتى إذا النهار ... بدا استخفت وأعطت تواريا

فيا محنة الحسناء تُهْدى إلى امرئ ... ضرير وعِنِّين من الوجد خاليا

النحل مأمور بالأكل من كل الثمرات خلافًا لكثير من الحشرات التي تعيش على نوع معين من الغذاء، وتعجب أنها لا تأكل من التبغ فلا تأكل إلا الطيبات.

فهل يعتبر بذلك أهل الغفلات؟

زودها الله بقرنين استشعار، وجعل فيهما شعيرات عصبية دقيقة يصل عددها إلى ثلاثين ألفًا تشكل حاسة الشم والسمع واللمس، وتعمل كالكشاف في ظلام الخلية، فسبحان من وهبها ذاك وبه زودها!

للنحلة عيون كثيرة، في حافتي الرأس عينان، وعينان أخريان في أعلى الرأس وتحتهما عين ثالثة، مما جعل لها سعة أفق في النظر، فالنحلة ترى أقصى اليمين وأقصى الشمال والبعيد والقريب في وقت واحد، علمًا بأن عيونها لا تتحرك.

ولذا فالنحل يعيش في أماكن يعيش فيها السحاب معظم شهور السنة، مع أن رؤية الشمس كما هو معلوم ضرورية لمعرفة مكان الحقول التي فيها غذاء النحل، وهنا تكمن الحكمة في قوة رؤية النحل، فبإمكانها رؤية الشمس من خلال السحب، كل ذلك لئلا يموت جوعًا في حالة اختفاء الشمس خلف الغمام، كما هو في بعض البلدان.

إنها لحقيقة مذهلة، تدل على حكمة الله، وقدرة الله، ووحدانية الله، وكمال تدبيره فتبارك الله أحسن الخالقين!

أما فم النحلة فمن أعاجيب خلق الله في خلقه، إذ هو مزود بما يمكنه من أداء جميع الوظائف الحيوية، فهو يقضم ويلحس ويمضغ ويمتص، وهو مع هذا شديد الحساسية لما هو حلو الطعم طبيعيا، ولا يتحرج من المواد المرة، إذ يحولها إلى حلوة بإذن ربه الذي ألهمه فسبحانه وبحمده لا شريك له!

أما سمع النحل فدقيق جدًا، يتأثر بأصوات وذبذبات لا تستطيع أن تنقلها أذن الإنسان، فسبحان من زودها به! وتحمل مع ذلك النحلة ضعفي وزنها، وبسرعة أربعمائة خفقة جناح في الثانية الواحدة، فسبحان الله، سبحان من خلق فسوى وقدر فهدى، عُبِدَ وَوُحِّدَ، وصُلِّيَ له وسُجِدَ له.

هناك من النحل مرشدات، عندما تجد مصدرًا للغذاء تفرز عليه مادة ترشد إليه بقية الجانيات للرحيق، وعندما ينضب وينتهي الرحيق تفرز عليه المرشدات مواد منفرة منه، حتى لا يضيع الوقت في البحث فيه، ثم تنتقل إلى مصدر آخر، من علمها وأرشدها؟

إنه الله، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها فلا إله إلا هو.

تستطيع العاملة خارج الخلية الرجوع إلى خليتها والتعرف عليها من بين عشرات الخلايا، بلا عناء ولا تعب، ولو ابتعدت عنها آلاف الأميال، ولذا يقول أحد علماء الأحياء الكفار، وقد رصد النحل بمناظيره فترة طويلة، يقول: يا عجبًا لها! تنطلق آلاف الأميال من شجرة إلى ثمرة إلى زهرة، ثم تعود ولا تخطئ طريقها، ربما أن لها ذبذبات مع الخلية، أو أنها تحمل لاسلكيًا يربطها بالخلية، ربما ربما.

ثم يقف حائرًا بليدًا تائهًا، أما نحن فلا، إنا نوقن أن الله ألهمها ذلك، وأوحى إليها، وعندنا سورة في كتاب الله تسمى سورة النحل: ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۝٦٨ ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [النحل: ٦٨، ٦٩].

تأمل قدرة الله بخلقه يوم جعل من النحل حراسًا للخلية يستطيعون أن يميزوا كل غريب ودخيل عليهم من النحل، فيطرحوه خارجًا أو يقتلوه، علمًا أن تعداد الخلية يصل إلى ثمانين ألف نحلة أو أكثر فسبحان من ألهمه! سبحان من ألهمه معرفة صاحبه من غيره!

سبحان ربك رب العِزِّ مِنْ مَلِكٍ ... من اهتدى بهدى رب العباد هُدِي

الكل في النحل يعمل في الخلية لأجل الكل، لا حياة لفرد عند النحل بدون جماعة، ولذلك أذهل ذلك علماء النحل: ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴾ [النمل: ٨٨].

والنحل من ألطف الحيوان وأنقاه وأنظفه، ولذلك لا تلقي مخلفاتها في خليتها، بل تطير ثم تلقيها بعيدًا عنها، وتأبى النتن والروائح الكريهة، تأبى القذارة، ولذلك إذا رجعت إلى الخلية بالعشية، وقف على باب الخلية بواب منها، ومعه أعوان كثر، وكل نحلة تريد الدخول يشمها البواب ويتفقدها فإن وجد فيها رائحة منكرة، أو رأى بها قَذَرًا منعها من الدخول وعزلها إلى أن يدخل النحل كله، ثم يرجع إلى الممنوعات المعزولات فيتبين ويتثبت، ويتفقدها مرة أخرى، فمن وجدها وقعت على شيء نجس أو منتن، قدها وقطعها نصفين، ومن كانت جنايتها خفيفة، بها رائحة وليس عليها قَذَر، تركها خارج الخلية حتى يزول ما بها ثم يسمح لها بالدخول، وهذا دأب وطريقة البواب كل يوم في كل عشية.

فتبارك الذي هداها أن تسلك سبل مراعيها، لا تضل عنها تسيح سهلًا وجبلًا خماصًا، فتأكل من على رءوس الأشجار والأزهار، فتجني أطيب ما فيها ثم تعود إلى بيوتها بطانًا، فتصب فيها شرابًا مختلفًا ألوانه فيه شفاء للناس إن في ذلك لآية.

أما ملكتها أو ملكها فلا يكثر الخروج، بل لا يخرج إلا نادرًا، إذا اشتهى التنزه خرج بحاشيته وخدمه فيطوف المروج والبساتين والرياض ساعة من نهار ثم يعود إلى خليته، ومن عجيب أمره أنه إذا لحقه أذى من صاحب الخلية غضب، وغضبه يعرفه أصحاب النحل، ثم يخرج من الخلية، فيتبعه جميع النحل حتى تبقى الخلية خالية.

يذهب حتى يحط رحاله على رءوس الشجر المرتفع، ويجتمع عليه النحل كله حتى يصير كالعنقود، عندها يضطر صاحب الخلية إلى الاحتيال عليه لاسترجاعه وطلب مرضاته، فيأخذ عصًا طويلة ويضع على رأسها حزمة من نبات طيب الرائحة، ويدنيه من هذا الكبير لها، من ملكها على الشجرة فلا يزال يحركه ويستجديه ويستعطفه إلى أن يرضى، فينزل على حزمة النبات الطيب الرائحة، فيحمله صاحب الخلية إلى الخلية، فينزل ويدخلها مع جنوده، ثم يتبعه جميع النحل عائدًا إلى الخلية.

تأمل نتاجها تجد عجبا، تنطلق إلى البساتين، فتأخذ تلك الأجزاء الصافية من على ورق الزهر والورد، فتمصه لتكون مادة العسل، ثم تكبس الأجزاء المنعقدة على وجه الورقة وتعقدها على رجلها ثم تذهب لتملأ بها المسدسات الفارغة، ثم يقوم يعسوبها على بيته فينفخ فيه، ثم يطوف على تلك البيوت بيتًا بيتًا وينفخ فيها كلها فتدب فيها الحياة بأمر الله بعد حين، فتخرج نحلًا صغارًا بإذن الله، وتلك آية قلما يتفطن الخلق لها كما قال ابن القيم رحمه الله: كل هذا من ثمرة الوحي الإلهي

تبارك الله وجل الله	أعظم ما فاهت به الأفواه
سبحان من ذلت له الأشراف	أَكْرَمُ مَنْ يُرْجَى ومن يُخَاف

جعل الله لكل مخلوق قوة وقدرة يدافع بها عن نفسه، ومن تلك المخلوقات النحل، كيف يدافع عن نفسه وعن نتاجه، يذكر أن ألد أعداء النحل هو الفأر، يهاجم الخلية فيأكل العسل ويلوث أجواء الخلية، فماذا تفعل تلك النحلة الصغيرة أمام هذا الفأر الذي هو لها كجبل عظيم، إنها تطلق عليه مجموعة من العاملات فتلدغه حتى يموت، كيف تخرجه؟ إن بقي أفسد العسل، ولوث أجواء الخلية، ولو اجتمع نحل الدنيا كله لإخراجه ما

استطاع، فماذا يفعل، جعل الله عز وجل له مادة شمعية يفرزها ويغلف بها ذلك الفأر فلا ينتن ولا يتغير ولو بقي ألف عام، حتى يأتي صاحب الخلية فيخرجه، فسبحان من قدر فهدى وخلق فسوى.

إن في ذلك لآية، وكم لله من آية مما يبصره العباد وما لا يبصرونه، وتفنى الأعمار دون الإحاطة بجميع تفاصيلها، ولكن أكثر الناس لا يفقهون: ﴿ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النمل: ٦٢].

آيات الله في النبات

ومن عجائب النبات، ما ذكره صاحب كتاب نوادر الكتب: من أن شجرة غريبة في جنوب الصين، تكون أوراقها في الأحوال الجوية العادية خضراء كأوراق الأشجار، وقبل حدوث الفيضانات أو هطول الأمطار تتغير فتصبح حمراء، فأصبحت عند سكان تلك المنطقة كمراقبة للأحوال الجوية، وبلا تعليق إنها بلسان حالها تقول: ﴿ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴾ [الأنعام: ١٠٢].

عجبًا ثم عجبًا ثم عجبًا، لا ينقضي العجب ولو كنا في شهر رجب، كل الكون بكائناته يوحد ويسلم ويستسلم وينقاد لله رب العالمين ثم يبقى هذا الإنسان في هذا الكون، إنه لظلوم مبين: ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [آل عمران: ٨٣].

الكون كله بكائناته يؤمن بنبوة محمد ﷺ، وتدهش وتعجب لكثير من الإنس والجن يوم تعمى أبصارهم عن الحق فيكذبون بالرسالة ويكذبون الرسول صلوات الله وسلامه عليه، في قمة بلاهة وبلادة، فهم نشاز في هذا الكون، ثبت في الصحيح عن جابر رضي الله عنه قال: أقبلنا مع رسول الله ﷺ حتى دفعنا إلى حائط في بني النجار، فإذا فيه جَمَل لا يدخل الحائط أحد إلا شد عليه، فذكروا ذلك للنبي ﷺ؛ فأتاه النبي ﷺ، فدعاه فجاء واضعًا مشفره على الأرض حتى برك بين يدي النبي ﷺ، فقال: «**هاتوا خطامًا**» فخطمه ودفعه إلى صاحبه، ثم التفت فقال -واسمعوا إلى ما قال صلوات الله وسلامه عليه-: «**إنه ليس شيء بين السماء والأرض إلا ويعلم أني رسول الله، إلا عاصي الجن والإنس**»[1]،

---

(١) حسن: أخرجه أحمد (١٤٣٧٢)، و الألباني في «الصحيحة» (١٧١٨)، وفي «صحيح الجامع» (٢٤٠٩).

فسبحان من هدى هذه الكائنات للإيمان يوم ضل بعض بني الإنسان والجان! لا إله إلا الله، كم من مركوب هو خير من راكبه!

يـا قـوم هـذا صـراط الله فاتـبعوا لا تـسلكوا سـبلاً تفـضي إلى الـنار

وإن من شيء إلا يسبح بحمده

إن الكون بكائناته جميعًا يسبح الله، ويثني على الله، ويمجد الله تسبيحًا وثناءً لا نفهمه، الله سبحانه وتعالى يعلمه: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَـٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء: ٤٤]، سبحت الكائنات بحمده فملأ الكون تسبيحها، سبحه النبات جمعه وفريده، والشجر عتيقه وجديده، أولم يروا كيف يبدئ الله الخلق ثم يعيده، سبحته الحيتان في البحار الزاخرات، سبحته الوحوش في الفلوات، تسبحه نغمات الطيور، يسبحه الظل تحت الشجر، يسبحه النبع بين المروج، يسبحه النَور بين الغصون، وسحر المساء وضوء القمر، فسبحان الله وبحمده عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته.

في الصحيحة أنه ﷺ قال: **«ما تستقل الشمس، فيبقى شيء من خلق الله إلا سبح الله بحمده، إلا ما كان من الشياطين وأغبياء بني آدم»** (١)، وصدق رسول الله ﷺ، غباء وأي غباء أن يسخر الله لك كل ما حولك بمنهَ وكرمه، ثم يسبحه كل مسخر لك وأنت غافل غبي أخرس أحمق.

سـل الـواحة الخـضراء والمـاء جاريـا وهــذه الـصحاري والجـبال الرواسـيا

سـل الـروض مـزدانًا سـل الزهر والندى ســل اللـيل والإصـباح والطـير شـاديا

وســل هــذه الأنــسام والأرض والـسما وسـل كـل شـيءٍ تـسمع الحمـد سـاريا

فلــو جــن هــذا اللـيل وامــتد سـرمدًا فمــن غـير ربـي يـرجع الـصبح ثانـيا

سبحان الله وبحمده، وسبحان الله العظيم، ليس شيءٍ إلا وهو أضرع لله من بني آدم، الكون كله بكائناته يسجد لله ويخضع ويذل وتبقى فئة من الناس صادةٌ نادةٌ نشازٌ في هذا

---

(١) حسن: «كنز العمال» (١٩٣٦٤)، و الألباني في «الصحيحة» (٢٢٢٤)، وفي «صحيح الجامع» (٥٠٩٩).

الكون لا تستحق الحياة، فانظر إلى تلك الحشود -كما يقول سيد قطب رحمه الله- حشد من الخلائق مما يدرك الإنسان ومما لا يدرك، وحشد من الأفلاك مما يعلم الإنسان ومما لا يعلم، حشد من الملائكة، حشد من الجبال والشجر والدواب، حشد من خلق الله كلها في موكب خاشع ذليل تسجد لله وتتجه إليه لا إلى سواه في تناسق ونظام عجيب؛ إلا هذا الإنسان يتفرق فجزء منه يتنكب الموكب نشاز لا يستحق الحياة ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴾ [الحج: ١٨].

فانظر إلى قهره، وانظر إلى ذل خلقه، كل ما في الكون يأتي خاضعًا ذليلًا ساجدًا لله.

يــــدين لـــــه الـــنجم في أفقــــه — يــــدين لــــه الفلـــك الدائــــر

يــــدين لـــــه الفـــرخ في عـــشه — ونـــسر الــسما الجــارح الكاســـر

تـــدين الـــبحار وحيـــتانها — ومــــاء ســــحاباتها القاطــــر

تـــدين لـــــه الأُسْــدُ في غابهـــا — وظـــبي الفــلا الـــشارد النافـــر

يــــدين لـــــه الـــذر في ســـعيه — يــــدين لـــــه الـــزاحف والناشـــر

تـــدين الـــنجاد تـــدين الـــوهاد — يــــدين لـــــه البَـــرُّ والفاجــــر

يــــدين الجلـــي يــــدين الخفــــي — يــــدين لـــــه الجهـــر والخاطـــر

تـــدين الحـــياة يــــدين الوجـــود — يــــدين المقــــدر والحاضــــر

وكـــل العـــباد إلـــيه رجـــوع — وفـــوق العـــباد هـــو القاهـــر

الشجر والحجر والمدر يلبي ويوحد الله مع الحاج الملبي، ثبت في الصحيحة أنه ﷺ قال: «**ما من ملبٍ يلبي إلا لبى ما عن يمينه وشماله من حجر أو شجر أو مدر**[1]، **حتى تنقطع الأرض من هاهنا ومن هاهنا**»[2].

تفاعل الكون كله مع توحيد الله عز وجل.

---

(١) مدر: جمع مدرة، مثل قصب وقصبة، وهو التراب المتلبد، وقال الأزهري: المدر قطع الطين.

(٢) صحيح: أخرجه ابن ماجه (٢٩٢١)، والترمذي (٨٢٨)، والألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١١٣٤)، وفي «صحيح الجامع» (١٠٧٠٩).

كــــل كنـــــي عـــــن شـــوقه بلغاتـــــه ولـــــربما أبكـــــى الفـــــصيح الأعجـــــم

بل إن الشجر ليشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله ﷺ، روى الدارمي بإسنادٍ صحيح كما قال صاحب المشكاة، عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «كنا مع النبي ﷺ في سفرٍ فأقبل أعرابيٌّ فلما دنا قال له رسول الله ﷺ: «**أتشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله**»، قال: ومن يشهد على ما تقول؟ قال: «**هذه السلمة**» -حجرة السلمة- فدعاها رسول الله ﷺ وهي في شاطئ الوادي فأقبلت تهز الأرض حتى قامت بين يديه، فاستشهدها ﷺ فشهدت ثلاثًا أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله، ثم رجعت إلى منبتها»[1]. إن في ذلك لآية.

وروى الترمذي أيضًا كما في الصحيحة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «جاء أعرابي إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد! بم أعرف أنك نبي؟ قال ﷺ: «**إن دعوت هذا العذق تشهد أني رسول الله**»، فدعاه رسول الله ﷺ فجعل ينزل العذق من النخلة حتى سقط إلى النبي ﷺ، ثم شهد، ثم قال ﷺ له: «**ارجع**»، فرجع إلى مكانه، فقال الأعرابي: وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، ودخل في دين الله»[2]

ألم يمر بذهنك وأنت تعلم عبودية الشجر لله ما روى البخاري عن سهل بن سعد، أن رسول الله ﷺ قال: «**إن في الجنة لشجرة يسير الراكب الجواد[3] المضمر[4] السريع في ظلها مائة عام لا يقطعها**»[5]، فاشتاقت نفسك لظل هذه الشجرة فأحسنت التعامل مع الله لتكون من أهلها بإذن الله.

الجبال والحجارة تخشى الله

وأرجو الله أن نكون جميعًا من أهلها، الجبال والحجارة تخشى الله، فأين الخشية والخوف من الله: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٤]، ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ

(١) **صحيح**: أخرجه الدارمي (١٦)، و أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٢/ ٤٣١)، والألباني في «المشكاة» (٥٩٢٥).

(٢) **صحيح**: أخرجه الترمذي (٣٦٢٨)، والألباني في «المشكاة» (٥٩٢٦).

(٣) **الجواد**: الفرس البيِّن الجودة.

(٤) **المضمر**: المعد للسباق بالعلف والتمرين.

(٥) **متفق عليه**: البخاري (٦١٨٦)، ومسلم (٧٣١٧).

عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ [الحشر: ٢١]، يا عجبًا! من مضغة لحم أقسى من هذه الجبال، تسمع آيات الله تتلى فلا تلين ولا تخشع، من حكمة الله أن جعل لها نارًا إذا لم تلن بذكره ومواعظه فبها تلين، فمن لم يلن قلبه في هذه الدار ولم يتب إلى الله ويخشه فليتمتع قليلًا فإن المرد إلى عالم الغيب والشهادة.

فنشكو إلى الله القلوب التي قست	وران عليها كسب تلك المآثمِ
من خشية المولى هوى الجبل الذي	في الطور لانت قسوة الأحجار
أو لم يئن وقت الخشوع فلا	تغرن الحياة سوى مغرار

أهمية الصلاة في الحياة

الطير تصلي صلاةً لا ركوع فيهلا ولا سجود، الله يعلمها ونحن لا نعلمها.

﴿ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ [النور: ٤١].

ما ميزان الصلاة عند الإنسان؟ إنها وصية رسول الله ﷺ التي ختم بها حياته، ومع ذلك فرط فيها من فرط، وضاع فيها من ضاع، وذل بتركها من ذل بعد العز، فاسمع إلى ما يقول صاحب وحي الواقع، بعد مجزرة الأقصى في رمضان المشهود التي راح ضحيتها المئات من القتلى والجرحى، تقابل مسلم ويهودي، فقال المسلم: مهما طال بكم الزمن يا أحفاد القردة والخنازير لنخرجنكم منها أذلة وأنتم صاغرون، وسيكون معنا الشجر والحجر في حربكم، قال اليهودي: نعم.

وهذا صحيح، نقرأه في كتبنا ويعلمه عالمنا وجاهلنا، ولكن لستم أنتم، قال المسلم: فمن هم؟ قال: هم الذين يكون عدد مصليهم في صلاة الفجر بقدر عدد المصلين في صلاة الظهر.

وصدق فإنه لا حظ في الإسلام لمن ترك الصلاة وضيعها، إن الصلاة لتدعو الله لحافظها: حفظك الله كما حفظتني، وعلى مضيعها: ضيعك الله كما ضيعتني، فلا إله إلا الله كم من ضائع ساقط لا قيمة له بتضييع الصلاة ودعائها عليه!

إن الديك ليوقظ للصلاة ويدعو لها ويؤذن، بل أمرنا إذا سمعنا صوته أن نسأل الله من فضله لأنه رأى ملكًا، فلا إله إلا الله، كم من ديك هو خير من إنسان عند الله، وهو يأكله، فكم من مأكول هو خير من آكله! وأنت تعلم هذا، أقبل ببصيرتك لقول

المصطفى ﷺ كما ثبت في صحيح الجامع يوم قال: «**إن الله أذن لي أن أحدث عن ديك قد مرقت رجلاه الأرض وعنقه مثنية تحت العرش وهو يقول: سبحانك ما أعظمك، سبحانك ما أعظمك**» (١)

فهلا عظمَّت الله وقدَّرته حق قدره فانقدت واستسلمت وأخلصت وأنبت وانسجمت مع هذا الكون صغيره وكبيره فكان حالك ومقالك: سبحانك ما أعظمك!

سبحان من لو سجدنا بالعيون له على شبا الشوك والمحمى من الإبر
لم نبلغ العشر من معشار نعمته ولا العشير ولا عشرًا من العشر

أحبتي في الله...

الأدلة على وحدانية الله، وأنه المستحق للعبادة لا شريك له كثيرة لا تعد ولا تحصى ولعل فيما تقدم ما يكفي لأولي الأحلام والنهى.

الحجب المانعة من معرفة الله

وبعد هذا كله أخي لعلك تقول: فما الذي يحول بين الناس وبين العلم بالله وأن يوحدوه، ويقدروه حق قدره لا إله إلا هو، فيعظموا حرماته ويحفظوا فرائضه، ويقفوا عند حدوده ويعظموا شعائره؟

والجواب: أن هناك حجبًا كثيفة، تحول بين البعض وبين العلم بالله، والإيمان به وتعظيمه وهي مما كسبت أيدي الناس ولا ريب.

حجاب الغفلة عن الله

وأول هذه الحجب هي: الغفلة عن الله التي تصيب العقل بالشلل عن المعرفة، والقلب بالعطل عن الإدراك.

فهمُّ أهل الغفلة ملء بطونهم وإشباع شهواتهم، والتمتع بما تتمتع به الأنعام: ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

---

(١) صحيح: أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٣٧٢٤)، و «كنز العمال» (٤٦٣٥٨)، والألباني في «صحيح الجامع» (١٧١٤)، وفي «الصحيحة» (١٥٠).

حجاب التقليد

وثاني هذه الحجب: التقليد. والتقليد شر مستطيل يفقد الإنسان شخصيته، فتجد صاحبه يفكر بعقل غيره، ويسمع بأذن غيره، وينطق من فيِّ غيره، ذيل إمعة: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٠]، فما العاقبة؟

﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ۝ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ۝ ﴾ [البقرة: ١٦٦، ١٦٧].

حجاب المكابرة والعناد

وحجاب ثالث: أكثف وأغلظ ألا هو المكابرة والعناد، والعزة بالإثم: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ﴾ [البقرة: ٢٠٦].

هناك نوعية من الناس رخيصة يجادلون ليشوشوا لا ليفهموا، يلاججون ليغلبوا لا ليستمعوا: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ أَنَّىٰ يُصْرَفُونَ ﴾ [غافر: ٦٩]، المكابر والمعاند لا يقنعه دليل: ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الأنعام: ٧]، ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ۝ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ [الحجر: ١٤، ١٥]، ﴿ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا ﴾ [الأنعام: ٢٥]، ﴿ مَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُۥ ﴾ [الأعراف: ١٨٦]، ﴿ وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴾ [يونس: ١٠١].

حجاب الشهوات والشبهات

ومن الحجب: الشهوات والشبهات والهوى والوساوس والخطرات وغيرها كثير وكثير عافنا الله وإياكم أيها المسلمون.

أحبتي في الله...

الوحي المعصوم، وصفحات الكون المنظوم، مقنعة لمن يريد أن يقتنع، هادية لمن يريد أن يهتدي، مذكية لمن يريد أن يرتقي، إنهما كتاب ميسور، وآخر منظور، من تدبرهما وجد فيهما إجابات جليلة، ترفع يقينه، وتشفي عليله، وتحيي فؤاده، وتروي غليله، وتجرد توحيده،

وتوقظ ضميره، وتدحض شبهته، وتطفئ شهوته، وترد الشيطان إلى كيد الوسوسة.

تأمل خطوب الكائنات فإنها ... من الملك الأعلى إليك رسائل

وقد خط فيها لو تأملت خطها ... ألا كل شيء ما خلا الله باطل

تشير بإثبات الصفات لربها ... فصامتها يهدي ومن هو قائل

ختامًا: فإنه لا يوصف بالعلم حقًّا إلا من كان عالمًا بالله، متلبسًا بخشية الله، وعالمًا بالطريق الموصل إلى الله، متعبدًا إلى الله بمقتضى ذلك العلم، متعرفًا على ما يحب الله فيلزمه وعلى ما يبغض الله فيجتنبه، وحاله: ربنا أنت أحق من عبد، وأحق من ذكر، وأحق من حمد، وأولى من شكر، وأرأف من ملك، وأجود من سئل، كل شيء دال عليك، ومرشد إليك، لا إله إلا أنت نستغفرك ونتوب إليك، نسألك بكل اسم هو لك، أن تلزمنا عتبة العبودية، وترزقنا السعادة الأبدية، وأن تكشف عنا وعن إخواننا كل كرب وبلية، اللهم يا من ذلت له جميع الرقاب، وجرى بأمره السحاب، كن لنا وامكر لنا، وانصرنا وثبتنا وإخواننا بالحال والمآل، وألهمنا التزود بالتقوى قبل حلول التراب، وأرشدنا عن السؤال إلى صحيح الجواب.

وهب لشيبنا قوى الشباب، وارزقنا عمارة القلوب الخراب يا كريم يا وهاب.

يا حي يا قيوم! يا ذا الجلال والإكرام! نسألك قوة في دين، وحزمًا في لين، وإيمانًا في يقين، اللهم كن للمستضعفين والمظلومين، اللهم كن للمستضعفين والمظلومين، اللهم أزل عنهم العناء، واكشف عنهم الضر والبلاء، اللهم أنزل عليهم من الصبر أضعاف ما نزل بهم من البلاء، يا سميع الدعاء.

اللهم من كان من أمة محمد على غير الحق وهو يظن أنه على الحق، فرده إلى الحق ردًّا جميلًا حتى يكون من أهل الحق، آمين يا رب العالمين.

والحمد لله الذي هدانا وما كنا لنهتدي لو لا أن هدانا الله.

حمدًا لك اللهم أقولها ... في البؤس والإيسار والإعسار

وعلى الرسول الهاشمي وآله ... ليلي أصلي دائبًا ونهاري

سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك.

[١١] الإيمان والحياة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هاديَ له.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، شهادة عبده وابن عبده وابن أمَتِه، ومن لا غنى به طرفة عين عن رحمته.

وأشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله، أرسله الله رحمة للعالمين، فشرح به الصدور، وأنار به العقول، وفتح به أعينًا عميًا، وآذانًا صمًّا، وقلوبًا غُلْفًا.

اللهم اجزه عنا أفضل ما جزيت به نبيا عن أمَّتِه، اللهم وأَعْلِ على جميع الدرجات درجته، واحشرنا تحت لوائه وزمرته.

اللهم أوردنا حوضه، واجعلنا من أتباع سنته وشرعته، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه ومن اهتدى بسنته واهتدى بسيرته.

اللهم حبِّب إلينا الإيمان، وزيِّنه في قلوبنا، وكرِّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان، واجعلنا من الراشدين.

اللهم أرنا الحق حقًّا، والباطل باطلًا.

اللهم وفقنا لاتباع الحق، والعمل به، والدعوة إليه، والصبر على الأذى في ابتغاء وجهك، وطلب مرضاتك: ﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَـٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴾ [آل عمران: ١٩٣]

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَـٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

سلام الله عليكم ورحمته وبركاته. وبعد:

أحبتي في الله...

أشهد الله الذي لا إله إلا هو على حبكم فيه، وأسأله أن يجمعنا وإياكم على الإيمان والذكر والقرآن في هذه الحياة، وأن يجعل آخر كلامنا من الدنيا لا إله إلا الله، ثم أسأله أخرى أن يجمعنا في جنات ونَهَر، في مقعد صدق عند مليك مقتدر، هو ولي ذلك والقادر عليه.

أحبتي في الله...

-وأنا أعلم بنفسي منكم- ظن بي إخوتي ظنًا عظيمًا، فدعوني فلم أملك إلاَّ أن أجيب، ثم دعوكم فظننتم نفس الظن وأجبتم، فخيرا جزيتم، وما أراني -والله- بينكم الليلة إلا كبائع التمر على أهل هجر، لكني أسأل الله -الذي بيده مقاليد كل شيء- أن يجعلني خيرًا مما تظنون، وأن يغفر لي ما لا تعلمون، وألا يؤاخذني بما تقولون، وحسبي أن ألقي عليكم هذه الكلمات، التي أسأل الله أن يجعلها لي ولكم ذخرًا ليوم تتقلب فيه القلوب والأبصار، وأن يجعلها من صالحات الأعمال، وخالصات الآثار، والفضل أولًا وآخرًا لله الواحد القهار.

يـا رب أنـت خلقـتني وبـرأتني	**جمَّلـت بالتوحـيد نطـق لـساني**
وهديـتني سـبل الـسلام تكـرمًا	**ودفعـتني للحمـد والـشكران**
وغمـرتني بالجـود سـيلاً غامـرً	**وأنـا أقابـل ذاك بالكفـران**
فلـك المحامـد والثـناء جمـيعه	**والـشكر مـن قلـبي ومـن وجدانـي**
فلأنـت أهـل الفـضل والمـن	**الـذي لا يـستطيع لـشكره الـثقلان**
أنـت الكـريم وبـاب جـودك لم يـزل	**للبخـيل تعطـي سـائر الأحـيان**
أنـت الحلـيم بـنا وحلمـك واسـع	**أنـت الحلـيم علـى المـسيء الجانـي**
أنـت القـوي وأنـت قهـار الـورى	**لا تعجـزنَّك قـوة الـسلطان**
أنـت الـذي آويـتني وحـبوتني	**وهديـتني مـن حـيرة الخـذلان**
ونـشرت لـي في العـالمين محاسـنًا	**وسـترت عـن أبـصارهم عـصياني**
والله لـو علمـوا قبـيح سـريرتي	**لأبـى الـسلام علـي مـن يلقانـي**
ولأعرضـوا عـني وملُّـوا صـحبتي	**ولـبؤت بعـد كـرامة بهـوان**
لكـن سـترت معـايبي ومـثالبي	**وحلمـت عـن سـقطي وعـن طغيانـي**
لبـيك يـا ربـي بكـل جوارحـي	**لبـيك مـن روحـي ومـلء جنانـي**
اجعـل رجائـي في ثـوابك رائـدي	**واقـبل مقـلَّ الجهـد في التبـيان**

يـا رب لا تجعـل جزائـي سمعـة تـسري علـى الـبلدان والأكـوانِ

أنـت المـضاعف للـثواب فـإن يكـن مـثقال خـردلة علـى الميـزان

تعطـي المـزيدِ مـن الـثواب مـضاعفًا مـن غـير تحديـد ولا حـسبان

فلـك المحامـد والمـدائح كلـها بخواطـري وجوانحـي ولـساني

أحبتي في الله...

الإيمان والحياة، لسائل أن يقول: لِمَ كان اختيار هذا الموضوع؟

فأقول: وهل حياةٌ بلا إيمان؟ إنه الحياة وكفى، لذا لا ينبغي أن يكون الإيمان أمرًا هامشيًا في هذه الحياة، بل هو قضية القضايا، لا يجوز أن نغفله أو نستخف به أو ندعه في زوايا النسيان؛ كيف لا وهو أمر يتعلق بوجود الإنسان ومصيره؟!

إنه لسعادة الأبد، وإن عدمه لشقاوة الأبد، إنه لجنة أبدًا لصاحبه، والنار أبدًا لمن تنكبه؛ لذا كان لِزَامًا عليَّ وعلى كل مؤمن بالله، بل وعلى كل ذي عقل: أن يفكر في حقيقة الإيمان وأثره على الحياة؛ حتى يطمئن القلب، وينشرح الصدر، وتسكن النفس، خصوصًا ونحن في عصر أصبح الناس يجرون وراء المنفعة لاهثين، حتى إن كثيرًا منهم ليرون الحق فيما ينفعهم ويتفق مع أهوائهم لا فيما يطابق الواقع أو تقوم الدلائل والبراهين على صحَّته: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١].

الفرد بلا إيمان ريشة في مهَبِّ الريح، لا تستقر على حال، ولا تسكن إلى قرار، أينما الريح تميلها تمل، الفرد بلا إيمان إنسان لا قيمة له ولا جذور، إنسان قلق، متبرِّم، حائر، لا يعرف حقيقة نفسه ولا سر وجوده، لا يدري من ألبسه ثوب الحياة؟ ولماذا ألبسه إياه؟ ولماذا ينزعه عنه بعد حين؟

الفرد -باختصار- بلا إيمان: حيوان شَرِه، وسبع فاتك مفترس، بقلب لا يفقه، بأذن لا تسمع، بعين لا تبصر، بهيمة؛ بل أضل.

والمجتمع كذلك، المجتمع بلا إيمان مجتمع غابة وإن لمعت فيه بوارق الحضارة؛ لأن الحياة فيه للأقوى لا للأفضل والأفقه.

المجتمع بلا إيمان مجتمع تعاسة وشقاء وإن زخر بأدوات الرفاهية من الرخاء.

المجتمع بلا إيمان مجتمع تافه مهين رخيص، غايات أهله لا تتجاوز شهوات بطونهم

وفروجهم: ﴿ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ ٱلْأَنْعَٰمُ وَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴾ [محمد: ١٢]

ومن هنا جاءت الحاجة الماسَّة الملحَّة للحديث عن الإيمان وأثره في الحياة بعمومها، حياة الفرد والمجتمع، حياة الأمة بأسرها.

وإني قبل أن أبدأ لأهنئ هذه الوجوه على إيمانها بالله الذي لا إله إلا هو، فهنيئًا لكم الإيمان، وهنيئًا لكم القرآن، وهنيئًا لكم التوحيد، وهنيئًا لكم الإسلام، هنيئًا لكم يوم يغدو النصارى إلى بيوت الصلبان، ويغدو اليهود إلى بيوت الشيطان، ويغدو المجوس إلى بيوت النيران، ويغدو المشركون إلى بيوت الأوثان، ثم تغدون أنتم إلى بيوت الرحمن: ﴿ فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ ﴾ [النور: ٣٦].

فاللهم لك الحمد على نعمة الإيمان، أنت الموفق فلك المنَّة والفضل على نعمة الإيمان: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [الحجرات: ١٧].

حقيقة الإيمان

يا أهل الإيمان...

ما الإيمان؟ الإيمان تلكم الكلمة المدوية المجلجلة التي تهزُّ كيان المسلم، فيرنو إليها ببصيرته، ويتحرك نحوها فؤاده، ويشد إليها رحاله، وتسمو إليها تطلعاته: إنه الميدان الذي يتسابق فيه المتسابقون، ويتنافس فيه المتنافسون.

إنه ما يتحسس كل مسلم قبسه في قلبه، ويتلمس وهجه في نفسه، ويسعى ويعمل لسلوك السبيل المحبب له، لينير به جوانب روحه.

الإيمان؛ ما الإيمان؟

قول باللسان، واعتقاد بالجنان، وعمل بالأركان، يزيد بالطاعة، وينقص بالعصيان.

الإيمان؛ ما الإيمان؟

نفحة ربانية يقذفها الله في قلوب من يختارهم من أهل هدايته، ويهيء لهم سبل العمل لمرضاته، ويجعل قلوبهم تتعلق بمحبته، وتأْنس بقربه، فالمؤمنون في رياض المحبة، وفي جنان الوصل يرتعون ويمرحون، أحبهم الله فأحبوه، فاتبعوا نبيه ورضي عنهم فرضوا عنه، تقربوا منه بالصالحات والطاعات، فدنا منهم بالمغفرة والرحمات؛ كما في الحديث

القدسي: «ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه» متى نكون أهلًا لأن نسأل الله فنعطى، ونستعيد بالله فنعاذ؟

يا من ألوذ به فيما أؤمله ... ومن أعوذ به مما أحاذره

لا يجبر الناس عظمًا أنت كاسره ... ولا يهيضون عظمًا أنت جابره

الإيمان، ما الإيمان؟

شعور يختلج في الصدر، ويلمع في القلب؛ فتضيء جوانب النفس، ويبعث في القلب الثقة بالله، والأُنس بالله، والطمأنينة بذكر الله: ﴿ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴾ [الرعد: ٢٨].

الإيمان؛ ما الإيمان؟

إنه الشعور بأنك ذرة في كون عظيم هائل متجه إلى الله، يسبِّح لله، ويخضع لله، ويؤمن بالله: ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ ﴾ [الإسراء: ٤٤] تبارك عز وجل؛ فسبحان من آمن له الكون أجمعه! وسبحان من سبَّح له الكون أجمعه: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ [الإسراء: ٤٤].

موكب عظيم يسبح الله، ويؤمن به، يجعلك -أيها العبد- تُسأل: أين أنت من هذا الموكب؟ حدِّد موقعك في هذا الموكب؟ وهدفك على هذا الموكب وغايتك؛ فإن الشاذ عن هذا الموكب لهو الشقي الخاسر لنفسه؟ وماذا بعد خسارة النفس من خسران؟!

الله هو الغني ونحن الفقراء، لا تنفعه طاعة، ولا تضره معصية، بل مخلوقاته غيرنا كثير وكثير؛ صنف منهم وهم الملائكة لا يحصيهم ولا يعلم عددهم إلا الله الذي لا إله إلا هو: ﴿ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [التحريم: ٦]، ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ [الأنبياء: ٢٠]، وفي صحيح مسلم «إنه ليدخل البيت المعمور في السماء السابعة كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه إلى قيام الساعة» [١]

كم من الملائكة يدخل البيت المعمور منذ أن خلق الله السماوات والأرض وإلى أن يرث الله الأرض ومَن عليها، ما بالك بعدد الملائكة عمومًا؟! ما بالك بغيرهم من سائر المخلوقات؟!

---

(١) متفق عليه: البخاري (٣٠٣٥)، (٣٦٧٤)، ومسلم (٤٢٩)، (٧٣٤).

ألم تسمع في الصحيح إلى قول النبي ﷺ كما في حديث أبي ذر «إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أطّت السماء وحُقّ لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك ساجد أو راكع، والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلًا، ولبكيتم كثيرًا، ولما تلذذتم بالنساء على الفُرش، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله[1] -وفي رواية- ولحثوتم على رءوسكم التُّراب»[2]

«أطَّت السماء وحُقَّ لها أن تئط؛ ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك ساجد أو راكع، أهل سماءٍ يقولون: سبحان ذي العزة والجبروت، وأخري يقولون: سبحان ذي الملك والملكوت، وأخرى يقولون: سبحان الحي الذي لا يموت والإنس والجن يموتون»[3]

خَلْق عظيم هائل لا يحصيهم إلا خالقهم سبحانه وبحمده، وظيفتهم التسبيح والتعظيم، فماذا يضر أن ينقلب إنسان من هذا الموكب العظيم فيكفر بالله، ومن كفر فعليه كفره: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ﴾ [الحج: ١٨]، هل جندت نفسك -أخي في الله- لتكون من أهل هذا الموكب المسبح السائر إلى الله -أعني: موكب المؤمنين-؟

إن كنت كذلك فأبشرْ بالجزاء من أكرم الأكرمين، يوم الوقوف بين يديْ رب العالمين: ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٧].

أثر الإيمان على الفرد والمجتمع

يا من يحب الكنز! ويا من يحب الثروة! إن أعظم كنز يكتنزه العبد في هذه الحياة هو كنز الإيمان، وإن أعظم ثروة يكتنزها العبد في هذه الحياة هي ثروة الإيمان إنه الثروة النفيسة، والكنز الثمين، يسعد به صاحبه حين يشقى الناس، ويفرح حين يحزن الناس، هل لهذا الكنز، وهذه الثروة من أثر على الحياة؟

إن أثرها عظيم جد عظيم لمن كان له قلب فملأه بالإيمان إن إيمان العبد بالله وملائكته

---

(١) حسن: أخرجه ابن ماجه (٤١٩٠)، والترمذي (٢٣١٢)، و الألباني في «الصحيحة» (١٧٢٢).

(٢) ضعيف: أخرجه ابن أبي الدنيا في «صفة النار» (١ / ٤)، والألباني في «ضعيف الترغيب والترهيب» (٢١٤٢).

(٣) انظر «كنز العمال» (٢٩٨٣٤) بنحوه.

وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره ليعكس على الفرد، لا.

بل على الأمة جميعًا أثرًا عظيمًا، فهاك موجزها ولا بأس بعده من تفصيل.

«اللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلًا وأنت تجعل الحزن إذا شئت سهلًا» (١)

المؤمن بالله يشعر بأن الله يراقبه في أفعاله، يحاسبه على الصغيرة والكبيرة: ﴿ **مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟** ﴾ [المجادلة: ٧].

إذا استشعر العبد هذه المعية سابق إلى الخيرات، وخضع مستجيبًا لرب الأرض والسماوات فبادر إلى الفضائل.

إذا ما خلوت الدهر يومًا فلا تقل خلوت ولكن قل علي رقيب

ولا تحسبن الله يغفل ساعة ولا أن ما تخفيه عنه يغيب

والإيمان بالملائكة: يجعل المؤمن يستحي من معصية الله؛ لعلمه أن الملائكة معه: ﴿ **مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ** ﴾ [ق: ١٨]، ترافقه وتراه ولا يراها، تحصي عليه أعماله بسجلات محكمة لا تغادر صغيرة ولا كبيرة.

والإيمان بالكتب: يجعل المؤمن يعتز بكلام الله، ويتقرب إليه بتلاوة كلامه والعمل به، ويشعره ذلك أن الطريق الوحيد إلى الله هو اتباع ما جاء في كتبه، والذي جاء القرآن مهيمنًا عليها مصدقًا لها.

والإيمان بالرسل: يجعل المؤمن يأنس بأخبارهم وسيرهم لا سيما سيرة المصطفى ﷺ، فيتخذهم أسوة وقدوة: ﴿ **لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا** ﴾ [الأحزاب: ٢١]، أسوة حسنة لا في شرق ولا في غرب بل رسول الله إلى الناس كافة شرقيهم والغربي.

بالشرق أو بالغرب لست بمقتدٍ أنا قدوتي ما عشت شرع محمد

حاشا يثنيني سراب خادع ومعي كتاب الله يسطع في يدي

(١) صحيح: «صحيح ابن حبان» (٩٧٤)، و «كنز العمال» (٣٧٥٥)، و الألباني في «الصحيحة» (٢٨٨٦).

والإيمان باليوم الآخر: ينمي في النفس حب الخير ليلقى ثوابه في جنات ونهر ونعم المأوى، ويكره في النفس الشر ودواعيه خوفًا من نار تلظى ومن وقوف بين يدي المولى.

والإيمان بالقدر: يجعل نفس المؤمن لا تخاف ما أصابها، ولا ترجو ما سوى ربها، لا تقنع إلا بالله، ولا تلجأ إلا لله، في الدنيا تزهد، بالموت لا تبالي، لا تركع للطغيان بل تخضع للرحمن، ولسان حالها:

ماض وأعرف ما دربي وما هدفي والموت يرقص لي في كل منعطف
وما أبالي به حتى أحاذره فخشية الموت عندي أبرد الطرف

آثار الإيمان على الحياة آثار مشرقة تنعكس على تصورات الأفراد وسلوكهم في الحياة، حتى إنك لترى القرآن يمشي على الأرض في أشخاص بعض الأفراد، فإليكم أزف بعض هذه الآثار مفصلة، فاسمعوا أيها الأحباب! وافقهوا وبلغوا فرب مبلغ أوعى من سامع.

من آثار الإيمان: الثبات بكل صوره

من آثار الإيمان الثبات بكل صوره ومعانيه عند الشدائد والمحن والمصائب، الثبات يوم تمتحن الأمة بأعدائها، الثبات للداعي في دعوته، والثبات للمصاب عند مصيبته، والثبات للمريض عند مرضه حتى الممات، الثبات أمام الشهوات، الثبات أمام الشبهات، الثبات على الطاعات، الثبات العام، وكفى بالثبات!

هاهو ﷺ يحمل الإيمان في صف، والبشرية كلها في صف مضادٍ فانتصر بالإيمان، صدع بالحق لا يرده عنه رادٌ ولا يصده صادٌ، فوقعت قريش منه في أمر عظيم، فإذا بأحد صناديدها يقول: يا معشر قريش! لقد وقعتم من محمد في أمر عظيم، لقد كان غلامًا حَدَثًا، أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثًا، وأعظمكم أمانة، حتى إذا رأيتم الشيب في صدغيه، قلتم: شاعر، ما هو والله بشاعر، قلتم: ساحر، ما هو والله بساحر، قلتم: كاهن، ما هو والله بكاهن.

يا معشر قريش! إنكم قد نزل بكم أمرٌ عظيم فاجتمعوا له.

فاجتمع -كبراؤها- صناديد الشرك وسَدَنَة الوثنية، الممسكون بحُجَز النار ليقذفوه في النار، اجتمعوا يقود مؤتمرهم إبليس، نعوذ بالله منه.

قالوا في اجتماعهم: انظروا رجلًا منكم هو أعلمكم بالسحر والشعر والكهانة

فليذهب إلى محمد، قالوا: ما نرى مثل أبي الوليد عتبة بن ربيعة.

فذهب عتبة إلى رسول الله ﷺ وكان بليغًا، وفصيحًا، جمع مقالاتهم في مقالة واحدة، وقال: يا محمد! أنت خير أم أبوك؟ فسكت ﷺ ، قال: أنت خير أم جدُّك عبد المطلب؟ فسكت النبي ﷺ ، فقال: إن كانوا خيرًا منك فقد عبدوا ما عبدنا، وإن كنت خيرًا منهم فقل.

ثم بدأ في الإغراءات التي لا يثبت أمامها إلا المؤمنون: يا محمد! إن كان بك المُلْك ملَّكْناك، وإن كان بك المال أعطيناك من أموالنا ما تشاء، وإن كان بك الباءة وحب النساء زوَّجناك ما تشاء من بناتنا.

يا محمد! ما رأينا شخصًا -قط- أشْأَمَ على قومه منك، والله ما ننتظر إلا مثل صيحة الحبلى، فيثور بعضنا على بعض، يا محمد! أخبرنا ما تريد؟

فقال ﷺ : «أفرغت يا أبا الوليد؟» ويا للأدب منه ﷺ ! يا للأدب يوم تركه حتى انتهى من كلامه، ثم شرع ﷺ يرتِّل آيات الله البينات، تسقط كالقذائف على دماغ هذا الرجل، شرع يقرأ من أوائل سورة فصِّلت: ﴿ حمٓ ۝ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ۝ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِيٓ أَكِنَّةٖ مِّمَّا تَدۡعُونَآ إِلَيۡهِ وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقۡرٞ وَمِنۢ بَيۡنِنَا وَبَيۡنِكَ حِجَابٞ فَٱعۡمَلۡ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴾ [فصلت: ١ - ٥].

سمع كلامًا ما هو بالسحر، ولا بالشعر، ولا بالكهانة، ألقى هذا الكافر يديه خلف ظهره، وأخذته رِعْدة مشدوهًا مبهورًا بما يسمع، يسمع القرآن من فَمِ من أنزل عليه القرآن.

حتى إذا بلغ قول الله جل وعلا: ﴿ فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ ﴾ [فصلت: ١٣]، فخاف وارتعد وأخذته الرعشة وأخذ يديه الاثنتين وجمعها ووضعها على فم المصطفى ﷺ ، وقال: أنشدك الله والرحم إلا صمت! أنشدك الله والرحم إلا صمت!

خرج مذعورًا خائفًا راجعًا إلى قومه بغير الوجه الذي ذهب به من عندهم، فلما رأوه قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: لقد سمعت من محمد حديثًا ما هو بالسحر، ولا بالشعر، ولا بالكهانة، ورب هذه البنية -يعني الكعبة- ما عقلت من حديثه إلا قوله:

﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ ، فوضعت يديَّ على فمه خوفًا أن ينزل بكم العذاب، ولقد علمتم أن محمدًا إذا حدث حديثًا لم يكذب[1]

﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل: ١٤] جحدوا بذلك.

هل استقاموا لرسول الله ﷺ ؟ هل انتفعوا بالآيات؟

لم ينتفعوا بذلك، فهل سلم منهم رسول الله ﷺ -بأبي هو وأمي-؟ لا والله! بل ناصبوه العداء كأشد ما يكون، وأروه الأذى كأقذع ما يكون الأذى، وضعوا سلى[2] الجزور[3] على ظهره ﷺ ، ثم لم يجد له مُعِينًا بعد الله إلا بنيته الصغيرة فاطمة رضي الله عنها وأرضاها[4]

ثم ليس هذا فحسب، بل أخرجوه من مكة، ودموعه على وجنتيه ﷺ وهو يقول: «**والله! إنك لأحب البقاع إليَّ، ولولا أن قومك أخرجوني ما خرجت**» [5]

ومع ذلك فقد ثبت ﷺ بالإيمان، فنصره الله، ونصر دينه، وأعلى كلمته، فما من مئذنة الآن إلاّ وهي تقول في اليوم خمس مرات: أشهد أن محمدًا رسول الله ﷺ .

ويأتي صحابته رضوان الله عليهم ومَن بعدهم ليثبتوا بالإيمان ثبات الجبال الشُّم الراسية.

هاهو خالد بن الوليد أبو سليمان رضوان الله عليه يقارع الروم في أرضهم -كما روى ابن كثير - حتى كانت الدائرة على الروم، فما كان منهم إلاّ أن فرُّوا وتحصنوا في مدينة قنسرين؛ مدينة من مدنهم محصنة بالجدران المنيعة والأبواب الثقيلة التي لا يقتحمها مقتحم، فماذا كان من خالد؟ حاول اقتحامها فما استطاع، حاول أن يحاصرها حصارًا عامًا عسكريًا واقتصاديًا واجتماعيًا فما أفلح، استعصت عليه، فما كان منه إلا أن دوَّن رسالة، قال في هذه الرسالة بثبات المؤمن الذي يثق بنصر الله جل وعلا:

---

(١) انظر «دلائل النبوة» للبيهقي (٥٠٩)، و«عيون الأثر» (١ / ١٤٠) بنحوه.

(٢) السلي: هي اللفافة التي يكون فيها الولد في بطن الناقة.

(٣) الجزور: الواحد من الإبل ذكرًا كان أم أنثى، وقيل: ما ذبح منها أو ما يصلح للذبح خاصة.

(٤) صحيح: البخاري (٣٠١٤) (٣٦٤١).

(٥) صحيح: أخرجه الترمذي (٣٩٢٥)، وأحمد (١٨٧٣٧)، وابن ماجه (٣١٠٨)، والألباني في «المشكاة» (٢٧٢٥)، وفي «صحيح الجامع» (٧٠٨٩).

«من خالد بن الوليد أبي سليمان إلى قائد الروم في بلدة قنسرين...

أما بعد:

فأين تذهبون منا؟ والذي نفس خالد بيده! لو صعدتم إلى السحب لأَصْعَدَنا الله إليكم، أو لأَمْطَرَكُم علينا».

كلمات الثقة بنصر الله عز وجل، كلمات الثبات الذي لا يكون إلا للمؤمنين، تخرج كالصواعق على أعداء الله، وكالبلسم على أولياء الله.

وصلت الرسالة إلى ذلك العلج، فقرأها وارتعدت فرائصه، وسقطت من بين يديه، وما كان منه إلا أن قال: افتحوا أبواب المدينة، واخرجوا مستسلمين، لا طاقة لنا بهؤلاء.

ما الذي ثبَّت خالدًا إلا الإيمان، ما الذي ثبت جند الله إلا الإيمان يوم أخذوه، وأخذوه بحق وبجدية.

ليس هذا فحسب، وليس صحابة رسول الله ﷺ فحسب؛ فها هو ابن تيمية عليه رحمة الله ذلكم الداعية الذي قارع الطغيان ودمغ البدعة والمبتدعين، فكثر الأعداء فما وهن وما استكان، لسان حاله:

فكيف تخاف من زيد وعمرو وعند الله رزقك والقضاء

ليلقى في السجن فيثبت بإيمانه الراسخ، يقفل السجان عليه الباب فيقول: ﴿ فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴾ [الحديد: ١٣].

ينظر إلى السجناء ويقول: ما يفعل أعدائي بي؟ أنا جنتي وبستاني في صدري، أنَّى رحت فهي معي لا تفارقني، أنا حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة، إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة، إنها جنة الإيمان واليقين.

يمرض فيثبت ثبات المؤمن في أوقات الشدائد، دخلوا عليه وهو مريض وما اشتكى، فيقولون له: ماذا تشتكي يا إمام؟ قال:

تموت النفوس بأوصابها ولم يدرِ عُوَّادها ما بها

وما أنصفت مهجة تشتكي أذاها إلى غير أحبابها

ثم يختم المصحف في السجن بضعًا وثمانين مرة، حتى إذا بلغ قول الله جل وعلا: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ۝ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ ۝ ﴾ [القمر: ٥٤، ٥٥].

لقي الله فرحمه الله، وجمعنا به وبالصالحين من أمة محمد بن عبد الله صلَّى وسلم عليه الله.

الثبات للمريض في مرضه

- يروي ابن حجر في الإصابة أن عمران بن حصين رضى الله عنه أصابه مرض أقعده ثلاثين سنة، وما اشتكى حتى إلى أهله، فكانت الملائكة تصافحه وقت السحر.

- أبي بن كعب رضي الله عنه سيد القراء يقول للنبي ﷺ: «أإنا لنؤجر في الأمراض والحمى والمصائب؟».

فيقول ﷺ كما في الحديث المتفق عليه: «**والذي نفسي بيده! لا يصيب المؤمن همٌّ ولا غمٌّ ولا نَصَب ولا وَصَب ولا بلاء حتى الشوكة يشاكها إلا كفَّر الله بها خطاياه**» (١) فقال: «اللهم إني أسألك حمى لا تبعدني عن صلاة ولا حج ولا جهاد».

فمكث به ثلاثين سنة حتى ابيض شعر رأسه ولحيته، وكان لا يجلس بجانبه أحد من شدة فيح الحمى، ليلقى الله ثابتًا بالإيمان، وهكذا يفعل الإيمان.

ولا يكون ذلك إلا للمؤمنين، يقول الحافظ أبو نعيم: لما توفي ذر بن عمر الهمداني، جاء أبوه فوجده قد مات، فوجد أهل بيته يبكون، فقال: ما بكم؟ قالوا: مات ذر، فقال: الحمد لله، والله ما ظُلمنا ولا قُهرنا ولا ذُهب لنا بحق، وما أُريد غيرنا بما حصل لذر، ومالنا على الله من مأثم.

ثم غسَّله وكفَّنه، وذهب ليصلي مع المصلين، ثم ذهب به إلي المقبرة، ولما وضعه في القبر قال: رحمك الله يا بني، قد كنت بي بارًا، وكنت لك راحمًا، ومالي إليك من وحشة ولا إلى أحد بعد الله فاقة، والله يا ذر! ما ذهبت لنا بعز، وما أبقيت علينا من ذل، ولقد شغلني -والله- الحزن لك عن الحزن عليك، يا ذر! لولا هول يوم المحشر لتمنيت أني صِرْت إلى ما إليه صرت، يا ليت شعري! ماذا قيل لك وبماذا أجبت؟

ثم يرفع يديه باكيًا: اللهم إنك قد وعدتني الثواب إن صبرت، اللهم ما وهبته لي من أجر فاجعله لذر صلة مني، وتجاوز عنه، فأنت أرحم به مني، اللهم إني قد وهبت لذر إساءته فهب له إساءته فأنت أجود مني وأكرم، ثم انصرف ودموعه تقطر على لحيته.

---

(١) سبق تخريجه.

ولـيس الـذي يجـري مـن العـين ماؤهـا ولكـــــنها روح تــــسيل فتقطـــــر

انصرف وهو يقول: يا ذر! قد انصرفنا وتركناك، ولو أقمنا ما نفعناك، وربنا قد استودعناك، والله يرحمنا وإياك.

ما الذي ثَبَّت هذا الرجل إلا الإيمان؟

هذه آثار الإيمان على حياة الناس تظهر عند الشدائد، فيثبت لها الرجال ثبات الجبال الشُّم الراسيات.

الخوف من الرياء

من آثار الإيمان على حياة الناس: ديمومة اتهام النفس، والخوف من الرياء والنفاق، وعدم احتقار الذنب.

يقول ابن أبي مليكة كما في البخاري: «أدركت ثلاثين من صحابة رسول الله ﷺ كلهم يخاف النفاق على نفسه، ما منهم أحد يقول: إنه على إيمان جبرائيل وميكائيل».

«**المؤمن يرى ذنوبه كجبل يقعد تحت أصله، يخشى أن يسقط عليه، أما المنافق فيرى ذنوبه كذباب وقع على أنفه فأطاره بيده**»، ما خاف النفاق إلاَّ مؤمن، وما أَمِنَه إلا منافق[1]

يقول أنس كما في صحيح البخاري: «إنكم لتعملون أعمالًا هي أدق في أعينكم من الشعر، إن كنا لنعدها على عهد رسول الله ﷺ من الموبقات»[2] يقول هذا لخير القرون، فماذا يقال فينا؟ نسأل الله أن يرحمنا برحمته.

زيادة الأمن في البلدان

من آثار الإيمان على الحياة: زيادة الأمن في البلدان وعلى الأموال والأعراض، والطمأنينة والهدوء في الأنفس والقلوب، يقول المولى سبحانه: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴾ [الأنعام: ٨٢] سُنَّة الله لا تتخلف. ﴿ وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٦].

---

(١) صحيح: البخاري (١ / ٢٦) معلقًا.

(٢) صحيح: البخاري (٦١٢٧).

نبذ العصبيات والنعرات الجاهلية

من آثار الإيمان: نبذ كل ما يفرق الأمة من قوميات وعصبيات وعنصريات ونَعَرَات جاهلية؛ فالمقياس عند المؤمنين حقًا؛ التقوى: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣]، ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [الحجرات: ١٠]، لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى، جسد مؤمن واحد، بنيان واحد، أمة واحدة، لا شرق ولا غرب.

لو كبرت في جموع الصين مئذنة	سمعت في الغرب تهليل المصلين
أبا سليمان قلبي لا يطاوعني	على تجاهل أحبابي وإخواني
إذا اشتكى مسلم في الهند أرّقني	وإن بكى مسلم في الصين أبكاني
و مصر ريحانتي والشام نرجسي	وفي الجزيرة تاريخي وعنواني
أرى بخارى بلادي وهي نائية	وأستريح إلى ذكرى خراسان
وأينما ذكر اسم الله في بلدٍ	عددت ذاك الحمى من صُلْب أوطاني
شريعة الله لَمَّتْ شملنا	وبنت لنا معالم إحسان وإيمان

يقول ﷺ كما روى أبو داود وحسنه محققُ جامع الأصول «إن من عباد الله أناسًا ما هم بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم الأنبياء والشهداء على قُرْبهم ومكانتهم من الله»، قال صحابة رسول الله: من هم يا رسول الله؟ قال: «هم أناس تحابّوا بروح الله على غير أرحام فيما بينهم، ولا أموال يتعاطونها فيما بينهم، فوالله! إن وجوههم لنور، وإنهم لعلى نور، لا يفزعون إذا فزع الناس، ولا يحزنون إذا حزن الناس»، ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ [يونس: ٦٢] (١)

يقع في يوم من الأيام بين أبي ذر رضي الله عنه وبلال رضي الله عنه خصومة، فيغضب أبو ذر وتفلت من لسانه كلمة يقول فيها لبلال: يا بن السوداء! فيتأثر بلال، يوم أكرمه الله بالإسلام ثم يعير بالعصبيات والعنصريات والألوان، ويذهب إلى النبي ﷺ ويشكو أبا ذر.

ويستدعي النبي ﷺ أبا ذر، فيقول -كما في الحديث المتفق على صحته-: «أعيرته بأمه؟

(١) صحيح لغيره: أخرجه أبو داود (٣٥٢٩)، والألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٠٢٦).

إنك امرؤ فيك جاهلية»، فيتأثر أبو ذر ويتحسَّر ويندم، ويقول: «وددت والله لو ضرب عنقي بالسيف، وما سمعت ذلك من رسول الله ﷺ»، ويضع خده على التراب ويقول: «يا بلال! ضع قدمك على خدي، لا أرفعه حتى تضعه» فتذرف عينا بلال رضي الله عنه الدموع، ويقول: «يغفر الله لك يا أبا ذر! يغفر الله لك يا أبا ذر! والله ما كنت لأضع قدمي على جبهة سجدت لله رب العالمين»، ويعتنقان ويبكيان[1]؛ ذهب ما في القلوب، وانتهى ما في القلوب، والشاهد: «**إنك امرؤ فيك جاهلية**».

يأتي سهيل بن عمرو، ويأتي أبو سفيان رضيَ الله عنهما، إلى أين يأتون؟ يأتون إلى مجلس عمر رضيَ الله عنه وأرضاه الذي لا يدخله إلا المؤمنون حقًّا، فيستأذن أبو سفيان -وهو سيد من سادات قريش، بإشارة تتحرك ألوف، وبإشارة منه أخرى ترعد أنوف- يأتي إلى هذا المجلس فلا يؤذن له، وهو مسلم رضي الله عنه وأرضاه بعد إسلامه.

ويأتي سهيل بن عمرو -وهو سيد من سادات قريش- ويستأذن في الدخول على عمر فلا يؤذن له، ويأتي بلال الحبشي الذي أكرمه الله بالإسلام فيؤذن له، ويأتي صهيب الرومي فيؤذن له، ويأتي سلمان الفارسي فيؤذن له كذلك، فماذا كانت النتيجة؟

كان من أبي سفيان رضي الله عنه أن تأثر وتذمَّر وتنمَّر، وقال: «والله! ما ظننت أن أُحْبس على باب عمر، ويدخل هؤلاء الموالي قبلي» فقال سهيل -وكان لبيبًا عاقلًا-: «والله! ما علينا أن نحبس على باب عمر، ولكن -والله- أخشى أن نُحْبَس على أبواب الجنة ويدخل هؤلاء، لقد دعوا إلى الإسلام فأسرعوا، ودعينا فأبطأنا ونأخرنا، فما علينا أن نحبس على باب عمر، إنما علينا أن نحبس على أبواب الجنة»، أو كما قال.

﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣].

أنا مسلم وأقولها مِلء الورى ... وعقيدتي نور الحياة وسؤددي

سلمان فيها مثل عمر لا ترى ... جنسًا على جنس يفوق بمحتدي

و بلال بالإيمان يشمخ عزة ... ويدق تيجان العنيد الملحد

و خبيب أخمد في القنا أنفاسه ... لكن صوت الحق ليس بمُخْمدِ

---

(١) انظر «جامع الأحاديث» (٤١٣٧٩)، و«شعب الإيمان» للبيهقي (٥١٣٥) بنحوه.

ورمى صهيب بكل مال للعدا ولغير ربح عقيدة لم يقصد

إن العقيدة في قلوب رجالها من ذرة أقوى وألف مهند

تنقية القلوب من الأدران

من آثار الإيمان على حياة الناس: تنقية قلوبهم من الحسد، وتصفيتها من الحقد والغل، واستلال الضغائن والسخائم منها؛ لتصبح الأمة كما قال رب العالمين: ﴿ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الفتح: ٢٩].

هاهو ﷺ كما في الصحيح من رواية أنس، وكما في رواية ابن إسحاق عن أبي سعيد الخدري، عن رسول الله ﷺ: أنه لما قسم غنائم حنين أعطى المهاجرين، وتألف قلوب بعض المشركين، ولم يعطِ الأنصار شيئًا، فوجدوا في أنفسهم، فقال قائلهم: وجد رسول الله ﷺ قومه فنسينا، وقال الآخر: غفر الله لرسول الله، يعطي قريشًا ويتركنا وسيوفنا تقطر من دمائهم.

فيذهب أحدهم، بل سيد من ساداتهم؛ سعد بن عبادة إلى رسول الله ﷺ وينقل المقالة إلى رسول الله ﷺ فيقول له رسول الله ﷺ: «**ما أنت؟**» يعني: أين موقفك أنت؟ حدِّد موقفك؟ هل أنت منهم؟

فيقول: «يا رسول الله! ما أنا إلاّ رجل من قومي، قد أقول ما يقولون» لا يعرفون الخداع، ولا يعرفون الالتواء، إنما هم صرحاء أتقياء أنقياء.

فقال ﷺ: «**اجمعهم لي**» فجمعهم، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «**يا معشر الأنصار! ما حديث بلغني عنكم، ألم آتكم ضُلالًا فهداكم الله بي؟ وفقراء فأغناكم الله بي؟ وأعداءً فألف الله بين قلوبكم بي؟**» فيقولون: الله ورسوله أمنّ، الله ورسوله أمنّ.

قال: «**ألا تجيبوني -يا معشر الأنصار!- والله لو شئتم لقلتم فصدقتم وصُدِّقتم: أتيتنا مُكذَّبًا فصدقناك، ومخذولًا فنصرناك، وطريدًا فآويناك، وعائلًا فواسيناك.**

أوجدتم يا معشر الأنصار! في أنفسكم على لعاعة من الدنيا تألفت بها قلوب أقوام ليسلموا، ووكلتكم إلى إسلامكم؟ والذي نفسي بيده! لولا الهجرة لكنت امرًا من الأنصار، ولو سلك الناس شِعْبًا وسلك الأنصار شعبًا لسلكت شعب الأنصار، اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار.

أما ترضون أن يعود الناس بالشاء والبعير، وتعودون أنتم برسول الله؟ فو الله لما تنقلبون به خير مما ينقلبون به.

ألا إنكم ستلقون بعدي أَثَرَة فاصبروا حتى تلقوني على الحوض» فبكى القوم حتى اخضلَّت لِحَاهُم بالدموع وهم يقولون: رضينا برسول الله قسمًا وحظًّا، رضينا برسول الله قسمًا وحظًّا[1]، لسان حالهم:

خذوا الشياة والجمال والبقر فقد أخذنا عنكم خير البشر

أرأيت كيف استلَّ ﷺ ما في قلوبهم، إنه لو لم يكن فيها إيمان لما استلَّ ما في قلوبهم رضوان الله عليهم جميعًا.

وهاهو رسول الله ﷺ -كما في الصحيح- بين أصحابه، فيقول: «**يطلع عليكم الآن رجل من أهل الجنة**»، فطلع رجل تقطر لحيته من آثار الوضوء، ثم قالها في اليوم الثاني، فطلع نفس الرجل، ثم قالها في اليوم الثالث فكان هو الرجل، فلحق به أحد صحابة رسول الله، وجلس معه أيامًا فلم يرَ في هذا الرجل كثير صلاة ولا صيام.

فقال له بعد ثلاث ليال: لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول كذا وكذا، ولم أرَكَ تعمل كثير عمل، قال: والله هو إلا ما رأيت، غير أني لا أنام ليلة من الليالي وأنا أجد في نفسي لأحد من المسلمين غشًا، ولا أحسد أحدًا على خير أعطاه الله إياه، فقال: بذلك بلغت ما بلغت، وتلك التي لا تُطاق -أو كما قال[2]- إنه الإيمان.

الإمام الشافعي عليه رحمة الله عوتب من قِبَل بعض المغرضين على زيارة الإمام أحمد، وهو أكبر منه سنًا، فقال ردًا على هؤلاء:

قالوا يزورك أحمد وتزوره قلت الفضائل لا تغادر منزله

إن زارني فلفضله أو زرته فلفضله فالفضل في الحالين له

رد على المعرضين، وكأنه يقول:

دعهم يعضوا على صمِّ الحصا كمدًا من مات من غيضه منهم له كفن

إنه الإيمان وكفى!

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (١١٧٤٨)، والألباني في «فقه السيرة» (١ / ٣٩٧).

(٢) صحيح: أخرجه أحمد (١٢٧٢٠)، والألباني في «الصحيحة» (١ / ٢٥) وصححه.

أنه حجاب من المعاصي

ومن آثار الإيمان على حياة الناس أنه عصمة وحجاب عن المعاصي والشهوات والشبهات.

يقول رسول الله ﷺ كما في الحديث الصحيح: «**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن**» (١)

إن المؤمن -يا أيها الأحبة- يقدِّم مراد الله على شهواته وعلى لذائذه، فييسر الله أمره، ويعصمه سبحانه وبحمده، ففي الأثر أن الله عز وجل قال: «**وعزتي وجلالي! ما من عبد آثر هواي على هواه** -أي قدم مراد الله على شهوات نفسه وهواها- **إلا أقللت همومه، وجمعت له ضيعته، ونزعت الفقر من قلبه، وجعلت الغنى بين عينيه، واتجرت له من وراء كل تاجر**» (٢)

هاهو الشاب القوي الحيِّي العالم، الذي يبلغ ثلاثين سنة؛ إنه الربيع بن خثيم، يتمالئ عليه فُسَّاق لإفساده، فيأتون بغانية جميلة، ويدفعون لها مبلغًا من المال قدره ألف دينار، فتقول: علام؟ قالوا: على قبلة واحدة من الربيع بن خيثم، قالت: ولكم فوق ذلك أن يزني؛ لأنه نقص عندها منسوب الإيمان.

فما كان منها إلا أن تعرضت له في ساعة خلوة، وأبرزت مفاتنها له، فما كان منه إلا أن تقدم إليها يركض ويقول: يا أَمَة الله! كيف بك لو نزل ملك الموت فقطع منك حبل الوتين؟! أم كيف بك يوم يسألك منكر ونكير؟! أم كيف بك يوم تقفين بين يدَيْ الرب العظيم؟! أم كيف بك إن شقيت يوم تُرْمَين في الجحيم؟!

فصرخت وولَّت هاربة تائبة إلى الله، عابدة زاهدة حتى لقِّبت بعد ذلك بعابِدَة الكوفة.

وكان يقول هؤلاء الفُسَّاق: لقد أفسدها علينا الربيع.

فما الذي ثبَّت الربيع أمام هذه الفتنة؟ هل هي قلة الشهوة؟ إنها الشهوة العظيمة، إذ هو في سن أوج الشهوة وعظمتها -سن الثلاثين- ومع ذلك ما الذي ثبته هنا، وما الذي عصمه بإذن الله؟ إنه الإيمان بالله الذي لا إله إلا هو.

---

(١) متفق عليه: البخاري (٢٣٤٣) (٥٢٥٦)، ومسلم (٢١١) (٢١٧).

(٢) ضعيف: «معرفة التذكرة» لابن طاهر (١ / ٢٩).

الإيمان -يا أيها الأحبة- كالجمرة، متى ما نفخت بها أضاءت واشتعلت؛ فأصبحت إضاءتها عظيمة عظيمة.

وحين ينقص منسوب الإيمان يقع الإنسان في الفواحش والآثام، يغرق في الشهوات، ثم يقع بعد ذلك في الموبقات.

هاهو شاب من شباب هذه الأمة، كان له صديق سوء، وجاءه في ليلة من الليالي في منتصف الليل وهو نائم ليطرق عليه الباب في تلك الساعة، وكان نائمًا لم يسمعه، فقامت أمه وفتحت له الباب، وقال: أريد فلانًا، قالت: إنه نائم لا أريد أن أوقظه الآن، قال: أريده لغرض ضروري، فألحَّ عليها فاستجابت حياءً منه، وذهبت وأخرجت هذا الشاب من فراشه.

فخرج إلى هذا الرجل، فقال له قرين السوء: نريد الليلة -أن ننتهك حرمة البيت الفلاني- أن نصعد لذاك البيت، ولنا منه الليلة صيدة -كما يقول- فما كان من هذا -وقد نقص منسوب الإيمان عنده إن لم يكن قد انعدم- إلاَّ أن دخل وأخذ المسدس، وخرج في نصف الليل -وكان نائمًا- مع قرين السوء يغدوان إلى المعصية -لأنهما ما حملا الإيمان كما ينبغي أن يحمل- برجليهما، ويذهبان إلى الفاحشة.

ذهبوا إلي بيت آمن وفي منتصف الليل ليأتي هذا الذي جاء وأيقظه ليصعد الجدار، وينتهك حرمة البيت بسقوطه في وسط البيت، ويبقى ذلك حارسًا بمسدسه خارج البيت، ويسمع صاحب البيت ويقوم، ويأخذ عصا غليظة، ويأتي وراء هذا الرجل يطارده، فيهرب منه ويأتي إلى هذا الحارس؛ صاحب المسدس -والذي كان نائمًا في نومته- فيضربه بالعصا ضربة آلمته، فما كان منه إلاّ أن أخذ المسدس، ثم قتل هذا الرجل.

يا لله! ما أعظمها من جريمة! في وسط الليل تنتهك حرمة بيت من بيوت المسلمين، وتقتل -أيضًا- صاحب البيت، ثم بعد ذلك ما النتيجة؟ يأتي رجال الأمن ويقبضون على هذا الرجل، ويقول: إنني لست المجرم الحقيقي، إن المجرم الحقيقي هو فلان، جاءني واستخرجني من دار أمي، وهو الذي أغراني بهذا، فيأخذوه ويذهبون للبحث عن الثاني.

وإذا بالثاني يذهب إلى جماعة نقص منسوب الإيمان عندها، فيأخذهم شهود زور، يشهدون أنه في تلك الليلة كان نائمًا معهم في القرية الفلانية، ويبقى هذا في السجن، كل ليلة جمعة ينتظر متي ينادي المنادي: أن اخرج لتقتل، وأمه تتجرع الغصص، كل ذلك لأنه ما حمل الإيمان كما ينبغي فوقع: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق حين يسرق

وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن»[(١)]

ليس هذا فحسب، فإليكم هذا الحدث الذي ذكره الشيخ سلمان العودة في كتابه: جلسة على الرصيف وأنصح باقتناء هذا الكتيب ليتبين لك أثر نقص الإيمان في موت القلوب.

ذكر أن فتاة تبلغ العشرين عامًا جاءت إلى إحدى المستشفيات وهي حامل، فوضعت مولودًا في أحسن صحة وأتمِّ حال، لكنها كانت في قلق دائم شديد، وارتباك ظاهر، مسودة الوجه، كثيرة البكاء، بها من الهمِّ ما بها، وبها من الغمِّ ما بها.

فطلبوا منها بعد أيام من الولادة أن تبعث لوليها ليخرجها من المستشفى، فارتبكت وبكت بكاءً مرًّا مستمرًا حتى كاد يغمى عليها من شدة البكاء.

فانفردوا بها في غرفة مستقلَّة وسألوها عن الأمر، ما الأمر؟

وما الخطب؟ وما الحدث؟

وبعد جهد جهيد قالت لهم بصوت متقطع وبقلب مليء بالحسرات والهموم والغموم: إن والد هذا الطفل هو أبوها نفسه، لا إله إلا الله! لا إله إلا الله ما أفظع الأمر! وما أقبحه!

والله! لو قيل: إن هذا وقع في الأمم السابقة لاستفظعناه ولاستبشعناه، ولقلنا: إنا لله وإنا إليه راجعون! والله لو كان في بلاد الكفر والعهر لاستعظمناه، فكيف إذا علمنا أنه في بيتٍ أهله ربما نطقوا بالشهادتين في كل يوم، وربما سمعوا آيات الله ثم انسلخت قلوبهم منها، فلم يعرفوا معروفًا، ولم ينكروا منكرًا؟!

ولا تستبعد مثل هذا -أخي المسلم- فلربما كانت البداية بنظرة خائنة هيَّجت الشهوة في نفسه، فوقع على ابنته، ولربما كان ذلك بأغنية ماجنة هيجت الشهوة في نفسه، فوقع على ابنته، ولربما كان ذلك بمشاهدة تمثيلية فاجرة هيجت الشهوة في نفسه، فوقع على ابنته؛ ولربما كان بشربة خمر أفقدته عقله فوقع على ابنته، وهكذا فالمعاصي يجر بعضها بعضًا، والسقوط شيئًا فشيئًا.

ورحلة الميل تبدأ بخطوة واحدة ... ومعظم النار من مستصغر الشرر

---

(١) متفق عليه: البخاري (٢٣٤٣)، ومسلم (٢١١).

سعادة البيوت والأسر

والإيمان هو الزمام والفيصل.

ومن آثاره على الحياة: سعادة البيوت والأسر، بيت يدخله الإيمان بيت سعيد؛ لا يُخْرج إلا السعداء بإذن رب الأرض والسماء؛ استعاض أهله عن الغناء بترتيل القرآن آناء الليل وأطراف النهار، واستغنوا عن المجلات الماجنة بتقليب المصحف وكتب السُّنة والكتب المفيدة، واستغنوا عن السجائر وما في حكمها من الخبائث بالسواك فطهروا أفواههم وأرضوا ربهم.

سعادة وأي سعادة، نساء هذا البيت مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات متحجبات ممتثلات لأمر رب الأرض والسماوات، يخرج الزوج المؤمن من البيت المؤمن فتقول الزوجة: اتق الله فينا ولا تطعمنا إلا حلالًا؛ فإنا نصبر على الجوع ولا نصبر على النار.

هذا بيت الإمام أحمد عليه رحمة الله يتربى على الإيمان، فاسمع إليه يوم يقول بعد أن توفيت زوجته أم صالح رافقتني أم صالح -يعني: زوجته- ثلاثين عامًا، والله ما اختلفت معها في كلمة واحدة.

إنه الإيمان يا أيها الأحبة.

وليس هذا فحسب، إن البيت المتربي على الإيمان يدرك الأطفال هذا الإيمان، فيدخل إلى قلوبهم السعادة ولو كانوا لم يحظوا من الدنيا بقليل ولا كثير.

إن الإمام أحمد كان دخله في الشهر سبعة عشر درهمًا فيأتي أبناؤه ويقولون. يا أبتاه! لا تكفينا، قال: أيام دون أيام، وطعام دون طعام، وشراب دون شراب، ولباس دون لباس حتى نلقى الله الواحد الأحد.

حذاؤه تبقى في رجله ثمانية عشر عامًا -كما ذكر ابنه عبد الله - كلما انخرمت خصفها، وأعادها إلى رجله؛ لأنه ركل زخارف الدنيا وهو يعلم أن مناديل سعد بن معاذ في الجنة خير من هذا.

البيوت المؤمنة تُخْرج أشبال الإيمان، والأسر التي تربت على الإيمان تخرج أشبال الإيمان، **وإليكم هذا المثل:**

عمر بن عبد العزيز عليه رحمة الله ورضوانه في يوم العيد، وهو خليفة المسلمين يدخل

رجال المسلمين ليهنئونه ويدعون له بقبول الصيام والقيام، ثم يذهب الرجال، ويدخل أطفال الرعية في هيئة حسنة وجميلة، وبينهم طفل من أطفال عمر ثيابه خَلِقَة وثيابه بالية، وميزانية الأمَّة كلها تحت يديه، ومع ذلك جعل الدنيا تحت قدميه، وربَّى في أهله الإيمان، ففازوا بأعظم حُلة؛ إنها حلة الإيمان.

يوم رأى ابنه في يوم العيد بين أطفال الرعية وهم في هيئة حسنة وهو في تلك الهيئة طأطأ رأسه وبكى، فقال هذا الطفل الصغير -والذي تربى على الإيمان-: أبتاه! ما الذي طأطأ رأسك وأبكاك، قال: يا بني -والله- ما من شيء إلا أني خشيت أن ينكسر قلبك يوم العيد بين أطفال الرَّعية، وأنت بهذه الهيئة وهم بتلك الهيئة.

فردَّ ردَّ الرجال المؤمنين، قال: أبتاه! إنها ينكسر قلب من عصى ربه ومولاه، وعقَّ أمه وأباه، أما أنا فلا والله.

فمن الذي علَّم هذا الطفل إلاّ الله الذي رزقه الإيمان من صغره فتربى على الإيمان، فكان منه ما كان.

الولاء والبراء

ومن آثاره -أعني الإيمان- على الفرد: الولاء الخالص للمؤمنين، والعداء لأعداء الدين ولو كانوا آباءً أو أبناءً أو إخوانًا أو عشيرة، ناهيك عن أن يكونوا من المغضوب عليهم والضالين والمجوس والذين أشركوا، وكلهم ضالون: ﴿ لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ﴾ [المجادلة: ٢٢].

ها هم صحابة رسول الله ﷺ حققوا هذا الأثر فظهر في تصرفاتهم وظهر في كلماتهم ومقالاتهم.

يقول ابن عمر: والله لو أنفقت أموالي كلها في سبيل الله، وصمت النهار لا أفطر، وقمت الليل لا أنام، ثم لم أصبح وأنا أحب أهل الطاعة، وأبغض أهل المعصية لخشيت أن يكبني الله على وجهي في النار ولا يبالي.

وخبيب رضي الله عنه وأرضاه: يُقدَّم لتضرب عنقه في ذات الله، فيقال له: أتحب أن محمدًا مكانك الآن، وأنك آمن في أهلك؟ فيقول: - وقد والى الله - والله ما أحب أن محمدًا يشاك بشوكة وأني آمن في أهلي.

وهكذا يفعل الإيمان.

وإذا نقص منسوب الإيمان وإذا تدنى ممنسوب الإيمان تدنى معه الشخص، تدنى إلى مرحلة البهيمية، فأصبح ولاء الإنسان تافهًا حقيرًا مهينًا.

يذكر ابن تيمية - عليه رحمة الله - أن رجلًا تعلق بامرأة سوداء فأحبها حبًّا جمًّا، فكان يقول يوم نقص منسوب الإيمان عنده:

عـــدو لـــن عـــادت وسِـــلم لأهلـــها ... ومـــن قـــرَّبت كـــان أحـــب وأقـــربَ

ليس هذا فحسب، بل قال مرة أخرى:

أحـــب لحـــبها الـــسودان حتـــى ... أحـــب لحـــبها ســـود الكـــلاب

صار الحب فيها، والبغض فيها، والولاء لها، والعداء لأعدائها، مع أن الأصل من أحب في الله، وأبغض في الله، ووالى في الله، وعادى في الله، وأعطى لله، ومنع لله، فقد استكمل الإيمان ولن ينال عبدٌ طعم الإيمان وإن صلَّى وصام حتى يكون كذلك.

العزة

ومن آثار الإيمان على حياة الناس: أنه يُكسب العزة التي تجعل الإنسان يمشي نحو هدفه مرفوع القامة والهامة، لا يحني رأسه لمخلوق، ولا يطأطئ رقبته لجبروت أو طغيان أو مال أو جاه، فهو سيد في الكون هذا وعبد لله وحده.

لا غرو إذا رأينا مؤمنًا أعرابيًا مثل ربعي بن عامر حين باشرت قلبه بشاشة الإيمان، وأضاءت فكره آيات القرآن، يقف أمام رستم في سلطانه وإيوانه غير مكترث له ولا عابئ به، حتى إذا سأله رستم: من أنتم وما الذي جاء بكم؟

زعق في الإيوان وأجاب إجابة في عزة مؤمنة خلدها التاريخ فقال: «نحن قوم ابتعثنا الله لنخرج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الآخرة، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام».

عزة وأي عزة! إنها لا توجد إلاّ في ظلال الإيمان.

أمَّـــة الـــصحراء يـــا شـــعب الخلـــود ... مـــن ســـواكم حـــل أغـــلال الـــورى

أي داعٍ قـــــبلكم في ذا الوجـــــود ... صـــاح لا كـــسرى هـــنا لا قيـــصرا

مـــن ســـواكم في قـــديم أو حـــديث	أطلـــع القـــرآن صـــبحًا للرشـــاد
هاتفًـــا في مـــسمع الكـــون العظـــيم	لـــيس غـــير الله ربًّـــا للعـــباد
فكـــروا في عـــصركم وانتـــبهوا	طالمـــا كنـــتم جَمَـــالاً للعُـــصُر
وابعـــثوا الـــصحراء عـــزمًا	وابعـثوا مـرة أخـرى بهـا روح عمـر

هاهو آخر قد آمن بالله حقًا، فأكسبه ذلك الإيمان عزة، جعل يتكلم في هشام بن عبد الملك الخليفة كلامًا غليظًا جافيًا، فأمر هشام بإحضاره، فلما وقف بين يديه جعل يتكلم، فقال هشام له: وتتكلم أيضًا في مجلسي؟! فقال: يقول الله جل وعلا: ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا ﴾ [النحل: ١١١]، أفنجادل الله جدالًا ولا نكلمك يا هشام؟!

فما كان من هشام إلا أن قال: قل ما شئت، ثم انصرف راشدًا، فقال ما شاء وانصرف راشدًا بعزة المؤمن: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [المنافقون: ٨].

إن العزّة أثر إيماني يُظهر صاحبه الحق، لا يخشى دون الله أحدًا، ليس هذا فحسب، وهاكم مثلًا آخر.

ذلكم الشيخ سعيد الحلبي عالم الشام في عصره، كان في درس من دروسه مادًّا رجله في مسجد من مساجد الشام، فدخل إبراهيم باشا ابن محمد علي باشا والي مصر آنذاك، فقام الناس كلهم إلاّ هذا الشيخ، وبقي مادًّا رجله في حلقته يلقي قال الله وقال رسوله ﷺ، فتأثر ذلك الطاغية، وأثّر ذلك في نفسه إذ لم يقم له هذا الشيخ، فقال في نفسه: لآتينه من باب لطالما أُتي طلبة العلم من هذا الباب.

فذهب وأضمر له ما أضمر، وأحضر ألف ليرة ذهبية -في وقت الشيخ قد لا يجد فيه ليرة واحدة- وقال لأحد جنوده: اذهب إلى الشيخ وأعطه هذه، فأخذ هذا الجندي ذلك المبلغ، وذهب به إلى الشيخ ولا زال مادًّا رجله في حلقته يدرس قال الله وقال رسوله ﷺ، ويكتسب العزة من خلال قال الله وقال رسوله.

فجاء إليه وقال: إن إبراهيم باشا يقول: خذ هذه الألف الليرة الذهبية.

فما كان منه إلا أن نظر إليه بعزة المؤمن، وتبسم تبسم المغضب، وقال: ردها له، وقل له: إن الذي يمد رجليه لا يمد يديه.

أنا أقول: ربما يكون الشيخ في تلك اللحظة لا يملك ليرة ذهبية واحدة، لكن كنز الإيمان أعظم وأغلى من أن يباع بألف ليرة أو بليرة أو بأقل أو بأكثر، وهكذا يكون المؤمنون: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [المنافقون: ٨].

وإن نسيت -أيها الأحبة- فلا أنسى سيدًا رحمه الله وتجاوز عني وعنه، الذي اعتزَّ بإيمانه، فصدع بكلمة الحق بلا استحياء ولا خجل، فحكم عليه بالقتل.

وطلبوا منه أن يقدم استرحامًا حتى يخفف عنه الحكم، ولكنه أبى رحمه الله وقال قولته الشهيرة: إن كنت حوكمت بحق فأنا أرضى بالحق، وإن كنت حوكمت بباطل فأنا أكبر من أن أسترحم الباطل، إن إصبعي السبابة التي تشهد لله بالوحدانية مرات في اليوم لترفض أن تكتب كلمة واحدة تقر بها حكم طاغية.

ماذا كان سيفعل سيد لولا الإيمان؟ يا للعزة! ويا للثبات!

﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

سعة الرزق وانشراح القلب وتوكله

ومن آثار الإيمان: سعة الرزق لأهل الإيمان والبركة فيه.

المؤمن -أيها الأحبة- لا يذهب منه ريال في شراء ما يغضب الله جلا وعلا، لا يذهب منه ريال في شراء دخان، وما في حكم الدخان من الخبائث، ولا يذهب منه ريال في شراء فيلم مفسد أو مجلة أو جريدة مفسدة؛ لأنه يعلم أنه مسئول أمام الله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، فيصون رزقه عن الربا، وعن الغش، وعن الحِيَل، وعن المكر والخداع، ويجند رزقه فيما يرضي الله جل وعلا، فيرزقه الله ويبارك الله له: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

ومن آثار الإيمان: صدق التوكل على الله، وتفويض الأمور إلى الله جل وعلا، والاعتماد عليه في السعي في هذه الحياة، واستمداد العون منه في الشدة والرخاء؛ فالمؤمنون يجدون في توكلهم على الله راحة نفسية، وطمأنينة قلبية، إن أصابهم خير حمدوا الله جل وعلا وشكروه، وإن أصابتهم شدة صبروا وشكروا، ولسان حالهم ومقالهم: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝ ﴾ [التوبة: ٥١]. ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ﴾ [إبراهيم: ١٢].

هاهو خالد بن الوليد المؤمن الحق بإذن الله يُقَدَّم له في يوم من الأيام سم من قِبَل

طاغية من الطغاة، ويقول له هذا الكافر: إن كنتم صادقين في التوكل على الله جل وعلا واللجوء إليه، والثقة به، فاشرب هذه القارورة من السم.

فما كان من خالد رضي الله عنه إلا أن أخذها وقال: «باسم الله، توكلت على الله، ثقة بالله سبحانه وتعالى» ثم شربه، فلم يصبه إلا العافية: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ [الطلاق: ٣] نعم أجر العاملين: ﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [النحل: ٤٢].

ومن آثار الإيمان: انشراح الصدر، وطمأنينة القلب: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ﴾ [الزمر: ٢٢]، المؤمن منشرح الصدر، مطمئن القلب، قد آمن بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًا، فذاق حلاوة الإيمان، فانشرح صدره.

هاهو أحد المؤمنين يقول -وقد انشرح صدره للإيمان فتلذذ بهذه العبادات التي هي من الإيمان-: والله لولا قيام الليل ما أحببت البقاء في هذه الدنيا، ووالله إن أهل الليل في ليلهم مع الله ألذ من أهل اللهو في لهوهم، والله إنه لتمر بالقلب ساعات يرقص فيها طربًا بذكر الله حتى أقول: إن كان أهل الجنة في مثل ما أنا فيه إنهم لفي نعيم عظيم.

تلذذوا بالإيمان، وذاقوا حلاوة الإيمان فانشرحت صدورهم.

والآخر يقول: والله لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه من السعادة لجالدونا عليها بالسيوف.

والعكس بالعكس؛ من نقص إيمانه كانت حياته ضنكًا، وكان صدره ضيقًا حرجًا كأنما يصَّعد في السماء، وصدق الله: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾ [طه: ١٢٤].

من آثار الإيمان على الحياة بعمومها

ومن آثار الإيمان على الحياة بعمومها: نجاة سفينة الأمة، ووصولها لبر الأمان نتيجة للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي هو من الإيمان، بل هو عماد من أعمدة الإيمان.

فالحياة كلها سفينة تمخر عباب البحر، لا تكاد تسكن حتى تضطرب، ولن يكتب الله السلامة لها فوق الموج المضطرب حتى يكون كل شخص منها على حذر مما يفعل، ويقظة لما يريد.

والمجتمع كالسفينة يركب ظهرها البَرُّ والفاجر، والمتيقظ والغافل، وطالب العلم والجاهل، هذا يصلح وذاك يحرق ويفسد، والمؤمن بإيمانه هو الصالح المصلح، يجاهد بأمره ونهيه وإصلاحه، فإن تحطمت السفينة بعد ذلك فشتان بين غريق وغريق؛ غريق في جهنم، وغريق في الجنة شهيد بإذنه ربه.

ومن آثار الإيمان: حفظ الجوارح، وتذليلها لطاعة الله، وانقيادها لأوامر الله.

حفظ القلب من الشهوات والشبهات، وحفظ اللسان من الغيبة والنميمة والوقوع في أعراض المسلمين والإفساد، وحفظ السمع إلا من كتاب الله، وذكر الله، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وما أباحه الله، وحفظ البصر من إطلاقه فيما حرَّم الله؛ ليجد بعد ذلك حلاوة إيمانه إلى أن يلقى الله، وحفظ البطن فلا يدخله إلا ما أحله الله، والله طيب لا يقبل إلا طيبًا، فالمؤمن بإيمانه يحفظ جوارحه، والله خير حافظًا وهو أرحم الراحمين.

ومن آثار الإيمان على الحياة: آثاره على المجالس، حيث يجعلها رياضًا من رياض الجنة، ملائكة تحفُّ، ورحمة تتنزل، وسكينة تغشى، ورب رحيم كريم يقول: انصرفوا مغفورًا لكم، قد بدلت سيئاتكم حسنات، فيا لله ما أعظمها من مجالس! وما أعظم جالسيها ومرتاديها، جعلنا الله وإياكم من أهلها!

الإيمان واللحظة الأخيرة

ومن آثاره على الحياة: آثاره في تلك اللحظة الأخيرة، في تلك اللحظة الحاسمة، في لحظة الموت العصيبة المريرة التي لا يثبت فيها إلا المؤمنون، يوم يعتقل اللسان، ولو لم يعتقل لصاح الميت من شدة ما يلاقي من السكرات حتى تندك جدران الغرفة التي هو فيها، يوم يخدر الجسم، ولو لم يخدر لما مات أحد على فراشه، ولما مات إلا في شعب الجبال ورءوسها؛ من شدة ما يلاقي من السكرات.

اللحظة التي صورها من عاناها بأبي هو وأمي ﷺ يوم يغمى عليه ويصحو، ويقول: «**لا إله إلا الله، إن للموت لسكرات**»[1]، لحظة عاناها رسول الله ﷺ، وعاناها صحابة رسول الله ﷺ ووصفها أحدهم وهو عمرو بن العاص رضي الله عنه وأرضاه فقال وهو

(١) صحيح: البخاري (٤١٨٤)، (٦١٤٥).

في اللحظات الأولى من لحظات السكرات، ولا زال لسانه لم يعتقل، ولا زال جسمه لم يخدر: «والله لكأن على كتفي جبل رضوى، وكأن في جوفي شوكة عوسج، وكأن روحي تخرج من ثقب إبرة، وكأن السماء أطبقت على الأرض وأنا بينهما».

في هذه اللحظات المريرة العصيبة يأتي أثر الإيمان واليقين، فيلهمك الله النطق بالشهادتين: «**من كان آخر كلامه من الدنيا لا إله إلاّ الله دخل الجنة**» (١)

في تلك اللحظات يأتي المؤمنون فيسعدون بتلك اللحظات؛ لأنهم يعلمون أنها آخر عناء وتعب، وآخر نَصَب ووصب، ليس هذا فحسب، بل تستقبلهم الملائكة، بل تبشرهم الملائكة، فلا خوف ولا حزن: ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾** ﴾ [فصلت: ٣٠، ٣١].

هاهو عمر بن عبد العزيز عليه رحمة الله في سكرات الموت يقول: مرحبًا بالوجوه ليست بوجوه جن ولا إنس، ثم يطلب ممن حوله أن يخرجوا، وإذا به يقول: ﴿ **تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾** ﴾ [القصص: ٨٣]، ليلقى الله عز وجل على ذلك.

وأحدهم بلغت به سكرات الموت مبلغًا فيقولون له: قل: لا إله إلا الله -وهو من الصالحين ولا يزكى على الله- فكان يقول: ﴿ **قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾** ﴾ [يس: ٢٦، ٢٧].

ليلقى الله على تلك الحال: ﴿ **يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾** ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

ومؤذن لطالما رفع الأذان من على المنائر كل يوم خمس مرات يختمها بلا إله إلا الله، وهو في منطقة الجنوب، وفي تلك اللحظات الأخيرة من حياته يغمى عليه إغماءة مستمرة، فما كان يفيق إلا في وقت الصلاة، فإذا جاء وقت الصلاة قام وأذن حتى يقول: لا إله إلا الله، ثم يعود إلى إغمائه، وفي مرة من المرات، يفيق من إغمائه ويقول: يا بني -وابنه معه- أحان وقت الصلاة؟ قال: نعم، فقال: الله أكبر، الله أكبر.

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٣١١٦)، وأحمد (٢٢١٨٠)، والألباني في «المشكاة» (١٦٢١)، وفي «صحيح الجامع» (٥١٥٠).

حتى ختمها بلا إله إلا الله، ليلقى الله على تلك الحال: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ﴾.

وفي المقابل تجد الذين لا إيمان لهم في تلك اللحظات، الذين لم ينضبط سلوكهم قد ضيق الله عليهم، وعسَّر أمورهم، وأوغر صدورهم، ثم لا يُلْهمون الشهادة ليختموا بها حياتهم، فيا لها من سوء خاتمة!

هاهو شاب في سكرات الموت، يقولون له: قل: لا إله إلا الله -ولطالما دنَّس فمه بشرب الدخان- فيقول: أعطوني دخانًا، فيقولون: قل: لا إله إلا الله، فيقول: أعطوني دخانًا، أعطوني دخانًا، فيقولون: قل: لا إله إلا الله عله أن يختم لك بها، قال: أنا بريء منها، أعطوني دخانًا، ليلقى الله على تلك الحال، نسأل الله حسن الخاتمة.

وشاب أخر -كما ذكر الشيخ سلمان -: كان صادًّا نادًّا عن الله جل وعلا، وحلَّت به سكرات الموت التي لابد أن تحل بي وبك، لا أدري أقريب أم بعيد؟ ونسأل الله أن يحسن لنا ولكم الختام، جاء جلاسه وقالوا: قل: لا إله إلا الله، فيتكلم بكل كلمة ولا يقول لا إله إلا الله، ثم يقول في الأخير: أعطوني مصحفًا، ففرحوا واستبشروا وقالوا: لعله يقرأ آية من كتاب الله، فَيُختم له بها، فأخذ المصحف ورفعه بيده، وقال: أشهدكم أني قد كفرت برب هذا المصحف، ثم يلقى الله على ذلك، نسأل الله أن يحسن لنا ولكم الختام: ﴿ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

من آثار الإيمان بعد الموت

ومن آثار الإيمان: السكينة والثبات في القبر يوم تطرح وحيدًا فريدًا لا أنيس ولا صاحب ولا قريب ولا حبيب ولا خليل، يوم تكون مع أهلك في ليلة تفترش الوثير، وتشرب النمير، وإذ بك في ليلة أخرى تفترش التراب مرتهنًا بعملك، فيا لذلك ويا لحسرتك إن كنت محسنًا تريد الزيادة، وتعض أصابع الندم على ما فرطت، وإن كنت مسيئًا ندمت على التفريط، وأنَّى لك بالندم أن ينفعك في تلك اللحظة؟

وأنت على هذه الحال -يا أيها المؤمن- تأتيك نعمة الإيمان فيثبتك الله ويلهمك الإجابة على الأسئلة الثلاثة: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيك؟ ثم بعدها يُفتح لك باب إلى الجنة؛ لتنعم من رَوحِها وطيبها، جعلنا الله وإياكم من سكانها.

أحد الشباب يأتيني في يوم جمعة ويقول: يا شيخ! رأيت أخي الذي مات قبل فترة في

المنام، وأحببت أن أذكِّرك بهذا لتذكُّر الناس بمثل هذه الرؤيا، قال: فقلت لأخي لما رأيته في المنام: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي ورحمني فله الحمد والمنَّة أولًا وآخرًا، وظاهرًا وباطنًا، قلت: فبم توصينا؟ قال: أوصيكم بتقوى الله، وألا تناموا ليلة من الليالي إلا وقد تعبت أقدامكم من الوقوف بين يدي الله، واحمرَّت أعينكم بكاءً من خشية الله؛ فو الله ما نفعنا هنا بعد رحمة الله إلا تلك الأعمال.

وتأتي آثار الإيمان يوم القيامة، يوم يبعثر ما في القبور، ويُحصَّل ما في الصدور، يوم تبيض وجوه وتسودُّ وجوه: ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ﴾ [آل عمران: ٣٠]، ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ ﴾ [عبس: ٣٤- ٣٧].

يوم يسأل كل إنسان «عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وعن علمه ماذا عمل به» [(١)]، يوم يجمع الله الخلائق وأنت منهم، علويّهم والسفلي، أولهم والآخر، ذكرهم والأنثى، حفاة عراة، قلقين فزعين، قد دنت الشمس منهم قدر ميل، قد بلغ العرق منهم الحناجر، ثم يقول الله: «**يا آدم! فيقول: لبيك وسعديك، فيقول الله: أخرج بعث النار من ذريتك، قال: يا رب! وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون**» [(٢)]

يومها يشيب الصغير، وتذهل كل مرضعة عما أرضعت، وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد، عندها تجد المؤمنين تحت ظل الرحمن يوم لا ظل إلا ظله، آمنين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، اللهم اجعلنا منهم يا رب العالمين!

ثم تظهر آثار الإيمان عند الميزان: يوم تعرض السجلات سجلًا سِجلًا، وصفحة صفحة، وكلمة كلمة، ولحظة لحظة، ويومًا يومًا لا تغادر صغيرة ولا كبيرة، يوم ينادى على رءوس الخلائق لقد سعد فلان ابن فلان سعادة لا يشقى بعدها أبدًا.

وتظهر آثار الإيمان يوم يعبر على الصراط والناس يتساقطون في النار تساقط الفراش على الشهاب.

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٤١٧)، والألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٢٦).

(٢) متفق عليه: البخاري (٣١٧٠) (٤٤٦٤)، ومسلم (٥٥٤) (٧٥٦٨).

وتظهر آثار الإيمان يوم يقول الله: ﴿ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ ۝ ﴾ [الزخرف: ٧٠]، فإلى ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر: ﴿ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٌ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٍ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝ ﴾ [السجدة: ١٧].

فيا بائعًا هذا ببخس معجل ... كأنك لا تدري بلى سوف تعلمُ

فإن كنت لا تدري فتلك مصيبة ... وإن كنت تدري فالمصيبة أعظمُ

هذه بعض آثار الإيمان على الحياة، هي غيض من فيض، وقطر من بحر، فإن كنت تريد الآخرة فالطريق الإيمان، وإن كنت تريد الدنيا فالطريق الإيمان، وإن كنت تريد الله والدار الآخرة والدنيا معًا فالطريق الإيمان.

عار أيما عار -يا عبد الله- أن تعيش عشرين عامًا أو خمسين أو أقل أو أكثر بلا إيمان، ثم تستقبل الآخرة بلا بطاقة لا إله إلا الله، ولا جواز: ﴿ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ ۝ ﴾ [الزخرف: ٧٠].

فيا ساهيًا في غمرة الجهل والهوى ... صريع الأماني عن قليل ستندم

أَفِقْ قد دنا الموت الذي ليس بعده ... سوى جنة أو حر نار تَضَرَّم

وتشهد أعضاء المسيء بما جنى ... كذاك على فِيهِ المهيمن يختم

فحي على جنات عدن فإنها ... منازلنا الأولى وفيها المخيَّم

وحي على روضاتها وخيامها ... وحي على عيش بها ليس يُسْأَم

اللهم إنا نسألك بأسمائك الحسنى وصفاتك العلا، وباسمك الأعظم الذي إذا دُعيت به أجبت، وإذا سُئلت به أعطيت، أن ترزقنا إيمانًا نجد حلاوته، وقلوبًا خاشعة، وألسنة ذاكرة، وأعينًا من خشيتك مدرارة.

اللهم حبِّب إلينا الإيمان وزيِّنه في قلوبنا، وكرِّه إلينا الكفر والفسوق والعصيان واجعلنا من الراشدين.

اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهوِّن به علينا مصائب الدنيا.

اللهم أبرم لهذه الأمة أمر رشد يُعَزُّ فيه أهل طاعتك، ويُذلُّ فيه أهل معصيتك، ويُؤمر

فيه بالمعروف وينهى فيه عن المنكر يا سميع الدعاء!

اللهم انفعنا بها قلنا، اللهم انفعنا بها سمعنا، اللهم واجعله حجَّة لنا، اللَّهم احفظنا من بين أيدينا ومن خلفنا وعن أيماننا وعن شمائلنا ومن فوقنا ونعوذ بك اللهم أن نغتال من تحتنا.

اللهم أنت ملاذنا، اللهم أنت ملجؤنا، اللهم أنت حسبنا فلا تَكِلْنا إلى أنفسنا طرفة عين، أنت حسبنا ونعم الوكيل.

اللهم كما جمعتني بأحبتي في هذه الروضة في هذه الليلة على ذكرك، فاجمعني بهم إخوانًا على سُرُرٍ متقابلين.

هذه محاضرتي عليكم ألقيت ... فلعلها موقظة الوسنان

آتِ فيها من جديد مُحْدَثٍ ... لم غير اختيار اللفظ يا إخواني

فإذا أسأت فذاك من كسبي ... وإن أحسنت ذا فضل من المنان

وأهدي صلاتي والسلام جميعه ... لأحب خلق الله بالأكوان

أسأل الله عز وجل أن ينفعنا وإياكم بالقليل، وأن يبارك لنا فيه، وأن يجمعنا بكم مرات ومرات ومرات، ثم يجمعنا في دارٍ:

قصورها ذهب والمسك طينتها ... والزعفران حشيش نابت فيها

سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين، وسبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت.



[١٢] الأمر بالمعروف

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله، أرسله الله رحمة للعالمين؛ فشرح به الصدور، وأنار به العقول، وفتح به أعينًا عميًا، وآذانًا صمًا، وقلوبًا غلفًا، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان وسلم تسليمًا كثيرًا.

يا أمة الحق والآلام مقبلة	متى تعين ونار الشر تستعر
متى الفواق وقد ضمت مصيبتنا	متى الخلاص وقد لمت بنا العبر
متى يعود إلى الإسلام مسجده	متى يعود إلى محرابه عمر
أكل يوم يرى للدين نازلة	وأمة الحق لا سمع ولا بصر

عباد الله....

ونحن نعيش زمنًا عصيبًا... ووقتًا دقيقًا وحرجًا... يتعلق بمصير أمتنا... أقول: إن النجاة في انقيادنا لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ؛ فلقد كتب الله لهذه الأمة حين تحيد عن كتاب الله أن تتقلب في ثنايا الإهانات... وتتنقل من هزيمة إلى هزيمة.

فلنرفع الغطاء عن أعيننا، ولنكن صرحاء مع أنفسنا، كفانا نكبات، وكفانا كوارث، وكفانا نكسات، وكفانا تلمس النصر في ثنايا البشر من دون الله، كفانا كوننا عن كتاب الله بعيدين، وعن سنة رسوله ﷺ حائدين، ولنعُد إلى الحق المبين، فاسمعوا إليه يوم يقول: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ ﴾ [التوبة: ٧١].

ألا فاتقوا الله حق تقواه يا عباد الله! واعلموا أن من أسباب النجاة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن أسباب السقوط والهلاك: السكوت عن المنكرات، قال تعالى: ﴿ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ ﴾ [الأعراف: ١٦٥].

الأمر بالمعروف من خصائص هذه الأمة

ألا فاعلموا أن من أعظم خصائص أمتنا أنها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وأن علماءها يغضبون إذا انتُهكت محارم الله، ودعاتها يشتاطون غيظًا وغضبًا لانتهاك حدود الله، فهي المأمورة بقوله تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

ألا فلتكن طائفة تقف على حدود الله؛ ترعى المجتمع، تنظر لأحوال الأمة لا تسمح للجريمة، غَضِبَ مَنْ غضب ورَضِيَ مَنْ رضي، ليكن منكم علماء ودعاة يقفون أمام الشرور والمنكرات، يؤدون رسالة الله؛ ليرحمنا الله عز وجل: ﴿ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ﴾ [التوبة: ٧١].

يوم يترك الأمر بالمعروف، فلنعلم أننا نحارب الله، ولنعلم أن غضب الله قد طوَّقنا، وأن سخط الله قد قرب منا.

فإن تمادَتْ بنا الأهواء والخور فهي العقوبة لا تُبقي ولا تذر

ما نتيجة أن يقر الناس على الجريمة، ويسكت على الفاحشة، ويقدم العاصي، ويؤخر المؤمن المرضي الراضي؟

ما نتيجة ترك الصلوات؟ وتعاطي المخدرات؟

والركون إلى الذين ظلموا وسماع الأغاني الماجنات، والجري وراء الشهوات، والمجاهرة بكل هذه المنكرات؟

ما نتيجة الرضا بكل هذه المنكرات، وما نتيجة السكوت على هذه المنكرات؟

إن نتيجة ذلك ومعناه سوف تختل الأمور، ويغضب الله وملائكته، معناه: أن البركة نزعت؛ لأننا سمعنا ورأينا وسكتنا، فما حرَّكنا ساكنًا، وإلا لماذا كنا خير أمة أخرجت للناس؟ كنا كذلك بالأمر والنهي؛ نأمر بالمعروف بالمعروف، وننهى عن المنكر بالمعروف، وإلا فإن العذاب والسوء ينتظرنا.

عاقبة التهاون في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

في الأثر: «أن الله جل وعلا أوحى إلى جبريل -عليه السلام-: أن اقلب مدينة سبأ على من فيها -وجبريل كما تعلمون أعطاه الله قوة هائلة، يقتلع الجبال والوديان والثغور والأشجار

والأحجار، وله ستمائة جناح، بجناح واحد حمل أربع قرى- فرفعها إلى السماء حتى سمعت الملائكة نباح كلابهم، ثم رماهم، فجعل عاليهم سافلهم، أرسله الله إلى هذه المدينة ليقلبها على من فيها، فقال: يا رب إن فيها عبدَك فلانًا، لم يعصِك طرفة عين، قال الله: فبه فابدأ؛ لأنه لم يتمعَّر وجهه فيَّ قط» (١)

لا إله إلا الله! يصلي ولم يعصِ الله طرفة عين، لكنه يرى المنكر فلا يغار، ويسكت عليه، فنزل جبريل، فأخذه بطرف جناح من معبده، فجعله في أول موكب المعذبين، ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾ [هود: ١٠٢]، ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ﴾ [المائدة: ٧٨]، لم لعنوا؟ ﴿ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ۝ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩].

ذاك في بني إسرائيل، لكن والله قد وجد في مجتمعاتنا من يدعو إلى عدم التكلم عن الجرائم والمنكرات، وعدم تشخيصها وتحذير الأمة منها، ووالله ما حصل ذلك إلا وهلكت الأمة، وذهبت إلى الدمار، والعار، والنار: ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ۝ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾

الزنا ودور الخمر فشت، وقطيعة الرحم والعقوق ذاعت، وتَفْويت الجماعات شاع، والتطفيف في المكيال والميزان زاد، والضغينة والمنكرات فاحت رائحتها، وعلماء بني إسرائيل ساكتون، صامتون، ملجمون، لماذا سكتوا؟ رغبةً أم رهبةً، والسكوت دائمًا إما رغبة وإما رهبة؛ إما رغبة في حطام فانٍ أو منازل ومناصب، أو وظائف لا تسمن ولا تغني من جوع، وإما رهبة من سوط وقسوة بعض الظلمة، فسكتوا، فماذا كان الجزاء؟

قال سبحانه: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ﴾ [المائدة: ١٣].

قال أهل العلم: كان في الميثاق الذي أخذ عليهم: أن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر.

---

(١) ضعيف جدًّا: أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٧٥٩٥)، و«مجمع الزوائد» (١٢١٥٦)، والألباني في «الضعيفة» (١٩٠٤).

صح عنه ﷺ أنه قال في حديث ابن مسعود الذي رواه الترمذي: «**إنما دخل النقض على بني إسرائيل أنه كان إذا لقي أحدهم أخاه وهو على الفاحشة، قال له: اتق الله، ثم لا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وقعيده وشريبه، فلما فعلوا ذلك لعنهم الله، وعمَّهم بعقاب وغضب من عنده**»، وكان ﷺ متكئًا فتربع، وجلس، وقال: «**كلا والذي نفسي بيده، لتأمرنَّ بالمعروف، ولتنهَوُنَّ عن المنكر، ولتأخذن على يد السفيه، ولتأطرنه على الحق أطرًا**[1]**، أو ليضربن الله قلوب بعضكم ببعض، ثم يلعنكم كما لعنهم**»[2]

لا إله إلا الله! نعوذ بالله من لعنة الله، وغضب الله: «**لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، أو ليسلطن الله عليكم من لا يرحم صغيركم ولا يوقر كبيركم**»[3]، «**لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر، أو ليسلطن الله عليكم شراركم، فيدعوا خياركم فلا يستجاب لهم**»[4]

أترضون أن يعم الشر؛ فيُؤخَذ الصالح والطالح، وأن تنزل لعنة الله، وإذا تنزلت لا ترفع؟!

أترضون أن يمقتنا الله من فوق سماواته؟!

أين الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟!

أما اتكلنا على غير الله؟ أما عمت الشعوذة والخرافة في بعض القرى والبوادي؟ أما انتشر الفحش؟ أما استبدل القرآن في بيوت كثير من الناس بالأغنية؟ أما عوض في متاع القرآن باللهو والمجون؟ أما ضيعت الصلوات- إلا في بيوت من رحم الله-؟ أما تُهُوِّنَ بالجماعات؟ أما انتشر الربا وسُكت عليه؟ أما قطعت الأرحام؟ أما أُعلن الإلحاد؟ أما سُبَّ الإله؟ أما سُبَّ محمد ﷺ؟ أما قُتِّل المسلمون؟ أما أُحييت الليالي على الماجنات من المغنين والمغنيات على (هل رأى الحب سكارى مثلنا)، (ارفع ستار الخجل)، وغيرها من الترهات

---

(١) أطرًا: قصرًا وإلزامًا.

(٢) **ضعيف**: أخرجه ابن ماجه (٤٠٠٦)، والترمذي (٣٠٤٧)، وأبو داود (٤٣٣٦)، وأحمد (٣٧١٣)، والألباني في «الضعيفة» (١١٠٥).

(٣) انظر «كنز العمال» (٨٤٦٤).

(٤) **ضعيف**: أخرجه البزار في «مسنده» (١ / ١٣٥)، والطبراني في «الأوسط» (١٣٧٩)، والألباني في «الضعيفة» (٤٢٩٨).

والخزعبلات؟ أما أُخذ الميراث؟ أما عُقَّ الوالدان؟

ولم يؤخذ على أيدي هؤلاء والدعاة مئات ومئات، والعلماء كذلك، والجامعات والمعاهد والمدارس تخرج؟

مسئولية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

فيا طلبة العلم! ويا أيها العلماء! ويا دعاة الإسلام! هذا وقت الأمر والنهي، من يأمر وينهى إن لم تأمروا وتنهوا؟ إنا لا ندعو لمضاربة الناس، ولا لشتمهم، ولا لجرح شعورهم، ولا للتشهير بهم، حاشا وكلا، لكن ندعو إلى إنقاذ الناس من الضلالة، ندعو إلى إنقاذ الناس من النار؛ ندعو إلى أخذ الناس لمركب النجاة، ندعو إلى الأخذ بحبل الله؛ بكلمة الحق في أي مكان، بالنصيحة في الشارع، بالقدوة الحسنة، بالزيارات.

يقول محمد ﷺ: «**من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده؛ فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**»[(١)]، وفي رواية: «**وليس بعد ذلك مثقال حبة خردل من إيمان**»[(٢)]

وعن عبادة بن الصامت -رضي الله عنه وأرضاه- قال: «بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في المنشط والمكره، والعسر واليسر، وأن نقول في الله لا تأخذنا فيه لومة لائم[(٣)]، فمنا من وفى بذلك؛ فأجره على الله».

ألا لا تأخذ المسلم في الله لومة لائم، يغضب مَنْ يغضب إذا رضي الله، ويسخط من يسخط إذا رضي الله «**من أرضى الناس بسخط الله: سخط الله عليه وأسخط عليه الناس، ومن أرضى الله بسخط الناس: رضي الله عليه وأرضى عليه الناس**»، والله إذا علم منك أنك تريد إرضاءه، أرضى عنك الناس، وحماك وسددك وكفاك وآواك.

ألا فاحفظ الله يحفظك، واحفظ الله تجده تجاهك، تعرَّف على الله في الرخاء، يعرفك في الشدة.

صح عنه ﷺ أنه قال: «**مثل القائم في حدود الله**- أي: الذي يأمر وينهى- **والواقع**

---

(١) صحيح: مسلم (١٨٦).

(٢) صحيح: مسلم (١٨٨) بنحوه.

(٣) متفق عليه: البخاري (٦٧٧٤)، ومسلم (٤٨٧٤).

فيها، كمثل قوم استهموا في سفينة، فكان قوم أعلاها، وقوم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا الماء مروا على الذين في أعلاها، فظنوا أنهم آذوهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في الجانب السفلي لما آذينا الذين فوقنا»، ثم قال عليه الصلاة والسلام: «**فإذا تركوهم هلكوا وهلكوا جميعًا، وإذا أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعًا**»[1].

وهذا مثل من يترك المفسدين الفجرة الذين يلعبون بالأعراض والمبادئ والقيم، ويقول: نفسي نفسي، يصلي ويخرس كالشيطان الأخرس، من بيته إلى المسجد، ويرى الأمم، ويرى الأجيال، والشباب تائهين، ضائعين، حائرين، ثم لا يقول هذا هو الطريق؛ ليبقى وديعًا، هادئ البال، مطمئنًا مرتاحًا.

من كلف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يرى الجرائم ولا يتكلم بكلمة، أما -والله- لو أن أحدنا أمر بأمر بسيط، أو نهى عن منكر في اليوم الواحد بالتي هي أحسن لصلح حالنا.

شروط الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

من ننتظر أن يصلح حالنا إذا ما أصلحنا؟ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ [الرعد: ١١]. لكن يشترط في من يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر شروط:

أولها: أن يكون أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر خالصًا لله، لا يبتغي الأجر إلا من الله، لا ليقال أمر ونهى؛ فإن الله سوف يرد عليه مقاصده، ولا يجعل لدعوته أثرًا ولا فائدة ولا نفعًا، وأن يكون ذا علم، وذا بصيرة وحكمة: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ [النحل: ١٢٥]، وأن يكون عاملًا بما يقول، وما أقبح من ينهى الناس، وهو واقع فيما ينهى عنه! لن تقبل دعوته.

لا تنه عن خلقٍ وتأتي مثله ... عارٌ عليك إذا فعلت عظيمُ
ابدأ بنفسك فانهها عن غيِّها ... فإذا انتهت عنه فأنت حكيمُ

وأن تكون الدعوة بالتي هي أحسن؛ بالتحبب إلى القلوب، بشراء الأرواح، إن الذي يأتي ليغير منكرًا بمنكر ما فعل شيئًا، بل أعان الشيطان على أخيه.

---

(١) صحيح: البخاري (٢٣٦١).

إن من يجرح ويفضح الناس، ويشتم الناس، ويسب الناس، لن يجد أثرًا لدعوته، يقول الإمام الشافعي -وهو يعلن مبدأ عظيمًا من مبادئ الدعوة إلى الله-:

تعمدنـــي بنُـــصحكَ في انفـــراد	**وجَنِّبْنِـــي النَّـــصِيحةَ في الجماعـــة**
فـــإن النـــصحَ بـــين الـــناسِ نـــوعٌ	**مـــن التوبـــيخِ لا أرضـــى اســـتماعَه**
فـــإن خالفـــتني وعـــصيتَ أمـــري	**فـــلا تجـــزع إذا لم تُعْـــطَ طاعـــة**

صور من معاناة السلف الصالح في الأمر والنهي

ألا يا عباد الله....

مروا بالمعروف ولا تخشوا إلا الله... لا خير فيكم إن لم تقولوا كلمة الحق... ولا خير في من لم يسمعها... ولا تظنوا أن الطريق مفروش بالورود لمن أمر ونهى... إنه طريق محمد ﷺ أوذي فيه... ووضع سلا الجزور على ظهره... ووضع الشوك في طريقه... وأُدمي عقباه... وشُجَّ وجهه... وكسرت رباعيته؛ فما ضعف وما استكان وما هان... وما كان له ذلك... وللدعاة من بعده قدوة فيه ﷺ

الأوزاعي مع عبد الله بن علي

هاهو عبد الله بن علي الحاكم العباسي عم أبي جعفر المنصور يوم دخل دمشق محتلًا؛ دخلها في يوم واحد فقتل ثمانية وثلاثين ألف مسلم في ست ساعات؛ كان من جبابرةِ الدنيا، حتى إنه أدخل الخيول في مسجد بني أمية.

ثم دخل قصره وقال: من يعارضني فيما فعلت؟

قالوا: لا يعارضك أحد.

قال: أترون أحدًا من الناس يمكن أن ينكر عليَّ.

قالوا: لا يمكن أن ينكر عليك أحد إلا الأوزاعي -عالم الدنيا في ذلك الوقت، الزاهد المحدث الكبير- قال: عليَّ بالأوزاعي.

فلما نُودِي الأوزاعي؛ علم أن الموت ينتظره، وأن الله أراد أن يبتليه؛ إما أن ينجح، أو يرسب رسوبًا ما بعده رسوب؛ علم أن الله أراد أن يمتحنه ليصبر، أولا يصبر، فقالوا: للأوزاعى إن عبد الله بن علي يدعوك لمقابلته اليوم، والدماء لا زالت تجري على أرض دمشق لم تجف.

فماذا كان من هذا العالم الزاهد؟

لبس أكفانه بعدما اغتسل، ثم لبس ثيابه من على أكفانه، ثم أخذ عصاه، وخرج من بيته، وقال: يا ذا العزة التي لا تُضام، والركن الذي لا يُرام، يا من لا تُهزَم جنوده، ولا يُغلب أولياؤه، اللهم أنت حسبي ومن كنت حسبه فقد كفيته، ثم دخل.

وقبل أن يدخل سمع عبد الله بن علي به فصف وزراءه وأمراءه ميمنة وميسرة، ليُرهب هذا العالم، ثم مد سماطين من الجلود، ثم أمرهم أن يرفعوا السيوف حتى التقت رءوسها، ثم قال: أدخلوا الأوزاعي.

فدخل من بين السيوف، فلما دخل، ووقف عند عبد الله بن علي، غضب هذا الأمير غضبًا حتى انعقد جبينه، قال: أأنت الأوزاعي؟

قال: يقول: الناس أنِّي الأوزاعي، وقال الأوزاعي في هذه اللحظة: والله ما رأيته إلا كأنه ذباب أمامي، يوم أن تصورت عرش الرحمن بارزًا يوم القيامة، وكأن المنادي ينادي: ﴿ فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ ﴾ [الشورى: ٧]، والله ما دخلت قصره إلا وقد بعت نفسي من الله عز وجل.

قال الأمير: ما ترى في هذه الدماء التي سفكنا؟

قال: حدثني فلان بن فلان عن فلان عن جدِّك عبد الله بن عباس: أن الرسول ﷺ قال: «**لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث؛ الثيب**[1] **الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة**»[2]، فغضب حتى أصبح كالحية يتلظى، قال: ورأيت الوزراء يرفعون ثيابهم؛ لئلا يصيبهم دمي إذا قُتلت، قال: وأخذت أرفع عمامتي ليقع السيف على رقبتي مباشرة، قال: فرفع رأسه.

فقال: ما ترى في هذه الأموال التي أخذت، وهذه الدور التي اغتصبت؟

قال: قلت: سوف يجردك الله يوم القيامة، ويحاسبك عريانًا كما خلقك؛ فإن كانت حلالًا فحساب، وإن كانت حرامًا فعقاب.

قال: فتلمظ كالحية، ورأيت الناس يتحفزون لئلا يقع دمي عليهم، قال: وكنت أقول

---

(١) **الثيب**: من سبق له الزواج، ذكرًا كان أم أنثى.

(٢) **صحيح**: البخاري (٦٤٨٤).

في نفسي: حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت رهو رب العرش العظيم.

قال: فما كان منه إلا أن قال: اخرج، قال فخرجت فوالله ما زادني ربي إلا عزة وكرامة.

ولما مات هذا الإمام، أتى عبد الله بن علي -ذلك الجبار- إلى قبره، وقال: والله إني كنت أخافك أخوف أهل الأرض، ووالله إني كنت إذا رأيتك رأيت الأسد بارزًا.

لم خافه؟ لأنه صدق مع الله، واعتصم بحبل الله، وخاف الله فَخَوَّف الله منه كل شيء.

أبو مسلم الخولاني مع الأسود العنسي

وهاهو الأسود العنسي -طاغية اليمن - الكافر الساحر، القبيح الظالم، يجتمع حوله اللصوص، وقطاع الطرق؛ ليكونوا فرقة للصد عن سبيل الله، ليذبحوا الدعاة إلى الله، ذبح من المسلمين من ذبح، وحرق من حرق، وطرد من طرد، وفر الناس بدينهم، وأخذ يهتك الأعراض، ويعذب الدعاة. ومن بين هؤلاء الدعاة المخلصين أبو مسلم الخولاني -عليه رحمة الله ورضوانه- عذبه فثبت كثبات سحرة فرعون، وحاول أن يثنيه عن دينه، وعن دعوته، وأمره ونهيه، فقال: كلا والذي فطرني لن أقف: ﴿ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴾ [طه: ٧٢].

جمع الأسود الناس، وقال: أتعتقدون في داعيتكم أنه على حق؟ إن كان على حق، فسينجيه الحق، وإن كان على باطل فسترون، ثم أمر بالنار فأضرمت -نار هائلة تمر الطيور من فوقها فتسقط لعِظَمِ ألسنة لهب هذه النار- ثم ربط يديْ أبي مسلم ورجليه بالقيد، ووضعوه في مقلاع، ثم نسفوه بالمقلاع ليهوي في خضم لهيب النار ولظاها وجمرها، وهو يقول: حسبي الله ونعم الوكيل.

كاد الموحدون أن تنخلع قلوبهم، وقف الناس ينظرون، وبدأت النار تخبو وتضعف، وإذ بأبي مسلم يخرج من طرفها الأخر ماشيًا على قدميه، قد فكت النار وثاقه، عليه ثيابه لم تحترق، يدوس بقدميه الحافيتين الجمر ويتبسم وينظر إلى الناس.

ذهل الطاغية، وخاف أن يسلم من لم يسلم، فهددهم وتوعدهم؛ ليصدهم عن سبيل الله، أما أبو مسلم فخرج من النار، وواصل مشيَه فارًا بدينه، والمؤمنون يتبعونه، حتى وصل إلى المدينة -في عهد أبي بكر رضي الله عنه وأرضاه ودخل المسجد، وصلى ركعتين.

وسمع به عمر -رضي الله عنه- فجاء يغذ السير إليه، فلما رآه قال: «أأنت أبو مسلم؟ قال: نعم.

قال: أأنت الذي قذفت في النار، وخرجت منها سليمًا؟ قال: نعم.

فاعتنقه عمر يبكي، ويقول: الحمد لله الذي جعل في أمة محمد ﷺ مثل إبراهيم الخليل عليه السلام».

ألا فادعوا الله أيها المسلمون، ومروا بالمعروف، وانهوا عن المنكر، واعتصموا بحبل الله، فوالله لو كادتكم السماوات والأرض ليجعلن الله لكم منها فرجًا ومخرجًا.

فاشدد يديْك بحبلِ اللِه معتصما فإنه الركنُ إن خانتك أركانُ

أحد الصالحين مع ابن مقلة

وهاهو أحد الصالحين ذكر أهل السير أنه دخل على ابن مقلة -وزير مجرم عباسي- سفك الدماء، ونهب الأموال، فاعترض عليه هذا الرجل الصالح، وأمره بالمعروف، ونهاه عن المنكر؛ فما كان منه إلا أن جلده عشر جلدات، فقال: أتجلدني يوم آمرك وأنهاك؟ أسأل الله أن يقطع يدك ولسانك.

ويستجيب الله دعاء المخلصين الصادقين، ما مرت عليه ستة أشهر حتى أُخِذت أمواله، وقطعت يده، وقطع لسانه، وأخذ يبكي، ويكتب على الحيطان:

ليس بعد الحياةِ لذةُ عيشٍ يا حياتي بانت يميني فبيني

يبكي ويكتب على الحيطان:

إذا ما مات بعضك فابكِ بعضًا فإن البعضَ من بعضٍ قريبُ

ما أهون الخلق على الله إذا تركوا أمره

يا عباد الله....

الأمر والنهي من خصائصنا إن كنا نريد الخيرية والأمان والاطمئنان... ومتى تركناه فلننتظر الجوع... والدمار... والحرب... والخوف... والجفاف... والغضب... والمقت... واللعنة.

هوان أهل جزيرة قبرص

هاهو أبو الدرداء لما فتح المسلمون جزيرة قبرص، رأى صراخ أهلها، وبكاء بعضهم إلى بعض؛ فبكى كثيرًا، قيل له: يا أبا الدرداء: ما يبكيك في يوم أعز الله فيه الإسلام

وأهله؟ قال: «ويحكم، ما أهون الخلق على الله إذا هم تركوا أمره، بينما هم أمة ظاهرة قاهرة تركوا أمر الله، فصاروا إلى ما ترون».

ولا نذهب بعيدًا بل نقلب النظر إلى من كانوا في رغد من العيش، في هناء وسعادة، فطغى أمراؤهم، وسكت علماؤهم، وأُبْلس دعاتهم، فما تُكِلم بمعروف وما نُهِي عن منكر، ولم يؤخذ على يد ظالم، فأمهلهم الله، ثم أخذهم أخذ عزيز مقتدر ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾ [هود: ١٠٢].

إليكم خيارين لا ثالث لهما: إما أمر بمعروف ونهي عن منكر بقوة وأخذ على يد الظالم، وإما ضرب للقلوب، ثم لعنة توجب طردًا وإبعادًا من رحمة الله جل وعلا، أقول هذا إعذارًا بين يدي الله، وإقامة للحجة عليكم، وتحذيرًا من أن يقع بنا بأس الله؛ فإن بأس الله لا يُرد عن القوم المجرمين، بينما الأمم هانئة وادعة، تترك أمر الله، وترتكب نهيه، ولا آمِر، ولا ناهٍ، إذ بالجو يدلَهِمُّ، والدماء تجري، والخوف والقلق يعم، هذه سنة الله، يمهل الظالم حتى إذا أخذه لم يفلته.

يا أمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هذا يومه، بل هذه ساعته، هذا وقت البيان، آن الوقت لئلا تأخذ الأمة في الله لومة لائم، إن الأمر جد خطير، وإن الله ينذر، ثم ينذر، ثم ينذر، ونُذُرُ الله تأتي في صور متعددة؛ فإن ارعوى الناس، وآبوا، وعادوا، وإلا: ﴿ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴾ [محمد. ٣٨].

أسأل الله أن يوفق الأمة وولاتها إلى القيام بمسئولية الأمر والنهي على الوجه الذي يرضي ربنا عنا، اللهم اجعلنا خير أمة أخرجت للناس بأمرنا ونهينا، كما كنا إنك على كل شيء قدير.

أقول ما تسمعون، وأستغفر الله فاستغفروه، إنه هو الغفور الرحيم.

مسخ أصحاب السبت

الحمد لله رب العالمين جعلنا خير أمة أخرجت للناس نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

قال الله تعالى مخاطبًا محمدًا ﷺ: ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ

يَعْدُونَ فِي ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾ وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ ٱللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا۟ مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾ فَلَمَّا عَتَوْا۟ عَن مَّا نُهُوا۟ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ ﴿١٦٦﴾ ﴾ [الأعراف:١٦٣- ١٦٦].

﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾ [يوسف: ١١١].

هذه قصة قرية أُخِذت أخذ عزيز مقتدر، فضحها الله، وجعل أشخاصها قردة وخنازير، يوم تركوا أمره ونهيه، قرية كانت على الشاطئ مجاورة للبحر، حرم الله عليهم صيد السمك يوم السبت، فوقفوا لا يصطادون يوم السبت، فزاد الله ابتلاءهم ابتلاءً، وامتحن صدقهم وإخلاصهم، فجعل الأسماك يوم السبت تأتي سابحة إلى الشاطئ، وفي بقية الأيام لا تكاد تجد سمكة إلا قليلًا، فانقسم الناس حيال أمر الله عز وجل إلى أقسام، وهم في كل زمان بهذه الأقسام:

قسم هم **أهل الخبث والخيانة والفجور**، قالوا: نجري جداول وأنهارًا إلى داخل الشاطئ، فإذا دخلت الأسماك سددنا عليها يوم السبت وأخذناها يوم الأحد.

أَعَلَى الله يضحكون؟ أم على الله يمكرون؟ يخادعون الله وهو خادعهم.

وقسم **أمر بالمعروف ونهى عن المنكر** وقال: لا تفعلوا هذا، بل اتقوا الله، وخافوا الله، واحفظوا الله، فلم يسمع لهذا القسم.

وقسم آخر: قال اتركوهم، لِمَ تنهونهم؟ الله سيعذبهم.

فقال الدعاة إلى الخير: نأمرهم معذرة أمام الله عز وجل يوم يجمع الأولين والآخرين؛ علهم أن يهتدوا، فنحن لا نعلم أن الله قد طبع على قلوبهم.

بدأ أهل الخبث في تنفيذ خطتهم، وخداعهم، ومكرهم، فقام الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر -الذين يثقون بما يعد الله به- بجعل سور بينهم وبين الفجرة الماكرين؛ حتى لا يصيبهم من العذاب ما يصيب أهل السوء، وتركوا في الجدار نوافذ؛ ليتطلعوا أخبارهم من خلالها، ليكون لهم في ذلك عبرة.

أما القسم الآخر فسكتوا ولم يمكروا، لكنهم رضوا بالمنكر، والراضي كالفاعل.

ويأتي صباح يوم من أيام الله، يوم يغضب الله ويسخط على أعدائه، فيمسخ أولئك

قردة وخنازير، فوجئ الدعاة، وإذ بالنوافذ ممتلئة خنازير وقردة، يقولون: من أنت؟ فيقول الرجل: أنا فلان، وهو على صورة خنزير، والمرأة تقول: أنا فلانة، وهي على صورة خنزير، وقعوا فيما يغضب الله، وتركوا الأمر والنهي؛ فصاروا قردة وخنازير.

ثم أتى الله بأولئك الذين سكتوا، وما تكلموا، الذين يقولون في كل زمان: إن الدعوة تطرف وتزمُّت، أتى الله بهم فأدخلهم في الحظيرة، فحولهم قردة وخنازير، هم ما احتالوا على الله، لكنهم سكتوا على المنكر، والراضي كالفاعل ولا يظلم ربك أحدًا.

أما أولئك الدعاة الآمرون والناهون فسلموا في الدنيا، ولهم السلامة في الأخرى: ﴿ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾ [الأعراف: ١٦٥].

إن من يسكت ويقول: نفسي نفسي، سيأخذه الله مع الطالحين: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ﴾ [هود: ١٠٢].

تداعت علينا الأمم، ونحن كثرة كاثرة، لكن غثاء كغثاء السيل، أيقاظ نيام في الغالب، نؤمر فلا نأتمر، ونُنهى فلا ننتهي -إلا من رحم الله وقليل ما هم- والحوادث شاهدة: حلت بنا الأحداث، وطوقنا الأعداء، وخوفنا الله، فما زادنا ذلك إلا طغيانًا كبيرًا ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾ ﴾ [الكهف: ٥٧].

أأخـــيَّ إن مـــن الـــرجال بهـــيمة في صـــورة الـــرجل الـــسميع المبـــصر

فطـــن لكـــل مـــصيبة في مالـــه وإذا أصـــيب بديـــنه لم يـــشعر

التحذير من الإصرار على المعاصي

قلنا: لعل الحوادث توقظ قلوبنا فنعود إلى الله نأمر وننهى، ونتوب ونعود، ونغير ونبدل، فما حصل شيء من ذلك -ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم- أسألكم بالله: هل كان الذين يتخلفون عن الجماعة عادوا لحضور الجماعات أثناء هذه الحوادث؟

أسألكم: هل الذين كانت بيوتهم تعج بالمنكرات، والمغريات، والملهيات، هل خرج شيء من هذه المنكرات في أثناء هذه الحوادث؟

أسألكم عن الذين يصبح أولادهم على الرسوم المتحركة، ويمسون على الأغنية

والفيلم، والمسلسل الرخيص، والتمثيلية التي تدعو إلى الرذيلة، هل غيَّر واحد من برنامجه أثناء هذه الحوادث.

أسألكم عن المختلطين -والذين أصبح الاختلاط ديدنًا لهم في كل مناسبة- هل تركوا الاختلاط أثناء هذه الحوادث؟ هل اعتبروا؟ هل تفكروا؟

أسألكم عن أسواقنا، وعن المتبرجات، والمنكرات فيها، هل غُيِّر فيها شيء أثناء هذه الحوادث؟ هل نزل الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر إلى تلك الأسواق؟

أسألكم: هل مسلم لا زال فيه بعض الإسلام حركته هذه الحوادث، فقفل محلًا من محلات الفيديو في هذه البلدة؟

أسألكم: هل رجل صاحب تسجيلات للأغاني في هذه البلدة أقفلها، أو غيرها إلى تسجيلات إسلامية أثناء هذه الحوادث؟

ألا هل علم هؤلاء -أصحاب الفساد- بأنهم يأكلون حرامًا؟

أسألكم: هل اتجه الناس أثناء الحوادث إلى المساجد بدلًا من اتجاههم إلى المقاهي والملاعب، أم زاد الاتجاه إلى الملاعب والمقاهي؟

أبالرياضة نبني مجد أمتنا　　　أم بالفنون وبالأفلام ننتصرُ

أسألكم: هل رأيتم مسلمًا أثناء هذه الحوادث رجع إلى الله، فأعفى لحيته بعد أن كان يحلقها، ورفع إزاره بعد أن كان مرخيًا له؟

أسألكم: هل سمعتم بتاجر قد أخذ أمواله ووضعها في مصرف لا يتعامل بالربا أثناء هذه الفتن؟

بل أسألكم عن أهم شيء في مثل هذا الوقت: هل سمعتم بالناس يتحدثون عن الجهاد في سبيل الله أثناء هذه الحوادث؟

أسألكم: هل تحرك الناس، فأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر أثناء هذه الحوادث؟

يموت الميت في هذه الحوادث فلا نرى مراسم العزاء البدعية أثناء هذه الحوادث تنتهي.

ألا هل تغير شيء؟

لا والذي رفع السماء بلا عمد ما تغير شيء في الغالب، بل ازداد الناس طغيانًا، وتوكلًا على غير الله، وكأنهم يقولون: ربنا عجل لنا العذاب، المتخلف عن الجماعة لا زال، والمنكرات والملهيات بدأت تدخل البيوت بحجج واهية شيطانية، الراعي في بيته غش رعيته، فلم يأمرهم ولم ينهَهم، أمسى على الأخبار، والصحف، والأفلام، والمجلة، والمسلسل، وما رفع يده، ورعيته إلى الله رب البرية، ما كأنه سمع قول محمد ﷺ: «ما من راعٍ استرعاه الله رعية فأمسى غاشًا لهم إلا لم يرح رائحة الجنة» [1]

الاختلاط كما هو، والأسواق تعج بالمنكرات، وما رأينا آمرًا أو ناهيًا، الفيديو والتسجيلات الغنائية تزيد يومًا بعد يوم، حلق اللحى يتضاعف، وإسبال الثياب كالنساء يفشو، والحديث عن الجهاد يخبو ويضعف، بل لا يذكر أبدًا، والسكوت عن المنكرات يزيد.

لا إله إلا الله، ما أحلمك! ما أكرمك!، تمهل الظالم حتى إذا أخذته لم تفلته!

اللهم إن أردت بعبادك فتنة فاقبضنا إليك غير مفرطين ولا مفتونين.

وسائل الأمر بالمعروف

يا مسلمون! يا مؤمنون! يا عقلاء! أخاطب فيكم الإسلام، والإيمان، والعقل، مروا بالمعروف، وانهوا عن المنكر، واصدقوا، وأخلصوا لله، من عنده علم فليخرجه قبل أن يُلجم بلجام من نار، من عنده منكر فليخرجه وليتخلص منه قبل أن يندم فلا ينفعه ندم، من عنده مال فليسخره للقضاء على المنكرات وليسخره لدعم المسلمين في كل مكان.

يا أيها التجار! يا من يملك مالًا! يا من ستسأل عن مالك من أين اكتسبته وفيما أنفقته! الميدان فسيح لك هذه الأيام، يا أيها التجار! اشتروا محلات الفيديو، اشتروا تسجيلات الغناء، واقلبوها إلى تسجيلات إسلامية، تكونوا بمالكم قد دعوتم إلى الله وأنتم في متاجركم، وقضيتم على المنكرات.

يا أيها الشباب: لتنزلوا إلى الأسواق فتأمروا بالمعروف وتنهوا عن المنكر بالمعروف، يا من لا يستطيع هذا ولا ذاك: مر بالمعروف في بيتك وانهَ عن المنكر.

---

(١) متفق عليه: البخاري (٦٧٣١)، ومسلم (٣٨٠) (٤٨٣٤) بنحوه.

واعلموا -يا عباد الله- أن دين الله ليس عليه خطر، ولا على رسالة الله خوف؛ الله تكفل بحفظ دينه من دونكم، لكننا نحن بدين الله نحفظ أنفسنا وأمتنا وجيلنا، نحن بحاجة إلى هذا الدين، فلنراجع أنفسنا، لا يزال الله يمهلنا، انهضوا، وعودوا، وتوبوا، ومروا بالمعروف وانهوا عن المنكر، وبادروا إلى الخيرات لعلكم تنجون من عذاب الله القائل: ﴿ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ ﴾ [الأعراف: ١٦٥].

يا أيها الأخيار: يا أمراء القبائل! يا مشايخ القبائل: أنتم قدوة لمن أنتم رعاة لهم، بصلاحكم يصلح الله القرى والبوادي، كفى نومًا، وكفى طغيانًا، اجتمعوا مع الشباب، وادعوا إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة في قراكم، واقضوا على المنكرات؛ ليصلح الله لكم المجتمع، وليؤمنكم مما تخافون.

إن السنن الإلهية لا تجامل أحدًا، بل تجري على كل من استحقها ولو كان حرًا قرشيًا، ومن هذه السنن: أنه ما من بلدة أعلنت الحرب على الأمر بالمعروف، إلا جاءها عذاب الله بكرة أو عشية: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [الفتح: ٢٣].

اللهم أبرم لهذه الأمة أمر رشد، يعز فيه أهل طاعتك، ويذل فيه أهل معصيتك، ويؤمر فيه بالمعروف، وينهى فيه عن المنكر، يا سميع الدعاء!

اللهم انصر من نصر الدين واجعلنا من أنصاره، واخذل من خذل الدين ولا تجعلنا ممن خذله.

اللهم انصر المجاهدين الذين يجاهدون لتكون كلمة الله هي العليا.

اللهم انصرهم وسدِّدهم وثبِّتهم وأيِّدهم يا قوي يا عزيز.

اللهم فرِّق جمع أعداء المسلمين.

اللهم رد كيدهم، وامكر بهم، واجعلهم عبرة للمعتبرين.

اللهم أنزل عليهم بأسك الذي لا يُرد عن القوم المجرمين.

اللهم من أرادنا وأراد الإسلام بسوء فأشغله بنفسه، واجعل تدبيره في تدميره، ومزِّقه كل ممزق يا قوي يا عزيز!

اللهم أحينا مسلمين، وتوفنا مسلمين، غير خزايا ولا مفتونين.

اللهم اغفر لجميع موتى المسلمين الذين شهدوا لك بالوحدانية، ولنبيك بالرسالة وماتوا على ذلك.

اللهم اغفر لهم وارحمهم، وعافهم واعف عنهم، وأكرم نزلهم، ووسع مدخلهم، واغسلهم بالماء والثلج والبرد، ونقِّهم من الذنوب والخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس.

اللهم ارحمنا إذا صرنا إلى ما صاروا إليه.

اللهم آنسْ وحشتنا في القبور، وآمِن فزعنا يوم البعث والنشور.

سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين

والحمد لله رب العالمين



[١٣] أي الغادين أنت؟

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١ ﴾ [النساء: ١].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١ ﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

سلام الله عليكم ورحمته وبركاته، وأسأل الله الذي جمعنا وإياكم في هذا المسجد أن يجمعنا وإياكم في هذه الحياة على الإيمان، ثم يجمعنا بكم أخرى سرمدية أبدية في جناتٍ ونهر، في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

أيها الإخوة في الله...

أوصيكم ونفسي بتقوى الله عز وجل، وأن نقدم لأنفسنا أعمالًا صالحة تُبيِّض وجوهنا يوم نلقى الله عز وجل: ﴿ يَوۡمَ تَبۡيَضُّ وُجُوهٞ وَتَسۡوَدُّ وُجُوهٞۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ فَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَ بِمَا كُنتُمۡ تَكۡفُرُونَ ١٠٦ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبۡيَضَّتۡ وُجُوهُهُمۡ فَفِي رَحۡمَةِ ٱللَّهِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١٠٧ ﴾ [آل عمران: ١٠٦، ١٠٧].

الأمر جد وهو غير مزاح ... فاعمل لنفسك صالحًا يا صاح
كيف البقاء مع اختلاف طبائع ... وكرور ليل دائم وصباح
تجري بنا الدنيا على خطر ... كما تجري عليه سفينة الملاح
تجري بنا في لج بحر ما له ... من ساحل أبدًا ولا ضحضاح
فاقضوا مآربكم عُجالى ... إنما أعماركم سفرًا من الأسفار
وتراكضوا خيل الشباب ... وحاذروا أن تُسترد فإنهن عوار

شدة خوف الصحابة الكرام من الموت

في الصحيح عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: «إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أَطَّت السماء وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وفيه ملك ساجد أو

راكع، والله لو تعلمون ما أعلم؛ لضحكتم قليلًا ولبكيتم كثيرًا، ولما تلذذتم قط بالنساء على الفرش، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله»[(١)]

وفي رواية المنذري «ولحثوتم على رءوسكم التراب»[(٢)]، يوم روى هذا الحديث أبو ذر رضي الله عنه بكى وأبكى، وقال «وددت -والله- أني شجرة تعضد» ويقول عبد الله بن عمرو بن العاص: «والله لو تعلمون حق العلم ما تلذذتم بلذيذة، ولقام أحدكم بين يدي ربه حتى ينكسر صلبه، ولصاح حتى ينقطع صوته» فلا إله إلا الله!

الموت آت والنفوس نفائس والمستغر بما لديه الأحمق

الموت باب وكل الناس سيدخلون من هذا الباب وما من باب إلا وبعده دار

لا دار للمرء بعد الموت يسكنها إلا التي كان قبل الموت يبنيها
فإن بناها بخير طاب مسكنه وإن بناها بشرٍ خاب بانيها

***

الموت باب وكل الناس داخله يا ليت شعري بعد الموت ما الدار
الدار دار نعيم إن عملت بما يُرضي الإله وإن فرطت فالنار

الموت صرخات وزفرات

فلا إله إلا الله كتب الموت على كل شيء واختص نفسه سبحانه بالبقاء ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧].

في صحيح البخاري من حديث أبي سعيد رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا وضعت الجنازة واحتملها الرجال على أعناقهم، فإن كانت صالحة قالت: قدموني قدموني! وإن كانت غير ذلك قالت -بصرخات تقض المضاجع-: يا ويلها أين تذهبون بها، لما ترى من العذاب، فيسمع صوتها كل شيء إلا الثقلين الإنس والجن»[(٣)]

وتفزع البهائم فزعًا يلاحظه من يتابع سير البهائم بلا سبب، فلعل ذلك مما تسمعه

(١) حسن: أخرجه ابن ماجه (٤١٩٠)، والترمذي (٢٣١٢)، و الألباني في «الصحيحة» (١٧٢٢).
(٢) ضعيف: «ضعيف الترغيب والترهيب» (٢١٢٤).
(٣) صحيح: البخاري (١٢٥١)، (١٢٥٣) (١٣١٤).

ولا نسمعه نحن من صرخات المفرطين التي تقض المضاجع.

أما والله لو حملنا جنازةً من الجنائز ثم سمعنا تلك الصرخات -يا ويلها أين تذهبون بها- لصعقنا، ولما تدافنا، ولما حملنا جنازة أبدًا، ولقد خشي هذا رسول الله ﷺ علينا كما في الصحيح يوم يقول: «**والله لولا ألا تدافنوا لدعوت الله أن يسمعكم من عذاب القبر ما أسمع**»(١)

وها هو ﷺ كما في المسند من حديث البراء يرى أُناسًا مجتمعين فيسأل عن سبب اجتماعهم؟ فقيل: على قبرٍ يحفرونه، على ذاك المصير الذي لابُدَّ لكل واحد منا أن يسكنه؛ كبر أم صغر، عزَّ أم ذل، فذهب رسول الله ﷺ فزعًا مسرعًا حتى انتهى إلى القبر، فجثى على ركبتيه ثم بكى طويلًا، ثم رفع رأسه، فإذا دموعه تتحدر على لحيته قائلًا: «**أي إخواني! لمثل هذا فأعدوا**»(٢)

إلى كم ذا التراخي والتمادي ... وحادي الموت بالأرواح حادي

فلو كُنَّا جمادًا لاتعظنا ... ولكنا أشد من الجماد

تُنادينا المنية كل وقت ... وما نصغي إلى قول المنادي

وأنفاس النفوس إلى انتقاصٍ ... ولكن الذنوب إلى ازدياد

إذا ما الزرع قارنه اصفرار ... فليس دواؤه غير الحصاد

كأنك بالمشيب وقد تبدَّى ... وبالأخرى مُناديها يُنادي

وقالوا قد قضى فاقرأ عليه ... سلامكمُ إلى يوم التنادي

الحكمة من خلق الإنسان

أحبتي في الله! لماذا خُلقنا؟ ومن أين؟ وإلى أين؟ وما الهدف؟ وما الغاية؟ وما الحكمة من هذا الخلق؟

إن لكل شيء حكمة وضعها الله عز وجل؛ عرفها من عرفها، وجهلها من جهلها،

(١) صحيح: مسلم (٧٣٩٢)، (٧٣٩٣).

(٢) حسن: أخرجه ابن ماجه (٤١٩٥)، والألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٣٣٨).

الشمس من حكمها أنها تضيء للبشر، والمطر ينبت الأرض، والحيوانات لتركب ولتؤكل وزينة، ويخلق ما لا تعلمون ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ ﴾ [النحل: ٧].

كل شيء في الوجود لحكمة من أصغر ذرة إلى أكبر مجرة.

فما الحكمة من خلقك أيها الإنسان؟!

ألتذبح الحيوانات لتأكلها؟

ألتلبس أبهى اللباس؟

ألتسكن أحسن الدور والقصور؟

ألتنكح أجمل الزوجات لتتمتع بهن؟

ألتنام على الوثير ولتتنعم؟

ألتركب أفخم السيارات؟

لا والذي رفع السماء بلا عمد! ما خُلِقْنَا إلا لعبادة الله الواحد الأحد القائل: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ۝ ﴾ [الذاريات: ٥٦، ٥٧].

والقائل سبحانه: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ۝ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ۝ ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦].

القرآن كتاب هداية ونور

لقد جعل الله لنا طريقًا مستقيمًا، فقال سبحانه: ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۝ ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

ليس هذا فحسب؛ بل أرسل إلينا رسولًا هو خاتم الرسل ﷺ، صاحب اللواء يوم العرض، وأول من تنشق عنه الأرض، فجاء ﷺ بأعظم معجزة عرفتها الأمم، ألا وهي القرآن، من استنار بنوره قاده إلى الجنة، ومن جعله خلف ظهره ساقه إلى النار.

من التمس الهداية فيه هداه الله، ومن التمس الهدي في غيره أضله الله وأهانه: ﴿ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ ﴾ [الحج: ١٨].

فما حالنا مع هذا القرآن؟! وما حال أبنائنا مع هذا القرآن؟ مع كلام الله جلّ وعلا،

هل علَّمناه أبناءنا؟ هل دفعناهم إلى المساجد ليتعلموا كلام رب العزة والجلال؟

إن كُنَّا كذلك فأبشروا بالعزة والنصر في الحياة،والسعادة يوم تلقون الله عز وجل. وإن كُنَّا غير ذلك فإنَّ من جعله خلف ظهره ساقه إلى النار، نسأل الله العافية من النار.

جاء ﷺ بالقرآن ليقطع الطريق على كل مبتدع وكذاب وأفاك ومُدعٍ للنبوة من بعده ﷺ، فلا نبي بعده؛ فخلَّد الله دعوته، وخلَّد الله رسالته، وجاء المدعونَ للنبوة في عهده ومن بعده فما جعل الله لدعوتهم أثرًا؛ لأنها دعوة باطل، والباطل ساعة والحق إلى قيام الساعة.

جاء المدعون للنبوة من بعده فاندحروا بالقرآن، جاء مسيلمة فبم لُقِّب؟ لقب بالكذاب إلى اليوم وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وجاء الأسود العنسي فباد هؤلاء وسادت رسالته ﷺ بالحق، فما على وجه الأرض أحد يقول: أشهد أن مسيلمة رسول الله، لكن على وجه الأرض ألف مليون مسلم في الجملة كلهم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ﷺ، بل فوق ذلك أجرى أحد العلماء دراسة على خطوط الطول والعرض على الأرض، فأثبت أنه ما من دقيقةٍ تمر الآن إلا ومئذنة على وجه الأرضٍ يسمع عليها أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله: ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ ﴾ [الرعد: ١٧] فلا إله إلا الله!

أيد الله رسوله بالقرآن، وبما يزيد على مئات المعجزات الظاهرات القاهرات.

اقتربت الساعة فالعمل العمل

ها هو الإمام أحمد في مسنده يروي: «أن راعيًا خرج بغنمه إلى الفلاة في يوم من الأيام، وجاء ذئبٌ فعدى على شاةٍ، فانقضَّ عليه الراعي وأمسك بالشاة وأخذها من فم الذئب، فما كان من الذئب إلا أن تأخر وأقعى على ذنبه، وتكلم كلام الإنس وقال: أما تتقي الله تأخذ رزقًا ساقه الله إليّ، فقال الراعي: يا عجبي! ذئبٌ يتكلم، قال الذئب: وأعجب من ذلك محمد بشر يُخبرك بأنباء من سبق، فما كان من هذا الراعي إلا أن أخذ غنمه وانطلق بها إلى مسجد المصطفى ﷺ، ليدخل إلى المصطفى ﷺ ويخبره الخبر، فيُنادي النبي ﷺ: **«الصلاة جامعة»** -لاجتماع الناس- فيجتمع الناس، فيقول ﷺ: **«لا تقوم الساعة حتى تكلم السباع الإنس»** [(١)]، ولقد كلمت السباع الإنس على عهد محمد ﷺ، الذي قال: **«بعثت أنا**

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٢١٨١)، وأحمد (١١٨٠٩)، و الألباني في «الصحيحة» (١٢٢)، =

والساعة كهاتين» وأشار بإصبعيه ﷺ[1]، فماذا يقول من كان بعده بأربعة عشر قرنًا، نسأل الله أن يحسن الحال.

ليس هذا فحسب، فقد روى البخاري ومسلم عن رسول الله ﷺ: «أن أهل مكة سألوه آية على قدرة الله عز وجل ليؤمنوا كما ادعوا، فسأل ربه آية، فانفلق القمر فلقتين، فلقة على جبل وفلقة على جبل آخر، فقالوا: سحر أعيننا محمد -واستكبروا وصدوا وندوا- وقال المنصف منهم: نذهب إلى أهل البوادي فنسألهم هل رأوا ما رأينا، فذهبوا إلى البادية وسألوهم، قالوا: إي والله! قد انفلق فلقتين في تلك الليلة، فقالوا مصدين ومعرضين: سحرٌ عمَّ البادية والحاضرة، فأنزل الله: ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝ ﴾ [القمر: ١، ٢] [2]

وها هو ﷺ كما في صحيح مسلم لا يمر على شجرة قبل أن يبعث إلا وقالت: السلام عليك يا رسول الله! ولا يمر على حجرٍ إلا قال: السلام عليك يا رسول الله! جماد آمن برسول الله ﷺ، وبشرٌ صدوا وندوا عنه ﷺ، ولذا يقول ﷺ بعد أن أصبح بالمدينة: «**والله! إني لأعرف حجرًا بمكة كان يسلّم عليَّ قبل أن أُبعث**» [3]

ليس هذا فحسب؛ فقد روى مسلم عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه: «أن رسول الله ﷺ خرج يومًا من الأيام في فلاة ليقضي حاجته، قال: فتبعته بماءٍ له، قال: وإذا به يأتي إلى واد على شاطئيه شجرتان، قال: فلم يجد ما يستتر به، فذهب إلى إحدى الشجر وأمسك بأغصانها، وقال: انقادي بإذن الله، قال: فوالله! لقد انقادت وراءه كما ينقاد البعير المخشوش -الذي في أنفه رباط يسحب به- ثم ذهب إلى الثانية فوضع يده عليها وقال: انقادي بإذن الله.

فانقادت معه، حتى جاءت وأصبح بينها فقال: التئما عليَّ بإذن الله.

فالتأما عليه حتى لا يرى ﷺ وهو يقضي حاجته، قال: ثم ذهبت موليًا لئلا يبتعد

= وفي «صحيح الجامع» (٧٠٨٣).

(١) **متفق عليه**: البخاري (٤٦٥٢)، (٦١٣٨)، ومسلم (٢٠٤٢) (٧٥٩٣).

(٢) **متفق عليه**: البخاري (٣٦٥٦) باب «انشقاق القمر»، ومسلم (٧٢٥٠، ٧٢٥١) باب «انشقاق القمر».

(٣) **صحيح**: مسلم (٦٠٧٨).

المصطفى ﷺ إذا رآني وإذ به ينتهي من قضاء حاجته، ثم يقول للشجرة الأولى: «ارجعي» فترجع بأمر الله إلى مكانها، وترجع الثانية إلى مكانها» [١]

آيات ومعجزات ظاهرات بينات، لكن -يا أيها الأحبة- صدق قوم بذلك وآمنوا، فأطاعوا الله ورسوله، فكان لهم ما قاله الله جلَّ وعلا: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾ [النساء: ٦٩، ٧٠].

وصنف آخر! كذَّب وصد واستكبر بعقل جامد، وقلب فارغ، ساه لاه لا يفقه، عين لا تبصر، وأذن لا تسمع، بهيمة في مسلاخ بشر، عصى الله وتعدى حدوده؛ فكان له ما قال الله جلَّ وعلا: ﴿ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾ ﴾ [النساء: ١٤].

ها أنت -أخي الحبيب- رأيت صنفين لا ثالث لهما، وسمعت بغاديين لا ثالث لهما، غاد غدا لإعتاق نفسه من النار فهو الفائز، أسأل الله أن يجعلنا وإياكم ممن يغدو ويروح في طاعة الله جلَّ وعلا.

وغادٍ آخر غدا ليوبق نفسه ويهلكها بالفسق والفجور فهو الخاسر، فأيَّ الغاديين أنت؟ فكلٌّ يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها.

موبقات ومعتقات

حدد موقعك، واعرف مصيرك، فأنت أحد غاديين لا محالة.

غـادٍ مهلـك نفـسه بالـشرك

فغادٍ يغدو من بيته ليهلك نفسه بالإشراك بالله، إن تكلم فلا تسمع منه إلا نتن الألفاظ الشِرْكِيَّة، تفوح من فمه وتغدو وتروح.

مِن هذه الألفاظ: استعانته بالجن يقول: خذوه وافعلوا به واركبوه!! مع أنه قد كان قبلها قليلًا يُردد في صلاته: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ [الفاتحة: ٥] فأين العبادة وأين الاستعانة بالله عز وجل؟!

---

(١) صحيح: مسلم (٧٧٠٥).

إن أصيب بمصيبة -ليرفع الله درجته- في حبيب له مرض أو في قريب له أو في نفسه هو؛ لم يذهب ولم يلجأ إلى الله ويطلب الأسباب الشرعية، بل يذهب إلى السحرة والدجالين والمشعوذين، فيبيع دينه ودنياه ناسيًا قول الله جل وعلا: ﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴾ [المائدة: ٧٢].

وينسى قول المصطفى ﷺ: «من أتى كاهنًا أو عرافًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمدٍ ﷺ»[(١)]

يغدو فيحلف بكل شيء إلا بالله الذي لا إله إلا هو، بالطلاق يحلف وبالحرام يحلف وبالذمة يحلف وبالحياة يحلف وبالنبي يحلف؛ لكنه لا يحلف بالله الذي لا إله إلا هو، ناسيًا قوله ﷺ أو متناسيًا: «من كان حالفًا فليلحف بالله أو ليصمت»[(٢)]، «من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك»[(٣)]، «ومن حُلِفَ له بالله فليرض ومن لم يرض فليس من الله»[(٤)]

وها هو -كما في الصحيح- رجل من بني إسرائيل احتاج إلى مائة دينار، فذهب إلى رجلٍ آخر، وقال له: أريد أن تقرضني مائة دينار؟ قال: هل لك من شهيد؟ قال: والله ما لي من شهيد إلا الله.

قال: فكفى بالله شهيدًا، قال: هل لك من كفيل؟ قال: ما لي من كفيل إلا الله.

قال: كفى بالله كفيلًا، أعطاه المائة دينار، ورضي بالله كفيلًا وشاهدًا، وما كان من هذا الرجل إلا أن تواعد هو وإياه على أن يلتقيا بعد مدةٍ معلومة، فأخذ المائة دينار وانتقل إلى بلده وعبر البحر، وكان بلده في الشاطئ الثاني وجمع المائة دينار يريد أن يفي بوعده جزاء لمن أقرضه، وجاء إلى البحر ينتظر سفينة لعلها توصله، فلم يجد سفينة من السفن ولم يجد مركبًا من المراكب، وهو يريد أن يوصلها في وقتها، فماذا فعل؟

أخذ عودًا من الحطب ثم حفره ثم وضع المائة دينار فيه ثم أغلقه، ثم رفع يديه إلى الله سبحانه وتعالى، وقال: اللهم يا رب! إني استقرضته فأقرضني، ورضي بك كفيلًا، ورضي

---

(١) **صحيح**: أخرجه أحمد (١١٧٠) (٩٥٣٢)، وابن ماجه (٦٣٩)، والترمذي (١٣٥)، و الألباني في «الصحيحة» (٣٣٨٧).

(٢) **متفق عليه**: البخاري (٢٥٣٣) (٦٢٧٠)، ومسلم (٤٣٤٨) بنحوه.

(٣) **صحيح**: أخرجه الترمذي (١٥٣٥)، وأحمد (٦٠٧٢)، وأبو داود (٣٢٥١)، والألباني في «الإرواء» (٢٥٦١).

(٤) **صحيح**: أخرجه ابن ماجه (٢١٠١)، والألباني في «صحيح الجامع» (٧٢٤٧).

بك شاهدًا، ولم أجد ما أوصل له هذه الدراهم، اللهم فبلغه هذه الدراهم والدنانير ثم رمى بها في البحر، وتأتي رياح الله عز وجل تسوقها إلى الشاطئ الثاني، ذاك ينتظر آية من مجيء هذه الدراهم وآية من مجيء الرجل وظن أنه قد غدر به، فكان يقول: حسبي الله ونعم الوكيل! وإذ بهذه الخشبة على الأمواج تأتي إلى طرف البحر، قال: إذًا آخذ هذا العود من خشب لعلي أرجع به لنحتطبه ولنشعل به نار خيرًا من أن أرجع بلا شيء.

أخذه وذهب إلى بيته وجاء ليكسر العود وإذ بهذه المائة دينار في وسطه، فقال: لا إله إلا الله! من رضي بالله كفاه الله[١]، فهل رضينا بالله جلَّ وعلا.

غادٍ معتق نفسه

وذاك غادٍ آخر يغدو؛ لإعتاق نفسه؛ إن تكلم فبذكر الله، وإن استعان استعان بالله، وإن سأل فبالله، وإن أُصيب بمصيبةٍ لجأ إلى الله، ثم طلب الأسباب الشرعية لا الأسباب الشركية، إن حَلَفَ فبالله، وإن حُلِفَ له بالله رضي، فهو غادٍ في حفظ الله وعائدٌ في عناية الله.

فأي الغادين أنت؟ فكلٌّ يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها.

وغاد آخر يغدو فيقدم مراد الله عز وجل على شهواته وعاداته، ويقدم مراد الله وأوامره على لذاته وعاداته وتقاليده، فالحكم حكم الله، والأمر أمر الله، والنهي نهي الله، والسعادة لا تكون إلا من الله، ووالله! لن يسعد إنسانٌ حتى يُقدِّم أوامر الله على كل هوىً في نفسه، وعلى كل حكم، وعلى كل أمر وعلى كل نهي، وعند ذلك يكون له الأجر الجزيل والخير العظيم من الله.

وفي الأثر: **«أن الله عز وجل يقول: وعزتي وجلالي! ما من عبدٍ آثر هواي على هواه إلا أقللت همومه، وجمعت له ضيعته، ونزعت الفقر من قلبه، وجعلت الغنى بين عينيه، واتجرت له من وراء كل تاجر»**[٢]

وآخر يُقدِّم ويغدو؛ فيقدم شهوات نفسه ولذائذها وعاداتها وتقاليدها على مراد الله جلَّ وعلا، فتجده يعبد هواه، فما وافق عادته وشهوته وهواه فهو الحق في رأيه فيعمل به،

---

(١) صحيح: البخاري (٢١٦٩) بنحوه.

(٢) ضعيف: انظر «معرفة التذكرة» لابن طاهر (١ / ٢٩).

وما خالفها فهو الباطل فيعرض عنه؛ حتى لو كان كتاب الله وسنة رسوله ﷺ: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ ﴾ [الجاثية: ٢٣]، يريد الدين موافقًا لشهواته، ورغباته، ويريد أن يخضع له كل شيء، فيقبل أي حكم ويرفض أي حكم ما دام أنه لا يتفق مع شهوته: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [المائدة: ٤٤]، ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴾ [المائدة: ٤٧]، ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [المائدة: ٤٥].

وفي الأثر: «**أن الله عز وجل يقول: وعزتي وجلالي ما من عبد آثر هواه على هواي إلا كثَّرت همومه، وفرقت عليه ضيعته، ونزعت الغنى من قلبه، وجعلت الفقر بين عينيه، ثم لا أبالي في أي أودية النار هلك**»[١]

فأي الغاديين أنت؟

فكلٌ يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها.

من إيباق النفس ترك الصلاة

وغادٍ آخر يغدو فيترك الصلاة ويتبع الشهوات؛ فيوبق نفسه كأنه لم يسمع قولَ ربِّ العزة والجلال: ﴿ فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾ [مريم: ٥٩]، كأنه لم يسمع قول الله: ﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴾ [الماعون: ٤، ٥].

كأنه لم يسمع الذين لم يصلوا يوم أصبحوا في النار، يوم يقول الله لهم: ﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ ۝ قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ۝ ﴾ [المدثر: ٤٢، ٤٣].

الصلاة ركن هام، وفرض فرضه الله لأهميته من فوق سبع سماوات، أُسري بالنبي ﷺ إلى بيت المقدس، ثم عُرج به إلى السماوات العُلا؛ لتفرض عليه من فوق سبع سماوات، أمانة عظيمة ويل لمن ضيعها، فمن تركها فقد كفر بنص حديث رسول الله ﷺ يوم يقول: «**العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة، من تركها فقد كفر**»[٢]

---

(١) انظر السابق.

(٢) صحيح: أخرجه ابن ماجه (١٠٧٩)، والترمذي (٢٦٢١)، والنسائي (٤٦٣)، وأحمد (٢٢٩٨٧)، وأبو داود (٥٢٦٠)، والألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٥٦٤).

ويترتب على ذلك: ألاَّ يزوج؛ لأنه كافر، وإن كان متزوجًا بطل نكاحه، ولا يغسل إذا مات، ولا يكفن ولا يصلى عليه، ولا يدفن في مقابر المسلمين، ولا يرث ولا يورث ولا يجوز الاستغفار له بعد موته، فلا يجوز أن نقول: اللهم ارحمه، اللهم اغفر له؛ لأن الله يقول: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾ [التوبة: ١١٣].

وأسأل الله ألا يكون فينا من يترك الصلاة، يترك الصلة بينه وبين ربه، لكن قد نجد فينا الكسول الذي لا يصليها مع المسلمين وإنما يصليها في بيته، نقول لهذا: قد فَوَّتَّ على نفسك أجرًا عظيمًا، وارتكبت إثمًا مبينًا، إن رب العزة والجلال يقول: ﴿ وَٱرْكَعُواْ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴾ [البقرة: ٤٣]، وهو القائل: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ ﴾ [النور: ٣٦، ٣٧].

تقول عائشة رضى الله عنها وهى تصف هيئة النبي ﷺ في بيته: «كان يكون في خدمة أهله[1]؛ يخصف نعله، ويعجن العجين أحيانًا ﷺ، فإذا سمع: الله أكبر؛ فكأنه لا يعرفنا ولا نعرفه» سمع نداء الله فلبى نداء الله ﷺ

هو القائل ﷺ في رؤياه -ورؤيا الأنبياء حق ووحي- كما روى البخاري عن سمرة ابن جندب يقول: «**أتاني الليلة آتيان، فانطلقا بي حتى جئنا على رجل مضطجع ممدود، وآخر قائمٌ عليه بصخرةٍ يثلغ رأسه ويتدهده الحجر، قال: ثم يصح رأسه فيعود كما كان، ثم يفعل به مثل ما فعل في المرة الأولى، قال ﷺ: فقلت: ما هذا؟ قالوا: هذا لرجل يقرأ القرآن فيرفضه وينام عن الصلاة المكتوبة**» [2]، لا إله إلا الله! أيُّ جسدٍ يطيق مثل هذا العذاب؟

وَرُوِيَ كما أخرج الحاكم عن ابن عباس: «**ثلاثة لعنهم الله: رجل أم قومًا هم له كارهون، وامرأة باتت وزوجها عليها ساخط، ورجلٌ سمع حي على الصلاة حي على الفلاح ثم لم يجبه**» [3]

يقول أبو هريرة رضي الله عنه وأرضاه: «لأن تمتلئ أذن ابن آدم رصاصًا مذابًا خير له

---

(١) **صحيح**: البخاري (٦٤٤)، (٥٠٤٨)، (٥٦٩٢).

(٢) **صحيح**: البخاري (٦٦٤٠) بنحوه.

(٣) **ضعيف**: أخرجه الترمذي (٣٥٨)، و«كنز العمال» (٤٤٣٣٧)، وضعفه الألباني.

من أن يسمع حي على الصلاة حي على الفلاح ثم لم يجب».

ويقول ﷺ: **«أثقل الصلاة على المنافقين صلاة العشاء والفجر، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبوًا. ولقد هممت أن آمر بالصلاة فتقام، ثم آمر رجلًا فيؤم الناس، ثم أنطلق برجال معهم حزم من حطب لأحرق عليهم بيوتهم بالنار»** [(١)]

وفي رواية: **«ولولا ما فيها من النساء والذرية لفعلت ذلك»** [(٢)]، أو كما قال ﷺ، هذا غادٍ.

معتق نفسه بالصلوات

أما آخر فيغدو إلى المسجد ليُصلي مع جماعة المسلمين فيعد الله له في الجنة نزلًا كلما غدا أو راح[(٣)]، ما خطا خطوة إلا كُتِبَ له بها حسنة، ولا رفع أخرى إلا وَرُفِعَ عنه سيئة، ما جلس من مجلس إلا وملك موكل به يقول: اللهم اغفر له، اللهم ارحمه، حتى تقام الصلاة[(٤)]، فما بالك إذا كان يقرأ القرآن.

ها هو ثابت بن عامر بن عبد الله بن الزبير يقول أبناؤه: كان كثيرًا ما يقول: اللهم إني أسألك الميتة الحسنة.

قالوا: وما الميتة الحسنة يا أبتاه؟! قال: أن يتوفاني الله وأنا ساجد، وتحل به سكرات الموت قبل صلاة المغرب، ويسمع نداء: الله أكبر، الله أكبر، حي على الصلاة، حي على الفلاح.

فماذا كان منه؟ قال: أقعدوني واحملوني إلى المسجد، قالوا: قد عذرك الله، مريض في سكرات الموت.

قال: أسمع حي على الصلاة حي على الفلاح ثم لا أجيب، فحملوه على أكتافهم وأوصلوه إلى المسجد، فصلى معهم صلاة المغرب حتى الركعة الأخيرة، فسجد فكانت السجدة الأخيرة: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْآخِرَةِ ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

---

(١) **متفق عليه**: البخاري (٦٢٦)، ومسلم (١٥١٤).

(٢) **ضعيف**: أخرجه أحمد (٨٧٨٢)، و«مجمع الزوائد» (٢١٦٢)، والألباني في «المشكاة» (١٠٧٣)، وفي «ضعيف الترغيب والترهيب» (٢٢٥).

(٣) **متفق عليه**: البخاري (٦٣١)، ومسلم (١٥٥٦).

(٤) **صحيح**: البخاري (٤٦٥).

وها هو حاتم الأصم عليه رحمة الله فاتته صلاة العصر يومًا من الأيام جماعةً مع المسلمين، فذهب أهل المسجد يعزونه في جماعةٍ فاتته.

كانوا يُعزِّي بعضهم بعضًا إذا فاتته جماعة، دخلوا عليه في بيته وهم قلة، فعزوه فبكى، قالوا: ما يُبكيك؟ قال: أبكي لأنها فاتتني جماعة فعزاني بعض أهل المدينة، ووالله! لو مات أحد أبنائي لعزاني أهل المدينة كلهم، ووالله! لموت أبنائي جميعًا أهون علي من فوات هذه الجماعة.

هكذا كان سلفنا الكرام.

وهذا سعيد بن المسيب وهو في سكرات الموت وكان بنياته الصغار حواليه يبكين، فيقول لهن: «أَحْسِنَّ الظن بالله، فوالله! ما فاتتني تكبيرة الإحرام في المسجد ستين سنة».

هكذا كانوا -أيها الأحبة- فأي الغاديين أنت؟ وكل يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها.

الاستهزاء بالدين

وذاك غادٍ يغدو لإهلاك نفسه، فيُسلط لسانه وسنانه، ويسلط قلمه في النيل من المسلمين؛ بالسخرية بهم، والاستهزاء بدين الله، وبعباد الله، وبشعائر الله؛ ليرتكب أعظم جريمة ألا وهي الدعوة إلى الظلام، فيكون عليه وزره ووزر من أضله إلى يوم القيامة، وفوق ذلك يبوء بالكفر الذي يقوده إلى النار.

في غزوة تبوك، يوم اتجه المسلمون مع قائدهم ﷺ إلى تبوك من المدينة حوالي ألف كيلو متر في صحارٍ في وقتٍ حار، وبلغ بهم الجهد مبلغه، حتى إن أحدهم في ليلة من الليالي قام يبول فسمع صوت جلد تحت بوله، فما كان إلا أن نفضه من البول ثم أشعل النار ووضعه فيها وأكله من شدة ما يلاقي من الجوع، وتأتي ثلة منهم ليسخروا برسول الله وبأصحابه فيقولون: ما رأينا كقرائنا هؤلاء! أرغب بطونًا، ولا أجبن عند اللقاء، يعنون رسول الله ﷺ وأصحابه، ويأتي الكلام من الله عز وجل إلى رسوله، ويسري الخبر بينهم، فيلحقون بالنبي ﷺ ويقولون: ﴿ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ [التوبة: ٦٥]، فيقول النبي ﷺ بكلام الله: ﴿ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ۝ لَا تَعْتَذِرُواْ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾ [التوبة: ٦٥، ٦٦] [١].

---

(١) صحيح: انظر «تفسير الطبري» (١٤/ ٣٣٣)، وابن كثير (٤/ ١٧١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٣١٣).

يغدو أحدهم فيكتب كلامًا يسب فيه الإله سبحانه وتعالى، يقول:

لم يبق من كتب السماء كتاب ... مات الإله وعاشت الأنصاب

جلَّ الله سبحانه وتعالى، ثم يستهزئ ويسخر ويظن أنه لن يقف بين يدي الله جلَّ وعلا، لكن:

إذا عيَّر الطائي بالبخل مادر ... وعير قسًا بالفهاهة باقل

وقال السها للشمس أنت كليلة ... وقال الدجى للصبح وجهك حائل

فيا موت زر إن الحياة ذميمة ... ويا نفس جدي إن دهرك هازل

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

آخر يغدو ليُعتق نفسه، فيدعو الناس إلى توحيد الله، وإلى ما فيه الخير بقلمه وبلسانه، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر؛ لأنه من أمة الأمر والنهي، وأنتم يا أهل هذه القرية البعيدة عن صخب المدينة، وعما يحدث في المدنية من الفساد! إنكم لتغبطون على قريتكم هذه بين هذه الجبال، وإنكم لتغبطون على مثل هذا الاجتماع، فالله الله! لا تسكتوا على منكر، الله الله! سلطوا ألسنتكم في الأمر بالمعروف، كونوا جبهة ضد كل مفسد، فوالله! لا يمكن أن تسعد هذه البلدة ولا تسعد أي بلدة من بلاد الدنيا إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقال الله وقال رسوله ﷺ، فلنأمر بالمعروف في بيوتنا وفي شوارعنا، ولننه عن المنكر أيًا كان المنكر؛ لأن الله عز وجل رتب النجاة للذين ينهون عن السوء: ﴿ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴾ [الأعراف: ١٦٥].

يوم تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؛ فيستجيب لك واحد يكون لك مثل أجره لا ينقص من أجره شيء، ثم إن الله يهدي بك الضال فيكون لك من الأجور الشيء الكثير: «**لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من حمر النعم**[١]»[٢]

أتريد رحمة الله يا عبد الله؟ اسمع ما قال الله: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ

(١) **حمر النعم**: الإبل الحمراء، وكانت أعجب الأموال وأحبها إلى العرب.

(٢) **متفق عليه**: البخاري (٢٧٨٣)، (٢٨٤٧)، ومسلم (٦٣٧٦).

﴿وَرَسُولَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ﴾ [التوبة: ٧١].

أسأل الله أن يرحمنا وإياكم برحمته، فأي الغادين أنت؟ وكلٌّ يغدو؛ فبائعٌ نفسه فمعتقها أو موبقها.

موبقات ومعتقات من المصائب والحاجات

الصبر عند المصائب

وذاك غادٍ في دنياه، ويصاب بمصيبة فيوبق نفسه ويهلكها، فيتسخط من قضاء الله وقدره، ويعترض على قدر الله، ما علم أن المصائب ترفع الدرجات لمن احتسبها عند الله سبحانه وتعالى، وما علم أن الله مع الصابرين، يصاب في دنياه فيكسر دينه:

وكل كسر لعل الله جابره ... وما لكسر قناة الدين جبران

يقول عند الصدمة الأولى يوم يصاب في حبيب أو قريب أو في نفسه: لم يا رب؟ يعترض على قضاء الله وقدره يشق الجيب، ويلطم الخد، ويدعو بالويل، وبالثبور وبعظائم الأمور على نفسه، والملائكة في تلك اللحظة تقول: آمين آمين، فالمصيبة مصيبتان لا هو احتسب هذه، وإنما أصبحت مصيبته بفقد حبيبه، ومصيبته الأخرى: بضياع الأجر في تلك اللحظة، والمحروم من حُرِمَ الثواب.

وأنا أسأل سؤالًا يا أيها الأحبة...

هل سيعود ميت إن مات؟

والله! ما سمعنا أن ميتًا مات فعاد، لكنه ذهب ونحن على الأثر، إن للموت أخذة تسبق اللمح بالبصر.

هاهو أحد السلف -شابٌ من شباب السلف- كانت له زوجة صالحة، وكان له أولاد، ثم حلَّت به سكرات الموت التي لابد أن يعاني كل واحد منا هذه السكرات، ونسأل الله أن يهونها علينا وعلى كل مسلم، في تلك اللحظات التي يذعن فيها الإنسان ويخضع، ويذل لله عز وجل أيًا كان، هذا الرجل مات فوجدت عليه زوجته وجدًا عظيمًا، ووجد عليه أولاده وحزنوا حزنًا عظيمًا؛ فأقسمت زوجته لتبكين عليه عامًا كاملًا.

وهذا ليس من عمل الإسلام، هذا جزعٌ وتسخط واعتراض على قضاء الله وقدره، فأخذت أولادها، وأخذت خيمةً لها، وذهبت ونصبتها عند قبره، وبقيت عامًا كاملًا

تبكي، وأولاده الصغار حول قبره، فما خرج إليهم فكلَّمهم بكلمة، ما خرج إلى زوجته وقال: أحسنت، أو قال: اذهبي ووالله! لو خرج لقال: لا إله إلا الله، أو الحمد لله، أو سبحان الله؛ لأنه لا ينفعه في القبر إلا مثل هذه الكلمات، والله! لو كلَّم أبناءه بكلمة واحدة لسكن الناس كلهم المقابر ليُكلموا أحبابهم وأخواتهم وأصحابهم وأولادهم، فما منا واحد إلا وله في القبر عزيز أي عزيز؛ لكن قد حيل بينهم وبين ما يشتهون.

بقيت سنة كاملة وفي آخر السنة طوت خيمتها، وأخذت أولادها، وجاءت راجعة مع الغروب إلى بيتها، لم تجد جدوى من جلوسها سنة كاملة.

وإذ بهاتف يهتف بها ويقول: هل وجدوا ما فقدوا؟ وإذ بهاتف آخر يرد ويقول: ما وجدوا ما فقدوا؛ بل يئسوا فانقلبوا.

ووالله! لن يرجع ميت -يا أيها الأحبة- فما على الإنسان إلا أن يحتسب في تلك اللحظات.

إن رسول الله ﷺ يفقد ابنه إبراهيم الصغير فلذة كبده، فماذا كان منه ﷺ ؟ دمعت عينه، وتأثر قلبه؛ لكنه ﷺ ما قال إلا ما يرضي ربه، وهو الأسوة والقدوة، قال: «**العين تدمع والقلب يحزن ولا نقول إلا ما يرضي الرب، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون**» (١)

ها هي إحدى بناته ﷺ كانت في يوم من الأيام لها ولد في النزع الأخير من سكرات الموت، فأرسلت إلى رسول الله ﷺ رجلًا، وقالت: أخبره أن ابني في النزع لِيَحْضُرَه، فأخبره فقال: «**مرها فلتصبر ولتحتسب، فإن لله ما أخذ وله ما أبقى وكل شئ عنده بأجل مسمى**» (٢)

عبر وعظات على الصبر

يعقوب عليه السلام يفقد حبيبه وابنه وفلذة كبده يوسف عليه السلام مدة أربعين عامًا، فيصبر ولا يشكو إلى أحدٍ وإنما يشكو إلى الله: ﴿ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ [يوسف: ٨٦].

أما الآخر؛ فيغدو ليعتق نفسه، يصاب بالمصيبة فيحتسبها عند الله -كما سمعتم من

---

(١) **متفق عليه**: البخاري (١٢٤١)، ومسلم (٦١٦٧).

(٢) **متفق عليه**: البخاري (١٢٢٤)، (٦٢٢٨) (٦٢٧٩)، ومسلم (٢١٧٤).

هذا الذي ذكرت الآن- فيعوضه الله ويبشره: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ۝ ﴾ [البقرة: ١٥٥- ١٥٧].

في صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «**يقول الله عز وجل: ما لعبدي المؤمن عندي من جزاء إذا قبضت صفيه وخليله من أهل الدنيا ثم احتسبه إلا الجنة**»(١)، ويا له من جزاء! ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

وعند الترمذي: «**أن الله عز وجل يقول للملائكة: قبضتم روح ابن عبدي المؤمن؟ -وهو أعلم سبحانه وتعالى- قبضتم ثمرة فؤاده؟ قالوا: نعم.**

قال: فماذا قال؟ قالوا: حمدك واسترجع -قال الحمد لله، إنا لله وإنا إليه راجعون- قال الله: ابنوا له بيتًا في الجنة وسموه بيت الحمد»(٢)

﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴾

ذكر الذهبي وابن كثير عليهما رحمة الله أن عروة بن الزبير أحد علماء المدينة، الذي كان يقطع يومه صائمًا غالبًا، ويقطع ليله قائمًا، ويختم القرآن في كل أربع ليال مرة، أخذ ابنه وسافر في يوم من الأيام، وأصابته الآكلة في رجل قدمه.

-وهو ما يسمى الآن بالسرطان- فجاءوا به إلى الأطباء فقالوا: نقطعها من القدم.

قال: لكني أنتظر وأصبر وأحتسب، فصعدت الآكلة إلى الساق، فقالوا نقطعها من الركبة.

قال: لكني أنتظر وأصبر وأحتسب. فدخلت إلى الفخذ فقالوا: يخشى عليك. قال: الله المستعان! سلمت أمري لله، فافعلوا ما شئتم.

فجاء الأطباء، وتجمعوا بمناشيرهم وجاءوا ليس لديهم مخدرًا كما لدينا الآن، ما عندهم إلا كأس الخمر، فجاءوا له بكأس خمر، وقالوا له: اشرب هذا عله أن يذهب عقلك فلا تحس بألم القطع.

---

(١) صحيح: البخاري (٦٠٦٠).

(٢) حسن: أخرجه الترمذي (١٠٢١)، و ابن حبان في «صحيحه» (٢٩٤٨)، والألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٠١٢) (٣٤٩١).

فصاح وقال: عقل منحنيه ربي أذهبه بكأس من الخمر؟! لا والله! لكن إذا أنا توضأت، ووقفت بين يدي الله وقمت لأصلي، وسَبَحَتُ مع آيات الله البينات، فافعلوا برجلي ما شئتم.

فتوضأ ووقف بين يدي الله، وجمعوا مناشيرهم، وسَبَحَ مع آيات الله البينات، وقاموا يقطعون في رجله بالمناشير، وإذا بالدماء تنزف، وإذ به يخر مغشيًا عليه، وفي تلك اللحظة كان ابنه محمد وراء ناقة من النوق يطاردها فرفسته فأماتته.

مصيبتان في آن واحد أفاق من غيبوبته، فقالوا له: أحسن الله عزاءك في ابنك محمد، وأحسن الله عزاءك في رجلك.

فقال: الحمد لله رب العالمين، أولًا وآخرًا وظاهرًا وباطنًا، إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم يا رب! إن كنت أخذت فقد أعطيت، أعطيتني أربعة من الولد وأخذت واحدًا فلك الحمد أولًا وآخرًا وظاهرًا وباطنًا، وأعطيتني أربعة من الأطراف فأخذت واحدًا فلك الحمد أولًا وآخرًا وظاهرًا وباطنًا.

صبر وأي صبر: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٥٥].

سمع به الوليد فطلب أن يأتي إليه، فذهب إليه في قصره، ودخل على الوليد وجلس عند الوليد وبه من الهم ما به؛ لكنه فوض أمره إلى الله جل وعلا، فجاء طفل صغير من أطفال الوليد وقال: ما أصاب عروة ما أصابه، إلا بذنب أصابه، فقال: لا والله!

والله ما مددت كفي لريبة ... ولا حملتني نحو فاحشة رجلي
ولا دلني سمعي ولا بصري لها ... ولا قادني فكري إليها ولا عقلي
وأعلم أني لم تصبني مصيبة من الله ... إلا قد أصابت فتى قبلي

لعله يتسلى به، فخرجوا يبحثون، فإذا هم برجلٍ أعمى يتلمس الطريق بجانب قصر الخليفة، فأدخلوه ويوم أدخلوه على الخليفة قال: ما خبرك؟ قال أنا رجل من بني عبس، والله! ما كان في بني عبس رجل أغنى مني، كانت عندي أموال كثيرة، وكان عندي أولاد كثر، كان عندي من الإبل والبقر والغنم والدراهم والذهب والفضة ما يعلمه الله جلَّ وعلا.

ثم عزب لي قطيع من الإبل، فخرجت أبحث عن هذا القطيع أتلمس، قال: ثم عُدتُ بعد ثلاث أيام وقد رجعت بالقطيع، فإذا سيل قد جاء على الوادي بعدي فلم يبق لي ولدًا ولا أمًا ولا أختًا ولا بنتًا ولا ابنًا ولا مالًا. فإذا الديار خرابٌ بلقع، ليس بها داعٍ ولا مجيب.

قال: فوقفت وإذا أنا بطفلٍ صغيرُ معلَّق بشجرة -طفلٍ صغير من أطفاله لم يبق سواه- قال: فتقدمت إليه وأخذته وضممته على صدري وأنتحب، قال: وإذا بأحد الجمال يند ويهرب، قال: قلت: ضيعت كل شيء من أجلك لأرجعن بك، فترك ابنه الصغير قال وبينما أنا أطارد الجمل، وإذا بصوت الطفل الصغير يصرخ، فإذا ذئب قد أخذه وسحبه من أمامي.

مصيبة أي مصيبة!! قال: فبقيت وراء الإبل لم يبق لي إلا الإبل، أريد أن أستعيد هذا الجمل، قال: فذهبت وراءه أطارده، وإذ به يرفسني فيعمي عيني، فإذا أنا في الصحراء لا أهل ولا مال ولا صديق ولا صاحب ولا أنيس إلا الله الذي لا إله إلا هو، وجئتك ووالله ما جئتك يا وليد شاكيًا! ولكن جئتك ليعلم الناس أن لله عبادًا يرضون ويسلمون بقضاء الله وقدره إذا قدر: ﴿ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٥-١٥٦].

ها هو أبو ذؤيب الهذلي يموت له ثمانية أبناء في يوم واحد بالطاعون؛ فيحمد الله، ويقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، ويصبر ثم يقول بعض أبيات من الشعر هي عظة وعبرة يقول:

ولقد حرصت بأن أدافع عنهم ... وإذا المنية أقبلت لا تُدْفَعُ

وإذا المنية أنشبت أظفارها ... ألفيت كل تميمة لا تنفع

وتجلدي للشامتين أريهم ... أني لريب الدهر لا أتضعضع

فأي الغادين أنت؟ فكلٌّ يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها.

الظلم وخيم العاقبة

وذاك غاد يغدو ليهلك نفسه بظلم عباد الله جلَّ وعلا، يظلمهم بلسانه، ويظلمهم بيده، ويظلمهم بأي نوع من أنواع الظلم، ناسيًا قول الله عزَّ وجل: ﴿ وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمۡ لِيَوۡمٖ تَشۡخَصُ فِيهِ ٱلۡأَبۡصَٰرُ ﴾ [إبراهيم: ٤٢]، متناسيًا أن دعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب[1]، يرفعها الله فوق الغمام، ويقول سبحانه:

---

(١) متفق عليه: البخاري (١٤٢٥)، ومسلم (١٣٠).

«وعزتي وجلالي! لأنصرنك ولو بعد حين»[(١)]

هاهو سعيد بن زيد أحد العشرة المبشرين بالجنة، تأتي امرأة فتذهب إلى أحد خلفاء بني أمية وتقول: إن سعيد بن زيد غصبني أرضي وأخذها، وما كان لسعيد أن يأخذها، فيأتي به الخليفة، ويقول: أغصبتها أرضها يا سعيد؟! فتدمع عيناه، ويقول: والله ما غصبتها أرضها، ووالله لن أغصبها أرضها؛ لأني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من ظلم قيد شبرٍ من الأرض طُوِّقَهُ يوم القيامة من سبع أراضين»[(٢)]، يصبحُ طوق له من سبع أراضين يحمله يوم القيامة.

ثم قال: فلتأخذ أرضي إلى أرضها، وبئري إلى بئرها، ونخلي إلى نخلها؛ فإن كانت صادقة فذاك، وإن كانت كاذبة فأعمى الله بصرها وأرداها في أرضها.

وتصعد الدعوة إلى الله جلَّ وعلا -الذي ينصر المظلوم من الظالم، وتخرج هذه المرأة، وبعد فترة تُصاب بالعمى، ثم تذهب لتتخبط في أرضها التي أخذتها بالزور والجور، ثم تسقط في البئر مُتردية ميتة، نسأل الله أن يُحسن لنا ولكم الختام.

وهاهم البرامكة وزراء الرشيد الذين كان منهم ما كان، كانوا في نعمةٍ من الله؛ لكنهم ما صانوا نعمة الله، تكبروا وتجبروا وظلموا عباد الله عز وجل، وظنوا أنهم في بُعدٍ عن قبضة الله عز وجل، ويسلط الله عليهم الخليفة فيقتل منهم من يقتل، ويدخل السجن منهم من يدخل، ويضرب أحدهم ألف سوط ثم يُدخله السجن وهو من كبارهم.

فيأتي أحد أبنائه يزوره، فيقول: أبتاه! بعد العز أصبحت في القيد؟ كانت قصورهم مطلية بالذهب والفضة، أين الذهب والفضة يا أبتاه؟ قال: ألا تدري يا بني؟ قال: لا

قال: دعوة مظلوم سرت في جوف الليل نمنا عنها وليس الله عنها بنائم: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [إبراهيم: ٤٢].

ظلم الحيوان

ألا وإن من أعظم الظلم ظلم الحيوانات، بعض الناس جبان، شجاعته سلَّطها على العجماوات، على الحيوانات والدواب التي سخَّرها الله عز وجل له.

---

(١) حسن: أخرجه الألباني في «الصحيحة» (٨٧٠)، وفي «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٢٣٠).
(٢) صحيح: البخاري (٢٣٢٠، ٢٣٢١، ٣٠٢٣)، ومسلم (٤٢١٧، ٤٢١٨، ٤٢١٩، ٤٢٢١).

شجاع على القطط وجريء على الكلاب!!

ها هو رجل أعرفه في منطقة الجنوب، وفي يوم من الأيام تردد حمار على مزرعة له، فيدخل كل يوم في هذه المزرعة ويأكل منها ما يأكل، فطرده في اليوم الأول، ثم طرده في اليوم الثاني، ثم طرده في اليوم الثالث، ولما آذاه كثيرًا أخذه في ليلة من الليالي ثم ربطه في سيارته حيًا ثم سحبه على الإسفلت إلى منطقة بعيدة حتى تمزق قطعة قطعة.

ظلم وأي ظلم! ويرجع إلى بيته ويأتي وفي البيت بعوض، فقام بمبيد حشري عنده يرشه في الغرفة حتى امتلأت بهذا الغاز، ثم جاء ليضيء المصباح فما كان من المصباح إلا أن أصدر شرارة فإذ بالغرفة تصبح عليه نارًا فيحترق بالنار، ثم يبقي يومين أو ثلاثة ليلقى الله، نسأل الله أن يحسن لنا وله الختام.

فالبهائم تشكو إلى الله عز وجل.

يدخل النبي ﷺ حائط رجل من الأنصار، فيجد بعيرًا هناك يجرجر ويأتي إلى النبي ﷺ ودموعه تذرف، يعرف أنه ﷺ ما أرسل إلا رحمة للعالمين، فيقول ﷺ : «**أين صاحب هذا البعير؟**» فيخرج فتى من الأنصار، ويقول: أنا يا رسول الله! فيقول: «**أما تتقى الله في هذه البهيمة تجيعها وتتعبها، إنها شكت إليَّ ما تجده منك**»[1]، ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] ، ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [إبراهيم: ٤٢].

دعوة المظلوم مستجابة

هاهو رجل كان يُكاري على بغلٍ له بين دمشق والزبدان كما يروي ابن كثير، وجاء يومًا من الأيام قاطع طريق فركب معه وذهبا في الطريق، وبينما هو في الطريق قال: اسلك هذه الطريق فهي أيسر وأقرب، قال: أنا منذ فترة وأنا أسلك هذا الطريق وأعرفها.

قال: هذا أقرب وأيسر.

فصدقه وذهب معه، فجاء إلى وادٍ سحيق وإذ بهذا الوادي فيه جثث القتلى كثير، وإذا به يأتي بالناس إلى هناك فيذبحهم ثم يسرق ما معهم، ظلم وأي ظلم!

جاء بهذا الرجل وأراد أن يقتله فهرب الرجل، فلحق به وأمسك به، قال: يا أخي! خذ كل ما أملك، خذ بغلتي، وخذ ثيابي، وخذ دراهمي، وخذ كل ما تريد ودعني أرجع.

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (١٧٤٥) (١٧٥٤)، وأبو داود (٢٥٥١)، و الألباني في «الصحيحة» (٢٠).

قال: لابد من قتلك، قال: إن كان لابد فدعني أصلي ركعتين أودع بهما الدنيا.

يلجأ إلى الله -جل وعلا- قال: فقمت أصلي، وهو قائم عليّ بالحربة يريد أن يقتلني، قال: فضيعت القرآن وأنا أرى الحربة فوق رأسي، فوالله! ما استحضرت آية من القرآن إلا أنني تذكرت قول الله: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ ﴾ [النمل: ٦٢] قال: فكررتها وإذ بفارس من فم الوادي يخرج على فرس ومعه حربة فينطلق حتى يضربه بالحربة فيرديه قتيلًا، قال: فتعلقت بثيابه، وقلت له: أسألك بالله من أنت؟ قال: أنا من جنود الذي يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء.

دعوة المظلوم ليس بينها وبين الله حجاب.

دخل طاوس -عليه رحمة الله- على هشام بن عبد الملك ينصحه ويعظه ويحذره الظلم، ويقول له: اتق الله يا هشام! ولا تنس يوم الأذان.

قال: وما يوم الأذان يا طاوس؟! قال: ﴿ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأعراف: ٤٤] فأغمي عليه.

إن رسول الله ﷺ يقول كما في الحديث القدسي: «**يا عبادي! إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا**»[١]

وآخر يغدو ليعتق نفسه فلا يظلم أحدًا، إن تكلم فبالعدل، وإن حكم فبالعدل، وإن خاصم فبالعدل، وإن عاهد فبالعدل، والمقسطون العادلون يوم القيامة على منابر من نور على يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين[٢]، لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فأي الغاديين أنت؟ فكلٌّ يغدو فبائعٌ نفسه فمعتقها أو موبقها.

معتقات وموبقات اجتماعية

صلة الأرحام

وذاك يغدو ليقطع رحمه، فيوبق نفسه وتحل به اللعنة، يقول الله عزَّ وجل: ﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾ ﴾ [محمد: ٢٢، ٢٣].

---

(١) صحيح: مسلم (٦٧٣٧).
(٢) صحيح: مسلم (٤٨٢٥).

قال رسول الله ﷺ: «**إن الله لما خلق الرحم تعلقت بالعرش، وقالت: يا رب! هذا مقام العائذ بك من القطيعة. قال: ألا ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى. فمن وصل رحمه وصله الله، ومن قطع رحمه قطعه الله**»[١]

عقوق الوالدين

يغدو بعض الناس ليعق اللذين هما السبب في وجوده بعد الله جلَّ وعلا، والله عز وجل يقول: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾ [الإسراء: ٢٣].

واليوم نسمع -يا أيها الأحبة- ويا ليت الإنسان أحيانًا لا يسمع، غيِّر اسم الأب، وأهينت الأم في كثيرٍ من البيوت يوم ضاعت تقوى الله جلَّ وعلا، فما تسمع في بعض البيوت إلا تسمية نتنة نتن الجيف، يقول لأبيه: شيبة النحس ويقول لأمه: عجوز الشؤم أراحنا الله منهما، إن هذه الكلمات لتنطلق من أولاد على والديهم.

فلا إله إلا الله! إن «رضا الله في رضا الوالدين، وإن سخط الله في سخط الوالدين»[٢]

إن رسول الله ﷺ قال: «**ألا أُنبئكم بأكبر الكبائر؟**» قالوا: بلى يا رسول الله! قال: «**الإشراك بالله، ثم عقوق الوالدين**»[٣]، من أكبر الكبائر عقوق الوالدين، دعوة الوالدين غنيمة من الله عز وجل، دعوة الوالدين مستجابة لا تُرَدّ، فكم من دعوة والد أوبقت دنيا الولد وأخراه! وكم من دعوة والد أسعدت دنيا الولد وأخراه!

يقول أبان بن عياش خرجت من عند أنس بن مالك بالبصرة ومررت على السوق؛ فإذا أنا بجنازةٍ يحملها أربعة نفر ووراءهم امرأة، فقلت: ميت يموت من المسلمين لا يتبع جنازته إلا أربعة نفر! والله! لأشهدن هذه الجنازة، قال: فتقدمت ثم ذهبت وراءهم وحضرت الجنازة، فلما دفنوا هذه الجنازة قلت لهم: ما حالتكم مع هذه الجنازة لم يحضرها إلا أربعة؟ أين المسلمون؟ قالوا: استأجرتنا تلك المرأة لدفن هذا الرجل، فسلها ما لديها.

قال: فذهبت وتلمست الطريق وراءها حتى وصلت لبيتها، ثم تركتها وعدت لها بعد فترة ودخلت عليها، وقلت لها: أحسن الله عزاءك، لله ما أخذ وله ما أبقى، وكل شيء عنده

---

(١) **صحيح**: البخاري (٤٥٥٢)، (٧٠٦٣).

(٢) **صحيح**: أخرجه الألباني في «صحيح الجامع» (٥٨٢٠).

(٣) **متفق عليه**: البخاري (٢٥١١) (٥٦٣١) (٥٦٣٢)، ومسلم (٢٦٩) (٢٧١).

بأجلٍ مُسَمًّى، ما خبرك وما خبر الجنازة التي دفنتموها في ذلك اليوم؟ قالت: إن هذا ابني، كان مُسِرفًا على نفسه، مرتكبًا للموبقات والمعاصي والسيئات، كثير العقوق لي، ويوم حلّت به سكرات الموت، قال: يا أماه! أتريدين لي السعادة؟ قالت: إي والله! والأم والأب ينسى كل زلة من ولده في تلك اللحظات، قال: فإذا أصبحت في السكرات الأخيرة فلقنيني شهادة أن لا إله إلا الله، ثم ضعي قدمك على خدي وقولي هذا جزاء من عصى الله، ثم ارفعي يديك إلى الله وقولي: اللهم إني أمسيت راضية عن ابني فارض عنه، ولا تخبرين أحدًا بموتى فإنهم يعلمون عصياني ولن يشهدوا جنازتي.

قال: ففعلتي؟ قالت: إي والله! لقد فعلت ما قال، قال: فما الخبر؟ فتبسمت وقالت: والله! رأيته البارحة في المنام وهو يقول: يا أماه! قدمت على رب رحيم كريم غير غضبان عليَّ ولا ساخط بدعوتك.

رضا الله في رضا الوالدين، وسخط الله في سخط الوالدين.

صور من عقوق الوالدين

هاهو شاب اسمه منازل رمز للعقوق عند العرب، ينهمك في المعاصي فيتقدم إليه أبوه فينصحه، ويقول له: اتق الله فيتقدم إلى أبيه فيلطمه، ويالله! ابن يضرب أباه، فحلف بالله ليحجن إلى البيت الحرام، وليدعون عليه وهو متعلق بأستار الكعبة، فذهب ووصل إلى الكعبة وتعلق بأستار الكعبة فكان يقول:

يا من إليه أتى الحجاج قد قطعوا ... أرض المهامة من قربٍ ومن بعد

هذا منازل لا يرتد عن عققي ... فخذ بحقي يا رحمن من ولدي

وشل منه بحول منك جانبه ... يا من تقدس لم يولد ولم يلد

وتصعد الدعوة إلى الله جلَّ وعلا، فييبس شق ولده الأيمن فيصبح يابسًا بهذه الدعوة من هذا الأب.

وهاهو آخر: يحكى لي بائع مجوهرات ويذكر أنه في رمضان في سنة من السنوات: تقدم إليّ رجل وأمه وزوجته وابنه الصغير، قال: دخلوا عليّ في المحل، قال: فوقفت الأم متحجبة على استحياء وابن ابنها معها تمسك به، قال: وتقدمت الزوجة وزوجها فأخذوا من الذهب بمقدار عشرين ألف ريال، قال: ثم تقدمت الأم من هناك فأخذت خاتمًا بمائة

ريال، وجاء يُحاسب صاحب المجوهرات وهو يعرف أنه أخذ بعشرين ألفًا، قال: كم حسابك؟ قال: عشرين ألفًا ومائة ريال؛ قال: وما هذه المائة؟ قال: أمك أخذت خاتمًا بمائة.

فغضب وأرغى وأزبد وتقدم إليها وأخذ الخاتم من يدها، وقال: العجائز ليس لهن ذهب وليس لهن زينة، فما كان من هذه الأم إلا أن ذرفت دموعها وتغصصت بجرعها، وما كان منها إلا أن خرجت بابنه تحمله بين يديها إلى السيارة، وركبت السيارة بها من الهم ما لا يعلمه إلا الله.

يقول صاحب «المجوهرات» وأنا أعرفه: والله! لقد بكيت أنا مما رأيت من الموقف، قال: فقالت زوجته: إن أمك هي التي تمسك بابننا وهي التي تخدمنا فما لك لا تعطيها هذا الخاتم، لن تمسك بابني بعد ذلك ولن تخدمني، فذهب إليها بالخاتم، وقال لها: خذي يا أماه! قالت: والله ما لبست ذهبًا ما حييت، والله ما عرفت الذهب ما حييت أبدًا، كنت أريدها لأفرح به معكم، فرأيت أن الأم لا داعي لها أن تلبس الزينة.

أرأيتم عقوقًا مثل هذا العقوق -أيها الأحبة-.

إن هذا في غياب تقوى الله -عز وجل- وفى غياب التربية الإسلامية في البيوت.

دعوة الوالدين مستجابة

وهاهي قصة أخرى لتعلموا أن دعوة الوالدين مستجابة، فسلطوها فيما ينفع الأبناء في دنياهم وأخراهم.

داعية من الدعاة إلى الله يذكر عن أبيه، يقول: كان أبي في سن الشباب وَجَدُّهُ كان رجلًا صالحًا، قال: وأنا في سن الشباب فُتِحَ القبول في السلك العسكري في المملكة قبل فترة طويلة، قال: وكان عندي غنم كنت أرعاها، فقلت: لأذهبن مع الناس لأُسجل في العسكرية، فقال لأبيه: أُريد أن تأذن لي أن أذهب، فماذا كان منه؟ ما كان منه إلا أن قال: أنا لا أستطيع فيك يا بنى، أما أن آذن لك فوالله لا آذن لك، أما إن ذهبت فوالله الذي لا إله إلا هو فما لي إلا سهم أوجهه إلى الله في منتصف الليل ولعل الله لا يرده.

فذهب الرجل وخاف أن يذهب ويترك والده ويقي فترة ثم أغراه ذهاب الناس إلى هناك واستلام الرواتب وأغرته الدنيا، فترك غنمه مع غنم جيرانه وذهب، وقال: لا تخبروه عني إلا في الغد، فذهب وترك والده ولم يستأذنه ولم يخف من ذلك السهم الذي قال له.

وفي اليوم الثاني يُخبر أبوه بأنه قد ذهب مع مجموعة ليُسجل في العسكرية بالطائف قال: فدعا عليه أبوه، وبينما هم في منتصف الطريق وإذ بالولد يعمى ولا يبصر شيئًا، فأخذوه وتقدموا به إلى الطائف وجاءوا إلى هناك فقالوا: هذا لا يصلح للعسكرية، هذا أعمى أعيدوه لوالده، فأخذوه وذهبوا به إلى والده، ولا يدرى والده ماذا حدث له.

وعندما دخلوا من الباب سمعه والده وعرف صوته وهو في فناء البيت لم يدخل بعد، قال: يا بُني! هل أصاب السهم أم لم يصب؟ قال: إي والله! إني لأدخل عليك أعمى مقادًا، فدخلوا به عليه فتأثر الأب تأثرًا عظيمًا، وندم أن دعا على ولده بهذه الدعوة، وبقى ليلته تلك في حزن لا يعلمه إلا الله، فقام يتوضأ ويصلي ويدعو الله أن يرد عليه بصره.

يقول: ومن حزنه على ولده يتقدم إلى عين ولده وهو نائم فيلحسها بلسانه، ثم يرجع فيصلي ويدعو الله، ثم يرجع مرة أخرى فيلحس عينه بلسانه.

وهكذا يرددها، يقول: والله! ما طلع الفجر إلا ورد الله -سبحانه وتعالى- عليّ بصري. فهذه دعوة الوالدين.

وأنا لا أدعو الوالدين إلى أن يدعوا على أولادهم، وإنما أدعوهم أن يدعوا لأولادهم بالفلاح والسعادة، فإن فلاحهم وسعادتهم قد تدركك ولو بعد موتك، أسأل الله أن يوفقنا وإياكم لصلة الأرحام، وأن يجنبنا وإياكم العقوق، إنه وليّ ذلك والقادر عليه.

عبد الله بن عمر يرى طائفًا يطوف بالكعبة وهو يحمل أمه على كتفيه، ويقول: يا بن عمر! أتراني أوفيت أمي حقها؟ والله! إنها لعلى ظهري من كذا إلى الآن.

قال: لا والله! ما أوفيتها طلقة من طلقات الولادة.

العقوق دَين، وبروا تُبروا.

أسأل الله -عز وجل- أن يوفقنا وإياكم إلى صلة الأرحام وأن يجنبنا العقوق.

وهاهو غادٍ آخر يغدو ليبر والديه ويصل رحمه، فيصله الله -عز وجل- ويبره ويوفقه ويسدده ويدخله الجنة بإذنه سبحانه، شعاره:

«ليس الواصل بالمكافئ، وإنما الواصل من إذا قطعته رحمه وصلها».

صلة النبي ﷺ لأخته من الرضاع

هاهي الشيماء بنت الحارث أخت رسول الله ﷺ من الرضاع؛ أرضعته وإياها حليمة السعدية في بادية بنى سعد، وبعد أربعين سنة من الفراق بين الأخ وأخته، حيث افترقا

وهما صغيران، سمعت به أنه انتصر ﷺ وانتصرت دعوته وهو بالمدينة، فانتقلت من بادية بني سعد في الطائف تقطع الفيافي والقفار والصحاري التي يبيد فيها البيد، ويضيع فيها الذكي والبليد، حتى جاءت إلى المصطفى ﷺ .هناك، وبينا هي هناك والنبي ﷺ في وسط جيشه؛ يدبر شئون الأمة ويصرف الجيوش، جاءت إلى أحد الصحابة تستأذنه لتدخل على رسول الله ﷺ، فقالت: أنا الشيماء بنت الحارث أرضعتني أنا ورسول الله ﷺ حليمة السعدية فاستأذنوه لأدخل عليه، فأخبروا النبي الله ﷺ وكان جالسًا في شئون الأمة يصرفها، قالوا: فذرفت عيناه الدموع ﷺ، تذكر الوشيجة والعلاقة، وتذكر رضعات كانت بينه وبينها قبل أربعين عامًا، قالوا: ذهب إليها يستقبلها ويعانقها عناق الأخ لأخته بعد فراق أربعين عامًا، ويسألها ما حالها: كيف حالك يا شيماء؟ مرحبًا بك يا شيماء! يقولون: ويظللها ﷺ من الشمس، ويجلسها في مكانه ليعلم الناس كيف يصلون أرحامهم ﷺ وجلست معه وسألها عن رَبْعِها وعن أهلها وعن أخواتها، وما كان منه ﷺ بعد ذلك إلا أن قال لها: يا شيماء! إن شئت أن تعيشي معي فأختي الحياة حياتي والموت موتي، وإن شئت أن ترجعي لأهلك فذلك لك.

قالت: بل أرجع لأهلي، فقام ﷺ فجهزها بقطيع من الإبل، وبأرزاق معها[1]؛ لِيُعَلِّمَ الناس صلة الأرحام لتعود إلى بادية بني سعد.

فأين الذين قطعوا عماتهم؟! وأين الذين قطعوا خالاتهم؟! وأين الذين قطعوا أمهاتهم؟! ما حال هؤلاء يوم يقفون بين يدي الله.

﴿ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ۝ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴾ [محمد: ٢٢، ٢٣].

فأي الغادين أنت؟ وكل يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها.

شهادة الزور

وغاد آخر يغدو ليهلك نفسه، فيشهد شهادة الزور يوم أصبحت شهادة الزور قرضة في بعض القرى، اشهد لي زورًا أشهد لك زورًا.

---

(١) انظر «عيون الأثر» (٢/ ٢٢٢)، و«السيرة النبوية» لابن كثير (٣/ ٦٨٩)، و«الروض الأنف» (٤/ ٢٢٧)، و«سيرة ابن هشام» (٢/ ٤٥٧).

يقترض بعضهم من الآخر النار وبئس القرار.

«ما يبرح شاهد الزور مكانه حتى تجب له النار» [١]، كما قال ﷺ

أما الآخر: فيغدو فيعتق نفسه فيشهد شهادة الحق فيكون له الأجر، وياله من أجر! الجنة بإذن ربه.

فأي الغادين أنت؟ وكل يغدو فبائع النفس فمعتقها أو موبقها.

الرزق الحرام

والآخر يغدو ليهلك نفسه في البحث عن الرزق الحرام، لم يُوفَّق للحلال مطلقًا، فمطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، بيعه حرام، وشراؤه حرام، وماله حرام في حرام، يتغذى بالحرام من أخمص قدميه إلى رأسه.

إن تصدق لم يقبل الله منه صدقته، وإن خلف ماله وراء ظهره كان زادًا له إلى النار، يقول النبي ﷺ : «يأتي على الناس زمان لا يُبالي المرء أخذ ماله من حلال أم من حرام» [٢]، ويقول: «إن الرجل ليقذف اللقمة الحرام في جوفه ما يتقبل منه أربعين يومًا» [٣]

ومن أعظم الحرام؛ الربا: «الربا بضع وسبعون شعبة، أدناها: مثل أن ينكح الرجل أمه» [٤]، وقوله: «درهم ربا أشد من ست وثلاثين زنية» [٥]

والربا عم ودخل غالب البيوت إلا ما رحم الله، أسأل الله أن يجيرنا وإياكم من الربا، وغُيِّر بغير اسمه، وتناسى الذين تعاملوا به قول الله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ ﴾ [البقرة: ٢٧٨]، نسوا قول الله: ﴿ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ

---

(١) ضعيف: أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٨٣٦٧)، وأبو يعلى في «مسنده» (٥٦٧٢)، والألباني في «الضعيفة» (٢٥١٠).

(٢) صحيح: البخاري (١٩٧٧).

(٣) ضعيف جدًا: أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٦٤٩٥)، والألباني في «الضعيفة» (١٨١٢)، وفي «ضعيف الترغيب والترهيب» (١٠٧١).

(٤) صحيح: أخرجه الطبراني في «الكبير» (٩/ ٣٢١)، وابن ماجه (٢٢٧٤)، والألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٨٥١)، وفي «صحيح الجامع» (٥٨٥٤).

(٥) صحيح: أخرجه أحمد (٢٢٠٠٧)، والبزار في «مسنده» (٥/ ٥٦)، و الألباني في «الصحيحة» (١٠٣٣).

وَرَسُولِهِۦ ﴾ [البقرة: ٢٧٩].

تداوله الذين يُريدون إيباق أنفسهم، والله! لو لم يكن في أكل الحرام إلا أنه لا ترفع لصاحبه دعوة لكفى بذلك زاجرًا عنه.

وآخر يغدو ليعتق نفسه، فيبحث عن لقمة الحلال، ووالله! إن لقمة الحلال نادرة، لكنها هنيئة مريئة ميسرة؛ فمطعمه حلال، ومشربه حلال، ويغذى بالحلال، ودعوته أحرى أن تُجاب من رب الأرض والسماء.

هاهو أبو بكر -رضي الله عنه وأرضاه- ما كان يأكل إلا حلالًا؛ وكان أحيانًا يسأل إذا شك في الطعام، وجاءه غلامه يومًا من الأيام، فقدَّم له طعامًا فأكل منه لقمتين، فقال الغلام: لم تسألني اليوم يا أبا بكر إن هذا من كهانة كنت قد تكهنتها في الجاهلية، فصادفني صاحبها فأعطاني هذا الطعام،فعلم أنه طعام محرم،فوضع أصبعه في فمه يريد أن يخرجه، كادت روحه أن تخرج وما خرج هذا الطعام، قالوا: يا أبا بكر رحمك الله! تقتل نفسك للقمتين لا تعلم أنها محرمة؟! عفا الله عنك، إن كنت مُريدًا إخراجها فاشرب ماء، فشرب ماء ثم أدخل يده مرة أخرى، كادت روحه أن تخرج وخرجت اللقمتين، قالوا: عفا الله عنك.

قال: والله! لو لم تخرج إلا وروحي معها لأخرجتها؛ لأني سمعت حبيبي ﷺ يقول: **«أيما لحم نبت من سحت فالنار أولى به»** (١)

معتقات وموبقات سببها اللسان

الغيبة

وهناك غادٍ آخر يغدو ليهلك نفسه؛ فيسلط لسانه على عباد الله؛ يغتابهم ويتهمهم، ناسيًا قول الله عز وجل: ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ [الحجرات: ١٢]، وقوله ﷺ: **«لما عرج بي مررت على أقوام لهم أظفار من نحاس يخمشون (٢) بها وجوههم وصدورهم، قلت: من هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين يقعون**

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٦١٤)، وأحمد (١٤٤٨١)، والألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٧٢٨)، وفي «صحيح الجامع» (٨٦٤٨).

(٢) يخمش: يخدش.

في أعراض الناس ويأكلون لحومهم»[(١)]

المغتابون الذين همهم فلان وفلان، ونسوا عيوب أنفسهم ولو اشتغلوا بإصلاح أنفسهم لكان أحرى وأولى، يهدي حسناته إلى الناس.

الحسن البصري -عليه رحمة الله- سمع أن رجلًا اغتابه، فما كان منه إلا أن فتش في بيته عن هدية له، فما وجد سوى طبق من رُطَب، فأخذه وقال لخادمه: اذهب إليه، وقل له: سمع الحسن أنك أهديت إليه حسناتك فما وجد لك مكافأة إلا طبق التمر ولو عدت لعدنا، والله! لولا أني أخشى أن يُعْصَى الله لتمنيت ألاَّ يبقى أحد في الدنيا إلا اغتابني؛ لأنه يهدي إليّ حسناته وهو لا يشعر.

كثير من الناس يُصلون ويعملون الصالحات، وفي جلسة واحدة يمحقون ذاك العمل كله بالوقوع في عرض هذا، والوقوع في عرض هذا، فإياك واللسان:

احفظ لسانك أيها الإنسان   لا يلدغنك إنه ثعبان

احفظ لسانك واحترز من لفظه   فالمرء يسلم باللسان ويعطب

أما الآخر: فيغدو فيدافع عن أعراض المسلمين، ويرد عنهم في المجالس، وكلامه ذكر الله أو كلام مباح، فيرد الله -عز وجل- عن وجهه النار يوم القيامة.

فأي الغاديين أنت؟!

وكل يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها.

النميمة

غاد آخر يغدو ليهلك نفسه بالإفساد بين الناس بالنميمة والوشاية؛ ناسيًا قول النبي ﷺ: «لا يدخل الجنة نمام»[(٢)]

أما الآخر: فيغدو للإصلاح بين الناس فأجره على الله أكرم الأكرمين سبحانه وبحمده.

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (١٣٣٦٤)، وأبو داود (٤٨٧٨)، و الألباني في «الصحيحة» (٥٣٣)، وفي «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٨٣٩).

(٢) متفق عليه: البخاري (٥٧٠٩)، بلفظ «لا يدخل الجنة قتات» ، ومسلم (٣٠٣).

الغناء الماجن

وذاك يغدو ليهلك نفسه، ويقسي قلبه، بسماع الغناء الماجن الذي حرمه الله -جلَّ وعلا- وقال فيه المصطفى ﷺ «**ليكونن من أمتي أقوام يستحلون الحر**[١] **والحرير والخمر والمعازف**»[٢]، فيشتري الغِناء ويشتري الخَنَا والفجور بماله، ثم يدخلها إلى بيته لينشر الرذيلة فيه ليصبح أهل البيت بآذان لا تسمع، وقلوب لا تفقه، وأعين لا تبصر، بهائم في مسلاخ بشر: «**ما من راع استرعاه الله رعية فبات غاشًا لهم إلا حرم الله عليه رائحة الجنة**»[٣]

وآخر يغدو لسماع آيات الله تقرع قلبه، فيلين قلبه، وتدمع عينه، ويطيع ربه، ويدِّخر الله له غناء ليس كهذا الغناء الماجن، غناء الحور العين في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر، كلمات الأغاني هي الآتية:

نحن الخالدات فلا يمتن ... نحن المقيمات فلا يظعن

نحن الراضيات فلا يسخطن ... نحن الناعمات فلا يبأسن

***

نحن الحور الحسان أزواج قوم كرام ... طوبى لمن كان لنا وكنا له[٤]

ثم يرسل الله ريحًا على ذوائب أغصان أشجار الجنة، فتهزها فتحدث منها صفير صوت كل طير في الجنة، لو قضى الله الموت على أهل الجنة طربًا لماتوا طربًا، ولكن خلود ولا موت:

قال ابن عباس ويرسل ربنا ... ريحا تهز ذوائب الأغصان

---

(١) **الحر**: الفرج، والمعنى أنهم يستحلون الزنا.

(٢) **صحيح**: البخاري (٥٢٦٨).

(٣) **حسن صحيح**: أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (٧٤١١)، والبغوي في «شرح السنة» (٥/ ١٧٩)، و أخرجه الطبراني في «الكبير» (١٧٢٣٠)، والألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٢٠٧).

(٤) **صحيح**: أخرجه أحمد (١٣٤٢)، والألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٧٤٩)، وفي «صحيح الجامع» (٢٤٤١).

فتـــثير أصـــواتًا تلـــذ لمـــسمع الإنـــسان كالـــنغمات بـــالأوزان

يـــا خيـــبة الآذان لا تتبدلـــي بلـــذاذة الأوتـــار والعـــيدان

خابت أذن استبدلت كلام الله -عز وجل- بأغنية، خابت أذن استبدلت ما أعده الله لها من الغناء في الجنة بهذا الغناء الماجن.

فأي الغادين أنت؟

فكل يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها.

فيا من غدا لإعتاق نفسه جد واجتهد، واغتنم زمن الصبا، وسل الله الثبات حتى المات، وأكثر من قول: «**يا مقلب القلوب! ثبت قلبي على دينك**»(١)

ويا من غدا لإهلاك نفسه وإيباقها وأمهله الله؛ عُد إلى الله وتب إليه، بادر في فكاك رقبتك من النار فأنت في زمن الإمكان.

سعة رحمة الله

عُد إلى الله تجد الله توابًا رحيمًا، إن الله يقول: ﴿ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ [النور: ٣١]، وهو القائل سبحانه: ﴿ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ۝ ﴾ [آل عمران: ١٣٥، ١٣٦].

وهو القائل: «**يا بن آدم! إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك ما كان منك ولا أبالي، يا بن أدم! لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك، يا بن آدم! لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تُشرك بي شيئًا لأتيتك بقرابها مغفرة**»(٢)

ســبحان مــن يعفــو ونهفــو دائمًــا ولا يــزل مهمــا هفــا العــبد عفــا

يعطـــي الـــذي يُخطـــي ولا يمـــنعه جلالـــه عـــن العطـــا لـــذي الخطـــا

«**يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل حتى تطلع**

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٢١٤٠)، وأحمد (١٢١٢٨)، و الألباني في «الصحيحة» (٢٠٩١).

(٢) صحيح: أخرجه الترمذي (٣٥٤٠)، وأحمد (٢١٥١٠)، و الألباني في «الصحيحة» (١٢٧).

الشمس من مغربها»[١]. **«يا عبادي! إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعًا؛ فاستغفروني أغفر لكم»**[٢]

اللهم اغفر لنا، اللهم ارحمنا، اللهم تب علينا، اللهم يا من رحمته وسعت كل شيء ارحمنا برحمتك.

الله عز وجل رحيم، والله عز وجل كريم، وسبقت رحمته غضبه.

ها هو سبيٌ يأتي إلى الرسول ﷺ، وبين السبي امرأة ضيعت ولدها، تبحث عنه يمينًا وشمالًا حتى وجدته، فضمته إلى صدرها ضمة الأم لابنها الذي أضاعته، والرسول ﷺ يراقبها، فيقول لأصحابه: **«أترونها طارحة ولدها في النار؟»** قالوا: لا والله! وهي تستطيع أن تطرحه. قال: **«لله أرحم بعباده من هذه بولدها»**[٣]

فيا من رحمته وسعت كل شيء! ارحمنا برحمتك.

هاهو رجل من بني إسرائيل مُوحِّد لم يشرك بالله شيئًا، ارتكب الموبقات؛ سرق وزنا وغش وارتكب السيئات، وحلت به سكرات الموت، ساعة الموت الذي يُذعن فيها الجبارون، ويذعن فيها المتكبرون، فجمع أبنائه في ساعةٍ لا ينفع فيها مال ولا ولد، وقال لهم: أي أب كنت لكم؟ قالوا: خير أب.

قال: فوالله! ما عملت خيرًا غير أني موحد لم أشرك بالله عز وجل، فإذا أنا مت فأضرموا النار ثم ضعوني فيها حتى أصبح رمادًا، ثم اسحقوني، ثم ذروني مع الريح؛ فلأن لقيت الله ليعذبني عذابًا لا يعذبه أحدًا من العالمين.

ومات الرجل، ونفذوا وصيته، حرقوه وسحقوه وذروه مع الريح، فتفرق على الجبال والسهول والوهاد والأشجار والأحجار، لكن الذي بدأه أول مرة أعاده، قال الله سبحانه وتعالى له: كن فكان كما كان.

قال: يا عبدي! ما حملك على ما صنعت؟! أما تعلم أني أغفر الذنب وأستر العيب؟! قال: يا رب! خشيتك وخفت ذنوبي.

---

(١) صحيح: مسلم (٧١٦٥).

(٢) صحيح: مسلم (٦٧٣٧).

(٣) متفق عليه: البخاري (٥٦٥٣)، ومسلم (٧١٥٤).

قال: فأشهدكم -يا ملائكتي- أني قد غفرت له وأدخلته الجنة[1]

يا من رحمته وسعت كل شيء! ارحمنا برحمتك.

قصة آبق عاد إلى الله

أخيرًا هذا نموذج لغادٍ غدا في إيباق نفسه ثم أمهله الله عز وجل فغدا لإعتاق نفسه، وهي قصة لعل فيها عبرة.

رجل عمره ما بين الثلاثين إلى الأربعين، عربد وأفسد، وصدَّ وندَّ عن الله عز وجل، يقول عن نفسه: ما كنت أنام ليلةً من الليالي إلا على شربة خمر أو زنا، قال: ويشاء الله وأتزوج بامرأة، فأزداد في عنادي وطغياني، أترك الحلال في البيت، وأذهب أطلب الحرام في خارج البيت، قال: وجئت ليلةً من الليالي بعد أن ولدت لي هذه الزوجة بنتًا وأصبح عمرها خمس سنوات، قال: جئت في ليلة من الليالي فتواعدت مع أصحابي على أن نشرب الخمر في مكان معين، ويشاء الله عز وجل لي أن أبتعد عن هؤلاء وأتأخر عن الموعد بدقائق، فجئت فإذا هم قد ذهبوا، ذهبت يمينًا وذهبت شمالًا أبحث عنهم، ما تركت مكانًا إلا وبحثت عنهم فيه، لا حبًا فيهم ولكن كيف أنام ليلةً بلا زنا ولا شرب خمر.

لا إله إلا الله! يوم يصد الإنسان ويند عن الله عز وجل.

قال: ثم ذهبت إلى صديق سوء آخر عنده من الأفلام الخليعة ما يستحي إبليس أن ينظر إليها، قال: فذهبت إليه وأخذت منه فيلمًا خليعًا، ورجعت إلى بيتي في الساعة الثانية ليلًا.

لا إله إلا الله! الساعة هذه في الثلث الأخير من الليل، يتنزل فيها الرب سبحانه وبحمده نزولًا يليق بجلاله، يقول: «**هل من داعٍ فأستجيب له؟ هل من مستغفرٍ فأغفر له؟ هل من تائبٍ فأتوب عليه؟**»[2]، ثلث الأوابين ثلث التوابين.

قال: دخلت بيتي -والناس على قسمين ما بين عبد وقف بين يدي الله دموعه تهراق على خده من خشية الله، وما بين أناسٍ يرضعون المعاصي في تلك اللحظة وأنا واحد منهم- قال: فدخلت فنظرت لزوجتي وابنتي فإذا هما نائمتان، فدخلت في مكان فيه هذا

---

(١) صحيح: البخاري (٣٢٩١) (٦١٦١) (٧٠٦٩).

(٢) صحيح: مسلم (١٨١٠) (١٨١٣) بنحوه.

الجهاز الخبيث الذي لطالما دمر كثيرًا من البيوت، جهاز الفيديو وما يستتبع هذا الجهاز من أفلام تعلمونها يا أيها الأحبة.

يذكر أحد المشايخ في الأسبوع الماضي أنه في مكة وفي بلد الله الحرام ستة عشر فيلمًا جنسيًا يستحي إبليس أن ينظر إليه، سجلت في وسط مكة وتباع في وسط مكة! أين تقوى الله؟! في حرم الله نبارز الله؟! والله! لنحن عند الله لا نساوي شيئًا، متى ما تركنا أمره يدمرنا ولا يبالي سبحانه وبحمده.

قال: وأدخلت هذا الشريط في هذا الجهاز وأغلقت الباب، وقمت أنظر في مناظر -أكرم الله هذه الوجوه عن تلك المناظر- قال: وإذ بالباب يفتح، فدهشت وخفت وذعرت، وإذا بها ابنتي الصغيرة التي عمرها خمس سنوات تدخل عليّ من الباب، تُحدُّ فيَّ النظرات وتقول: عيب عليك يا والدي! اتق الله.

عيب عليك يا والدي! اتق الله.

قال: تجمدت مكاني، وبقيت أُفكر في هذه الكلمات، من علمها وأنطقها إلا رب الأرباب سبحانه وبحمده.

قال: بقيت أفتش في نفسي؛ من أين جاءت هذه الكلمات؟ فقلت: لعلَّ أُمها لقنتها هذه الكلمات.

قال: وذهبت وإذا بأمها نائمة.

قال: فخرجت أهيم على وجهي وأنا أتذكر قولها: عيب عليك يا والدي! اتق الله.

قال: وبينما أنا في حيرتي واضطرابي ودهشتي وإذا بهذا المنادي ينادى: الله أكبر الله أكبر! نداء صلاة الفجر الذي حرمه كثير من المحرومين الغافلين.

قال: فاتجهت إلى المسجد مباشرة، ودخلت دورات المياه، واغتسلت وتوضأت ودخلت مع المسلمين أُصلي، قال: ويوم سجدت مع الإمام انفجرت في البكاء، لا شعوريًا، بدأت أبكي، تذكرت فضائحي، وتذكرت جرائمي، وتذكرت قدومي على الله، آلمتني الكبيرة، ولسعتني الفاحشة، قال: وبعد أن انتهت الصلاة وإذا برجلٍ بجانبي يقول: ما بك؟ قال: سبع سنوات ما سجدت فيها لله سجدة، بأي وجه ألاقي ربي؟ سبع سنوات ما سجدت فيها لله سجدة بأي وجه ألاقي ربى؟

وبقي مكانه يتذكر ما كان منه من صدود ومن هرب عن الله -عز وجل- وأين المهرب منه إلا إليه.

قال: ويحين وقت الدوام، وأذهب للدوام من المسجد وأدخل إلى دائرتي التي أعمل فيها، وفيها رجل صالح لطالما ذكرني بالله ولا أسمع له، قال: ويوم دخلت عليه، قال: أهلًا بك، والله! إن بوجهك شيئًا غير الوجه الذي أعرفه منك سابقًا، فما الذي حصل؟

قال: كان من أمري كذا وكذا، وأخبره بقصته في تلك الليلة، ثم استأذنه ليذهب وينام، فنزل من عنده وقد أذن له، فنزل إلى المسجد ليصلي في مسجد الإدارة التي يعمل فيها، قال: وجئت لوقت صلاة الظهر -زميله الذي يعمل معه- قال: ويوم دخلت المسجد فإذا به أمامي يصلي، ولما رآني ذرف الدموع واعتنقني، قلت له: لِمَ لم تذهب لبيتك لتنام؟ قال: إن بي شوقًا عظيمًا إلى الصلاة، سبع سنوات ما ركعت فيها لله ركعة بأي وجه ألاقي ربي؟ ثم تواعدا على أن يلتقيا في الليل.

وذهب إلى بيته وذهب هذا إلى بيته، ويوم دخل على أهله في البيت، وإذ بزوجته تصرخ في وجهه، وتقول: ابنتك ماتت منذ لحظات، فما كان منه إلا أن انهار وبدأ يردد: عيب عليك يا والدي! اتق الله.

عيب عليك يا والدي! اتق الله.

يرددها ويذكر أنها ذكرته بالله عز وجل، فيأتي زميله بعد أن اتصل به وأخبره الخبر، فجاء إليه، وقال: احمد الله الذي أرسل إليك ابنتك قبل أن تموت؛ لتذكرك بالله ولم يرسل لك ملك الموت ليقبض روحك.

ثم غسلوها وكفنوها وصلوا عليها، ثم ذهبوا بها إلى المقبرة، ويوم وصلوا إلى المقبرة قال زميله: خذ ابنتك وضعها في لحدها، يريد أن يربيه ليعلم أن المصير إلى هذا المكان.

فأخذ ابنته بين يديه، دموعه تسيل على كفنها:

وليس الذي يجري من العين ماؤها ... ولكنها روحٌ تسيل فتقطر

فأدخلها في لحدها، وقال كلامًا أبكى جميع من حضر الدفن، قال: أنا -والله- ما أدفن ابنتي، ولكني أدفن النور الذي أراني النور.

هذه البنت أرتني نور الهداية بعد طول ضلالة وغواية، فأسأل الله أن يجمعه بها في جنات ونهر.

فيا أيها الحبيب! عُد إلى الله، وأعتق نفسك من النار، إذا رأيت صدودًا وقسوة في قلبك فتذكر ليلةً من الليالي وأنت بين أهلك سعيدًا، وتذكر ليلة من الليالي وأنت على فراشك الوثير، ثم تذكر الأخرى وأنت تفترش التراب:

تـــالله لـــو عـــاش الفتـــى في دهـــره ... ألفًـــا مـــن الأعـــوام مالـــك أمـــره

مُـــتلذذًا فـــيها بكـــل لذيـــذة ... مُتنـــنعما فـــيها بنعمـــى عـــصره

مـــا كـــان ذلـــك كلـــه في أن يفـــي ... بمبـــيت أول لـــيلة في قـــبره

يـــا مـــن يـــرى مـــد الـــبعوض جـــناحها ... في ظلمـــة اللـــيل البهـــيم الأَلْـــيَلِ

ويـــرى نـــياط عـــروقها في نحـــرها ... والمـــخ في تلـــك العظـــام الـــنُحَّلِ

اغفـــر لعـــبدٍ تـــاب مـــن زلاتـــه ... مـــا كـــان مـــنه في الـــزمان الأول

اللهم اهدنا واهد بنا ويسر الهدى لنا.

اللهم إنا نشهدك بهذه الساعة المباركة أنا تبنا إليك وأنبنا ربنا إليك.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد.

۞۞۞۞۞

[١٤] اقصد البحر وخل القنوات

الحمد لله الذي نشر بقدرته البشر، وصرَّف بحكمته وقدَّر، وابتعث محمدًا إلى كافة أهل البدو والحضر، فأحلَّ وحرَّم وأباح وحظر؛ لا يغيب عن بصره وسمعه دبيب النمل في الليل إذا سرى، يعلم السرَّ وأخفى، ويسمع أنين المضطرِّ ويرى، لا يَعزُب عن علمه مثقال ذرةٍ في الأرض ولا في السَّما.

اصطفى آدم ثم تاب عليه وهدى، وابتعث نوحًا فبنى الفلك وسرى، ونَجَّى الخليل من النار فصار حرُّها ثرى، ثمَّ ابتلاه بذبحِ ولده فأدهش بصبره الورى.

أَحْمده ما قُطِع نهار بسير وليل بسُرى، أحمده حمدًا يدوم ما هبَّت جنوب وصَبَا.

وأصلِّي وأُسلِّم على رسول الله محمد، أشرف الخلق عَجمًا وعَربًا، المبعوث في أم القرى، صلوات الله عليه وسلامه ما تحركت الألسن والشِّفا، وعلى أبي بكر الذي أنفق المال وبذل النفس وصاحبه في الدار والغار بلا مِرَا: ﴿ ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ [التوبة: ٤٠].

وعلى عمر الذي من هيبته ولَّى الشَّيطان وهربا، من أغَصَّ كسرى وقيصر بالرِّيق وما وَنَى، وعلى عثمان مجهز جيش العُسْرة زوجُ ابنتيه ما كان حديثًا يفترى، حيَّته الشهادة فقال: مرحبًا، وعلى علي أَسد الشرى، ما فُلَّ سيف شجاعته قط ولا نبا، وعلى جميع الأَهل والآل والأصحاب والأتباع ما تعاقب صبح ومسا:

صـلَّى الإلـهُ ومـنْ يَحُـف بعرْشـه والطَّيـبُون علـى المُـبَارك أحمـدا

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢]، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝٧٠ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٧١ ﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أحبتي في الله...

إنَّ الإسلام عقيدة استعلاء، تبعث في روح المسلم إحساس العزة من غير كِبْر، ورُوح الثِّقة في غير اغترار، وشعور الاطمئنان في غير تَواكل، عقيدة تبعث فيه روح الاستهانة بالمظاهر الجوفاء، والاهتمام بالحقائق الناصعة البيضاء، عقيدةٌ تعلمه كيف يتغلب على

شهوات النفس ومألوفات الحياة في سبيل الله، تُعلمه نِسيان حظوظ النَّفس في سبيل إعلاء دين الله، تُعلمه كيف يستقبل الشدائد في سبيل الله بثغرٍ باسم، ونفسٍ هانِئة مطمئنة، عقيدة تُشعر المؤمن بالتَبِعة المُلقاة على كاهله، تبعة الدعوة للبشرية الضَّالة، لانتشالها من الضَّلالة إلى الهداية، وإخراجها من الظُّلمات إلى النور: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠]، فسبحان من قدَّمنا على الناس، وسقانا من القرآن أروى كاس، وجعل نبينا أفضل نبي رعى وساس، وأنعم علينا بعلو الهمة وقال لنا: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١١٠].

مَنْ تأمل وتدبر ونظر؛ وجد الأمة قد مرت بها فترات خَيْرِية، كانت فيها هادية الناس إلى باريها، قائدة رائدة:

كتيبةٌ زيَّنها مَولاها لا كَهْلُها هُدٌ ولا فَتَاها

وفي العُصور المُتأَخرة تمرُّ بالأمة فترة عصيبة كادت تفقد فيها هويتها؛ لتصبح تابعةً مسخًا إمَّعة، فإذا المسلم يُجِيل نظره في رُقعة العالم الفسيح، فيرتَّد بصره خاسئًا وهو حَسِير، يوم يرى جموعًا تسير في دروب متشابكة متعرجة في ليل بهيم، تَسِير وتَسِير، ويُضْنيها المسير، ثم لا تصل إلى البحر الذي تريد، تُحدِّد أهدافًا، وتقصد غاياتٍ، ولمَّا تظن أنَّها قاربت أهدافها، تُفاجأ بأن الأهداف سراب خادع، ويُطمئنك أنه في وسط تلك الدروب ترى طريقًا واحدًا مستقيمًا، لا ينحرف يمينًا ولا شمالًا، تهب عليه الأَعاصير، تكاد معالمه تَنْدثر، فإذا بأقوام يقومون بكشف الرِّمال عنه من جديد، يُوضحون معالمه، ويجددون رسومه، يقلون على هذا الطريق ويكثرون، لكنه لا يكاد يخلو من سائر يُقيضه الله بمَنِّه وكرمه؛ ليرد على الأمة في ذاك الطريق إيمانها بدينها، ويصحح مسارها، ويُعِيد لها ثِقَتها بطريقها؛ لتفهم رسالتها؛ من مُصْلحين وأَئِمة يتعاقبون فيها إلى يومنا هذا كابن عبد الوهاب رحمه الله وغيره ممن يريدون العزيز الوهاب، يُثْبتون أن الأمة كالمطر لا يُدرى أوله خير أم آخره، ولذا صَوَّت حادي المصلحين في ظلام الليل البهيم على ذاك الطريق:

إنَّ هذا العصر ليلٌ فأَنِر أيُّها المسلمُ ليلَ الحائرين

وسفِينُ الحقِ في لُججِ الهوى لا يُرى غيرَك ربَّانَ السَّفِين

وتجاوبت بالصَّدى الأرجاء، وأقبل الناس على دين الله من كل حَدْب وصَوب على ذاك الطريق، والحمد لله رب الأرض والسماء؛ فما من أرض إلا وقد وصلتها الصحوة

المباركة، رغم الكبت والتضليل والحصار، فالهُتاف يملأ الأنحاء، ويشق عنان السَّماء: أنَّا لا نريد غير الإسلام عقيدةً وشريعةً ومنهجًا:

وهاتف الكل أن الله غايتنا فنحن لا نبتغي جاهًا وسلطانًا

وإنما نبتغي للنَّاس قاطبةً خيرًا ومنفعةً دومًا وإحسانًا

هُتاف يستحث كل مسلم غيور، أو مُتَبلدٍ ويُذَكِّره بأن مسئوليته ضخمةٌ، وأنه يملك بصيرةً تجعله جديرًا أن يكون له نصيب من التوجيه والتربية والحُداء للركب السائر على ذاك الطريق.

هُتافٌ يصرخ: الزَّمن يُسرع، ولا انتظار لبطيءٍ أو متثاقلٍ أو قاعدٍ، ومَنْ يَنْفر مع بزوغ الفجر فسيسبق من توقظه الشمس؛ لأن الطريق سيزدحم.

الفتور في التربية مما حرف البعض عن الهدف

وبدأت الصحوة تُؤتي ثِمارها والحمد لله رب العالمين؛ لكنه نظرًا للفتور والتقاعس والتباطؤ في التوجيه والتربية، والقيام بالمسئولية، وغيرها من العوامل تجاه هذه الجموع، ظهر في الأُفُقِ سَحَائب تخاذلٍ وضَعف، أو غُلُوٍ وتنطع على نفس الطريق.

وبعبارةٍ أدق: ظهر تعلق بالأطراف والشواطئ والقنوات، وهُجِرت لُجَة البحر والعمق والخِضَم، فإذا أنت ترى من تعلق بطرف أعلى يكاد يسقط فتُدق عنقه، وما هو أعز من عنقه، جاوز الحد؛ هلك ثم هلك.

وآخَرُ في الطرف الأدنى يحتضر لا يكاد يعرف هويته، يحمل اسم الإسلام ويجهل كُنْهه، قد ربط الوهم أقدامه المسرعة، وطوى أشرعته المبسوطة، وثقلت به أجنحته المُرفرفة، يَنْدب حظه وكفى.

وآخَر راكب متجه نحو هدفه، فلمَّا رأى السَّراب أراق ماءه؛ ظنًا منه أنه بلغ هدفه، فلما جاءه لم يجده شيئًا، ثم ندم حيث لم ينفعه الندم.

وآخر اتَّخذ الوسائل غاياتٍ؛ فبقي في القنوات وهجر لُجَّة البحر.

وآخر اكتفى بالكلام، وركل العطاء والعمل.

وآخر هجر الكيف واهتم بالكم، عمل غير النَّافع وترك النافع، عمل غير المُهم وترك المهم والأهم، ما حاله إلا كمن صنع ساقية، لكنِّها لا تسقى الزرع، بل تأخذ الماء من النهر

فترده في النهر، تَعَجَّب النَّاس من فعله الأحمق! قالوا: ما هذا السَّفه؟! تعمل ولا نتيجة لعملك، تأخذ الماء من النهر وتعيده إلى النهر؟! قال: يكفيني من السَّاقية نَعِيْرُها -يكفيه صوتها-.

وآخر رضيَ بالزرع، واتبع أذناب البقر، وترك الجهاد، وَرَهَقَه الذُّل، ومع ذلك لم يَجْنِ من الزرع الثمر، ولم يأخذ من البقر اللبن، بل بقيَ عالة يتكفَّف ويسأل، ويُنشد مع ذلك:

أرى مـــاءً وبـــي عطـــشٌ شـــديد ولكـــنْ لا ســـبيلَ إلى الـــوُرودِ

وآخر اتَّضح طريقه، وحُددت غايته، وهُيئت وسيلته، وأصابه في وسط الطريق همٌّ دوَّخه، غبشٌ جاءه في وسط الطريق استولى عليه، فهو أحوج ما يكون لحادٍ يحدوه إلى البحر.

لهذا كله كان لِزامًا على كل مسلم يملك أدنى صوت للتوجيه؛ أن يرفع الأذان ليخرق الآذان، علَّه يصل إلى الجنان، ليرد ذلك المتجاوز، ويُحيي ويوقظ ذاك الرمَّة الغافل، ويُطلق الأقدام، ويبسط الأشرعة، ومعه تُرفرف الأجنحة ليُهتم بالنافع الأهم، ويهجر الكم.

من هذا المنطلق كانت هذه الكلمات بعنوان: اقصد البحر وخلِ القنوات.

الثمرة المرجوة من هذا المقصد

اقصد البحر وخلِّ القنوات: هي دعوة للعمل بشرع الله وله، من غير ما زيادة ولا نقصان، مع هجرٍ لقنوات التَّفلت والتَّميع والتَّجاوز، بل وسطية في اتزان؛ أوجهها لنفسي أولًا، وللمسلمين ثانيًا؛ علَّها تُحرك القلوب إلى علام الغيوب، وتحدو النفوس للعمل لما يرضي الملك القدوس.

هي مع ذلك صرخةٌ وحُداء؛ صرخة تهتف: أن أغلق باب الدعة والسكون والراحة، وافتح على المصراعين باب العمل بهمة وطُموح في اتزان وبصيرةٍ، وانْزِل السَّاحة، والأهم فالأهم تكن الراحة.

أن أغلق باب الكرى، وافتح باب النَّصب والعمل، رقيًا مشروعًا مع أولي النُّهى، أَمِط عن رأسك قناع الغافلين، ولا تتجاوز الحد في المشروع تكن مع الهالكين، سِر بخُطى ثابتة في الميدان، ولا تَغربَنَّ عليك الشمس وأنت لازلت في تواكل أو توان، سَدِّد وقارب، فما النَّاس -وأنا وأنت منهم- إلا كإبل مائة هُزَال مترنحة مسترخية، ولا تكاد تجد فيها راحلة.

يـــثْقلون الأرض مـــن كثـــرتهم ثـــمَّ لا يُغْـــنون في أمـــرٍ جَلَـــل

ومُختار القليل أقل منه!

غريب -يا أيُّها الأحبة- غريب!

أتُخــتار الحـــياض وماؤهـــا غُـــثاء وبحـــر الـــدين تـــصفو مـــناهله؟

فِرَّ في اعتدال إلى الله، واصبر على اللأواء والموعد الله.

لا لؤلـــؤ البحـــرِ ولا أصـــدافه إلا وراء الهـــوْل مِـــنْ عُـــبابه

وهي كذلك -أعني هذه الكلمات- حُداء سريع لجميع الأطراف، أطوِّف فيه تطوافًا حثيثًا كأشواط الرّمْل في طواف القدوم أُرَدد فيها:

أيُّهـــا الـــساعي لكحْـــل المُقَـــلِ غـــافلاً عمَّـــا بـــه مـــن كحَـــلِ

اسْـــــمعْ وعِ لا تَغْفلـــــنْ وســـــببًا لا تُهْمِلَـــــنْ

وأخْلِـــصْ اتْـــبَع تَـــنْجُون مَـــع الدَّلـــيل تَجْـــرِيَن

واثْـــبُت ودفعًـــا للـــتُّمن ميِّـــز بـــرفقٍ أَجِـــبَن

وحـــقِ ذي حـــقّ أَعْطِـــين وفاضـــلَ الأمـــر اقْـــصدن

وخَيْـــر خَيْـــرين اتَّـــبَعن وشَـــر شَـــرَّين ادْفَعَـــن

وكـــنْ ذكـــيًا واتَّـــزن بكثْـــرةٍ لا تُعْجـــبنْ

وبعـــد هـــذا البحـــر فـــاقْـ ـــصدْ وقـــناةً خَلِّـــينْ

ذلك -يعلم الله مني- جهد المقل، وقوة الضعيف الذي لا يكاد يمضي حتى يَكِل، وما أنا وهذا الأمر وأين ما أقع منه إي والله؟! إن أنا إلا رجل يقرأ ليجمع، ويكتب ليقرأ ما وسعه أن يتفرج ويندب، فإن أصاب فلكم ولا همّ، وإن أخطأ فعليه وخلاكم ذمٌّ.

أعوذ بالله من فتنة القول وزوره، وخَطَل الرَّأي وغروره.

اللهم تجاوز عن زلاتي وجرأتي، ولا تجعل حظِّي من ديني لفظي، وارْزقني الصِّدق في نيَّتي وقولي وعملي.

اللهم إنِّي أعوذ بك من الفقر إلا إليك، ومن الذُّل إلا لك، ومن الخوف إلا منك.

اللهم إني أعوذ بك أن أقول زورًا، أو أغشى فجورًا، أو أن أكون بك مغرورًا.

اللهم إني أبرأ إليك من حولي وقوتي، وألجأ إلى حولك وقوتك، لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين.

اللهمَّ لا سهل إلا ما جعلته سهلًا، وأنت تجعل الحَزْن إذا شئت سهلًا[1]

أهمية الإخلاص والمتابعة في السير إلى الله

فتى الإسلام...

اقصد البحر بأسباب وخض هول العُباب إيَّاك والتواكل؛ فإنه التخاذل وليس بالتوكل. لكل شيءٍ سبب قدره المقتدر المالك المنفرد ، فاطرق بحزم سببًا وابذر بجد حبًّا ، وثَمرًا لا تنتظر نتيجةً لا تملكن ، فالأمر للإله الواحد القهار .

لا تكن -أخي- كمن يريد أن يزرع اليوم ولا أرض ليحصد غدًا، ويغرس في الصباح ولا بذر، ليجني في المساء، ذاك محال وخلاف سنة الله رب الأرض والسماء.

أتَطمعُ أنْ تَرى غَرْسًا وتَهْفُو ... إلى ثَمَراته قَبْل الغِرَاس

محال؛ إن الله عز وجل كان قادرًا أن ينصر نوحًا صلوات الله وسلامه عليه ومن معه من أول الأمر، لكنه تركه يأخذ بالسبب، يدعو ليلًا ونهارًا، سرًا وجهارًا، ألف سنة إلا خمسين عامًا، ثم نجَّاه الله بسفينة صنعها بيديه، ولم تنزل له من السماء، سُنة الله، ولن تجد لسنه الله تبديلًا.

فمَا نَيْلُ المَطَالِبِ بالتَّمنِّي ... ولَكنْ الْقِ دَلوَك فِي الدِّلاءِ

أحبتي...

إن طالب علم يريد حفظ كتاب الله، ولَمَّا ينتظم في حلقة تحفيظ، ولم يفتح المصحف، إنما يطلب المحال، ويسخر مع ذلك من نفسه.

إن طالبًا يريد العلم، ولم يثنِ ركبته عند عالم، ولم يفتح كتابًا، ولم يجعل للعلم وقتًا فرضًا، لا يمكن أن يحوي علمًا، أو أن ينتظم في سلك طلاب العلم طالبًا، إنما مثله كرجل

---

(١) صحيح: «صحيح ابن حبان» (٩٧٤)، و «كنز العمال» (٣٧٥٥)، و الألباني في «الصحيحة» (٢٨٨٦).

له بستان مثمر مورق يجاور نهرًا، بينه وبين النهر كف من تراب، وذبل البستان، وجفت الثمار، وسقطت الأوراق؛ كل ذلك من الظمأ، فقام الرجل بدلًا من أن يزيل الكف من التراب ليصل ماء النهر إلى البستان، قام ليتوضأ من النهر، ويصلي صلاة الاستسقاء، ويدعو الله أن يغيث بستانه.

تواكل وخَور وعجز وضعف!

هل يطير طائر بلا ريش؟ هل السماء بالذهب تمطر؟

لا كل شيء بسبب، ومن برز بلا سبب قعد دون الرجال حسيرًا مغمورًا، وقعد عن نيل المعالي ملومًا محسورًا، وإذا أدركته المنية مضى وكأن لم يكن شيئًا مذكورًا.

لـو كـان هَـذَا العِلـمُ يَحـصلُ بالمُنَـى ... مَـا كَـان يَبقَـى في البَـرِيَّةِ جَاهِـل

فاعقل. توكل. بادر.

وانهـض إلى المعالـي ... واطلـب ولا تبالـي

واحـذر مـن التوانـي ... والعـيش في الأمانـي

واقصد البحر بأسباب ودع عنك سراب القنوات!

اثر الإخلاص والمتابعة في الطريق إلى الله

يا فتى الإسلام...

إنْ كُـنتَ تَطلـبُ لُجَّـة الأعمَـاقِ ... أخلـصْ أصِـب حلَّـق بغـيرِ تَـوان

جناحان لا ينفكان: إخلاص لله، واتباع لرسول الله ﷺ؛ لا تحليق بواحد منهما: ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ [الملك: ٢].

منْ عمل بدونهما فهو من المنقطعين الهالكين، ومن عمل بهما وصال لم ترد صولته، ومن تكلم بهما علت على الخصوم كلمته.

هما روح الأعمال، ومحك الأحوال في أيام الفتن والمحن، لا يثبت إلا أصحابها المخلصون العاملون المتبعون؛ يُشرَّفون بنصر الله وتمكينه لهم في الأرض، ليجعلهم أئمة ويجعلهم الوارثين؛ ولذا سئل بعضهم عن كلام سمعه من متكلم: ما حجم ذاك الكلام؟ فقال: والله ما فهمت منه شيئًا، إلا أني رأيت لكلامه صولة ليست بصولة مبطل.

فوالله! ما مُنح العبد منحة أفضل من منحة القول الصادق الثابت.

تقول بعض الروايات: إن أحد جواسيس الفرنجة، توغل داخل بلاد المسلمين في الأندلس، فرأى طفلًا تحت شجرة يبكي، فسأله: ما يبكيك يا بني؟ قال: لأنني لم أستطع إصابة الهدف الذي حُدِّد لي؛ وهو صيد العصفور فوق الشجرة.

فقال الجاسوس: هوِّن عليك، وعاود الكرَّة أخرى.

فقال الطفل المسلم: إن الذي يبكيني أعمق من صيد العصفور؛ يبكيني أن قلت في نفسي: إن لم أستطع صيد العصفور بسهم واحد، فكيف أستطيع أن أقتل عدوي وعدو الله غدًا؟

دُهش الجاسوس، وبلَّغ الواقعة إلى ملك الفرنجة، فقال ملكهم: الرأي عندي ألا تعترضوهم؛ فإنهم كالسيل، يحمل من يُصادره، ولهم نيَّات تغني عن كثرة العدد، وقلوب تغني عن حصانة الدروع، وواحد كألف. وصدق وهو كذوب.

فَكَمْ زكِمتْ أُنوفُ الفِسقِ دَومًا ... بعِطرِ القَول مِن فَمِ صَادقِينَا

طلب وجه الله في العمل مهما كلف من تبعات

يا طالب العلم! ويا قاصد بحره! انصب وجهك لله، واملأ قلبك بحب الله وخشية الله، اجعل همك مرضاة الله لا مرضاة عباد الله؛ فإنك قد تُضطر إلى إغضاب عباد الله في سبيل مرضاة الله، ولا ضير.

إن تفعل ذلك، يكفك الله مئونة الخلق.

زِن عملك بميزان مرضاة الله، فما رجحت به كفة الميزان فاقبله وارتضه، وما شالت به الكفة فأعرض عنه واجفه.

عندها تستقيم المقاييس، ويتضح أمام العين الطريق القصد، والسبيل القويم؛ في خوض لجج البحر، فلن تقع بعدها -بإذن الله- في تلك المتناقضات المضحكة السخيفة، كأن تُرى تطيع الله في أمر، وتعصيه في آخر، إذ إنه لا مجال للتناقضات ما دامت المنطلقات صحيحة، والمنهج بينًا، والمقاييس ثابتة، مرضاة الله أولًا في اتباع وآخرًا.

لا لَكَ الدُّنيَا ولا أنْتَ لَهَا ... فَاجعَلِ الهمَّينِ همًّا وَاحِدَا

إني لأربأ بك وتربأ بنفسك -يا قاصد البحر- أن تُرى في المسجد مصليًا خاشعًا، ثم

تُرى في السوق مرابيًا أو ترى في المسجد خاشعًا، ثم تُرى في البيت والشارع والمدرسة والمنتدى غير مُحكِّم لشرع الله في نفسك أو أهلك أو ولدك ومن تعول.

كيف يليق بقاصد البحر أن ينظم مركبه وبيته والحياة من حوله، ثم يترك الفوضى في قلبه ويقصد لُجج البحر؟!

تَرجُو النَّجاةَ ولمْ تسلُكْ مَسالِكها ... إنَّ السفينةَ لا تجري على اليَبَسِ

«إنَّ الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أجسادكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم» (١)

وايم الله لو مرضت قلوبكم، وصحت أجسامكم، لكنتم أهون على الله من الجعلان.

فكيف يَصنعُ مَنْ أقصاه خَالقه ... لا لَيس ينفعُه طِبُّ الأطبَّاء

مَنْ غصَّ دَاوَى بشُربِ المَاء غُصَّتَه ... فَكيف يَصنَعُ مَنْ قَد غَصَّ بالمَاءِ

إنَّ الفيصل استقامة السر: متى استقام باطنك استقامت لك الأمور، وصدَّق عندها الفعل القول، والعلانية السر، والمشهد المغيب، فإذا أنت بسَّام بالنهار، بكَّاء بالليل، كاللؤلؤة أينما كانت فحسنها معها، أو كسبيكة الذهب إن نفخت عليها النار احمرت، وإن وزنتها لم تنقص. الحال ينطق:

دع الذي يفنى لما هو باقِ

التخلص من حب المدح والثناء سبب للوصول إلى الله

يا قاصد البحر: إني أُعيذك بالله أن تكون في نفسك عظيمًا، وعند الله وضيعًا حقيرًا، وأن تتزين في طريقك إلى البحر بما ليس فيك، ثم أعيذك أخرى أن تتصور أن تجمع في قلبك الإخلاص مع حب المدح والثناء؛ فإنهما ضدان لا يجتمعان أبدًا.

اسمع إلى ابن القيم رحمه الله يوم يقول: لا يجتمع الإخلاص في القلب مع حب المدح والثناء والطمع فيما عند الناس، إلا كما يجتمع الماء والنار، والضب والحوت.

فإذا حدثتك نفسك بطلب الإخلاص، فأقبل على الطمع فاذبحه بسكين اليأس، وأقبل على المدح والثناء فازهد فيهما زهد عشاق الآخرة في الدنيا، فإذا استقام لك ذبح

---

(١) صحيح مسلم (٦٧٠٧)، (٦٧٠٨).

الطمع والزهد في الثناء، سَهُل عليك الإخلاص.

فإن قلت: وما الذي يُسهل عليّ ذبح الطمع والزهد في الثناء؟

قلت: -أي ابن القيم - أما ذبح الطمع فيسهله عليك علمك يقينًا أنه ليس شيئًا يُطمع فيه إلا وبيد الله خزائنه لا يملكها غيره.

وصدق ابن القيم رحمه الله؛ فالقناعة بما يكفي وترك التطلع إلى الفضول أصل الأصول، والعز ألذّ من كل لذة، والخروج عن رقّة المِنن ولو بسفّ التراب أفضل.

وهل عِزٌّ أعز من القناعة؟

سُئل أحدهم عن سر قوة الإمام الحسن البصري رحمه الله: فقال في صراحة: احتجنا إلى دينه، واستغنى عن دنيانا.

مُـــرُّ الحـــياةِ لِمَـــن يـــريدُ كَـــرامَةً ... حُلـــوٌ ويُفلِّـــحُ مَـــن يـــريدُ فَلاحًـــا

أما الزهد في الثناء؛ فيسهله عليك علمك أن ليس أحد ينفع مدحه ويزين، ويضر ذمه ويشين، إلا الله وحده؛ فازهد في مدح من لا يزينك مدحه، وفي ذم من لا يشينك ذمه، وارغب في مدح من كل الزين في مدحه، وكل الشين في ذمه، ولن تقدر على ذلك إلا بالصبر واليقين، فمتى فقدت الصبر واليقين، كنت كمن أراد السفر في البحر من غير مركب.

الثبات مع الصدق حياة للأعمال وخلود للأقوال

يا قاصد البحر: حلِّق، ثم خُض لُجة اليم[1] بقلب مخلص كالجبل لا يتزحزح أبدًا، أو بقلب كالنخلة أصلها ثابت وتهزها الريح، وإياك أن يكون قلبك الثالث كالريشة:

أيـــنما الـــريح تمـــيِّلها تَمِـــل

وجاهد فبالمجاهدة تُوفَّق وتُسدد :

وَإِذَا الأَرضُ أَجـــدَبتْ ذَاتَ يَـــومٍ ... فَهْـــي تبغِـــي مِـــن زَارِعِـــيها اجْـــتِهَادا

يقول مالك بن دينار: إن الصدق يبدو في القلب ضعيفًا كما يبدو نبات النخلة، يبدو غصنًا واحدًا، فتُسقى فينتشر، ثم تُسقى فينتشر، حتى يكون لها أصل أصيل عظيم يوطأ،

---

(١) **لجة اليم** أمواج البحر المتلاطمة.

وظل يُستظل به، وثمرة يؤكل منها.

كذلك الصدق مع الله، يبدو في القلب ضعيفا، فيتفقَّده صاحبه ويزيده الله، ويتفقده ويزيده الله، حتى يجعله الله بركة على نفسه، فيكون كلامه دواء للخاطئين، ليحيي الله به الفئام من الناس وصاحبه لا يعلم بذلك.

يروى أن قاصًا كان بقرب محمد بن واسع رحمة الله عليه، وقد كان يقول القاص: ما لي لا أرى القلوب لا تخشع، والعيون لا تدمع، والجلود لا تقشعر؟

فقال ابن واسع: ما أرى القوم أوتوا إلا من قِبلك، إن الذكر إذا خرج من القلب وقع على القلب.

يكفيك أن أقوامًا تحيا القلوب بذكرهم، ناهيك عن كلامهم، وأن أقوامًا أحياء تقسو القلوب بل تموت بذكرهم، ناهيك عن كلامهم.

نعم -والله- يا من قصدت البحر، كم من كلمات ولدت ميتة، ومن ثَمَّ جُعلت هباء مع أصحابها لتكون من أصحاب القبور، وكم من كلمات ولدت حية، وبقيت فيها الحياة مع حياة أصحابها وبعد مماتهم، أصلها ثابت وفرعها في السماء، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها.

بَينَ الجوَانِحِ فِي الأعمَاقِ سُكنَاهَا ... فَكيفَ تُنسى ومَن فِي النَّاسِ يَنسَاهَا
الأُذنُ سامِعَةٌ وَالعَينُ دَامِعَةٌ ... وَالرُّوحُ خَاشِعَةٌ والقَلبُ يَهوَاهَا

والسر؛ إنه الإخلاص والصدق يمنح الكلمات روحًا، فتبقى فيها الحياة أبدًا سرمدًا، أو ينعدم الصدق والإخلاص ويضمحل، فإذا بالكلمات لا تهز أحياءً، ولا تنفع موتى، نَوحٌ مستأجرٌ بلا روح، وليست النائحة الثكلى كالنائحة المستأجَرة.

لا يعرف الشَّوق إلا مَنْ يُكَابده ... ولا الصَّبابة إلا مَنْ يُعانِيها

حقيقة الإخلاص

أخي طالب العلم...

اقصد البحر وحَلِّق، ثم خُض، وكن صحيحًا سليمًا في سرك، تكن فصيحًا في علانيتك، فإنما صلاح العمل بصلاح القلب، وصلاح القلب بصلاح النية، ومن صَفَّى صُفِّي له، ومن خلَّط خُلِّط عليه، وإنما يُكال للعبد كما كال، ومن صحت بدايته صحت

نهايته، وقد يبلغ الرجل بنيته ما لم يبلغ بعمله.

ثم اعلم أن الإخلاص لا يعني الانقطاع عن العمل خشية الرياء كما يفهم البعض، لكن الإخلاص أن تعرف لله قدره، فلا تصرف العمل إلا له وحده لا شريك له، سبحانه وبحمده.

ثم اعلم بعد ذلك أن ترك العمل من أجل الناس رياء، والعمل من أجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منهما.

وعلامته أن تكون في الخَلوة كالجَلوة، بل خير من ذلك، ضحك في الملا، وبكاء في الخلا.

فاعقد مع الله عقدًا -لا يكون للشيطان فيه نصيب- على صلاح النية والاتباع، وانوِ الخير؛ فإنك لا تزال بخير ما نويت الخير، وعامل الله؛ فما خاب من عامله، واتقِ الله واقصد من ينفعك قصده، ولا تتشاغل بمدح من لا ينفعك مدحه، وأحسب أن عينك عين موفق، عين فرس يرى في الظلمة كما يرى في النور، والصدق منار، ومن لا يخلص في عِثَار، والعاقبة العار والنار.

فكيف يبلغ في دُنياه غايَته ... مَنْ تَستوي عنده الظلماءُ والنورُ

لا لا يا قيود الأرض؛ صفقة غبن لمن قصد البحر أن يرضى بمدح أو ثناء عن الفردوس الأعلى، لا يُحصَّل عظيم خطير كالإخلاص إلا بخطر، والدرّ في عُقر اليم، والراحة عند أول قدم توضع في الجنة، ومن أراد أن يعلم ما له عند الله؛ فليعلم ولينظر ما لله عنده، ومن لم تبكِ عليه الدنيا لم تضحك له الآخرة.

وصلاحُ الأجْساد سهلٌ ولكن ... في صَلاح القلوبِ يعيا الطبيبُ

والمجاهدة توفيق: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

فاقصد البحر بإخلاص وصواب، وخلِّ القنوات.

علو الهمة

يا فتى الإسلام...

أما وقد أخذت بالسبب، وحلقت بجناحي الإخلاص والمتابعة تقصد البحر، فألحقْ ذلك بهمَّةٍ عالية؛ فإن الهمة طريق إلى القمة، بادر ولا تعجل، أسرع ولا تضجر، أقبل ولا إلى الخلف تنظر.

إن الطريق إلى الله واضحة مستقيمة، ما يتردد ولا يتلكأ فيها إلا الذي لا يعرفها، أو يعرفها ويتقي متاعبها، والطرق شتى، طريق الحق واحدة: والسالكون طريق الحق أفذاذ.

فبادر وسر إلى الله بهمّة الحازم، فإنما هو شبر بذارع، وذراع بباع، ومشي بهرولة.

كما في الحديث القدسي الصحيح: «**وإن تقرب إليّ شبرًا تقربت إليه ذراعًا، وإن تقرب إليّ ذراعًا تقربت إليه باعًا، وإن أتاني يمشي أتيته هرولة**»(١)

همٌّ بالحسنة حسنة، وهم بالسيئة بلا عمل لها حسنة، حسنة بعشر وسيئة بمثلها، وفي الحديث القدسي الصحيح: «**ولا يزال عبدي يتقرب إليّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه**»(٢)، لا يهلك إلا هالك، ولا يُحرم إلا محروم.

إذا كـنتَ في الدُّنـيا عـن الخـيرِ عاجـزًا   فمـــا أنـــت في يـــوم القـــيامةِ صـــانعُ

أين المبادرون؟ أين أصحاب الهمم؟ إنما هي خمس أو عشر سنين فحسب.

يــا نفــس مــا هــو إلا صــبرُ أيــامِ   كـــأن مـــدَّتها أضْـــغاثُ أحـــلامِ

إن عاش الرجل ستين سنة، نام الليل فذهب نصفها ثلاثون سنة نومًا، ونام ثلث النهار راحة وقيلولة، فذهب ثلثاها؛ أربعون سنة نومًا، وبقي عشرون سنة، منها خمسة عشر سنة قبل البلوغ والتكليف، فبقي العمر الحقيقي لابن الستين، خمس أو عشر سنوات، لله ما أقلها! ذاك لابن الستين، فكيف بابن الثلاثين والعشرين؟!

يــا نفــسُ قومِــي فقــد نــام الــوَرى   إن تـصنعي الخـير فَـذو العَـرْش يَـرى

وأنــتِ يــا عــينُ دَعِــي عــنك الكَــرى   عــند الــصباح يَحْمــد القــومُ الــسرى

حمل النفس على الجد محمود العواقب

النَّفْس. ما النَّفْس؟!

إذا عودتها البَطالة اعتادت، وإنْ عودَّتها العمل والجد والسهر سهرت وجدَّت وعملت.

وقــل مَـــنْ جَـــدَّ في أمـــر تطلـــبه   واستــصحب الــصَّبر إلا فــاز بالظَّفَــر

---

(١) متفق عليه: البخاري (٦٩٧٠) (٧٠٩٨)، ومسلم (٧٠٠٨)، (٧١٢٨).

(٢) صحيح: البخاري (٦١٣٧).

ولله الهمم ما أعجب شأنها! ما أعجبه لمتأمل! وما أشد تفاوتها! همة متعلقة بالعرش، وهمة حائمة حول الأنتان والحُش، وبتفاوت الهمم تتفاوت الأعمال والدرجات.

ومَا كلُّ من جَر العَبَاءة سيدًا يُخْشى ولا كلُّ المَظاهر تبهرُ

إني لأسأل: أين تعب عالم دَرس العلم خمسين سنة؟!

ذهب التعب وحصل العلم.

وأين لذة البطال خمسين سنة؟!

ذهبت الراحة وبقي الندم.

اتباع الهوى، وما اتباع الهوى؟!

يُغْلق على العبد أبواب التوفيق، ويفتح عليه أبواب الخذلان: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١].

وأما من أطاع الهوى فوالله لقد هوى، ولا يزال الهوى يُمسك بتلابيب النفس، ويملك عليها أقطارها، حتى يصير لها إلهًا، تعطيه معنى الطاعة والعبادة، وتصير له عبدًا تعطيه ما هو أكثر من الطاعة: ﴿ أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ﴾ [الجاثية: ٢٣].

أحبتي في الله...

النَّفْس خلق عجيب، آية من آيات الله، بطبيعتها تميل إلى الأسهل وإلى الأدنى، كالماء الجاري، يهبط الأودية والشعاب والمنخفضات، ورفعه يحتاج لهمة وكلفة، وصبر وعناء، ومشقة ومجاهدة؛ كذلك النفس تحتاج لذلك كله؛ لترقى وتسمو وتحلِّق، والبحرَ تقصد.

يقول ابن الجوزي عليه رحمة الله: لو أُمر الناس بالصبر على الجوع لصبروا، ولو نُهوا عن تفتيت البعر لرغبوا فيه، يقولون: ما مُنعنا منه إلا لشيء، والواقع يشهد:

وأحَبُ شيءٍ إلى الإنسان ما مُنعا

لماذا؟ لأن النفس محصورة مسجونة في البدن، فلا تحب أن تسجن وتحصر أخرى بالتكاليف في الأوامر والنواهي: يا نفس! افعلي، ويا نفس! لا تفعلي، هذا حرام وهذا حلال. وهكذا.

ولذلك لو قعد الإنسان في بيته شهرًا باختياره ما صَعُب عليه ذلك، لكن لو قال له

أبوه: لا تخرج هذا اليوم من بيتك، وقَفَلَ عليه باب غرفته لثقل عليه ذلك اليوم، وكأنه شهر، لماذا؟

لأن النفس تحب التحرر من القيود، والانطلاق والتفلت، فتراها تستلذ الحرام والشهوات، همها هواها، لكن صاحب الهمة العاقل الحازم يمنعها هواها، ويداريها، فيأخذها تارة بالعزائم، وتارة بالرخص، ويستعيذ بالله من شرها، ويدعو بتزكيتها، لتزكو وتتربى، وتسمو وتترقى.

هي من خلق الله عز وجل، والله أعلم بخلقه سبحانه وبحمده.

يُقْسم الله في كتابه أحد عشر قسمًا متتالية، قسمًا يتلوه قسم، ولله أن يُقْسم بما شاء من مخلوقاته -سبحانه وبحمده- يُقْسم على فلاح من زكاها، وخيبة من دساها، فيقول سبحانه: ﴿ وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ ﴾ [الشمس: ١ - ٨].

أين جواب القسم؟

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠ ﴾ [الشمس: ٩، ١٠].

وتزكيتها لا تكون إلا بهمة عليّة، يعقبها عمل خالص صالح صواب.

بين الصالح والبطال علو الهمة

فيا من قصد البحر بهمةٍ: زَكِّها؛ قد أفلح من زكاها، أبواب الخير المشروعة مُشْرَعة لك لتدخلها بهمة حازم.

وأول هذه الأبواب: الفرائض.

فما تقرب متقرب إلى الله بأحب من الفرائض، وهذه الأبواب نفعها قاصر، ونوع آخر نفعه متعد للغير، وما كان متعديًا فهو أولى، فخض لُجّة البحر بهمة، وادخل من كل باب، واضرب في كل غنيمة بسهم، وعش مع كل طائفة على أحسن ما فيها، وخلِّ القنوات!

من هذه الأبواب -بلا ترتيب- حفظ كتاب الله وتدبره، والوقوف عند حدوده، والائتمار بأمره، والانتهاء عن نهيه، تحكيمه والرضا به.

فمالك إن تركت هذا الباب؟

اسمع لقول الرسول ﷺ كما ثبت في صحيح الجامع: «لو كان القرآن في إهاب[1] ما أكلته النار»[2]، «يجيء القرآن يوم القيامة شفيعًا لصاحبه، فيقول: يا رب! حَلِّهِ، فيُلبس تاج الكرامة، ثم يقول القرآن: يا رب! زده، فيُلبس حلة الكرامة، فيقول: يا رب! ارض عنه، فيرضى الله عنه، فيقول القرآن: اقرأ وارق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا؛ فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها»[3]. حرف منه بحسنة، والحسنة بعشر أمثالها، آلم بثلاثين ويا خيبة البطالين!

الحرفُ منه مُضاعفٌ وميسرُ ... شَقي الذي عن حُكمهِ قدْ أعْرضا

هُبُّوا إليه لحِفْظِه وتأهبُوا وارجوا ... رِضَا الرحمنِ صُبْحا والمَسَا

ويقول ﷺ كما في صحيح الجامع: «لأن أقعد مع قوم يذكرون الله من بعد صلاة العصر حتى تغرب الشمس؛ خير لي من أن أعتق أربع رقاب»[4]، «ومن أعتق رقبة مسلمة أعتق الله بكل عضو منها عضوًا منه حتى فَرْجِه بفرجه»[5]

يا للغنيمة الباردة! والله لا تتحقق اليوم إلا لأهل تحفيظ القرآن، أهل حلقات التحفيظ؛ هنيئًا لهم ثم هنيئًا.

يا فتى التَّحفيظ...

كنْ رَابطَ الجأشِ وارْفَع رايةَ الأملِ ... وَسِر إلى الله في جِدٍ بلا هَزَلِ

وإن شَعرتَ بنقصٍ فيك تَعْرِفهُ ... فَغَذِّ رُوحَك بالقرآن واكْتَمِلِ

وحَارِب النفس وامْنَعْها غِوَايَتَها ... فالنَّفسُ تهوَى الذي يَدعُو إلى الزللِ

«بشر المشَّائين في الظُّلَمِ إلى المساجد بالنور التام يوم القيامة»[6]

---

(١) إهاب: وهو الجلد الذي لم يدبغ.

(٢) حسن: أخرجه أحمد (١٧٤٤٥)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٦٩٩)، والألباني في «صحيح الجامع» (٥٢٦٦).

(٣) حسن: أخرجه الترمذي (٢٩١٥)، و «شعب الإيمان» للبيهقي (١٩٩٧)، والألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٤٢٥).

(٤) حسن: أخرجه أبو داود (٣٦٦٧)، والألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٤٦٥)، وفي «السلسلة الصحيحة» (٢٩١٦).

(٥) صحيح: أخرجه الترمذي (١٥٤١)، والألباني في «صحيح الجامع» (٦٠٥١).

(٦) صحيح: أخرجه أبو داود (٥٦١)، والترمذي (٢٢٣)، وابن ماجه (٧٨١٩)، والألباني =

«من غدا إلى المسجد أو راح، أعد الله له في الجنة نُزُلًا كلما غدا أو راح» (١)

كيف لو أدرك تكبيرة الإحرام مع الإمام أربعين يومًا؟ ثبت في صحيح الجامع أن رسول الله ﷺ قال: **«من صلى لله أربعين يومًا في جماعة يدرك التكبيرة الأولى كُتب له براءتان؛ براءة من النفاق، وبراءة من النار»** (٢)

هلا حاولت وجاهدت نفسك لهذا الفضل العظيم؟

قد تدركها ثلاثين يومًا، وقد تدركها تسعة وثلاثين يومًا، وقد تدركها أربعين يومًا إلا فرضًا واحدًا، ثم تنخرم القاعدة، لكن عُد من جديد، وجاهد نفسك، وستجد -بإذن الله- لذة المجاهدة على هذا الفضل ماثلة ظاهرة.

والشيءُ صَعبٌ عَلى مَن لا يُجرِّبه، لكن من جَدَّ وَجَد.

مَـا كُـنتُ أَرجُـوهُ إذ كُـنتُ ابْـنَ عِـشرِينَا ... مَلَكْــتُهُ بَعــدَ أَنْ جُــزتُ الثَّمَانِيــنَا

أمثلة لأبواب الخير تدرك بالهمة العالية

إن سعيد بن المسيب رحمه الله يتحدث بنعمة الله عليه في آخر حياته فيقول لابنته: «والله ما فاتتني تكبيرة الإحرام مع الإمام أربعين سنة، وما رأيت ظهر مُصلٍّ في الصلاة أبدًا».

بمعني: أنه في الصف الأول دائمًا، وما يُلقَّاها إلا من صبر، ولا يزال قوم يتأخرون حتى يُؤخرون.

عيادة المريض.

ما عيادة المريض؟

ثبت في الصحيح عن علي رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«ما من مسلم يعود مسلمًا غدوة إلا صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يمسي، وإن عاده عشية صلى عليه سبعون ألف ملك حتى يصبح»** (٣)

= في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣١٥).

(١) متفق عليه: البخاري (٦٣١)، ومسلم (١٥٥٦).

(٢) حسن: أخرجه الترمذي (٢٤١)، والألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٤٠٩).

(٣) صحيح: أخرجه الترمذي (٩٦٩)، والألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٤٧٦).

وفي حديث ثوبان: «ولم يزل في خُرْفة[١] الجنة حتى يرجع»[٢] ومع ذلك المنادي ينادي: «طبت وطاب ممشاك، وتبوّأت من الجنة منزلًا»[٣]

إنها الغنيمة يا أهل الغنيمة، فأين صاحب الهمة المشمر؟

فَمَا العُمرُ إلا صَفحةٌ سوفَ تَنطوِي ... ومَا المَرءُ إلا زَهرةٌ سوفَ تَذبلُ

الطواف بالبيت يا أهل البيت الحرام: ثبت في صحيح الجامع أن رسول الله ﷺ قال: **«من طاف بالبيت أسبوعًا -يعني سبعة أشواط- كان كعتق رقبة، ولا يضع قدمًا ولا يرفع أخرى إلا حط الله عنه بها خطيئة، وكتب له بها حسنة»**[٤]

لأهل السوق ما هو خير من كل ربح يربحونه.

ثبت -أيضًا- في صحيح الجامع **«أن من دخل السوق فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، يحيي ويميت وهو حي لا يموت، بيده الخير وهو على كل شيء قدير، كتب الله له ألف ألف حسنة، ومحا عنه ألف ألف سيئة، ورفع له ألف ألف درجة، وبنى له بيتًا في الجنة»**[٥]

فهل تذكَّرنا ذلك عند دخول الأسواق؟

ما أعظم الأجر، وأيسر الأمر! والله لحسنة من هذه خير من الدنيا وحُطامها وزخارفها ولذَّاتها.

«من أنظر معسرًا فله بكل يوم مثل دينه صدقة، فإذا حل الدين فأنظره، فله بكل يوم مثل دينه مرتين صدقة»[٦]

---

(١) الخرفة: أي اجتناء ثمر الجنة.

(٢) صحيح: أخرجه مسلم (٦٧١٧ - ٦٧١٩).

(٣) صحيح: أخرجه ابن ماجه (١٤٤٣)، والترمذي (٢٠٠٨)، وأحمد (٨٥١٧)، والألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٥٧٨).

(٤) صحيح: أخرجه الترمذي (٩٥٩)، والألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١١٤٣).

(٥) حسن: أخرجه ابن ماجه (٢٢٣٥)، والترمذي (٣٤٢٨)، وأحمد (٣٢٧)، والألباني في «صحيح الجامع» (٦٢٣١).

(٦) صحيح: أخرجه أحمد (٢٣٠٩٦)، و الألباني في «الصحيحة» (٨٦)، وفي «صحيح الترغيب والترهيب» (٩٠٧).

فضل من الله ونعمة.

وثبت في صحيح الجامع: «أن فيك يابن آدم ثلاثمائة وستين عظمة -أو مفصلًا- على كل مفصل في كل يوم صدقة» (١)

تحتاج إلى ثلاثمائة وستين صدقة، على كل مفصل صدقة.

و«الكلمة الطيبة صدقة» (٢)، «عون الرجل أخاه صدقة، الشربة من الماء تسقيها صدقة، تبسمك في وجه أخيك صدقة، أمر بالمعروف ونهي عن منكر صدقة، إرشاد الرجل في أرض الضلال صدقة، بصرك الرجل الرديء البصر لك صدقة، إماطتك الحجر والشوكة والعظم عن الطريق صدقة، إفراغك من دلوك في دلو أخيك صدقة» (٣)، «في كل كبد رطبة (٤) صدقة» (٥)، «تسبيحة صدقة، تهليلة صدقة، تكبيرة صدقة» (٦)، «مَنْ عَلَّم آية من كتاب الله عز وجل كان له ثوابها ما تُليت» (٧)، «ومن علمَّ علما فله أجر من عمل به لا ينقص من أجر العامل شيء» (٨)، الشفاعة في غير حدود الله صدقة، اشفعوا تؤجروا، والبخيل من بخل بجاهه، ذَبُّكَ عن عرض أخيك قربة من أعظم القُرب، يَذُبُّ بها الله عز وجل النار عن وجهك، عدل بين اثنين صدقة، تعين الرجل ليُحمل على دابته صدقة، ترفع متاعه على دابته صدقة، كل خطوة إلى الصلاة صدقة، كل ما تصنع لأهلك من معروف صدقة، كل قرض صدقة، كفُّ الشر عن الناس صدقة، كل معروف تقدمه لغني أو فقير صدقة، إسماع الأصم صدقة، البيان عن الأعجم صدقة، من نَفَّس عن مَدينِه أو عفا عنه كان في ظل العرش يوم القيامة، «من نصر أخاه بظهر الغيب نصره الله في الدنيا والآخرة، من ستر مسلمًا ستره الله في

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٥٢٤٢)، وأحمد (٢٣٠٤٨)، والألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٦٦٦).

(٢) صحيح: مسلم (٥٩٣٣).

(٣) صحيح: أخرجه الترمذي (١٩٥٦)، والألباني في «الصحيحة» (٥٧٢).

(٤) رطبة: حية.

(٥) متفق عليه: البخاري (٢٢٣٤)، ومسلم (٥٩٩٦) بنحوه.

(٦) صحيح: مسلم (١٧٠٤) (٢٣٧٦) بنحوه.

(٧) صحيح: «كنز العمال» (٢٨٨٨٧)، و الألباني في «الصحيحة» (١٣٣٥).

(٨) حسن: أخرجه ابن ماجه (٢٤٠)، و أخرجه الطبراني في «الكبير» (٢٠/١٩٨)، والألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٨٠)، وفي «صحيح الجامع» (٦٣٩٦).

الدار الآخرة» [١]

«من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهل الله به طريقًا إلى الجنة» [٢]، إنقاذ الناس من الضلالة، وإخراجهم من الظلمات إلى النور أفضل قربة: «فلئن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من حُمر النَّعم» [٣]

وكلما كان نفع العمل متعديًا إلى الغير، كان أعظم أجرًا.

ولك أن تتصور هذه الأمة اليوم، كل مسبِّح ومهلِّل وذاكر ومستغفر ومجاهد ومتصدق وحاج وصائم، كل أعمالهم لنبينا محمد ﷺ مثلها؛ لأنه السبب في هذه الهداية، ولأنه هو الذي حمل الخير إلى الأمة، فمن يستطيع أن يأتي بأعمال تضاهي عمل رسول الله ﷺ؟ يوم يأتي بعمله هو وعمل أمة محمد ﷺ كلها في ميزانه: ﴿ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾ [الجمعة: ٤] فنسأل الله من فضله.

ثبت في صحيح الجامع أنه ﷺ قال: «أحب الناس إلى الله أنفعهم للناس، وأحب الأعمال إلى الله عز وجل سرور تدخله على مسلم، تكشف عنه كربة، أو تقضي عنه دينًا، أو تطرد عنه جوعًا».

ثم يقول ﷺ: «ولئن أمشي مع أخي المسلم في حاجته أحب إليّ من أن أعتكف في هذا المسجد شهرًا -يعني مسجده ﷺ- ومن كفَّ غضبه ستر الله عورته، ومن كظم غيظًا لو شاء أن يُمضيه أمضاه ملأ الله قلبه رضًا يوم القيامة، ومن مشى مع أخيه المسلم في حاجته حتى يثبتها له؛ أثبت الله قدمه يوم تزل الأقدام» [٤]، وإن سوء الخلق ليفسد العمل كما يُفسد الخل العسل.

إذا الـرَّوضُ أمـسى مُجـدِبًا في ربـيعهِ ... فَفِـي أيِّ حِـينٍ يَـستنِيرُ ويُخـصِب

أخي صاحب الهمة وقاصر البحر...

لا تنس أن قيام الليل وتلاوة القرآن زاد يومي، لا غنى للمسلم عنه في مواجهة

---

(١) صحيح: أخرجه ابن ماجه (٢٥٤٤)، وأحمد (٧٩٢٩)، و الألباني في «الصحيحة» (٢٣٤١).

(٢) صحيح: أخرجه ابن ماجه (٢٢٣)، والترمذي (٢٦٤٦)، وأبو داود (٣٦٤١)، وأحمد (٨٢٩٩)، والألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٧٠).

(٣) متفق عليه: البخاري (٢٧٨٣) (٢٨٤٧) (٣٤٩٨)، ومسلم (٦٣٧٦).

(٤) حسن: أخرجه الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٦٢٣)، وفي «صحيح الجامع» (١٧٦).

تكاليف الحياة وأعبائها، والدعوة إلى الله خاصة، وما ذكرته ما هو إلا أمثلة، وإلا فأبواب الخير لا حصر لها أبدًا.

تَــناوَلْ مِــن الأَغــصَانِ مَــا تَــستَطِيعهُ وَجاهِـد عَلـى الغُـصنِ الـذي لا تُطَاوِلُـهْ

آنَ لكَ أن تقولَ بملءِ فيكَ: مضى عهد النوم.

يا مرتاد القمم! بادر واغتنم، فإنما هي خمس أو عشر سنوات، انتهز الفرصة في وقتها، وخذ الثمرة في كمال نضجها، ولا تعجل فتطلب الشيء قبل وقته فلا تدركه، وتقطف الثمرة قبل نضجها فلا تنتفع بها، فمن طلب المعالي استقبل العوالي، ومن لزم الرقاد فاته المراد، وإن لم يُثمر العود، فقطع العود أولى به.

والعَاجِــزُ الــرأيِ مِــضيَاعٌ لِفرصَــتِهِ حَتَّــى إذَا فَــاتَ أَمــرٌ عَاتَــبَ القَــدَرَا

فمن طلب المعالي استقبل العوالي، ومن لزم الرقاد فاته المراد، وإن لم يُثمر العود فقطع العود أولى به.

والعاجِــزُ الــرأيِ مِــضياعٌ لفرصَــتهِ حتَّــى إذا فَــاتَ عَاتَــب القَــدَر

والراضي بالدون دنيء.

وَلَــم أَرَ فِــي عُــيوبِ الــناس عَيــبًا كَــنقص القَــادِرِينَ علَــى الــتَّمَامِ

أمثلة من قصص السلف في علو الهمة

يا من قصر البحر بهمَّة...

لا تستوحش إن قلَّ السالكون، فقد سبقك السابقون، ولعلك تزيد من همتك بالوقوف على بعض مواقفهم، فإليهم إليهم بلا اختيار، قد صوَّت حاديهم بك:

مَـنازلَ مَـن تَهـوَى رُوَيـدَك فَانـزِلِ

إبراهيم الحربي يكتب اثني عشر ألف جزء

هاهو المحدث الفقيه الأديب إبراهيم الحربي، يعتلُّ في آخر حياته، حتى يصبح صفر اليدين من متاع الدنيا؛ فليس في بيته إلا الخبز الجاف والملح، ولا غرو.

قَــد يَــنالُ العُــصفُورُ وَفْــرًا وَيبقَــى فِــي سِـجلِّ الخُمــول تِلـك الـصُّقورُ

ويبعث له الخليفة بألف دينار، فيرفض أن يأخذها، فينصرف رسول الخليفة إلى الخليفة، ويخبره، فيقول الخليفة: ليفرقها في جيرانه.

فرجع رسول الخليفة إلى إبراهيم وقال: إن أمير المؤمنين يسألك أن تفرقها في جيرانك.

فقال: عافاك الله، هذا مال لم نشغل أنفسنا بجمعه، فلا نشغلها بتفريقه، قُلْ لأمير المؤمنين: إن لم يتركنا تحولنا عن جواره.

سمعت ابنته هذا الحوار، فغضبت وآلمها أن يرفض أبوها المال، وهم في أمسِّ الحاجة له، وجاء عمها لزيارتهم، فقالت: يا عم! نحن في أمر عظيم، لا في الدنيا نحن ولا في الآخرة، الشهر والدهر ما لنا من طعام إلا كِسَرٌ يابسة وملح، وربما عَدمنا الكسر، وربما عدمنا الملح، وقد أرسل الخليفة بألف دينار فلم يأخذها، وأرسل فلان فلم يأخذ منه، وهو عليل كما ترى يا عماه.

فنظر عمها إلى أبيها؛ يريد أن يجيبها، فالتفت إبراهيم إلى ابنته وتبسم وقال لها: يا بُنية! أو إنما تخافين الفقر؟ قالت: نعم.

قال: انظري إلى تلك الزاوية.

فنظرت في زاوية البيت، فإذا كتب بعضها فوق بعض، قالت: أبتاه! ماذا تغني هذه عنا؟ فقال: هذه اثنا عشر ألف جزء في الحديث والفقه واللغة، كتبتها بيميني، إذا أنا مِت، فبيعي كل جزء منها بدرهم، أو يفتقر من يملك اثني عشر ألف درهم؟

حاله: طعام دون طعام، ولباس دون لباس، جوع قليل، وعُريٌ قليل، وبرد قليل، وذل قليل، وصبر قليل، وإلى الله المصير.

لَيس السَّعِيدُ الذي دُنيَاهُ تُسعدُهُ إنَّ السَّعيدَ الذي يَنجُو مِن النَّارِ

إنها الهمم؛ تجعل في قلب صاحبها نار تتقد، كنار تتقد في قلب من يجد ابنه مريضًا لا يملك له شيئًا، أو من لا يجد في بيته شيئًا يَسُدُّ به رمق أولاده وهم يتضاغون عند قدميه، يقلق ويضطر إلى بذل الجهد والسعي.

إنها اثنا عشر ألف جزء، وبيمينه خطها، والإمكانات غير متوفرة، فلله الهمم ما أعلاها وأسماها!

يقول أبو العباس ثعلب: ما فقدت إبراهيم الحربي من مجلس لغةٍ ولا فقه منذ خمسين سنة.

لَـــهُ هِمَّـــةٌ تَعلُـــو علَـــى كـــلِّ هِمَّـــةٍ ... كمَـا قَـد عَـلا الـبَدرُ الـنُّجومَ الـدَّرَارِيَا

طلب العلم عند بعض السلف

ابن عباس ينام على عتبة زيد بن ثابت يطلب العلم رضي الله عنه وأرضاه.

والإمام عيسى بن موسى يقول: مكثت ثلاثين سنة أشتهي الهريسة، ولا أقدر على شرائها؛ لأن وقت بيعها في السوق هو وقت سماعي الحديث.

شَـــتَّانَ بَـــينَ الـــنَّاسِ فِـــي أهـــدَافِهِم ... شَـــتَّانَ بَـــينَ عَـــصًا وبَـــينَ حُـــسَامِ

وأحد السلف في سكرات الموت يقول: أجلسوني لأصلي ركعتين.

فيقولون: عافاك الله أفي مثل هذه الحال؟ قال: نعم، الآن تُطوى صحيفتي، وأريد أن أختمها بركعتين، علّ الله أن يرحمني.

فَـــنالُوا المُـــرادَ وفَـــازُوا بـــهِ ... فَطُوبَـــى لَهُـــم ثُـــمَّ طُوبَـــى لَهُـــم

من همم صبية أصحاب رسول الله ﷺ

ليست الهمة في الرجال فحسب، بل إنها في النساء، وفي الصبيان وفي الصغار، فاسمع: في معركة أحد روي أن رسول الله ﷺ ردَّ مجموعة من الفتيان لم يبلغوا، وكان منهم رافع وسمرة، ولشوقهما للجهاد في سبيل الله لم يستسلما للأمر، قام كل منهم يستعرض ما لديه من قدرات، تثبت كفاءته للقتال، يرفع نفسه، يمشي على أطراف أصابعه؛ ليبين أنه بلغ مبلغ الرجال.

فقيل لرسول الله ﷺ: إن رافعًا رام الخامسة عشر. فأجازه ﷺ

فقال سمرة: يا رسول الله! أجزت هذا ورددتني، ولو صارعته لصرعته.

قال ﷺ: دونكه -يعني صارعه- فتصارعا، فصرعه سمرة، فأجازه ﷺ [(١)]

---

(١) انظر «عيون الأثر» (١ / ٤١٠)، و«السيرة النبوية» لابن كثير (٣/ ٣٠)، و«الروض الأنف» (٣/ ٢٤٦)، و«سيرة ابن هشام» (٢/ ٦٦).

فيا لله! شباب امتلأت قلوبهم بالإيمان، واختلطت بحيوية الشباب وقوة البدن، فسخروها فيما يرضي الله، فرضي الله عنهم وأرضاهم.

فهل من مقتدٍ بهم يا شباب الأمة؟

أَوَ مَــــن يُفكــــرُ فِـــي الـــصُّعُود كَمَـــنْ يُفَكِّـــرُ فِـــي النُّــزُولْ

مَــــنْ يَبـــتَغِ هَـــدَفًا بغَـــير الحـــقِّ يعـــيا بالوُصُـــولْ

همة سفيان بن عيينة في طلب الحديث

وهاهو سفيان بن عيينة رحمه الله يقول: كان أبي صيرفيًّا بالكوفة، فركبه الدَّيْن، فحملنا إلى مكة، وأنا يومئذ صبي – سفيان لا زال صبيًا- يقول: وسرنا إلى المسجد لصلاة الظهر، ولما كنت على باب المسجد، إذا شيخ على حمار، هيئته هيئة صاحب حديث، فقال لي: يا غلام! أمسك عليّ هذا الحمار حتى أدخل المسجد، فأركع.

قلت: ما أنا بفاعل حتى تحدثني.

قال: وما تصنع أنت بالحديث؟ واستصغرني وردني، فقلت: حدثني أو لا أمسك لك الحمار.

قال: فسرد علي ثمانية أحاديث بأسانيدها، فأمسكت حماره، وجعلت أكرر ما حدثني به.

فلما خرج من المسجد، قال: ما نفعك ما حدثتك به يا غلام! قد حبستني عن الصلاة.

فقلت: حدثتني بكذا وكذا وكذا.

وسردت عليه جميع ما حدثني به، فقال: بارك الله فيك، تعال غدًا إلى مجلسي.

فإذا هو عمرو بن دينار المحدث المعروف.

اسمع بعدها لنصر الهلالي يوم يقول: كنت في مجلس سفيان بن عيينة، إذ دخل علينا صبي صغير ذلك المجلس، فكأن أهل الحديث تهاونوا به لصغر سنه، فقال سفيان مغضبًا من أهل الحديث: كذلك كنتم من قبل فمنَّ الله عليكم.

ثم قال سفيان: يا نصر! -ويتكلم الآن عن نفسه سفيان وهو صغير- لو رأيتني ولي عشر سنين، طولي خمسة أشبار، وجهي كالدينار، وأنا كشعلة نار، ثيابي صغار، أكمامي

قصار، ذيلي بمقدار، نعلي كآذان الفار، أختلف إلى الزهري وعمرو بن دينار، وأمثالهم من علماء الأمصار، أجلس بينهم كالمسمار، محبرتي كالجوزة، ومُقلتي كالموزة، وقلمي كاللوزة، فإذا دخلت المجلس قالوا لي: أوسعوا للشيخ الصغير.

لو رأيتني يا نصر! حين ذاك لَمَا احتقرتَ ما رأيتَ.

مَــن يَجعَــل الــرَّحمنَ مَقــصِدَ قَلــبِهِ   يَبقَــى شَــريفًا فِــي الحــياةِ نَــزِيهَا

ويذكر الخطيب البغدادي رحمه الله عن علي بن عاص، قال: دفع إليَّ أبي مائة ألف درهم، وقال: اذهب فلا أرى لك وجهًا إلا بمائة ألف حديث -هكذا تكون الولاية- فهجر الوطن والأهل، وضحى بماله ووقته وجهده، وحصل على أكثر مما طُلب منه، فصار يُحدث ويُسمع منه.

وهذه أهديها لأولياء الأمور، وأقول لهم:

إنْ كُــنتَ تَــرجُو أنْ تُــصيبَ رَمــيَّةً   فَاثقِــفْ سِــهَامَكَ قَــبلَ أنْ تَــرمِيهَا

كَــذاكَ الفَخــرُ يَــا هِمَــمَ الــرِّجَال   تَعالَــيْ فَانظُــرِي كَــيفَ التَّعَالِــي

العبرة من القصص السالفة الذكر

يا طالب العلم! ويا داعية الإسلام! كن على جادتهم وإن أبطأ بك المسير، فإن قدوة القوم يرعى القافلة، أنت لا تملك نفسك، حتى يسوغ لك أن تمنحها إجازة.

يا من أنت الآن في إجازة: إنما أنت وَقْف لله، فإذا لمع لك فجر الأجر، فليهُن ظلام التكليف.

إذا ضاقت عليك قناة أو طريق، فشُق إلى البحر ألف طريق.

إذا أغلق عليك باب دون البحر، فافتح لك ألف باب، ولن تعدم وسيلة.

اعمل ولو ساعة، وللحقوق -ومنها التعلم- بقية الساعات، إذا بزغ لك نجم الهمة في ظلام ليل البطالة، فأردفه بقمر العزيمة؛ لتُشرق الأرض بنور ربها.

إنما أنت همة علية، ونفس تضيء، وهمة تتوقد.

أنت لا تعيش لنفسك، ويجب أن تقنع نفسك أنك لا تعيش لها، جِد تجد، ليس كمن سهر من رقد، هذا دبيب الليالي يُسارقك أنفاسك، وسلع المعالي غاليات الثمن، فانظر

لنفسك، واغتنم وقتك، فالثواء قليل، والرحيل قريب، والطريق مخوف، والخطر عظيم، والعقبة كئود، والناقد بصير.

يا من قصد البحر بهمة! ائتِ الديار البكر، وارتد كل يوم منزل فضل، وخض ميدان التنافس، وائتِ بجديد، فإن قال لك البطالون الكُسالى: لو تفرغت لنا، فاقرع أسماعهم بصوت عمر بن عبد العزيز: وأين الفراغ؟ ذهب الفراغ، لا فراغ.

والله لا مُستراح للمؤمن إلا تحت شجرة طوبى.

أحبتي في الله...

إن النفس الإنسانية لابد أن تتحرك، فإذا هي كفت عن الشر، ولم تتحرك للخير، بقي فيها فراغ وخواء، قد يردها إلى الفساد، فالعبد سائر لا واقف، فإذا سار فإما إلى فوق وإما إلى تحت، وإما إلى الإمام وإما إلى الوراء، ليس هناك وقوف ألبتة، إنما هي مراحل تُطوى إلى الجنة، مُسرع ومُبطئ، ومُتقدم ومتأخر: ﴿ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴾ [المدثر: ٣٧] .

كُلُّ نَفسٍ سوفَ تَلقَى فِعلَهَا وَيحَ نَفسٍ بهَواهَا شُغِلَتْ

والله! لا تتم حقيقة الإيمان في القلب حتى يتعرض القلب للمجاهدة في هذا الدين، بدءًا من كراهية الباطل، إلى السعي في الإصلاح، إلى نقل الناس من الغواية إلى الهدى.

إنها باختصار: الدعوة إلى الله، التي تغير ماهية الشيء، فتجعل من الرجل غير الرجل، ومن القلب غير القلب، تجعل صاحبها كالنحلة؛ لا تأكل إلا طيبًا، ولا تُخرج إلا طيبًا، وإن وقفتْ على عود نخر لم تكسره، بل مثل النخلة؛ ما أخذت منها من شيء نفعك.

ونتيقن ونجزم -أيها الأحبة- أن في الزوايا خبايا، وفي الرجال بقايا، ولا يعرف قدر الرجال إلا الرجال، والهمم المَنُوطة بالرحال عظام:

وعَلى قَدرِ أَهلِ العَزمِ تَأتِي العَزَائِمُ وَتَأتِي عَلَى قَدرِ الكِرَامِ المَكَارِمُ

وَتَعظُمُ فِي عَينِ الصَّغِيرِ صِغَارُهَا وَتَصغُرُ فِي عَينِ العَظِيمِ العَظَائِمُ

❁ ❁ ❁

المطلوب من المؤمن تجاه دينه

كأني بكم تقولون: ماذا يُراد منا؟ ونقول: يراد منكم الكثير.

الإنفاق في سبيل نشر الدين بالمستطاع

نريد من الأُسَر أن تحمل همَّ دِينها، أن تدخر من قوتها في كل شهر ثمنًا لكتاب قيم يهدى لمن ينتفع به، ومبلغًا لمسلم محتاج، وشريطًا نافعًا للدعوة بالقول والعمل؛ لأننا نفترض في الأسر أنها صلحت؛ ونريدها مصلحة بناءة.

نريد من طالب المدرسة أن يعمل بما علم، أن يدخر في الشهر ولو ريالًا واحدًا يُسهم به في الدعوة إلى الله، نريد تمعُّرًا من الوجوه لانتهاك حدود الله، يعقبه تغيير أو إنكار.

نريد من التاجر أن يدعو بماله؛ يقتطع مبلغًا شهريًا يجعله في مصالح المسلمين، يطبع كتابًا ينفع الله به المسلمين، ينظر معسرًا، ينفس كربًا، يقضي دينًا، يطرد جوعًا.

نريد من المربين والمربيات، من المعلمين والمعلمات، أن يقوموا بدورهم في غرس الإيمان في قلوب أبناء الأمة، فو الله! إنهم لمسئولون عن أبناء الأمة.

نريد أقلامًا قوية بليغة، عندها المقدرة البيانية، والطلاوة الأدبية، وحلاوة التعبير الذي تنفذ الدعوة بها إلى عقول الناس وقلوبهم.

نريد قلوبًا تعرف الخشوع، ونريد عيونًا تعرف الدموع.

مَن ذا يُعيرُكَ عَينَهُ تَبكِي بِهَا — أرأيتَ عَينًا لِلدُّموعِ تُعَارُ؟

التربية السليمة على منهاج السلف

نريد تربية كتربية أبي بكر وعمر وصحبهم رضي الله عنهم، لا نريد أن تربِّي فراخ الصقور تربية بُغاث الطير، فهذا جور، ولا أن تربِّي الأسد تربية الخراف، فهذا ميل وظلم.

نريد أن تميز بين الصحيح والزائف، فليس كل لين حريرًا.

نريد كل جهد مهما ضؤُل حجمه، وصغرت مساحته، وقلّ عدده، فعند الله لا يضيع مثقال ذرة.

ترك النواح والإقبال على العمل

نريد مضاعفة الجهد وتكثيف العطاء، ونريد ترجمة الكلام إلى عمل.

نريد أن نتحرر من تلك الآفة التي غدت ظاهرة عامة بين المسلمين، تعوق خطانا عن السير؛ ألا وهي كثرة النواح وقلة العمل.

والنواح لا يحيي ما مات، ولا يرد ما فات.

آفتنا كثرة الشاكين المتوجعين، وقلة المداوين، كثرة من يسبون الظلام، وقلة من يوقدون الشموع.

نعم يا قاصد البحر: كثرت الشكوى من الأدواء والمآسي، ولعلك ترى ذلك وتلمسه، لم يعد هناك أحد إلا ويشكو، فمن المشكو منه إذن؟! كلنا شاكٍ ومشكو منه.

ذكر صاحب أين الخلل ما نصه: حّدثوا أن واعظًا بليغًا وعظ الناس يومًا حتى بكوا من تأثير الموعظة، وكان معه كتاب، ثم بحث عن كتابه بعد الموعظة، فوجده قد سُرق، نظر إلى الحاضرين، عله أن يلمح بينهم وجهًا تلوح عليه آثار الجريمة، لكنه وجد الجميع متأثرين يبكون، فقال لهم: كلكم يبكي فعلًا فمن سرق الكتاب؟!

نعم. كلنا نشكو، فمن المشكو منه؟!

إن علينا أن ننتقل من دائرة الشكوى إلى دائرة العمل المتواصل الدءوب، العمل للحاضر والمستقبل، وإن لم نشكُ فلا نريد أن نكون من المتفرجين، وممن ينتظر العمل من الآخرين.

بل يعمل الجميع، وكلٌ على قدر جهده وطاقته.

وعودًا على بدء؛ للرجل دوره، وللمرأة دورها، وللصبي والكبير والغني والفقير دوره، المهم أن يعمل الجميع، وأن يضع كلٌ منا نفسه في المكان الملائم، من استطاع أن يُميط شوكة عن طريق فليُمطها، ومن أمكنه أن يبذر حبة في الأرض فليبذرها.

حمل الدعوة كل وفق تخصصه

نريد باختصار حمل هَمّ الدعوة من كل واحد منا، أينما حلَّ وأينما رحل، كلٌّ وفق تخصصه، وينفق مما لديه: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ﴾ [الطلاق: ٧]، إنْ كان عنده علم دعا به، مالٌ دعا به، ولا مبرر للقعود أبدًا؛ فالمسئولية على الجميع مشتركة وتتفاوت؛

فمسئولية العالم أكبر من مسئولية الجاهل، ومسئولية صاحب السلطة أكبر من مسئولية من لا سلطة له، ومسئولية صاحب المال أكبر من مسئولية من لا مال له، وإن كان الكل مسئولًا

كل مسلم رجل يعمل لدينه، والأمة كلها مسئولة عن فرائض الله، وأحكام الله، وشرائع الله.

ذُكر أن أحد المستمعين قال لأحد الدُعاة يومًا، بعد محاضرة ألقاها ذاك الداعية: قد مضى لكم ثلاثون سنة وأنتم تتكلمون، فماذا صنعتم؟

وكان جواب الداعية مفاجئًا له حين قال: وأنتم مضى لكم ثلاثون سنة صامتون تستمعون، فماذا صنعتم؟!

هذا حق. على المستمع كما على المتكلم مسئولية تحويل الكلام إلى عمل، والأفكار إلى وقائع، وإن اختلفت درجة المسئولية.

المسلم مطالب بالعمل إلى آخر رمق، حتى لو قامت الساعة وفي يده فسيلة فليغرسها إن أمكنه.

فَليــنطلِقْ كُــلُّ فَــردٍ حَــسْبَ طَاقَــتِهِ ... يَدعُــو إلَــى اللهِ إخفَــاءً وَإعلانًــا

ولْــنَترُكِ اللَّــومَ لا نَجعلْــهُ عُدَّتَــنَا ... وَلْــنَجعَلِ الفِعــلَ بَعــدَ الــيَوم مِيــزَانَا

نريد أن نكون كتلة كالمطر، لا يُدرَي أوله خير أم آخره؟ كتلة فيها الكفاية في كل ناحية، كتلة هي في غِنى عن العالم، وليس العالم في غِنى عنها، تملأ كل ثغر، وتسد كل عِوَز وعجز؛ فإنه -والله- لا عمل أبقى وأنفع للمسلم من عمل يقضيه في الدعوة إلى الله؛ بيانًا باللسان، وجهادًا باليد، ونفقة من العلم والمال والوقت، وكل مسلم على ثغرة من ثغور الإسلام، وعليه أن يسدها أيًا كان تخصصه ومستواه وموقعه؛ إن كان في الحراسة ففي الحراسة، وإن كان في الساقة ففي الساقة، همه أداء الواجب، والمشاركة، والقيام بالمسئولية وفق ما لديه من استطاعة: ﴿ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

المضي في الدعوة والعمل وترك الالتفات إلى الخلف

يا قاصد البحر! لعلها فتحت لك آفاق، وشحنت همتك فحدد أهدافك، وسر وحلق مع الهمم العالية، وإياك والنظر إلى الخلف؛ لئلا تضعف فتؤكل، فالقلب كالطائر كلما علا

بعد عن الآفات، وكلما هبط احتوشته الآفات، وما المرء إلا حيث يجعل نفسه.

خذ من الأسباب ما يقوي همتك؛ من مجاهدة ودعاء صادق أن يعلي الله همتك، وقراءة لسير سلفك أهل الهمم، ومصاحبة لأهل الهمم، والأهم فالمهم فإن العمر يعجز عن تحصيل الكل:

إن لم تكن للحق أنت فمن يكون والناس في محراب لذات الدنايا عاكفون

فكن رجل رجله في الثرى وهامة همته في الثريا

واقصد البحر بإخلاص وصواب وهمة وخل القنوات!

فتى الإسلام...

يا من قصد البحر بإخلاص وصواب وهمة! اعلم أن سنة الله التي لا تتبدل، ألا ينال ما يرجى ويؤمل إلا بثمن، ليس هناك شيء بالمجان، وكلما كانت السلعة نفيسة كان الثمن أنفس وأغلى، وهذا ما أدركه القائل يوم قال:

بصرت بالراحة الكبرى فلم أرها تنال إلا على جسر من التعب

قلما تجد ثمرة إلا ومعها زنبور، ولا لذة إلا وإلى جانبها شيء محذور، ولن يظهر أحد بمطالبه شفعًا، مهما كد وسعى، بل مرعى بلا ماء، وماء بلا مرعى، ونحلة مع الشهد، وشوكة مع الورد:

أرض بها عشب زاك وليس بها ماء وأخرى بها ماء بلا عشب

كيف ينال الفضل والجسم خامل وادع؟!

وكيف يؤتى المجد والوفر وافر؟!

أي مطلوب نيل من غير مشقة؟!

أي مرغوب لم تبعد على طالبه الشقة؟!

المال لا يحصل إلا بالتعب، والعلم لا يدرك إلا بالنصب، واسم الجواد لا يناله بخيل، ولقب الشجاع لا يحصل إلا بنزل طويل.

لولا المشقة ساد الناس كلهم الجود يفقر والإقدام قتال

من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، سلعة الله أغلى وأعلى، سلعة الله الجنة.

قد يكون الثمن جهدًا ووقتًا، وقد يكون مالًا وامتحانًا، وقد يكون دمًا مراقًا وبلاءً.

لا ضير مادامت السلعة تستحق

فـــإن المـــر حـــين يـــسر حلـــو وإن الحلـــو حـــين يـــضر مـــر

فخـــذ مـــرًا تـــصادف مـــنه نفعًـــا ولا تعجـــل إلى حلـــو يـــضر

ادفع الثمن وسابق، واقصد البحر وخل القنوات!

اقصد طريق اليمن وخل طريق الشام

فتى الإسلام...

يا من قصد البحر بإخلاص وصواب، وهمة وعلم الثمن! اطلب الثبات وسل الله الثبات؛ فإن الثبات عزيز.

إذا عشقت طريق اليمن فلا تتجه إلى الشام وأعني باليمن اليمين وبالشام الشمال، وليكن لسان حالك ومقالك:

لا أحـــب الـــسير إلا مـــصاعدًا ولا الـــبرق إلا أن يكـــون يمانـــيا

الثبات على الدين

الطريق واضح، والمبادئ بينة، وأحسب أنك مستيقن بالحق الذي عندك لا تشك فيه أبدًا، تكره أن تعود في الكفر كما تكره أن تلقى في النار، ترتضي أن تجود بالروح، وأن تحرق بالنار، وتنشر بالمنشار، أو تقطع بالسيوف على أن تترك ذاك الطريق أليس كذلك؟

أحسب أن الجواب بلي. لماذا؟ لأني أحسبك مطمئنًا لمبدئك اطمئنانًا يثمر الانتفاع بطريق في اليمن بعمل دءوب متواصل إلى نهاية الأجل، غير آبهٍ ولا ملتفت إلى طريق الشام، وأحسب أنه لم تكثر الأشياء الكثيرة بنفسك يومًا ما؛ لأنها نفس مطمئنة، في حين تعلم وترى بأم عينك نفوسًا اضطربت بأطماعها وشهواتها، فباعت بعرضٍ دينها؛ لأنها مبتلاة بهموم كثرة خيالية؛ مثلها في الهمم كطفيلي يحزن لأنه لا يأكل في بطنين، أما أنت فأحسب أنك ربيت نفسك على أن تعطي في هذه الدنيا ولا تأخذ شيئًا، قد علقت نفسك بالآخرة حيث الأجر والثواب، فقمت لله فلم يقم لك شيء، لو كادتك السماوات والأرض والجبال لكفاك الله، وجعل لك منها فرجًا ومخرجًا.

الإمام أحمد ومحنة خلق القرآن

ألم يأتك نبأ الإمام أحمد رحمه الله يوم امتحن على القول بخلق القرآن، فثبت على الحق ثبوت الجبال، حتى أنه كان إذا أريد على ذلك تدور حماليق عينيه كالمجنون.

يؤتى بالسياط للمعتصم وبجلادين غلاظ القلوب قساة الأفئدة، ليأمر كل واحد منهم أن يتقدم ليضرب الإمام بكل ما لديه من قوة سوطين وكفى، والمعتصم يقول للضارب: شد قطع الله يدك.

ثم يقول المعتصم: يا أحمد! علام تقتل نفسك، إني والله عليك لشفيق.

ويقول آخر: أتريد أن تغلب هؤلاء كلهم.

ويقول بعض بطانته الخبيثة -التي هي أخبث من بطانة فرعون- يا أمير المؤمنين! اقتله ودمه في عنقي.

فيقول المعتصم: ويحك يا أحمد! ما تقول؟

فيقول: أعطوني شيئًا من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ أقل به؛ ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبدًا، فيغضب ثم يقول للجلاد: تقدم، أوجعه قطع الله يدك.

فيضرب الإمام والمعتصم يقول: أجبني ويحك إلى شيء لك فيه أدنى فرج حتى أطلق عنك بيدي.

فيقول: أعطوني شيئًا من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ أقل به.

فيأمر الجميع بضربه ويقول: شدوا قطع الله أيديكم، حتى ذهب عقل الإمام، وأغمى عليه؛ داسوه بالأقدام، كبوه على وجهه، طرحوه على ظهره، ثم يفيق ودماؤه تسيل؛ خلعت أكتافه وهو ثابت كالطود الأشم.

هنا ينتقلون إلى أسلوب المناظرة فيتقدم أحدهم يناظر ويقول: أولست تحسن كتاب الله يا أحمد! إن الله يقول: ﴿ أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَـٰدًا ﴾ [النبأ: ٦] أي: نخلقها مهادًا ويقول: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَـٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾ [الزخرف: ٣] أي: خلقناه قرآنًا عربيًا، فقال الإمام أحمد في هدوء المؤمن؛ والله تعالى يقول: ﴿ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ﴾ [الفيل: ٥] أهي: بمعنى خلقهم كعصف مأكول؟ فألجم وسكت.

وتقدم آخر فقال: الله يقول ﴿ ٱللَّهُ خَـٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ [الزمر: ٦٢]، أوليس القرآن شيئًا،

فقال الإمام والله يقول: ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ [الأحقاف: ٢٥]، فهل دمرت كل شيء أم دمرت ما أراد ربها؟ فبهت وسكت؛ ولا غرو: من ذا يساوي بين تغريد البلابل والنعيق.

يقول أحدهم مغضبًا: وأنت لا تقول إلا كتاب سنة كتاب سنة، فكان حال الإمام ينطق: ﴿ فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِىٓ أُوحِىَ إِلَيْكَ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [الزخرف: ٤٣].

لسنا وإن عزبت أحلامنا وخوت ... منا الرءوس بقول الزور ننبهر

وثبت الإمام أحمد عليه رحمة الله، ونصر الله به السنة، وكان بحق إمام هذه الأمة في علمه وثباته وتواضعه؛ يقول أحدهم له: جزاك الله خيرًا عن الإسلام يا إمام، فيقول: بل جزى الله الإسلام عني خيرًا؛ من أنا وما أنا؟ رحمه الله من قدوة ماثلة إلى الآن.

قاد الهوى الفجار فانقادوا له ... وأبت عليه مقادة الأبرار

وبالعهد نفسه يراد أبو يعقوب البويطي على القول بخلق القرآن، فيمتنع، فيحبس في بغداد حتى مات في الحبس، يقول قبل موته: والذي لا إله إلا هو! لأموتن في حديدي هذا حتى يأتي من بعدي قوم يعلمون أنه قد مات في هذا الشأن قوم في حديدهم: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ [العنكبوت: ٢].

ومن لاذ بالله في دربه ... كفاه المهيمن من كل شر

سيد رحمه الله يحكم عليه بالإعدام وتأتي أخته فتقول: اعتذر لعله يخفف عنك.

قال: أأعتذر عن العمل مع الله؟ والله! لو كان التعامل مع غير الله لاعتذرت ولكنه مع الله حاله:

إن بقي شيء في الأجل فلن يقدم ... وإن لم يبق شيء فلن يؤخر

إني وزنت الذي يبقى ليعدله ... ما ليس يبقى فلا والله ما اتزنا

أخي سالك طريق اليمن: ربِّ نفسك، وليزمجر بحرك:

الله غايتنا وهل من غاية ... أسمى وأغلى من رضا الرحمن

أعدها للبيع على الله عز وجل؛ فإنه يوشك من أهمل نفسه أن ينهزم قلبه، وتخونه نفسه عند أول اختبار وبادرة هزة، فيتراءى لك أنه حي يرزق، ولكنه في الحقيقة ميت.

غمد محلى بلا سيف، وجدول غير ثابت.

إن طريق العقيدة الصحيحة والدعوة إليها طريق الأنبياء؛ شاق تتقاصر دونه الهمم الساقطة، والعزائم الضعيفة، وتجزع دونه الأرواح الهزيلة والقلوب الخاوية:

طريق الحق محفوف بشوك ومحتاج إلى طول المراس

إن العقيدة -والله- لا تحتاجنا، بيد أنا نحتاجها لنتذوق طعم الحياة بها، فاسلك طريق الإيمان وتدبر القرآن، وتعرف في الرخاء على الرحمن، واستيقن أن الرزق مضمون والأجل محدود، وقف على أخبار من ثبت؛ تطمئن وتسكن؛ فإذا حصل اطمئنانك إلى أن ما تفعله حق وأنه لله واستعنت بالله؛ فليكن حداؤك ودعاؤك: يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك.

ثم اسلك طريق اليمن قاصدًا البحر، ولا تلتفت لطريق الشام وخل القنوات!

تميز الداعية في حياته

فتى الإسلام: بل يا قاصد البحر! التميز التميز؛ إذ هو في حياتك عمدة، وضرورة خاصة في عصور طغيان الحياة المادية على الحياة.

تميز المسلم يتمثل في تمسكه وقبضه على دينه عقيدة وعبادة وسلوكًا؛ بمعنى: ألا يتميع في دينه وينصهر مع المتفلتين منه تحت وطأة الفساد، وضغط الواقع، ومسايرة المجتمع كما يقال.

نعم. إنه ليعرف بإصراره على دينه والغيرة على محارم الله أن تنتهك، وأي دين وأي خير وأي تميز لمن يرى محارم الله تنتهك، وحدوده تضيع، ودينه يترك، وسنة رسوله يرغب عنها، وهو بارد القلب، ساكت اللسان، شيطان أخرس ما بلية الدين إلا من هؤلاء، الذين إذا سلمت لهم مآكلهم ومشاربهم؛ فلا مبالاة بما يجري على الدين، لقد بلوا بأعظم بلية؛ ألا وهي موت القلب وهم لا يشعرون عافانا الله وإياكم.

يتميز المسلم بصحة معتقده عند مسائل الاعتقاد، بالتزام السنة عند نشوب البدعة، بصدق الإيمان عند نشوب النفاق، بعبادته إذا الناس يلهون، بأخلاقه إذا أهدرت القيم، بالصدق في المعاملة إذا فشا الغش، بصمته إذا كثر الخلط، بمحاسبته نفسه إذا أهملها الغير، بدعوته بجهاده إذا أقبلت الدنيا على أهلها فغرقوا في لجتها، بالإنصاف حتى مع الشنآن.

لا يخجل من انتمائه لدينه، لا يخجل من منهاجه وشريعته، لا يخجل من أن يتحدث

بلغته؛ لغة القرآن، ولا يخجل من لباسه الذي يخالف به الكفار.

التميز ضرورة للسائرين على الدرب ليقدم منهجه للعالمين عمليًا قويًا.

يذكر أبو الحسن الندوي حفظه الله ورحمه؛ أنه وقع نزاع بين الهندوك والمسلمين في قرية من الهند على أرض؛ يقول الهندوك: إنها معبد لهم، ويقول المسلمون: إنها لهم مسجد، وتحاكموا إلى الحاكم الإنجليزي في ذلك الوقت، فسمع حجة الفريقين، وتحاجوا، ولم يطمئن إلى نتيجة معينة في محاكمته، فسأل الهندوك: هل يوجد في القرية مسلم تثقون بصدقه وأمانته لأحكم على رأيه؟ قالوا: نعم. فلان. وسموا شيخًا من صالحي المسلمين وعلمائهم، فهو تميز حتى بين الكافرين، فأرسل الحاكم في طلبه إلى المحكمة، فقال: قد حلفت ألا أرى وجه إفرنجي ما حييت، فأخبروا الحاكم بمقالة العالم، فقال: لا بأس! يحضر ويدلي برأيه في القضية ولا يلزم أن يراني، فحضر الشيخ متميزًا قد ولى دبره إلى الحاكم وقال: الحق في هذه القضية مع الهندوك، والأرض أرضهم ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ﴾ [المائدة: ٨]، فقضى الحاكم بذلك، وخسر المسلمون القضية، ولربما غضب بعضهم ولكنهم كسبوا قلوب أولئك فأسلم منهم جمع.

أرأيت كيف يكون التميز؟

إن العلم عارية ووديعة من الله لا تباع كسلعة في السوق، لا يتعاون به على إثم آثم أو عدوان معتد أو ظلم ظالم.

فيا طلاب العلم...

ميزوا الأنفس عن رق الهوى وإلى الإسلام سيروا تبعا

توجيهات تعين الداعية على التميز

ومن كمال التميز -يا قاصد البحر- أن تضع في حسابك أمورًا وأنت تخالط الناس وتشاهدهم، وتأكل وتشرب معهم، وتزور وتزار: أن تحرص على أن تظهر بمظهر الدقة والنظام والحفاظ على حقوق الآخرين.

أنت قدوة ينظر إليه: أكثر من الاغتسال أيام الحر.

لا تكثر من التنخم والتمخط بصوت عال.

لا تظهر التجشؤ كما يفعل البعض.

لا تأكل ثومًا، ولا تصنع لضيفك طعامًا فيه ثوم؛ فإن ذلك من التميز، ولا تتكلف كثيرًا لضيفك لئلا تحرجه، وإن كنت ضيفًا على أحد فكل أكلك المعتاد؛ لأن صاحب المائدة الكريم يحب أن يأكل الضيف ويكثر في الزيارة.

لا تزر وقت قيلولة أو راحة أو منتصف ليل، واستأذن قبلها بالهاتف إن أمكن، واطرق الباب برفق ثلاثًا وإلا فارجع هو أزكى لك، وقف إلى جانب الباب لا أمامه إذ ربما تفتح امرأة.

ثم لا تطل وقت الزيارة فالوقت أنفاس لا تعود.

لا تصافح أخاك بيد مرتخية ولا بأخرى حديدية، وكن وسطًا؛ لا تناد أخاك بمزمار السيارة كما يفعل الطائشون.

في الهاتف: لا تطل الكلام ولا ترفع صوتك، واذكر اسمك لمن تكلمه مباشرة.

إن خدمك خادم أو عمل لك عامل فأجزل له الأجرة ولا تماطله.

في الكلام: لا تسابق وأنصت حتى يبرأ مخاطبك.

في التعزية: لا تبادر إلى تعزية مسافر فلعله لا يعلم ما حدث.

واحذر ثم احذر مما يوجب الخجل.

وإياك وما يعتذر منه ويسلب المروءة؛ فإن الشافعي قد طبق هذا المعنى فقال: والله! لو علمت أن الماء البارد يسلب مروءتي ما شربته إلا حارًا.

تميز عام حتى في اللعب، حتى في الرائحة، في كل الأمور؛ فإن العِرْف يُعرف بغصنه والقول يعرف بلحنه، والصبح لا يتمارى بإسفاره، ولا يفتقر إلى دليل على إشراق أنواره:

وما كل من قال القريض بشاعر — وما كل من عاش الهوى بمتيم

فاقصد البحر تميَّز وخل القنوات!

الاتزان والعدل في كل الأمور

يا فتى الإسلام...

اقصد البحر معتدلًا متزنًا في حبك وبغضك وولائك وعدواتك، واحمل معك ميزان السنة الذي ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يوم يقول في فتاواه: إذا اجتمع في الرجل الواحد خير وشر، وبر وفجور، وطاعة ومعصية، وسنة وبدعة استحق من الموالاة

والثواب بقدر ما فيه من الخير، ومن العداوة والعقاب بقدر ما فيه من الشر، فيجتمع في الشخص موجبات الإكرام والإهانة.

ثم أتبع ذلك بقول الخطيب البغدادي: فليس من شريف ولا عالم غير الأنبياء إلا وفيه عيب، ولكن من الناس من لا ينبغي أن تذكر عيوبه، فمتى كان فضله أكثر من نقصه وهب نقصه لفضله.

ولذا نقل ابن القيم - رحمه الله - عن شيخ الإسلام قوله: انظر لموسى صلوات الله وسلامه عليه: رمى الألواح التي فيها كلام الله فكسرها، وجر بلحية نبي مثله وهو هارون عليه السلام، ولطم أعين ملك الموت ففقأها، وربه تعالى يحتمل له كل ذلك ويحبه ويكرمه؛ لأنه قام لله تعالى تلك المقامات العظيمة في مقابلة أعدى عدو له فرعون، وصدع بأمر الله، وعالج أمتي القبط وبني إسرائيل أشد المعالجة، وأمتان كهذه الأمم معالجتها شديدة أليمة، يعبدون بقرة ثم يتوقفون في ذبح بقرة[1]، ثم يعبرون البحر فيقولون: اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة؛ فكانت هذه الأمور كلها كالشعرة في البحر.

لا غرو. إذا بلغ الماء قلتين لم يحمل الخبث، ومن قل خطؤه وكثر صوابه فهو على خير، والعبرة بكمال النهاية لا بنقص البداية.

فيا قاصر البحر...

لا يكن حبك كلفًا، ولا بغضك تلفًا؛ فإن من الناس من إذا أحب كلف كما يكلف الصبي فلا يستغني عن محبوبه طرفة عين، وإذا أبغض أحب لصاحبه التلف.

إن الذي لا عيب فيه غير الأنبياء لم يخلق بعد، والكمال لصاحب الكمال.

وكفى بالمرء نبلاً أن تعد معايبه

فاربأ بنفسك وأنا أربأ بك أن تكون ممن تستفزه كلمة فينسى معها قاموس التآخي، ويجرد أصحابه من كل فضل كأن لم تكن بينه وبينهم مودة:

ولقد رأيت معاشرًا جمحت بهم ... تلك الطبيعة نحو كل زيار

تهوى نفوسهم أذى إخوانهم ... شغلاً بكل دناءة وصغار

تبعوا الهوى فهوى بهم وكذا ... الهوى منه الهوان بأهله فحذار

---

(١) انظر «مدارج السالكين» (١ / ٢٣٨)، (٢/ ٤٥٦).

فانظر بعين الحق لا عين الهوى ... فالحق للعين الجلية عار

صحح الأخطاء، واعدل، ولا تمس المشاعر، وامدح على قليل الصواب يكثر من الممدوح الصواب؛ ولا خير في المبالغة في شيء.

واقصد البحر بعدل واتزن وخلِّ القنوات.

عرِّف نفسك قدرها، وانهج بها نهج بكر بن عبد الله يوم يقول: إن رأيت من هو أكبر مني سنًا قلت: سبقني بالإيمان والعمل الصالح فهو خير مني، وإن رأيت من هو أصغر مني فأقول: سبقته إلى الذنوب والمعاصي فهو خير مني، وإن أكرمني إخوتي قلت: تفضلوا علي فجزاهم ربي خيرًا، وإن أهانني إخوتي قلت: ذاك لذنب أصبته، وعهد بيني وبين الله ضيعته، ورحم الله امرًا عرف قدر نفسه.

فاقصد البحر وقَدْر النفس فاعرف وخلِّ القنوات!

الرفق في التعامل

فتى الإسلام...

خذهم بالرُقى إن المَهَارى ... يهيِّجها على السير الحُداء

لين القول أدعى للقبول، بالتي هي أحسن، بالموعظة الحسنة، وقولوا للناس حُسنًا: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، **«فما كان الرفق في شيء إلا زانه، وما نزع من شيء إلا شانه»** [١]، **«وإن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله»** [٢]، **«ومن يُحرم الرفق يحرم الخير كله»** [٣]، لا مُداهنة ولا نفاق، بل نصح في أسلوب دمث مؤثر، يفتح القلوب، ويشرح الصدور.

في الحديث الصحيح: «أن النبي ﷺ لما أراد المسير إلى حنين بعث إلى صفوان بن أمية -وهو كافر- يطلب منه أن يعيره مائة درع، وما يُصلحها من عدتها وعتادها، فقال صفوان: أغصبًا يا محمد؟ فقال ﷺ: **«لا، بل عارية[٤] مضمونة[٥] حتى نؤديها إليك»**، فأعار

(١) **صحيح**: مسلم (٦٧٦٧).
(٢) **متفق عليه**: البخاري (٥٦٧٨)، (٥٩٠١) (٦٠٣٢)، ومسلم (٥٧٨٤) (٦٧٦٦).
(٣) **صحيح**: مسلم (٦٧٦٥).
(٤) **العارية**: كل شيء يعار ويستعار ويتبادله الناس بالسلف للمنفعة.
(٥) **المضمونة**: التي تضمن إن تلفت بالقيمة.

النبي ﷺ الدروع، وأمره النبي ﷺ أن يحملها إلى حنين فحملها، ولما عاد النبي ﷺ غانمًا من حنين، وقد تلفت بعض الدروع في الحرب، قال لصفوان: إن شئت غرمتها لك يا صفوان! فقال صفوان: لا.

وجعل ينظر إلى شعب مليء بنعم وشاة ورعاء، ويديم النظر إلى ذلك النعم، ورسول الله ﷺ يرمقه، ثم قال ﷺ: «**أبا وهب! أيعجبك هذا؟**» قال: نعم. قال: «**فهو لك**».

فقال صفوان: مه، والله ما طابت نفس أحد بمثل هذا إلا نفس نبي، أشهد أن لا إله إلا لله، وأنك رسول الله، ودخل في دين الله» [1]

خذهم بالرقى إن المهارى يهيجها على السير الحُداء.

وثبت في مستدرك الحاكم أن زيد بن سعنة؛ أحد أحبار اليهود اشترى تمرًا معلومًا من النبي ﷺ إلى أجل معلوم، وقبل الموعد بأيام جاء إلى النبي ﷺ وقد فرغ من صلاة الجنازة على أحد المسلمين، ودنا إلى جدار ليجلس متعبًا ﷺ، فيتقدم زيد فيأخذ بمجامع قميصه وردائه، وينظر إليه بوجه غليظ متجهم، ويقول: يا محمد! ألا تقضني حقي؟ والله! إنكم لمطل يا بني عبد المطلب.

عند ذلك نظر إليه عمر وعيناه تدوران في وجهه من الغضب، ثم قال: يا عدو الله! أتقول لرسول الله ما أسمع، وتصنع ما أرى؟! والذي بعثه بالحق، لولا ما أُحاذر من لومه لضربت بسيفي هذا رأسك.

فيرتعد ويخاف ويضطرب إذ الكلام من عمر، وما أدراك ما عمر؟! وينظر إلى النبي ﷺ فينظر إلى عمر ويبتسم في سكون وتؤدة، ثم يقول: «**يا عمر! أنا وهو كنا أحوج إلى غير هذا منك؛ أن تأمرني بحسن الأداء، وتأمره بحسن الطلب، اذهب يا عمر! فأعطه حقه، وزده عشرين صاعًا جزاء ما روعته**».

انطلق عمر وأعطى الرجل حقه، وزاده عشرين صاعًا.

فقال زيد: ما هذه الزيادة يا عمر؟

قال: أمرني رسول الله ﷺ أن أزيدك جزاء ما روعتك، فتلألئ وجه زيد بالبشر، قال:

---

(١) **صحيح**: أخرجه أحمد (١٥٣٣٧) (٢٧٦٧٧)، وأبو داود (٣٥٦٢) (٣٥٦٣)، و الألباني في «الصحيحة» (٦٣٠، ٦٣١)، وفي «الإرواء» (١٥١٥)، جميعهم بنحوه.

ألا تعرفني يا عمر؟ قال: لا.

قال: أنا زيد؛ حبر اليهود، لم يكن من علامات النبوة شيء إلا عرفته في وجه رسول الله إلا علامتين: أنه يسبق حلمه جهله، ولا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلمًا، وقد عرفتهما الآن، فأشهدك -يا عمر- أني أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، رضيت بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًا، وأشهدك يا عمر فوق ذلك أن شطر مالي صدقه على أمة محمد ﷺ[1]

يا لله! شدة وعنف تقابل من رسول الله ﷺ بحلم عظيم تجعل ذلك ينضم لهذا الدين، ويبذل له نصف ماله في أول لحظات إسلامه: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ۝ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝﴾ [فصلت: ٣٤، ٣٥].

فيا قاصد البحر! ويا أيها الداعي إلى الله! تذكرٍ أن الكلمة القاسية الجافة؛ لها كلمة طيبة مرادفة تؤدي نفس المعنى بلا أذى، وفي المثل: إنّ نقطة العسل تصيد من الذباب ما لا يصيده برميل علقم.

فبالعوراء لا تنطق ولكن بما يرضى الإله من الكلام

يمر أحد الصالحين بقرية يدعوهم فيها إلى الهدى، فيسبونه ويشتمونه، فيدعو لهم بالصلاح والهداية، فقال أصحابه: تدعو لهم وهم يريدون بك شرًا، وترد عليهم خيرًا؟!

قال في سُمُو خلق، ورقة نفس، وسعة صدر: كلٌ ينفق مما عنده.

إن كريم الأصلَ كالغصنِ كلُما ازداد من خيرٍ تواضعَ وانحنى

فخذهم بالرقى إن المهارى يهيجها على السير الحداء.

فاقصد البحر برفق وخل القنوات!

الشعور بالمسئولية

أخيرًا: يا من قصد البحر! بسبب وصحبة إخلاص وصدق وصواب، وهمة مقرونة

---

(١) منكر: أخرجه البيهقي في «السنن الكبرى» (١١٠٦٦)، و ابن حبان في «صحيحه» (٢٨٨)، والحاكم في «مستدركه» (٢٢٣٧)، والألباني في «الضعيفة» (١٣٤١)، جميعهم بنحوه.

بها، يعقبه عمل، وقد نقد الثمن بثبات وتميز واتزان، اعلم أنك مسئول:

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝ ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣].

فليتق الله قاصد البحر في كل كلمة يقولها، وكل حركة أو سكون؛ فإن الله سائله.

ذُكر عن بعض العلماء رحمهم الله أنه ولي القضاء، فحكم على رجل فاجر سفيه طائش فقال له: والله! ما أردت بحكمك هذا وجه الله، ولقد ظلمتني.

فقال العالم: أو تقول ذاك؟

قال: نعم. وأقسم عليه.

قال العالم -واسمعوا لما قال- قال: والذي لا إله إلا هو! ما تكلمت بكلمة منذ أربعين عامًا إلا وأعددت لها جوابًا بين يدي الله عز وجل!

فيا قاصد البحر...

« لن تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وعن علمه ماذا عمل به» [(١)]، فماذا عسى يكون الجواب؟ أعدَّ للسؤال جوابًا، وللجواب صوابًا، واقصد البحر بإعداد وخل القنوات.

أخي قاصد البحر: -ولعل الكل قاصد- بقي أمور لابد لي من سردها نظرًا للضيق.

أعط كل ذي حق حقه، وقدم فاضل الأعمال على مفضولها، واعرف خير الخيرين لتتبع، وشر الشرين، ومع الدليل تدور ولا تغتر بالكثرة، والبر البر تفلح، والقصد تبلغ، ولا تكن خبًا ولا الخب يخدعك:

وابــذل الخــير تجــني كــل صــلاح ... يبــتذل الخــير إذ تطــيب الــبذور

واعلم أن الكلام في الموضوع يطول، وما قلته سوى وميض حداء على الطريق، اكتفيت فيه من القلادة بما أحاط بالعنق، عجزًا في ضيق وقت، فما وجدت من صواب وحق فاقبله وما وجدت من خطأ فاعلم أني لم آلوا جهدًا في الصواب، ويأبى الله إلا أن يتفرد بالكمال، والنقص في أصل الطبيعة كامن، وكيف يعصم من الخطأ من خلق ظلومًا جهولًا؛ لكن:

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٤١٧)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٤٦٩٤)، والألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٢٦).

إن تجـــد عيـــبًا فـــسد الخلـــلا جـــل مـــن لا عـــيب فـــيه وعـــلا

واقصد البحر وخل القنوات!

أسأل الله بأسمائه الحسنى، وصفاته العلى أن ينفعنا بها علمنا، وأن يزيدنا علمًا وعملًا.

اللهم كن لنا، وامكر لنا، وانصرنا وأعنا، واهدنا واهد بنا، ويسِّر الهدى لنا.

اللهم كن للمستضعفين والمضطهدين والمظلومين.

اللهم اجبر كسرهم، وتولَّ أمرهم، اللهم أزل عنهم العناء، واكشف عنهم الضر والبلاء.

اللهم أنزل عليهم من الصبر أضعاف ما نزل بهم من البلاء، يا سميع الدعاء! يا حي يا قيوم! يا ذا الجلال والإكرام!

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

۞۞۞۞۞

[١٥] هلموا إلى القرآن

الحمد لله القائل: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [فاطر: ٢٩، ٣٠].

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله القائل: «**الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة**»[١]، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

يا خادم الجسم كم تسعى لخدمته أتعبت جسمك فيما فيه خسران

أقبل على الروح واستكمل فضائلها فأنت بالروح لا بالجسم إنسان

عباد الله...

وأنتم تعيشون شهر القرآن اتقوا الله، واعلموا أن لكل رسول من الرسل عليهم الصلاة والسلام معجزة اِختُصَّ بها بين الرسل؛ ليصدقه قومه وليعلن التوحيد فيهم بالبراهين. فكان لموسى عليه السلام معجزة العصا، يوم خرج في قوم بلغوا في السحر ذروته ومنتهاه، فأتت عصاه تلقف ما صنعوا: ﴿ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١١٨].

وبلغ قوم عيسى مبلغًا عظيمًا في الطب، فأتى إليهم عيسى بطب من الواحد الأحد، يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله، فوقع الحق واندحر الباطل.

وأما رسولنا ﷺ فبعث في أمةٍ فصيحة في لغتها، مجيدة في بيانها، خطيبها أخطب الخطباء، وشاعرها أرقى الشعراء، فأتى إليهم صلى الله عليه وسلم بالقرآن، سمعوه فدهشوا من بيانه، وبهتوا من بلاغته وفصاحته، فما استطاعوا أن ينكروا ذلك رغم جحودهم، حتى يقول كبيرهم الوليد بن المغيرة - وقد سمع القرآن فدهش: - واللات والعزى، إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وأنه يعلو ولا يُعلى عليه.

---

(١) متفق عليه: البخاري (٤٦٥٣)، ومسلم (١٨٩٨).

لا إله إلا الله!

الحــق يعلــو والأباطــل تــسفل ... والحــق عــن أحكامــه لا يُــسأل

و إذا اســتحالت حالــة وتــبدلت ... فــالله عــز وجــل لا يتــبدل

ما زال به قومه -بـ الوليد - حتى رجع عن مقالته، وكذب نفسه فيما قاله عن القرآن، فقال منتكسًا كما حكى الله عنه: ﴿ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴾ [المدثر: ٢٤]، ويتولى الله الرد عليه ويعنفه ويتهدده: ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا سَقَرُ ۝ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ۝ ﴾ [المدثر: ٢٦- ٢٨].

ويأتي الرسول ﷺ لِيُرَبِّي هذه الأمة على هذا الكتاب العظيم الذي: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴾ [فصلت: ٤٢]، فتربت الأمة وتهذبت.

وأصــبح عابــد والأصــنام قُــدمًا ... حمــاة البــيت والــركن اليمانــي

تربت على كتاب ما قرأه قارئ إلا آجره الله، وما تدبره متدبر إلا وفقه الله.

كتابٌ مَن حكم به عدل، ومن استمع إليه استفاد، ومَن اتعظ بمواعظه انتفع.

كتاب من قرأه علَّمه الله علم الأولين والآخرين.

كتاب من استنار بنوره دخل الجنة، ومن تقفاه وجعله خلف ظهره قذفه على وجهه في النار.

كتاب من تدبره أخرج النفاق والشك والريبة من قلبه، هو شفاء لما في الصدور، مَن التمس الهداية فيه هداه الله وسدده، ومن التمس الهدى من غيره أضله الله وأهانه: ﴿ وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ ﴾ [الحج: ١٨].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «من اعتقد أنه سيهتدي بهدى غير هدى الله فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين» ويقول جل ذكره: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [محمد: ٢٤] والمعنى: ما بهم لا يتدبرون ما فيه من العظات؟ ما بهم لا يعيشون مع الآيات البينات؟

والجواب رانَ على قلوبهم؛ فأقفلت فلا تسمع، وأوصدت فلا تنتفع، ولو أنها تدَّبرت لفهمت كلام ربها فاهتدت بهدي باريها.

ويقول تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢]، والاختلاف الكثير تجده في الكتب غير كتاب الله عز وجل، أما كتابه: ﴿ لَّا

يَأْتِيهِ ٱلْبَـٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ [فصلت: ٤٢]، من قرأه بارك الله في عمره، وبارك في ولده، وبارك في ماله، ومن أعرض عنه محق الله عمره، وأزال هيبته، وأفنى كابره وصاغره، وجعل معيشته ضنكًا، وحشر يوم القيامة أعمى.

حث النبي ﷺ على قراءة القرآن

كان عليه الصلاة والسلام ينادي الناس -جميعًا- لقراءة القرآن، والتلذذ بتلاوته وألا يهجروه، فيقول ﷺ: «**اقرءوا القرآن، فإنه يأتي يوم القيامة شفيعًا لأصحابه**» [(١)]، يأتيك القرآن يوم القيامة فيشفع لك عند من أنزله، وعند من تكلم به في يوم لا بيعٌ فيه ولا خلةٌ ولا شفاعةٌ، فيدخلك الجنة بإذن الله تعالى.

ويقول ﷺ: «**يؤتى بالقرآن وبأهله الذين كانوا يعملون به في الدنيا تقدمه سورة البقرة وآل عمران تحاجان عن صاحبهما يوم القيامة**» [(٢)] متفق عليه.

ويقول النبي ﷺ: «**اقرءا الزهراوين: البقرة وآل عمران؛ فأنهما تأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان، أو كأنهما فِرقان**[(٣)] **من طير صواف**[(٤)] **تحاجان عن أصحابهما، اقرءوا سورة البقرة فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا يستطيعها البطلة**» [(٥)]، يعني السحرة. رواه مسلم.

«**إن في سورة البقرة آية الكرسي مَن قرأها في ليلة لم يزل عليه من الله حافظًا ولا يقربه شيطان حتى يصبح**».

ويقول ﷺ وهو يفاضل بين الناس: «**خيركم من تعلم القرآن وعلمه**» [(٦)]

علامة الصدق والإيمان: كثرة قراءة القرآن، وعلامة القبول: تدبر القرآن، ولذلك يقول ﷺ: «**إن الله يرفع بهذا الكتاب أقوامًا ويضع به آخرين**» [(٧)]

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأحد ولاته على مكة وقد ترك مكة ولقيه في

---

(١) صحيح: مسلم (١٩١٠).
(٢) صحيح: مسلم (١٩١٢).
(٣) **الفرقتان**: الجماعتان.
(٤) **الصواف**: جمع صافة وهي الباسطة أجنحتها في الهواء.
(٥) صحيح: مسلم (١٩١٠).
(٦) صحيح: البخاري (٤٧٣٩).
(٧) صحيح: مسلم (١٩٣٤).

الطريق: كيف تركت مكة وأتيتني؟! قال: وليت عليها فلانًا يا أمير المؤمنين! قال: ومن هو ذا؟ قال: مولى لنا، وعبد من عبيدنا، قال عمر: ثكلتك أمك تولي على مكة مولى! قال: يا أمير المؤمنين! إنه حافظ لكتاب الله، عالم بالفرائض، فدمعت عينا عمر وقال: صدق رسول الله: «**إن الله ليرفع بهذا الكتاب أقوامًا ويضع به آخرين**»(١)

يرفع الله به من اتبعوه وتدبروه، ويضع به من أعرضوا عنه فلم يقرءوه ولم يتدبروه ولم يعملوا به، والعجيب! أن تسمع من بعض هذه الأمة من يقول لأخيه وهو يجاوره: والله ما قرأت القرآن ستة أشهر! لا إله إلا الله! أي قلب يعيش وهو لم يمر على كتاب الله ستة أشهر، وهو يمر بالصحف اليومية والمجلات والقيل والقال والخزعبلات وآراء الماجنين والماجنات: ﴿ **أَلَا يَظُنُّ أُولَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ ۝ لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝** ﴾ [المطففين: ٤- ٦].

هجر القرآن

يقول الله عز وجل على لسان رسوله ﷺ: ﴿ **وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ۝** ﴾ [الفرقان: ٣٠].

يقول ابن عباس رضي الله عنه وأرضاه: «مَن لم يختم القرآن في شهر فقد هجره» وهَجْرِ القرآن على أضرب: مِن الناس مَن يهجر العمل به، وتلك -والله- هي الطامة، ومنهم من يهجر تلاوته؛ فيقدم صحف ومؤلفات البشر على كلام رب البشر، يسهر على المذكرات يُعللها ويلخص فوائدها وليس بها فوائد، لكنَّ كتاب الله يشكوه إلى الله، كتاب الله يشكونا، هجرناه وأهملناه وضيعناه وخالفنا أوامره ونواهيه، قرآننا صار يشكو ما قرأناه:

عميٌ عن الذكر والآيات تندبنا ... لو كلم الذكر جلمودًا لأحياه

يقول ﷺ يستثير الهمم لتطلب الأجر والثواب من عند باريها: «**اتلوا القرآن! فإن الله يأجركم على تلاوته كل حرف بحسنة، والحسنة بعشر أمثالها، أما إني لا أقول: ألف لام ميم حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف**»(٢)

فعُد -يا عبد الله- واقرأ واحتسب الأجر عند الله؛ فإنك تأتي يوم القيامة وقد نصب

(١) انظر السابق.

(٢) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٩١٠) بنحوه، و«كنز العمال» (٢٣٢١) بنحوه.

لك في الجنة سلمًا بدرجات، يقول الله لك بلا ترجمان: **«اقرأ وارق ورتل؛ فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها»** [(١)]

فمن كان يقرأ في القرآن كثيرًا رقى حتى يصبح كالكوكب الدُّري في سماء الجنة، ثم هم على منازل: ﴿ هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾ ﴾ [آل عمران: ١٦٣].

عباد الله...

من حفظ القرآن فقد استدرج النبوة بين جنبيه غير أنه لا يُوحى إليه، لا حسد في الدنيا ولا في مناصبها ولا في أموالها، لا حسد إلا في تلاوة القرآن آناء الليل وأطراف النهار، بيتٌ لا يقرأ فيه القرآن عششت فيه الهموم والغموم والنفاق، بيتٌ سكنته المعاصي والله لا يخرجها إلا القرآن، وليس كل المؤمنين يجب عليهم قراءة كل القرآن كاملًا، فمنهم من لا يقرأ القرآن وهو تقي عابد بار صالح خير؛ لأنه لا يقرأ أصلًا، فواجب مثل هؤلاء الذين فاتتهم القراءة أن يرددوا ما تيسر من سورٍ يحفظونها، وأن يسبحوا الله، ويحمدوا الله، ويهللوا ويكبروا ويصلوا على رسول الله ﷺ، ويتعلموا القرآن، وإن شق عليهم فإن لهم أجرين عند الله، وقد كان ﷺ يعيش مع القرآن بل كتابه الذي تربَّى عليه القرآن.

ولم يكن عند الصحابة مؤلفات ولا صحف ولا مجلات، معهم القرآن مُعلَّق في طرف البيت والسيف معلق في الطرف الأخر، كانوا يمشون على الأرض وكل واحد منهم قرآن، فتحوا الدنيا بآيات الله البينات، وهذه معجزة رسولنا ﷺ أن يأتي بكتاب فيتوارث منه العلماء مجلدات ومجلدات تملأ البيوت والمكتبات في كل الدهور والعصور.

أتى النبيون بالآيات فانصرمت وجئتنا بعظيمٍ غير مُنْصَرِمِ

آياته كلما طال المدى جُددُ يَزِينُهُنَّ جلال العِتْق والقِدَمِ

فيا أمة القرآن! ويا حفظة كتاب الله! من يقرأ القرآن إن لم تقرءوه؟ مَن يتدبره إن لم تتدبروه؟ من يعمل به إن لم تعملوا به؟ أما سمعتم أساطين الكفر في كل مكان بدءوا -الآن- في الدخول في دين الله زرافات ووحدانًا، بعد أن قال القرآن فيهم: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣]، في وقت يخرج منه أبناء هذا الدين.

الموازين عطلت وغدا القرد ليثًا وأفلتت الغنم

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٩١٤)، وأحمد (٦٧٩٩)، و الألباني في «الصحيحة» (٢٢٤٠)، وفي «صحيح الجامع» (٨١٢٢).

حال السلف مع القرآن

عباد الله...

إن النبي ﷺ قد كان يحب سماع القرآن، كيف لا وهو كلام الله عز وجل؟

حال الرسول ﷺ مع القرآن

ولذلك يقول لابن مسعود كما في الصحيحين: «**يا عبد الله! اقرأ عليّ القرآن**» -فيخجل عبد الله ويستحي من شيخه ﷺ - فيقول ابن مسعود: كيف أقرأ القرآن عليك وعليك أنزل؟! قال: «**اقرأ فإني أحب أن أسمعه من غيري**»، قال: فاندفعت أقرأ في سورة النساء، فلما بلغت قول الله: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾ ﴾ [النساء: ٤١] قال: «**حسبك حسبك**»، فنظرت فإذا عيناه ﷺ تذرفان»[1]،

تأثر من كلام الله الذي يقود النفوس إلى باريها، وتذكر ذلك اليوم الذي يكون فيه شهيدًا على العالمين.

أبو موسى وتحبيره القرآن

وهاهو ﷺ يخرج بعد أن أظلم الليل يمر ببيوت الأنصار يستمع لحالهم في الليل، يوم كانت بيوتهم حية بكتاب الله، يوم لم تمت بالأغاني والتمثيليات والمسلسلات والأفلام، يوم كان ليلهم تعبدًا هم فيه سجدًا، يمر ببيت أبي موسى فينصت لأبي موسى وهو يقرأ القرآن، فلمّا جاء اليوم الثاني قال: «**يا أبا موسى! لو رأيتني البارحة وأنا أستمع لك، لقد أُوتيت مزمارًا من مزامير آل داود**»[2]

فيقول: يا رسول الله! أإنك كنت تستمع لي البارحة؟ قال: «**إي والذي نفسي بيده**».

وفى بعض الروايات: «أنه استمع ﷺ له من صلاة العشاء حتى صلاة الفجر يقول أبو موسى: يا رسول الله! والذي نفسي بيدي لو أعلم أنك تستمع لي لَحَبَّرْتُهُ لك تَحْبِيرًا»[3]. أي: جودته وحسنته تحسينًا.

---

(١) متفق عليه: البخاري (٤٧٦٣) (٤٧٦٨)، ومسلم (١٩٠٣).

(٢) متفق عليه: البخاري (٤٧٦١)، ومسلم (١٨٨٨).

(٣) صحيح: أخرجه النسائي في «الكبرى» (٨٠٥٨)، و ابن حبان في «صحيحه» (٧١٩٧)، والألباني في «صفة الصلاة» (١ / ١٢٧).

فانظروا كيف كان ﷺ يعيش مع القرآن وللقرآن، وكيف كان صحابته رضوان الله عليهم.

عثمان وتلاوته وتدبره للقرآن

هاهو عثمان رضي الله عنه كان ينشر المصحف من بعد الفجر إلى صلاة الظهر، يقرأ ودموعه تنهمر على كتاب الله، فيقول له الناس: لو خففت عن نفسك، قال: «أما والله لو طهرت قلوبنا ما شبعنا من القرآن».

حال أمة الإسلام اليوم مع القرآن

والذي نلاحظه -يا عباد الله- في أنفسنا وإخواننا المسلمين عامة هو قلة الاهتمام بكتاب الله، والإعراض عن كتاب الله، والاستغناء بكتب البشر، والصدود والإعراض إلا ممن رحم الله، وقلة التجويد حتى من بعض أئمة المساجد، وقلة الحفظ والتدبر، وكثرة المشاغل حتى بين طلبة العلم، لا تجد إلا القليل النادر ممن يحفظ القرآن أو يحفظ بعضه، وإذا كُلِّفَ أحدنا بحفظ شيء من القرآن استصعب ذلك حتى كأن جبال الدنيا على كاهله.

ومعنى ذلك: هزيمة الإسلام والمسلمين وذهاب الإيمان، فوالله لا نصر ولا تمكين ولا عزة إلا بهذا القرآن، والله متى تركناه ونسيناه ابتلينا بكل خزيٍ وفضيحةٍ في الدنيا والآخرة.

يقول أحد أعداء الإسلام: من لي بمن يخرج القرآن من صدور أبناء الإسلام؟ فيرد أحد الأشقياء ويقول: نأتي إلى المصحف فنمزقه، قال: لا. لا ينفع، نريد أن نُمزِّقه من قلوبهم وقلوب أبنائهم.

ويقول عدو آخر للإسلام: ثلاث ما دامت عند المسلمين فلن تستطيعوا إخراجهم من دينهم؛ القرآن في صدورهم، والمنبر يوم الجمعة، والكعبة التي يرتادها الملايين من المسلمين، فإذا قضي على هذه قَضِي على الإسلام والمسلمين.

ولذلك جاء أعداء الإسلام من اليهود وأذنابهم من شيعة وباطنيين ورافضة جاءوا إلى القرآن فهونوا من شأنه، وقالوا: إنه مختلق، بل اِدَّعُوا نقصه، فعلماؤهم لا يحفظون من كتاب الله إلا القليل، وعالمهم -أقصد عالم الرافضة - لا يعرف قراءة القرآن: ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [التوبة: ٣٢].

وأتوا إلى منبر الجمعة فأرادوا تعطيله ليتحول إلى مناقشة قضايا تافهة لا تمت إلى الإيمان بصلة: ﴿ وَمَا كَيْدُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴾ [غافر: ٢٥].

عودة عودة إلى القرآن

فيا أيتها الأمة المسلمة! يا من أخرجها الله من الظلمات إلى النور! أقبلوا على بيوتكم وقلوبكم وأبنائكم، أقبلوا عليها بتغذيتها بكتاب الله، استرشدوه يرشدكم، تدبروه يعنكم بإذن الله، استهدوه يهدكم من أنزله، يغفر الله لكم ذنوبكم ما تقدم منها وما تأخر، يُحيي بيوتكم على الإيمان، يردَّكم إليه ردًا جميلًا.

هذا شهر القرآن، هذا شهر التلاوة، هذا شهر مضاعفة الأجور، أقرءوا فيه القرآن فإن الله يأجركم على تدَّبره وتلاوته والنظر فيه، ملأ الله بيوتكم وقلوبكم رحمة وبركة وهداية ونورًا، وملأ صدوركم إيمانًا ويقينًا وخيرًا وبرًا، عاشروا القرآن، جالسوا القرآن؛ ليعظم في قلوبكم القرآن.

اللهم أعنا على تلاوة كتابك آناء الليل وأطراف النهار، اللهم اجعلنا ممن يقرءوه فيقودهم إلى جنات النعيم، اللهم وتقَّبل منا رمضان صيامه وقيامه، وتلاوته وصدقته، وكل عمل صالح فيه إنك على كل شيء قدير.

أقول ما تسمعون وأستغفر الله، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

بعض آداب قراءة القرآن

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه والتابعين له بإحسان وسلم تسليمًا كثيرًا.

أما بعد:

عباد الله...

شهر رمضان هو شهر القرآن، وأنتم أمة القرآن وحملة القرآن، ينبغي أن تُعْرَفوا بليلكم إذا الناس ينامون، وبنهاركم إذا الناس يكدون ويلهون ويلعبون، وببكائكم إذا الناس يضحكون، وبورعكم إذ الناس يخلطون، وبتواضعكم إذ الناس يختالون، وبصمتكم إذ الناس يخوضون، وبحزنكم إذ الناس يفرحون، لسان حال الواحد منكم يخاطب نفسه ويقول:

وَيْحُـــكِ يــا نَفْـــسُ أَلاَ تَيَقَّظِـــي للـــنفع قـــبل أن تـــزل قدمـــي
مـــضى الـــزمان في ثـــوانٍ وهـــوى فاســتدركي مــا قــد بقــي واغتنمــي

أئمة القرآن...

لتلاوة القرآن آداب نقف عندها وقفات قصيرة علَّ الله أن ينفع بها.

وأولها بل جماعها: الإخلاص لله، فمن قرأه رياءً أو سمعة كبه الله على وجهه في النار.

ثبت في الصحيح أنه ﷺ قال: **«يؤتى بحامل القرآن رياءً فيقول الله له: ماذا عملت؟ قال: تعلَّمت فيك القرآن وعلَّمته، قال: كذبت وإنما تعلمت ليقال عالم، وقرأت ليقال قارئ، فقد قيل ثم يؤمر به فيسحب على وجهه حتى يلقى في النار»** (١)

لا إله إلا الله! لا يُقْرَأ القرآن إلا لوجه الله، فأخلصوا النية في قراءته تؤجروا وتثابوا وتكونوا مع السفرة الكرام البررة ويشفع لكم يوم القيامة، فيقول: يا رب! منعته النوم بالليل فشفعني فيه فيشفع فيه القرآن.

ومن آداب التلاوة: أن يقرأ على طهارة؛ لأن ذلك من تعظيم كلام الله عز وجل، فإذا تطهر العبد فليُرتل وليتدبر القرآن، ولا يقرأه في أماكن مستقذرة، أو في جمع لا ينصت فيه له؛ لأن قراءته في مثل ذلك إهانة له، والقرآن مُنَزَّه عن ذلك؛ لأنه كلام الله.

وليستعذ القارئ بالله من الشيطان الرجيم عند القراءة، يقول عز وجل: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴾ [النحل: ٩٨] ولتحضر قلبك عند تلاوة القرآن، ولتعلم أن الذي أنزل القرآن هو الذي خلق الإنس والجان، فامتثل أمره واجتنب نهيه.

ولا ترفع صوتك إن كان حولك من يُصلي أو يتلو فتشوش عليهم، وهذا ما يقع فيه البعض وهو من علامة الجهل وعدم الفقه في الدين، يأتي أحدهم ليقرأ فيرفع صوته ليشوش على المصلي في صلاته، وعلى التالي في تلاوته، وعلى الذاكر في ذكره، وكأن ليس في المسجد سواه، ألاَ إن كان بجانبك من يستمع منك فلا بأس أن تسمعه، وإن كان بجانبك مصلي فإياك أن ترفع صوتك لئلا تُشَوِّشْ عليه واسمع للمصطفى ﷺ يوم يخرج على الناس وهم يصلون ويجهرون بالقراءة فيقول: **«كلكم يناجي ربه فلا يجهر بعضكم على**

---

(١) صحيح: مسلم (٥٠٣٢).

بعض، لا يؤذي بعضكم بعضًا» (١)، أو كما قال ﷺ.

واسمع إلى الإمام مالك رحمه الله يوم يقول: أرى في من يرفع صوته ويُشوش على المصلين أن يُضْرَب ويُخْرَج من المسجد.

ومن آداب التلاوة: أن يكون للعبد المسلم حزب من القرآن فأكثر، لا يَفْتُرْ عنه يوميًا لو تغير كل شيء في الكون ما تغير عن حزبه، فهو علامة الإيمان، ألا فليكن لكل واحدٍ منا في كل يوم حزب لا يتركه أبدًا، لتعظم الصلة بالقرآن وبرب القرآن والإنس والجان.

ومِن آدابه: أن يُعَلِّم الناس ما تعلمناه منه، وحظنا من تعليمه الأجر والمثوبة، ولنبدأ بتعليم أبنائنا وبناتنا وإخواننا وأمهاتنا وآبائنا فهم رعايانا، ونحن عنهم مسئولون وأمام الله محاسبون.

يقول ﷺ: **«وما من راع استرعاه الله رعية فبات غاشًا لهم إلا حرم الله عليه رائحة الجنة»** (٢)، ومن أعظم الغش ألا تعلِّم من استرعاك الله عليه القرآن.

ويا من حمل القرآن: إياك إياك أن تخالف أمره، فإن رسول الله ﷺ يقول: **«يُمَثَّلُ القرآن يوم القيامة رجلًا، فيُؤتى بالرجل قد حمله فخالف أمره، فيُمَثَّل له خَصْمًا -ومن ذا يُخاصِمُ القرآن؟!- فيقول القرآن: يا رب! حَمَّلْتَه إياي فبئس الحامل، تعدَّى حدودي، وضيَّع فرائضي، وركب معصيتي، وترك طاعتي، فما يزال يخلف عليه بالحُجَجِ حتى يقال شأنك به، فيأخذه بيده فما يُرسله حتى يُكِّبه على وجهه في النار»** (٣). نعوذ بالله من النار.

يا أمة القرآن: في شهر القرآن: قفوا عند أحكام القرآن واتلوه في كل حين وآن، فهو شافع مشفع مَن جعله أمامه قاده إلى الجنة، ومن جعله خلف ظهره ساقه إلى النار وبئس القرار.

حث القرآن على الإنفاق في سبيل الله

يا أمة القرآن...

إن مما دعاكم له القرآن: أن تُنفقوا في سبيل الله مما رزقكم وجعلكم مستخلفين فيه،

---

(١) **صحيح:** أخرجه أحمد (٤٩٢٨) (٥٣٤٩)، والألباني في «صحيح الجامع» (١٩٥١) بنحوه.

(٢) **متفق عليه:** البخاري (٦٧٣٢)، ومسلم (٣٨٠، ٣٨١).

(٣) **ضعيف:** أخرجه ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٠٠٤٤)، و «كنز العمال» (٢٤٤٤)، والألباني في «اقتضاء العلم والعمل» (١ / ٧٤).

وأنتم في شهر الإنفاق، وفي شهر الصدقة، وقد قال ﷺ: «**أفضل الصدقة صدقة في رمضان**» [١]

فيا أخي الصائم...

للصدقة في رمضان مزية وخصوصية ليست في غيره، فبادر إليها فلعلك لا تدرك رمضان آخر، أطعم الطعام لتكن ممن امتدحهم القرآن: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝﴾ [الإنسان: ٨].

واسمع إلى المصطفى ﷺ يوم يقول: «**أيما عبد مؤمن أطعم مؤمنًا على جوع أطعمه الله من ثمار الجنة، ومن سقى مؤمنًا على ظمأ سقاه الله من الرحيق المختوم**» [٢]

فلا إله إلا الله ما أعظم الأجر! وما أيسر العمل على من يسره الله عليه! ويقول ﷺ: «**ما منكم من أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان، فينظر أيمن منه فلا يرى إلا ما قدَّم، وينظر أشأم منه فلا يرى إلا ما قدَّم، وينظر أمامه فلا يرى إلا النار، فاتقوا النار ولو بشق تمرة**» [٣]

ويقول ﷺ: «**من فطَّر صائمًا كان له مثل أجره لا ينقص من أجره شيء**» [٤]، «**ومن سقى صائمًا سقاه الله من حوضي شربة لا يظمأ بعدها حتى يدخل الجنة**» [٥]

لا إله إلا الله! هبت رياح الجنة في رمضان فاغتنموها يا عباد الله!

ألا لا يخرج أحد من بيت الله هذا إلاَّ وقد فَطَّرَ -في أقل القليل- عشرة من الصوَّام أو أقل أو أكثر، وكل صائم بعشرة ريالات، والجزاء من أكرم الأكرمين، توضع هذه في صناديق موجودة على يمينك ويسارك وأنت خارج من هذا المسجد، وستقوم الهيئة بجمعها وإرسالها فورًا، فبادر أيها الصائم إلى الغنيمة الباردة، ضيوفك اليوم عشرة

---

(١) ضعيف: أخرجه الترمذي (٦٣٣)، و«شعب الإيمان» للبيهقي (٣٦٣١)، والألباني في «الإرواء» (٨٨٩).

(٢) ضعيف: أخرجه الترمذي (٢٤٤٩)، وأحمد (١١١١٦)، وأبو داود (١٦٨٢)، والألباني في «ضعيف الترغيب والترهيب» (٥٥٥).

(٣) متفق عليه: البخاري (٦١٧٤) (٧٠٧٤)، ومسلم (٢٣٩٥).

(٤) صحيح: أخرجه أحمد (٢١٧٢٠)، والترمذي (٨٠٧)، وابن ماجه (١٧٤٦)، والألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٠٧٨).

(٥) منكر: أخرجه الألباني في «ضعيف الترغيب والترهيب» (٥٨٩).

صائمين أو أقل أو أكثر، والأجر من أكرم الأكرمين، لك مثل أجرهم لا ينقص من أجرهم شيئًا، وكلٌّ على قدر استطاعته.

الله أعطاك فابذل من عطاياه فالمال عارية والعمر رحال

ويا أهل الخير في هذا المسجد وكلكم أهل خير: أطفال أيتام توجد استماراتهم في مكاتب الهيئة هنا، كفالة الواحد منهم في العام ألف ومائتا ريال ينتظرون من يكفلهم، بادروا إلى كفالتهم، ولكم الجنة من أكرم الأكرمين، والضمين رسول الله ﷺ القائل: «**أنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة**» (١)، ألا لا يأتين أحدكم يوم القيامة وخصمه أحد هؤلاء يقول: يا رب! عُرِضت عليهم في يوم كذا في مسجد كذا، فتركوني فخذ لي بحقي منهم.

عباد الله...

اقرءوا القرآن وتصدقوا قبل ألا تتصدقوا، وكل يوم جمعة في رمضان سيكون لفقراء المسلمين معكم لقاء، لقاء ضيافة والجزاء من أكرم الأكرمين، فاحتسبوا الأجر والثواب ممن يرزق الطير تغدو خماصًا وتعود بطانًا، أطعمكم الله من ثمار الجنة وسقاكم من الرحيق المختوم.

ألا وصلوا وسلموا على نبيكم محمد فقد أُمِرتم بالصلاة عليه فقال: ﴿ **إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا** ﴾ [الأحزاب: ٥٦].

اللهم صلِّ وسلم على عبدك ورسولك محمد وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، اللهم اجعلنا من أهل القرآن الذين هم أهلك وخاصتك، اللهم شَفِّع فينا القرآن، اللهم ارفعنا بالقرآن، اللهم أحينا على الإسلام والإيمان والقرآن وتوفنا على الإسلام والإيمان والقرآن.

اللهم اجعلنا ممن يأخذ بيده القرآن إلى رضوانك والجنة، ونعوذ بك أن يكون القرآن خصمًا علينا يوم الوقوف بين يديك.

اللهم اجعلنا ممن يقيم حدوده ويعمل بأوامره ويتلوه على الوجه الذي يرضيك عنا.

اللهم اجعلنا لكتابك من التالين ولك به من العاملين، وإلى لذيذ خطابه مستمعين، وبما فيه من الحكم معتبرين.

---

(١) صحيح: مسلم (٧٦٦٠).

اللهم انفعنا بما فرجت به من الآيات وكفر عنا به السيئات، وارفع لنا به الدرجات، وهون علينا به السكرات عند المهات.

اللهم وأوجب لنا به الشرف والمزيد وألحقنا بكل بر سعيد ووفقنا جميعًا للعمل الصالح الرشيد.

اللهم إنا عبيدك بنو عبيدك، بنو إمائك نواصينا بيدك، ماضٍ فينا حكمك، عدل فينا قضاؤك، نسألك اللهم بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحدًا من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن الكريم ربيع قلوبنا ونور صدورنا وجلاء أحزاننا وذهاب غمومنا وهمومنا.

وسابِقَنَا ودليلنا إليك وإلى جنانك جنات النعيم، اللهم ألبسنا به الحلل وأَسْكِنَّا به الظلل وادفع به عنا النقم واجعلنا به عند الجزاء من الفائزين وعند النعماء من الشاكرين، وعند البلاء من الصابرين ولا تجعلنا ممن استهوته الشياطين فشغلته بالدنيا عن الدين فأصبح من الخاسرين وفى الآخرة من النادمين، برحمتك يا أرحم الراحمين.

اللهم واجعلنا من المنفقين المبتغين جنة عدن بحورها العين.

اللهم تقَّبل منا صيامنا وقيامنا وسائر عملنا، اللهم لا تصرف هذا الجمع إلا بذنب مغفور، وعيب مستور وعمل مقبول، وتجارة لن تبور، اللهم لا ترُدَّ هذا الجمع خائبين، اللهم تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم.

اذكروا الله يذكركم، واشكروه على نعمه يزدكم، ولذكر الله أكبر، والله يعلم بما تصنعون.



[١٦] الرقابة لمن؟

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه. ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له.

أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير.

شهادة عبده وابن عبده وابن أمته، ومن لا غنى به طرفة عين عن رحمته.

أشهد أن محمدا عبد الله ورسوله، أرسله الله رحمة للعالمين فشرح به الصدور وأنار به العقول، وفتح به أعينا عميا وآذانا صما وقلوبا غلفا صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان وسلم تسليمًا كثيرًا.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ۝ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ۝ ﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد عباد الله...

أوصيكم ونفسي بتقوى الله جل وعلا، وأن نقدمَ لأنفسِنا أعمالًا تبيضُ وجوهَنا يوم نلقى اللهَ ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًاۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ۝ ﴾ [آل عمران: ٣٠].

﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ [النحل: ١١١].

﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝ ﴾ [الحج: ٢].

يوم يبعثر ما في القبور، ويحصل ما في الصدور، ﴿ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ۝ ﴾ [النساء: ٤٢].

﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ۝ ﴾ [الفرقان: ٢٧].

يوم الحاقة، يوم الطامة، يوم القارعة، يوم الزلزلة، يوم الصاخة.

﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝ وَصَـٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۝ ﴾ [عبس: ٣٤- ٣٧].

ثم اعلموا يا عباد الله أن رقابةَ البشرِ على البشرِ قاصرة، وأن رقابةَ المخلوقاتِ على بعضها قاصرة.

البشرُ يغفل، والبشرُ يسهو، ينام، يمرض، يسافر، يموت؛ إذًا فلتسقطُ رقابةَ المخلوقين ولتسقط رقابة الكائنات جميعَها، وتبقى الرقابةُ الكاملة، الرقابةُ المطلقة ألا وهي رقابةُ الله جل وعلا.

باري البرايا منشي الخلائق	مبدعهم بلا مثال سابق
حي وقيوم فلا ينام	وجل أن يشبه الأنام
فإنه العلي في دنوه	وإنه القريب جل في علّوه

لا إله إلا هو.

علمُ البشرِ ما علمُهم، علمُ قاصر، ضعيف قليل، ما وراءَ هذه الجدران نجهلُ منه الكثيرُ لا نعلمه، بل لا نعلمُ أنفسَنا التي بين جنبينا.

لكن الله يعلم ذلك ويعلم ما هو أعلى من ذلك. ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام: ٥٩].

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ۝ ﴾ [آل عمران: ٥].

يعلم ما تسره الآن في سريرتك ومن بجوارك لا يعلم ذلك.

يعلم ما ينطوي عليه قلبك بعد مأئة عام، وأنت لا تعلم ما ينطوي عليه قلبك بعد دقائق أو ساعات.

إنه العلم الكامل، إنه العلم الكامل المطلق، علم الله السميع العليم، العليم الخبير.

﴿ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ۝ ﴾ [النحل: ١٩].

﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ۝ ﴾ [غافر: ١٩].

يعلم ويسمع ويرى دبيب النملة السوداء على الصفاة السوداء في الليلة الظلماء.

هـو الـذي يـرى دبـيب الـذر في الظلمـات فـوق صـم الـصخر

وسـامع للجهـر والأخفـات بـسمعه الواسـع للأصـوات

وعلمـه بمـا بـدا ومـا خفـي أحـاط علمـا بالجلـي والخفـي

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧﴾ ﴾ [المجادلة: ٧].

رجلان من قريش يجلسان في جوف الليل، تحت جدارِ الكعبة، قد هدأت الجفون ونامت العيون، أرخى الليلُ سدوله، واختلط ظلامُه، وغارت نجومُه، وشاع سكونُه.

قاما يتذاكران، ويخططان ويدبران وظنا أن الحي القيوم لا يعلمُ كثيرا مما يعملون.

استخفوا من الناس ولم يستخفوا من الله الذي يعلم ما يبيتونَ مما لا يرضى من القول.

تذاكرا مصابهم في بدر فقال صفوان وهو أحدُهم: والله ما في العيش بعد قتلى بدر خير.

فقال عمير: صدقت والله لولا دينُ علي ليس له قضاء، وعيالُ أخشى عليهم الضيعة لركبتُ إلى محمد حتى أقتله. (صلى الله على نبينا محمد).

اغتنم صفوان ذلك الإنفعال، وذلك التأثر وقال: علي دينُك، وعيالُك عيالي لا يسعُني شيءُ ويعجزُ عنهم.

قال عمير: فأكتم شأني وشأنك لا يعلم بذلك أحد. قال صفوانُ أفعل.

فقام عمير وشحذ سيفَه، وسمَه، ثم انطلقَ به يغضُ السير به إلى المدينة.

وصل إلى هناك وعمرُ رضي الله عنه، أعني أبنَ الخطاب في نفرٍ من المسلمين.

أناخَ عميرُ على بابِ مسجد رسول الله ﷺ متوشحا سيفه.

فقال عمر: عدو الله، والله ما جاء إلا لشر.

ودخل عمر على رسولُ الله ﷺ وأخبره بخبره.

فقال النبي ﷺ: «**أدخلُه علي**».

فأخذ عمرُ بحمائل سيفِ عُمير وجعلها له كالقلادة ثم دخل به على النبي ﷺ، فلما

رأه ﷺ قال لعمر: «**أرسله يا عمر**»، ثم قال: «**ما جاء بك يا عمير**». وكان له أبنُ أسير عند رسولِ ﷺ

قال: جئت لهذا الأسير، فأحسنوا به.

قال ﷺ : «**فما بالُ السيفِ في عنقك؟**»

قال: قبحها اللهُ من سيوف وهل أغنت عنا شيء.

فقال ﷺ وقد جاءه الوحيُ بما يضمرُه عمير: «**اصدقني يا عمير ما الذي جاء بك؟**». قال: ما جأت إلا لذاك.

فقال ﷺ : «**بل قعدت مع صفوان في الحجر في ليلة كذا، وقلت له كذا، وقال لك كذا وتعهد لك بدينك وعيالك واللهُ حائلُ بيني وبينك**».

قال عمير أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله ﷺ.

هذا أمرُ لم يحضُره إلا أنا وصفوان، ولله إني لأعلم أنه ما أتاك به الآن إلا الله، فالحمد لله الذي ساقني هذا المساق والحمد لله الذي هداني للإسلام(١)

جاء ليقتلَ النور ويطفىء النور، فرجعَ وهو شعلةُ نور أقتبسَه من صاحب النور ﷺ.

عباد الله...

سمعتم المؤامرة تحاك تحت جدار الكعبة، في ظلمة الليل لا يعلمُ بها أحد حتى رسولِ الله ﷺ لأنه لا يعلم الغيب. حُبكت المؤامرةُ سرًّا.

من الذي أعلنها؟ من الذي سمعها؟ وهما يخططان، ويدبران ويمكران عند باب الكعبة.

إنه الذي لا يخفى عليه شيءُ في الأرض ولا في السماء.

كم تأمر المتأمرون في ظلام الليل، كم من عدو للإسلام جلس يخطط لضرب الإسلام وحدَه أو مع غيره سرا، ويظن أنه يتصرفُ كما يشاء، متناسيا أن الذي لا يخفى عليه شيءُ يسمع ما يقولون ويبطل كيدَهم فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين.

---

(١) انظر «تهذيب الآثار» للطبري (١٣٧٨)، و«معرفة الصحابة» لأبي نعيم الأصبهاني (٤٧٠٤)، و «كنز العمال» (٣٧٤٥٦).

يا أيها العبدُ المؤمن...

إذا لقيت عنتا ومشقة وسخرية واستهزاء فلا تحزن ولا تأسى إن الله يعلم ما يقال لك قبل أن يقالُ لك وإليه يرد كل شيء لا إله إلا هو.

يا أيه المؤمن إذا جُعلت الأصابع في الآذان، واستغشيت الثياب، وزاد الأصرار والإستكبار، وكثر الطعن وضاقت نفسك فلا تأسى ولا تحزن، إن الله يعلم ويسمع ما تقول وما يقال لك.

﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١].

﴿ يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ ﴾ [غافر: ١٩].

يا أيها الشاب الذي وضع قدمَه على أو طريق الهداية:

فسمع رجلا يسخر منه، وآخر يهزء به، وثالثا يقاطعه، أثبت ولا تأسى وأعلم علم يقين أنك بين يدي الله يسمع ما تقول ويسمع ما يقال لك، وسيجزي كل أمرء بما فعل ﴿ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ: ٣].

يا مرتكبَ المعاصي مختفيًا عن أعينَ الخلق أين الله؟

أين الله ما أنت والله إلا أحدُ رجلين:

إن كنتَ ظننتَ أن اللهَ لا يراك فقد كفرت.

وإن كنت تعلمُ أنه يراك فلمَ تجتريَ عليه، وتجعلَه أهونَ الناظرينَ إليك؟

﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴿١٠٨﴾ ﴾ [النساء: ١٠٨].

يدخلُ بعضُ الناسِ غابةً ملتفةً أشجارُها، لا تكادُ ترى الشمسَ معها، ثم يقول:

لو عملتُ المعصيةُ الآنَ من كان يراني؟

فيسمعُ هاتفًا بصوت يملىء الغابة ويقول:

﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴾ [الملك: ١٤]، بلى والله.

فيا منتهكًا حرماتِ الله في الظلمات، في الخلوات، في الفلوات بعيدًا عن أعين المخلوقات أين الله؟

هل سألت نفسكَ هذا السؤال.

في الصحيح من حديث ثوبان رضي الله عنه قال قالَ رسول الله ﷺ : «**لأعلمنَ أقوامًا من أمتي يومَ القيامةِ يأتون بحسناتٍ كأمثالِ الجبال بيضًا، يجعلُها اللهُ هباءً منثورًا**».

قال ثوبان: صفهم لنا جلّهم لنا أن لا نكون منهم يا رسول الله قال: «**(أما إنهم إخوانُكم ومن جلدتِكم[1] ويأخذون من الليلِ كما تأخذون، لكنهم إذا خلوا بمحارمِ الله انتهكوها**» [2]

إلى من يملىء ليله عينَه وأذنه ويضيعُ وقتَه حتى في ثُلث اليل الآخر، يملىء ذلك بمعاصي الله، أين الله؟ فقد روى االثقاةُ عن خيرِ الملاء بأنه عز وجل وعلا.

في ثلــثِ اللــيل الأخــيرِ ينــزلُ	**يقــول هــل مــن تائــبٍ فيقــبلُ**
هــل مــن مــسيء طالــبٍ للمغفــرة	**يجــد كــريما قــابلا للمعــذرة**
يمــن بــالخيراتِ والفــضائل	**ويــسترُ العــيب ويعطــي الــسائل**

فنسأله من فضله. إن اللهَ لا يخفى عليه شيء فهلا اتقيتَه يا عبد الله.

عمرُ بن الخطاب رضي اللهُ عنه، يعسُ ليلةً من الليالي ويتتبع أحوال الأمة، وتعب فاتكاءَ على جدارٍ ليستريح، فإذا بمرأةٍ تقولُ لأبنتها: أمزجي اللبنَ بالماءِ ليكثرَ عند البيع.

فقالت البنت: إن عمرَ أمرَ مناديه أن ينادي أن لا يشابُ اللبنَ بالماء.

فقالتِ الأم: يا ابنتي قومي فانكي بموضعٍ لا يراكِ فيه عمرُ ولا مناديه.

فقالتِ البنتُ المستشعرةُ لرقابةَ الله: أي أماه فأين الله؟ ولله ما كنتُ لأطيعَه في الملأ، وأعصيه في الخلاء.

ويمرُ عمرُ أخرى بأمرة أخرى تغيبَ عنها زوجها منذ شهور في الجهاد في سبيل الله عز وجل، قد تغيبت في ظلمات ثلاث، في ظلمة الغربةِ والبعد عن زوجها، وفي ظلمة الليل، وفي ظلمة قعر بيتها، وإذا بها تنشد وتقول وتحكي مأساتها:

تطــاول هــذا اللــيل وازور جانــبه	**وأرقــني أن لا حبــيبُ إلاعــبه**

(١) من جلدتكم: من جنسكم.

(٢) صحيح: أخرجه ابن ماجه (٤٢٤٥)، و الألباني في «الصحيحة» (٥٠٥).

فـــوالله لـــولا الله لا رب غـــيره لحـــرك مـــن هـــذا الـــسريري جوانـــبه

ما الذي راقبته في ظلام الليل وفي بعد عن زوجها، وفي هدأت العيون؟

والله ما راقبت إلا الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

أنعم بها من مراقبة وأنعم بها من امرأة.

وأعرابية أخرى يراودها رجل على نفسها كما أورد أبن رجب، ثم قال لها: ما يرانا أحد إلا الكواكب.

فقالت: وأين مكوكبها يا رجل؟[1]

حالُها: أين الله يا رجل؟

أتستخفي من الناس ولا تستخفي من الله وهو معك إذ تبيت ما لا يرضى من القول.

أخيرا أسمع لهذا الحدث ولم يقع في هذا الزمن وإنما وقع في زمن مضى لتعلم ثمرة مراقبة الله عز وجل، واستشعار ذلك الأمر.

رجل اسمه نوح ابن مريم كان ذا نعمة ومال وثراء وجاه، وفوق ذلك صاحب دين وخلق، وكان له أبنة غاية في الجمال، ذات منصب وجمال. وفوق ذلك صاحبة دين وخلق.

وكان معه عبد أسمه مبارك، لا يملك من الدنياء قليلا ولا كثيرا ولكنه يملك الدين والخلق، ومن ملكهما فقد ملك كل شيء.

أرسلَه سيده إلى بساتين له، وقال له أذهب إلى تلك البساتين وأحفظ ثمرها وكن على خدمتها إلى أن آتيك.

مضى الرجل وبقي في البساتين لمدة شهرين.

وجاءه سيده، جاء ليستجم في بساتينه، ليستريح في تلك البساتين.

جلس تحت شجرة وقال يا مبارك، أتني بقطف من عنب. جاءه بقطف فإذا هو حامض.

فقال: ائتني بقطف آخر إن هذا حامض. فأتاه بآخر فإذا هو حامض.

قال أتني بآخر، فجأءه بالثالث فإذا هو حامض.

---

(١) انظر «شعب الإيمان» للبيهقي (٨٧٨، ٨٧٩)، و«جامع العلوم والحكم» لابن رجب (١ / ١٦٢).

كاد أن يستولي عليه الغضب، وقال يا مبارك أطلب منك قطف عنب قد نضج، وتأتني بقطف لم ينضج. ألا تعرف حلوه من حامضه؟

قال: والله ما أرسلتني لأكله وإنما أرسلتني لأحفظه وأقوم على خدمته. والذي لا إله إلا هو ما ذقت منه عنبة واحدة.

والذي لا إله إلا هو ما رقبتك، ولا رقبت أحدا من الكائنات، ولكني راقبت الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

أعجب به، وأعجب بورعه وقال الآن أستشيرك، والمؤمنون نصحة، والمنافقون غششه، والمستشار مؤتمن.

وقد تقدم لأبنتي فلان وفلان من أصحاب الثراء والمال والجاه، فمن ترى أن أزوج هذه البنت؟

فقال مبارك: لقد كان أهل الجاهلية يزوجون للأصل والحسب والنسب. واليهود يزوجون للمال. والنصارى للجمال. وعلى عهد رسول الله ﷺ ، يزوجون للدين والخلق. وعلى عهدنا هذا للمال والجاه. والمرء مع من أحب، ومن تشبه بقوم فهو منهم.

أي نصيحة وأي مشورة؟

نظر وقدر وفكر وتملى فما وجد خيرًا من مبارك، قال: أنت حر لوجه الله (أعتقه أولا).

ثم قال: لقد قلبت النظر فرأيت أنك خير من يتزوج بهذه البنت.

قال أعرض عليها. فذهب وعرض على البنت وقال لها: إني قلبت ونظرت وحصل كذا وكذا، ورأيت أن تتزوجي بمبارك.

قالت أترضاه لي؟ قال نعم.

قالت: فإني أرضاه مراقبة للذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

فكان الزواج المبارك من مبارك. فما الثمرة وما النتيجة؟

حملت هذه المرأة وولدت طفلا أسمياه عبد الله، لعل الكل يعرف هذا الرجل.

إنه عبد الله بن المبارك المحدث الزاهد العابد الذي ما من إنسان قلب صفحة من كتب التاريخ إلا ووجده حيا بسيرته وذكره الطيب.

إن ذلك ثمرة مراقبة الله غز وجل في كل شي.

أما والله لو راقبنا الله حق المراقبة لصلحة الحال، واستقامة الأمور.

فيا أيها المؤمن، إن عينَ الله تلاحقُك أين ما ذهبت، وفي أي مكان حللت، في ظلامِ الليل، وراء الجدران، وراء الحيطان، في الخلوات في الفلوات، ولو كنتَ في داخلِ صخورٍ صم، هل علمتَ ذلك، واستشعرتَ ذلك فاتقيتَ اللهَ ظاهرًا وباطنا، فكانَ باطنُك خيرُ من ظاهرِك.

إذا ما خلوت الدهر يوما فلا تقل	خلوتُ ولكن قل علي رقيبُ
ولا تحسبنَ اللهَ يغفلُ ساعةً	ولا أن ما تخفيه عنه يغيبُ

عباد الله...

اتقوا اللهَ في ما تقولون، واتقوا الله في ما تفعلون وتذرون، اتقوا الله في جوارحكُم، اتقوا اللهَ في مطعمِكم ومشربِكم، فلا تدخلوا اجوافكم إلا حلالًا فإن أجوافكم تصبرُ على الجوعِ لكنها لا تصبرُ على النار.

اتقوا اللهَ في ألسنتِكم، اتقوا اللهَ في بيوتِكم، في أبنائِكم في خدمكم، في أنفسكم.

اتقوا اللهَ في ليلِكم ونهارِكم، اتقوا اللهَ حيثما كنتم.

﴿ وَٱتَّقُواْ يَوۡمًا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٍ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢٨١].

أقول ما تسمعون وإستغفر الله فأستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له.

وأشهد أن محمدا عبده ورسول صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان وسلم تسليما كثيرا.

أما بعد عباد الله...

أعلموا علم يقينٍ أن اللهَ هو الرقيب، وأن الله هو الحسيب، وأنه لا ملجىء منه إلا إليه، ولا مهرب منه إلا إليه.

هو الشهيدُ وكفى به شهيدا، ومن حكمتِه سبحانه وبحمده أن جعل علينا شهودًا آخرين لإقامةِ الحجُةِ حتى لا يكون للناس حجة، وتعدد الشهودُ علينا وكفى بالله شهيدا، من هؤلاءِ الشهودِ:

رسولُ الله ﷺ، حيثُ يقول اللهُ عز وجل: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: ١٤٣].

﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍۭ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ۝ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَعَصَوُا۟ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا ۝ ﴾ [النساء: ٤١، ٤٢].

فرسولُ الله ﷺ سيشهدُ على الأمم وعلى هذه الأمة. والملائكةُ أيضًا يشهدون وكفى بالله شهيدا، قال اللهُ عز وجل: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَٰفِظِينَ ۝ كِرَامًا كَٰتِبِينَ ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۝ ﴾ [الانفطار: ١٠- ١٢].

ويقول جل وعلا: ﴿ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ۝ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ۝ ﴾ [ق: ١٧، ١٨].

فالملائكة أيضا ستشهد. والكتابُ سيشهد، والسجلات ستفتح بين يدي الله فترى الصغيرَ والكبيرَ والنقيرَ والقطميرَ، تنظرُ في صفحةِ اليومِ الثامنُ من هذا الشهر فإذا هي لا تغادرُ صغيرةً ولا كبيرة.

﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف: ٤٩].

﴿ وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا ۝ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ۝ ﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤].

والأرضُ التي ذللها الله عز وجل لنا ستشهدُ بما عمل على ظهرها من خيرٍ أو شر: ﴿ إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝ وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝ ﴾ [الزلزلة: ١- ٥].

ستحدث بما عمل على ظهرها من خير أو شر، بل إن هذه الأرض تحمل عاطفة، إذا مات المؤمن بكاه موضع سجوده، وبكاه ممشاه إلى الصلاة، وبكاه مصعد عمله إلى السماء.

وأما الذين أجرموا وكفروا ونافقوا: ﴿ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴾ [الدخان: ٢٩]. والخلقُ أيضا سيشهدون وكفى بالله شهيدًا.

لطالما تفكهُ الإنسانُ بين هؤلاءِ الخلقِ بالوقوعِ في أعراضِ المسلمينَ بذكرِ ما سترَه اللهُ عليه. وما علم أن الخلق سيشهدونَ.

في الصحيح أن جنازة مرت على الرسول ﷺ وهو في نفر من أصحابه فيثني عليها

الناس خيرا فيقول ﷺ «وجبت». وتمر أخرى فيثني عليها الناس سوء فيقول ﷺ «وجبت». فيتسأل الصحابة؟ فيقول ﷺ : «**أثنيتم على الأولى بخير فوجبت لها الجنة، وعلى الثانية بسوء فوجبت لها النار، أنتم شهداء الله في أرضه، أنتم شهداء الله في أرضه**»[(١)]

وسيشهدُ ما هو أقربُ من هذا، ستشهدُ الجوارحُ فأيدٍ تشهد، وأرجلٍ تشهد، وألسنٍ تشهد، وجوارح تشهد: ﴿ ٱلۡيَوۡمَ نَخۡتِمُ عَلَىٰٓ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَتُكَلِّمُنَآ أَيۡدِيهِمۡ وَتَشۡهَدُ أَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ [يس: ٦٥].

﴿ وَيَوۡمَ يُحۡشَرُ أَعۡدَآءُ ٱللَّهِ إِلَى ٱلنَّارِ فَهُمۡ يُوزَعُونَ ﴿١٩﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيۡهِمۡ سَمۡعُهُمۡ وَأَبۡصَٰرُهُمۡ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَقَالُواْ لِجُلُودِهِمۡ لِمَ شَهِدتُّمۡ عَلَيۡنَاۖ قَالُوٓاْ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنطَقَ كُلَّ شَيۡءٖ وَهُوَ خَلَقَكُمۡ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا كُنتُمۡ تَسۡتَتِرُونَ أَن يَشۡهَدَ عَلَيۡكُمۡ سَمۡعُكُمۡ وَلَآ أَبۡصَٰرُكُمۡ وَلَا جُلُودُكُمۡ وَلَٰكِن ظَنَنتُمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعۡلَمُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمۡ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِي ظَنَنتُم بِرَبِّكُمۡ أَرۡدَىٰكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم مِّنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصۡبِرُواْ فَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡۖ وَإِن يَسۡتَعۡتِبُواْ فَمَا هُم مِّنَ ٱلۡمُعۡتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [فصلت:١٩- ٢٤].

فاتقوا الله يا باد واجعلوا هؤلاءِ الشهودِ جميعهم لكم لا عليكم.

وبادروا أنفسَكم وأعمارَكم بالأعمالِ الصالحةِ قبل حلولِ الآجالِ وبقاءِ الحسراتِ.

أيـــا مـــن يدعَـــي الفهـــم ... إلى كـــم يـــا أخَ الـــوهم

تعـــبي الـــذنبَ بالـــذنب ... وتخطـــي الخطـــاءَ الجـــم

أمـــا بـــان لـــك العـــيب ... أمـــا أنـــذرك الـــشيب

ومـــا في نـــصحه ريـــب ... ولا تـــنعُ فقـــد صـــم

أمـــا نـــادى بـــك المـــوت ... أمـــا أسمعـــك الـــصوت

أمـــا تخـــشى مـــن الفـــوت ... فتحـــتاطَ وتهـــتم

فكـــم تـــسكرُ في الـــسهو ... وتخـــتالُ مـــن الـــزهو

وتنـــصبُ إلى اللهـــو ... كـــأن المـــوتَ مـــا عـــم

وحتـــى متـــى جافـــيك ... وإبطـــاؤك لافـــيك

طـــباعُ جمعـــت فـــيك ... عـــيوبُ شملُهـــا أنظـــم

---

(١) متفق عليه: البخاري (١٣٠١)، ومسلم (٢٢٤٣).

أتـسعى في هـوى الـنفس	وتخـتالُ علـى الأنـس
وتنـسى ظلمـةَ الـرمس	ولا تذكـرُ مـا تم
سـتذري الـدمَ لا الدمـع	إذا عايـنتَ لا دمـع
يقـي في عرصـتِ الجمـع	ولا خـال ولا عـم
كأنـي بـك تـنحط	إلى اللحـدِ وتـنغط
وقـد أسـلمك الـرهط	إلى أضـيق مـن سـم
هـناك الجـسمُ ممـدود	ليـستأكَله الـدود
إلى أن ينخـر العـود	ويمـسي العظـمَ قـد رم
فـبادرِ أيهـا الغمـر	لمـا يحـلُ بـه المـر
فقـد كـاد ينتهـي العمـر	ومـا أقلعـت عـن ذم
وزود نفـسَك الخـير	ودع مـا يعقـبُ الـضير
وهـيء مـركب الـسير	وخفـف لجـة الـيم

اللهم صلي على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد

اللهم يا من لا تراه العيون، ولا تخالطهُ الظنون، يا من دبر الدهور، وقدر الأمور، وعلم هواجسَ الصدور، يا من عليه يتوكل المتوكلون، أقلِ العثرةَ، وأغفرِ الزلةَ، وجُد بحلمِك على من لا يرجُ غيرَك ولا قصدَ سواك، اللهم هب لنا فرجًا قريبا، وصبرًا جميلا، وكن لنا ولا تكن علينا، وأمكر لنا ولا تمكر بنا، وتولى أمرنا لا إله إلا أنت أنتَ حسبُنا.

اللهم لا تجعل بيَنَنا وبينَك في رزقنا أحدًا سواك، اللهم اجعلنا أغنى خلقِكَ بك، وأفقرَ عبادِكَ إليك، وهب لنا غنًا لا يطغينا، وصحةً لا تلهينا، وأغنَنّا اللهم عن من أغنيته عنا.

اللهم أصلح من في صلاحه صلاح للإسلام والمسلمين، وأهلك من في هلاكه صلاح للإسلام والمسلمين.

اللهم من أراد الإسلام والمسلمين بسوء فأشغله بنفسه، وأجعل تدبيره تدميره يا حي يا قيوم يا عزيز.

اللهم أنت خلقتَ أنفسَنا، وأنت تتوفاها، فزكِها أنت خيرُ من زكاها، أنتَ وليها ومولاها لك مماتَها ومحياها.

اللهم إنا عبيدُك بنو عبيدِك بنو إيمائك، في حاجةٍ إلى رحمتِك وأنت غنيُ عن عذابنا، اللهم فجازِنا بالإحسانِ إحسانا وبالإساءةِ عفوا وغفرانا.

اللهم آنس وحشتنا في القبور، وآمن فزعنا يوم البعثِ والنشور، وأغفر لنا ولجميعِ موتى المسلمين يا أرحم الراحمين. الهم صلي على محمد

سبحان ربك رب العزة عن ما يصفون.

وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين

[١٧] مكانة المرأة في الإسلام

الحمد لله حمدًا كثيرًا مباركًا فيه كما يحب ربنا ويرضى، اللهم لك الحمد ملء السماوات والأرض فكل الحمد لك.

اللهم لك الشكر ملء السماوات والأرض فكل الشكر لك، نحمدك على نعمة الإسلام والإيمان والقرآن، ونحمدك على أن هديتنا للإسلام وجعلتنا من أمة خير الأنام صلوات الله وسلامه عليه، نشهد أن لا إله إلا أنت وحدك لا شريك لك، وأن محمدًا عبدك ورسولك صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان وسلم تسليمًا كثيرًا.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته: وأسأل الله عز وجل أن يجعل هذه الدقائق في ميزان الحسنات في يوم تعز فيه الحسنات في يوم الحسرات، وأن يجعل من تسبب في ذلك بشيء قليل أو كثير يجعل هذه في ميزانه وأن يجعلها له من الباقيات الصالحات هو ولي ذلك والقادر عليه.

أيتها الأخوات المؤمنات: إدارة ومعلمات وطالبات ومنسوبات، أوصيكن ونفسي بتقوى الله عز وجل، وأن نقدم لأنفسنا أعمالًا تبيض وجوهنا يوم أن نلقى الله: ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۝ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ۝ ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا ﴾ [النحل: ١١١]، ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ﴾ [آل عمران: ٣٠]، يوم يبعثر ما في القبور ويحصل ما في الصدور.

يوم تبلى السرائر وتنكشف الضمائر، يوم الحاقة والطامة والقارعة والزلزلة والصاخة: ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ۝ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ۝ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۝ ﴾ [عبس: ٣٤- ٣٧].

أيتها الأخوات...

من أنتن لولا الإسلام والإيمان والقرآن؟

أنتن بالإسلام وبالإيمان والقرآن شيء وبدونها والله لا شيء، ولعلكنَّ تُعِرنني

أسماعكنَّ قليلًا، لتعرفن تلك النعمة التي أنتنَّ تعِشْنَها في هذه الأيام، يوم تسمعْن لحال المرأة في عصور الجاهلية، وأنتنَّ تتبوأن نعمة الهداية، كيف كانت المرأة؟

حال المرأة قبل الإسلام

كانت المرأة سلعة تُباع وتُشترى، يُتشاءم منها وتُزدرى، تُبَاع كالبهيمة والمتاع، تُكْرَه على الزواج والبِغَاء، تُورث ولا تَرث، تُملَك ولا تَمْلِك، للزوج حق التصرف في مالها -إن ملكت مالها- بدون إذنها، بل لقد اُخْتلِفَ فيها في بعض الجاهليات، هل هي إنسان ذو نفس وروح كالرجل أم لا؟

ويقرر أحد المجامع الروسية أنها حيوان نَجِس يجب عليه الخدمة فحسب، فهي ككلب عَقُور، تُمنَع من الضَّحِك أيضًا؛ لأنها أحبولة شيطان، وتتعدد الجاهليات، والنهاية والنتيجة واحدة.

جاهلية تبيح للوالد بيع ابنته، بل له حق قتلها ووأدها في مهدها، ثم لا قِصاص ولا قَصاص في من قتلها ولا دِيَة، إن بُشِّر بها ظلَّ وجهه مسودًا وهو كظيم: ﴿ يَتَوَارَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ﴾ [النحل: ٥٩].

وعند اليهود إذا حاضت تكون نجسة، تنجس البيت، وكل ما تَمسُّه من طعام أو إنسان أو حيوان، وبعضهم يطردها من بيته؛ لأنها نجسة، فإذا تطهَّرت عادت لبيتها، وكان بعضهم ينصب لها خيمة عند بابه، ويضع أمامها خبزًا وماءً كالدابة، ويجعلها فيها حتى تطهر.

وعند الهنود الوثنيين عُبَّاد البقر: يجب على كل زوجة يموت زوجها أن يُحرق جسدها حية على جسد زوجها المحروق.

وعند بعض النصارى: أن المرأة ينبوع المعاصي، وأصل السيئات، وهي للرجل باب من أبواب جهنم، هذا كله قبل بعثة محمد ﷺ

فهل أتاكنَّ أيتها المؤمنات المسلمات القانتات، بل هل أتاكنَّ يا بنات حواء في هذا العالم كله أنباء ما جاء به نبي الرحمة والهدى محمد ﷺ من التعاليم في حقِّكنَّ فحمدتنَّ الله على ما تبوأتنَّ به من هذه النعمة؟

حال المرأة في الإسلام

بعد تلك المهانة والذِلَّة يأتي رسول الله ﷺ ليرفع مكانة المرأة، وليُعلي شأنها، فإذا به ﷺ يبايع النساء بيعة مستقلة عن الرجال، وإذا بالآيات تتنزل، وإذا المرأة فيها إلى جانب الرجل تكُلَّف كما يُكَلَّف الرجل إلا فيما اختصت به ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣].

﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةً ﴾ [النحل: ٧٢].

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل: ٩٧].

صفات صالحة في الرجال، ما ذكرها الله إلا وذكر في جانبها النساء، والطالحة كذلك.

﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾ [التوبة: ٧١].

﴿ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِ ﴾ [النور: ٢٦].

﴿ وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ﴾ [المائدة: ٣٨].

﴿ ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ ﴾ [النور: ٢].

وإذا برسول الله ﷺ بعد مدة ليست باليسيرة يقول: «إنما النساء شقائق الرجال» [(١)]، وإذا به ﷺ بعدها يقول في خطبته الشهيرة: «استوصوا بالنساء خيرًا فإنهن عندكم عَوَان» [(٢)] يعني: أسيرات.

ثم يقول ﷺ رافعًا شأن المرأة، وشأن من اهتم بالمرأة على ضوابط الشرع؛ «خياركم خياركم لنسائهم» [(٣)]: «خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي» [(٤)]

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (١١٣)، وأحمد (٢٦٢٣٨)، وأبو داود (٢٣٦)، و الألباني في «الصحيحة» (٢٨٦٣)، وفي «صحيح الجامع» (١٩٨٣).

(٢) حسن: أخرجه ابن ماجه (١٨٥١)، وأحمد (٢٠٧١٤)، والألباني في «فقه السيرة» (١ / ٤٥٦).

(٣) صحيح: أخرجه ابن ماجه (١٩٧٨)، والترمذي (١١٦٢)، و الألباني في «الصحيحة» (٢٨٤).

(٤) صحيح: أخرجه ابن ماجه (١٩٧٧)، والترمذي (٣٨٩٥)، والألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٩٢٤).

صلوات الله وسلامه عليه، يأتيه ابن عاصم المنقري؛ ليحدثه عن ضحاياه من الموءودات، وعن جهله المُطْبِق فيقول: لقد وأدت يا رسول الله اثنتي عشرة منهن، فيقول ﷺ: «**من لا يَرحم لا يُرحم، من كانت له أنثى فلم يَئِدْها، ولم يُهِنْها، ولم يؤثر ولده عليها، أدخله الله عز وجل بها الجنة**»[(١)]

ثم يقول صلوات الله وسلامه عليه: «**من عَالَ جاريتيْن حتى تبلغا، جاء يوم القيامة أنا وهو كهاتين**»، وضمَّ بين أصابعه[(٢)]، صلوات الله وسلامه عليه.

ثم يقول ﷺ: «**الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله، أو كالقائم لا يفتر، أو كالصائم لا يفطر**»[(٣)]، أو كما قال ﷺ.

أمٌّ مكرَّمَة مع الأب، أُمِرْنَا بحسن القول لهما: ﴿ فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ ﴾ وحسن الرعاية: ﴿ وَلَا تَنْهَرْهُمَا ﴾، وحسن الاستماع إليهما والخطاب: ﴿ وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾ [الإسراء: ٢٣]، وحسن الدعاء لهما: ﴿ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾ [الإسراء: ٢٤].

أمٌّ مكرَّمة مقدَّمة على الأبِّ في البرِّ: من أحق الناس بحسن صحابتي يا رسول الله؟ قال: «**أمك**». قال: ثم من؟ قال: «**أمك**». قال: ثم من؟ قال: «**أمك**». قال: ثم من؟ قال: «**أبوك**»[(٤)]

يأتي جاهمة إلى رسول الله ﷺ يريد الجهاد في سبيل الله من اليمن، قد قطع الوِهَاد والنجاد حتى وصل إلى رسول الله ﷺ وقال: أردت يا رسول الله أن أغزو وجئت لأستشيرك، فقال ﷺ: «**هل لك من أم؟**» قال: نعم. قال: «**الْزمها؛ فإن الجنة عند رجليها**»[(٥)]، أو كما قال ﷺ.

بل أوصى ﷺ بالأم وإن كانت غير مسلمة، فها هي أسماء تقول: قدمت أمي عليَّ

---

(١) **ضعيف**: أخرجه أحمد (١٩٥٧)، وأبو داود (٥١٤٦)، والألباني في «ضعيف الترغيب والترهيب» (١٢٢٥)، والحديث عن ابن عباس ولم يرد في الحديث قوله: «من لا يرحم لا يرحم».

(٢) **صحيح**: مسلم (٦٨٦٤).

(٣) **متفق عليه**: البخاري (٥٦٦١)، ومسلم (٧٦٥٩).

(٤) **متفق عليه**: البخاري (٥٦٢٦)، ومسلم (٦٦٦٤).

(٥) **حسن صحيح**: أخرجه أحمد (١٥٥٧٧)، والألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٤٨٥).

وهي ما زالت مشركة، فاستفتيت رسول الله ﷺ فقلت: قدمت أمي وهي راغبة أَفأَصِلُها؟ قال ﷺ: «نعم صِلي أمك»[(١)]

ليس هذا فحسب، بل أنزل الله فيكِ سورة كاملة باسم سورة النساء، وخصَّكِ بأحكام خاصة، وكرَّمك، وطهَّرك، واصطفاك، ورفع منزلتك، ووعظك، وذكَّرك، وجعلك راعية ومسئولة، وأرجو من الله -عز وجل- أن تكوني كذلك، فالأمل والله فيكن أيتها المؤمنات المتعلمات كبير، والمسئولية والله عليكن عظيمة وجسيمة.

فأنتن راعيات في المدارس، راعيات في البيوت، فلتكنَّ قدوات. قدوات في المظاهر، وقدوات في المخابر، قدوات في القول، وفي العمل، وفي كل أمورِكن؛ فإن النبي ﷺ الذي رفع شأنكن بهذا الدين يقول: **«وما من راعٍ استرعاه الله رعية فضيَّعهم، أو بات غاشًا لهم إلا حرَّم الله عليه رائحة الجنة»**[(٢)]

منذ بزوغ فجر الرسالة -يا أيتها المسلمة- والمرأة مُكرَّمة معزَّزة تقوم بدورها إلى جانب الرجل تؤازره، وتشد من عزمه، وتقوي همَّته، وتناصره.

تحفظه إن غاب، وتسرُّهُ إذا حضر إليها، ثم تنال بعد ذلك نصيبها في شرف الدعوة إلى الله عز وجل. وتنال نصيبها من الإيذاء في سبيل الله.

فها هي سمية ما سمية؟!

سمية أول شهيدة في الإسلام، وهاهو ابنها وزوجها يُعذَّبون، يُلبسون أذرع الحديد، ثم يُصهرون في الشمس في رمضاء مكة، وما أدراكم ما تلك الرمضاء؟![(٣)]

ثم يمرُّ ﷺ وهم يُعذَّبون بالأبطح[(٤)]، وهو في بداية دعوته لا يملك لنفسه شيئًا بل لا يملك ما يدفع به عنهم وعنها، فيقول: **«اصبروا آل ياسر؛ فإن موعدكم الجنة»**[(٥)]

وذات يوم بالعشي يأتي أبو جهل إلى سمية، فيسبها، ويشتمها، ويتكلم بكل كلمة

---

(١) **متفق عليه**: البخاري (٢٤٧٧) (٥٦٣٤)، ومسلم (٢٣٧٢).

(٢) **متفق عليه**: البخاري (٦٧٣٢)، ومسلم (٣٨٠، ٣٨١).

(٣) **الرمضاء**: الرمل الذي اشتدت حرارته في الظهيرة.

(٤) **الأبطح**: هو مسيل واسع فيه دقاق الحصى وموقعه شرقي مكة.

(٥) **حسن صحيح**: أخرجه البيهقي في «شعب الإيمان» (١٦٣١)، والطبراني في «الأوسط» (١٥٠٨)، و«كنز العمال» (٣٧٣٧٢)، والألباني في «فقه السيرة» (١ / ١٠٣).

وَقِحَة ومهينة، وهي ثابتة بإيمانها، راسخة بيقينها، لا تلتفت إلى وقاحته، ولا تنظر إلى سفالته، وإنما رنت عينها مباشرة إلى جِنَانٍ زاكية، وإلى منازل ذاكية، في دار النعيم والرِّضوان والتكريم، نسأل الله أن يجعلنا وإياكم من أهلها، نظرت إلى هناك ولم ترد عليه ليتقدم -أخزاه الله- إلى تلك العجوز الضعيفة الكبيرة فيطعنها بالحربة في موطن عِفَّتِها، لم يرحم ضعفها ولا عَجْزَهَا، لتسقط فتكون أول شهيدة في الإسلام، ثم يموت زوجها بعد ذلك بالعذاب فيحتسبه أبناؤه، ويشاء الله أن يعيش ابنها عمار حتى يرى قاتل أمه يوم بدر مجندلًا على الأرض، ورسول الله ﷺ يقول له: «**قتل الله قاتل أمك يا عمار، قتل الله قاتل أمك يا عمار**»[1]

جاهلية تعيشها المرأة في هذا القرن

أخواتي المؤمنات؛ ونَعِمَت المرأة في ظل الإسلام قرونًا، ولا زالت تنعم بذلك حتى جاءت جاهلية هذا القرن والذي قبله، فوأدت المرأة وأدًا معنويًا، أشد خطرًا من وأد الجاهلية؛ فإن الموءودة في الجنة كما أخبر بذلك النبي ﷺ، أما موءودة هذا القرن فهي التي وأدت نفسها، وباعت عفَّتها، وأهدرت حياءها، فلا تجد الجنة، ولا تجد ريحها، كاسية عارية، مائلة مُميلة، لا تجد عرف الجنة، وإن ريح الجنة ليوجد من مسافة كذا وكذا.

أصغت بأذنها إلى الدعاة على أبواب جهنم، فقذفوها في جهنم، فشقيت وخسرت دنياها وأخراها، فهي تعض أصابع الندم هنا ويوم القيامة، نسأل الله عز وجل أن يتجاوز عنَّا، وعن العاصيات من أمة محمد ﷺ.

يا أَمَةَ الله! تجيء جاهلية هذا القرن في صور متعددة؛ في صورة المشفق عليك، الضاحك ظاهرًا، وهو يريد قتلك باطنًا.

إذا رأيت نيُوبَ اللَّيثِ بارزة ... فلا تظنَّي أنَّ اللَّيث يبتسمُ

جاءت هذه الجاهلية في صورة المشفق عن طريق مجلة، أو عن طريق صفحة جريدة، أو أغنية فاجرة، أو مسلسل، أو تمثيلية، أو جهاز استقبال، يريدون منكِ أن تكوني عاهرة، سافرة، فاجرة، يريدون أن تكوني بهيمة في مِسْلاخِ بشر، حاشاك يا بنة الإسلام! ويا حفيدة سمية وأسماء!

---

(١) انظر «الفجر الساطع على الصحيح الجامع» (٢/ ١٣).

اسمعي لقائلهم سمع اعتبار يوم يقول، وهو أحد الكفار الذي يتربص بك وبأخواتك وبالمؤمنين الدوائر يقول: لا تستقيم حالة الشرق الإسلامي لنا حتى يُرفع الحجاب عن وجه المرأة، ويُغطَّى به القرآن، وحتى تؤتى الفواحش والمنكرات.

وخاب وخَسِر.

ويقول الآخر: مزِّقيه مزِّقيه بلا ريث، فقد كان حارسًا كذابًا.

يخاطب بذلك الحجاب.

ويقول الآخر: إلى متى تحملين هذه الخيمة؟

ويقول آخر: ينبغي أن تبحثي عن قائد يقودك إلى المدرسة والكليَّة.

ويقول آخر: لابد أن نجعل المرأة رسولًا لمبادئنا، ونخلِّصها من قيود الدين.

خاب وخسر.

ويقول الآخر: إن الحجاب خاص بزوجات رسول الله ﷺ

فأين تنطلي مثل هذه الأمور؟ وأين هذا من القرآن؟

إنه لم يعرف القرآن، ولو عرف القرآن لقرأ قول الله في القرآن: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ﴾ [الأحزاب: ٥٩].

ويقول أحدهم -وهو قاسم أمين، من الذين تأثروا بالغرب-: إن الحجاب ضرر على المرأة؛ فهو معرقل لحياتها اليومية.

يضرب بالآيات عرض الحائط، ويحكِّم عقله، وينظر إلى الغرب الهائم؛ فعامله الله عز وجل بما يستحق.

وآخر **يقول**: كأس وغانية تفعلان في الأمة المحمدية ما لا يفعله ألف مدفع؛ فأغرقوهم في الشهوات والملذَّات.

كيف جاءت هذه الأمور؟

إنها لم تأتنا إلا من أعداء الإسلام، على طريقة من؟! على طريقة الذين رُبُّوا على أفكار أولئك.

يخرج سعد زغلول منفيًا مُرتبًا له من مصر إلى بريطانيا أيام الاحتلال، ليعود من هناك

وهو بطل وزعيم وطني قومي -وقد رُتِّب له الأمر- فإذا بسرادق النساء في استقباله، وإذا بزوجته صفية زغلول -انتسبت إليه، ولا تنسب إلى أبيها على طريقة الغربيات الكافرات- تأتي معه على ظهر الباخرة، وتصل إلى هناك، ولمَّا وصلت إلى هناك، وجاءوا لاستقباله -إذ الأمر مرتب- ينزل وينطلق مباشرة إلى سرادق النساء، إلى سرادق الحريم المحجبات فتقوم هدى شعراوي -عاملها الله بما تستحق- تقوم إليه محجبة، فينطلق إليها ليمد يده -وقد مدَّ اليهودي قبل ذلك يده فدفع ثمن ذلك نفسه- يمد يده إلى حجابها ويرفع ذلك، وهي تضحك وتصفِّق، وهو يضحك ويصفِّق، ثم يصفقن النساء لِيُعْلِنَّ الرَّذيلة من ذلك اليوم، وليبدأنَ في تقليد الكافرات، هذا هو عمله، فماذا فعلت التي قامت بالدور بعد ذلك هدى وصفية؟

انطلقا في مظاهرة ظاهرها وهدفها مناوأة الاحتلال الإنجليزي، وانطلقا إلى ميدان الإسماعيلية، ليقفا في ذلك الميدان محجبات سود كالغربان، كما أمر النبي ﷺ ولكن لحاجة في نفسهن، رمين الحجاب ودُسْنَهُ بالأقدام، ثم أحرقْنَه في تلك الساحات، ليُعلنَّ التمرد على القيم والأخلاق الإسلامية، فماذا كان بعد ذلك؟!

حصل في مصر ما حصل، حصل فيها أن بدأ التغريب هناك على يد هؤلاء، وبين أيادي المؤمنات، وعلى مرأى المسلمين والمسلمات، ماذا حصل؟!

انطلقوا مباشرة فإذا بالرجل ينطلق إلى جنب المرأة مباشرة، وإذا به يعمل معها، وإذا به يخالطها في المدرسة تلميذًا ومعلِّمًا فيما بعد، وإذا بالأمور تنفرط ليس هناك فحسب، بل تدب العدوى إلى بلاد عربية، حتى يكاد لا يَسْلَم من ذلك بلد إلا من رحم الله، وقليل ما هم.

وإذا بنا نئن ونشكو من اختلاط، ورذيلة.

ومن طهر وعفاف يوأد، وإذا الفساد ينتشر، وإذا الداعية يصيح هنا وهناك، فإذا الآذان صُمَّت، واتجهت تقلِّد الغرب حتى في لباسها، قامت تقلدهم في الموضة والأزياء.

جاءت هذه الصرعات فاستنفذت البيوت واستنفذت ميزانيات الأسر، حتى إنك لترى التي بلغت الخامسة عشرة لا زال لباسها من فوق ركبتها، وتقول: لازلت صغيرة، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وما -والله- ذكرت من هؤلاء، سواء هدى أو قاسم أو زغلول أو غيرهم من الدعاة

هنا وهناك إلا نماذج للدعاة على أبواب جهنم الذين ألقوا بحجابهم وداسوه بالأقدام، إنما يتَحَدَّوْن مشاعر المسلمين، والذين يكتبون لتحرير المرأة، والذين وقفوا بذلك الميدان وسموه: ميدان التحرير إنما هو التحرر من الفضيلة والخُلُق والطُّهر ولاشك، يكتبون، والله يكتب ما يُبيِّتون هم وأذنابهم إلى يوم يبعثون: ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُولَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٩]، ﴿ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦].

أختي المؤمنة...

هل لهؤلاء ومن على أدرابهم من الكُتَّاب والراقصات والعاهرات أهلٌ لأن يَكُنَّ قدوة للصالحات المؤمنات القانتات الصابرات الخاشعات؟

نعوذ بالله من الانتكاس، ونسأل الله الثبات حتى الممات.

أنتِ الطهر، وأنتِ الفضيلة، وأنت السُّمُو، والطهر لا يقتدي بالرِّجس والمهين، والفضيلة لا تقتدي بالرذيلة، والسمو لا يقتدي بالسُّفْل.

خابوا وخسروا وتعسوا وانتكسوا.

أغيظيهم وقولي بلسان حالك ومقالك:

دعهم يعضوا على صُمِّ الحصَى كمدًا ... من مات من غيظه منهم له كفن

نماذج مشرفة من صبر المرأة المسلمة

إن آمالنا في المسلمة المتعلِّمة والمعلِّمة أن تكون أقوى من التحدِّيات، آمالنا في المسلمة في كل مكان، وآمالنا في المسلمة في هذه الجزيرة أن تكون أقوى من التحديات، تعتز بدينها، تتمسك بعقيدتها ومبادئها وأخلاقها، بل وتدعو إليها؛ فذلك من دينها.

صبر ماشطة ابنة فرعون

هاهو رسول الله ﷺ يخبر ليلة الإسراء فيقول: «**فلما كانت الليلة التي أُسْرِيَ بي أتت علي رائحة طيِّبة، فقلت: ما هذه الرائحة الطيبة يا جبريل؟ قال: هذه رائحة ماشطة بنت فرعون وأولادها**»[(١)]

---

(١) ضعيف: أخرجه أحمد (٢٨٢٢)، والألباني في «ضعيف الجامع» (٤٧٧٢).

أتدرون ما خبر هذه المرأة؟ وما خبر هذه الماشطة؟

اسمعنَ إليها؛ فلعل فيها ما يثبِّت المرأة أمام شهواتها، وأمام رغباتها، والترغيب والترهيب عمومًا.

هذه كانت تمشط بنت فرعون، وذات يوم من الأيام، وبينما هي تمشِّط بنت فرعون -وهو الذي يقول: أنا ربكم الأعلى- وإذا بالمِدْرَى يسقط من يديها -المشط أو المِفْرَق التي تفرق به الشعر يسقط من يديها- ويوم سقط من يديها قالت: باسم الله، وقد كانت تخفي إيمانها قبل ذلك، فقالت بنت فرعون: أبي؟

قالت: باسم الله ربي ورب أبيك ورب العالمين جميعًا، فقالت: إذًا أخبره بذلك.

قالت: افعلي.

فذهبت وأخبرت أباها، فجاء في تكبُّره وتجبُّره، ووقف عندها، وقال: أو إنَّ لك ربًا غيري؟ قالت: ربي وربك ورب الجميع رب العالمين سبحانه وبحمده، فاغتاظ، وقال: أما أنت بمنتهية؟ قالت: لا.

فقال: إذًا أعذب أو أقتل، قالت: ﴿ فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ ﴾ [طه: ٧٢].

فانطلق يعذِّبها، أوتد يديْها ورجليْها، وصنف عليها أنواع العذاب، فكانت تمزج حلاوة إيمانها بمرارة العذاب، فتطفو حلاوة الإيمان على مرارة العذاب، فتشتاق وتقول: إنما هي ساعات، وإلى جنات ونهر، في مقعد صدق عند مليك مقتدر.

يرسل عليها العقارب لتلسعها علَّه أن يصل إلى قلبها، ثم يقول: أما أنت بمنتهية؟ فتقول: ربي وربك الله رب العالمين، فيعود ليرسل عليها الحيَّات لتنهشها، ثم يقول: أما أنت بمنتهية؟ فتقول: ربي وربك الله رب العالمين.

ينوِّع عليها العذاب، ويصنف عليها ذلك، وهي راسخة بإيمانها وعقيدتها، قد علمت إنما هي سويعات، ثم تعود إلى الله عز وجل، فماذا حصل.

قال: إذًا أقتلك وأحرقك بالنَّار، قالت: ﴿ فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ ﴾.

فأمر ببقرة من نحاس، قيل أنه قدِر على صورة بقرة، وقيل: إنها بقرة أُذِيبت، ثم جيء بها وبأولادها ليقفوا على طرف هذه النار، ثم يأخذ واحدًا من أولادها، وقبل أن يأخذه

قالت: لي إليك حاجة، قال: وما هي؟ قالت: أن تجمع عظامي مع عظام أولادي، ثم تدفننا في ثوب واحد، قال: ذلك لك علينا من الحق، ثم رمى الولد الأول فوقفت، فوقف أخوه الثاني وقال: اصبري يا أماه، فإن لك عند الله كذا وكذا إن صبرت، ثم رمى بالثاني، فقال الثالث: اصبري يا أماه؛ فإن لك عند الله كذا وكذا إن صبرت، ويرمي بهم واحدًا بعد الآخر، وهي تقول: ربي وربك الله رب العالمين.

لم يبقَ سوى طفل على ثديها رضيع لم ينطق بعد في شهوره الأولى، فما كان منها إلا أن ترددت أن تلقي بنفسها مع أولادها من أجل هذا الرضيع، ويشاء الله فيطلق الثدي وينطقه الله الذي تعبده؛ ربها ورب كل شيء، فيقول: يا أماه! اقتحمي؛ لَعذابُ الدنيا أهونُ من عذاب الآخرة، فتقتحم مع طفلها لتلقى الله عز وجل.

راسخة ثابتة بإيمانها؛ فعليها رحمة الله ورضوانه[1]

صبر آسيا زوجة فرعون

لم يقف الأمر عند ذلك، بل كانت آسيا بنت مزاحم زوج فرعون، والتي ربت موسى صلوات الله وسلامه عليه والتي قالت: ﴿ قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا ﴾ [القصص: ٩]، كانت تراقب الموقف وهي مؤمنة، ولم تعلن إيمانها بعد؛ خوفًا من أن يفتنها عن دينها، ولما رأت من الماشطة ما رأت، فقوي في قلبها إيمانها، وتعلقت بربها؛ رب العالمين. فجاء إليها ليخبرها متبجحًا وقد علمت ما حصل، فقال: فعلت بالماشطة كذا وكذا، فقالت: الويل لك، ما أجرأك على الله! الويل لك ما أجرأك على الله! الويل لك ما أجرأك على الله!

قال: لقد اعتراك جنون الماشطة، قالت: بل آمَنْتُ بالله ربي ورب الماشطة، وربك رب العالمين.

فذهب إلى والدتها، وقال: لأذيقنَّها ما ذاقته الماشطة أو لترجع، فجاءت أمها -برحمتها وشفقتها عليها- تعرض عليها أن تتنازل عن دينها وهي إنما تتنازل عن الجنة التي عرضها السماوات والأرض- فماذا كان منها؟

قالت: يا أماه! أما أن أكفر بالله، فوالله لا أكفر بالله، عندها بدأ في التعذيب، أوتد يديْها

(١) انظر التخريج السابق.

ورجليها، وعرَّضها لأشعة الشمس، ووكَّل من يعذبها ويصنف عليها أنواع العذاب ويقول: أما أنت بمنتهية؟ فتقول: لن أنتهي حتى ألقى الله، أو كما قالت.

فيأتي بعد ذلك، ويقول: لأرمينك بكذا وكذا من الصخور - يهدِّد - قالت: لا أرجع عن ذلك أبدًا، فماذا يحصل بعد ذلك؟ كان الذين يعذبونها في حرارة الشمس ينصرفون عنها ويذهبون بعيدًا عنها، فإذا ذهبوا، نزلت الملائكة لتظلها بأجنحتها.

ثم يرجع إليها ويعرض عليها الكفر مرة أخرى فترفض؛ فيرمي بالصخرة عليها ويقبض الله روحها قبل نزول الصخرة عليها لتلقى الله عز وجل ثابتة بإيمانها.

هذا خبر من قبلنا من الأمم، فما خبر من بعد البعثة؟

تثبيت خديجة للرسول ﷺ

إن الخبر ليستلزم أن نقف عند خديجة رضي الله عنها تلك المؤمنة صاحبة الثراء، وصاحبة الجاه، وصاحبة المال، التي تزوجت رسول الله ﷺ، وكانت أول مؤمنة به، وآزرته في محنته، وثبَّتته يوم خاف، ويوم عاصرت نزول القرآن من أول لحظاته، كانت أول مثبت للنبي ﷺ، وهي التي جاء النبي ﷺ منها الولد، وكان يذكر ذلك لها بعد موتها، رضي الله عنها و ﷺ.

جاء إليها يومًا من الأيام وهي تبكي بعد موت ابنها القاسم، فيقول: ما بك؟ قالت: دَرَّت لُبَينَة القاسم، فكان بودِّي لو عاش حتى يستكمل رضاعته، فقال ﷺ: «**إن له في الجنة مرضعًا تستكمل له رضاعته**» فهان عليها ما كان.

«وقامت معه عندما أنزل عليه الوحي، وجاء إليها يرتعش خائفًا مرتعدًا؛ لما رأى جبريل وهو يقول له: اقرأ، وهو يقول لها: «**زملوني، دثِّروني**»، فيقول لها: «**والله يا خديجة! لقد خشيت على نفسي**» قالت: كلا والله لا يخزيك الله أبدًا؛ إنك لتحمل الكلَّ[1]، وتَقْرِي الضَّيف[2]، وتكسب المعدوم[3]، وتعين على نوائب الحق[4]»[5]

(١) **تحمل الكل**: تقوم بشأن من لا يستقل بأمره ليتم وغيره.

(٢) **تقرى الضيف**: تهيء له القرى، وهو ما يقدم للضيف من طعام وشراب.

(٣) **تكسب المعدوم**: تتبرع بالمال لمن عدمه، وتعطي الناس ما لا يجدونه عند غيرك.

(٤) **نوائب الحق**: النوائب جمع نائبة، وهي ما ينزل بالإنسان من المهمات، وأضيفت إلى الحق لأنها تكون في الحق والباطل.

(٥) **متفق عليه**: البخاري (٣) (٤٦٧٠)، ومسلم (٤٢٢).

وقفت معه ﷺ فقاسمته شدَّته ومحنته، وما تراجعت عن ذلك مع أنها صاحبة الجاه، وصاحبة السؤدد، وصاحبة المال، فزادت بذلك سؤددًا ومالًا وجاهًا.

واقتدي بتلك المرأة التي أتت تبحث عن جثة ابنها بين القتلى وهي مختمرة، فقال لها الصحابة: اكشفي خمارك حتى ترينه.

فقالت: لأن أفقد ولدي خير لي من أن أفقد حيائي وديني، إن الله خاطب رسوله فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ﴾ [الأحزاب: ٥٩] ووالله ما أنا بخير منهن.

فتخلقي بأخلاق أهل الإسلام، وارجعي إلى سِيَر هؤلاء الأعلام، وادعي إلى الله عز وجل فإنك مسئولة عن علمك، ماذا عملت به أيتها المؤمنة، فما عسى يكون الجواب؟

نموذج من ثبات داعية معاصرة

المرأة المسلمة على ثغرة عظيمة، فاللهَ اللهَ أن تؤتى البيوت من قِبَلِك.

واللهَ اللهَ أن يؤتى الإسلام من قِبَلِك.

واللهَ اللهَ أن يؤتى أبناء المسلمين من قبلك.

هاهي مَثَل لك؛ لأن الخير يستمر في الأمة إلى قيام الساعة والأمثلة كثيرة في هذا العصر والذي قبله.

هاهي بنان الطنطاوي؛ ابنة الشيخ الوقور علي الطنطاوي غفر الله لنا وله، وتجاوز عنا وعنه؛ زوجة عصام العطار علمت مسئولية الزوجة في البيت، وآمنت بربها، ودعت بما تستطيع، وهيأت لذلك الداعية أن يدعو إلى الله عز وجل.

انطلق يرد الناس من الضلالة إلى الهدى، ومن الغواية إلى الهدى والهداية، فأغاظ ذلك المنافقين، والذين يَشْرَقُونَ بالنور، والذين ما يعيشون إلا في الظلام، فما كان منهم إلا أن سجنوه في سجن من السجون، فأرسلت إليه رسالة، فما فحوى هذه الرسالة يا أيتها الداعية، يا أيتها المعلِّمة، يا أيتها المتعلِّمة؟

اسمعي إلى هذه الرسالة ماذا تقول لزوجها وهو في سجنه.

تقول له: لا تحزن ولا تفكِّر فيَّ، ولا في أهلك، ولا في مالك، ولا في ولدك، ولكن فكِّر في دينك وواجبك ودعوتك؛ فإننا -والله- لا نطلب منك شيئًا يخصُّنا، وإنما نطلبك

بالموقف السليم الكريم الذي يبيِّض وجهك، ويرضي ربك الكريم يوم تقف بين يديْه حيثما كنت، وأينما كنت، أما نحن فالله معنا، ويكتب لنا الخير، وهو أعلم وأدرى سبحانه وأحكم.

انظري إلى هذه الكلمات، كيف وقفت معه وهو بعيد عنها، وقفت معه لأنها تعلم أنها على ثغرة وأنَّ ثغرةً ذهبت فسدَّت تلك الثغرة.

ثم يشاء الله أن يخرج من ذلك السجن ليُشرَّد في ديار الغرب، وما أُخرج وما نُقِم منه إلا أن قال: ربي الله، واعتز بدينه ومبادئه، شُرِّد في بلاد الغرب، ويبتليه الله عز وجل هناك أيضًا ليرفع درجته بإذن الله عز وجل، ويوم ابتلاه الله عزٍ وجل هناك بكونه يعيش بين الكفار، وكونه مشردًا عن أهله وغيرهم، يُبتلى بالشلل، يُشلّ في ديار الغرب، لا أهل، ولا صاحب، ولا صديق، لكن له الله الذي أُخْرِج من أجله، وله الله الذي سُجِنَ من أجله، وله الله الذي دعا من أجله، فماذا فعلت هذه الزوجة؟

بعيدة عنه، بعيدة بجسمها لكن قلبها معه، وروحها معه، هدفها وهدفه واحد؛ وهو نشر دين الله، ولقاء الله، والتعامل مع الله عز وجل، كتبت إليه رسالة هناك، وقالت: لا تحزن يا عصام! ولا تأس، يرفع الله من يبتليه، إن عجزت عن السير سرت بأقدامنا، وإن عجزت عن الكتابة كتبت بأيدينا، الله معك ولن يَتِرَك، ولن يضيع لك ما أنت فيه، ثم تنطلق بعد ذلك لتلحق به في ديار الغرب إلى هناك لا لتجلس بجانبه تندب حظَّها، ولا لتجلس بجانبه وتقول: جَنَت الدعوة عليه، وإنما لتجلس بجانبه هناك لتأخذ أفكاره، وتأخذ علمه، فيكتب هو بيدها، ويسير بقدمها، فتنشئ مركزًا إسلاميًا في ديار الكفر، فلا إله إلا الله! كم من تائبة تابت على يديها هناك، وكم من ضالة كافرةٍ لا تعرف شيئًا إلا الحياة البهيمية ردها الله على يد بنان الطنطاوي، وهي هناك مع زوجها تستشيره ليعطيها المعلومات فتنطلق، ويأبى أولئك الذين يَشْرَقُون بهذا الدين أن يروا للخير قولة أو جولة، ويأتي ثلاثة رجال يبحثون عن ذلك المشلول في تلك البلاد، وما أن دلُّوا على شقته، حتى جاءوا فاقتحموها، وتقدموا إلى هذه الداعية المسكينة -امرأة في بيت غربة، وبعيدة، لكن معها الله الذي قدمت نفسها له- فإذا بها يُطلق عليها خمس رصاصات؛ في العنق، وفي الكتف، وفي الإبط، لتسقط مضرجة بدمائها.

أسأل الله أن يجعلها من أهل الفردوس الأعلى.

وأسأل الله أن يكتب لها ولمن بعدها من أهلها النعيم المقيم السرمدي الأبدي الذي

لا يزول، وأسأل الله أن يوقظ في بنات المسلمين ومعلمات ومتعلمات المسلمين نماذج مثل تلك النماذج، وأَعْظَمَ من تلك النماذج.

إن الأُمَّة تنتظر منك الكثير والكثير.

طريق الجنة والنار

اعلمي أخيرًا أن طريق الجنة صعب، وأنه محفوف بالمكاره، لكن آخره السعادة الدائمة؛ أخبر بذلك النبي ﷺ في الحديث الذي رواه مسلم يوم يقول: «**إن الله عز وجل لما خلق الجنة قال لجبريل: اذهب فانظر ما أعددت لعبادي الصالحين فيها، فذهب؛ فإذا فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فرجع إلى ربه، وقال: يا رب! وعزتك وجلالك لا يسمع بها أحد إلا دخلها** -لِما فيها من النعيم- ثم حفَّها الله بالمكاره -بما تكره النفس من التكاليف؛ من الأوامر، من النواهي، من الضوابط الشرعية التي يتنقل الإنسان بينها وفيها، حفَّها بهذا كله- **ثم قال: ارجع فانظر إليها، فنظر إليها، فإذا هي حفَّت بكل ما تكرهه النفس**، فماذا قال؟ **رجع إلى ربه، وقال: وعزتك وجلالك قد خشيت ألا يدخلها أحد**» (١)

يا أيها الأحبة...

والله! لا يدخلها إلا من زكَّى نفسه، اسمعوا إلى الله وهو يقسم، مرات بعد مرات، يقسم بالضحى، وله أن يقسم بما شاء: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝ وَٱلَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ [الضحى: ١، ٢].

ثم يقول هناك: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝﴾ [الشمس: ١- ٨].

ثم الجواب يأتيك بعد هذه الأقسام المتعددة المغلظة العظيمة من الرب العظيم يقول: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝﴾ [الشمس: ٩، ١٠].

فوالله لن يفلح إلا من زكَّى نفسه بالإيمان بالله، والدعوة إلى الله عز وجل.

وطريق النار سهل، ولكنه محفوف بالشهوات، وآخره الشقاء الأبدي السرمدي الذي

---

(١) **حسن صحيح**: أخرجه الترمذي (٢٥٦٠)، والنسائي (٣٧٦٣)، وأحمد (٨٣٧٩)، وأبو داود (٤٧٤٤)، والألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٦٦٩).

لا يزول: «**لَمَّا خلق الله النار -في نفس الحديث السابق- قال لجبريل: اذهب فانظر إليها، فذهب إليها، فإذا هي سوداء مظلمة، يحطم بعضها بعضًا، ترمي بشرر كالقصر، كأنه جِمَالت صُفْر، فرجع إلى ربه وقال: وعزتك وجلالك ما يسمع بها أحد فيدخلها، ثم حفَّها الله بالشهوات** -وبكل ما تشتهيه النفس، وبكل ما ترتاح له النفس، وبكل ما تهواه النفس- **ثم قال: ارجع فانظر إليها، فرجع فنظر إليها، فإذا هي قد حفت بكل ما تشتهيه النفس، فرجع إلى ربه وقال: لقد خشيت ألا يبقى أحد إلا دخلها**» (١)

إن التعامل مع الله عظيم، وإن المتعامل مع الله لا يخيبه الله رجلًا كان أو امرأة.

فيا أيتها المؤمنة: انوِ الخير، واعملي الخير، فوالله! لن تزالي بخير ما نويت الخير، وما عملت الخير.

اسمعي لقول النبي ﷺ: «**من همَّ بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة، ومن همَّ بحسنة فعملها كتبت له عشر حسنات، ومن همَّ بسيئة ولم يعملها كتبت له حسنة، وإن عملها كتبت له سيئة واحدة**» (٢)

فضلًا من الله ومِنَّة.

فيا ويل ويا ويل ويا ثبور من غلبت آحاده عشراته! حسنة واحدة أو سيئة واحدة تغلب عشرات الحسنات، يا ويل من كان حاله على ذلك.

فانتبهن وتقربن إلى الله عز وجل بما يرضى الله.

تقربن إليه بالفرائض؛ فإن أحب ما يتقرب به إلى الله الفرائض، ثم تقربن بالنوافل؛ فإنه لا تزال المرأة تتقرب، والرجل يتقرب بالنوافل حتى يحبه الله كما قال في الحديث القدسي: «**فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه**» (٣)

فالهِمَّة الهمة؛ فإنها طريق إلى القمة، أسرعي ولا تنظري إلى الخلف، لا تنظري إلى أي عائق، واعلمي أن شبرًا بذراع، وأن ذراعًا بباع، وأن مشيًا بهرولة، فضلا من الله ومِنَّة.

---

(١) انظر السابق.
(٢) صحيح: مسلم (٣٥٤).
(٣) صحيح: البخاري (٦١٣٧).

اصبري، وجِدِّي، ولا تسأمي، ولا تملي بالنصح، بالدعوة، بالقيام بها أوجب الله عليكِ، فلا تنظري إلى لوم لائم، ولا إلى عتاب عاتب، ولا إلى هوى نفس أو شيطان.

وإذا اجتمعت عليكِ هذه كلها، فانظري إلى منازل زاكية في جنان ورضوان، أدنى أهل الجنة فيها من يأتي بعد ما دخل أهل الجنة، فيقول الله له: «**ادخل الجنة، فيقول: يا رب! وقد أخذ الناس منازلهم وسكنوا مساكنهم - يخيَّل إليه أنها ملأى- فيقول الله: ألا ترضى أن يكون لك مثل مَلِك من ملوك الدنيا؟ قال: بلى رضيت يا رب، قال: فإن لك مثله ومثله ومثله ومثله، وفي الخامسة يقول: رضيت يا رب رضيت.**

فيقول: ولك عشرة أمثاله، وما اشتهت نفسك، ولذَّت عينك وأنت فيها» [1]

قولي خيرًا، وادعي خيرًا، وتكلمي خيرًا أو اصمتي؛ فكم كلمة جرى بها اللسان هلك بها الإنسان: «**وإن المرء ليقول الكلمة من سخط الله يكتب الله عز وجل له بها سخطه إلى أن يلقاه**».

أخيرًا: توبي إلى الله، واستغفري الله؛ فإن الشيطان قد قطع على نفسه عهدًا، فقال: وعزتك وجلالك لأغوينهم ما دامت أرواحهم في أجسادهم، والله يقطع العهد على نفسه -ورغمت أنف إبليس- وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني.

فاللهم إنا نستغفرك إنك كنت غفارًا، فأرسل السماء علينا مدرارًا، وأقرَّ أعيننا بصلاح المؤمنين والمؤمنات، والمسلمين والمسلمات.

اللهم إنا نسألك بأسمائك الحسنى، وصفاتك العلى أن تجعلنا من الصالحين، وأولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وأن تجعلنا ممن باع نفسه لله، فجعل همَّه الله والدار الآخرة.

أسأل الله أن يرينا من بنات المسلمين، وأمهات المسلمين، وأخوات المسلمين ما تقَرُّ به الأعين، صالحات، قانتات، تائبات، عابدات.

أسأل الله بأسمائه الحسنى، وصفاته العلى، من كان سببًا في هذا الاجتماع، ومن ساهم فيه بأي مساهمة صَغُرَت أو كَبُرَت أن تجعل له ذلك في ميزان الحسنات عظيمًا عظيمًا؛ فأنت أهل التقوى، وأهل المغفرة.

وآخر دعوانا أنِ الحمد لله رب العالمين



---

(١) صحيح: مسلم (٤٨٥).

[١٨] صراع الدعاة مع المنافقين

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، ولا إله إلا الله، إله الأولين والآخرين، وقيُّوم السماوات والأرضين، ومالك يوم الدين، الذي لا فوز إلا في طاعته، ولا عزَّ إلَّا في التذلل لعظمته، ولا غنى إلا في الافتقار لرحمته، ولا هدى إلَّا في الاستهداء بنوره، ولا حياة إلا في رضاه، ولا نعيم إلَّا في قُربه، ولا صلاح ولا فلاح إلَّا في الإخلاص له وتوحيد حبه.

إذا أطيع شكر، وإذا عُصيَ تاب وغَفَر، وإذا دُعي أجاب، وإذا عُمِل له أثاب، لا إله إلا هو سبحانه وبحمده، لا يُحصى عدد نعمته العادُّون، ولا يؤدِّي حق شكره الحامدون، ولا يَبلُغ مدى عظمته الواصفون، ﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿١١٧﴾ ﴾ [البقرة: ١١٧].

اللهم لك الحمد ملء السموات والأرض، فكل الحمد لك، لك الشكر على نِعم لا نحصيها، فكل الشكر لك، اللهم لك المتوبة والتذلل، والخضوع فلا معبود غيرك، الحمد لله شَهِدت له بالربوبية جميع مخلوقاته، وأقرت له بالألوهية جميع مصنوعاته، سبحانه وبحمده عدد خلقه ورضا نفسه، وزنة عرشة ومداد كلماته، ولا إله إلا الله وحده لا شريك له في ألوهيته، كما أنه لا شريك له في ربوبيته، ولا شبيه له في ذاته ولا أفعاله ولا صفاته.

سبحانه، سبحت له السماوات وأملاكها، والنجوم وأفلاكها، والأرض وسكانها، والبحار وحيتانها، والنجوم والجبال والشجر والدواب، والأتان والرمال، وكل رطب ويابس وكل حي وميت؛ ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وأشهد ألا إله إلا الله، وحده لا شريك له، كلمة قامت بها الأرض والسماوات، وخلقت لأجلها جميع المخلوقات، وبها أرسل الله تعالى رسله، وأنزل كتبه، وشرع شرائعه، لأجلها نُصِبت الموازين، ووضعت الدواوين، وقام سوق الجنة والنار، وانقسم الخلائق إلى مؤمنين وكفار، وأبرار وفجَّار، عنها وعن حقوقها يكون السؤال والجواب، وعليها يقع الثواب والعقاب، عليها نصبت القِبلة، وعليها أسسِّت الملة، ولأجلها جردت سيوف الجهاد وهي حق الله على جميع العباد.

إنها كلمة الإسلام، مفتاح دار السلام، لن تزول قدم عبد بين يدي الله حتى يُسأل ماذا كنتم تعبدون؟ وماذا أجبتم المرسلين؟

فلا إلا إلا الله، شهادة حق وصدق، أتولى بها الله ورسوله والذين آمنوا، وأتبرأ بها من الطواغيت والأنداد المعبودين ظلمًا وزورًا من دون الله.

وأشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله، أمينه على وحيه، وخيرته من خلقه، أشرف من وطئ الحصى بنعله، أرسله الله رحمة للعالمين، وإمامًا للمتقين، وحجَّة على الخلائق أجمعين.

بلَّغ الرسالة، وأدَّى الأمانة، ونصح الأمَّة، وجاهد في الله حق الجهاد، وقمع أهل الزيغ والفساد، فتح الله به أعينًا عميًا، وآذانًا صمًّا، وقلوبًا غلفًا.

صلوات الله وسلامه عليه، وعلى أهل بيته الطيبين، وأصحابه المنتخبين وخلفائه الراشدين، وأزواجه الطاهرات، أمهات المؤمنين، ومَن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ۝ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أحبتي في الله

يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ۝ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾ [الأحزاب: ٥٧، ٥٨].

ها هو ﷺ يقارب الأربعين من عمره ذاهب إلى الغار ما يمر بشجر ولا حجر إلا سلم عليه ﷺ ويأتيه جبريل بالوحي فيعود فزعًا خائفًا إلى زوجه خديجة رضي الله عنها وأرضاها يقول زملوني زملوني فزملوه حتى ذهب عنه الروع وأخبر خديجة بالأمر وقال قد خشيت والله على نفسي قالت كلا والله لا يخزيك الله أبدًا إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة ذهبت به إلى ابن عمها [ورقة بن نوفل] وقد قرأ الكتب السابقة فأخبرته الخبر فقال هذا هو الناموس[1] الذي أنزل على موسى يا ليتني فيها جذع[2] أكب فيها وأضع إذ

(١) الناموس: هو صاحب السر، والمراد جبريل عليه السلام، وسمي بذلك لاختصاصه بالوحي.
(٢) جذع: شاب، والجذع في الأصل الصغير من البهائم ثم استعير للشاب من الإنسان.

يخرجك قومك قال أَوَمُخْرِجِيَّ هم قال نعم ما أتى أحد بمثل ما جئت به إلا عودي وأوذي. والآن[١] :

أرى خلل الرماد وميض جمر ... وأخشى أن يكون لها ضرام

أقول هذا في وقت لا نزال نسمع عن كثير ممن قل حظهم من مراقبة الله وخشيته والخوف منه ونسوا حظًا مما ذكروا به لا تحلوا لهم مجالسهم ولا يقربون في حديثهم ولا ينبسطون في جلساتهم حتى يتناولوا أعراض عباد الله القائمين بأمر الله من علماء الأمة ودعاة الملة ورجال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الذين جردوا سواعدهم لرفع راية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والذين بذلوا أوقاتهم وأنفسهم لله عز وجل في وقت خرست فيه الألسن قالوا وقد سكت الناس ونطقوا وقد خرست الألسن وجاهدوا في وقت ركن فيه كثير من الناس إلى الدعة والسكون وأخلدوا إلى الحياة الدنيا وملذاتها وتسابقوا إلى الوظائف والمناصب ومع ذلك فقد قام هؤلاء المخلصون بأمر الله لا يبتغون إلا رفعة وإعلاء كلمة الله ودحر الباطل وأهله من أعداء الله.

تجد هؤلاء الفسقة بل كثير منهم يسارع إلى تناول أعراض الدعاة وتتبع عوراتهم والتلذذ بالحديث عنهم في المجالس يلمز هذا ويتكلم في عرض هذا ويردد ما أشيع عن هذا لم تتورع ألسنة بعض هؤلاء من اختلاق الأكاذيب وإلصاق التهم بهم وترديد بعض الأباطيل التي تلصق بهم والتي هي والله من اختلاق أعداء الإسلام وخصومه الذين تتقطع قلوبهم غيظًا وهم يرون راية الدعوة إلى الله ترفع في هذه البلاد لأن هؤلاء المحتسبين من الدعاة والعلماء يُقِضُّون مضاجعهم ويفسدون عليهم ملذاتهم وسكرهم وعربدتهم وفجورهم ودعوتهم إلى منكرهم ولهذا فإن كثيرًا من هؤلاء يلفق التهم والأكاذيب ليرميهم بها فيتلقفها خفاف الأحلام والسذج من الناس ويطيرون بها فرحًا يبلغون بها الأفاق

أقلوا عليهم لا أبًا لا أبيكم من اللوم ... أو سدوا المكان الذي سدوا

لكن لا ضير ولا ريب هذه هي سمة الدعوة إلى الله عز وجل أوذي ﷺ قيل عنه بأنه ساحر وقيل عنه بأنه كاهن وقيل عنه بأنه مجنون ورمي في عرضه ﷺ ورغم ذلك أتم الله

---

(١) **متفق عليه**: البخاري (٣) (٤٦٧٠) (٦٥٨١)، ومسلم (٤٢٢).

النور وأكمل الدين رغم أنف الكفار والمشركين والمنافقين خرجت هذه الفئة خرجت فئة المنافقين يوم عز الإسلام تدعي الإسلام وهي منه براء تريد ضرب الإسلام ودعاته فاتخذت النفاق طريقًا ويااله من طريق موحش مظلم مبتور إنه مرض عضال ومقت ووبال من تلبس به فقد أغضب الله الواحد القهار وأسكن نفسه الدرك الأسفل من النار.

لا إله إلا الله ماذا فعل المنافقون والمغرضون والحاقدون بالإسلام ودعاته في الماضي والآن لا إله إلا الله كم كادوا لرسول الأنام عليه الصلاة والسلام هم في كل عصر يعيشون يعشعشون ويبيضون ويفرخون همهم إطفاء كل نور يدعي له المسلمون تهاونوا بنظر الله تعالى وعملوا من المنكر أعمالًا في المنكرات والصد عن سبيل الله ينشطون وعن الصالحات والدعوة في سبيل الله يتباعدون ﴿ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ [البقرة: ١٠].

﴿ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [النساء: ١٤٢].

يستهزئون بأهل الاستقامة والصلاح ومن دعوتهم إلى الله يضحكون وإذا مروا بهم يتغامزون فالله يستهزئ بهم ويمدهم في طغيانهم يعمهون ما يريدون أن يتكلم داعية ما يريدون أن يأمر بمعروف ولا ينهى بناهية لا يريدون علمًا ولا دعوة ولا أن تقام ولو محاضرة لا إله إلا الله ما أخزى وأندل حالهم إن سألتهم عن آيات الله البينات ما عرفوا إلا المغنين والممثلين والراقصات أحيائهم وأمواتهم يدّعون الإيمان وما هم بمؤمنين هم في كل عصر هم في كل عصر يعيشون يرمون بالتهم يرمون بالأكاذيب دعاة الإسلام رموا نبي الله موسى قبل نبينا عليهم الصلاة والسلام بالزنا فبرأه الله مما قالوا وكان عند الله وجيهًا، ورموا رسول الله ﷺ في عرضه وهم أصحاب الإفك في عهد المصطفى ﷺ

وهم هم في كل زمان ومكان بهذا الدور يقومون وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها سيوجدون فقاتلهم الله أني يؤفكون لنقف قليلًا مع حديث الإفك لنأخذ منه الدروس والعبر إن في ذلك لذكرى لمن له قلب.

فاسمعوا لعائشة المبرئة من فوق سبع سماوات رضى الله عنها وأرضاها صاحبة المعاناة في حديث الإفك يوم تقول: رجع رسول الله ﷺ من غزوة بني المصطلق ولما دنونا من المدينة نزلنا منزلًا فبتنا فيه بعض الليل ثم أذن مؤذن رسول الله ﷺ بالرحيل قالت: فقمت فمشيت حتى جاوزت الجيش لأقضي حاجتي وفى عنقي عقد لي فلما قضيت شأني

انسَلَّ من عنقي ولا أدري ثم أقبلت إلى رحلي وتلمست صدري فلم أجد العقد وقد أخذ الناس في الرحيل.

قالت: فرجعت أتلمس عقدي فحبسني طلبه وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلون بي فاحتملوا هودجي فرحلوه على بعيري الذي كنت أركب عليه وهم يحسبون أني فيه وكان النساء إذ ذاك خفافًا فلم يستنكروا خفة الهودج.

قالت: فوجدت عقدي بعد ما استمر الجيش، جئت منازلهم فإذا هي بلقع ليس بها داعٍ ولا مجيب جلست في مكاني متلففة بحجابي أسبح الله وأستغفر الله.

قالت: فأخذني النوم وإذا برجل من أهل بدر من الذين اطلع عليهم فقال: «**اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**» [1]، هو صفوان بن المعطل رضى الله عنه، هذا المجاهد الذي يقول عن نفسه بعد أن رمي بالفاحشة: والذي نفسي بيدي ما كشفت خمار أنثي لا تحل لي في جاهلية ولا إسلام.

أتى إلى مكان عائشة فرآها وعرف أنها زوج المصطفى ﷺ لأنه يعرفها قبل الحجاب، قالت عائشة: والذي نفسي بيده ما كلمني كلمة ولا سلم عليّ حتى السلام وإنما سمعته يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون زوج المصطفى ﷺ ، ثم أناخ بعيره فقمت وركبت بعيره فأخذ زمام البعير يمشي به ولا يلتفت ولا يتكلم، وإنما تقول عائشة: كنت أسمعه يسبح الله، وأتى بها في الظهيرة وهي على بعيره.

فأما الذين في قلوبهم إيمان فاطمأنوا إلى موعود الله وهم في كل زمان يطمئنون لذلك، وأما الذين في قلوبهم زغل وحقد وغش على الإسلام وعلى رسول الإسلام وعلى دعاة الإسلام فأخذوها فرصة لا تتعوض قام كبيرهم الذي علمهم الخبث - ابن أبي - قام بين المنافقين يقول لهم: لماذا تأخرت؟ لماذا أتت مع هذا الأجنبي؟ لما ركبت على بعيره لما تركها رسول الهدى ﷺ ، ورسول الله ﷺ لم يسمع بهذا الكلام هو واثق من زوجه أنها أطهر من حمام الحرم وأنقى من ماء الغمام قريشية من قرشيات:

حـــور حرائـــر مـــا هممـــن بـــريبة كظـــباء مكـــة صـــيدهن حـــرام

متحجـــبات في الخـــدور أوانـــس ويـــصدهن عـــن الخنـــى الإســـلام

---

(١)متفق عليه: البخاري (٢٨٤٥) (٢٩١٥)، ومسلم (٦٥٥٧).

انطلق الجيش إلى المدينة ولا زال المنافقون يشهرون ويلصقون هذه التهمة برسول الله ﷺ وبفراشه الطاهر، فلما وصل ﷺ إلى المدينة سمع الخبر وأتاه النبأ العظيم ضرب في صميم قلبه ضرب في قواعد دعوته ضرب في صميم رسالته الخالدة، أصيب في شرفه وفي بيته ومروءته فلما أتاه الخبر عن طريق رجل من المسلمين أتاه وقال: يا رسول الله إن المنافقين يقولون كذا وكذا، فدمعت عيناه ﷺ وقال: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف: ١٨].

تحمَّل ﷺ هذه اللطمة التي لم يصب بمثلها، ذهب إلى بيته وسلم على زوجه وهي مريضة في فراشها، بعد السفر أصابتها حمة ولم تدرِ أنها متهمة وأن المنافقين قد ألصقوا بها أعظم فرية، هي مريضة على الفراش سلم عليها ﷺ قالت: عائشة ولم أرى منه ذاك الحنان والعطف الذي كنت أراه منه كلما مرضت، قالت: فاستأذنته لأمرض في بيت أبي - في بيت خليفة الإسلام في بيت المجاهد الأول في بيت الرجل الأول بعد رسول الهدي ﷺ - فأذن لها ﷺ

قالت: فأخذني النساء إلى بيت أبي وإذا بأبيها يعلم بالنبأ وينزل عليه كالصاعقة ويأتيه الخبر فيصاب ويبكي ويقول: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾. ويأتي الخبر أمها فتصاب في قلبها وتنتشر الفرية في المدينة وتسري سريان النار في الهشيم، ويشارك كثير من الصحابة رسول الله في هذا المصاب فيحزنوا لحزنه ويتأثروا لتأثره

لأن أولى المـــوالى مـــن توالـــيه عـــند الـــسرور كمـــا ولاك في الحـــزن

إن الكـــرام إذا مـــا أيـــسروا ذكـــروا مـــن كـــان يـــألفهم في المـــوطن الخـــشن

قالت عائشة: ولم أعلم الخبر ولم أدرِ ما السر.

قالت: فلما شفيت من مرضي خرجت مع نساء في ضاحية من ضواحي المدينة وكان معنا امرأة اسمها أم مسطح، صالحة من الصالحات وولدها صالح من الصالحين من أهل بدر لكنه وقع في هذه الريبة ونشر الخبر وساعد في نشر التهمة كما يفعل بعض الناس الآن، فلما أصبحنا في الصحراء عثرت هذه المرأة الصالحة فقالت تعس مسطح - والعرب تدعو على عدوها بالتعاسة إذا أصيبت - قالت عائشة: فقلت لها: كيف تدعين على ابنك وهو من الصالحين من أهل بدر، قالت: إنك ما علمت ماذا قال وماذا فعل؟

قالت عائشة: وماذا قال؟ قالت: اتهمك هوَ وأمثاله في عرضك وقالوا: إنك ارتكبت

الفاحشة مع صفوان. لا إله إلا الله.

قالت عائشة: فسقطت على وجهي مغشيًا عليّ من البكاء، رفعها النساء إلى فراشها في بيت أبيها.

وأما رسول الله فبقي شهرًا كاملًا لا ينزل عليه الوحي يتلمس متى يسمع النداء العلوي ليشفي غليله في هذه المشكلة، ما عنده دلائل وما عنده براهين لا يعلم الغيب اضطربت عنده الأمور ﷺ ، يثق في زوجه لكنه بشر، دخل ﷺ يستشير بعض أقاربه استشار علي رضي الله عنه قاضي قضاة الدنيا وهو منه بمنزلة هارون من موسى فقال علي. يا رسول الله لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير وسلها تصدقك فوالله ما عهدناها كاذبة :

قد قيل ما قيل إن صدقًا وإن كذبًا   فما اعتذارك من قول إذا قيل

ذهب ﷺ بعده إلى أسامة إلى حبه وإلى ابن حبه إلى المولى الذي رفعه الإسلام فيعرض النبي ﷺ الأمر وعُمر أسامة أربعة عشر سنة، فيقول أسامة وهو يعرف من هي عائشة رضي الله عنها يقول: يا رسول الله أهلك أهلك، والله ما نعلم عنهم إلا خيرًا والله إنها صوامة قوامة بارة رشيدة، فاسأل جاريتها يا رسول الله.

فيذهب ﷺ إلى الجارية التي معها في البيت واسمها بريرة فتقول: والله يا رسول الله ما علمت عن عائشة إلا خيرًا، أحمي سمعي وبصري إنها صوامة قوامة والذي بعثك بالحق ما رأيت عليها أمرًا أعيبه أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتي الداجن فتأكله - والداجن هي الشاة التي تربى في البيت - .

قام ﷺ على المنبر وشكى إلى الناس ما لقيه من المنافقين في عرضه، ما لقيه من اتهامات جريئة في دعوته شكى من عبد الله بن أبي رأس الضلالة وعمود الجهالة ومريد التدمير لهذا الدين، فكان مما قاله ﷺ : «**ما بال رجال يؤذونني في أهلي ويقولون عليهم غير الحق والله ما علمت منهم إلا خيرًا**»[1]

فقام الأوس والخزرج فكادوا يقتتلون على اختلاف بينهم في المسجد دفاعًا عن الرسول الله ﷺ ، هدّأ ﷺ الأوضاع وعاد إلى عائشة في بيت أبيها ليجلس معها مجلس

---

(١) **صحيح**: أخرجه أبو نعيم في «معرفة الصحابة» (٩٣٩)، والألباني في «فقه السيرة» (١ / ٢٩٢).

التحقيق والمحاكمة، إما أن تعترف وتتوب إلى الله وإما أن تتبرأ من هذا وإما أن يعلن الله توبتها من فوق سبع سماوات.

جلس ﷺ قالت عائشة: وما جلس بعدها إلا ذاك المجلس، وجاء الفرج من مفرج الكروب ومنفث الهموم، قالت: ومعي أبي وأمي ونساء يبكين معي يشاركنني مصيبتي:

فلابــد مــن شــكوى إلى ذي قــرابة   يواســيك أو يــسليك أو يــتوجعوا

قالت: فجلس ﷺ ثم شهد أن لا إله إلا الله ثم حمد الله الذي بنوره تقوم السماوات والأرض ثم قال: «**يا عائشة إن كنت بريئة فسيبرئك الله وإن كنت ألمتي بذنب فاستغفري الله وتوبي إليه فإن العبد إذا أعترف ثم تاب تاب الله عليه**».

تلعثمت من البكاء لا تستطيع الكلام تقول لأبيها: أجب عني رسول الله فيما قال، فيبكي أبو بكر ويقول: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ ، وماذا يقول أبو بكر في اتهام كهذا؟ ماذا يقول في فرية المغرضين من أعداء الإسلام؟

قالت: فقلت لأمي: أجيبي عني رسول الله، فتبكي أمها وتقول: والله ما أدري ما أقول لرسول الله ﷺ ؟

قالت: فاستجمعت قواي وجف الدمع من عيني وقلت: إني والله قد علمت، لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر في نفوسكم وصدقتم به، فلئن قلت لكم: إني بريئة لا تصدقوني، ولئن اعترفت لكم بأمر لم أعمله لتصدقنني، فوالله لا أجد لي ولكم مثلًا إلا أبا يوسف حين قال: ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ [يوسف: ١٨].

قالت: فاندفع أبي وأمي باكيين، أما رسول الله فلم يتحرك مهمومًا به من الهم ما به.

قالت: فوالله ما غادر مكانه ﷺ حتى أتاه الوحي، وكان إذا أتاه الوحي من السماء ثقل جسمه فاضطجع على فراشه وأخذ عرقه يتصبب من جبينه الطاهر، فعرفنا أنه الوحي.

قالت: فوالله ما فزعت، أما أبي فكادت نفسه أن تخرج خوفًا أن يأتي من الله تحقيق ما قال الناس، تحدر العرق بعد ما استفاق ﷺ كالجمان من على وجه فجعل يمسح العرق وهو يبتسم ويقول: «**يا عائشة ابشري إن الله قد برأك من فوق سبع سماوات**»، براءة من الله ولطف من الله ورحمة من الله يوم أن توصد الأبواب فلا يوجد إلا باب الله يوم أن تسدل الحجب فلا يأتي إلا عطف الله وحنان الله:

فلــرب نازلــة يــضيق بهــا الفــتي ذرعــا وعــند الله مــنها المخــرج
ضــاقت فلمــا اســتحكمت حلقاتهــا فــرجت وكــنت أظــنها لا تفــرج

تهلل وجهها رضى الله عنها قال لها أبوها أبو بكر رضي الله عنه: يا عائشة قومي إلى رسول الله ﷺ فسلمي عليه واحمديه، قالت: لا والله لا أقوم ولا أحمده ولا أحمدك ولا أحمد أمي، وإنما أحمد الذي أنزل براءتي من فوق سبع سماوات، لقد سمعتموه فما أنكرتموه ولا غيرتموه.

يدخل ﷺ بعدها المسجد منتصرًا على أعداء الرسالة الذين ألصقوا به التهمة في عرضه وشرفه، يجمع الناس ويقف على المنبر يتلو آيات الله البينات تنزل من على المنبر كأنها القذائف، يسمعها المؤمن والمنافق والذكر والأنثى وتقرؤها الأُمَّة إلى قيام الساعة لأن التهمة كانت فيه ﷺ وقبله وهي متصلة إلى قيام الساعة، والواقع يشهد بذلك اسمعوا إلى الآيات التي نزلت قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴾ . إلى أن قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ ﴾ [النور: ١١- ١٥] (١)

بل تتجدد يومًا بعد يوم في صور ومخططات رهيبة مفزعة لكن العاقبة مع ذلك للمتقين والإسلام منتصر في كل مكان ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ [الرعد: ١٧]، ألا فليخسأ الذين يريدون هدم هذا الدين من الذين يلصقون التهم بدعاته وعلمائه العاملين. وإن نجحوا فالنجاح مؤقت والعاقبة للمتقين.

نسأل الذي بيده مقاليد الأمور أن يفضح من أراد علماء الإسلام من اليهود والمنافقين وأذنابهم على رءوس الأشهاد.

اللهم افضحهم على رءوس الأشهاد اللهم افضحهم على رءوس الأشهاد.

---

(١) متفق عليه: البخاري (٢٥١٨) (٣٩١٠) (٤٤٧٣)، ومسلم (٧١٩٦).

اللهم أرنا فيهم عجائب قدرتك، اللهم أرنا فيهم عجائب قدرتك. اللهم عليك بهم فإنهم لا يعجزونك.

اللهم أرنا فيهم يومًا أسودًا تقر به أعين الموحدين الآمرين والناهين، اللهم احفظ علماء الأمة بحفظك اللهم احفظ علماء الأمة بحفظك.

اللهم احفظ علماء الأمة بحفظك واكلأهم برعايتك وسدد رميهم واجعل كلماتهم فوارق على كل من أراد بهم الخذلان وافضح أعداءهم على رءوس الأشهاد.

اللهم واهدنا إلى الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم أقول ما تسمعون واستغفر الله فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه.

أما بعد...

قال الله عز وجل: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾ [البقرة: ٢١٤].

عباد الله...

في حادثة الإفك دروس وعبر أيما عبر، ذاك ﴿ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ [ق: ٣٧].

من هذه الدروس: أن طريق الدعوة والجهاد طريق محفوف بالمكارة كله عراقيل كله عقبات، وقد لاقي الدعاة في سبيل الله في هذا الطريق مكارة عظيمة فما صدتهم وما رضتهم عن دعوتهم، ها هو ﷺ يخرج من مكة من بين الأهل والجيران والأخوة والخلان حصيرا حزينًا كئيبًا طريدا في تلك الفيافي والقفار ما معه من مظلة إلا لا إله إلا الله، يصعد إلى أهل الطائف لأنه ما وجد هناك بيئة تتقبل لا إله إلا الله فيذهب إليهم فيسخروا به ويستهزئوا به فهذا هو طريق الدعوة.

وهذا هو المصطفي ﷺ لقي ما لقي من أذى في سبيل الدعوة إلى الله فطريق الدعوة هذا هو، وإلى عهد قريب ليس في ذاك العهد وإنما إلى عهد قريب نرى سليمان بن عبد الله ابن محمد بن عبد الله بن عبد الوهاب حفيد إمام الدعوة - رحمة الله - يصدح بدعوة الحق فيجعله أعداء الإسلام في فوهة المدفع، ثم يطلقون به المدفع لتتطاير أشلاءه لتقول لكل

الدعاة: قدموا أنفسكم في سبيل الدعوة إلى الله فما نقموا منه إلا أن آمن بالله العزيز الحميد.

طريق الدعوة إلى الإسلام طريق تضحيات ومن يفزع من هذا الطريق فليس بداعية حق الدعوة.إن الحافظ الله إن الولي هو الله إن المسدد هو الله ها هو موسى ذلك الغلام الذي رآه فرعون في منامه ورأى هلاك ملكه على يديه قتل من قتل من أولاد بني إسرائيل ويربى هذا الطفل في بيت فرعون ويترعرع أمام عينيه لأن الله عز وجل حفظه ومن حفظه الله فلا خوف عليه وهذا والله درس عظيم للدعاة إلى الله إذ مهما علا الباطل وزمجر وارتفع هديره فإن الله سيجعله زبدًا، ويبقى ما ينفع الناس، لا خوف فالله ناصر دينه شاء من شاء وأبى من أبى، أما كيد البشر فكيد ضعيف مهما عظم ووالله لا تستطيع أي قوة في الأرض أن تصل إلى قلب مؤمن صادق في إيمانه ويقينه ما أجمل وأصدق ما قاله أحد الدعاة حين أوذي في ذات الله

تالله ما الدعوات تهزم بالأذى	**أبدًا وفي التاريخ بر يميني**
ضع في يدي القيد ألهب اذرعي	**بالسوط ضع عنقي على السكين**
لن تستطيع حصار فكري ساعة	**أو رد إيماني وصد يقيني**
فالنور في قلبي وقلبي في يد ربي	**وربي حافظي ومعيني**

لا حافظ إلا الله ولا معين إلا الله فنسأله أن يحفظ الدعاة إلى الله عز وجل ومن دروس هذه الحادثة أن المنتمين لهذا الدين بإخلاص وصدق معرضون للاتهام ولإشاعة الشائعات وإلصاق التهم بهم سمعتم كيف أتهم ﷺ في عرضه المفعول لكل من ترسم خطاه ومضى على منهجه ﷺ تجد كل تهمة تلصق بأهل هذا الدين بعلماء هذا الدين بدعاة هذا الدين تشاع عنهم الشائعات تلصق بهم التهم تلصق بعلماء الأمة شبابها الملتزم وبكل صالح في الأمة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ﴿ أَتَوَاصَوْا بِهِۦ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴾ [الذاريات: ٥٣].

وصف الدعاة بالرجعية والتأخر وصفوا بعدم مسايرة العصر وصفوا بالسذاجة والبساطة لكن هذه الألفاظ لن تجدي فبدءوا الآن برمي الدعاة بالشذوذ الخلقي لتحطيم وتضليل قدوة الأمة في نظر أبنائها وهذه كلمات وهذه أفعال والله ما جاءتنا إلا من اليهودية الحاقدة صدرتها لنا إلى بلاد الإسلام فأخذها الذين أخذ الله سمعهم وأبصارهم وختم على قلوبهم زادوا عليها وزعوها في مجالس الناس صار الصالحون في أوساط الناس

مصدر شبهة وأهل ريبة وبالتالي سيفقد علماء الإسلام ثقة الناس فيهم فيضل الناس عند ذاك يعمنا الله بعقاب من عنده وذاك مطلبهم ﴿ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [المنافقون: ٤].

يأتي كل من في قلبه زغل ونفاق يتشفى بالصالحين وبالدعاة المخلصين ويقول: الشاذون، كانوا يقولون: المتشددين والآن أصبحوا يقولون: الشاذين، ونسأل أصحاب هذه الكلمات ما الشذوذ في نظرهم؟ هل هو التمسك بحبل الله يوم أن انقطعت حبال الذين من دونه؟

هل الشذوذ هو الحرص على تطبيق السنة بالمسلك والآداب والتعامل يوم ضاعت تعاليم السنة بأشخاص كثير من الناس؟

هل الشذوذ في إحياء القلوب بكتاب الله وسنة محمد ﷺ يوم أن أصبحت مجالس الناس لنشر الشائعات وللسذاجة واللهو واللعب؟

هل الشذوذ أن يتروض الشباب في بساتين آيات الله يوم تروض غيره في مذابل الأغاني وفي مذابل البغايا والعاهرات؟

هل الشذوذ أن تدرس كتب السلف الصالح يوم شغل الكثير عن المصحف بالمجلة الخليعة وعن المسجد بالمقهى وعن السواك بالسيجارة وعن زيارة بيت الله الحرام بزيارة بلاد الكفار كبانكوك وما أمثالها، ما أدراكم ما تلك البلاد لا إله إلا الله. سبحانك هذا بهتان عظيم.

الشذوذ والانحراف في البعد عن منهج الله في الانسلاخ عن القيم والآداب في الانسلاخ عن الإسلام والقيم والآداب والأخلاق.

الشذوذ والانحراف في البعد عن كتاب الله الذي أنزله الله عز وجل وما خرجت والله مثل هذه التهم إلا يوم أن ابتعدنا عن الإسلام يوم أن تركنا الأمر والنهي أصبح البعض يمشي خجلًا أنه مطبق للسنة فتجرأ الرعديد وتجرأ الملحد وتجرأ المنافق ليطلق الشائعات وعن من عن أنصار الدين وعلمائه عن حاملين راية محمد ﷺ ولكن نقول:

إذا عير الطائي بالبخل مادر ... وعير قسا بالفهامة باقل

وقال السهى للشمس أنت كثيفة ... وقال الدجى للبدر وجهك حائل

فيا موت زر أن الحياة دميمة ... ويا نفس جدي إن دهرك هازل

ومن هذه الحادثة نستفيد أن دعاة الإسلام مستهدفون وعلى رأسهم قائدهم محمد ﷺ أشيعت عنه الشائعات وإشاعة الشائعات أمر عظيم ومرض خطير ومرض خطير أيها المسلمون، لكنها كثيرة وموجودة كثير من الناس ما يسمع كلمة صدقًا كانت أو كذبًا إلا وأخبر بها فرية كانت أو حقيقة تمس مسلمًا تمس أخًا أم غير أخ ما كأنه سمع قول المصطفى ﷺ ما كأنه تربى به المصطفي ﷺ، «**كفى بالمرء كذبًا أن يحدث بكل ما سمع**»[(١)]، «**كفى بالمرء إثمًا أن يحدث بكل ما سمع**»[(٢)]

رب كلمة توجب لصاحبها النار «**إن الرجل ليتكلم بالكلمة ما يتبين ما فيها يهوي بها في النار سبعين خريفًا**»[(٣)]

﴿ **إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾** ﴾ [النور: ١٥].

﴿ **يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ﴿٦﴾** ﴾ [الحجرات: ٦].

ومن الدروس **أيضًا**: أن قذف المحصنات المؤمنات الغافلات كبيرة من الكبائر وموبقة من الموبقات استوجب صاحبها اللعنة من رب الأرض والسماوات وكذلك قذف المؤمنين، ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ٱلْغَـٰفِلَـٰتِ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ لُعِنُوا۟ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾** ﴾ [النور: ٢٣، ٢٤].

ومن دروس حادثة الإفك: ألا تشاع الفواحش فلا يتحدث بالجرائم التي تحدث في المجتمع في المجالس حتى ولو حدثت، لأن التحدث بها يقلل من خطرها في قلوب الناس أوما سمعتم قول الله: ﴿ **إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَـٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾** ﴾ [النور: ١٩]

ومن الدروس: ألا يقف المسلم في مواقف الريبة ولا في مواقف التهمة حتى ولو كان أطهر من ماء الغمام إن النفوس يشرع إليها الشك والقلوب تنتابها الأوهام وها هو ﷺ

---

(١) صحيح: مسلم (٧) (٩) (١١).

(٢) صحيح: أخرجه أبو داود (٤٩٩٢)، والألباني في «الصحيحة» (٢٠٢٥).

(٣) صحيح: أخرجه ابن ماجه (٣٩٧٠)، والترمذي (٢٣١٤)، وأحمد (٧٢١٤)، والألباني في «صحيح الجامع» (١٦١٨).

يصلي العشاء في مسجده وتأتيه صفية زوجه تعوده وهو معتكف فلما قام يودعها مر به أنصاريان فقال لهما: «**على رسلكما**[١] **هذه صفية بنت حيي**» [٢]، يخبرهم ﷺ لئلا يجري الشيطان في دمائهم فيظنوا به سوءا،فدع مواطن الشبهة والريبة .

يا عبد الله فذلك أصلح وأسلم وأتقى وأنقى.

ومن الدروس: أن المؤمن مبتلى وأشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل أوذي صحابة رسول الله أذى عظيمًا فصبروا واحتسبوا وأوذي من قبلهم فصبروا «**كان يؤتى بالرجل فيوضع المنشار على مفرق رأسه فيشق تصفين ثم يمشط بأمشاط الحديد بين جلده وعظمه ما يصرفه ذلك عن دينه**» [٣]

﴿ الٓمٓ ۝ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝ ﴾ [العنكبوت: ١- ٣].

عباد الله...

علماؤنا زهرة الدنيا ونور الدنيا وهم حاملو ميراث الأنبياء والداعون إلى صراط الله العزيز الحميد، عرف أعداء الإسلام ذلك فألصقوا به التهم ونشروا عنهم الشائعات وبعض السذج وخفاف الأحلام عن قصد وغير قصد يروج لهذه الشائعات لا إله إلا الله والله ما يريدون بتشويه العلماء سوى ضرب ميراث الأنبياء يريدون إطفاء نور الله، فلتكن على وعي وإدراك.

أخي المسلم...

المسلم كيس فطن المسلم لا يغتر المسلم بنور الله يمشي المسلم لا تنطلي عليه الشائعات. المسلم يفرق بين السم والدسم.

اللهم انصر دينك وكتابك. اللهم انصر دينك وكتابك وسنة نبيك. اللهم انصر علماء أمة محمد ﷺ والصالحين من عبادك وأوليائك. اللهم انصر علماء أمة محمد. اللهم انصر الدين ومن نصر الدين.

اللهم انصر من نصر الدين. اللهم انصر الدين ومن نصر الدين.

---

(١) **على رسلكما:** اتئدا ولا تتعجلا.

(٢) **متفق عليه:** البخاري (١٩٣٠)، (٢٩٣٤)، (٣١٠٧)، ومسلم (٥٨٠٨).

(٣) **صحيح:** البخاري (٣٤١٦) (٦٥٤٤).

اللهم أخذل من خذل الدين. اللهم أخذل من خذل الدين. اللهم أخذل من خذل الدين.

اللهم من أرادنا والإسلام بسوء فاشغله بنفسه وأجعل تدبيره تدميره وأخذله ومزقه كل ممزق يا أكرم الأكرمين.

اللهم اكشف أستاره. اللهم افضح أسراره. اللهم اكشف أستاره. اللهم افضح أسراره. اللهم أخرس لسانه. اللهم أذهب عقله. اللهم دمر جنانه. اللهم أرنا فيه عجائب قدرتك يا أكرم الأكرمين.

اللهم انتقم لأوليائك. اللهم انتقم لعلماء المسلمين. اللهم انتقم لأحبابك ودعاتك وصالح عبادك.

اللهم ثبتنا على الحق. اللهم من نصر الدين فمكنه في الأرض واجعله هاديًا مهديًا.

اللهم من خذل الدين فأرنا فيه يومًا أسودًا كيوم فرعون وهامان وهارون نسألك يا ربي أن تحفظنا نسألك يا ربى أن تحمينا نسألك يا رب أن تهدينا سواء السبيل نسألك أن تمنعنا من كل ما يدبر للمسلمين من كيد وسوء.

اللهم لا تدابير لدينا إلا تدبيرك ولا حيل لدينا ولكن حسبنا الله ونعم الوكيل حسبنا الله ونعم الوكيل.

اللهم بعلمك الغيب وبقدرتك على الخلق أحينا ما كانت الحياة خيرًا لنا وتوفنا إذا كانت الحياة شرا لنا.

اللهم نسألك خشيتك في الغيب والشهادة وكلمة الحق في الغضب والرضا ونسألك لذة النظر إلى وجهك بغير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة.

اللهم من أراد بعلمائنا سوءًا فعليك به.

اللهم أهلكهم بددًا أحصهم عددًا ولا تغادر منهم أحدًا.

اللهم أمنا في دورنا وأفرح أمتنا وولاة أمورنا واجعلنا من الذين نخافك ونتبع هداك وبرحمتك يا أرحم الراحمين سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.



[١٩] الحقيقة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شئ قدير.

وأشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

أما بعد...

عبد الله...

عقلك عقلكَ، وسمعك وقلبك، أعرنيها وأرعنيها لحظات قد تطول راجيا أن يتسع صدرك احتسابا لما أقول، ثم حلق معي بخيالكَ متخيلا ما هو واقعُ، ومتصورا ما هو حقيقةٌ على الحقيقةِ.

تخيل وليدًا عمرُه شهرٌ واحد، قضى اللهُ أن لا يعيشَ سوى هذا الشهرَ فقبضَهُ ديانُ يومُ الدين، وقبرَ مع المقبورين، وبينما هم في قبورِهم:

إذ نفخَ في الصور، وبُعثرَتِ القبور، وخرج المقبور، وكان في من خرجَ ذلكم الصبيُ ذو الشهرِ الواحد، حافيًا عاريا أبهمَ، نظر فإذا الناسُ حفاةٌ عراةٌ رجالًا والنساء كالفراشِ المبثوث.

الجبالُ كالعهنِ المنفوش، السماءُ انفطرت ومارت وانشقت وفتحت وكشطت وطويت.

والجبالُ سيرت ونسفت ودكت، والأرضُ زلزلة ومدت وألقت ما فيها وتخلت.

العشار عطلت، الوحوشُ حشرت، البحارُ فجرت وسجرت.

الأمم على الرُكبِ جثت وإلى كتابها دُعيت، الكواكبُ انتثرت، النجومُ انكدرت.

الشمسُ كورت ومن رءوسِ الخلائقِ أدنيت.

الأممُ ازدحمت وتدافعت، الأقدامُ اختلفت، الأجوافُ احترقت، الأعناقُ من العطشِ وحر الشمسِ ووهجِ أنفاسِ الخلائقِ انقطعت، فاض العرق فبلغ الحقوين والكعبين وشحمة الأذنين.

والناسُ بين مستظلٍ بظلِ العرش، ومصهورٍ في حر الشمسِ.

الصحفُ نشرت، والموازينُ نصبت، والكتبُ تطايرت، صحيفةُ كلٍ في يده مُخبرةٌ بعمله، لا تغادرُ بليةً كتمها، ولا مخبأة أسرها.

اللسان كليلُ والقلبُ حسيرُ كسير، الجوارحُ اضطربت، الألوانُ تغيرت لما رأت، الفرائصُ ارتعدت، القلوبُ بالنداءِ قُرعت، والموءودةُ سألت، والجحيمُ سعرت، والجنةُ أزلفت.

عظمَ الأمر، وأشتدَ الهول، والمُرضعةُ عما أرضعت ذُهلت، وكلُ ذاتِ حملٍ حملها أوقعت.

زاغتِ الأبصارُ وشخصت، والقلوبُ الحناجرَ بلغت، وانقطعت علائقُ الأنسابِ.

وتراكمت سحائبُ الأهوالِ، وأنعجم البليغُ بالمقالِ وعنتِ الوجوهُ للقيوم.

واقتُصَ من ذي الظلمِ للمظلومِ وساوتَ الملوكُ للأجنادِ، وأُحضرَ الكتابُ والأشهادِ.

وشهدَ الأعضاءُ والجوارح، وبدت السوءاتُ والفضائح، وابتليت هنالك السرائرُ، وانكشفَ المخفيُ في الضمائر.

هنا، تخيل ذلك الوليدُ صاحب الشهرِ الواحد، ما اقترفَ ذنبًا وما ارتكبَ جُرما والأهوالُ محدقةٌ به من بين يديه، ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله، تخيلهُ مذعورًا قلبُه، اشتعل رأسُه شيبا في الحال لهولِ ما يرى، فيا لله لذلك الموقف.

يـــوم عـــبوس قنطريـــر شـــره وتـــشيب مـــنه مفـــارق الـــولدان

هـــذا بـــلا ذنـــبُ يخـــاف مـــصيره كـــيف المـــصرُ علـــى الذنـــوبِ دهـــورُ

قال اللهُ عز وجل: ﴿ فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ ٱلْوِلْدَٰنَ شِيبًا ﴿١٧﴾ ﴾ [المزمل: ١٧].

عباد الله...

في خضم هذه الأهوالِ التي تبيضُ منها مفارقُ الولدانِ، ما النجاة وما المخرج؟

إن النجاةَ والمخرجَ في أمرٍ لا غير، لا يصلحُ قلبٌ، ولا تستقيمُ نفسٌ ولا تسعدُ إلا به،

خوطبَ به الخلقُ أجمعين، خصَ به المؤمنون، أُوصيَ به الأنبياءُ والمرسلون، وخاتَمهم سيدُ ولد أدم أجمعين عليه وعليهم صلوات وسلام رب العالمين. أي أمرٍ هذا أيها المؤمنون؟

إنه وصية الله للأولين والأخرين: ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ [النساء: ١٣١].

تقوى الله وكفى، قال جل وعلا: ﴿ وَيُنَجِّى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ بِمَفَازَتِهِمْ لَا يَمَسُّهُمُ ٱلسُّوٓءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝ ﴾ [الزمر: ٦١].

ويقول: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ۝ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّـٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ۝ ﴾ [مريم: ٧١، ٧٢].

أيُّ تقوىً تُنجي بين يدي الله؟

أهي كلمةٌ تنتقى وتدبج في مقال؟

أم هي شعارٌ يرفعُ بلا رصيدٍ من واقع؟

كلا ما كلُ متنسبٍ للقولِ قوالُ:

ولــو أن أســباب العفــاف بــلا تقــى نفعـــت لقـــد نفعـــت إذا إبلـــيسُ

فهو القائل: ﴿ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّنكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾ [الحشر: ١٦].

لا ينجي والله في تلك الأهوالِ إلا حقيقةٌ التقوى، لبُها كنهها ماهيتها مضمونُها.

فما حقيقةُ تلكَ الكلمة يا عباد الله؟

إنها هيمنةُ استشعارِ رقابةِ الله على حياتِك أيها الفرد حتى كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك وتلك أعلى مراتب الإيمان وهي مرتبة الإحسان.

وتلـــك أعلاهـــا لـــدى الـــرحمن

وهـــي رســوخ القلــب في العــرفان

حتـــى يكـــون الغـــيب كالعـــيان

بل هي هيمنةُ الدينِ على الحياة كلها عقيدةً وشريعة، عبادةً ومعاملةً، خُلقا ونظامًا، رابطةً وأخوة.

هيمنَةً كما أرادها الله تجعلُ الحياةَ خاضعة في عقيدة المسلم وتصوره لله، لا يند منها

شاردة ولا واردة ولا شاذة ولا فاذة.

هيمنةٌ تُسلم النفسَ كلَها لله، حتى تكونا أفكارَ ومشاعرَ وأحاسيسَ وسلوكًا، محكومةً بوحي الله فلا تخضع لغير سلطانه، ولا تحكم بغير قرآنه، ولا تتبعُ غير رسولِه، لا يحركُها إلا دينُ الله، تأتمرُ بأمر الله وتنتهي عن نهيه، متجردةً من ذاتها متعلقةً بربها وحالُ صاحبِها:

خضعت نفسي للباري فسدوا الكائنات أنا عبدُ الله لا عبدُ الهوى والشهوات

فهِم هذا أصحابُ رسولُ الله ﷺ، فصاغوه واقعًا حيًا نابضا، انفعلت بهِ نفوسُهم فترجموه في واقعِ سلوكُهم، صِرتَ ترى شرع الله يدبُ على الأرضِ في صورةِ أناسٍ يأكلون الطعام ويمشونَ في الأسواق.

إذا ما دعو للهدى هرولوا وإن تدعهم للهوى قرفصوا

روى الإمام البخاري عن أنس رضي الله عنه أنه قال: «كنتُ ساقي القوم في بيتِ أبي طلحة - يعني الخمر - وإني لقائمُ أسقي فلانًا وفلانًا وفلانا، إذ جاء رجلُ فقال هل بلغكم الخبر، قالوا وما ذاك؟

قال: لقد حُرمتِ الخمر، وقد أمر رسولُ الله ﷺ مناديا ينادي: «**ألا إن الخمرَ قد حُرمت**»، فقالوا: أهرق هذه القلال[1] يا أنس.

فما سألوا عنها، ولا راجعوها بعد خبرِ الرجل[2]، وما دخلَ داخلٌ ولا خرجَ خارج حتى اهراقوا الشراب وكسرتِ القلال، ثم توضئ بعضهم واغتسل بعضهم ثم أصابوا من طيب أم سليم ثم خرجوا إلى المسجدِ يخوضونَ في الخمر قد جرت بها سكِك المدينة، فقد تواطئتُ المدينة كلُها على تحريمه.

فلما قرأت عليهم الآية: ﴿ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ [المائدة: ٩١] ؟

بعض القوم كانت شربته في يده فلم يرفعها لفيه بل أراق ما في كأسه وصب ما في باقيته وقال: انتهينا ربنُا انتهينا.

لم يقولوا: تعودنا عليه منذ سنين وورثناها عن آبائنا كما يفعل بعض مسلمي زماننا.

---

(١) **القلال**: جمع قلة وهي الجرة التي يقلها - أي يحملها - القوي من الرجال.

(٢) **متفق عليه**: البخاري (٤٣٤١)، ومسلم (٥٢٤٧).

ما تكونت عصابات لتهريب المخدرات لأن الدين هيمن على حياتهم فاستشعروا رقابةَ ربِهم فبادروا في يسرٍ إلى تنفيذه امتثالًا لأمر الله وأمر رسوله ﷺ

إن النبيَ ﷺ ، يأمر أهلَ المدينة أن لا يكلموا كعبًا حين تخلف عن تبوك.

فإذا الأفواه ملجمةٌ لا تنبسُ ببنت شفةٍ، وإذا الثغور لا تفترُ حتى عن بسمة.

بل إن أبن عمه وحميَمه وصديقَه أبا قتادة، نعم لما آتاه ليسلمَ عليه كعب ما رد عليه السلام، فاستعبرت عينا كعبٍ رضي الله عنه ورجع كسير البال كاسف الحال.

فأمرُ رسولُ الله ﷺ عند هؤلاء القوم فوق كل خُلة.

ثم انظر إليهم لما نزلت توبةُ الله على هذا الرجل، على كعبٍ رضي الله عنه وأرضاه.

تتحركُ المدينةِ وتنتفضُ عن بكَرةِ أبيها إلى كعب فإذا الأفواه تلهج له بالتهنئةِ وقد كانت ملجمة، وإذا الثغور تفتروا عن بسمات مضيئة صادقة وقد كانت عابسة[1]

نفوس لا يحركها إلا دينُ الله حالها:

ما بعت نفسي إلا لله عز وجلَ ... فمن تولى سواه يوله ما تولىَ

إنهم لم يقفوا عند امتثال أمره واجتناب نهيه بل تابعوا أفعال المصطفى ﷺ ولاحظوا تصرفاته بكل دقة وشوق وحرص على الإقتداء حتى إذا ما فعل شيئا سارعوا إلى فعله مباشرة لأنهم يعلمون أن سنته سفينة نوح من ركبها نجى ومن تخلف عنها هلك.

ثبت عند أبي داود في سننه عن سعيد الخدري قال: «بينما رسول الله ﷺ يصلي بأصحابه إذ خلع نعليه فألقاهما عن يساره. فلما رأى ذلك أصحابه رضوان الله عليهم القوا نعالهم.

فلما قضى ﷺ صلاته قال: «**ما حملكم على إلقاء نعالكم؟**».

قالوا: «رأيناك ألقيت نعليك فألقينا نعالنا» [2]

توحيد في الاتباع:

فمن قلد الآراء ضل عن الهدى ... ومن قلد المعصوم في الدين يهتدي

---

(١) **متفق عليه:** البخاري (٤١٥٦) (٧١٩٢) بنحوه.

(٢) **صحيح** : أخرجه أحمد (١١١٦٩)، وأبو داود (٦٥٠)، والألباني في «الإرواء» (٢٨٤).

بل كان الناس إذا نزلوا منزلا مع رسول الله ﷺ في أسفاره تفرقوا في الشعاب والأودية فقال لهم ﷺ: **«إن تفرقكم في هذه الشعاب والأودية إنما ذلكم من الشيطان»** [(١)]

فما نزلوا بعد ذلك منزلا إلا انضم بعضهم إلى بعض حتى لو وضع عليهم بساط لعمهم.

تنفيذ في يسر وطاعة وامتثال، وكذلك الإيمان إذا خالطت بشاشته القلوب.

هـم ذلـك الـسلف الـذين لـسانهم   تــنحط عــنه جمــيع الـسنة الــورى

تلـك العـصابة مــن يحـد عــن سـبيلها   حقــا يقـــال لمـــثله أطــرف كـــرى

مما سمعتم أيها المؤمنون يتجلى لنا مظهرُ أفرادِ المجتمعِ المسلم في ظلِ إدراكهمُ الصحيحُ لمفهوم الإسلام، فليستِ المسألةُ عندَهم فرائضَ يفرِضها هذا الدين على الناس بلا موجبٍ إلا رغبةُ التحكمِ في العباد.

بل هيَ مسألة وجودِ الإنسانِ إذا رغبَ أن يكون إنسانٍ حقا، لا مجردَ كائنٍ يأكلُ الطعامَ ويشربَ الشرابَ، ويقضي أيامَه على الأرضِ كيفما أتفق، بل هيَ وضعُ للإنسانِ في وضعه الصحيح كإنسان يستشعر رقابة المولى وتلك هي حقيقةُ التقوى.

عباد الله...

هل استشعرَ رقابةَ الله؟

واتقى اللهَ حقيقةً من يشهدُ أن لا إله إلا الله، ويصبح دائبا مجدًا مجتهدًا في مطعمِ حرام وملبس حرام وغذاءِ حرام؟ يصبحُ وقد ضربَ هذا وشتمَ هذا وأكلَ مالَ هذا وسفَك دم هذا ووقعَ في عرضِ ذاكَ وذا.

صـــــــغر ذا بأراجــــــــيفه   ويـــــــرجو بــــــذلك أن يكـــــــبرا

ولـــــو عــــاش في عــــالم أمـــــثل   لكــــان مـــــن الحـــتم أن يـــصغرا

هل استشعرَ رقابةَ الله؟

من يجلبُ النار ليحرقَ بيتَه وأهله، من يُخربَ بيتَه بيده بوسائلَ لا تزال تُمطره بوابلٍ أو

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٢٦٢٨٩، وأحمد (١٧٧٧١)، والألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣١٢٧).

طل من أغاني وأفلامٍ ماجنة وقصص سافلة، وترويض للنفوسِ على الكذبِ والنفاقِ وقلب الحقائق؟ قائمًا على هدمِ بيتهِ كالدودة التي تخرج من الميت ثم لا تأكل إلا ذلك الميت؟

ألم يستشعرَ أنه لو ماتَ على حالته تلك مات غاشًا لرعيته خائنا لأمانته.

حاملًا وزرَه ووزرَ ما جلبه لبيته على ظهره يوم القيامة بقدرِ ما أفسدت هذه الوسائلُ في نفوس أبنائه وأهله من غير أن ينقص من أوزارهم شيئا.

والله لا يعفيك من حساب الله ولا من لوم الناس ولا تأنيبَ الضمير أن تقول أنا ضحية، وما البديل وما البدل وما المبدل منه؟

وبيتك حقل لاستقبال الأفكارِ والاوضار والأقذارِ تنبتُ فيه وتترعرع، وأنت تسأل ماذا افعل؟

لا يفل الحديد إلا الحديد، والباب الذي يأتيك منه القبيح لا حيلة فيه إلا بسده لتستريح.

ألا إن الشراب له إناء ... فإن دنسته دنس الشراب
أما في هذه الدنيا آمور ... سوى الشهوات تحرزها الطلاب
أما في هذه الدنيا أُسود ... كما في هذه الدنيا كلاب؟

هل استشعرَ رقابةَ الله؟

من يتعبدُ بأعمالٍ ليس عليها أمرُ رسولِ الله ﷺ، وحجته ازديادُ الخيرِ وحبُ رسولِ الله ﷺ، وكم من مريدٍ للخير لا يصيبه.

أي فتنةٍ أعظم من أن ترى أنك خصصت بفضلٍ لم يخصَ به رسول الله ﷺ وأصحابُه.

﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [النور: ٦٣].

هل استشعرَ رقابةَ الله؟

من ليلُه سهرٌ على ما حرم الله، ويصبحُ مجاهرًا بمعصيةٍ؟

من إذا وصل إلى بيئةٍ أجنبيةٍ لا يعرف أمن اليهودِ هو أم من النصارى والمجوس والذين أشركوا:

كلفـــــظ مــــا لــــــه معنـــــى كتمــــــثال مـــــن الجـــــبس

يـــــسير لغـــــير مــــا هـــــدف ويـــــصبح غـــــير مـــا يمـــسي

حقيقة الكلمة لجؤ إلى الله

وتعرفُ عليه في الشدةِ والرخاء لا على سواه عرافًا كانَ أو ساحرًا أو كاهنا أو مقبورا:

لا قبة ترجى ولا وثن ولا قبر... ولا نصب من الأنصاب...الله ينفعني ويدفع ما بي.

بالله ثق وله أنب وبه استعن. فإذا فعلت فأنت خير معان.

ها هوَ سيدُ المتقين صلوات الله وسلامهُ عليه في الشدةِ والرخاء، لا تراهُ إلا أوابًا منيبًا مخبتًا إلى ربه فبهداه يهتدي المقتدونَ.

ثبت عند ابن حبان في صحيحه: عن عطاءٍ رضي الله عنه قال: دخلتُ أنا وعبيدُ بنُ عميرٍ على عائشةَ رضي اللهُ عنها، فقال عبيد: حدثينا بأعجبِ شيء رأيتهِ من رسولِ الله ﷺ، فبكت وقالت: قام ليلةً من الليالي فقال: «**يا عائشةَ ذريني أتعبدُ لربي**».

قالت: فقلتُ: والله إني لأحبُ قربك، وأحبُ ما يسرُك. فقام وتطهرَ ثم قام يصلي فلم يزل يبكي حتى بل حجرَهُ، ثم لم يزل يبكي حتى بل الأرض من حولِه.

وجاء بلالُ رضي الله عنه يستأذنه لصلاة الفجر، فلما رآه يبكي بكى وقال: يا رسولَ الله بأبي أنت وأمي تبكي وقد غفرَ لك!!

قال: «**يا بلال أفلا أكون عبدًا شكورًا، آياتٍ أنزلت على الليلةَ ويلُ لمن قرأها ثم لم يتفكر فيها، ويلُ لمن قرأها ثم لم يتفكر فيها: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ۝ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾**» [آل عمران: ١٩٠، ١٩١] (١)

هذا في رخائه ﷺ.

يـــا نائمـــا مـــستغرقا في المـــنام قـــم واذكـــر الحـــي الـــذي لا يـــنام

وفي الشدةِ: تنقلُ لنا أمُ المؤمنين عائشة رضي الله عنه أيضا كما ثبت في البخاري أنها

(١) صحيح: أخرجه الطحاوي في «مشكل الآثار» (٤٠٠٩)، و ابن حبان في «صحيحه» (٦٢٠)، و الألباني في «الصحيحة» (٦٨).

قالت لرسولِ الله ﷺ : «هل أتى عليكَ يومٌ كان أشدَ من يومِ أُحُد؟ قال: «**لقد لقيتُ من قومِك ما لقيت، وكان أشدُ ما لقيتُ منهم يوم العقبةِ**[١] **إذ عرضت نفسي على ابن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقتُ وأنا مهمومٌ على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب**» [٢]

يا الله، يعيشُ قضيتهَ بكل أحاسيسه ومشاعره.

همُ بلغَ برسولِ الله ﷺ أن لا يشعرَ بنفسه من الطائفِ إلى السيلِ الكبير.

بما كان يفكر؟ ترى بما استغرقَ هذا الاستغراقَ الطويل؟

لعلَه كان يفكرُ في أمر دعوته التي مضى عليها عشرُ سنينَ ولم يستطع نشر الإسلام بالحجمِ الذي كان يتمنى، لعلَه كان يفكرُ كيف سيدخلُ مكةَ فهو بين عدوين.

عدوٍ خلفَه وراء ظهرِهِ أساء إليه ولم يقبل دعوته، وعدوٍ أمامهُ ينتظرَه ليوقِع به الأذى.

يقول ﷺ: «**فإذا أنا بسحابةٍ قد أظلتني فنظرة فإذا فيها جبريلُ عليه السلام** - لطفُ الله ورحمةُ الله في لمن يتعرفونَ عليه في الرخاء- **فناداني فقال إن الله قد سمِع قول قومِك وما ردوا عليك، وقد بعث اللهُ إليك ملكُ الجبالِ لتأمرَه بما شئت، فناداني ملكُ الجبالِ فسلمَ علي ثم قالَ يا محمد ذلك فيما شئت، إن شئتَ أن أطبقَ عليهمُ الأخشبين**» [٣]

الله ينـــصر مـــن يقـــوم بنـــصره   والله يخـــذل ناصـــر الـــشيطان

كان ﷺ رحيمًا بقومه، فما أرسلَ إلا رحمةً للعالمين، الأمل في هدايتِهم يفوقُ في إحساسِهِ الشعورُ بالرغبةِ في الانتقامِ من أعدائهِ والتشفي من قومِه اللذينَ أوقعوا به صنوفَ الأذى.

فقال ﷺ لملكَ الجبال: «**كلا بل أرجو أن يخرجَ اللهُ من أصلابِهم من يعبدُ اللهَ وحدَه لا يشركُ به شيئًا**» [٤]

---

(١) **يوم العقبة** مكان مخصوص في الطائف.

(٢) **بقرن الثعالب**: اسم موضع قرب مكة، وأصل القرن: كل جبل صغير منقطع من جبل كبير، والثعالب: جمع ثعلب وهو الحيوان المعروف، ولعله سمي بذلك لكثرة الثعالب فيه.

(٣) **الأخشبين**: جبلي مكة، أي قبيس ومقابله قعيقعان، وسميا بذلك لصلابتهما وغلظ حجارتهما، يقال: رجل أخشب، إذا كان صلب العظام قليل اللحم.

(٤) **متفق عليه**: البخاري (٣٠٥٩)، ومسلم (٤٧٥٤).

وكان ما رجاه وأملَه بذرة طيبة في أرض خصبة لم تلبث أن صارت شجرة مورقة.

يـبني الـرجال وغـيره يـبني القـرى شـتان بـين قـرى وبـين رجـال

رخاءُ وشدةٌ لله وتلك حقيقةٌ تقوى الله.

حقيقة الكلمة أن تكون كراكب على ظهرِ خشبةٍ في عرضِ البحرِ

تتقاذفُك الأمواجُ والأثباج وأنت تدعُ يا رب يا ربِ لعل اللهَ أن ينجيك.حالك ومقالك:

يـا مالـك الملـك جـد لـي بالرضـاء كـرما فأنـت لـي محـسن في سـائر العمـر

يـا رب زدنـيَ توفـيقا ومعـرفة وحـسن عاقـبة في الـورد والـصدر

حقيقة الكلمة أن لا تنطقَ بكلمةٍ:

ولا تتحرك حركةٍ ولا تسكنَ سكونًا إلا وقد أعددتَ لهُ جوابًا بين يدي الله فإنك مسؤولٌ فأعدَ لسؤالِ جوابًا صوابا.

وعـندها يثـبت المهـيمن بـثابت القـول الـذين أمـنوا

ويـوقن المـرتاب عـند ذلـك بإنمـا مـورده المهالـك

حقيقة الكلمة حذارك أن يأخُذَك الله وأنت على غفلةٍ:

أن لا يحضرَ حقٌ لله إلا وأنت متهيء له، أن لا تكونَ عدوًا لإبليسَ في العلانيةِ صديقًا له في السر.

حقيقة الكلمة استشعار قدرَةِ الله

خصوصًا عند إرادةِ الظلم لعبادِ الله، عاملًا أو خادمًا كائنًا من كان، يحسبُ المرء أنه يُعجزُ اللهَ فيلهو ويملئ الأرض ظلمًا.

روى الإمام مسلم رحمه الله عن أبي مسعودٍ البدريَ قال: «كنتُ أضربُ غلامًا لي بالسوط، فسمعتُ صوتًا من خلفي ينادي «اعلم أبا مسعود» فلم أفهمِ الصوت من الغضب. فلما دنى مني فإذا هوَ رسولُ الله ﷺ يقول: «اعلم أبا مسعود»، «اعلَم أبا مسعود».

فألقيتُ السوطَ من يدي هيبةً من رسولِ الله ﷺ وإذا به يكرر: **«اعلم أبا مسعود لله أقدرُ عليك منك على هذا الغلام»**.

قال: فقلت: لا أضربُ مملوكًا بعد اليومِ أبدًا يا رسول الله، هوَ حرٌّ لوجه الله.

فقال ﷺ: **«أما أنك لو لم تفعل ذلك للفحتك النار - أو لمستك النار»** (١)

مـن سـارا في درب الـردى غالـه الـردى ومــن سـار في درب الخــلاص تخلــصا

ثبت عن عبد الله بن أُنيسٍ كما في المسند أن الرسولَ ﷺ قال: **«يحشرُ الناسَ يومَ القيامة عراةً غُرلا فيناديهم اللهُ نداءً بصوت يسمعه من بعُد كما يسمعَه من قرُب: أنا الملك، أنا الديان لا ينبغيَ لأحدٍ من أهلِ الجنةِ أن يدخلَ الجنة ولأحدٍ من أهلِ النارِ عندَه مظلمة حتى اللطمة، ولا ينبغيَ لأحدٍ من أهلِ النارِ أن يدخلَ النار ولأحدٍ من أهلِ الجنةِ عندَه مظلمةٌ حتى اللطمة»** (٢)

مــن يعمــل الــسوء ســيجزى مــثلها أو يعمل الحسنى يفوز بجنان

خلقَ الظلمُ أمه قلتُ الدين وسوءُ الأخلاقِ أبوه.

حقيقة الكلمة نصرة ونجدة المظلومين

وإنصافهم عند القدرة من الظالمين، ومن نصر أخاه بظهر الغيب نصره الله في الآخرة، وليس من شأن المسلم المتقي الله حقا أن يدع أخاه فريسة في يد من يظلمه أو يذله وهو قادر على أن ينصره.

«من أذل عنده مؤمن فلم ينصره وهو قادر على أن ينصره أذله الله على رءوس الخلائق يوم القيامة» (٣)

ثبت عند ابن ماجة في سننه عن جابر قال: «لمّا رجعت مهاجرة البحر - مهاجر الحبشة - إلى رسول الله ﷺ قال: **«ألا تحدثوني بأعاجيب ما رأيتم بأرض الحبشة؟»**.

قال فتية منهم: بلى يا رسول الله، بينما نحن جلوس مرت بنا عجوز من عجائز

(١) صحيح: مسلم (٤٣٩٨).
(٢) حسن لغيره: أخرجه أحمد (١٦٠٨٥)، والألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٣٦٠٨).
(٣) ضعيف: أخرجه أحمد (١٦٠٢٨)، والألباني في «الضعيفة» (٢٤٠٢)، وفي «ضعيف الجامع» (١٢١٥٨).

رهابينهم تحمل على رأسها قلة من ماء، فمرت بفتى منهم فجعل إحدى يديه بين كتفيها ثم دفعها فخرت على ركبتيها فانكسرت قلتها، فلما قامت التفتت إليه وقالت: «سوف تعلم يا غدر إذا وضع الله الكرسي وجمع الله الأولين والآخرين وتكلمت الأيدي والأرجل بما كانوا يكسبون كيف يكون أمري وأمرك عنده غدًا».

فقال ﷺ: صدقت، صدقت كيف يقدس الله أمة لا يأخذ لضعيفهم من شديدهم[1] «أبغوني الضعفاء فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم»[2]. بدعوتهم وصلاتهم وإخلاصهم.

إن من الضعفاء من لو أقسم على الله لأبره، فإذا استنصروكم فعليكم النصر.

كم يستغيثون، كم هم يئنون؟

كم يستغيث بنا المستضعفون وهم قتلى وأسرى فما يهتز إنسان؟

والعالم اليوم شاهد بهذا، فالمستذل الحر، والمزدرى عالي الذرى والاوضع الاشرف.

كم في المسلمين من ذوي حاجة، وأصحاب هموم وصرعى مظالم وفقراء وجرحى قلوب في فلسطين وغيرها من بلاد المسلمين أنّا اتجهت:

كبلوهم قتلوهم مثلوا ... بذوات الخدر عاشوا باليتامى

ذبحوا الأشياخ والمرضى ولم ... يرحموا طفلا ولم يبقوا غلاما

هدموا الدور استحلوا كل ما ... حرم الله ولم يرعوا ذماما

أين من أضلاعنا أفئدة ... تنصر المظلوم تأبى أن يضاما

نسأل الله الذي يكلأنا ... نصرة المظلوم شيخا أو أياما

لا تكن العصافير أحسن مرؤة منا، إذا أوذي أحد العصافير صاح فاجتمعت لنصرته ونجدته كلها، بل إذا وقع فرخ لطائر منه طرنا جميعا حوله يعلمنه الطيران فأين المسلم الإنسان؟

إذا أخصبت أرض وأجدب أهلها ... فلا أطلعت نبتا ولا جادها السماء

---

(١) حسن: أخرجه ابن ماجه (٤٠١٠)، و ابن حبان في «صحيحه» (٥٠٥٨)، وحسنه الألباني.

(٢) صحيح: البخاري (٢٧٣٩) بنحوه.

انصر الحق والمظلوم حيث كان ولا تطمع بوسام التقوى حقيقة إلا أن كنت فاعلا متفاعلا نصيرا بكلمة بشفاعة بإعانة بإشارة خير بدعاء بعزم ومضاء:

عبئ له العزم واهتف ملئ مسمعه	لا بد لليل مهما طال من فلق
هذا عرينك لكن أين هيبته.	والليث ليث فتي كان أو هرما
على الليالي على الأيام في ثقة	نقل خطاك وإلا فابتر القدما
كالسيل منطلقا، كالليل مهتدما	حتى ترى حائط الطغيان منهدما

حقيقة الكلمة إيثار رضاء الله

على رضاء أي أحد وإن عظمت المحن وثقلت المؤن وضعف الطول والبدن.

تقديم حب الله على حب كل أحد إن كان أبا أو أخا أو زوجا أو ابنا، أو غيره مالا سكنا. نعم: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [التوبة: ٢٤].

لما بلغت الدعوة في مكة نهايتها واستنفذت مقاصدها، أذن الله تعالى لرسوله بالهجرة إلى المدينة وللمسلمين معه فما تلكئوا ولا ترددوا بل خرجوا يبتغون فضلا من الله ورضوان.

تركوا الأهل والوطن تركوا المال والولد ولم يبقى منهم إلا مفتون أو محبوس أو مريض أو ضعيف.

وقد كانت الهجرة عظيمة شاقة صعبة على المسلمين الذين ولدوا في مكة ونشئوا بها.

ومع هذا هاجروا منها استجابة لأمر الله تعالى ولأمر رسوله ﷺ ولسان حالهم:

مرحبا بالخطب يبلوني إذا	كانت العلياء فيه السبب

ثم مرضوا في المدينة، أصابتهم الحمى فأباحوا بأشعار وأقوال خلال المرض تدل على صعوبة ما لاقوه وعانوه على نفوسهم.

فها هي عائشة تأتي إلى أبيها رضي الله عنهما وقد أصيب بالحمى يرعد كما ترعد السعفة في مهب الريح، فتقول له كيف تجدك يا أبي؟

فـيقول: كـل امـرؤ مـصبح في أهلـه والمـوت أدنـى مـن شـراك نعلـه

فتقول عائشة: والله ما يدري أبي ما يقول.

وبلال رضي الله عنه محموم فيسائل نفسه، هل سيرى سوق مجنة ومجاز وجبال مكة كشامة وطفيل ونباتها كالإذخر والجليل ثم يرفع عقيرته فيقول:

ألا لـيت شـعري هـل أبيتـنا لـيلة بـواد وحـول إذخـر وجلـيل

وهـل أردن يـوما مـياه مجـنة وهـل يـبدوا لـي شـامة وطفـيل

ولما رأى رسول الله ﷺ ما بأصحابه أمضه ذلك وآلمه إذ كان يعز عليه معاناتهم فدعا ربه: «**اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد وبارك لنا في مدها وصاعها وأنقل حماها**[١] **إلى مهيعة أو إلى الجحفة**[٢]» [٣]

فكانت بعدها من أحب البلدان إلى أصحابه حالهم:

اخـتر لنفـسك منـزلا تعلـو بـه أو مـت كـريما تحـت ظـل القـسطل

وإذا نـبا بـك منـزل فـتحول

أخيرًا؛ هذه مشاعر مسلم حول الهجرة هو أبو أحمد بن جحش رضي الله عنه وأرضاه يصورها مع زوجته في أسلوب عظيم يبين فيه أنه يطلب ويرغب ما عند الله في هجرته ولو كان ذلك في شدة مشقة وتعب ونصب وكد، راجيا أن لا يخيبه الله كما يروى فيقول:

ولـما رأتـني أم أحمـد غاديـا بذمـة مـن أخـشى بغـيب وأرهـب

تقـول فإمـا كـنت لا بـد فاعـل فـيمم بـنا الـبلدان ولُتـنأ يثـرب

فقلـت بـل يثـرب الـيوم وجهـنا ومـا يـشأ الـرحمن فالعـبد يـركب

إلى الله وجهـي يـا عذولـي ومـن يقـم إلى الله يـوما وجهـه لا يخـيب

---

(١)**حماها** : وباءها وأمراضها.

(٢)**الجحفة** : ميقات أهل الشام ومصر والمغرب، وخص الجحفة بهذا الدعاء لأنها كانت يومئذ دار شرك، وقيل: كان أهلها من اليهود، فدعا عليهم بالحمى والوباء، وقد استجاب الله دعاءه وحقق رجاءه ﷺ

(٣)**متفق عليه**: البخاري (١٧٩٠)، (٣٧١١)، (٥٣٣٠)، ومسلم (٣٤٠٨).

فكـم قـد تـركنا مـن حمـيم وناصـح ونائحـــة تبكـــي بدمـــع وتـــندب

تـــرى أن مـــوتا نأيـــنا عـــن بلادنـــا ونحـــن نـــرى أن الـــرغائب نطلـــب

في هذا ما يصور قساوة الخروج من أرضهم لكنه خروج في سبيل ربهم فماذا يضرهم والله مولاهم.

حنوا إلى أوطانهم واشتاقوا إلى خيام اللؤلؤ في جنة مولاهم فغلبوا الأعلى على الأدنى والأنفس على الأرخص والأسمى على الأخس:

شتان بـين امـرأ في نفسه حـرم قـدس وبـــين امـــرأ في قلـــبه صـــنم

خذنـــي إلى بـــيتي، أرح خـــدي علـــى عتـــباته وأقّـــبل مقـــبض بابـــه

خذنـــي إلى وطـــن أمـــوت مـــشردا إن لم اكحـــل ناضـــري بترابـــه

إنه الجنة والذي نفسي بيده لو كنت أقطع اليدين والرجلين مذ خلق الله الخلق تسحب على وجهك إلى يوم القيامة، ثم كان مأواك الجنة ما رأيت بؤسا قط.

فأسمع وعي، لا تأثر الأدنى على الأعلى فتحرم ذا وذا، يا ذلة الحرمان.

ألا ربّ مبيض ثيابه اليوم مدنس لدينه، ألا ربّ مكرم لنفسه اليوم مهين له غدًا، أدفعُ سيئات الأمس بحسنات اليوم؛ ﴿ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾ [هود: ١١٤].

ومن حقيقة هذه الكلمة أن لا تنظر إلى صغر الخطيئة

بل تنظر إلى عظم من عصيت إنه الله الجليل الأكبر الخالق البارئ والمصور، كم من ذنب حقير استهان به العبد فكان هلاك له؛ ﴿ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴾ [النور: ١٥].

ثبت عند أنس بن مالك رضي الله عنه أنه قال: كانت العرب تخدم بعضها بعضا في الأسفار. وكان مع أبي بكر وعمر رضي الله عنهما رجل يخدمهما.

فناما واستيقظا وهو نائم لم يهيأ لهما طعامًا.

فقالَ أحدُهما لصاحبه: إن هذا لنؤم (يعني كثير النوم).

ثم أيقظاه فقالا: ائتي رسولَ الله ﷺ فقل له: إن أبا بكرٍ وعمرَ يقرئانكَ السلام وهما يستأدمانك - أي يطلبان منك الايدام. فذهب إلى النبي ﷺ فأخبره.

فقال: «أقرئهما السلام وأخبرهما أنكما قد إئتدما».

فرجع وأخبرهما أن الرسولَ ﷺ يقولُ: «إنكما قد ائتدمتما».

ففزعا فجاءا إلى النبي ﷺ، فقالا: يا رسولَ الله بعثنا إليك نستأدمك، فقلت: قد أئتدمنا. فبأي شيء أئتدمنا؟ قال: «بلحم أخيكما، والذي نفسي بيده إني لأرى لحمه بين أنيابكما».

قالا: فأستغفر لنا يا رسولَ الله.

قال عليه الصلاة والسلام: «بل مروه هوَ أن يستغفرَ لكما» [1]

عباد الله...

إن أبا بكرٍ وعمرَ ما نظرا إلى ما قالا، فقد كانت كلمةً قد نقولُ أكبر منها مئات المرات.

لكنهما نظرا إلى عظمةِ من عصوا إنه الله، وتلكَ حقيقة تقوى الله، فإياكم ومحقراتِ الذنوب فأنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه [2]، وإن لها من الله طالبا.

لا تحقرنَ صغيرةً إن الجبال من الحصى ... والقطرُ منه تدفقِ الخلاجانِ

حقيقة الكلمة الحذر من استحلالِ محارمِ الله

بالمكرِ والاحتيال، وليعلم العبدُ أنه لا يخلّصُه من الله ما أظهره مكرا من الأقوالِ والأفعال.

فأن لله يومًا تكعُ فيه الرجالُ وتشهدُ فيه الجوارح والأوصال.

وتجري أحكامُ الله على القصودِ والنيات، كما جرت على ظاهرِ الأقوالِ والحركات.

يومَ تبيضُ وجوهٌ بما في قلوبِ أصحابِها من الصدق والإخلاصِ للكبير المتعال.

وتسودُ وجوهٌ بما في قلبِ أصحابِها من الخديعةِ والمكرِ والاحتيال.

هناك يعلمُ المخادعون أنهم لأنفسَهم يخدعون وبها يمكرون: ﴿ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا

---

(١) انظر «مساوئ الأخلاق» للخرائطي (١٨٠)، و«الأحاديث المختار» للضياء المقدسي (١٦٩٧).

(٢) حسن: أخرجه أحمد (٣٨١٨)، والألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٤٧٠)، وفي «صحيح الجامع» (٢٦٨٧).

بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾ [الأنعام: ١٢٣].

﴿ وَٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٦٩].

هذه بعض حقائق الكلمة.

اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد.

وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم انك حميد مجيد.

اللهم آتي نفوسنا تقواها. اللهم زكها أنت خير من زكاها أنت وليها ومولها. وأنت أرحم الراحمين. اللهم أعز الإسلام والمسلمين وأنصر عبادك الموحدين.

اللهم ارحم من لا راحم له سواك، ولا ناصر له سواك ولا مأوى له سواك، ولا مغيث له سواك. اللهم ارحم سائلك ومؤملك لا منجأ له ولا ملجئ إلا إليك.

اللهم كن للمستضعفين والمضطهدين والمظلومين. اللهم فرج همهم ونفس كربهم وارفع درجتهم واخلفهم في أهلهم. اللهم أنزل عليهم من الصبر أضعاف ما نزل بهم من البلاء.

يا سميع الدعاء...

الله ارحم موتى المسلمين، اللهم إنهم عبيدك بنوا عبيدك بنو إمائك احتاجوا إلى رحمتك وأنت غني عن عذابهم، الله زد في حسناتهم، وتجاوز عن سيئاتهم أنت أرحم بهم وأنت أرحم الراحمين.

سبحان ربك رب العزة عن ما يصفون وسلام على المرسلين

والحمد لله رب العالمين



[٢٠] حسرات

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، وأشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله، أرسله الله رحمة للعالمين؛ فشرح به الصدور، وأنار به العقول، وفتح به أعينا عميًا وآذانًا صمًا وقلوبًا غلفًا، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان وسلم تسليمًا كثيرًا ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

أما بعد:

عباد الله....

اعلموا أن المتأمل لحالنا -نحن المسلمين- اليوم... وحال زماننا وما ظهر فيه من الآفات والفتن... وما حصل فيه من انفتاح كبير على الدنيا وزخرفها حتى ظن أهلها أنهم قادرون عليها أو مخلدون فيها؛ ليشعر بالرهبة والإشفاق والخوف الشديد من مظاهر وعواقب هذه الحال؛ إذ قد قست منا القلوب... وتحجرت العيون... وهُجر كتاب علام الغيوب... بل قُرئ والقلوب لاهية ساهية في لُجَج الدنيا وأوديتها سابحة... كيف لا وقد زينا -غير متبعين- جدران بيوتنا بآيات القرآن... ثم لم نُزين حياتنا بالعمل بالقرآن... يقرؤه البعض منا -غير مقتدين- على الأموات... ثم لا يحكمونه في الأحياء... بل جعلت البركة في مجرد حمله وتلاوته... وتركت بركته الحقيقية المتمثلة في اتباعه وتحكيمه امتثالًا لقول الله: ﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٥]، غفلنا ولم نشعر أننا غفلنا... وهذه -لعمر الله- أدهى وأَمَرُّ فينا؛ كثر القلق... وغلب الهم والحزن... وصَاحَبَ ذلك الأَرَق... مُكِر مكر شديد بالليل والنهار بأساليب ووسائل خبيثة ماكرة... تزين الفاحشة وتصدُّ عن الآخرة.

فَشَتْ الفواحش والمظالم، ونيل من الأعراض، وأكلت الأموال، وظهرت صور صارخة من الحسد والبغضاء والفُرْقَة والخلاف حتى بين خبراء الفضل والإحسان، وعندها اسُتضعف المسلمون، وتبجح وتسلط الملحدون والمجرمون.

قلـــنا ولم نفعـــل أمـــام عـــدونا وعلـــى أحبتـــنا نقـــول ونفعـــل

قلَّ الاهتمام والعناية بركيزة الوعظ والتذكير كركيزة تربوية مؤثرة مفيدة، فصرت تسمع من يقلل من أهمية كتاب أو محاضرة أو درس يُرَكِّز على هذا الجانب، فيقال: هذا كتاب وعظي، ومحاضره وعظية، ومقال عاطفي، وكبرت من كلمة:

إن صـــح أن الـــوعظ أصـــبح فـــضلة فالمـــوت أرحـــم للـــنفوس وأنفـــع

فلـــولا ريـــاح الـــوعظ مـــا خـــاض زورق ولا عـــبرت بالبحـــرين البواخـــر

عندها عُطلت طاقاتنا الإيمانية.

وكـــيف يعـــيش في البـــستان غـــرس إذا مـــا عُطلـــت عـــنه الـــسواقي

هبت رياح المعصية فأطفأت شموع الخشية من قلوبنا، وطال علينا الأَمَدُ فَعَلا القلوب قسوة كما قست قلوب أهل الكتاب؛ فهي كالحجارة أو أشد قسوة.

أسأنا فهم الدين الذي هو سر تميُّزنا وبقائنا، فشُغلنا بالشكل عن الجوهر، وبالقالب عن القلب، وبالمبنى عن المعنى، بذكريات مجيدة وتواريخ تليدة، نحتفل غالبًا مبتدعين غير متبعين، وأحيانًا نهتم بطبع الكتب الشرعية مفتخرين، ثم نتمرد على مضمونها هازئين.

حالنا كالذي يقبِّل يد والده ولا يسمع نصحه، إنَّ هذا لَهُوَ البلاء المبين، وإنَّا لنخشى أن نصبح في زمرة من قال الله فيهم: ﴿ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ﴾ [الأعراف: ٥١]، وأسوأ ما تمرُّ به أمة، وأتعس ما تمرُّ به أمة أن يصبح اللهو فيها دينًا، والدين فيها لَهْوًا، ثم لا تسمع نصحًا.

بُـــحَّ المـــنادي والمـــسامع تـــشتكي صَـــمَمًا وأصـــــبحت الـــــضَّمَائِر تُـــــشْتَرى

تاهـــت ســـفائنها فمـــا خاضـــت بهـــا بحـــرًا ولا هـــي في الـــشواطئ تظهـــر

لهذا كله كان لابد من الوقوف على بعض مشاهد الحسرة في الأخرى، لعل النفوس تستيقظ وتخشع وتذل فتبادر إلى الحسنى، فما هناك من أمر هو أشدُّ دفعًا للنفوس إلى فعل الخير من أمر الآخرة، والوقوف بين يديْ من له الأولى والآخرة.

فكل ضعف من أسبابه الغفلة عن الآخرة، وفي ذكر اليوم الآخر سعادة وطمأنينة، وسدٌّ منيع دون الهم والحزن وعدم السكينة، وعلام يحزن طالب الآخرة؟ أَعلى أمر حقير

يفنى عما قريب؟! كلا. فالآخرة خير وأبقى.

المؤمن باليوم الآخر لا تؤثر فيه المصائب؛ لأنه موقن أن المصائب إن لم تَزُل عنه زال عنها بالموت لا محالة، فلا تذهب نفسه على الدنيا حسرات.

ذكر اليوم الآخر يطهر القلوب من الحسد والفرقة والاختلاف.

ذكره يهدد الظَلَمَة ليرعووا، ويعزي المظلومين ليسكنوا؛ فكل سيأخذ حقه لا محالة، حتى يقاد للشاةِ الجلحاء من الشاة القرناء، فلا ظلم ولا هضم:

والــــوزن بالقـــسط فـــلا ظلـــم ولا يـــؤخذ عـــبد بـــسوى مـــا عمـــلا

ذكر اليوم الآخر يمسح على قلوب المستضعفين والمضطهدين والمظلومين مسحة يقين تسكن معه قلوبهم، ثم تثبت شماء وهي تتطلع لما أعده الله للصابرين من نعيم يُنسى معه كل ضرٍّ وبلاء وسوء وعناء، وتتطلع لما أعده الله للظالمين من بؤسٍ يُنسى معه كل هناء.

مشاهد من يوم الحسرة

فهيا معي -يا عباد الله- إلى مشاهد من الحسرة، أسأل الله ألا تكونوا من أهل الحسرة، علَّ ذلك تصلح به القلوب، وتتجه إلى علام الغيوب، وتنقاد الجوارح إلى العمل الصالح.

إنه يوم الحسرة وما أدراك ما الحسرة، يوم أُنذر به وخُوِّف، وتُوعِّد به وهُدِّد، قال الله عز وجل: ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [مريم: ٣٩]، إنذار وإخبار في تخويف وترهيب بيوم الحسرة حين يُقْضَى الأمر، يوم يُجمع الأولون والآخرون في موقف واحد، يُسألون عن أعمالهم؛ فمن آمن واتبع سعد سعادة لا يشقى بعدها أبدًا، ومن تمرَّد وعصى شقي شقاء لا يسعد بعده أبدًا، وخسر نفسه وأهله، وتحسر وندم ندامة تتقطع منها القلوب، وتتصدع منها الأفئدة أسفًا.

وأي حسرة أعظم من فوات رضا الله وجنته، واستحقاق سخطه وناره على وجه لا يمكن معه الرجوع ليستأنف العمل ولا سبيل له إلى تغيير حاله ولا أمل، وقد كان الحال في الدنيا أنهم في غفلة عن هذا الأمر العظيم، فلم يخطر بقلوبهم إلا على سبيل الغفلة حتى واجهوا مصيرهم، فَيَا لَلندم والحسرة! حيث لا ينفع ندم ولا حسرة.

﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ ﴾، «يوم يُجاء بالموت -كما في صحيح البخاري- كأنه كبش[1]

(١) كبش: ذكر الغنم.

أملح[١]، فيوقف بين الجنة والنار، فيقال: يا أهل الجنة! هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون وينظرون، ويقولون: نعم. هذا الموت.

ثم يقال: يا أهل النار! هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون وينظرون ويقولون: نعم. هذا الموت.

قال: فيؤمر به فيذبح، ثم يقال: يا أهل الجنة! خلود فلا موت، ويا أهل النار! خلود فلا موت[٢]، ﴿ وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِى غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

آهٍ من تأوهٍ حينئذ لا ينفع، ومن عيون صارت كالعيون مما تدمع.

إنها حسرة بل حسرات! أنباء مهولات، ندامات وتأسفات ورد ذكرها في غير ما آية من الآيات، تصدر عن معرضين عن الآيات ولاهين ولاهيات عن يوم الحسرات، نذكر بعضًا منها في هذه الخطبة.

من رسالة: «﴿ قُلْ هُوَ نَبَؤٌا۟ عَظِيمٌ ﴾» [ص: ٦٧]، بتصرف يسير، إنها تذكرة وعظات، علّنا أن نحاسب أنفسنا ما دمنا في مهلة من أعمار وأوقات، وقبل أن نندم حيث لا ينفع ندم ولا حسرات.

من حسرات يوم الحسرة

الحسرة على أعمال صالحة شابتها الشوائب

فمن هذه الحسرات -أجاركم الله من الحسرات-: الحسرة على أعمال صالحة شابتها الشوائب، وكدَّرتها مبطلات الأعمال من رياء وعُجْب ومِنَّة؛ فضاعت وصارت هباءً منثورًا في وقتٍ الإنسان فيه أشد ما يكون إلى حسنة واحدة: ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ ۝٤٧ وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا كَسَبُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾ [الزمر: ٤٧، ٤٨].

فكيف تقيك من برد خيامٌ إذا كانت ممزقة الرواق

الفضل عند الله ليس بصورة الأعمال بل بحقائق الإيمان

القصد وجه الله بالأقوال والطاعات والشكران

فبذاك ينجو العبد من حسراته ويصير حقًا عابد الرحمن

(١) أملح: أبيض يشوبه سواد.

(٢) متفق عليه: البخاري (٤٤٥٣)، ومسلم (٧٣٦٠).

الحسرة على التفريط في طاعة الله، وتصرُّم العمر القصير في اللهث وراء الدنيا حلالها وحرامها، والاغترار بزيفها مع نسيان الآخرة وأهوالها: ﴿ أَن تَقُولَ نَفْسٌ يَـٰحَسْرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِى جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّـٰخِرِينَ ۝ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ ٱللَّهَ هَدَىٰنِى لَكُنتُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ۝ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِى كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝ بَلَىٰ قَدْ جَآءَتْكَ ءَايَـٰتِى فَكَذَّبْتَ بِهَا وَٱسْتَكْبَرْتَ وَكُنتَ مِنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ۝ ﴾ [الزمر: ٥٦- ٥٩].

واضيعة العمر لا الماضي انتفعت به ... ولا حصلت على علم من الباقي

بلى علمت وقد أيقنت وا أسفا ... أني لكل الذي قدمته لاقي

الحسرة على التفريط في النفس والأهل

الحسرة على التفريط في النفس والأهل أن تقيهم من عذاب جهنم، يوم تفقدهم وتخسرهم مع نفسك بعد ما فُتنت بهم، ذلك هو الخزي والخسار، والحسرة والنار.

حالك:

بعضي على بعضي يجرد سيفه ... والسهم مني نحو صدري يُرسل

النار توقد في خيام عشيرتي ... وأنا الذي يااللمصيبة أشعل

﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْخَـٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴾ [الزمر: ١٥].

الحسرة على أعمال صالحة ذهبت في المظالم

الحسرة على أعمال صالحة كان الأمل بعد الله عليها، ولكنها ذهبت في ذلك اليوم العصيب إلى من تعديت حدود الله فيهم؛ فظلمتهم في مال أو دم أو عِرْض، فكنت مفلسًا حقًّا: ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾ [طه: ١١١]، فيأخذ هذا من حسناتك، وهذا من حسناتك، وهذا من حسناتك، ثم تفنى الحسنات، فيطرح عليك من سيئات من ظلمتهم، ثم تُطْرح في النار، أجارك الله من سامعٍ من النار، وجنّبك سخط الجبار بفعل ما يرضي الواحد القهار.

الحسرة على مجالسة أهل السوء

حسرة جلساء أهل السوء يوم انساقوا معهم يقودونهم إلى الرذيلة، ويصدونهم عن الفضيلة، إنها لحسرة عظيمة، في يوم الحسرة يعبرون عنها بِعَضِّ الأيدي، يوم لا ينفع عضُّ

الأيدي؛ كما قال ربي: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الفرقان: ٢٧- ٢٩].

حسرة الأتباع المقلدين لكل ناعق

حسرة الأتباع المقلدين لكل ناعق، يوم يتبرأ منهم من تبعوه بالباطل، فلا ينفعهم ندم ولا حسرة: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾ ﴾ [البقرة: ١٦٥- ١٦٧].

حسرة الظالمين المفسدين في الأرض الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجًا حين يحملون أوزارهم وأوزار الذين يضلونهم بغير علم، وحين يسمعون عندها قول الله: ﴿ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾ ٱلَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ كَٰفِرُونَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [الأعراف: ٤٤، ٤٥].

ومن أعظم المشاهد المخزية حسرة في يوم القيامة يوم يكفر الظالمون بعضهم ببعض، ويلعن بعضهم بعضًا، محتجين ومتبرئين، فذاك قول الله: ﴿ قَالَ ٱدْخُلُوا۟ فِىٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِى ٱلنَّارِ ۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُوا۟ فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ ۖ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أُولَىٰهُمْ لِأُخْرَىٰهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ ﴾ [الأعراف: ٣٨، ٣٩].

فيا حسرة الظَلَمَة وأعوانهم، يوم يعلمون فداحة جريمتهم في تنفيذ رغبات الظالمين، لكن حيث لا ينفعهم علم العالمين، وعندها لسادتهم يقولون: ﴿ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾. ﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴾ [غافر: ٤٧].

فإذا بالسادة أذلة قد عنت وجوههم للحي القيوم، لا يملكون لأنفسهم شيئًا ولا يستطيعون.

يقولون: ﴿ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴾ [غافر: ٤٨].

إن لله غـضبة لـو وعاهـا مـن بغـى مـا غـدا يمـض اللـسانا

كم من ظالم يردد: ﴿ ٱتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ۝ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ۝ ﴾ [العنكبوت: ١٢، ١٣]؟

فالعقلاء بمقولتهم لا يغترون، وإن فعلوا فإنهم يومئذٍ في العذاب والحسرة مشتركون.

تصور معي -أخي- ذلك الجو من الحسرة والخزي والندامة المخيِمة على المستضعفين والمستكبرين.

أتباع ضعفاء يتهمون زعماءهم بالحيلولة بينهم وبين الإيمان، ومستكبرون يقولون لأتباعهم: أنتم المجرمون، دعوناكم فكنتم مجيبين.

لو رأيتهم إذ وقفوا عند ربهم من غير إرادة ولا اختيار -مذنبون ترهقهم ذلة في انتظار الجزاء- لرأيت أمرًا مهولًا، يتراجعون، يرجع بعضهم إلى بعض القول، يلوم بعضهم بعضًا، ويؤنِّب بعضهم بعضًا، ويُلقي بعضهم تبعة ما هم فيه على بعض.

يقول أتباع الضلال الذين استُضعفوا؛ لقادة الضلال الذين استكبروا: ﴿ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾ [سبأ: ٣١]، يقولونها جاهرين بها، صادعين في وقت لم يكونوا في الدنيا بقادرين على هذه المواجهة؛ كان يمنعهم الذُّل والضعف والاستسلام وبيع الحرية التي وهبها الله لهم، والكرامة التي منحهم الله إياها، أما اليوم -يوم الحسرة- فقد سقطت القيم الزائفة، وواجهوا العذاب، فهم يقولونها غير خائفين: ﴿ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾، حُلْتُم بيننا وبين الإيمان، زيَّنتم لنا الكفران فتبعناكم فأنتم المجرمون، وبالعذاب أنتم جديرون، وله مستحقون، ويضيق الذين استكبروا بهم ذرعًا، إذ هم في البلاء سواء، ويريد هؤلاء الضعفاء أن يحملوهم تبعة الإغواء الذي صار بهم إلى هذا البلاء، عندئذٍ يردون عليهم ويجيبونهم في ذلة مصحوبة بفظاظة وفحشاء: ﴿ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم ﴾ [سبأ: ٣٢].

الله أكبر! كانوا في الدنيا لا يقيمون لهم وزنًا، ولا يأخذون منهم رأيًا، ولا يعتبرون لهم وجودًا، ولا يقبلون منهم مخالفة بل حتى مناقشة، أما اليوم -يوم الحسرة- فهم يسألونهم في استنكار الأذلاء: ﴿ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴾ [سبأ: ٣٢]

زيَّنا لكم الإجرام؟ نعم، لكننا لم نقهركم عليه، فما لكم علينا من سلطان.

أما إنه لو كان الأمر في الدنيا لقبع المستضعفون لا ينبسون ببنت شفة، لكنهم في الآخرة حيث سقطت الهالات الكاذبة، والقيم الزائفة، وتفتحت العيون المغلقة، وظهرت الحقائق المستورة، فلم يسكت المستضعفون ولا هم يخنعون، بل يجابهون من كانوا لهم يذلون، فيقولون: ﴿ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ ﴾أندادًا [سبأ: ٣٣].

مكركم لم يفتر ليلًا ولا نهارًا للصد عن الهدى، تزينون لنا الضلال، وتدعوننا إلى الفساد وتقولون: إنه الحق، ثم تقدحون في الحق، وتزعمون أنه باطل، فما زال مكركم بنا حتى أغويتمونا وفتنتمونا.

ويا عباد الله...

إن صور المكر تتنوع وتختلف من عصر لآخر، ففي وقت نزول القرآن كانت تتخذ أشكالًا من الأشعار في المنتديات الجاهلية، تُوَجَّه فيها التهم الباطلة لرسول الله ﷺ ومن معه، أو بصد الراغبين عن سماع الحق وتفويته عليهم، أو بإثارة نعرة الآباء والأجداد والتهويل من خطر تركها.

هذا جلُّ ما عند الجاهلية الأولى من مكر الليل والنهار، ووالله! إنه لعظيم، لكن ماذا يساوي ذلك المكر الأول عند مكر الليل والنهار في زماننا الحاضر في أكثر ديار المسلمين اليوم، والذي ينطبق تمامًا -بلفظه ومعناه- على المكر الموجود الآن الذي يعمل على مدى الأربع وعشرين ساعة؟! فما يكاد المذياع يفتر من مكره حتى يأتي دور التلفاز، وما يكاد التلفاز يفتر حتى يأتي دور الفيديو، ثم يأتي دور البث المباشر، ثم المجلة الهابطة، فالقصة الخليعة، وهكذا دواليك دواليك، مَكْرُ بالْلَّيْلِ وَالنَّهَارِ.

هل يُعذر المسلم في فتح فكره وبيته لمكر الليل والنهار؟

كلا والله لا يعذر؛ لأن المفسدين المتسلطين لن يعذروه بين يديْ الله يوم القيامة بقولهم: ﴿ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴾ [سبأ: ٣٢]، ويرد هؤلاء المستضعفون: ﴿ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ﴾ [سبأ: ٣٣]، ثم يدرك الجميع أن هذا الحوار البائس لا ينفع هؤلاء ولا هؤلاء إلا براءة بعضهم من بعض.

علم كل منهم أنه ظالم لنفسه، مستحق للعذاب، فندم حين لا ينفع الندم، وتمنى أن لو كان على الحق والإيمان والهدى سرًا: ﴿ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [سبأ: ٣٣].

قطـــاة غـــرَّها شَـــرَك فـــباتت تجاذبـــه وقـــد علـــق الجـــناح
فـــلا في اللـــيل نالـــت مـــا تمـــنت ولا في الـــصبح كـــان لهـــا بـــراح

قُضِيَ الأمر، وانتهى الجدل، وسكت الحوار، وهنا يأتي حادي الغواء، وهاتف الغواية يخطب خطبته الشيطانية القاصمة، يصبها على أوليائه: ﴿ وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ﴾ [إبراهيم: ٢٢] -طعنة أليمة نافذة لا يملكون أن يردوها عليه وقد قُضي الأمر وفات الأوان- ﴿ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي ﴾ [إبراهيم: ٢٢]، ثم يؤنبهم على أن أطاعوه ﴿ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ﴾ [إبراهيم: ٢٢] نفض يده منهم، وهو الذي وعدهم ومنَّاهم ووسوس لهم، وأما الساعة فلن يلبيهم إن صرخوا، ولن ينجدوه إن صرخ، ﴿ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [إبراهيم: ٢٢] فيا للحسرة والندم.

الحسرة على أعمال محدثة وعبادات لم يأذن الله بها ولم يُتَّبع فيها رسول الله ﷺ ويحسب أهلها أنهم يحسنون صنعًا ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ۝ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ [الكهف: ١٠٣، ١٠٤]، لكنها تضيع في وقت الحاجة الماسة إليها، فهم الأخسرون أعمالًا، وساءوا أحوالًا، أعمالهم كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف، أو كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء، حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا، ووجد الله عنده فوفَّاه حسابه ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ... ﴾ [النور: ٣٩].

يـا أيهـا اللاهـي الـذي افـترش الهـوى وبكـــل معنـــىً للـــضلال تدثَّـــر
إن كـــنت ذا عقـــل ففكـــر بُـــرهة مـــا خـــاب ذو عقـــل إذا مـــا فكَّـــر

الحسرة على أموال جمعت من وجوه الحرام

الحسرة على أموال جمعت من وجوه الحرام؛ ربا ورشوة وغش وغصب وسرقة واحتيال وغيرها.

فيا لله! أي حسرة أكبر على امرئ من أن يؤتيه الله مالًا في الدنيا فيعمل فيه بمعصية الله، فيرثه غيره فيعمل فيه بطاعة الله، فيكون وزره عليه وأجره لغيره؟!

أي حسرة أكبر على امرئ أن يرى عبدًا كان الله ملَّكه إياه في الدنيا، يرى في نفسه أنه

خير من هذا العبد، فإذا هذا العبد أفضل منه عند الله يوم القيامة؟!

أي حسرة أكبر على امرئ أن يرى عبدًا مكفوف البصر في الدنيا قد فتح الله له عن بصره يوم القيامة، وقد عَمِيَ هو؟!

إنَّ تلك الحسرة لعظيمة عظيمة!

أي حسرة أكبر على امرئ علَّم علمًا، ثم ضيعه ولم يعمل به فشقي به، وعمل به من تعلَّمه منه فنجيَ به؟!

أي حسرة أعظم من حسرات المنافقين الذين يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم.

يوم تُبلى السرائر، وينكشف المخفي في الضمائر، ويعرضون لا يخفى على الله منهم خافية، ثم يكون المأوى، الدرك الأسفل من النار، ثم لا يجدون لهم نصيرًا.

أما الحسرة الكبرى فهي عندما يرى أهل النار أهل الجنة وقد فازوا برضوان الله والنعيم المقيم، وهم يقولون: ﴿ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴾ [الأعراف: ٤٤].

وحسرة أعظم حين ينادي أهلُ النار أهلَ الجنة: ﴿ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [الأعراف: ٥٠].

وحسرة أَجَلُّ حين ينادي أهل النار مالكًا: ﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّاكِثُونَ ۝ لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ۝ ﴾ [الزخرف: ٧٧، ٧٨].

ومنتهى الحسرة وقصاراها حين ينادون ربهم عز وجل وتبارك وتقدس: ﴿ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٠٧]، فيجيبهم بعد مدة: ﴿ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴾ [المؤمنون: ١٠٨]، فلا تسل لا ينبسون ببنت شفة، وإنما هو الشهيق والزفير.

طال الزفير فلم يرحم تضرعهم ... هيهات لا رقَّة تغني ولا جزع

فيا حسرة المقصرين! ويا خجلة العاصين! لذَّات تمر، وتَبِعات تبقى، تريدون نيل الشهوات والحصول في الآخرة على الدرجات!

جمع الأضداد غير ممكن يا تُراب:

هواك نجد وهواه الشام ... وذا وذا يا خيُّ لا يلتام

فدع الذي يفنى لما هو باقٍ، واحذر زلل قدمك، وخفْ حلول ندمك، واغتنم شبابك

قبل هِرَمِك، واقبل نصحي ولا تخاطر بدمك، ثم تتحسر حين لا ينفع ندمك.

إذا ما نهاك امرؤ ناصح عن الفاحشات انزجر وانتهي
إن دنيًا يا أخي من بعدها ظلمة القبر وصوت النائح
لا تساوي حبة من خردل أو تساوي ريشة من جانح
لا تسل عن قيمة الربح وسل عن أساليب الفريق الرابح

جعلنا الله وإياكم من الرابحين السعداء، يوم يخسر المبطلون الأشقياء، ويتحسر المتحسرون التُّعساء، إن ربي وليُّ النعماء، وكاشف الضُّر والبلاء.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم فاستغفروه، إنه هو الغفور الرحيم.

هل آن الأوان للتوبة

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، إله الأولين والآخرين، وأصلي وأسلم على محمد الأمين، وعلى آله وصحبه والتَّابعين.

أما بعد:

عباد الله....

وبعد هذا البيان من كتاب الرحمن عن صور الخزي والحسرة والخسران... هل آنَ لنا أن نُعِدَّ لهذا الموقف العظيم عُدَّته... ونعمل جاهدين على الخلاص من صفات أهل هذه المواقف المخزية.

آنَ لنا أن نخلص العبادة لله وحده، ونجرد المتابعة لرسول الله ﷺ.

آن لنا أن نحذر من كل ناعق ملبِّسٍ خائن، يمكر في الليل والنهار قبل أن تقول نفس: يا حسرتاه، ولات حين مَنَاص.

آن الأوان للضَّعَفَة الأتباع أن يتبرءوا من متبوعيهم الظالمين المفسدين، فلا يكونوا أداة لهم في ظلم في دماء أو أموال أو أعراض؛ طمعًا في جَاهٍ أو حطام.

آنَ الأوان للإنابة والبراءة من الظالمين قبل أن يتبرءوا من تابعيهم بين يديْ الله، يوم ينقلبون عليهم فيلعن بعضهم بعضًا حيث لا ينفع لعن ولا ندم.

آن الأوان للمرأة المسكينة في زماننا اليوم أن تتنبه لهذه المواقف، فتتبرأ في دنياها

اليوم من كل ناعق لها باسم الحرية والتَّمدُّن ومتابعة الأزياء والموضات، حتى لا تحقّ عليها الحسرة الكبرى عندما يتبرأ منها شياطين الإنس والجن الذين أضلوها، ثم لا يغنوا عنها من عذاب الله من شيء إلا الخصام والتلاعن المذكور في كتاب الله: ﴿ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ ﴾ [الأحزاب: ٦٧، ٦٨].

آن الأوان لأتْبَاع الطوائف الضالة المبتدعة أن يفيقوا ويدركوا خطر هذه المتابعة، التي ستنقلب حسرة كبرى وعداوة ولعنة بينهم وبين متبوعيهم يوم القيامة: ﴿ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّـٰصِرِينَ ﴾ [العنكبوت: ٢٥].

آن الأوان لمن أعطوا قيادهم لجلساء السوء والمفسدين في الأرض ومن هم دعاة على أبواب جهنم يسوقونهم إلى الرذيلة، ويفتحون قلوبهم للمكر والألاعيب والصَّد عن الفضيلة.

آن لهم أن ينتهوا ويقطعوا صلتهم بهم، وطاعتهم لهم ما داموا في زمن من مهلة وإمكان، وإن لم يقطعوها في الدنيا فهي لا شك منقطعة يوم القيامة، وستنقلب عداوة وخصامًا وحسرة: ﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [الزخرف: ٦٧].

آن الأوان للمجاهرين عمومًا بالمعاصي، والمجاهرين خصوصا برفع أطباق القنوات فوق البيوتات غير معظمين لشعائر الله والحرمات، مَن أشرعوا بيوتهم للضلال والمكر واللهو والعفن والتُّراهات بحجة الأخبار والمباريات.

يستقبل الأفكار في عُلَب الهوى ... والشر فيها لسوَّع المستقبلُ

عُلَب يغلِّفها العدو وخَتْمُه ... فيها الصليب ونجمة والمنجلُ

آن لهم أن يعلنوها توبة عاجلة نصوحًا قبل المات، وقبل يوم الحسرات بلا مبررات واهيات، فالحقائق ساطعات غير مستورات وإن تَعَامَتْها نفوس أهل الشهوات.

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد ... وينكر الفم طعم الماء من سقم

وكل أمة محمد ﷺ كما أخبر معافى إلا المجاهرين[1]، «وما من راعٍ يسترعيه الله رعية

(١) متفق عليه: البخاري (٥٧٢١)، ومسلم (٧٦٧٦).

يموت يوم يموت وهو غاشٌّ لهم، إلا حرم الله عليه الجنة»[(١)]، «وكلكم راع ومسئول» [(٢)]، وما كل راعٍ براع.

ما كل ذي لُبَدٍ بلَيْثٍ كاسر	وإن ارتدى ثوب الأسود وزمجرا
يستخدم الشيطان كل وسيلة	لكنَّه يبقى الأذل الأصغرا

﴿ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ ﴾ [النساء: ٢٧].

آن الأوان لمضيع وقته أمام ما تبثُّه هذه القنوات من محرمات أن يتوب ويئوب.

آن الأوان لمن عَقْله في أذنيه، وَلُبّه في عينيه، من أَثَّر البهتان فيه، وانطلى الزور عليه، أن يتوب قبل أن يقف أمام الله، فتشهد الأعضاء والجوارح، وتبدو السوءات والفضائح، فيُخْتم على فمه، وتتكلم يده، ويشهد سمعه وبصره وجلده بما كان يكسب، ثم لا تكون إلا الحسرات، فما تغنِ الحسرات ﴿ وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَٰكِن ظَنَنتُمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ وَذَٰلِكُمْ ظَنُّكُمُ ٱلَّذِى ظَنَنتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَىٰكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن يَصْبِرُوا۟ فَٱلنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ وَإِن يَسْتَعْتِبُوا۟ فَمَا هُم مِّنَ ٱلْمُعْتَبِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [فصلت: ٢٢- ٢٤].

يا ابن سبعين وعشر وثمان كاملات	غرضًا للموت مشغولاً ببث القنوات
وَيْك لا تعلم ما تُلقى به بعد الممات	من صغارٍ موبقات وكبارٍ مهلكات
يا بن من قد مات من آبائه والأمهات	هل ترى من خالد من بين أهل الشهوات
إن من يبتاع بالدين خسيس الشهوات	لغبي الرأي محفوف بطول الحسرات

عباد الله....

في يوم القيامة يبحث كل إنسان عن أي وسيلة مهما كانت ضعيفة واهية لعلها تصلح لنجاته من غضب الله... ولذلك تكثر المناقشات والمحاورات بين الأباء والأبناء والأزواج والزوجات... والكبار المتسلطين والصغار التابعين... بين الأغنياء الجبَّارين والفقراء

---

(١) متفق عليه: البخاري (٦٧٣٢)، ومسلم (٣٨٠)، (٣٨١)، (٤٨٣٤).

(٢) متفق عليه: البخاري (٢٢٧٨) (٢٤١٦) (٢٤١٩)، ومسلم (٤٨٢٨).

المنافقين... كل يحاول إلقاء التَّبعة على غيره... لكن حيث لا تنفع المحاورات... ولا الخصومات... ولا التَّنصُّل من التَّبِعات... ثم لا يكون إلا الحسرات.

إلى الله يـا قومـي فمـا خـاب راجـع إلى ربـه يـومًا ومـا خـاب صـابر

اللهم آنس وحشتنا في القبور، اللهم آنس وحشتنا في القبور، اللهم آمن فزعنا يوم البعث والنشور، اللهم اغفر لجميع موتى المسلمين.

اللهم إنا نعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعاء لا يُسْمع.

اللهم أصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، ودنيانا التي فيها معاشنا، وآخرتنا التي إليها معادنا، واجعل الحياة زيادة لنا في كل خير، والموت راحة لنا من كل شر.

اللهم أعز الإسلام والمسلمين، وأذل الشرك والمشركين، وانصر عبادك المجاهدين، واجعل هذا البلد آمنا مطمئنًا وسائر بلاد المسلمين.

اللهم كن للمستضعفين والمظلومين والمضطهدين.

اللهم فرِّج همَّهم، ونفِّس كربهم، وارفع درجتهم، واخلفهم في أهلهم، اللهم أَزِلْ عنهم العناء واكشف عنهم الضُّر والبلاء، اللهم أنزل عليهم من الصبر أضعاف ما نزل بهم من البلاء يا سميع الدعاء.

اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد.

سبحان ربك رب العزة عما يصفون،

وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين



[٢١] عوامل بناء النفس

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هاديَ له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، شهادة عبده وابن عبده وابن أَمَتِه، ومن لا غنى له طرفة عين عن رحمته.

وأشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله، أرسله الله رحمة للعالمين، فشرح به الصدور، وأنار به العقول، وفتح به أعينًا عميًا، وآذانًا صُمًّا، وقلوبًا غلفًا، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾ [النساء: ١].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ ﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، وأسأل الله أن يجعل هذا الجمع في ميزان الحسنات في يوم تعز فيه الحسنات.

أما بعد:

أحبتي في الله...

أوصيكم ونفسي بتقوى الله جل وعلا، وأن نقدم لأنفسنا أعمالًا تبيِّض وجوهنا يوم نلقى الله ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩].

﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ [آل عمران: ١٠٦].

﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ﴾ [آل عمران: ٣٠].

﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ ﴾ [الفرقان: ٢٥].

﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ ﴾ [الفرقان: ٢٧].

﴿ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ ﴾ [الحج: ٢].

يوم الحاقة، يوم الطامة، يوم القارعة، يوم الصَّاخة ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ ٱمْرِيٍٕ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾ ﴾ [عبس: ٣٤- ٣٧].

التباين في بناء النفس

اعلموا أن النفس بطبيعتها -يا أيها الأحبة- طموحة إلى الشهوات واللَّذَّات، كسولة عن الطاعات وفعل الخيرات، لكن في قَمْعِها عن رغبتها عزُّها، وفي تمكينها مما تشتهي ذلها وهوانها؛ فمن وُفِّق لقمْعِها نال المُنَى، ونفسَه بنى.

ومن أرخى لها العنان أَلْقَتْ به إلى سُبُل الهلاك والردى، ونفسَه هدم وما بنى.

فمـن هجـر اللـذات نـال المنـى	**ومـن أكـبَّ علـى اللـذات عـض علـى اليـد**
ففـي قمـع أهـواء الـنفوس اعتـزازها	**وفي نـيلها مـا تـشتهي ذلُّ سـرمدِ**
فـلا تـشتغل إلا بمـا يُكـسب العلـى	**ولا تـرض للـنفس النفيـسة بالـرَّدِي**

وعلى هذا فالناس مختلفون في بناء أنفسهم وتأسيسها وتربيتها اختلافًا بيِّنًا جليًّا واضحًا، يظهر ذلك في استقبال المِحَن والمِنَح، والإغراء والتحذير، والنعم والنِقَم، والترغيب والترهيب، والفقر والغنى؛ فمنهم من أَسَّس بنيانه على تقوى من الله ورضوان؛ فلا تضره فتنة، ولا تُزَعْزعُه شبهة، ولا تغلبه شهوة، صامد كالطود الشامخ، فهم الحياة نعمة ونقمة، ومحنة ومنحة، ويسرًا وعسرًا، ثم عمل موازنة، فوجد أن الدهر يومان ذا أمن وذا خطر والعيش عيشان ذا صفو وذا كدر، فضبط نفسه في الحالَيْن؛ فلم يأسَ على ما فات، ولم يفرح بما هو آتٍ؛ فلا خُيَلاء عند غنى، ولا حزن عند افتقار، لا يبطر إن رَأَس، ولا يتكدر إن رُئِس، يقلق من الدنيا، ولا يقلق على الدنيا أبدًا، يستعجل الباقية على الفانية؛ فتجده راضي النفس، مطمئن الفؤاد، إن هذا الصنف من الناس صنف قيِّم كريم، لكنه قليل قليل، وما ضره أنه قليل وهو عزيز؛ فمثله كالشجرة الطيبة، عميقة الجذور، ثابتة الأصول، مفيدة الفروع، لا تزعزعها الأعاصير، ولا تنال منها العواصف، والسر إنه الإيمان، الذي إذا خالطت بشاشته القلوب ثبت صاحبه، واطمأن وضرب بجذوره فلا تزعزعه المِحَن، ولا تؤثر فيه الفتن؛ بل يُكِنُّ الخير ويجني الفوائد، شجر بثمر، لسان.

حال هذا الصنف:

أنـا الحـسام بـريق الـشمس في طـرفٍ ... مـني وشـفرة سـيف الهـند في طـرف

فـلا أبالـي بأشـواك ولا مِحَـنٍ علـى ... طريقـي ولـي عزمـي ولـي شـغفي

مـاض فلـو كـنت وحـدي والدُّنا صرخت ... بـي قـف لـسرت فلـم أُبطـئ ولم أقـفِ

وهذه نماذج من هذا الصنف العزيز الشامخ القليل، جديرة بالتأمل، أضعها بين أيديكم، وهي قليل من كثير.

سعد بن الربيع بناء ثابت

هاهو مجاهد، جريح من جرحى أحد به سبعون ضربة؛ ما بين طعنة برمح، وضربة بسيف، ورمية بسهم، لم يبقَ له في هذه الدنيا وما فيها من أهل ومال ومتاع إلا لحظات.

فيمَ كان يفكر هذا الشخص؟ وما الذي كان يشغل باله؟

اسمع ما رواه الحاكم عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: بعثني رسول الله ﷺ يوم أحد لطلب سعد بن الربيع رضي الله عنه وأرضاه في القتلى، وقال لي: «**إن رأيته فأقرِئه مني السلام، وقل له: يقول رسول الله ﷺ : أخبرني كيف تجدك؟**»، قال زيد: فجعلت أبحث عنه في القتلى، فأصبته وهو في آخر رمق، به سبعون ضربة؛ ما بين طعنة رمح، وضربة سيف، ورمية سهم، فقلت له: يا سعد! إن رسول الله يقرؤك السلام، ويقول: أخبرني كيف تجدك؟ قال: وعلى رسول الله ﷺ السلام وعليك السلام، قل له: إني -والله- لأجد رائحة الجنة -ليس هذا موضع الشاهد، ولكن اسمع ماذا قال؟- وقل لقومي الأنصار: لا عذر لكم عند الله أن يُخلص إلى رسول الله ﷺ وفيكم عين تطرف، ثم فاضت روحه رحمه الله[1]

ثبت سعد وعلَّم غيره دروس الثبات وهو يودِّع الدنيا، فما أوصى بأهل، وما أوصى بمال، كان همُّه أعلى وأغلى وأحلى، همُّه الرسالة والرسول ﷺ ؛ فرَضِيَ الله عنه وأرضاه، وجعل الجنة مأوانا ومأواه.

---

(١) انظر «دلائل النبوة» للبيهقي (١١٦٤)، و«السيرة النبوية» لابن كثير (٣/ ٧٨)، و«الرحيق المختوم» (١ / ٢٥٣).

ولئن انتقلت بعيدًا عن هذا لوجدت الخير في الأمة لا يزال وسيبقى بإذن الله عز وجل.

الزهري لا تغيره محنة أو منحة

ها هو الزهري عليه رحمة الله ذلكم المحدث الكبير الذي يدخل على هشام بن عبد الملك، فيقول هشام للعلماء -وكانوا حوله-: من الذي تولى كِبر الإفك في حادثة الإفك؟ وكان هشام يدعي أن الذي تولى كبره هو علي رضي الله عنه وأرضاه، فقال هشام لسليمان ابن يسار: من الذي تولى كبره؟ قال: ابن أُبيّ، فقال هشام: كذبت، هو علي بن أبي طالب، فقال سليمان: الأمير أعلم بما يقول، ثم قال للآخر: من الذي تولى كبره؟ فأجابه وكذَّبه.

ثم وصل الدور إلى الإمام الزهري عليه رحمة الله ذلكم الرجل الذي نحسب أنه أسَّس بنيانه على تقوى من الله ورضوان، فقال له هشام: من تولى كبره؟ قال: ابن أُبيّ -عليه من الله ما يستحق- قال: كذبت، فانتفض الإمام الزهري، وقال: أنا أكذب لا أبا لك! والذي لا إله إلا هو لو نادى منادٍ من السماء: أن الكذب حلال ما كذبت، والذي لا إله إلاَّ هو لقد حدثني سعيد وعروة وعبيدة وعلقمة عن عائشة بأن الذي تولى كبره هو عبد الله بن أبي، فارتعد هشام وانتفض، وقال: هيَّجناك يا إمام سامِحْنا، سامِحْنا.

إنه الثبات! وإنه بناء النفس الذي لا يضره أي موقف يتعرض إليه من محنة أو منحة!

وقبل هذا وذاك أنبياء الله صلوات الله وسلامه عليهم.

يوسف عليه السلام الثبات بكل معانيه

هاهو يوسف عليه السلام في عنفوان شبابه، وفي قمة نضجه؛ تخرج وتبرز إليه امرأة العزيز الجميلة، بأبهى حُلَّة، متعطرة، متبهرجة، مبدية لمفاتنها، قد غلَّقت الأبواب، ودَعَتْهُ بصريح العبارة ولم تُكنِّ، فقالت: ﴿ هَيْتَ لَكَ ﴾ [يوسف: ٢٣] أقبل ﴿ قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ ﴾ [يوسف: ٢٣].

ولم تقتصر الفتنة عند ذلك؛ بل ازدادت سعيرًا حين شملت نساء عِلْيَة القوم؛ حين أُعجِبْنَ بيوسف -عليه السلام- وفُتِنَّ برجولته وجماله؛ فأخذن يطاردْنَه يُردْنه أن يعمل بهن الفاحشة، وتبلغ الأمور ذروتها يوم تأتي امرأة العزيز تهدده، وتقول: ﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴾ [يوسف: ٣٢]، فماذا رد؟ ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا

﴿يَدۡعُونَنِيٓ إِلَيۡهِۖ وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣].

إنه ثبات أنبياء الله أمام الشهوات وأمام التهديدات، عليهم صلوات الله وسلامه، وهم الأسوة والقدوة.

إنه الثبات بكل معانيه، والثبات بكل مبانيه أمام الشهوات وأمام الشبهات، والذي لا يوفَّق له إلا مَنْ علم صدقَه ربُّ الأرض والسماوات.

الإمام أحمد ذهب أحمر

لا يَخْفَاكُم إن خَفَاكُم شيء ما لقيه الإمام أحمد في سبيل عقيدته من أذى وتعذيب، تُخلَع يداه، ويُجلد السياطَ الكثيرة، يختار الظالمون له عددًا من قساة القلوب، وغلاظ الأفئدة ليجلده كل واحدٍ منهم سوطيْن بكل ما أوتي من قوة، وهم يتعاقبون عليه، وهو ثابت كالطَّوْد الأشمِّ، لا يتراجع أبدًا، يغمى عليه من شدة التعذيب ثم يفيق، فيعرض عليه الأمر فلا يتراجع، حتى انتصر بإيمانه وبناء نفسه، وبتوفيق الله قبل هذا وذاك، وكان انتصاره دليلًا على الإخلاص والعزم والقوة.

لقد خرج الإمام من المحنة خروج السيف من الجلاء، والبدر من الظلماء، أُدخل في الكِير فخرج ذهبًا أحمر، وتواطأت القلوب على محبته، حتى أصبح حبه شعارًا لأهل السنة.

فأين الذين عارضوه؟ وأين الذين عذَّبوه؟ وأين الذين نالوا منه؟ ذهبوا إلى ما قدموا.

وبقـي حـيًّا بذكـره والذكـر للإنـسان عمـر ثـانِ
والبغـي مهمـا طـال عدوانـه فـالله مـن عدوانـه أكـبر

العز بن عبد السلام الإباء والاستعلاء

وتتعاقب النماذج الثابتة المبنية في هذه الأمة، والخير فيها ولو خلت لانقلبت -كما قيل-.

ويتحالف الصالح إسماعيل مع الصليبيين، والثمن تسليم ديار المسلمين، فشهد ذلك الأمر العز بن عبد السلام، وشقَّ عليه الأمر، شقَّ على سلطان العلماء، فأنكر ذلك أيَّما إنكار، وترك الدعاء لإسماعيل، وعندئذٍ كتب جواسيس السلطان الذين بثَّهم لاستراق السمع بذلك، ورفعوا التقارير الظالمة، وحرَّفوا القول وزخرفوه، فجاء كتاب السلطان

باعتقال العز بن عبد السلام عليه رحمة الله.

فسجن وضُيِّق عليه، ثم أطلق ومُنع من الخطابة والتدريس، ومُنع من الاجتماع إليه، وخرج مهاجرًا إلى أرض مصر، فأرسل له السلطان رسولًا وطلب منه التلطف مع العز، وعرض عليه بعض الأمور علَّه أن يلين أو يَهِن أو يضعف.

وقال: إن وافق فذلك، وإن خالف فاعتقله في خيْمة بجانب خيْمتي.

فذهب رسول السلطان إلى سلطان العلماء، وقال له: يا إمام! بينك وبين أن تعود إلى مناصبك وما كنت عليه وزيادة أن تنكسر للسلطان، وتقبل يده لا غير، فأبى سلطان العلماء إلا الثبوت على محض الحق، وقال قولًا خرَّ من هوله ذلك الرسول صعقًا.

قال: يا مسكين! والله الذي لا إله إلا هو ما أرضى أن يقبل السلطان يدي فضلًا عن أن أقبل يده، يا قوم أنتم في وادٍ وأنا في وادٍ، الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاكم به.

فأرغى رسول السلطان وأَزْبَدَ وهدده، وأعلن اعتقال الشيخ على الملا، فقال الشيخ: افعلوا ما بدا لكم، فاعتقلوه في خيمة بجانب خيمة السلطان، فأخذ الشيخ يرتل آيات الله البينات، يتصل بالله عن طريق التعبد بكلام الله.

وكان بعض ملوك الصليبيين عند ذلك السلطان، فقال هذا السلطان: أتسمعون هذا الذي يقرأ القرآن؟ قالوا: نعم.

قال: هذا أكبر رجل دين في المسلمين، وقد حبسته وعزلته عن الخطابة والتدريس من أجلكم، فلما سمع ملوك الفرنجة هذه الميوعة الرخيصة من ذلك السلطان أرادوا أن يهينوه ويُذلُّوه؛ لأنه هان واستمرأ الهوان فقالوا: والله لو كان هذا قسيسنا لغسَّلنا رجليْه وشربنا مرقتها.

ثم انتصر المسلمون بعد ذلك على الصليبيين، ونجَّى الله الشيخ من كيد الشيطان وحزبه، فدخل مصر آمنًا لم يقدم تنازلًا، وازداد في الحق صلابة، فرحمه الله.

إنه بناء النفوس، إنه الإباء والاستعلاء، إنها ليست كبرياء إنما هي عزة العقيدة وعلو الراية ولاشك، ولقد تعرض البناة لأنفسهم في كل العصور لمواقف فنجحوا فيها بفضل الله.

بناء النفس يظهر في الفتن

أحدهم يصدع بكلمة الحق فيشْرَق بها المنافقون والظالمون، ويذيقونه في سبيلها ألوانًا شتى من التعذيب في السجن لا تضاهيها إلاَّ ألوان التعذيب في محاكم التفتيش في القرون

الوسطى، كانوا يسلطون عليه الكلاب بعد تجويعها، فتطارده الساعات، ثم تنقض على لحمه، تنهشه نهشًا إذا توقف عن الجري وهو صابر ثابت، معتصم بالله، لم يرده ذلك عن هدفه، ولم يصده عن بغيته وغايته، فأغاظهم ذلك فماذا يفعلون؟

حكموا عليه بالقتل، وتلك -والله- فتنة أيما فتنة، ثم جاءه الإغراء أن استرحِمْ ذلك الظالم ليخفف عنك الحكم، فقال في إباء واستعلاء: لئن كنت حوكمت بحقٍ فأنا أرتضي الحق، وإن كنت حوكمت بباطل؛ فأنا أعلى من أن أسترحم الباطل، إن إصبعي التي تشهد لله بالوحدانية كل يوم مرات لترفض أن تقر حكم ظالم أيًا كان ذلك الظالم ثم يقاد إلى حتفِه، ولسان حاله:

الله أسعدني بظل عقيدتي أفيستطيع الخلق أن يشقوني

ويأتي أحد علماء السوء الذين باعوا دينهم بعرَضٍ من الدنيا، وما بنَوْا أنفسهم ليلقنه كلمة التوحيد التي يُقاد إلى الموت من أجلها، فيقول له: قل: لا إله إلا الله فيتبسم تبسم المغضب، ويقول: يا مسكين! أنا أقاد إلى الموت من أجل لا إله إلا الله، وترجع أنت لتأكل فتات الموائد بلا إله إلا الله، لا نامت أعين الجبناء.

إنه البناء الحقيقي للأنفس، إنها الثقة بأنهم على الحق، إنها الثقة بغلبة دين الهدى على دين الهوى وبقوة الله على كل القوى.

لا تظنوا -يا أيها الأحبة- أن البناء في الرجال فقط، إنه كذلك في النساء والأطفال.

محمد بن عاصم وبذله من أجل العقيدة

هاهو أحد المحدثين بخراسان، واسمه محمد بن عاصم عليه رحمة الله له بُنيات صغار، لا ولد ذكر يقوم عليهن، انتقل إلى بغداد يوم سمع بمحنة الإمام أحمد ليحدث الناس، ويسد ثغرة قد فُتِحَت في ذلك البلد، ترك بنياته بخراسان، وسمع في بغداد بتلك المحنة، فانطلق إلى الإمام أحمد، وقد علم أنه سُجن وعُذِّب وأوذي في الله عز وجل، فقال لأصحابه - وهو يحدث يومًا من الأيام في حلقته-: ألا نقوم فنقول كلمة الحق؟ وقام ليقولها، وتذكر بنياته اللاتي تركهن في خراسان، وعلم أن رجلًا يقوم ليقول كلمة في ذلك المقام ما عاقبته إلا الموت.

وهو في هذا الصراع مع نفسه يأتيه كتاب من بنيَّاته يقلن له: يا أبانا! إنا قد سمعنا أن

الرجل قد دعا الناس إلى القول بخلق القرآن، وإنا نأمرك بألا تجيب؛ فوالذي لا إله إلا هو -يا أبانا- لأن يأتينا نعيُك أحبُّ إلينا من أن نسمع أنك قلت بخلق القرآن.

الله أكبر! إنه البناء في أوساط النساء، وفي أوساط البنات، وفي أوساط الرجال، أُسَرٌ لم تعرف إلا ربها فهان في سبيله كل شيء، واستعذب في سبيله كل صعب.

كـــل بـــذل إذا العقـــيدة ريعَـــتْ	**دون بـــذل الـــنفوس بـــذل زهـــيد**
مـــسلم يـــا صـــعاب لـــن تقهـــريني	**في فـــــؤادي زمـــــازم ورعـــــود**
لا أبالـــي ولـــو أُقـــيمت بدربـــي	**وطريقـــــي حواجـــــز وســـــدود**
مـــن دمائـــي في مقفـــرات الـــبراري	**يطلـــع الزهـــر والحـــيا والـــورود**

هذه سمة المؤمنين، الاطمئنان إلى الله يملأ نفوسهم فيبنيها، يحرك جوارحهم فيقوِّيها، لا يستمدون تصوراتهم وقِيَمَهم وموازينهم من الناس، وإنما يستمدونها من رب الناس؛ فأنى يجدوا في أنفسهم وهنًا عند محنة أو عند منحة أو عند شهوة، أو يجدوا في قلوبهم حزنًا على فائت من الدنيا؟

إنهم على الحق؛ فماذا بعد الحق إلاّ الضلال، وليكن للباطل سلطانه، وليكن له هيله وهيلمانه، وليكن معه جمعه وجنوده، إن هذا لا يغير من الخطب شيئًا.

هذا هو الصنف الأول من الناس، ممن أَسَّسَ بنيانه على تقوى من الله ورضوان؛ هامات لا تنحني، وقامات لا تنثني، أسأل الله أن يجعلنا وإياكم من أهل هذا الصنف.

الصنف الثاني:
بنوا أنفسهم على شفا جرف هار

أما الصنف الثاني: فأسَّس بنيانه على شفا جُرُف هارٍ، يعبد الله على حرف، إن أصابه خير اطمأنَّ به، وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة، يذوب أمام المحنة فلا يتماسك، يلعب بعواطفه الخبر البسيط فلا يثبت، يطير فؤاده للنبأ الخفيف فلا يسكن، فؤاده هواه، يعيش موزعًا بين همِّ حياة حاضر ومفاجآت تنتظر، لا تطمئن لقوله، ولا تثق في تصرفاته، بصره زائغ، عقله فارغ، أفكاره تائهة، مغلوب على أمره، لا ينفع في ريادة ولا يُعتمَد عليه في ساقة، جبان مفتون فرَّار غرَّار.

يـــومًا يمـــان إذا لاقـــاه ذو يمـــن	**وإن تلقـــى معـــديًا فعدنانـــي**

مثل هذا كالشجرة لا جذور لها ولا ثمرة، لا تثبت أمام الريح، ولا تقوى على مقاومة الآفات، أو كالبناء بلا أساس، سرعان ما يخر سقفه على من فيه، فهو قلق بائس متردد، تعصف به الفتن، وتدمره المِحَن، إن عذلته لم يرعوِ، إن خاطبته لم يفهم.

ومن البلية عدل من لا يرعوي عن غيِّه وخطاب من لا يفهم

إن المؤمن ليقف شامخًا وهو يرى مثل هذا الصنف البائس، وقد غرق في شهواته الهابطة، وفي نزواته الخليعة السافلة يَعُبُّ منها، لكنها حكمة الله البالغة، التي أرادت أن يقف الإيمان مُجَرَّدًا من الزينة والطلاء، عاطلًا عن عوامل الإغراء، لا هتاف لذة، ولا دغدغة شهوة، وإنما هو الجهد ليقبل عليه من يقبل وهو على يقين أنه يريد الله والدار الآخرة، ولينصرف عنه من يبتغي المطامع والمنافع الدنيوية، ومن يشتهي الزينة ويطلب المتاع؛ ليحيا من حيَّ عن بينه ويهلك من هلك عن بينة.

ملك غسان وبناؤه المنهار

هاهو أحد الساقطين الذين بنوا أنفسهم على شفا جرف هار فانهار بهم، إنه جبلة ملك غسان، أسلم وجاء المدينة في موكب عظيم بحاشيته وجنده، ففرح المسلمون بإسلامه كثيرًا، فخرجوا للنظر فيه وفي موكبه، فإذا الخيول معقودة أذنابها، وسلاسل الذهب في أعناقها، وعلى رأسه التاج المُرَصَّع بالجوهر، وذهب إلى مكة وجعل يطوف بالبيت، وبينما هو يطوف إذ وطئ رجل فزاري إزاره، فلطم جبلة الفزاري فهشم أنفه، فشكاه الفزاريُ إلى عمر رضي الله عنه وأرضاه.

فبعث عمر إلى جبلة فأتاه، فقال له عمر: ما هذا؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، إنه تعمد وطأ إزاري فلطمته، ولولا حرمتك لضربت ما بين عينيه بالسيف، فقال عمر: قد أقررت على نفسك بما فعلت؛ فإما أن تُرضي الرجل، وإلا أقتص له منك بهشم أنفك كما فعلت به.

قال: وكيف ذلك وهو سوقة، وأنا ملك؟ قال عمر رضي الله عنه: الإسلام سوَّى بينكما.

فلم يرَ جبلة مخرجًا إلا بإعطائه مهلة، فطلب مهلة إلى الغد ليلوذ بالفرار ليلًا؛ ويرتدَّ عن دينه، ولو علم الله فيه خيرًا لأسمعه، سقط عند أول امتحان؛ لأن البناء لم يؤسَّس على تقوى، وإنما أُسِّس على شفا جُرُفٍ هارٍ.

كيف يقوى على العواصف غرس جذره في ترابه موءود

أسباب بناء النفس

أحبتي في الله...

بعد الذي سمعتم لعلكم أدركتم أن الحاجة العظيمة ماسَّة إلى بناء أنفسنا، وتأسيسها على تقوى من الله ورضوان، أشد من الحاجة إلى الطعام والشراب والكساء.

ذلك لعدة أسباب لعلنا أن نقف عليها:

أولًا: لكثرة الفتن والمغريات وأصناف الشهوات والشبهات؛ فحاجة المسلم الآن -لا ريب- إلى البناء أعظم من حالة أخيه أيام السلف، والجهد -بالطبع- لابد أن يكون أكبر؛ لفساد الزمان والإخوان، وضعف المعين، وقلة الناصر.

ثانيًا: لكثرة حوادث النكوص على الأعقاب، والانتكاس، والارتكاس حتى بين بعض العاملين للإسلام، مما يحملنا على الخوف من أمثال تلك المصائر.

ثالثًا: لأن المسئولية ذاتية، ولأن التبعة فردية: ﴿ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَـٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا ﴾ [النحل: ١١١].

رابعًا: عدم العلم بما نحن مقبلون عليه؛ أهو الابتلاء أم التمكين؟ وفي كلا الحالَيْن نحن في أَمَسِّ الحاجة إلى بناء أنفسنا لتثبت في الحالين.

خامسًا: لأننا نريد أن نبني غيرنا، ومن عجز عن بناء نفسه فهو أعجز وأقل من أن يبني غيره، وفاقد الشيء لا يعطيه كما قيل.

من عوامل بناء النفس

لذلك كله كان لابد من الوقوف على بعض العوامل المهمة في بناء النفس بناءً مؤسَّسًا على تقوى من الله ورضوان؛ فها هي بين أيديكم -الآن- بعض العوامل غير مرتبة، فما كان من صواب فمن الله، وما كان من خطأ فمن نفسي ومن الشيطان.

اللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلًا وأنت تجعل الحزن إذا شئت سهلًا.

من عوامل البناء التقرب إلى الله بما يحب

من عوامل بناء النفس: التقرب إلى الله -عز وجل- بما يحب من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، وخير ما تقرب به المتقرِّبون إلى الله الفرائض التي فرضها الله جل وعلا،

وعلى رأس هذه الفرائض توحيد الله جل وعلا وإفراده بالعبادة وحده لا شريك له، ثم إن في النوافل لمجالًا واسعًا عظيمًا لمن أراد أن يرتقي إلى مراتب عالية عند الله تبارك وتعالى، وفضل الله واسع يؤتيه من يشاء.

يقول ﷺ ، فيما يرويه عن ربه، كما في البخاري: «**وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضته عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه؛ فإذا أحببته، كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينَّه، ولئن استعاذني لأعيذنَّه**» (١)

ومن فضل الله جل وعلا علينا أن جاء هذا الدين بعبادات شتى تملأ حياة المسلم في كل الظروف والأحوال؛ بالليل والنهار، بالقلب والبدن؛ فهناك السنن القولية، والسنن الفعلية والقلبية التي يعتبر أداؤها من أهم عوامل بناء النفس؛ من قيام ليل، وصيام تطوع، وصدقة، وقراءة قرآن، وذكر لله آناء الليل وأطراف النار، ولاشك أن هذه العبادات تقوِّي الصلة بين العبد وبين ربه، وتوثِّق عُرى الإيمان في القلب؛ فتنبني النفس وتزكو بها، وتأخذ من كل نوع من العبادات المتعددة بنصيب؛ فلا تَمَلُّ ولا تَسْأَمُ.

لكن علينا أن ننتبه في هذه القضية إلى أمور:

أولًا: الحذر من تحول العبادة إلى عادة؛ لأن البعض يأْلَف بعض العبادات حتى يفقد حلاوتها ولذَّتها؛ فلذلك تراه لا يستشعر أجرها، فتصبح العبادة حركة آلية لا أثر لها في سَمْتٍ أو قول أو عمل أو بناء.

ثانيًا: الحذر من الاهتمام بالنوافل على حساب الفرائض؛ لأن البعض يُخطِئ، فيهتم بالأدنى على حساب الأعلى -وما في العبادات دنيء- فيقوم الليل -مثلًا- ثم ينام عن صلاة الفجر، فليكن لك من كل عبادة نصيب، وعلى حسب الأهمية؛ كالنحلة تجمع الرحيق من كل الزهور، ثم تخرجه عسلًا مصفًّى شهيًا سائغًا لذة للآكلين.

ثالثًا: إذا تعارض واجب ومستحب؛ فالواجب مقدَّم ولا شك.

رابعًا: التركيز على أعمال القلوب، وتقديمها على أعمال الجوارح؛ فالقلوب هي محل الفكر، ومحل التدبُّر، ومحل العلم، والقلب مع الجوارح -كما تعلمون- كالملك مع الجنود:

---

(١) صحيح: البخاري (٦١٣٧).

«ألا وإن في الجسد مضغة[1] إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله؛ ألا وهي القلب» [2]

من عوامل بناء النفس المجاهدة

من عوامل بناء النفس: المجاهدة: وكل فكرة لا يصحبها مجاهدة فهي في طريقها إلى الاضمحلال والذوبان والزوال، يقول الله جل وعلا: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

والنفس كالطفل إن تهمله شب	**على حب الرضاع وإن تفطمه ينفطمِ**
فجاهد النفس والشيطان واعصهما	**وإن هما محَّضاك النصح فاتهمِ**

إن استشعار المؤمن أن الجنة محفوفة بالمكاره يتطلب منه طاقة عالية متمثلة في هِمَّة عالية تتناسب مع ذلك المطلب العالي؛ للتغلب على تلك المكاره التي حفَّت بذلك المطلب العالي، ألا وهو الجنة -نسأل الله من فضله- مع تنقية تلك الهمم من كل شائبة تدفع لوجه غير وجه الله عز وجل، وإنما تفاوت الناس بالهِمَم لا بالصور، والله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم[3]

هاهو ثابت البناني عليه رحمة الله يقول: تعذبت بالصلاة عشرين سنة، ثم تنعمت بها عشرين سنة أخرى، والله إني لأدخل في الصلاة فأحمل همَّ خروجي منها.

لا شك -والله- أن هذا نتيجة مجاهدة وصل بها إلى الهداية من الله جل وعلا.

ويقال للإمام أحمد: يا إمام! متى الراحة؟ فيقول -وهو يدعو إلى المجاهدة-: الراحة عند أول قدم تضعها في الجنة.

إي والله! إنها الراحة الأبدية التي يُستعذَب كل صعب في سبيل الوصول إليها.

وأعظم المجاهدة -يا أيها الأحبة- مجاهدة النيات: **«فإنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى»** [4]، والعمل بغير نية عناء، والنية بغير إخلاص رياء، والإخلاص من غير

---

(١) مضغة: قطعة لحم بقدر ما يمضغ في الفم.

(٢) متفق عليه: البخاري (٥٢)، ومسلم (٤١٧٨).

(٣) صحيح: مسلم (٦٧٠٧، ٦٧٠٨).

(٤) متفق عليه: البخاري (١) (٦٣١١) (٦٥٥٣)، ومسلم (٥٠٣٦).

صدق هباء: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٣].

يأتي أناس يوم القيامة بحسنات أمثال جبال تهامة يجعلها الله هباءً منثورًا، مع أنهم كانوا يصلون مع المصلين، ويصومون مع الصائمين، ولهم من الليل مثل ما للمصلين وما للمخلصين، لكنهم إذا خلَوْا بمحارم الله انتهكوها[1]؛ أمام الناس عُبَّاد زُهَّاد نُسَّاك، لكن إذا خلَوا ظنوا أن الله لا يعلم كثيرًا مما يعملون؛ فالنيةَ النية!

هاهو ﷺ يتجه إلى تبوك من المدينة بجيش قوامه ثلاثون ألفًا في صحاري يبيد فيها البيد، ويضيع فيها الذكي والبليد، وقت عسرة ووقت شدة حرٍّ ودنوّ ثمار في المدينة، ومشقة عظيمة في سفرهم بلغت فوق ما يتكلم المتكلمون، حتى إن عمر رضي الله عنه ليقول: «لقد أصابنا عطش شديد حتى ظننَّا أن رقابنا ستتقطع من شدة العطش، حتى إن الرجل لينزل عن بعيره فينحره، فيعتصر فرثه ثم يشربه» الحال هذا بعضه.

وعندما قفلوا راجعين منصورين، يقول النبي ﷺ بعد هذا التعب العظيم: «**إن بالمدينة أقوامًا ما سرتم مسيرًا، ولا قطعتم واديًا، ولا وطئتم موطئًا يغيظ الكفار إلا كانوا معكم؛ حبسهم العذر**»، قالوا: يا رسول الله! ﷺ وهم بالمدينة؟! قال: «**نعم، وهم بالمدينة**»[2] إنهم -ولاشك- أقوام حسَّنوا نيَّاتهم.

جاءوا إلى رسول الله ﷺ يقولون: يا رسول الله! زادٌ وراحلة، لا نملك ذلك، فيقول ﷺ: «**لا زاد ولا راحلة**»، ﴿ تَوَلَّواْ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ ﴾ [التوبة: ٩٢]، فبحسن النية بلغوا ما بلغ أولئك الذين سمعتم بعض ما حصل لهم.

ولذلك يقول الإمام أحمد موصيًا ابنه: يا بني! انوِ الخير؛ فإنك لا تزال بخير ما نويت الخير، فالنية النية، والإخلاص الإخلاص؛ فهي من أهم عوامل بناء النفس وتزكيتها، وكل ما لا يراد به وجه الله يضمحل.

علامات الإخلاص

ثم اعلم -يا أخي الحبيب- أن للإخلاص علامات اعرض أعمالك عليها، واختبر نفسك وجاهدها وهي على سبيل المثال لا الحصر:

---

(١) صحيح: أخرجه ابن ماجه (٤٢٤٥)، والألباني في «الصحيحة» (٥٠٥)، وفي «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٣٤٦).

(٢) صحيح: البخاري (٢٦٨٤) (٤١٦١).

أولًا: استواء المدح والذم؛ فالمخلص لا يتأثر بمدح مادح، ولا ذم ذامٍّ؛ لأنه جعل الهمَّ همًّا واحدًا، وهو إرضاء الله رب العالمين وكفى، ولذا يُمدح أحد الأئمة في وجهه، فيغضب، ويقول: أشهد الله أني أمقتك على ما تقول، والذي لا إله إلاَّ هو لو علمت من نفسي ما أعلم لحَثَوْتَ على رأسي التراب.

ثانيًا: نسيان العمل بعد عمله، ويبقى الهم همًّا واحدًا؛، هل تُقُبِّل هذا العمل أم لم يتقبل، و﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [المائدة: ٢٧].

ثالثًا: الحب في الله: حبًّا يزيد بالبر لكنه لا ينقص بالجفاء، ﴿ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ﴾ [البقرة: ١٤٣].

رابعًا: إخفاء ما يمكن إخفاؤه من الطاعات؛ خوفًا من دواعي السُّمْعَة والرياء «**فمن استطاع منكم أن يكون له خبيئة من عمل صالح فليفعل**».

لقد كان الرجل من أسلافنا يجمع القرآن ويحفظه وما يشعر به جاره، ويفقه الفقه الكثير وما يشعر به الناس حتى يُسأل، ويصلي الصلاة الطويلة والضيف في بيته ولا يشعرون؛ بل إن أحدهم ليدخل مع زوجته في فراشها ثم يخادعها كما تخادع المرأة صبيها، فإذا نامت سلَّ نفسه، ثم قام ليله كله: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [السجدة: ١٦] فما جزاؤهم؟ ﴿ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [السجدة: ١٧].

يقول أحد السلف: لقد أدركنا أقوامًا ما كان على ظهر الأرض من عمل يقدرون على أن يعملوه في السر؛ فيكون علانية أبدًا، يجلس الرجل منهم في المجلس المعمور بذكر الله، فتأخذه الخشية، فتأتيه العَبرة لتخرج فيردها؛ فإذا خشي خروجها خرج من مجلسه خوفًا من دواعي السمعة والرياء.

يصوم أحدهم يومًا، ويفطر يومًا لمدة أربعين سنة لا يعلم أهله به، كان حمَّالًا -يعمل حمالًا- يحمل غداءه معه في الصباح، فيتصدق به في الطريق على أحد المساكين، ويرجع في المساء ليتعشى مع أهله؛ فذاك إفطاره وهو عشاؤهم.

بل إن ابن المبارك عليه رحمة الله كان يجاهد في سبيل الله، وكان يضع اللثام على وجهه لئلا يُعرف خوفًا على نيته أن يشوبها شائب من الشوائب.

هل عاش أولئك يومًا من الدهر على وجه الأرض.

إي والله اللهم إنا نشهدك أنَّا نحبهم، اللهم احشرنا وإياهم في زمرة الصالحين.

إيمانهم بالله لا يتزعزع ... وضميرهم في الله لا يتزلزل

قد أرخصوا في الله كل عزيزة ... ثم استقلُّوا فيه كل مُذلَّلٍ

ليست مبادؤهم حديث مُنمِّق ... زيف اللسان ولا كلام مجمَّلِ

صارت مبادؤهم وصارت ... خلفها أفعالهم في موكب متمثِّل

حملوا القلوب على السيوف ... وأمعنوا في حملهن على الرماح الذُّبَّل

الموت للجبناء منحدر وللهمم الصعود شتان ما بين الثعالب في المعامع والأسود

من عوامل بناء النفس:
محاسبة النفس محاسبة دقيقة

من عوامل بناء النفس: محاسبتها محاسبة دقيقة؛ فالنفس بطبيعتها تميل إلى الشهوات، إلى اللذات، إلى الهوى؛ فلابد لها من محاسبة، والكل لا يشك أننا إلى الله راجعون، محاسبون على الصغير والكبير والنقير والقطمير.

والأعمال محصاة في سجلات محكمة لا تغادر صغيرة ولا كبيرة: ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓاْۚ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ﴾ [المجادلة: ٦]، ﴿ وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔاۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَاۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ عَمَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝ ﴾ [الحجر: ٩٢، ٩٣].

ما دمنا نعلم ذلك؛ فمن العقل أن نحاسب أنفسنا في الرخاء قبل الشدة؛ ليعود أمرنا إلى الرضا والغبطة؛ لأن من حاسب نفسه علم عيوبها وزلاَّتها، ومواطن الضعف فيها، فبدأ بعلاجها ووصف الدواء لها، فينمي ذلك في النفس الشعور بالمسئولية ووزن الأعمال والتصرفات بميزان دقيق، ألا وهو ميزان الشرع.

لقد عرف السلف الصالح أهمية ذلك، فحققوها في أنفسهم.

هاهو أحدهم - كما أورد ابن أبي الدنيا بسنده- جلس مع نفسه ذات يوم محاسبًا في آخر عمره، نظر وقلَّب وفكر وقدر؛ فإذا عمره ستون عامًا، حسب أيامها فإذا هي تربو على واحد وعشرين ألف يوم وخمسمائة، فصرخ وقال: يا ويلتاه! أألقى الله بواحد وعشرين

ألف ذنب وخمسمائة، هذا إن كان ذنبًا واحدًا؛ فكيف وفي كل يوم عشرة آلاف ذنب؟! ثم خرَّ مغشيًا عليه.

فالمحاسبة تروِّض النفس وتهذبها، وتزيد العمل الصالح، وتولِّد الحياء من الله، وتُلزم خشية الله، فحاسبوا أنفسكم قبل أن تُحاسَبوا، وزِنوها قبل أن توزنوا؛ فإنه أهون في الحساب غدًا أن تحاسبوا أنفسكم اليوم، وتَزَيَّنوا للعرض الأكبر ﴿ **يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ** ﴾ [الحاقة: ١٨].

والمحاسبة على أقسام: محاسبة قبل العمل: قف عند أول همِّك أو إرادتك العمل، فأسأل نفسك: هل العمل مشروع؟ أقدم وأخلص وجِدَّ وسارع إن كان كذلك، وإن لم يكن: «**فمن عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد**»(١)، كما قال ﷺ.

ومحاسبة أثناء العمل: هل أنت مخلص صادق أم مراءٍ؟ وأنت أعلم بنفسك؛ لأن العمل قد يبدأ وهو خالص لله عز وجل ثم يشوبه شيء من الرياء أثناء أدائه؛ فليُنتبَه للنية فيه.

ومحاسبة بعد العمل وهي على أنواع:

أحدها: محاسبة النفس على طاعة قصرت فيها في حق لله؛ فلم توقعها على الوجه الذي ينبغي أن توقع، وحق الله -كما تعلمون- في الطاعة ستة أمور:

- الإخلاص في العمل.
- ثم النصيحة لله فيه.
- ثم متابعة الرسول ﷺ.
- ثم شهود مشهد الإحسان، وهو أن تعبد الله كأنك تراه.
- ثم شهود مِنَّةِ الله عليك في التوفيق لأدائه.
- ثم شهود تقصيرك فيه بعد ذلك كله.

أما الثانية: فمحاسبتها على كل عمل كان تركه خيرًا لك من فعله.

وأما الثالثة: فمحاسبتها على الأمور المباحة أو المعتادة لِمَ فعلتها؟

ومما يعين على محاسبة النفس معرفة عيوبها، ومن عرف عيبه كان أحرى بإصلاحه.

---

(١) **متفق عليه**: البخاري (٢٥٥٠)، ومسلم (٤٥٨٩)، (٤٥٩٠).

ومما يعين على معرفة عيوب النفس أمور: ملازمة العلماء الصادقين المخلصين العاملين الناصحين، وكذلك ملازمة الإخوة الصالحين الذين يذكرونك الله ويخوِّفونك حتى تلقى الله -سبحانه وتعالى- آمنًا.

والمؤمن للمؤمن -كما تعلمون- كاليدين؛ تغسِّل إحداهما الأخرى، وقد لا يُقلع الوسخ أحيانًا إلاَّ بنوع من الخشونة، لكن ذلك يوجب من النظافة والنعومة بعد ذلك ما يحمد به ذلك التخشين؛ فاصبر على مرارة التخشين بتعريفك بعيوبك من إخوانك، لتحمد ذلك ولو بعد حين.

ومما يعين على معرفة العيوب، التأمل في النفس بإنصاف وتجرد؛ فمن تأمل في نفسه بإنصاف وتجرُّد عرف عيوبها، فإن عدمت عالمًا، وإن عدمت قرينًا صالحًا ولم تتأمل في نفسك بإنصاف -وإن شاء الله لا يعدم هؤلاء- فابحث عن عيوبك عند أعدائك، واستفد منهم؛ فالحكمة ضالتك.

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ... ولكن عين السخط تبدي المساويا

والكيِّس من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمنَّى على الله الأماني.

من عوامل بناء النفس:
طلب العلم

ومن أهم عوامل بناء النفس: طلب العلم المقرب إلى الله جل وعلا، والعمل به، والدعوة إليه، والصبر على الأذى في تبليغه، أقول هذا لسببيْن اثنيْن؛ لأن العبادة بلا علم توقع في البدع، وما وقع المبتدعة فيما وقعوا فيه إلا عن جهل غالبًا، ولأن العلم مادة الدعوة إلى الله جل وعلا، ودعوة إلى الله بلا علم قد تضر ولا تنفع، وقد يصاحبها الانحراف والضلال.

وما الداعية بلا علم إلا كواقف على شاطئ البحر ينتظر وينظر؛ فإذا الأمواج تتقاذف سمكة من الأسماك يَمْنَةً ويَسْرَةً، تطفو بها تارة، وتغوص بها أخرى، فيشفق عليها مما هي فيه، فيأخذها، ثم يرميها على الشاطئ ظنًا منه أنه أنقذها، وما علم أنه أهلكها، وإن للخير سبلًا، وكم من مريد للخير -يجهل العلم- لا يدركه.

فيا طالب العلم: العلم هام لهاتيْن النقطتيْن، ولك خصال عند الله وميْزات قلَّما توجد لأي شخص من الأشخاص في هذه الحياة، اسمعها وعِها وقف عندها علَّها تكون لك حافزا:

أولًا: «**من سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهَّل الله له به طريقًا إلى الجنة**»[١]، فأنت تسلك طريق الجنة ولا شك، قال ذلك الصادق المصدوق ﷺ .

ثانيًا: الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضًا بما يصنع[٢]

ثالثًا: أهل السماوات والأرض -حتى الحيتان في جوف البحر- يصلون على معلم الناس الخير[٣]

رابعًا: الخيرية لك «**خيركم من تعلم القرآن وعلمه**»[٤]

خامسًا: النضارة والوضاءة في الدنيا والآخرة، فتجد وجوه طلبة العلم المخلصين عليها النور وعليها الوضاءة في الدنيا وتبيض: ﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ [آل عمران: ١٠٦]، يقول النبي ﷺ : «**نضَّر**[٥] **الله امرًا سمع مقالتي فوعاها**[٦]**، فأداها كما سمعها؛ فربَّ مبلَّغ أوعى من سامع**»[٧]

سادسًا: التعديل والتزكية لا من البشر القاصرين المخطئين، ولكن من رسول الله ﷺ : «**يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين**»[٨]

---

(١) صحيح: مسلم (٧٠٢٨).
(٢) صحيح: أخرجه ابن ماجه (٢٢٦)، وأحمد (١٨١١٨)، والألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (٨٥).
(٣) صحيح: أخرجه ابن ماجه (٢٢٣)، (٢٣٩)، والترمذي (٢٦٨٢)، وأحمد (٢١٧٦٣)، و الألباني في «الصحيحة» (٣٠٢٤)، وفي «صحيح الجامع» (٣٩١٤)، جميعهم بنحوه.
(٤) صحيح: البخاري (٤٧٣٩)، (٤٧٤٠).
(٥) نضر: معناه الدعاء له بالنضارة وهي النعمة والبهجة.
(٦) وعي: حفظ وفهم وأدرك وحوى.
(٧) صحيح: أخرجه ابن ماجه (٢٣٦)، والترمذي (٢٦٥٨)، وأحمد (١٦٧٨٤) (١٦٨٠٠)، والألباني في «صحيح الجامع» (٦٧٦٥).
(٨) صحيح: أخرجه أبو نعيم الأصبهاني في «معرفة الصحابة» (٦٩٤)، والطحاوي في «مشكل الآثار» (٣٢٦٩)، و «كنز العمال» (٢٨٩١٨)، والألباني في «مشكاة المصابيح» (٢٤٨).

العلم أحلى وأغلى ما له استمعت أذن وأعرب عنه ناطق بفم
العلم أشرف مطلوب وطالبه لله أكرم من يمشي على قدم
فقدِّس العلم واعرف قدر حرمته في القول والفعل والآدابَ فالتزم
يا طالب العلم لا تبغي به بدلاً فقد ظفرت ورب اللَّوح والقلم
واجهد بعزم قوي لا انثناء له لو يعلم المرء قدر العلم لم ينمِ
والنية اجعل لوجه الله خالصة إن البناء بدون الأصل لم يقمِ

هذه المزايا العظام -يا أيها الأحبة- تحتاج في نيْلها إلى صبر ومصابرة ومجاهدة.

فمن لم يصبر على ذل التعلم، بقي طول عمره في عماية الجهالة، ومن صبر عز في الدنيا والآخرة.

طالب العلم -يا أيها الأحبة- يحتاج إلى الصبر، لماذا؟ لأنه يحتاج إلى عالم يذهب إليه، يحتاج -بالطبع- إلى أن يتأدب معه، إلى أن يستأذن عليه، إلى أن يتلطف في السؤال، إلى أن يزاحم طلاب العلم بالرُّكَب، إلى قسوة قد يجدها من العالم في لفظ يعنفه به أمام الناس، ومع هذا كله فإن الصعاب تُستعذَب في سبيل الجلوس مع العلماء، للتأدُّب بأدبهم، ونيل العلم الذي يكسبك خشية رب الأرباب؛ فأصل العلم خشية الله جل وعلا.

بناء العلماء لطلابهم

وللعلماء -يا أيها الأحبة- خطة تربوية عظيمة في تأديب طلاب العلم سابقًا ولاحقًا، تتفاوت من عصر إلى عصر.

جدير بنا أن نقف عند هذه الخطة التربوية، لقد كانوا يقسون على طلابهم قسوة عظيمة تصل بهم إلى حدٍّ لا يكاد يحتمل، لماذا؟ لأنها قسوة الحازم ليتأدبوا ويتعلموا.

ومن يك حازمًا فليقْسُ أحيانًا على من يرحم

روى الخطيب البغدادي في كتاب: شرف أصحاب الحديث أن أصحاب الحديث كانوا يهجمون على الإمام الأعمش عليه رحمة الله أبي محمد سليمان بن مهران؛ لأنه إمام ثقة، والرواية عنه شرف، فكانوا يتهافتون عليه، فأراد أن يؤدبهم وأن يختبرهم ليرى هل هم صادقون أم ليسوا بصادقين.

فاشترى كلب صيد، أول ما يسمع قرع الأقدام اقترب من البيت أطلقه عليهم، فيطردهم حتى يخرجوا خارج الحدود، ثم يرجع.

وفي اليوم الثاني هل يئس أولئك الطلاب -طلاب العلم-؟ لا؛ بل عاودوا مرة أخرى إلى بيت الأعمش، وهم على حَذَر، وعلى خوف ووَجَل، ولما قربوا أطلق عليهم الكلب مرة أخرى حتى خرجوا خارج الحدود، ثم عاد.

وفي اليوم الثالث يأتون، وما يئسوا وما فتروا وما قالوا: لا خير في هذا الإمام، وإنما علموا قدر ما عند هذا الإمام وقدره، فصبروا على كل شيء في سبيل أن يحصلوا على حديث واحد من أحاديث رسول الله ﷺ، وجاءوا في اليوم الثالث، وتقدموا على خوف ووَجَل يتوجسون أن يرسل عليهم الكلب، ووصلوا إلى البيت فلم يخرج عليهم شيء، فاستأذنوا على الإمام، فأذن لهم، ولمَّا دخلوا بكى، قالوا: ما يبكيك يا إمام؟ قال: قد مات الذي كان يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر، يعني الكلب.

ما ترون لو أن عالمًا طرد طالب علم ناهيك عن أن يرسل عليه كلبًا، هل سيرجع إليه في هذا العصر الذي ماتت فيه الهمم؟ كلا وألف كلا؛ بل لا يسلم من لسانه أبد الدهر؛ لأن الهِمَم ضعيفة، وأي عائق يعيق الضعيف، وأما السلف فلا، بل أقوياء أتقياء؛ فليكن لنا من سِيَرِهم دافع لأعمالهم.

وتشير الأخبار عن الإمام الأعمش -أيضًا- إلى أن تلاميذه كانوا يحتالون عليه ليكتبوا عنه الحديث؛ نظرًا لأنه يَضِنُّ عليهم بما لديه، لتربيتهم ولتعريفهم قدر هذا الحديث الذي يأخذونه عنه.

ومن ذلك ما يرويه أحد تلاميذه -وهو عيسى بن يونس - يقول: خرجنا في جنازة من الجنائز، ورجل من طلاب العلم كان يقود الإمام الأعمش فلما دُفنت ورجعنا، عدل بالإمام الأعمش قليلًا قليلًا حتى أصحر به -يعني: حتى أصبح بالإمام في الصحراء- ثم قال: يا إمام! أتدري أين أنت الآن؟ قال: لا.

قال: في جبّانة كذا وكذا، والله لا أردك حتى تملأ ألواحي هذه حديثًا، طالب علم حريص على الحديث، والأعمش لن يستطيع أن يعود إلى بيته، قال: اكتب، حدثنا فلان عن فلان حتى ملأ الألواح التي بين يديْه، ثم قفل به راجعًا، وهو يعرف ماذا سيكون من هذا الإمام؛ فلما دخل الكوفة، دفع الألواح لطالب علم آخر وقال له: خذها واهرب بها، وذهب بالأعمش إلى داره، ولما وصل تعلق الأعمش به، وصاح بالناس، وقال: خذوا

الألواح من هذا الطالب، فقال: يا أبا محمد! قد فاتت الألواح.

قال: كل ما حدثتك به كذب لئلا ينتفع به، فقال التلميذ -وهو يعرف إمامه- أنت أعلم بالله من أن تكذب.

من يقول حديث رسول الله ﷺ لا يكذب أبدًا، وهو الصحيح فلم يكذب عليه أبدًا.

والسؤال المتبادر إلى الذهن -يا طلاب العلم- هل كانوا يبخلون ويضنون بالحديث على طلبة العلم؟ والله ما كانوا كذلك؛ فأحاديثهم تملأ دواوين الإسلام، لكنهم كانوا يُربون أيّما تربية.

إن هذه الطريقة -يا أيها الأحبة- دواء ناجح لكسر الشموخ والخيلاء التي توجد عند بعض طلبة العلم عندما يتعلم مسألة واحدة من مسائل العلم، فبعضهم يحضر إلى حلقة الشيخ، ويرى أنه هو الشيخ، وبعضهم يحضر إلى الحلقة وقد استحضر نسبه وماله وجاهه؛ فما له إلا أن يؤدب على التواضع للعلم والذل له ليناله؛ فلا ينال العلم مستكبر.

ومن لم يذُقْ مر التعلم ساعة ... تجرَّع ذُل الجهل طول حياته

فإذا حضرت مجلس علم -يا طالب العلم- فلا يكن حضورك إلا حضور مستزيد علمًا وأجرًا، لا حضور مستغنٍ بما عنده، ولا حضور طالب عثرة تشنعها، أو غريبة تشيعها؛ فهذه أفعال الأراذل الذين لا يفلحون في طلب العلم أبدًا؛ فإذا حضرت على هذه النية فقد حصَّلت خيرًا على كل حال؛ فإن لم تحضر وهذه النية معك فجلوسك في منزلك أروح لبدنك، وأكرم لخلقك، وأسلم لدينك؛ فإذا حضرت مجلس العلم فإما أن تسكت سكوت الجهال؛ فتحصل على أجر النية في المشاهدة، وعلى الثناء عليك بقلة الفضول، وعلى كرم المجالسة ومودة من تجالس؛ فإن لم تفعل فاسأل سؤال المتعلم؛ فما صفة هذا السؤال؟ أن تسأل عما لا تدري، ولا تسأل عما تدري؛ فإن السؤال عما تعلمه سُخف، وقلة عقل، وقطع لزمانك ولزمان غيرك بما لا فائدة فيه، وربما أدى إلى اكتساب العداوات، وهو عين الفضول: ﴿ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [النحل: ٤٣].

فإذا سألت وأجابك بما فيه كفاية لك، فاقطع الكلام؛ فإن لم يجبك بما فيه الكفاية فاستزده؛ فإن لم تفهم فقل: لم أفهم واستزده؛ فإن لم يزدك أو سكت أو عاد عليك الكلام الأول بلا مزيد فأمسك عنه، وإلا حصلت على العداوة، ولم تحصل على ما تريد من الزيادة، وإياك وسؤال العَنِت والمُكابِر الذي يطلب الغلبة، ويبين أن عنده علمًا؛ فإن ذلك

دليل على سوء الخلق، وعلى قلة الدين، وعلى كثرة الفضول، وضعف العقل والسخف: **«وإنما أهلك من كان قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم»** (١)

الوقوف على أخبار العلماء

ثم اعلم -أخي طالب العلم- أن الوقوف على بعض أخبار طلبة العلم والعلماء من خير الوسائل التي تغرس الفضائل في النفوس، وتدفع النفس الضعيفة إلى تحمُّل الشدائد والمكاره في سبيل الغايات النبيلة والمقاصد الجليلة، وتبعث فيها روح التأسي بذوي التضحيات في سبيل العلم لتسمو إلى أعلى الدرجات، في أخبارهم إثارة قوية لمشاعر طالب العلم الذي يسعى جاهدًا للوصول إلى المقامات العليَّة في العلوم الشرعية.

- ابن القاسم:

جاء في ترتيب المدارك: أن ابن القاسم عليه رحمة الله تزوج ابنة عمه، وحملت منه، وقد كان شغوفًا بطلب العلم، فقرر أن يرتحل لطلب العلم، وخيَّرها عند سفره بين البقاء أو الطلاق، فاختارت البقاء معه، فسافر حتى أتى المدينة، وترك زوجه حاملًا في بلاده، فاسمع ما يقول.

يقول: كنت آتي كل يوم الإمام مالك عليه رحمة الله في ظلمة الليل -في آخر الليل- في غلس، فأسأله عن مسألتيْن أو ثلاث أو أربع، وكنت أجد منه في ذلك الوقت انشراحًا للصدر، فكنت أستغل ذلك الانشراح، فآتيه كل سحر، قال: فجئت يومًا، فتوسدت مرة عتبة بابه، فغلبتني عيناي، فنِمْتُ، وخرج الإمام مالك إلى المسجد، ولم أشعر به.

قال: فخرجت جارية سوداء له، فركضتني برجلها، وقالت: إن الإمام قد خرج إلى المسجد، ليس يغفل كما تغفل أنت، إن له اليوم تسعًا وأربعين سنة قلَّما صلى الصبح إلا بوضوء العتمة، يصلي الصبح بوضوء العشاء لمدة تسع وأربعين سنة!

يقول ابن القاسم: فأنخت بباب مالك سبع عشرة سنة أطلب العلم، والله ما بعت فيها ولا اشتريت شيئًا، وإنما أطلب العلم.

قال: وبينما أنا عنده إذ أقبل حجاج مصر -بلده- فإذا شاب ملثم دخل علينا، فسلم على مالك، وقال: أفيكم ابن القاسم؟ فأشير إليَّ، قال: فأقبل علي يقبل عيني ويدي

(١) متفق عليه: البخاري (٦٨٥٨)، ومسلم (٣٣٢١) (٦٢٥٩).

ووجدت منه ريحًا طيبة؛ فإذا هي رائحة الولد، وإذا هو ابني الذي ذهبت، وهو في بطن أمه قد أصبح شابًا يافعًا فيالله! تركوا كل شيء، وأعطوْا العلم كل شيء، ففتح الله عليهم فتحًا لا يخطر بالبال، ولا يدور بالخيال.

لا نقول: أعطُوا ما أعطَوْا؛ فنحن أقلُّ والله.

لكن نقول: لنعطِ العلم بعض شيء علَّنا نكون شيئًا، نسأل الله أن ييسر لنا العلم النافع والعمل الصالح، هو ولي ذلك والقادر عليه.

- أبو الحسن الفالي:

حكى الخطيب التبريزي اللغوي: أن أبا حسن الفالي الأديب كانت له نسخة من كتاب الجمهرة لابن دريد وكانت في غاية الجودة، فدعته الحاجة ذات يوم لبيعها، فكتب أبياتًا في آخرها يعبر عن معاناته في بيع أعز ما لديه وهو الكتاب، لكنها الحاجة -ونسأل الله أن يغنينا عمن أغناه عنا- عرضها للبيع فاشتراها منه ابن القاسم -المذكور قبل قليل- بستين دينارًا، ثم قام بتصفحها، فوجد فيها تلك الأبيات بخط بائعها يقول فيها:

أنست بها عشرين حولاً وبعتها ... لقد طال وجدي بعدها وحنيني

وما كان ظني أنني سأبيعها ... ولو خلدتني في السجون ديوني

ولكن لضعف وافتقار وصبية ... صغار عليهم تستهلُّ شجوني

فقلت ولم أملك سوابق عبرتي ... مقالة مكويِّ الفؤاد حزين

وقد تخرج الحاجات يا أم مالك ... كرائم من رب بهن ضنين

فقرأها وتأثر ابن القاسم، وفاضت عيناه، وذهب وأرجع النسخة له، وترك له الدنانير، فرحم الله الجميع.

- البخاري:

وفي البداية يقول ابن كثير: لقد كان البخاري يستيقظ في الليلة الواحدة من نومه فيوقد السراج، ثم يكتب الفائدة تمر بخاطره، ثم يطفئ السراج لينام، ثم يقوم أخرى وأخرى، وكان يتعدد ذلك منه في الليلة الواحدة أكثر من عشرين مرة.

بل إن الإمام الشافعي تذكر عنه ابنته وتقول: إنه في ليلة واحدة أطفأ وأضاء السراج ستين مرة.

فما الذي نَامَهُ هؤلاء من ليلهم، رحمهم الله؟ قد كانت الشدائد في سبيل تحصيل العلم عندهم أشهى وألذَّ وأحلى من جنى النحل في الفم؛ لأنهم يعرفون قدر ما يأخذون.

يقول عمرو بن حفص الأشقر: إنهم فقدوا البخاري عليه رحمة الله صاحب الصحيح -نسأل الله أن يرحمه وأن يجعل كتابه في موازين حسناته يوم يلقى الله- فقدوه أيامًا من كتابة الحديث، وقد كان من أحرص الناس على كتابة الحديث، قال: فطلبناه نتلمسه، فوجدناه في بيته وهو عريان لا يملك حتى ثوبًا يلبسه، قال: وقد نفد كل ما لديه، ولم يبقَ معه شيء، ولم يستطع الخروج؛ لأنه عريان.

قال: فاجتمعنا، وجمعنا له الدراهم حتى اشترينا له ثوبًا وكسوناه.

قال: ثم اندفع معنا في كتابة الحديث.

فماذا يقول من يملك عشرات الثياب؟ ماذا يقول من يملك عشرات الأقلامٍ والأوراق ثم ينام عن حلقة علم يذهب لها لا على قدميْه بل بسيارته في مكان مُكيَّف مُعدٌ مُهيًأ لذلك؟ لا نامت أعين الكسالى. لا نامت أعين البطالين.

كلنا نلهج بالعلم، ولا أحد منا يباري العلماء.

وهاهو أبو يوسف تلميذ أبي حنيفة -عليهما رحمة الله- يموت ابنه ويجهزه ويصلي عليه مع المصلين، ثم يوكِّل أناسًا يدفنونه، ويذهب لحلقة إمامه، وهو يقول: ذهب الابن، وأحتسبه عند الله، وأخشى أن تفوتني مسألة لا تذهب حسرتها من قلبي حتى أموت.

يا خاطب العلياء إن صداقها صعب المنال على قصير الباع

أما المنذري: فيقول أحد تلاميذه: جاورته ثنتيْ عشرة سنة -بيتي فوق بيته- ما قمت في ساعة من ليل إلا وسراجه مُضاء يكتب أو يصلي.

وهذا خبر أخير من أعجب الأخبار وأغربها: وقع لعالم أندلسي ممن رحلوا من الأندلس إلى المشرق، رحل هذا العالم إلى المشرق على قدميْه ليلقى إمامًا من أئمته ليأخذ عنه العلم، ولكنه حين وصل إليه وجده محبوسًا ممنوعًا من الناس، فتلطف وتحيَّل حتى لقيه، فأخذ العلم عنه بصورة لا تخطر على البال، ولا تدور بالخيال.

- **بقي بن مخلد:**

جاء في السير للذهبي أن بَقي بن مَخْلَد الأندلسي كان جُلُّ بغيته ملاقاة الإمام أحمد والأخذ عنه، فخرج من الأندلس على قدميْه ماشيًا.

يقول: فلما قربت من بغداد وصلني خبر المحنة التي دارت على الإمام أحمد، وعلمت أنه ممنوع الاجتماع إليه والسماع عنه.

قال: فاغتممت لذلك غمًّا شديدًا فلم أعرج على شيء؛ بل أنزلت متاعي في بيت اكتريته، ثم أتيت الجامع الكبير، وحضرت بعض الحِلَق، قال: ثم خرجت أستدل على منزل الإمام أحمد، قال: فدُللت عليه، فقرعت بابه، فخرج إليَّ، وفتح الباب، فنظر إلى رجل لم يعرفه، فقلت: يا أبا عبد الله رجل غريب الدار، وهذا أول دخولي البلد، وأنا طالب حديث وجامع سنة، ولم تكن -والله الذي لا إله إلا هو- رحلتي إلا إليك يا إمام.

فقال: ادخل الممر، ولا تقع عليك عين، فدخلت الممر، وجاء لي، فقال: من أين؟ قلت: من المغرب الأقصى من الأندلس، فقال: إن موضعك لبعيد، وما كان من شيء أحب إلي من أن أحسن عون مثلك على مطلبه، غير أني في حيني هذا ممتحن بما لعله قد بلغك، فقلت له: بلى قد بلغني، وأنا قريب من بلدك بعد أن قطعت ما قطعت مقبلًا نحوك، لكن يا أبا عبد الله! هذا أول دخولي البلد، وأنا مجهول عندكم؛ فإذا أذنت لي أن آتيك في زِيِّ سائل، فأقول ما يقول السائلون المتسولون: الأجر رحمكم الله، فتخرج إلى هذا الممر؛ فلو لم تحدثني في كل يوم إلا بحديث لكان لي فيه خير عظيم.

فقال الإمام أحمد: نعم على شرط ألا تظهر في الحِلَق عند أصحاب الحديث.

فكنت آخذ عودًا بيدي وألُفُّ رأسي بخرقة، وأجعل ورقتي ودواتي في كُمِّي، ثم آتي بابه، فأصيح: الأجر رحمكم الله، الأجر رحمكم الله.

قال: فيخرج إليَّ في الممر ويغلق باب الدار، ثم يحدثني بالحديثين والثلاثة حتى اجتمع لي نحو ثلاثمائة حديث.

قال: والْتزمتُ تلك الطريقة حتى زالت المحنة عن الإمام أحمد؛ يوم مات المبتدع، وتولى من كان على السنة.

قال: فظهر الإمام، وسما ذكره، وعظم في عيون الناس، وكانت تضرب إليه آباط الإبل، فكنت أحضر له، فيعرف لي حق صبري، ويعرف لي حق تجلدي في طلب العلم؛ فإذا رآني هشَّ وبشَّ، وقال: تعالَ إليَّ، وأفسح لي في مجلسه، وأدناني من نفسه، ثم يقول لطلبة الحديث: هذا هو الذي يستحق أن يطلق عليه اسم طالب العلم، ثم يقص عليهم قصتي.

قال: ثم مرضت يومًا من الأيام، فزارني الإمام أحمد؛ فما بقي أحد بعد ذلك إلا زارني، وأَجلَّني الناس لزيارته وخدموني؛ فواحد يأتيني بفراش، وآخر يأتيني بلحاف، وآخر يأتيني بأطايب الأغذية، وكانوا في تمريضي -والله- أكثر من تمريض أهلي لو كنت بين أظهرهم؛ فرحم الله الجميع، وجزاهم الله عن العلم وأهله خيرًا.

هذه بعض أخبارهم في رحلاتهم في طلب العلم، في نَصَبِهم، في تعبهم، في هجر النوم، في الصبر على شظف العيش، في مرارة الفقر والجوع والعطش في الهواجر الأيام والساعات، في نفاد أموالهم ونفقاتهم في الغربة، في فقد كتبهم ومصابهم في بيعها؛ لأنها من أعز ما يملكون.

فائدة أخبار العلماء

هذه الأخبار هلاّ كانت -أيها الأحبة- مجلاة للقلوب من الصدأ والكسل، ومدعاة لتحريك الهمة للجد والعمل، أنتم كهم ومن يشابه أباه فما ظلم.

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم ... إن التشبُّه بالكرام فلاح

قوموا اقرعوا بالعلم أبواب العلى ... لا تقصروا عن همة القرَّاع

واستعذبوا شوك المنايا في اجتنا ... ورد الأماني رائق الإيناع

وتعلموا فالعلم معراج العلا ... ومفاتح الإخصاب والإمراع

وإذا علمتم فاعملوا فالعلم ... لا يجدي بلا عمل بحسن زمام

ثم إن لكل شيء ثمرة، وثمرة العلم العمل والتبليغ، وعلم بلا عمل كشجر بلا ثمر

هتف العلم بالعمل ... فإن أجابه وإلا ارتحل

«**ومن كتم علمًا ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة**» [1]، وما أحوج الأمة في حاضرها إلى الدعوة إلى الله جل وعلا.

ما أحوج الأمة إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وعلى بصيرة، وعلى علم مستوعب للشرع والواقع والبيئة وأحوال الناس.

---

(١) **صحيح**: أخرجه ابن ماجه (٢٦٥)، والترمذي (٢٦٤٩)، وأحمد (٨٥١٤)، وأبو داود (٣٦٥٨)، والألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٢٠).

إن تبليغ هذا الدين، يروض النفوس ويكسبها الصبر، ويكسبها الحلم والطمأنينة والسكينة؛ إذ إنه لابد من مخالطة المدعوين، ولابد من الصبر على أذاهم، والحنو عليهم لانتشالهم مما هم فيه، ومن يبني غيره هو أحق بأن يكون ثابت البناء، لا يُزحزَح بسهولة.

إن سفينة الأمة تتقاذفها الأمواج يمْنَة ويسرة، ويخرق فيها المفسدون كل يوم خرقًا؛ فإن لم تجد من يصلح تلك الخروق، فلربما تتحطم السفينة، وتغرق ولاشك، وسيغرق من على ظهرها، وركابها بحاجة إلى أن يكونوا على قدر كبير من الوعي والبناء واليقظة لما يراد بهم، وبإصلاح النفوس تصلح السفينة وتسلم ولاشك.

هاهو رجل من الصالحين في مدينة الرياض -كما ذكر من نحسب أنه ثقة- يقول: كان له عمل مسائي، وهذا العمل المسائي امتد لمدة شهر، يقول: فكنت أمُرُّ على أحد الأرصفة فأجد عليها أربعة من شباب هذه الأمة يلبسون من الثياب ما يستحيي إبليس أن يلبسه، ومعهم من آلات اللهو ما ينزه المقام عن ذكره.

قال: فكنت أتأثر لحالهم، وأذهب لعملي قال: وجئت في اليوم الثاني، وإذ هم على آلات اللهو، وفي جلسةٍ اللهُ يعلمها قال: وأتأثر لذلك، وشهر كامل وأنا أمر عليهم على هذا الرصيف.

قال: فجئت في ذلك اليوم، وقلت: والله لئن جلسوا إلى الغد لآتين إليهم ولأذكرنهم بالله -الذي لا إله إلا هو-.

قال: وجئت في اليوم الثاني وانطلقت لعملي.

قال: ومررت فإذا الأربعة على ما هم عليه.

فأوقفت سيارتي بعيدًا عنهم.

ثم تقدمت إليهم وئيدَ الخُطى؛ علَّهم أن يعدلوا من جلستهم، أو يغيِّروا من بعض المنكرات التي هم عليها.

قال: فقاموا فأدخلوا العود في السيارة، وأطفئوا ما معهم من سجائر، وأطفئوا الموسيقى، وجلسوا جلسة معتدلة.

قال: فتقدمت إليهم، وسلمت عليهم واستأذنت، فأذنوا لي.

قال: فجلست إليهم، وقلت: أنتم تعلمون لمَ جئت، يا أيها الشباب! أنتم أحفاد أبي بكر وعمر وعثمان وعلي -رضي الله عنهم وأرضاهم- أرأيتم لو انحرفت سيارة من هذا

الشارع، ثم ارتطمتْ بكم وأنتم على هذا الحال، أيسركم أن تلقوا الله بذلك؟ ثم ذكرتهم بالقبر والمصير الذي ينتظرهم، ثم ذكرتهم بوقوفهم بين يديْ الله عز وجل، وبمصيرهم إما إلى الجنة وإما إلى النار، قال: وإذا بدموعهم تنزل على خدودهم، وإذ بأحدهم يقول: وشهر وأنت تمر علينا، لا سامحك الله.

قال: ولم؟ قال: أرأيت لو أخذنا الله قبل هذه الليلة، والله لا نسامحك بين يديْ الله جل وعلا.

يقول هذا الأخ: فإن الأربعة لأئمةُ مساجد الآن.

إن الأمة لأحوج ما تكون إلى كلمة: اتقوا الله عودوا إلى الله أيسرُّكم أن تلقوا الله بم أنتم عليه من المنكرات.

كلمات بسيطة، لكن الله عز وجل إذا علم من قائلها الصدق نفع الله عز وجل بها.

تنبيهات لكل داعية

فادع الله يا طالب العلم محتسبًا أجرك على الله أكرم الأكرمين.

أقول لك: يا طالب العلم! يا أيها الداعية إلى الله! لابد أن تضع نصب عينيْك بعض الأمور الغير مرتبة:

أولًا: أن الحكمة مطلوبة، وهي وضع الشيء في موضعه: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ [النحل: ١٢٥]، فالشدة في موضعها حكمة، والرفق في موضعه حكمة، وما كان في شيء إلا زانه، وما نزع من شيء إلا شانه.

ووضع الندى في موضع السيف بالعلا مُضِرٌ كوضع السيف في موضع الندى.

ثانيًا: رَبِّ نفسك وربِّ الناس، وابنهم على صغار العلم قبل كباره؛ فإن غذاء الكبار -كما يقال- سم الصغار، فلو قدمت لقمة لحم لرضيع لربما تقتله فلينتبه لذلك.

فلا بد من التدرج في طلب العلم؛ فالقفزات المحطمة لا خير فيها.

ثالثًا: تحديد الهدف، مع الدراسة والتخطيط لاتخاذ الوسائل المناسبة الموصلة إلى الهدف، ومثل الذين يعملون من غير تحديد لأهدافهم كمثل إنسان يضرب في الصحراء دون أن يكون معه دليل يرشده أو قائد يهديه، ولا شك أنه سيظل يسير حتى يَمَلَّ السير، ويضرب في الأرض حتى يضطرب ويختل، وعندئذٍ يتمنى لو يعود من حيث أتى، وهيهات هيهات! ولاشك أن الهدف هو نشر دين الله في الأرض كما أمر؛ فلابد من وسائل

صحيحة سليمة ومقدمات معينة توصل للهدف المطلوب، وهي غير خافية على المسلم البصير.

رابعًا: ليس كل ما يعرف يقال، ولكل مقام مقال: «حدثوا الناس بما يعرفون، أتريدون أن يُكذَّب الله ورسوله؟!».

خامسًا: علينا أن نتعرف على طبيعة الأرض قبل أن نحرث فيها الحرث؛ بمعني أن نكون على معرفة بأحوال المدعوين النفسية، وظروفهم الاجتماعية، ودراسة البيئة التي ندعوا فيها، وخير قدوة لنا في ذلك رسول الله ﷺ الذي كان على علم بالأفراد؛ فتعلمون في صلح الحديبية يوم يأتي أحد المشركين للصلح، فيقول النبي ﷺ : هذا رجل فاجر، فكان كما قال ﷺ ، ولم يحصل معه شيء.

قال: ويأتي آخر، فيقول ﷺ : «**هذا رجل متألّه ابعثوا الهدي في وجهه**»، فبعثوا الهدي في وجهه، فرجع وهو يقول: ما كان لمثل هؤلاء أن يُصَدُّوا عن البيت، ويأتي سهيل، فيقول النبي ﷺ : «**سَهُل أمرُكم**»؛ فكان الصلح[1]

بل إنه ﷺ هو الأسوة، كان يدرس نُظُم الحُكم والبيئات التي حواليه، فيقول لأصحابه: «**إن في الحبشة ملكًا لا يُظلم عنده أحد**»[2]، فيأمرهم بالهجرة إليه، ويقول لمعاذ: «**إنك تأتي قومًا أهل كتاب؛ فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله**»[3]

سادسًا: لا يعول على الكثرة من الجماهير في الرخاء، أما وقت الشدة، ليكن التعويل على أصحاب السوابق، يا أهل سورة البقرة، ويا أهل بيعة الشجرة.

سابعًا: المنبر من أعظم وسائل الدعوة إلى الله، لكنه ليس الوسيلة الوحيدة؛ فهناك الرسائل، وهناك الهاتف والملصقات والكتب واللقاءات والأشرطة، وما الأشرطة؟ مائدة الدنيا ونافعة الناس، قال فيها أحد العلماء:

وفي كـــل وقـــت مـــضى آيـــة ... وآيـــة هـــذا الـــزمان الـــشريط

---

(1) **صحيح**: أخرجه أحمد (١٨٩٣٠)، وابن أبي شيبة في «مصنفه» (٧/ ٣٨٧)، و «كنز العمال» (١٠/ ٤٩٣)، جميعهم بنحوه.

(2) **صحيح**: «عمدة القاري شرح صحيح البخاري» (١١/ ٤٨٩)، و«السيرة النبوية» لابن كثير (٢/ ٤)، و«الروض الأنف» (٢/ ٨٩).

(3) **صحيح**: البخاري (٦٩٣٧).

ولن يعدم قاصد الخير الوسائل الشرعية إن خطط ودرس وأخلص وصدق.

ثامنًا: الترفع عن مجاراة السفهاء؛ إذ كيف يجاري العالم السفيه؟ وكيف يعامل الحليم من فقد الحلم؟ وكيف يباري الخَلُوقُ سيء الخلق؟ إنه إقحام للنفس في ميدان لا تضمن فيه السلامة، ولا تؤمن فيه العاقبة؛ فأمسك -أيها الداعية ويا طالب العلم- عن مخاطبة السفهاء، ومجاراة السفهاء، والتورُّط معهم، فهم موجودون في كل عصر، وهم موجودون في كل بيئة، مشاغبون مع كل داعية، لا يخلو منهم جيل، ولذا نبه القرآن الكريم على خطرهم، وحذر عن مجاراتهم ومناقشاتهم فقال: ﴿ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩].

تاسعًا: لا تلتفت إلى الوراء؛ فإن وراء الداعية نعيقًا وعواءً للباطل لو التفت إليه لربما تأثر به، ولربما ضعف سيره به وانشغل به، عمَّا هو أهم منه، ولذا ضرب ابن القيم عليه رحمة الله مثلًا للملتفت لنعيق الباطل بالظبي، ومثل أهل الباطل بالكلب، فيقول: الظبي أشد سعيًا من الكلب، لكن الظبي إذا أحس بالكلب وراءه التفت إليه، فضعف سعيه، فأدركه الكلب، وهو أبطأ منه؛ فالسالك لهذا الطريق ليس في وقته متسع لتشتيته هنا وهناك؛ فكيف يتأثر بأقاويل وادعاءات المبطلين، فإذا وثقت بالطريق الذي تسير فيه وصاحوا لك في طريق سَيرك فلا تلتفت إليهم.

عاشرًا: إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم، لا تأخذ العلم من صاحب هوى أو من غافل: ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ [الكهف: ٢٨].

أخيرًا: -وقد أطلت في هذه النقطة لأهميتها- لابد للطلب والدعوة من صبر عظيم كصبر الجهاد، وليكن معزيك ما يجده الصابر عند ربه يوم يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب، إن المريض ليتجرع الدواء المرَّ لا يكاد يسيغه؛ أملًا في حلاوة العافية ولو بعد حين.

صبرت ومن يصبر يجد غبَّ صبره ... ألذ وأحلى من جنى النحل في الفم

من عوامل بناء النفس:
المداومة على العمل وإن قل

ومن عوامل بناء النفس: المداومة على العمل وإن قل؛ لأن المداومة على الأعمال الصالحة والاستمرار عليها تثبيت وترويض للنفس البشرية لمواجهة أعباء الطريق

وتكاليفه، وصرفٌ لمكايد الشيطان ونوازعه، ولذا لَّما سئل رسول الله ﷺ: أي الأعمال أحب إلى الله؟ قال: «**أدومها وإن قل**»[١]، كما روى البخاري.

ويقول ﷺ: «**تابعوا بين الحج والعمرة فإنهما ينفيان الفقر والذنوب كما ينفي الكير**[٢] **خبث**[٣] **الحديد**»[٤]، فإذا عود المرء نفسه على الفضائل انقادت له -ولاشك- وإذا تهاون فأقدم مرة وأحجم مرة كان إلى النكوص أقرب، والشيطان إذا رآك مداومًا على طاعة الله عز وجل فبغاك وبغاك؛ فإن رآك مداومًا مَلَّكَ ورفضك، وإن رآك مرة هكذا ومرة هكذا طمع فيك؛ فداوم على الطاعات؛ فإن الله من فضله وكرمه أنه إذا جاء ما يصرفك عن أداء الطاعات من عجز ومرض وفتنة؛ فإن الأجر يجريه الله تعالى لك كما كنت صحيحًا كما أخبر بذلك النبي ﷺ كما في البخاري: «**إذا مرض العبد أو سافر كتب له مثل ما كان يعمل مقيمًا صحيحًا**»[٥]، فضلًا من الله ونعمة فله الحمد.

من عوامل بناء النفس:
مجالسة الصالحين

من عوامل بناء النفس: مجالسة من رؤيتهم تذكر بالله عز وجل؛ فمجالستهم تريك ما في نفسك من قصور وضعف وعيوب؛ فتصلحها وتهذبها؛ فهم زينة الرخاء وعدة البلاء، يذكرونك إن نسيت، ويرشدونك إن جهلت، يأخذون بيدك إن ضعفت، مرآة لك ولأعمالك، إن افتقرت أغنوك، وإن دعوا الله لم ينسوك «**هم القوم لا يشقى بهم جليسهم**»[٦]

من جالسهم وأحبهم أذاقه الله حلاوة الإيمان التي فقدها الكثير، وأحلّوا بدلًا منها حبَّ المصلحة التي تنتهي بنهاية المصلحة، إذا رأيت هؤلاء خشع قلبك، واطمأن وسكن

---

(١) متفق عليه: البخاري (٥٥٢٣) (٦٠٩٩) (٦١٠٠)، ومسلم (١٨٦٣) (١٨٦٤) (١٨٦٦).
(٢) الكير: الزق الذي ينفخ به النار.
(٣) خبث الحديد: هو ما تلقيه النار من وسخ المعدن كالفضة والنحاس وغيرهما إذا أذيبا.
(٤) صحيح: أخرجه الطبراني في «الأوسط» (٣٨١٤)، و «كنز العمال» (١١٧٨٨)، و الألباني في «الصحيحة» (١١٨٥).
(٥) صحيح: البخاري (٢٨٣٤).
(٦) متفق عليه: البخاري (٦٠٤٥)، ومسلم (٧٠١٥).

ووصل إلى ما يصل إليه سلفنا -أحيانًا- يوم يجد أحدهم حبيبه في الله؛ فيتهلل وجهه بشرًا وفرحًا، ويفيض دمعه حينما يرى أحد جلاَّسه، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

فإذا ظفرت -أخي- بمجالسة مثل هؤلاء؛ فأحبهم وأخبرهم أنك تحبهم واطلب الدعاء منهم -في حال الفراق- في ظهر الغيب، وأطلق وجهك عند لقائهم، وابدأهم بالسلام، ونادهم بأحب الأسماء والكُنَى لديهم، وافسح لهم في المجلس، وزرهم بين آونة وأخرى؛ فالثمرة اليانعة لمجالسة من يذكرونك بالله يقصر العبد عن إحصائها، ويكفي أنها تجعلك تذوق حلاوة الإيمان، وتدخلك في السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [الكهف: ٢٨].

ومنها: طلب الوصية من الصالحين، يوم يُقيِّض الله للمرء رجلا صالحًا يعظه، فيثبته الله وينفعه بتلك الكلمات، فتنبني نفسه، وتُسدَّد خطاه يوم يتعرض لفتنة أو بلاء من ربه ليمحصه به.

هاهو الإمام أحمد يساق إلى المأمون مقيدًا بالأغلال، وقد توعده وعيدًا شديدًا قبل أن يصل إليه حتى قال خادمه: يعز عليَّ يا أبا عبد الله أن المأمون قد سلَّ سيفًا لم يسله قبل ذلك، وأنه أقسم بقرابته من رسول الله ﷺ لئن لم تجبه ليقتلنك بذلك السيف، وهنا يأتي الصالحون، أهل البصيرة لينتهزوا الفرصة ليلقوا بالوصايا التي تثبت في المواقف الحرجة.

ففي السير: أن أبا جعفر الأنباري قال: لما حُمل الإمام أحمد إلى المأمون أخبرت، فعبرت الفرات، وجئته، فسلمت عليه، وقلت: يا إمام! أنت اليوم رأس، والناس يقتدون بك؛ فوالله لئن أجبت إلى خلق القرآن ليجيبنَّ خلق كثير، وإن لم تجب ليمتنعن خلق كثير، ومع هذا فإن الرجل إن لم يقتلك فإنك تموت، ولابد من الموت فاتق الله ولا تجبه.

والإمام أحمد في سياق رحلته إلى المأمون يقول: وصلنا إلى رحبة، ورحلنا منها في جوف الليل، قال: فعرض لنا رجل، فقال: أيكم أحمد بن حنبل؟ فقيل: هذا، فقال: يا هذا ما عليك أن تقتل هاهنا وتدخل الجنة، ثم قال: أستودعك الله، ومضى.

وأعرابي يعترضه، ويقول: يا هذا إنك وافد الناس فلا تكن شؤمًا عليهم، إنك رأس الناس فإياك أن تجيبهم إلى ما يدعونك إليه؛ فيجيبوا، فتحمل أوزارهم يوم القيامة، إن كنت تحب الله فاصبر؛ فوالله ما بينك وبين الجنة إلاَّ أن تقتل.

ويقول الإمام أحمد: ما سمعت كلمة مذ وقعت في هذا الأمر أقوى من كلمة أعرابي كلمني بها في رحبة طوق، قال: يا أحمد! إن يقتلك الحق مت شهيدًا، وإن عشت عشت حميدًا فقوّى بها قلبي.

فإن أردت بناء نفسك -أخي الكريم- فاحرص على طلب الوصية من الصالحين، واعقلها إذا تُلِيَت عليك، اطلبها قبل سفرٍ إذا خشيت مما يقع فيه، واطلبها أثناء ابتلاء، أو قبل حدوث محنة متوقعة، واطلبها إذا عُيِّنت في منصب صغر أو كبر، أو ورثت مالًا وصرت ذا غنى، واطلبها في الشدة والرخاء والعسر واليسر لتنبني نفسك، وينبني بها غيرك، والله ولي المؤمنين.

من عوامل بناء النفس:
التفرغ للعبادة

ومنها: الخلوة للتفرغ للعبادة، والتفكر في ملكوت الله والاستئناس بمناجاة الله عن مناجاة الخلق، في قيام ليل والناس نيام، في صلاة في بيتٍ عدا المكتوبة، في ذكر لله، في خلوة، عامل مهم في بناء النفس؛ فإن في ذلك صفاء للذهن وسلامة من آفات الرياء والتصنع للناس والمداهنة، وفيه بُعْدٌ عما يتعرض له الإنسان غالبًا بالمخالطة من غيبة ونميمة ولهو وضياع وقت ومداهنة، ولعل المرء في خلوة يذكر الله فتفيض عيناه من خشية الله؛ فيكون من السبعة الذين يظلهم الله بظله يوم لا ظل إلا ظله[1]، ومع هذا فإن مخالطة الناس والصبر على أذاهم خير -كما أخبر النبي ﷺ[2]- ولكن اخلُ وخالط، وكلٌ له وقته.

من عوامل بناء النفس:
الدعاء

ومنها: **الدعاء**. فهو أهم عامل في بناء النفس؛ إذ هو العبادة -كما أخبر النبي ﷺ[3]- ففيه الذل والخشوع والانكسار بين يديْ رب الأرباب ومسبب الأسباب، وهو الذي

---

(١) **متفق عليه**: البخاري (٦٢٩) (١٣٥٧)، ومسلم (٢٤٢٧).

(٢) **صحيح**: أخرجه ابن ماجه (٤٠٣٢)، والترمذي (٢٥٠٧)، وأحمد (٥٠٢٢)، و الألباني في «الصحيحة» (٩٣٩).

(٣) **صحيح**: أخرجه ابن ماجه (٣٨٢٨)، والترمذي (٢٩٦٩)، وأحمد (١٨٣٧٨)، وأبو داود (١٤٧٩)، والألباني في «صحيح الترغيب والترهيب» (١٦٢٧).

يجعل من *الداعي* رجلًا يمشي مرفوع *الهامة والقامة*، لا يخضع لأحد دون *الله -الذي لا إله إلا هو-* وهو من صفات عباد الله المتقين الذين يعلمون أن «**القلوب بين إصبعيْن من أصابع الرحمن يقلِّبها كيف يشاء**» [١]؛ فكان لسان الحال والمقال: «**يا مقلب القلوب ثبِّت قلبي على دينك**» [٢]، هلاَّ تحسسنا وتلمسنا مواطن وأسباب إجابة الدعاء؛ لعلنا نحظى بنفحة ربانية تكون بها سعادة الدنيا والآخرة، في ثلث ليل آخر، والناس هاجعون، والناس نائمون.

فقد روى الثقات عن خير	**الملا بأنه عز وجل وعلا**
في ثلث الليل الأخير ينزل	**يقول هل من تائب فيُقبل**
هل من مسيء طالب للمغفرة	**يجد كريمًا قابلا للمعذرة**
يَمُنُّ بالخيرات والفضائل	**ويستر العيب ويعطي السائل**

من عوامل بناء النفس:
تدبر كتاب الله تعالى

ومن عوامل بناء النفس: تدبر كتاب الله جل وعلا، والوقوف عند أسمائه الحسنى وصفاته العلا: ﴿ **أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ** ﴾ [محمد: ٢٤]، ﴿ **أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا** ﴾ [النساء: ٨٢].

كلنا يقرأ القرآن، وكثير منا يحفظ القرآن؛ لكن هل من متدبر ربط حياته بالقرآن؛ أقبل عليه تلاوة وتفسيرًا وعلمًا وعملًا وتدبرًا، منه ينطلق، وإليه يفيء، أولئك البانون أنفسهم، أولئك الثابتون إذا ادلهمَّت الخُطُوب، أولئك المسدَّدون المهديون إذا أطلت الفتن برأسها؛ فأصبح الحليم حيرانًا، وإن وقفة واحدة مع أسماء الله الحسنى وصفاته العلا الواردة في كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ لتبني النفس بناءً لا يتزلزل ولا يحيد، إنه السميع البصير ليس كمثله شيء، إنه العليم الخبير ليس كمثله شيء، لو تفاعل المؤمن مع اسم الله السميع العليم، فربَّى نفسه عليهما، فعلم أن الله يسمعه في أي كلمة ينطقها، في أي مكان

---

(١) **صحيح**: أخرجه ابن ماجه (٣٨٣٤)، والترمذي (٢١٤٠)، وأحمد (١٢١٢٨)، والألباني في «صحيح الجامع» (١٦٨٥).

(٢) **صحيح**: أخرجه الترمذي (٢١٤٠) (٣٥٢٢)، وأحمد (١٢١٢٨)، والألباني في «صحيح الجامع» (٤٨٠١).

يقولها: وحده أمام الناس عند من يثق به عند من لا يثق به؛ فالله يسمعه سمعًا يليق بجلاله؛ بل إنه ليسمع ويرى دبيب النملة السوداء على الصفاة السوداء في الليلة الظلماء؛ إذن لَصَلُح الحال.

هو الذي يرى دبيب الذَّر في الظلمات فوق صمِّ الصَّخر
وسامع للجهر والإخفات بسمعه الواسع للأصوات
وعلمه بما بدا وما خفي أحاط علمًا بالجلي والخفي

فيا طلبة العلم؛ ويا أيها الدعاة إلى الله: إن الله يسمع ما تقولون، ويعلم ما تقولون؛ فلا تأسوا ولا تحزنوا.

يا أيها الدعاة إلى الشر والضلالة: إن الله يسمع ما تقولون، وما تسرون، وما تعلنون، وما تدبِّرون، وما تخططون؛ فاللهَ اتقوا، أما والله لو تفاعلت النفوس مع أسماء الله لتعلقت القلوب بالله فلا يقول الإنسان ولا يلفظ إلا بميزان، هل هذا الكلام مما يرضي الله الذي هو يسمعه وسيحاسب عليه فأقدم وإلا فلا.

في يوم من الأيام، وعلى عهد رسول الله ﷺ يدخل رجل على زوجته مغضبًا، وكانت مغضبة، وكان حديث عهد بجاهلية، فأغضبته، فقال لها: أنت عليَّ كظهر أمي، بمعنى أنها حرمت عليه، فنزل الخبر عليها مهولًا كالصاعقة.

إلى أين تذهب؟ ذهبت إلى من أرسله الله رحمة للعالمين؛ إلى رسول الله ﷺ

دخلت عليه في بيت عائشة، وما ذاكم البيت يا أيها الأحبة؟ ما ذاكم البيت يا أصحاب القصور؟ غرفة واحدة، إذا جاء الضيف أو السائل إلى النبي ﷺ وُضع ساتر في وسط الغرفة، وتجلس عائشة في أقصى الغرفة، والنبي ﷺ مع السائل والضيف في أدنى الغرفة.

قالت: يا رسول الله! ظاهر مني[١]، فيقول ﷺ : «**ما أراك إلا قد حرمت عليه**»، فتقول: يا رسول الله! أكل مالي، وأفنى شبابي، نثرت له بطني[٢]، حتى إذا كبرت سني وانقطع

(١) **ظاهر مني**: أي حرمني على نفسه بأن قال: أنت عليَّ كظهر أمي.
(٢) **نثرت له بطني**: أي أكثرت له الأولاد.

ولدي ظاهر مني! فيقول ﷺ: «ما أراك إلاّ قد حرمت عليه»، فتقول: يا رسول الله! لي منه صبية صغار إن ضممتهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إلي جاعوا.

تجادل وتحاور الرسول ﷺ، وعائشة في الشق الثاني من الغرفة يخفى عليها بعض كلامهم.

ويأتي الحل مع جبريل من عند السميع البصير يقول: ﴿ قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾ [المجادلة: ١]، وتنزل كفّارة الظهار كما تعلمون، ولك أن تتخيل -يا أيها الأخ الحبيب- عائشة بجانبهم يخفى عليها بعض كلامهم، وما بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام، وما بين كل سماء وسماء مسيرة خمسمائة عام، وسُمك كل سماء مسيرة خمسمائة عام، ومن فوق السماء السابعة مسيرة خمسمائة عام، ومن فوق ذلك عرش الرحمن، ومن فوقه الرحمن بائن عن خلقه، مستوٍ على عرشه، يسمعها ويسمعهم؛ بل ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَـٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ﴾ [المجادلة: ٧]، إنه الكمال المطلق لا إله إلا هو السميع البصير، تقول عائشة رضي الله عنها بعد ذلك: «تبارك الذي وسع سمعه السماوات والأرض وكل شيء، لقد سمعها من فوق سبع سماوات، وما سمعتها وما بيني وبينها إلا الحجاب»[(١)] أو كما قالت.

إن النفس يوم تتفاعل مع هذه الصفة تتعلق في كل أمورها بالله، فتراقبه، وتنسى رؤية الخلق مقابل ذلك.

فيا أيها العبد المؤمن إذا لقيت عنتًا وظلمًا ومشقة وسخرية واستهزاء فلا تحزن.

يا طالب العلم، يا أيها الداعية: إذا جُعلت الأصابع في الآذان، واستُغشيت الثياب، وحصل الإصرار والاستكبار، فلا تحزن؛ إن الله يسمع ما تقول، ويسمع ما يقال لك: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١].

يا أيها الشاب الملتزم الذي وضع قدمه على أول طريق الهداية، فسمع زميلًا يسخر منه، ويهزأ به؛ لا تأسَ، ولا تحزن، واثبت، واعلم علم يقين أنك بين يديْ الله يسمع ما تقول وما يقال لك.

وسيجزي فاعلًا ما قد فعل: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾، ﴿ وَمَا يَعْزُبُ

---

(١) صحيح: أخرجه ابن ماجه (٢٠٦٣)، وصححه الألباني.

عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [يونس: ٦١].

سمعتم -يا أيها الأحبة- ما سمعتم، إن النفوس يوم تربى على تدبر كتاب الله جل وعلا والوقوف على معاني أسماء الله الحسنى وصفاته العلا، والتملي في سيرة المصطفى ﷺ تتخذه قدوة مطلقة، وتقتدي بمن يقتدي برسول الله ﷺ

تُبنى بناءً لا يزعزعه أي عارض في أي شبهة أو شهوة أو ترغيب أو ترهيب أو إغراء أو تحذير؛ بل تعلق باللطيف الخبير السميع البصير الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

إساءة الظن بالنفس

أخيرًا: أسئ الظن بنفسك يا عبد الله! لأن حسن الظن بالنفس يمنع عن كمال الإصلاح، ويري المساوئ محاسن والعيوب كمالًا، ولا يسيء الظن بنفسه إلا من عرفها، ومن أحسن ظنه بنفسه فهو من أجهل الناس بنفسه، وكم من نفس مستدرجة بالنعم، وهي لا تشعر مفتونة بثناء الجُهَّال عليها، مغرورة بقضاء الله حوائجها وستره عليها.

فابنوا على التقوى قواعدكم   فما يُبْنَى على غير التقى متداع

اللَّهم أنت خلقت أنفسنا وأنت تتوفاها؛ فزكِّها أنت خير من زكَّاها، أنت وليها ومولاها، لك مماتها ومحياها، إن أحييتها فاحفظها بما تحفظ به أنفس الصالحين، وإن أمَتَّها فاغفر لها وارحمها وأنت خير الراحمين، اللهم أتمم لنا العافية في الآخرة والدنيا والدين، اللهم أتمم لنا العافية في الآخرة والدنيا والدين، أنت ولينا توفَّنا مسلمين وألحقنا بالصالحين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.



[٢٢] عمر بن الخطاب رضي الله عنه

الحمد لله، الحمد لله قدّم من شاء بفضله، وأخَّر مَن شاء بعدله، لا يعترض عليه ذو عقل بعقله، ولا يسأله مخلوق عن علة فعله.

هو الكريم الوهاب، هازم الأحزاب، ومنشئ السحاب، ومنزّل الكتاب، ومسبب الأسباب، وخالق الناس من تراب.

الواحد الأحد، العزيز الماجد، المتفرد بالتوحيد والتمجيد، ليس له مثل ولا نديد، هو المبدئ المعيد، الفعال لما يريد، جل عن اتخاذ الصاحبة والولد، ولم يكن له كفوًا أحد.

لم يزل حكيمًا قديرًا عليمًا خبيرًا، سبق الأشياء علمه، ونفذت فيها إرادته، ولا يعزب عنه مثقال ذرة، سبحانه وبحمده.

لم يلحقه في خلق شيء مما خلق كلال ولا تعب، وما مسه لغوب ولا نصب، خلق الأشياء بقدرته، ودبرها بمشيئته، وقهرها بجبروته، وذللها بعزته، فذلت له الرقاب، وحارت في ملكوته فطن ذوي الألباب، وقامت بكلمته السماوات السبع والأرض المهاد، وثبتت الجبال الرواسي، وجرت الرياح اللواقح، وسار في جو السماء السحاب، وقامت البحار، وهو الله الواحد القهار، مغشي الليل النهار، خضع لعظمته المتعززون المتكبرون، وخشع له المترفعون، واستكان لربوبيته المتعظمون، ودان طوعًا وكرهًا له الخلق أجمعون.

نحمده على حَزَن الأمر وسهله، ونحمده كما حمد نفسه وكما حمده الحامدون من جميع خلقه، ونستعينه استعانة من فوَّض أمره إليه، وأقر أنه لا ملجأ ولا منجى منه إلا إليه، نستغفره استغفار مقرٍّ بذنبه، معترف بخطيئته.

ونشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، شهادة عبده، وابن عبده، وابن أَمَته، ومَن لا غنى به طرفة عين عن رحمته، إقرارًا بوحدانيته، وإخلاصًا لربوبيته، فهو العالم بما تبطنه الضمائر، وما تنطوي عليه السرائر، وما تغيض الأرحام وما تزداد، وكل شيء عنده بمقدار، لا يواري عنه كلمة، ولا يغيب عنه غائبة؛ ﴿ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأنعام: ٥٩].

ونشهد أن محمدًا عبده ونبيه ورسوله إلى خلقه، وأمينه على وحيه، أشرف من وطئ

الحصى بنعله، بلّغ عن الله رسالاته، ونصح له في برياته، وجاهد في الله حق الجهاد، وقاتل أهل البغي والزيغ والعناد والفساد، حتى تمت كلمة الله، وقطع دابر الفساد، صلوات الله عليه وسلامه، مِن قائد إلى الهدى، وعلى آل بيته الطاهرين، وعلى أصحابه المنتخبين، وعلى أزواجه الطاهرات أمهات المؤمنين، ومَن سار على نهجهم واقتدى بهديهم من الفقهاء والزهاد والدعاة العاملين المشمرين ومَن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وسلم تسليمًا كثيرًا.. آمين، آمين، آمين.

لا أرضى بواحدة حتى أبلغها مليون آمين.

أما بعد...

فإن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

عباد الله

إن هذا الدين لما نزل وعلمه النبي ﷺ الناس ورَبَّى عليه مَن ربَّى من الناس، أخرج لنا أفذاذًا ورجالًا عرفهم التاريخ وتكلم عنهم الناس مسلمهم وكافرهم، خلف هذا الدين رجالًا حملوا لواءه وحكموه في العالمين، وصاروا قدوات ومنارات يهتدي بها مَن بعدهم، وإن مِن الحق - مِن حق هؤلاء علينا - أن نعرف سيرهم ونبلوا أخبارهم.

أولًا: لنعرف عظمة هذا الدين الذي أخرج لنا هؤلاء الرجال.

وثانيًا: لأننا نقتدي بسلفنا بأئمتنا وهؤلاء الأئمة الأعلام هؤلاء منارات يهتدي بهم في دجى الظلمات، ونعلم أيضًا بأن هذه النماذج يمكن أن تتكرر بدرجات أقل ولا شك، إذا ما وجدت البيئة الإسلامية والتربية التي تثقل النفوس وتهذبها، فتغرس العقيدة وتثقل النفوس وتخلقها بأخلاق النبوة.

ولا شك أن شخصية عمر بن الخطاب رضي الله عنه شخصية مثالية من الشخصيات العظيمة التي مرت في تاريخنا الغني الذي غفل عنه الكثيرون، وإن استرجاع سيرة مثل هذه الشخصية يذكر الغافلين منا الذين خدعهم الغرب والشرق بسير عظماء عندهم، لو نظر الناظر لعرف أن واحدهم لا يخلو من انتهازية أو فسق أو شرب خمر ونساء أو ظلم وبغي وجور.

ويبقى أعلام الإسلام لا يوجد لهم مثيل.

إن عمر رضي الله عنه كان في الجاهلية يعبد الأصنام وكان يئد بنته، ويفعل الأفاعيل، وظَلَمَ الناس، وظَلَمَ المسلمين، حتى قال سعيد بن زيد: لقد رأيتني وإن عمر لموثقي وأخته على الإسلام، ولكنه أسلم وشاء الله أن ينتقل عمر من ضلال الجاهلية إلى نور الإسلام، فتغيرت الشخصية وانقلبت تمام الانقلاب، وكان لذلك بادرة وما سيأتي من الأحاديث الصحيحة والحسنة في سيرة هذا الرجل تدل على جوانب من عظمته.

لقد كان المسلمون يستبعدون إسلام عمر حتى قالت أم عبد الله بنت أبي حنفة: والله إنه لنترحل إلى أرض الحبشة أقبل عمر حتى وقف عليّ وهو على شركه قالت: وكنا نلقي منه البلاء، أذىً لنا وشرًّا علينا، فقالت: فقال عمر: لما رآهم يتأهبون للجلاء عن مكة: إنه الانطلاق يا أم عبد الله؟ قالت: قلت: نعم والله لنخرجن في أرض الله، آذيتمونا وقهرتمونا حتى يجعل الله لنا مخرجًا. قالت: فقال صحبكم الله، ورأيت له رقة لم أكن أراها، ثم انصرف وقد أحزنه فيما أرى خروجنا!

قالت: فجاء عامر وهو مسلم من حاجاتنا تلك التي ذهب بها، فقلت له: يا أبا عبد الله لو رأيت عمر آنفًا ورقته وحزنه علينا، قال: أطمعت في إسلامه؟ قالت: قلت: نعم، قال: لا يسلم الذي رأيت حتى يسلم حمار الخطاب، هل يسلم الحمار؟![1] قالها يأسًا لما كان يرى من غلظته وقسوته على الإسلام.

ولكن الله أيها الإخوة إذا أراد أن يهدي هدى، ولو كان الرجل أقسى الناس قلبًا، وأبعدهم عن الله، وهذا درس للدعاة إلى الله عز وجل؛ أن لا ييأسوا من الناس ولو كان مَن يرون أمامهم من أغلظ الناس قلبًا، لكن الله إذا أراد بعبد خيرًا هيأه له ووفقه له، ويسر الأسباب إليه، وهكذا حقًّا، فلما أسلم عمر ونطق بالشهادتين كان إسلامه فتحًا ولم يكن إسلامه سرًّا، بل إنه جاء في الحديث الحسن أنه لما أسلم قال: أيُّ قريش أنقل للحديث؟ قيل له: جميل بن معمر الجمحي، قال: فَغَدَى عليه عمر قال: عبد الله وغدوت أتبع أثره أنظر ما يفعل وأنا غلام أعقل كل ما رأيت حتى جاءه فقال: أما علمت يا جميل أني قد أسلمت ودخلت في دين محمد ﷺ، قال: فوالله ما راجعه حتى قام يجر رجليه واتبعه عمر واتبعته أنا حتى إذا قام على باب المسجد - جميل المشرك الإذاعة - وقف على باب المسجد

---

(١) **صحيح**: أخرجه الطبراني في «الكبير» (٢٥/ ٢٩)، والبيهقي في «دلائل النبوة» (٥٢٢)، وابن كثير في «السيرة النبوية» (٢/ ٣٣)، والألباني في «صحيح السيرة النبوية» (١ / ١٩٠).

صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش - وهم في أنديتهم حول الكعبة - ألا إن عمر قد صبأ[١]، قال: يقول عمر من خلفه: كذبت، ولكن قد أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدًا عبده ورسوله.

فأعلنها صراحة أمامهم، هذه العزة التي دخلت قلبه فأورثته هذه الصراحة وهذه الجرأة على الكفار،إعلان المبادئ.

قال: وساروا إليه فما برح يقاتلهم ويقاتلونه حتى قامت الشمس على رءوسهم، قال: وقد تعب وأرهق فقعد وقاموا على رأسه وهو يقول: افعلوا ما بدا لكم فأحلف أن لو كنا ثلاثمائة رجل لقد تركناها لكم أو تركتموها لنا.

قال: فبينما هم على ذلك إذ أقبل شيخ وهو العاص بن وائل فصرفهم عنه وإلا كانوا قتلوه[٢]

لما أسلم عمر أعز الله به المسلمين وأذل الله به المشركين.

وطاف المسلمون حول الكعبة لما أسلم عمر علانية، لما أسلم عمر فأعز الله به الدين أراد الله به خيرًا ففقهه في دينه وعلمه وهو العليم سبحانه وتعالى، حتى قال النبي ﷺ في علم عمر وفقهه وفضله أحاديث جمعها العلماء.

فمن ذلك: أربعة ساقها الزهري في نسق واحد قد وردت في سياقات صحيحة قال: قال رسول الله ﷺ: **«رأيت كأني أوتيت بإناء فيه لبن فشربته حتى رأيت الري[٣] يخرج من أناميلي ثم ناولت فضلي[٤] ما بقي في الإناء عمر»**. قالوا يا رسول الله فما أولتها؟ قال: **«العلم»**[٥]

«ورأيت كأن أمتي عليهم القمص إلى الثدي وإلى الركب وإلى الكعب، كلٌّ بحسب عمله وإيمانه، ومر عمر يسحب قميصًا سابغًا من طوله»، قالوا: يا رسول الله ما أولت ذلك؟ قال:

---

(١) **صبأ**: كان يقال للرجل إذا أسلم في زمن النبي ﷺ: قد صبأ، يعني أنه خرج من دين إلى دين.

(٢) **صحيح**: أخرجه ابن حبان في «صحيحه» (٦٨٧٩)، و«مجمع الزوائد» (١٤٤١٤)، و«السيرة النبوية» لابن كثير (٢/ ٣٩)، والألباني في «صحيح السيرة النبوية» (١ / ١٩١).

(٣) **الري**: الشبع من الماء والشراب.

(٤) **فضلي**: ما زاد عني من اللبن.

(٥) **متفق عليه**: البخاري (٨٢) (٦٦٠٥) (٦٦٢٧)، ومسلم (٦٣٤١).

«الدين» [١]

قال: **«ودخلت الجنة فرأيت فيها قصرًا أو دارًا فقلت: لمن هذا؟ قالوا: لرجل من قريش، فرجوت أن أكون أنا هو، فقيل: لعمر بن الخطاب، فأردت أن أدخل فذكرت غيرتك يا أبا حفص»**، فبكى عمر وقال: يا رسول الله أويغار عليك؟![٢]

قال: **«ورأيت كأني وردت بئرًا فورده ابن أبي قحافة فنزع ذنوبًا[٣] أو ذنوبين ونزعه فيه ضعف والله يغفر له، ثم أوردها عمر فاستحالت الدلو في يده غربا[٤] فاستقى فأروى الظمأة وضرب الناس بعطن[٥] فلم أرى أحدًا من الناس - أو قال: عبقريًا -يفري فريه[٦]»** [٧]

قال العلماء: هذا تأويل خلافة الشيخين، فإن أبا بكر استخلف سنة أو سنتين، فكانت خلافته قصيرة وكان منشغلًا عن الفتوحات بحروب الردة، فلما جاء عمر صارت خلافته أطول ففتح الله في عهده من الفتوحات وأدخل الله مِن الناس في عهده في الإسلام ما لا يحصى من الخلق كثرة، فنشر العدل في تلكم البلاد بعد أن أسس الصديق قاعدتها فأعاد القاعدة وأبلى بلاءً حسنًا، فمهد الطريق لعمر فجاء عمر فولى الولاة، وفتح الفتوحات وأتى للمسلمين بالخير من عند الله.

وقال النبي ﷺ: **«إن الله عز وجل جعل الحق على قلب عمر ولسانه»** [٨]

هذا الهادي المهدي الذي علمه الله وهداه، وبالعلم يهتدي الإنسان للحق والصواب.

فلابد من الاعتناء بالعلم والبحث عنه - يا أيها المسلمون - وإن في اكتساب العلم هدى، وإن العلم يهدي صاحبه في الظلمات ويكشف له عندما يحتار ويوقظه من المحرمات ويجنبه الشبهات، هذا العلم فتعلموا هذا الدين يهديكم الله به.

---

(١) **متفق عليه**: البخاري (٢٣) (٣٤٨٨) (٦٦٠٦) (٦٦٠٧)، ومسلم (٦٣٤٠).

(٢) **متفق عليه**: البخاري (٣٤٧٦) (٦٦٢١)، ومسلم (٦٣٤٩).

(٣) **ذنوبًا**: الدلو الممتلئ ماء.

(٤) **غربًا**: هو الدلو الكبير يسقى به البعير، وهو أكبر من الذنوب، وتفسير هذا ما حصل من طول خلافته، وما كان فيها من فتح وخير.

(٥) **العطن**: مبرك الإبل، يقول: حتى رويت الإبل وأناخت.

(٦) **يفري فرية**: يعمل عملًا مصلحًا وجيدًا مثله، ويقوي قوته.

(٧) **متفق عليه**: البخاري (٣٤٣٤) (٣٤٧٣) (٣٤٧٩)، ومسلم (٦٣٤٧).

(٨) **صحيح**: أخرجه الترمذي (٣٦٨٢)، وأحمد (٥١٤٥)، والألباني في «صحيح الجامع» (١٧٣٦).

فلما جعل الله الحق على لسان عمر وقلبه وافق ربه في آيات نزلت من القرآن على ما قال عمر، كما قال فيما ثبت في الصحيحين: وافقت ربي في ثلاث:

قلت: يا رسول الله لو اتخذنا مِن مقام إبراهيم مصلى نصلي وراءه، نصلي عنده، فنزلت: ﴿ وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ﴾ [البقرة: ١٢٥].

وقلت: يا رسول الله يدخل على نسائك البر والفاجر فلو أمرتهن أن يحتجبن، فنزلت آية الحجاب.

واجتمع نساء النبي ﷺ في الغيرة حصل منهن كلام، واشتدت وطأته على النبي ﷺ فقلت: يقول عمر وهو يعظ أمهات المؤمنين وينذرهن: عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجًا خيرًا منكن، فنزلت كذلك[(١)]

تأملوا - يا عباد الله - آية تنزل على كلام عمر، يلهم الله عمر أن يقول كلامًا فتنزل الآية بألفاظ عمر، وتصبح قرآنًا يتلى إلى يوم القيامة.

وافق عمر ربه في أمور أخرى كذلك كما ورد في أسارى بدر، وهكذا كان عمر رضي الله عنه مهيبًا هيبة تفتقدها كثير من شخصيات المسلمين اليوم، نزع الله منهم الهيبة فلا يهابون، ونزع الله من قلوبهم خوفه فصاروا يخافون من الناس، كان عمر شخصية رفيقة يهابه الناس فيرتعدون منه؛ ومن ذلك ما حصل لما استأذن على رسول الله ﷺ وعنده جواري قد علت أصواتهن على صوته، فأذن له عليه الصلاة والسلام فبادرن الحجاب، هربن فذهبن، فدخل عمر ورسول الله ﷺ يضحك، فقال: أضحك الله سنك يا رسول الله بأبي أنت وأمي، ما الخبر علام تضحك؟ قال: «**عجبت لجوارٍ كُنّ عندي فلما سمعن صوتك بادرن فذهبن**» فأقبل عمر عليهن من وراء حجاب فقال: أي عدوات أنفسهن والله لرسول الله ﷺ كنتن أحق أن تهبن منه، فقال رسول الله ﷺ: «**دعهن عنك يا عمر، فوالله إن لقيك الشيطان في فج[(٢)] قط إلا أخذ فجًّا غير فجك**»[(٣)]

هذا الرجل المهيب، هذا الرجل العظيم الشديد في دين الله كما قال النبي ﷺ عن

---

(١) متفق عليه: البخاري (٣٩٣) (٤٢١٣)، ومسلم (٦٣٦٢).

(٢) الفج: الطريق الواسع.

(٣) متفق عليه: البخاري (٣١٢٠) (٣٤٨٠) (٥٧٣٥)، ومسلم (٦٣٥٥).

أصحابه: «**أرأف أمتي بأمتي أبو بكر، وأشدهم بأمر الله عمر**» [١]

هذا الرجل الشديد المهيب لما تولى الخلافة ظهرت المعاني التي كانت مخبوءة في نفسه، معاني الشفقة والعطف والإحسان والرحمة في الإسلام.

لقد كان رحيمًا في عهد النبي ﷺ لكن لما ولي الخلافة ظهرت رحمته أكثر، هذا الرجل الذي جمع في شخصيته بين الهيبة والرحمة، بين الشدة في دين الله والرقة، حتى كان يبكي عندما يتلو القرآن ويمرض من قراءة الكتاب العزيز أحيانًا، فيعاد من مرضه الذي حصل بسبب تأثره بالقرآن.

ليست الهيبة يا أيها الناس أن يكون الإنسان صلبًا فظًّا غليظ القلب. ليست الهيبة أن يكون متعجرفًا قاسيًا.

وإنها الهيبة في مكانها محمودة، هذا الرجل الذي شهد التاريخ بفضله ورحمته برعيته، هذه هي القيادة المثلى التي خلفها النبي ﷺ بعده من أصحابه، أمثلة عندما يرى الإنسان حاله ويرى المسلمون واقعهم يشتاقون لخلافة مثل خلافة عمر، ويتوقون لقيادة مثل قيادة عمر الذي كان يخرج ليتفقد رعيته.

قال أسلم: خرجت مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى السوق، فلحقت عمر امرأة فقالت: يا أمير المؤمنين هلك زوجي وترك صبية صغار، والله ما يمزجون كراعًا[٢] ولا لهم زرع[٣] ولاضرع[٤]، وخشيت أن تأكلهم الضبع[٥]، وأنا بنت خفاق بن إيماء الغفاري - هذا الصحابي الجليل - وقد شهد أبي الحديبية مع النبي ﷺ.

فوقف معها عمر ولم يمض، ثم قال: مرحبًا بنسب قريب[٦]

ثم انصرف إلى بعير ظهير كان مربوطًا في الدار فحمل عليه جرارتين ملأهما طعامًا،

---

(١) **صحيح**: أخرجه الحاكم في «مستدركه» (٦٢٨١)، والبيهقي في «الكبرى» (١١٩٦٧)، و «كنز العمال» (٣٣١٢٦)، والألباني في «صحيح الجامع» (٨٦٨).

(٢) **كراعًا**: ما دون الكعب من الدواب.

(٣) **زرع**: أرض يزرعونها.

(٤) **ضرع**: كناية عن المواشي.

(٥) **الضبع**: السنة الشديدة المجدبة.

(٦) **نسب قريب**: أي انتسب إلى شخص معروف.

وحمل بينهما نفقة وثيابًا ثم ناولها بخطامه البعير وما عليه، ثم قال: اقتاديه فلن يفنى حتى يأتيكما الله بخير.

فقال رجل: يا أمير المؤمنين أكثرت لها!!

قال عمر: ثكلتك أمك، والله إني لأرى أبا هذه وأخاها قد حاصرا حصنًا زمانًا فافتتحناه ثم أصبحنا نستفيء[1] سهمانهما[2] فيه[3]

لا ينسى لأصحاب الفضل فضلهم، هذه امرأة أبوها وأخوها من كبار المجاهدين بسبب قتالهم غنم المسلمون وأكلوا.

هذا الرجل هو الذي كان يخرج في الليل يعس على رعيته.

قال أسلم: خرجنا مع عمر بن الخطاب إلى حرة واقم، وهي الحرة الشرقية للمدينة، حتى إذا كنا بسرار مرتفع من الأرض إذا نار، فقال: يا أسلم إني لأرى ها هنا رَكبٍ قصر بهم الليل والبرد، انطلق بنا، فخرجنا نهرول حتى دنونا منهم فإذا بامرأة معها صبيان صغار وقِدر منصوبة على نار، وصبيانها يتضاغون يصيحون ويبكون.

فقال عمر: السلام عليكم يا أصحاب الضوء، وكره أن يقول: يا أصحاب النار، هم يوقدون نارًا وعمر ينظر إلى القِدر قال: السلام عليكم يا أهل الضوء.

فقال: وعليك السلام، فقال: أدنو؟ فقالت: ادن بخير أو دع.

فدنى فقال: ماذا بكم؟ قالت: قصر بنا الليل والبرد.

قال: فماذا لهؤلاء الصبية يتضاغون؟ قالت: الجوع.

قال: فأي شيء في هذه القِدر؟

قالت: ماء أسكتهم به حتى يناموا، والله ما بيننا وبين عمر.

فقال: أي رحمك الله، وما يدري عمر بكم؟

(المرأة تقول: الله بيننا وبين عمر، نحن في الصحراء وحدنا لا نجد طعامًا، وعمر يقول لها - وهي لا تدري مَن هو - أي رحمك الله وما يدري عمر بكم وأنتم في هذه البقعة النائية؟

---

(١) نستفيء: نطلب الفيء وهو ما يأخذه المسلمون من يد الكفار بدون قتال.
(٢) سهمانهما: جمع سهم، وهو النصيب أي هما فتحاه ونحن الآن ننتفع بثمرة جهدهما.
(٣) صحيح: البخاري (٣٩٢٨).

قالت: يتولى عمر أمرنا ثم يغفل عنا!!

قال: فأقبل عليّ فقال: انطلق بنا، فخرجنا نهرول حتى أتينا دار الدقيق - دار اتخذها عمر خاصة لتخزين الدقيق - فأخرج عدلًا من دقيق وكبة من شحم فقال: احمله عليّ.

فقلت: أنا أحمله عنك.

قال: أنت تحمل عني وزري يوم القيامة؟ لا أمّ لك، فحملته عليه.

(الخليفة يحمل على ظهره أمام الناس يمشي بين الناس على ظهره من المدينة إلى الحرة الشرقية إلى المكان النائي الذي فيه المرأة، ويهرول من أجل الأولاد).

فانطلق وانطلقت معه إليهم نهرول، فألقى ذلك عندها، وأخرج من الدقيق شيئًا فجعل يقول لها: ذري عليّ وأنا أحرك لك، وجعل ينفخ تحت القِدر (الخليفة منبطح على الأرض صدره في التراب ينفخ على الحطب حتى يشتعل ثم أنزلها).

فقال: أبغيني شيئًا أسكب فيه، فأتته بصحفة فأفرغها فيه ثم جعل يقول لها: أطعميهم وأنا أصفح لهم (أي أضع لهم الطعام في الأطباق)، فلم يزل حتى شبعوا وترك عندها فضل ذلك (أي بقية الكيس).

وقام وقمت معه فجعلت تقول: جزاك الله خيرًا، كنت أولى بهذا الأمر من أمير المؤمنين، أنت أولى بالخلافة من أمير المؤمنين.

فيقول: قولي خيرًا إذا جئت أمير المؤمنين وحدثيني هناك إن شاء الله.

ثم تنحى ناحية عنها، فابتعد ثم استقبلها ينظر إلى مكانها من بعيد فضرب ضربة فقلنا له: إن لنا شأنا غير هذا، ولا يكلمني، (يقول لابد أن تكون الوقفة لهدف عمر لا يتكلم حتى رأى الصبية يصطرعون ثم ناموا وهدئوا).

فقال: يا أسلم إن الجوع أسهرهم وأبكاهم، فأحببت أن لا أنصرف حتى أرى ما أحب[1]

هذا عمر، هذا عمر.. في الرعية هذا عمر... في تفقده للمساكين وعقده هذا عمر... ورحمته وإشفاقه بالرغم مما عنده من الشدة في دين الله والهيبة التي كانت يهابه بها الأقرباء والبعداء.

---

(١) انظر «فضائل الصحابة» لأحمد بن حنبل (٣٨٢)، و«الكامل» في التاريخ (١ / ٤٧٢)، و«تاريخ الطبري» (٢/ ٥٦٨).

اللهم ارحم عمر، واغفر له وأعلي شأنه، وارفع درجته في المهديين.

اللهم إنا نسألك أن تجعلنا ممن يحب نبيك محمدًا ﷺ وأصحابه وممن يقتدي بنبيك ﷺ وأصحابه، واغفر لنا أجمعين وتب علينا يا أرحم الراحمين.

أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم، فاستغفروه إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية

الحمد لله الذي لا إله إلا هو وحده لا شريك له، لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا.

لقد كانت وفاة عمر فاجعة فجع بها القريب والبعيد.

كان عمر هو الباب الذي يدرء عن المسلمين الفتن، فلما كسر الباب باغتيال عمر دخلت الفتن على المسلمين من كل جانب.

عن عود بن مالك الأشجعي أنه قال: رأيت في المنام كأن الناس قد جمعوا فكأني برجل قد صرعهم فوقهم بثلاثة أذرع أطول من الجميع، قال: قلت: مَن هذا؟ قالوا: عمر ابن الخطاب، قال: قلت: لِمَ؟ قال: إنه لا تلومه في الله لومة لائم، وإنه خليفة مستخلف وشهيد مستشهد.

قال: فأتيت أبا بكر فقصصتها عليه، قال: فأرسل إلى عمر يبشره فقال لي: اقصص رؤياك، فلما بلغت إلى خليفة قال: زجرني عمر ونهرني.

قال: تقول هذا وأبو بكر حيٌّ؟!

قال: فَسَكتُ.

فلما ولى عمر كان بعد في الشام، مررت به وهو على المنبر فدعاني فقال لي: اقصص رؤياك، قال: فلما بلغت: لا يخاف في الله لومة لائم، قال: إني لأرجو أن يجعلني الله منهم، وأما خليفة مستخلف فقد والله استخلفني، فأسأله أن يعينني على ما ولاني.

قال: فلما بلغت: وشهيد مستشهد ، قال: وأنَّى الشهادة وأنا في جزيرة العرب وحولي يغزون ويغزون. ثم قال عمر مستدركًا: يأتي الله بها أنَّى شاء، يأتي الله بها أنَّى شاء.

ورأى عمر في منامه أن ديكًا نقره ثلاث نقرات، وفعلًا حصل نقاش بين عمر وكان لا يدخل الأعاجم والفرس إلى جزيرة العرب، فدخل بعضهم مستترين بالإسلام، وكان من سياسة عمر أن لا يدخلهم، دخلوا فأقموا فكان منهم الحاقد الفارسي المجوسي أبو لؤلؤة،

الذي قال لعمر متوعدًا: لأصنعن لك رحى يتحدث بها الناس.

فقال عمر: توعدني العبد.

وبعد أيام اختبأ له وراء باب المسجد في الظلام في صلاة الفجر، فلما سجد عمر قفز عليه فطعنه في كتفه وخاصرته، فقال عمر: قتلني الكلب، ثم صمت، ثم سمع الناس قراءة ابن عوف، وصار العلج في الناس في صفوف المصلين ينحر يمنًا وشمالًا، فقتل فيها ستة من الصحابة، وحمل عمر مطعونًا وجعلوا يشربونه اللبن فيخرج من الجرح، فعلموا أن الأمر قد انتهى، أوصى عمر ووعظ الناس وذكرهم بالله، وانتقل إلى الرفيق الأعلى في قصةٍ مشهودة عظيمة جدًّا[1] أخرجها البخاري في صحيحه.

كانت وفاة عمر شديدة الوطأة على القريب والبعيد.

قال ابن المسيب بن رافع: سار إلينا عبد الله بن مسعود سبعًا من المدينة سبعة أيام إلينا في مكانه، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: إن غلام المغيرة أبا لؤلؤة قتل أمير المؤمنين عمر، قال: فضج الناس وصاحوا واشتد بكاؤهم، هذا الخليفة الذي كان يرعاهم فيسوسهم بأمر الله. قال: ثم قال ابن مسعود: إنا اجتمعنا أصحاب محمد ﷺ فأمّرنا علينا عثمان بن عفان، فأخبرهم الخبر والنتيجة.

قال عبد الله بن مسعود: لقد أحببت عمر حبًّا حتى لقد خفت الله من شدة حب عمر، خفت الله ولو أني أعلم أن كلبًا يحبه عمر لأحببته، ولوددت أني كنت خادمًا لعمر حتى أموت، ولقد وجد فقده كل شيء حتى العضاة - شجرة الشوك.

إن إسلامه كان فتحًا.

وإن هجرته كانت نصرًا.

وإن سلطانه كان رحمة.

ذلكم عمر، ومناقبه كثيرة جدًّا، وهذا شيء قليل منها.

والمقصود أيها الأخوة أن لهؤلاء حقٌّ علينا في معرفة سيرتهم، وإن هؤلاء من أراد فليقتد بهم، وإن في تذكّر هؤلاء سبب لحنين المسلم إلى أيام الخلافة، ورغبته في عدل كعدل عمر، وقد طبق الأرض اليوم الظلم والجور.

---

(١) صحيح: البخاري (٣٤٨٩) بنحوه.

فنسأل الله سبحانه وتعالى أن يعيد للإسلام عزه، وأن يقيم الخلافة في أرجاء الأرض.

اللهم ردنا إلى الإسلام ردًّا جميلًا، اللهم اجعلنا ممن أقاموا الشريعة وعملوا بها.

اللهم اجعل بلدنا هذا آمنًا مطمئنًا وسائر بلاد المسلمين في تحكيم شرعك يا رب العالمين.

اللهم ارفع الظلم عن المظلومين، اللهم انصر مَن نصر الدين، واخذل مَن خذل الدين.

✡✡✡✡✡

[٢٣] كلنا ممتحن

الحمد لله المنفرد بالبقاء والقهر، الواحد الأحد ذي العزة والستر، لا ندّ له فيبارى، ولا شريك له فيدارى، كتب الفناء على أهل هذه الدار، وجعل الجنة عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار.

قدَّر مقادير الخلائق وأقسامها، وبعث أمراضها وأسقامها، وخلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملًا، جعل للمحسنين الدرجات، وللمسيئين الدركات.

فحمدًا لك اللهم مفرج الهموم ومنفس الكروب، ومبدد الأشجان والأحزان والغموم، جعل بعد الشدة فرجًا وبعد الضر والضيق سعة ومخرجًا، لم يُخلِ محنة من منحة ولا نقمة من نعمة،ولا نكبة ورزية من هبة وعطية.

نحمده على حلو القضاء ومرّه، ونعوذ به من سطواته ومكره، ونشكره على ما أنفذ من أمره، وعلى كل حال نحمد.

ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، عدة الصابرين وسلوان المصابين، الكريم الشكور، الرحيم الغفور، المنزه عن أن يظلم أو يجور، الذي خلق السموات والأرض وجعل الظلمات والنور، ثم الذين كفروا بربهم يعدلون، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي، ويحيي الأرض بعد موتها وكذلك تخرجون.

ونشهد أن محمدًا عبده ورسوله وخيرته من خلقه وأمينه على وحيه، أعرف الخلق به، وأقومهم بخشيته، وأنصحهم لأمته وأصبرهم لحكمه، وأشكرهم على نعمه، أعلاهم عند الله منزلةً، وأعظمهم عند الله جاهًا، بعثه للإيمان مناديًا، وفي مرضاته ساعيًا، وبالمعروف آمرًا وعن المنكر ناهيًا، بلّغ رسالة ربه، وصدع بأمره، وتحمل ما لا يتحمله بشر سواء، وقام لله بالصبر حتى بلّغه رضاه، دعانا إلى الجنة وأرشدنا إلى اتباع السُّنة، وأخبر أن أعلانا منزلة أعظمنا صبرًا، مَن استرجع واحتسب مصيبته كانت له ذخرًا ومنزلة عالية وقدرًا، وكان مقتفيًا هديًا ومتبعًا أثرًا.

صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه وأزواجه وذرياته الأخيار وسلم تسليمًا كثيرًا متصلًا مستمرًا ما تعاقب الليل والنهار.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

عباد الله

الأمة تمتحن امتحانات يصنع تاريخها من خلالها، غدًا يخوض أبناؤنا وإخواننا ذكورًا وإناثًا غمار الامتحانات الدراسية، وبهذه المناسبة تجد القلوب وَجِلَة، والأذهان قلقلة، والآذان تتلقف الأخبار عن الامتحان، قلَّما تجد منزلًا لم تعلن فيه حالات الطوارئ، كل أب ينتظر بصبر وعلى مضض نتيجة ابنه في هذا الامتحان، لأنه يرجو له النجاح، تراه يدعو الله بتوفيقه وتسديده وتثبيته، يعده ويمنِّيه إن نجح، ويتوعده ويحذره ويهدده إن رسب، وهذا إحساس من الأحاسيس التي فُطِر عليها البشر.

لكن أيها الأب الحنون وقد اهتممت بابنك هذا الاهتمام، فأنت به الآن مشغول، تسعى وتصول وتجول، تهتم به وترعى، وتحس أنك عنه مسئول.

فهلَّا كان الاهتمام بآخرته كالاهتمام بدنياه؟!

هلَّا كان الاهتمام به بعد موته كالاهتمام براحته في حياته؟!

علمك وما علمك، مسئوليتك وما مسئوليتك، أحطت بعلوم الدنيا فأهملت الآخرة الباقية، شغلت به في حياته، وأهملته بعد مماته، بنيت له بيت الطين الإسمنت في دنياه، وحرمته بيت اللؤلؤ والياقوت والمرجان في أخراه.

نظرتك وما نظرتك، طموحك، أمَلُك، غاية مُناك أن يكون طبيبًا أو مهندسًا أو طيَّارًا أو عسكريًا.

ويا الله كل الأماني دنيوية!!! السعي الجد للفانية مع إهمال الباقية، هذه ليست حالة نادرة، بل قسم من الناس على ذلك.

تأهبوا واستعدوا، وعملوا على تربية أبناءهم أجسادًا وعقولًا، وأهملوا القلوب التي بها يحيون ويسعدون، أو بها يشقون.

هذا هو الواقع، والأدلة على ما نقول هاكها أيها الأب الحنون:

هب أن ابنك تأخر في نومه عن وقت الامتحان، ما حالتك؟ ما شعورك؟ ألا تسابق الزمن ليلحق الامتحان؟ ألا تنام بعدها بنصف عين لكي لا يفوته الامتحان؟

كأن الجواب يقول: بلى.

هل كان شعورك حين نام عن صلاة الفجر كشعورك حين نام عن امتحانه؟

ألا تسأله كل يوم عن امتحانه؟ ماذا عمل؟ وبماذا أجاب؟ وعسى أن يكون الجواب صحيحًا. فهل سألته عن أمر دينه يومًا ما؟

ألا يضيق صدرك ويعلو همُّك حين تعلم أن ابنك قصَّر في الإجابة؟ فهل ضاق صدرك حين قصَّر في سنن دينه وواجباته؟

ألا تأتيه بالمدرس الخصوصي إن لم يستطع تجاوز الامتحان، وتعطيه ما يريد؟ ألا تمنعه من الملاهي التي رحبت بها في بيتك من فيديو وتلفاز وصحف ومجلات لئلا تشغله عن المذاكرة والاستعداد للامتحان؟

فما عساك فاعل أيها الأب الحنون في امتحان ليس له دور ثان؟! ولا إعادة ولا حمل للمواد؟

فقط نجاح أو رسوب...

والرسوب معناه الإقامة في النار أبد الآبدين.

معناه: الخسران المبين، والعذاب المهين.

ماذا تغني عنه شهادته ومركزه وماله إذا أُتي كتابه بشماله، ثم صاح بأعلى صوته: ﴿ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ ﴿٢٥﴾ وَلَمۡ أَدۡرِ مَا حِسَابِيَهۡ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيۡتَهَا كَانَتِ ٱلۡقَاضِيَةَ ﴿٢٧﴾ مَآ أَغۡنَىٰ عَنِّي مَالِيَهۡۜ ﴿٢٨﴾ ﴾ [الحاقة: ٢٥- ٢٨]. ما أغنى عني مركزي، ما أغنى عني سلطاني، ما أغنى عني علمي الدنيوي وشهاداتي، كل ذلك هَلَك واندثر، ﴿ هَلَكَ عَنِّي سُلۡطَٰنِيَهۡ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ﴾ [الحاقة: ٢٩- ٣١].

خسارة ورسوب... وأي خسارة وأي رسوب.

تكون في الدنيا طبيبًا أو مهندسًا أو رسامًا أو مُدرسًا، أما الآخرة فمؤمن وكافر، فريقان: فريق في الجنة، وفريق في السعير.

لا نقول: اهملوا أبناءكم، ولا نقول: دعوهم، لا والله، بل نقول: إن الآخرة هي أولى بالاهتمام، وأجدر بالسعي، وأحق بالعمل.

أيها الأحبة...

مَن منكم حرص على جلب مربٍّ لابنه يعلمه القرآن ويدارسه السُّنة؟ قليلٌ مَن فعل ذلك، وليت الذي لم يفعل إذ لم يفعل جَنَّب ابنه عوامل الفساد والإفساد، لكن البعض

حَشَفًا وسوء كيل، جلب لابنه سائقًا وخادمًا وسيارة، وهيأ له بيتًا ملأه بكل الملهيات عن ذكر الله وطاعته.

مَن منكم أعطى لابنه جائزة يوم حَفِظَ جزءًا من القرآن، أو تعلم حديثًا لخير بني الإنسان ﷺ ؟ قليلٌ مَن فعل ذلك.

ونسأل الله أن يبارك في القليل، لكنَّ البعض منا يَعِد ابنه إن نجح بقضاء أمتع الأوقات على الشواطئ في أي البلاد، وما وعد ابنه مرة إن نجح بزيارة مسجد رسول الأنام ﷺ

فماذا كانت النتيجة؟ النتيجة أن نشأ نشئ منا مِن أبنائنا يعرفون بلاد الكفر أكثر مما يعرفون مكة والمدينة النبوية.

النتيجة أن اتجه شبابنا إلى الملاعب يوم نادى المنادي: حي على الصلاة، حي على الفلاح.

النتيجة أن حلّ محل المصحف مجلة، ومحل السواك سيجارة.

النتيجة أن نشأ فينا نشء كالأنعام بل هم أضل، أولئك هم الغافلون.

إن ابنًا بنيناه جسدًا حَريّ بنا أن نربي عقله وقلبه، ونهتم بحياته بعد موته.

وأول خطوة إلى ذلك: أن نصلح أنفسنا، ففي صلاحنا تكون استقامتهم ورعاية الله لهم، قال تعالى: ﴿ وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا ﴾ [الكهف: ٨٢].

وثانيها: أن نجعل التربية الإسلامية غاية وهدفًا، لا مانع من تعلُّم العلوم الدنيوية، ولكن ليس على حساب الاهتمام بالآخر؛ ﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ﴾ [القصص: ٧٧].

فيا عبد الله...

اتق الله في رعيتك، فأنت مسئول أمام الله.

اتق الله أن استأمنك الله عليهم، فتشرع لهم أبواب الفتن، من أفلام وأجهزة خبيثة عديدة، ومجلات فاتنة صفيقة.

يا عبد الله

يوم تهتم هذا الاهتمام المادي بابنك يصبح ابنك مركّزًا كل همّه في ثوبه وغطرته

ومسكنه ومأكله ومشربه وسيارته، جزاك الله خيرًا على اهتمامك به ماديًا.

لكن ماذا فعلت لتؤنسه في وحدته، إذا ما دفنته في التراب ما أنت صانع بشهادته؟ قد يرسب الآن في مادة أو مادتين، قد ينجح فيهما غدًا أو بعد غد، والمجال مفتوح للتعويض، لكن لا تعويض في الآخرة.

أعمال العمر كله تعرض الآن للتصحيح في وقت واحد، عليها لِجَان دقيقة، وسجلات وثيقة، لا تغادر صغيرة ولا كبيرة.

لجنة كالمَحكمَة، رئيس وأعضاء وشهود ومحام ومدعٍ عام.

أما الرئيس، فسبحانه وبحمده، أحكم الحاكمين، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وأما أعضاء المحكمة فملائكة الحساب، وأما الشهود فمنك وفيك، هم أعضاءك، ﴿ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النور: ٢٤].

وأما المدَّعي العام فهي الرسالة التي بلغتك من الله، عن طريق رسول الله ﷺ، وأما المحامي فهو القرآن الذي يأتي يوم القيامة حجيجًا لك أو حجيجًا عليك.

يا عبد الله...

يوم غد ليس مضمونًا، قد تسعى وتتعب وتزرع فلا تحصد، قد تدرس وتختبر فلا تدرك النتيجة، أما وقد بلغتك الرسالة فقد وجب الامتحان ووجبت النتيجة.

أيها الأب الحنون...

أدعوك إلى التأمل في وصية لقمان لابنه الذي يحبه، ويفتديه بالغالي والنفيس، هل أوصاه بدنيا؟ هل أوصاه بزخرف؟ لا، بل دعاه لما يحييه حياة طيبة، وينجيه من العذاب الأليم، نهاه أن يشرك بالله ﴿ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴾ [لقمان: ١٣]، وأخبره أن الله محيط بكل شيء لا يعجزه شيء، ودلَّه على ما ينجيه من الله، ألا هو الهرب منه إليه تبارك وتعالى، بإقامة الصلاة، بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بصبرٍ على ما يصيبه من جرَّاء ذلك، ثم يدلَّه على مكارم الأخلاق التي تسمو بها نفسه، ويعلو بها مركزه، فلا تكبُّر على الخلق، ولا ذلة مع قصد في المشية، وخفض في الصوت؛ ﴿ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ ﴾ [لقمان: ١٩].

تلك يا عبد الله جملة وصية الأب الحنون حقًّا، فهل رجعت إلى القرآن فقرأت هذه الوصايا، فعملت بهذه الوصية مع ابنك؟

هل أوصيته ببعضها أو بها جميعها؟

لا إله إلا الله، إن ديدين بعض الآباء تثبيط هِمم أبنائهم وتكسير مجاديفهم.

أقول ذلك ونحن نعيش التدريس عن كسب، إذا ما هدى الله ابن بعضهم ذعروا وهبُّوا ووصفوه بالوسواس، وسموه بالعُقَد النفسية، سخروا منه وهزءوا به، ولا أدري أيسخرون من شخصه أم من دينه الذي يحلمه ويمثله؛ ﴿ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓاْ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ﴾ [النور: ٥٠].

أهذه هي الأمانة أيها الأب، «ما من راعٍ استراعاه الله رعية فبات غاشًا لهم إلَّا حرم الله عليه رائحة الجنة» (١)

عباد الله

ولنا في سِير الأخيار عظات وعِبَر، لقد امتحنوا فنجحوا وتفوَّقوا.

فتـشبهوا بهـم إن لم تكونـوا مـثلهم إن التـــشبُّه بالكـــرام فـــلاح

ها هو عمر بن عبد العزيز عليه رحمات رب جليل، يعود يومًا بعد صلاة العشاء إلى داره - وهو خليفة المسلمين مقدرات الأمة بين يديه - يلمح بناته الصغار فيسلم عليهن كعادته، وكنّ يسارعن إلى تقبيله، لكنهن هَربن هذه المرة، وهنَّ يغطين أفواههن، فقال لزوجه: ما شأنهن؟ قالت: لم يكن لديهن ما يتعشين به سوى عدس وبصل، فكرهن أن تشم من أفواههن رائحة البصل.

فبكى وأجهش بالبكاء وهو يئن تحت وطأة المسئولية، ميزانية الأمَّة تحت يديه، يقول: يا بنياتي أينفعكن أن تتعشين أطيب الطعام والشراب وتكتسين أجمل الثياب من مال الأمة، ثم يُأمر بأبيكن إلى النار؟

قلن: لا، لا، ثم اندفعن يبكين.

فلا والله لا تسمع في البيت إلا الحنين والأنين.

لما حلَّت به سكرات الموت - عليه رحمة الله - دخل عليه مَسلمة وقال: لقد تركت أبناءك فقراء جوعى، فأوصِ بهم إليَّ أو إلى أحد من أهل بيتك، وكان مُضجعًا قال:

---

(١) متفق عليه: البخاري (٦٧٣٢)، ومسلم (٣٨٠، ٣٨١)، (٣٨٣٤).

أسندوني، ثم صرخ: والله ما منعت أبنائي حقًّا لهم، والله لن أعطيهم ما ليس لهم، أما أن أوصي بهم إليك أو إلى غيرك فلا، إن وصيَّ ووليَّ فيهم الله الذي نزَّل الكتاب وهو يتولى الصالحين، إن بنيَّ أحد رجلين، إما رجل يتقي الله فسيجعل الله له مخرجًا ويرزقه من حيث لا يحتسب، وإما رجل مكبٌّ على المعاصي فوالله لم أكن لأقويه على معصية الله.

ثم طلب جميع أولاده وهم بضعة عشر، فاجتمعوا فنظر إليهم، ثم ذرفت عيناه دموعًا حرَّى، وقال: أفديكم بنفسي أيها الفتية الذين تركتهم فقراء لا شيء له، يا بني إن أباكم خُيِّر بين أن تستغنوا ويدخل النار أو تفتقروا ويدخل الجنة، فكان أن تفتقروا ويدخل الجنة أحب إليه من أن تستغنوا ويدخل النار، إن وليَّ فيكم الله، الذي نزَّل الكتاب وهو يتولى الصالحين، ثم تلا قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَـٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾ [القصص: ٨٣].

عباد الله

كلنا في امتحان، فبين راسب وناجح، والمادة هي : لا إله إلا الله محمد رسول الله، بين عامل بمقتضاها، قائمٌ بأركانها وشروطها وواجباتها، قالها موقنًا محبًّا منقادًا مستسلمًا، صدَّقها قلبه، وعملت جوارحه بها، فهو الناجح، وأي نجاح..

وآخر قالها بلسانه، وما صدقها بالعمل، فهو الراسب المنافق.

وآخر لم ينطقها فإلى جهنم وبئس القرار.

ها هي رسالة امتحان، تأتي لصلاح الدين من أحد المسلمين على لسان المسجد الأقصى الأسير في يد الصليبيين يوم ذاك، واليهود اليوم مع الصليبيين، تقول الرسالة وهي امتحان واختبار لصلاح الدين:

يا أيها الملك الذي ... لمعالم الصلبان نكَّس
جاءت إليك ظِلامَةٌ ... تسعى من البيت المقدس
كل المساجد طُهِّرت ... وأنا على شرفي أنجَّس

قام صلاح الدين فيه يصوم نهاره، ويقوم ليله، ويشحذ هِمم الأمة الإسلامية، ويصدر أوامره ألا يضحك أحد، ولا يمزح أحد، ولا يفكر أحد إلا باسترداد بيت المقدس.

ويقودها حملة لا تبقي ولا تذر بعد استعداد جيد للامتحان، فيدمر الصليب، ويحرر

فلسطين والمسجد الأقصى، ليكون قدوة لمن يريد استعادة الأقصى السليب.

ثم ماذا بعد صلاح الدين أيها الأخوة؟ استيقظ اليهود يوم نمنا فدنَّسوه، ودخلوا إلى قبر صلاح الدين ورفسوه، وقالوا: ها قد عدنا يا صلاح الدين، فيا ليت صلاح الدين يرى المؤامرات على أقصانا، وما هدم العدو وما استباح، ليته يرى كيف بغى اليهود وكيف أحسنَّا الصياح.

إن أسئلة الامتحان التي قُدِّمت لصلاح الدين أسئلة الآن تُقدَّم لنا، لكن صلاح الدين حلَّ الأسئلة بنفسه، ونحن أحلنا حلّ الأسئلة إلى غيرنا، فكان ما كان.

سقطوا فلسطين أحلامًا منوِّمَة — وأطعموها سخيف القول والخُطَب

لكني أقول يا عباد الله... لا يأس، ولا قنوط، سَتُحلُّ الأسئلة، وستبقى طائفة على الحق لتقود الأمة ليعود الأقصى، ويعود فلسطين والعاقبة للمتقين.

لا يأس يسكننا فإن كبر الأسى — وبغي فإن يقين قلبي أكبر

في منهج الرحمن أمن مخاوفي — وإليه في ليل الشدائد نجار

وإن عرف التاريخ أوسا وخزرجًا — فلِلَّه أوس قادمون وخزرج

أيها الآباء...

وأنتم تعدون أبناءكم للامتحان اتقوا الله فيهم، اعلموا وعلموهم أن سلعة الله أغلى وأعلى.

علِّموهم أن الامتحان والنجاح بقصَر النفس على ما يرضي الله.

علِّموهم أن السعادة في تقوى الله، واعلموا أنتم أنه لن ينصرف أحد من الموقف وله عند الله مَظلمَة.

يفرح ابنك أن يجد عندك مظلمة، تفرح زوجتك أن تجد عندك مظلمة، يأتي ابنك يقف يحاجّك بين يدي الله قائلًا: يا رب سل أبي لِمَ ضيعني عن العمل لما يرضيك، ورباني كالبهيمة؟

ما يكون جوابك أيها الأب الحنون؟ أعِدَّ للسؤال جوابًا.

يا أيها الابن تيقَّظ وانتبه — وأقبل بقلب على مولاك تظفر باهتداء

قف بالباب واطلب منه فتحًا عسى تحظى به صبح امتحان

اللهم إنَّا نسألك أن تجعلنا من الفائزين الناجين يوم القُدوم عليك يا أكرم الأكرمين.

اللهم إنا نسألك التوفيق لأبنائنا وبناتنا وإخواننا وأخواتنا.

اللهم لا تضيع تعبهم، ولا تبدِّد جهدهم، اللهم ذكِّرهم ما نسوا، وعلِّمهم ما جهلوا، ووفِّقهم لخَيري الدنيا والآخرة يا أكرم الأكرمين.

أقول ما تسمعون وأستغفر الله فاستغفروه، إنه هو الغفور الرحيم.

الخطبة الثانية

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، وأشهد أن محمدًا عبد الله ورسوله، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

أما بعد:

عباد الله

هل صليت وصمت لله يا عبد الله؟ هل أطعت الله ورسوله؟ هل تحب الخير وأهله؟

هذه أسئلة، أسئلة تتردد على مسامعكم، هل تبغض الشر وأهله؟ هل تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟

هل تحب للناس ما تحب لنفسك؟ هل سلمت أعراض المسلمين من لسانك؟

هل يطمئن قلبك بذكر الله؟ هل يتعلق قلبك بالله في الشدة والرخاء؟

هل نزَّهت أذنك عن سماع ما يغضب الله؟ هل غضضت عن محارم الله؟

هل غضبت لله؟ هل أحببت في الله؟

هل أبغضت في الله؟ هل أعطيت لله ومنعت لله؟

هل استسلمت لأمر الله؟ هل استسلمت لأمره يوم يأمرك بالحجاب فحجَّبت أهل

بيتك امتثالًا لقول الله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ﴾ [الأحزاب: ٥٩].

الأسئلة كثيرة تتردد عليك صباح ومساء، إن كان الجواب بـ«نعم»، فأنت من الناجحين الفائزين بإذن رب العالمين، وإن كان الجواب بـ«لا» فعُد إلى الله ما دمت في زمن الإمهال، واندم واقلع وردّ المظالم لأهلها قبل وضع الميزان وتطاير الصحف، وعبور الصراط يوم ينسى الخليل خليله، والصاحب صاحبه، وكلّ يقول: نفسي نفسي، والرسل تقول: اللهم سلِّم سلِّم.

أيها الممتحن.. وكلنا ممتحن...

تذكر وقوفك لاستلام النتيجة، يوم يوقف العبد بين كفتي الميزان، ويوكل به ملك، فإن ثقل ميزانه نادى بصوت يسمع الخلائق: لقد سعد فلان ابن فلان سعادة لا يشقى بعدها أبدًا. ذاك هو النجاح، عندها يطرب ويفرح ويقول: ﴿ هَآؤُمُ ٱقۡرَءُواْ كِتَٰبِيَهۡ ﴾ [الحاقة: ١٩].

وإن خفَّ ميزانه نادى المَلَك بصوت يُسمع الخلائق: لقد شقي فلان ابن فلان شقاوة لا يسعد بعدها أبدًا، فذاك هو الرسول، عندها يقول: ﴿ يَٰلَيۡتَنِي لَمۡ أُوتَ كِتَٰبِيَهۡ ﴾ [الحاقة: ٢٥].

لا إله إلا الله، ما عساك فاعل يوم ينادى باسمك: يا فلان ابن فلان هلم إلى العرض على الله، قمت ولم يقم غيرك، يا لضعفك، يا لشدة خوفك، يا لخفقان قلبك يوم تقف بين يدي الملك الحق وبيديك صحيفة لا تغادر صغيرة ولا كبيرة، يا الله، يوم تقرأ صحيفتك بلسانٍ كليل وقلبٍ كسير وحياءٍ من الله العظيم.

بأي لسان تجيبه حين يسالك عن عملك القبيح؟

بأي لسان تجيب يوم يسألك يا أيها الممتحن عن عمرك فيما أفنيته، وشبابك فيما أبليته، ومالك – يا من جعلت الربا والفوائد عنوانًا له مالك – من أين اكتسبته وفيما أنفقته، وعن علمك ماذا عملت فيه؟

بأي قدم تقف غدًا بين يديه؟ بأي عين تنظر إليه؟ بأي قلب تجيب عليه؟ ما تقول له إذا قال لك: يا عبدي ما أجللتني، أما استحييت مني؟ أما راقبتني؟ استخففت نظري إليك؟ ألم أحسن إليك؟ ألم أنعم عليك؟

عندها تكاد تسقط فروة وجهك حياءً من الله، فكيف بك إن شقيت.

فيا أيها الممتحنون غدًا... وكلنا ممتحن...

لمثل هذه المواقف فأعدوا وتذكروا بامتحان الدنيا وقوفكم بين يدي المولى، إذ تعدوا وأعدوا وتزودوا وخير الزاد التقوى.

جد واتعب أيها الطالب وانصب، فوالذي نفسي بيده لن تجد طعم الراحة إلا عند أول قدم تضعها في الجنة...

فانتبه من رقدة غفلة فالعمر قليل ... واطرح سوف وحتى، فإنهم داء دخيل

أفق قد بنى الموت الذي ليس بعده ... سوى جنة أو حر نار تضرم

وتشهد أعضاء المسيء بما جنى ... كذاك على فِيهِ المهيمن يختم

فاتق الله وقصر أملا ... ليس في الدنيا خلود للمنى

ألا وصلوا وسلموا على نبينا محمد فقد أُمرتم بالصلاة عليه ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٦].

اللهم صلِّ وبارك على عبدك ورسولك محمد وأهله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

اللهم أعز الإسلام والمسلمين، اللهم أعز الإسلام والمسلمين، اللهم أعز الإسلام والمسلمين، اللهم دمر أعداء الدين.

اللهم انصر عبادك الموحدين، اللهم أصلح من في صلاحه صلاح للإسلام والمسلمين، وأهلك مَن في هلاكه صلاح للإسلام والمسلمين.

اللهم أمِّنا في في دورنا، وأصلح أئمتنا وولاة أمورنا، واجعل ولايتنا في عهد مَن خافك واتقاك واتبع رضاك برحمتك يا أرحم الراحمين.

اللهم مَن أراد الإسلام والمسلمين بسوء فاشغله بنفسه واجعل تدبيره في تدميره، واجعل الدائرة عليه، واجعل كيده في نحره، وزلزل الأرض من تحت قدميه، اللهم لا ترفع له راية، واجعله لمن خلفه آية، يا كريم يا قوي يا جبار.

اللهم برحمتك اغفر لجميع موتى المسلمين الذين شهدوا لك بالوحدانية، ولنبيك بالرسالة وماتوا على ذلك، اللهم اغفر لهم وارحمهم وعافهم واعف عنهم، وأكرم نزلهم ووسع مدخلهم واغسلهم بالثلج والماء والبرد.

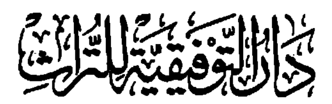
اللهم ارحمنا برحمتك إذا صرنا إلى ما صاروا إليه، اللهم آنس وحشتنا في القبور، وآمن فزعنا يوم البعث والنشور.

سبحان ربك رب العزة عما يصفون،

وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين

✪✪✪✪✪

الفهرس


دار التوفيقية للتراث

